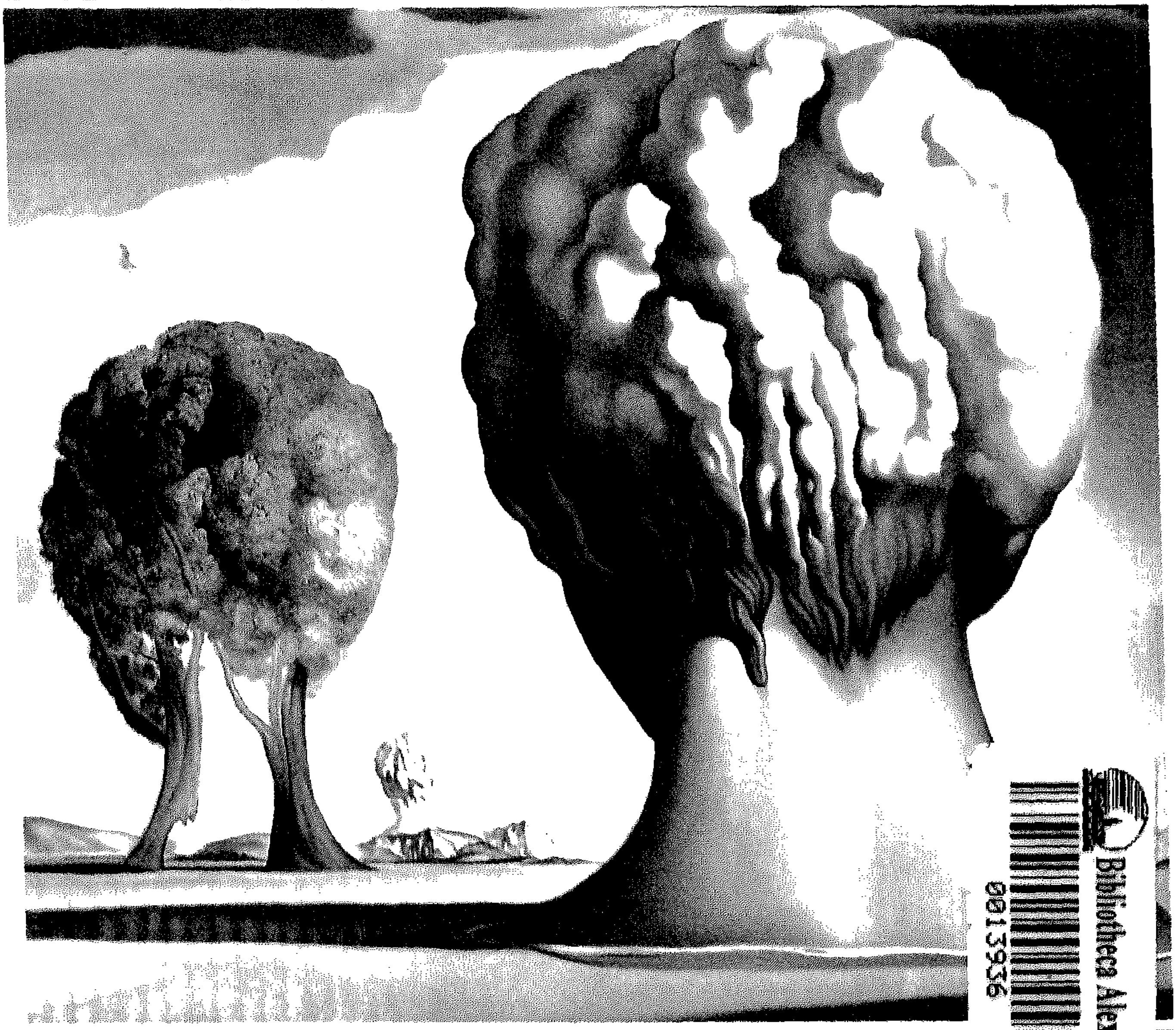
غـــادة السّـــمّان

الرّوَاية المسْتحيلة

- فسَيْفسَاء دِمَشقِيّـة -



روايــة

منشورات غادة السمان

الإهـداء

إلى وجوه لامنسية في دمشق أحببتها وحملتها داخل دورتي الدموية وطفت بها الدنيا والأزمنة، وظلّت كما عرفتها لا تهرم ولا تموت. .

وإلى وجوه في دمشق سأحبّها حين ألتقي بها.

غـــادة

أريد أن أترك قلبي كله في هذا الكتاب.
لوركا

أرسم لأتذكر وجه أمي.
شاغال

أحلامي هي حياتي الحقيقية.
أناييس نين

لا أحد يكتم السرّ جيداً كالطفل.
فيكتور هوغو

ألا يمكن لأوراقي الحلوة أن تفهم سر الماء؟

لوركا

إن حالة العبودية التي أنشأنا عليها نساءنا أتلفت مواهبهن وقضت على قدراتهن العقلية، فحياة المرأة تنقضي كما تنقضي حياة النبات.
الفيلسوف ابن رشد

لا يكتفي الرجل بأن يحتل المكان الأول تحت الشمس، بل يريد أن يبرهن أن المرأة تحتل مكاناً وسطاً بينه وبين القرود.
مانليغازا

عندي الأخطاء كلها. تلك ميزتي الأساسية.
جون أيدرن هالييه

الفصل الأول (محاولة أولى)

ذكريات وهمية

المـوت الملتبـس

لقد قتلتُها.

قتلتُها بحذق وإتقان.

قتلتُها بكل حبّ. لا تستطيع أية محكمة في الأرض أن تدينني. لا يستطيع المدّعي العام أن يقول لي: أنت أمجد الخيّال قتلت هند، أو أن يوجه لي أي اتهام. ليس بوسع أحد أن يثبت جرمي، وليس بوسعي أنا نفسي أن أفعل!

لو نهضت الآن وأعلنت جريمتي واعترفت بها وطالبت بمحاكمتي، لدافع عني القاضي قبل المحامي، ولأقنعني المحلّفون ببراءتي. فقد قتلتها بمباركة من الجميع وبمعونتهم، وها هم يحيطون بي الآن لتكريمي بحجة تأبينها، والكل يعطف الآن عليّ. يواسيني. يعزّيني.

يعلن عريف الحفل الوقوف دقيقة حداداً. أقف معهم وأنا القاتل. كانت تعرف أنني سأقتلها ذات يوم. لم تهرب. لم تعترض. تركتني أفعل. توهمتُ استسلامها لي من بعض متعتها الرومانسية القانعة بأنها كامرأة خُلقت للعذاب العذب والموت حباً ولهناءة التضحية.

ولكن خيل إليَّ وهي تحتضر أنها كانت تسخر مني وربما تنتقم. قتلي لها كان عقابها لي. . (انسحب اللون من وجهها. غابت تقلصات الألم ليحلّ مكانها استرخاءٌ لامبالٍ. فجأة، وعلى فمها ابتسامة شبه منتصرة، قالت عبارتها الأخيرة: «زنوبيا أمانة مني عندك. اعتنِ بها هي». عذّبتني عبارة «هي». . هل تعني أنني لم أعتنِ بها وعسى أن أعتني بابنتنا؟ أكانت عبارتها الأخيرة لوماً رقيقاً وحاداً مثل حد الشفرة؟ ولماذا أصرّت في لحظتها الأخيرة على تسمية ابنتنا بزنوبيا، وهو الاسم الذي اختارته لها وفضّلتُ عليه اسم زين لأنه نصف اسم زين العابدين الذي كنت قد اخترته لصبي تمنيت أن تنجبه؟ اختلج جسدها بعد ذلك وبدت وكأنها تختنق. كأنني أخنقها. لم تكن يداي تحيطان بعنقها، لكنها وهي تكافح بحثاً عن الهواء حدّقت في وجهي بعينين جاحظتين كما يحدّق المرء في قاتله، بتوسل اتهامي).

هل حدث ذلك حقاً أم أنني توهمته؟ ولماذا أوصتني خيراً بزين وحدها ولم تقل كلمة عن توأم الصبيان اللذين أنجبتهما قبل ذلك بساعات؟ عبثاً أنسى المشهد الذي يتكرر داخل رأسي باستمرار كابوساً يعذّبني وأعذّبه. (تختنق أمامي وأصابعي تتحسس قبضة يدي ربما كي أقنع نفسي بأنني لست أنا الذي يخنقها، بل إنني أخفي يديّ داخل جيبي سترتي واختناقها يستمر حتى لحظة همودها. أكاد أمزق جيبيَّ وبالرغم من ذلك أشاهد في تلك اللحظة بالذات يديَّ المحيطتين بعنقها تسترخيان قرب صدرها والدم يلطخ المخالب الطويلة لأصابعي. يمتلىء قلبي ذعراً وأناديها: هند. . أعي في ومضة كضربة صاعقة أنها لم تعد هنا. إنها هنا وليست هنا. تنطفىء نظراتها مثل مصباح كان يشع صوبي ثم استدار إلى الجهة المقابلة، إلى الداخل.

تركض زين صوب سرير أمها كمن حدس أن شيئاً استثنائياً مهولاً يدور.

تحاول عبثاً تسلقه لترى أمها. تسألني من جديد لماذا نسقيها الماء بالقطّارة نقطة نقطة، جاهلة أن هند لن تشرب بعد اليوم.

ينتزع الطبيب ملاءة السرير البيضاء من يد زين ويقول لي بالفرنسية، كأنه يزجرني: أخرج بهذه الطفلة من الغرفة.

أحاول أن أحملها ولا أجد يديّ، كأنهما لا تزالان هناك تخنقان أمها. أتحوّل إلى تمثال من حجر. الطبيب يحوم حول هند منصتاً إلى نبضها جاساً قشرتها هنا وهناك. بعد دقيقة أو دهر، غطى وجهها بالشرشف وقال ثانيةً، ولكن بما يشبه الشفقة: قلت لك أخرج بهذه الطفلة من الغرفة. تفهم زين ولا أفهم. تركض أمامي وألحق بها صوب ممشى المستشفى وهي تتحرك بجسدها الضئيل بسرعة بقعة ضوء، هشّة وسريعة الحركة في آنٍ كأمها.

أنهار مستنداً على الجدار في الممشى قرب شقيقي عبد الفتاح. تخونني ركبتاي فينزلق ظهري حتى أقرفص أرضاً.

يقول مداعباً وهو لا يدري ما يحدث: ألف مبروك توأم الصبيان، تعال نشاهدهما في الغرفة الزجاجية. يلحظ انهياري، فيضيف: لا تخف ولا تقلق عليها. النساء بسبع أرواح.

أقول بلا صوت وأنا أنتحب: لقد ماتت. . كانت بروح واحدة مثلنا وماتت. أبعدوا الصبيين عن وجهي. لا أريد أن أراهما. تحدّق بي زين بعينيها السوداوين الكبيرتين. أشعر بالذعر، إذ يخيّل إليَّ أن نظرة هند تطل منهما. ينتحب شقيقي

عبد الفتاح. عبثاً أجد صوتي لأجيبه. لا شيء سوى الخواء المرعب داخلي. يتكرر المشهد منذ بدايته. يتكرر. يتكرر).

انتهت دقيقة الوقوف حداداً. يعلن عريف الحفل التأبيني في مدرج الجامعة السورية [1] عن كلمة الخطيب الأول. نظرات التعاطف تشرنق الدكتور أمجد الخيّال بالدفء المشجع. (لماذا أنا وحيد هكذا منذ موتها؟ لقد كنت جزءاً من القطيع وسعيداً بذلك. أنصت لكلام الناس بمقدار ولا أحتقره، وأحب الآخرين وأنتمي إليهم وأفرح بمحبتهم لي. لماذا أحدّق الآن بعين باردة بكل ما يحيط بي وأعيد النظر؟

ولماذا أسمع صوت هند قادماً من قاعي ساخراً من حفل تأبينها، أنا الذي لم أنصت إليه حقاً يوم كان حياً يخاطبني؟ ولماذا أبكيها وحدها ولا أبكي التوأم، كأنني أعتبر موتهما جزءاً من عقاب غامض لي؟ ولماذا لم توصني خيراً بهما بل بزين وحدها؟ هل كانت تعرف أنهما سيموتان ويرافقانها؟ أم أنها مطمئنة إلى رعاية الجميع لهما ما داما صبيين؟ وهل تعمدت أن تتركني أقتلها كي تحقق حضورها في حياتي ولو بغيابها؟).

يحاول الدكتور أمجد الخيّال الإنصات إلى الخطيب وهو يصف وقع الكارثة عليه وفاجعة موت هند مع الصبيين التوأم اللذين ماتا بعد أمهما بساعات وهو يعدّد مزايا المرحومة، ناسباً إليها ما لم يكن فيها، ساهياً عن مزاياها الحقيقية. سمعها أمجد تقهقه. التفت إلى يمينه ولم يرها لكنه ظل يسمعها تضحك مقهقهة كمن يشاهد مسرحية هزلية هي حفل تأبينها. عطل طارىء يصيب الميكروفون. يفتح الخطيب فمه ويغلقه ولا يسمع أحد شيئاً غير صوت العاصفة التي اشتدت وصارت تلطم النوافذ بعدوانية هاذية والمطر يسيل على زجاجها منتحباً. بدت العاصفة لأمجد الخيّال أصدق تأبين لا يعرف الرياء (هل هي مصادفة أن هطل المطر اليوم وبلّل الحضور جميعاً، وها هم في القاعة ولمّا تجف ثيابهم ووجوههم، وأنا مبلل بدمعي من الداخل والخارج؟). تمّ إصلاح الميكروفون والخطيب يتابع إلقاء كلمته. يعرج فيها على أسرة الفقيدة ممتدحاً (أسمع صوت هند الساخر في أذني معلّقاً على الخطيب: ولم لا يفعل؟ إن ذلك يتيح له كسب آلاف الأصوات الانتخابية. المرحومة أنا منحدرة من أسرة كبيرة ثرية من اللاذقية، وكسب رضاها يتيح له كسب آلاف الأصوات الانتخابية. تقهقه. أسمعها تقهقه. كم هي محقّة. ها أنا للمرة الأولى ألاحظ أنه في التأبين كل واحد مشغول بنفسه وبمصالحه، بما في ذلك هذا الخطيب

(١) هكذا كان اسم جامعة دمشق يومذاك إذ كانت وقتها الجامعة الوحيدة في سورية.

وأنا لست أفضل منه. كنت مشغولاً بنفسي وببناء مستقبلي ونسيت هند ونسيت زين التي لم أغفر لها أنها جاءت بدلاً من زين العابدين، فنشأت طفلة أمها التي لا أعرف عنها شيئاً، والتي ما زلت أحاول التعارف معها، منذ قتلي لأمها..).

يغيب أمجد ويحضر. يسمع صوت الخطيب متفجعاً على هند بصوت محايد، ثم تسري فيه الحرارة حين يطنب معرّجاً عليه ممتدحاً شمائله ومزايا أسرته.. (تقهقه هند من جديد ويطغى صوتها الساخر على الأصوات الأخرى هامساً داخل رأسي: وأنت ابن الشام[1] منذ مئات الأعوام منذ حضور جد أجدادك من الحجاز مع الفتح، والخطيب يطنب كما ترى في شرح ذلك. فبوسع قبيلتك الكبيرة جداً أن تؤمّن له الكثير من الدعم القوي. كله كذب بكذب على اللحى.

ما الذي يحدث لي؟ لم أكن أفكر من قبل على هذا النحو. كانت هند هي التي تفكر بأسلوب كهذا وترى في الرثاء استعمالات دنيوية شتى لجثة المرحوم وأتشاجر معها وأقول لها لائماً: «كفاكِ فلسفة».. فهل ثمة أشخاص لا يحضرون فينا حقاً إلا بعد رحيلهم عنا فنرى العالم بعيونهم؟ منذ موتها وأنا أستعيد حياتي معها، تلك المرأة النادرة. أستعيدها لحظة إثر أخرى وأحياها بوعي خاص بالتفاصيل، أما حين عشتها معها فقد كنت منشغلاً بأمور أخرى.. ولم ألاحظ روعتها إلا بعدما خسرتها إلى الأبد...

أكره الندم. وأكره الاعتراف به.. ولكن ما حيلتي مع نَمْلِهِ الذي يأكل قلبي ببطء ليطول عذابي؟).

خطيب آخر على المنبر. يتحدث عن هند الكاتبة ويطريها (هذا المحتال لم يقرأ لها كلمة واحدة لكنه يبالغ في مديحه لها كما لو كانت مي زيادة.

هند المسكينة كانت تنشر باسم مستعار وكنت المعجب الأول بها. وبعد زواجنا منعتها من النشر بالحسنى تارةً وبالإلهاء أو الرفض الصريح تارةً أخرى. اضطررتها لأن تصير أديبة شفهية، لا يعرف فضلها إلا الذين عرفوا مجلسها ومَسَّهم طيبها وسحر بيانها. يا لخجلي من روحها!). يدفن وجهه بين يديه فيسقط منهما طربوشه[2] على الأرض. تلتقطه له صديقة زوجته الأديبة وداد الجالسة إلى جانبه ويشد زوجها الشاعر زكي على ذراعه مشجعاً.

---

(١) الشام: هكذا يدعو أبناء دمشق مدينتهم.

(٢) الطربوش: قبعة خمرية اللون كان الرجال يعتمرونها في ذلك الزمان.

(كان عليّ أن أكتفي بزين بعد ولادتها العسيرة لها التي هدّدت حياتها، وأعفي جسدها الهش من مهمة إنجاب صبي. ولكن لا. كان لا بد لي من صبي أو أكثر. كنت أريد زين العابدين كاملاً لا نصف ابن مثل زين! حملَت وقلت لنفسي: قليل من العذاب في الولادة يهون. لا بدّ لي من ولي عهد يكون صبياً. «الابن أفضل من الصهر، أما البنت فصفر». هكذا قال الجميع بأصواتهم وقلت مثلهم بصمتي.

رفضت فكرة الزواج من أخرى حين عرضها عليّ صديقي معتز مداعباً: ألم تسمع المثل القائل إن الرجل بحاجة إلى امرأتين واحدة «للفنطزية»[1] والرفاهية، وواحدة للذرية. قلت له ليس من عادة أسرتنا الزواج من أكثر من واحدة. آه أحبتني وخذلتها وطغت أصواتهم على صوت حبي لها. ثمة خلل جعل قدميّ لا تمشيان على إيقاع قلبي بل على إيقاع طبول تقرعها أيدٍ لامرئية لأشباح غابرة.

أحبّتني وخذلتها. غمرتني بمالها وقبلت بعضه بعجرفة وركلت البعض الآخر إكراماً لغروري و «حماشتي»[2].

وغمرتني بحبها ولم أفهمه. وخذلتها.. خذلت عقلها وموهبتها ورأسها، منشغلاً عن ذلك كله بثمار البطن.

كانت عازفة عن الزواج ريثما تجد حباً استثنائياً مع رجل استثنائي. وكنت لها كذلك، ثم تبدلتُ بعد الزواج كما قالت لي بين اللوم والسخرية: «كأي رجل شرقي»).

يهبط الخطيب عن المنبر. يصعد آخر. شاعر شاب ناشىء من أقرباء أمجد كانت تغمره بتشجيعها. (كلهم وعى جمال روحها. أما أنا فلم أعد أرى فيها إلا رحماً أريد منه أن ينجب لي صبياً. ما زلت أذكر قلقي يوم ولدت زين. لم أكن قلقاً على حياتها قدر قلقي من أن تنجب بنتاً! صارت تتوجع محمومة بعد ولادتها العسيرة، وأنا أتوجع بخيبة الأمل لأنها أنجبت لي نصف زين العابدين).

الشاعر الشاب يرثي هند بأبيات من الشعر تستدر دمع الحضور. يسمعه أمجد يقول:

نطقك الحلو.. أي نهر نبيذ   يتحدى النايات في التبيين
في حجاك الكبير دنيا بلاغات   وكنز من البيان المبين
في الثلاثين يوم لفلفك الموت   عروساً.. لم تفرحي بالسنين

(١) الفنطزية: العبارة الشامية للتفنن في الدلال.

(٢) «حماشته»: خشونة ذكورية.

أيها القبر.. نام في شقرة الرملِ   تحمّل. تحيتي وحنيني
قبرك الشاطيءُ.. كالوردة البيضاء   ملقى عبر الروابي الغين
يا ليالي السرير.. أي ليال   أنت معصوبة الحشا والجبين
ربما يشعر الجماد.. وفي الناس   صخور تمشي.. فيا للمشين
لم يك المجرم الذي يقلب العرف   فيا رُبَّ.. مجرم قانوني

يتساءل أمجد: ما الذي يعنيه هذا الشاعر العشريني بـ«المجرم القانوني»؟ يغيب ويحضر من جديد. يأتيه صوت الشاعر وهو يتابع:

أمهات يذبحن في مفرش الوضـ   ـع قرابين في سبيل جنين
وعلى الأرض ملحد ينكر الأم   ويزري بها.. فيا للبنين
اقطعي نسلهم.. فلا حملت انثى   بذرية الضلال المهين

ترن في أذني أمجد عبارة «اقطعي نسلهم»، فينصت من جديد:

لكأني بابنتي كتموها مصرعي   فهي مثل طيرٍ سجينِ
تقطع المنزل الرهيب تناديـ   ـيَ: أماه.. أين أنت.. اسمعيني
إن جسمي الصغير لا يحمل اليتـ   ـمَ فما لي يا أم - غيرُ سنينِ
كُنتِ لي ملجأي.. فيتمتني الآ   ن.. وعيش اليتيم جدُّ مهينِ

***

يأسف الشاعر لأن هند ماتت بعد جلاء الفرنسيين عن سورية(١)، ولكن لم تطل فرحتها بالجلاء بل اختطفها الموت بسرعة. تنتحب وداد إلى جانب أمجد وعشرات الحاضرات حين يشفق الشاعر في أبياته من جديد على حال زين بعد موت أمها وهي الطفلة التي لم تبلغ الخامسة من العمر، وتدمع عيون الرجال أيضاً كلما عدّد أحزان طفولتها المفجوعة. (بدأت مأساتي لحظة ولادة زين.. ما حدث ليلتها كان صفارة إنذار لم أنصت إليها. تعسّرت ولادة هند يوم أنجبتها وطلبت مني القابلة في البيت أن أحضر طبيباً. وحين جاء أمر بنقلها إلى المستشفى وقال إن الولادة تبدو عسيرة جداً، فصرت أدور يومها في غرفة الانتظار قلقاً وأنا أتساءل: هل ستنجب لي صبياً؟

لن أنسى ما حييت ليلة ولادة زين.. أذكرها دائماً بكل تفاصيلها وبكل خجل كأنني أعذّب نفسي بالخجل من ردة فعلي يومئذٍ على ولادة بنت لي.

(١) عيد الجلاء السوري: ١٧ نيسان / إبريل ١٩٤٦.

كان الليل، بل الفجر. . ما الفرق؟ الأوقات كلها صالحة دائماً للقلق والانتظار على حافة الموت. جلستُ مصلوباً على المقعد الجلدي الذي يضايقني حين يئن تحتي باستمرار كلما نهضت لأذرع الخوف جيئة وذهاباً، وعيون الجدران ترقبني بأحداق الصدأ والدهان المتعفن رطوبة، ودموع الاهتراء نصف الجافة. . جدران حية أخافتني، عليها بصمات أفراح الذين مروا بها وأتراحهم، مثل ثياب لامرئية مزقتها العواصف منشورة على طول الجدران تفوح منها روائح ما كان. . ساعات وأنا بانتظار الحكم: بنت أم صبي؟ أحد الجالسين الملتحين بدأ يقرأ آيات قرآنية وأحاديث شريفة ارتحت لها حول فضل النساء وقيمتهن، وكم هو مكروه أن يتذمر المرء إذا رزقه الله بأنثى، وراح الكل يُثني على كلامه وهو يعبث بسبحة ذات أحجار فيروزية ويتابع كلامه عن فرحة ولادة البنت.

ودخلت الممرضة قبل أن أموت قلقاً بربع الثانية، فسألتُها: هل ولدت؟ أحد زملاء الانتظار كان يأكل بشهية «عروسة بالمكدوس»[1] وقد فاحت منها رائحة الثوم وساح زيتها على أصابعه وجبّته، ورجل إفرنجي المنظر يتأمله باشمئزاز ثم يسأل الممرضة بدوره: هل ولدت؟ لم يكن بيننا ما هو مشترك غير السؤال: هل ولدت؟ بنت أم صبي؟ أجابتنا: «الحرب. . إنها الحرب. . أعلن فرنسيو الجنرال ديغول دخول لبنان لتخليصه من قبضة حكم فيشي»[2].

وخرجت بسرعة وهي لا تزال تدمدم كمن أصابه مسّ: «الحرب. . . طبيب لديه مذياع سمع الخبر. . كل يوم حرب. . أتراك ويهود وإنكليز وفرنسيون. وعساكر برؤوس وبلا رؤوس».

امتدت يد تدهن بياض عيني بالأزرق كما بقية النوافذ الكئيبة. . امتلأت معدتي بذلك الخواء المذعور. . الجوع وزمن سفر برلك. . إذا رزقني الله بابن، لا أريده أن يفتح عينيه على الحرب بعدما اكتويتُ بغصات الحرب العامة[3] والحرب الحالية. .[4].

ممرضة أخرى دخلت وبشّرت الرجل الملتحي الذي كان يحاضر عن مزايا البنات قائلة إن زوجته أنجبت صبياً. رمى بسبحته في الهواء فرحاً ونهض يقفز سعيداً

---

(١) عروسة بالمكدوس: شطيرة بالباذنجان المخلل على الطريقة السورية.

(٢) صيف ١٩٤١.

(٣) كانوا يدعون الحرب العالمية الأولى يومئذ بالحرب العامة.

(٤) الحرب الحالية: المقصود الحرب العالمية الثانية.

في أركان الغرفة وهو يرقص وقد وضع يديه على رأسه كأنه خائف من طيرانه فرحاً وهو يردد: «صبي.. صبي.. الحمد لله يا ربي إنك سميع الدعاء».

بعد دقائق أو سنوات دخلت ممرضة تسأل عني. قفزت: أنا أمجد الخيّال. وبلهجة تشبه الاعتذار قالت لي: «مبروك. ولدَتْ بالسلامة». وأضافت محاولة تلطيف النبأ: «بنّوتة حلوة».

إذاً صرت أباً لبنت! بنت وحرب معاً؟ قلت لنفسي: لا أريد أن أراها. أبعدوها عن وجهي. طفلي ليس صبياً بل بنتاً. إنه زين فقط وليس زين العابدين. إنها نصف ابن!

قالت لي هند شبه ساخرة، وهي تفتح عينيها بين إغماءة وأخرى والطبيب ما زال إلى جانبها، وبنظرة واحدة تدرك خيبتي وامتعاضي: المعذرة. في المرة القادمة سأحاول أن يكون صبياً بل «توأم صبيان». وهذه البنت سندعوها زنوبيا بدلاً من زين العابدين الذي كنت تنتظره.

هل كانت حقاً ساخرة أم معتذرة؟ لم أستطع تفسير ابتسامتها في تلك اللحظة.

قال الطبيب لي في صالون المستشفى محذّراً: لا أنصحكما بأن تكون ثمة مرة قادمة.. كانت ولادتها عسيرة جداً واضطررت إلى إجراء عملية قيصرية، ولديها أعراض بدايات حمى النفاس. ربما يكون من الأفضل أن لا تحمل ثانيةً. وأضاف جازماً: لم يعد يحق لك أن تجعلها تنجب.

تركتها تنام وجلست في الصالون بانتظار صحوها. دخل شقيقي عبد الفتاح بقامته الفارعة وشرواله[1] وطربوشه الخمري المائل قليلاً وازدادت عيناه ضيقاً، حين علم بأنها أنجبت بنتاً. دمدم قائلاً: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فلتكن مشيئته. ما يأتينا من الله مقبول».

ثم سألني بصوت مسموع: «لماذا بقيتَ هنا طوال الليل ولم تذهب لتنام؟». ورفع صوته قليلاً وهو يتابع: «النساء يلدن بنا وبدوننا». وسُرّ حين شاهد الحضور يبتسمون لوجهة نظره.

قلت هامساً: كانت ولادتها عسيرة جداً كما تعرف وهي الآن محمومة.. تابع عبد الفتاح بصوته الجهوري الذي يعلو باستمرار بثقة مطلقة بأقواله: لا تخف عليها.

(١) الشروال: الزي المحلي للرجال في ذلك الزمان.

كلهن يبالغن. . يجب أن تظل تحمل كزوجتي حتى تلد الصبيان. . سأذهب الآن لفتح «الدكان» وسأعود بعد صلاة الظهر للاطمئنان. . ابتسم الحضور وبدا عليه الفخر كعادته بالسجع في كلامه وبمقدرته العفوية على صياغته هكذا.

ترك بين يديّ رغيفاً ملفوفاً على قطعة «أريشة»[1]. لم أقدر على الأكل.

كان الصوت الذي أخمدته من قبل في صدري قد بدأ يعلو شيئاً فشيئاً. كنت أريد صبياً. هذه البنت لا أريد أن أراها، فليبعدوها عن وجهي. أعرف منطقياً كل ما هو ضد هذا الشعور لكنني أريد صبياً. بالمقابل، هل يمكن للصحة العليلة لهند ألا تصمد؟ هل يمكن أن. . . أن تموت؟

لم أجرؤ ساعتها على تصور الكلمة. . «أن تموت». . لا. . هذا غير ممكن، فالنساء بسبع أرواح كالقطط. حينما حملت هند للمرة الثانية فرحتُ، فقد تنجب صبياً وخفت على حياتها بعض الشيء وقد داخل خوفي الندم. ماذا لو كانت ولادتها الأولى العسيرة صرخة تحذير؟ أكدت لي هند أن رغبتها في إنجاب صبي لا تقل عن رغبتي. تراها كانت تضحّي بحياتها إكراماً لي؟ خوفاً مني؟ من أسرتي؟ من زواجي بثانية لإنجاب المزيد من الأولاد؟ هل كانت ككل العاشقات في الروايات التي تحبها مصممة على الموت من أجل حبيبها؟ لقد داهمتها أوجاع المخاض وهي تقرأ «غادة الكاميليا»، وإلى جانب سريرها «آلام ڤرتر» وكتاب «العبرات» للمنفلوطي. فعلامَ ألوم نفسي؟ لا. لم أقتلها.

خضنا معاً مغامرة غير مأمونة العواقب وخسرنا.

هي قامرت بحياتها وخسرت! كان عليها أن ترفض. أن تقول لا. هي المسؤولة. فلماذا أحسّ بذلك الخواء المروع لرحيلها؟ الخواء، لا الحزن أو الندم بل الخواء أولاً. لم أقتلها. هي المسؤولة. بل أنا المسؤول. لا. نعم. لا. نعم. كانت غايةً في النبل. ولم تعيّرني يوماً بأنها تفعل ذلك إكراماً لي. . . وبالرغم من أننا كنا في سن واحدة، إلا أنها عاملتني دائماً كأم طويلة البال.

وها أنا من جديد للمرة الألف بعد وفاتها أعذّب نفسي وأسترجع عبارتها الأخيرة: أعتنِ بها هي. كأنها تريد أن تقول: لا تفعل بها ما فعلته بي. انظر إلى زنوبيا، فأنت تحدق فيها ولا تبصرها. عاملها بعدالة. . . .

---

(١) أريشة: طعام سوري من مشتقات اللبن.

آه لم يكن الأمر سهلاً. ليس سهلاً أن لا يعاقب المرء بشدة طفلة مناكدة مثل زين تتسلل سراً إلى أمها المسجاة على فراش الموت ليلة دفنها في اللاذقية لتعانقها دونما وجل وتنام إلى جانبها حتى نكتشفها هناك فجراً، وتمشي في نومها على حافة السطوح والبركة، وتصرخ ليلاً مثل قط مذعور هاربة من كوابيسها، وتهرب من الحضانة وتثير جنون كل من حولها... ولولا وصية أمها لتركت جدتها وعمتها تروضانها خلال الأسابيع الماضية كبقية بنات الأسرة بالعقاب ولاسترحت.. ولكنني لم أقدر. صرت أحاول التعرّف عليها بدلاً من تطويعها وتبديلها.

أدركت أنني لم أتعارف حقاً وهند، وصلتي بروحها انقطعت ليلة عرسنا بدلاً من أن تبدأ... ولم أتعارف يوماً وابنتي على طول خمسة أعوام من عمرها الغض. ولكن زين بدأت بعد موت أمها بتبديلي وتطويعي وتربيتي وأيقظت في أعماقي جانباً أنثوياً كنت أتستر عليه. وحينما تطل من عينيها نظرة هند أرى الأشياء من جديد على ضوئها... ثمة لحظات أشعر فيها أنني أحب تلك الطفلة وأكرهها. أحبها وأخشاها. تضمّني إليها بحب بالغ، ثم تعاملني بعداء مفاجيء مزاجي أفسره على هواي واهماً أنها تنظر إليّ كما لو كنت قاتلها السابق أو قاتلها الآتي).

يستيقظ أمجد الخيّال من أفكاره على صوت الصمت. يرى صديقه الشاعر زكي زوج الأديبة وداد يصعد إلى المنبر. ينصت إليه وهو يؤبن هند بغير مألوف الكلام كما فعل الشاعر الشاب.

يدهش أمجد إذ إن الشاعر زكي يخرج على منطق القطيع والعموميات ويلومه مباشرة لأنه تركها تعيد الكرة وتحمل ثانيةً بجسدها الواهن بعدما كادت تفقد حياتها في الإنجاب الأول، ويكاد لا يصدق وهو يسمعه يقرأ مؤبّناً بصوت دامع ويخاطبه قائلاً:

فيا «أمجد الخيّال» ما لك حيلة	فلا تبك من بعد الحبيب وتجزع
عرفتك في الدنيا قنوعاً فكيف لم	تسامح بمولود وحيد وتقنع
فليتك طاوعت المعري منصفاً	فلا كنت ذا بغض ولا ذا تولع
ويا روحها فقد كنتِ جبارة العلى	ولكن - أيا لهفي - بجسم مضعضع
فطيري على الأكوان مثل حمامة	ومن فوق دوح في الفراديس فاسجعي

وانتحبت ثريا وألفت وعادلة وسلمى وأمل ووداد وسواهن من صديقات هند الأديبات، كما انتحب رف طويل من طالباتها وارتفعت أصواتهن وعلى رأسهن فيحاء ابنة شقيق أمجد المرحوم سفيان.. وتابع الشاعر زكي متحدثاً عن زين:

فمن بعد تلك الأم يضفر شعرها عناقيد لُفَّتْ في بنان وإصبع
ومن غيرها يهفو عليها بضمة تكاد من التحنان تمشي بأضلع

وعاد الشاعر يكرر:

عرفتك في الدنيا قنوعاً فكيف لم تسامح بمولود وحيد وتقنع

ارتجف أمجد وأطرق خجلاً (اللعنة على الشعراء! كيف يمكن لأحد أن يحبهم وهم مصرّون على أن يفتحوا الجرح قطبة بعد أخرى؟ وهذان الشاعران اللعينان يشيران بإصبعيهما إلى جرح لوعتي وجريمتي وندمي)...

العاصفة الخريفية الأولى لا تزال تضرب النوافذ. يرتعش أمجد برهبة (كانت هند عاصفة سجينة داخل جسد، وها قد أُطلق سراحها وها هي روحها تمطر). يهبط الشاعر عن المنبر ويصعد خطيب آخر. يمسح الحاضرون دموعهم. العاصفة تزداد هياجاً. غصن شجرة يكسر زجاج القاعة بقوة كذراع جثة تضرب غطاء التابوت من الداخل بعدما دُفنت حية. يجفل الحضور. ينتحب قلب أمجد كما لم تنتحب سماء. (ليس بإمكاني أن ألوم شقيقي. كنت أعرف بالضبط ما الذي يمكن أن يفعله عبد الفتاح إذا داهم المخاض هند وأنا مسافر في بيروت. كنت أعرف أنه سيرفض إحضار طبيب ذكر أو نقلها إليه في المستشفى وسيكتفي بقابلة الحي بعد استشارة الشيخ طه. تركتها له ورحلت. أنا المسؤول، ولعلي في قاعي لست أفضل منه كثيراً. دراستي للدكتوراه في القانون في باريس قشرة. شهاداتي قشرة. لطفي الاجتماعي قشرة. ربطة عنقي «السولكا» الباريسية وزيي الغربي قشرة. ذقني الحليقة الناعمة وشاربي «الجنتلماني» قشرة. أظافري المقلمة التي أفتح بها الباب للسيدات ليتقدمنني قشرة. نعم. أنا رجل شرقي «حمش». كنت أمقت الدكتور مريدن حين تصطحب هند إليه زين. أغار منه عليها. كان أي اتصال لها بجنس الذكور يوجعني. إنها ملكيتي الخاصة وتسامحي لا يتسع لأي اتصال لها بالجنس الآخر بمعزل عني، حتى مع طبيب ابنتنا، حتى ولو لم يكن وقتي يتسع لمرافقتها. وكم سررت بعودة الدكتورة مرغريت ماهر من فرنسا بعد التخرج وطلبت منها أن تصطحب إليها زين بحجة تشجيع النساء. أجل. لعلي في قاعي مثل شقيقي عبد الفتاح ومثل صديقي معتز المتزوج من امرأتين محجبتين تعيشان معاً. كنت أتمنى أن أغطيها بحجاب وأزرعها في خيمة تحيط بها صحراء ولا ترى سواي، وفقط حين يتسع وقتي لمشاهدتها! وكم كنت أشعر بالضيق في «منتدى سكينة» حين تتحدث هند بقول كالسحر وتغسلها العيون إعجاباً.

أعترف: كل ما قلته لها قبل زواجنا عن التضامن مع المرأة وتحريرها كان دجلاً. وكنت أسمع صوتي وأنا أكذّب في المنتدى حيث التقينا للمرة الأولى فتزداد حاجتي إلى المزيد من الكذب كأنما لأغطي ادعاءاتي بالمبالغة. وأعلنت أنني مع تحرير المرأة أسوة بالمرأة الفرنسية التي تعرفت على حياتها عن قرب في باريس أيام الدراسة. واغتبطت بي هند وزميلاتها الأديبات وسُرّت ثريا حين أكدت أن المرأة العربية أكثر حقاً في الحرية وفهماً من أية غربية، ألمانية كانت أو فرنسية. وكنت أكذّب لأرضي هند وعلى أمل امتلاكها، وكانت عصيّة على الامتلاك حتى بعد زواجي منها. ومنذ زواجنا صارت تبتعد عني بروحها كلما عرفتني بصورة أفضل، وخيّل إليَّ أنها صارت تكره أن تحبني وما بيدها حيلة.. بل تحبني وتكرهني في آنٍ. أما زين فلا تبدو لي أحياناً طفلة بل عقاباً إلهياً بوجهها المراوغ الذي لا أعرف معه هل تحبني أم تكرهني، وبتلك النظرة الغامضة في عينيها منذ وفاة هند كأن روح أمها حلّت فيها أو هكذا يخيل إليَّ ربما لأنني مثقل الضمير.

لا. هذا كله من صنع خيالي. لم أقتل أحداً، بل ماتت زوجتي في ولادتها الثانية كما تموت آلاف النساء بحمى النفاس كل عام.. وهو أمر مألوف. ومات توأم الصبيان لتعسّر الولادة. إنها مشيئة الله وهذا كل شيء..).

انتهى حفل التأبين. الوداع سريع داخل المدرج وعلى الرصيف تحت المطر. مصافحات. تشجيع لأمجد من أصحابه وكلمات بدت له مُلاكة كاللبان من فم إلى آخر (سيمضي كلٌ إلى شأنه مسرعاً مثل عصابة نصفها من اللامبالين ونصفها الآخر من القتلة، وسأبقى وحدي). يبقى مع أمجد شقيقه والدكتور مأمون ابن شقيقه المرحوم سفيان وأصدقاؤه المقرّبون يتقدمهم الصحافي معتز الذي حملت زوجته الأولى «العاقر» وأنجبت صبياً في حين لم تنجب الجديدة. وكلهم يعرض عليه البقاء معه. عبد الفتاح يمسك بذراعه فينتزعها أمجد من قبضته بجلافة ويقول إنه بحاجة إلى أن يمشي قليلاً بمفرده، مؤكداً لشقيقه أنه سيلحق به إلى البيت. يمضي لا يلوي على شيء (سأمشي طويلاً طويلاً ريثما تنام زين. لا أجرؤ حين أعود على مواجهة عينيها. تسألني باستمرار أين ذهبت أمها وهل تشاجرنا، فأقول لها إنها ذهبت إلى السماء ولا تصدقني وأصمت. لا أستطيع أن أتغنّى أمامها بسعادتي الزوجية مع أمها. كنا نتشاجر..

هند كانت تختنق في هذا البيت المزدحم بأسرتي وتدعوها «قبيلتي». وقد اشترت بيتاً واسعاً وأهدتني إياه، فرفضت الانتقال إليه وأرغمتها على تأجيره،

والإقامة معي في بيتنا الكبير مع أمي وأختي المطلّقة وأولادها، والثانية الأرملة وأولادها، وعبد الفتاح وأسرته، وفيحاء وشقيقها مأمون، قبل ذهابه إلى فرنسا للدراسة وعودته واستقلالهما في بيت، وكل من تقسو عليه الأيام من أسرتنا الكبيرة فيأتي بحثاً عن الملاذ كشقيق جدي التسعيني الذي طاب له الموت صبيحة عرسنا!

في هذا البيت الكبير كانت هند تختنق ولم أبال. جاءت من قصر والدها الشاسع ومزارعه إلى غرفة في بيت كبير ولكن تسكنه قبيلة. جاءت لتعيش معي ولتموت بي. ولم أفعل شيئاً لمساعدتها. بل كنت شبه فخور: انظروا كم تحبني. إنها تملك الملايين وترضى بالعيش معي في غرفة صغيرة في بيت واحد مع ثلاث أسر أخرى. كم أنا مهم ووسيم ومحبوب ومعبود النساء. وكم أكره الآن نفسي!).

* * *

حين غادر أمجد الخيّال مدرج الجامعة، وودّع الجميع ليمشي وحيداً، كان المطر قد صار رذاذاً منعشاً، وسكنت الريح، وفاحت رائحة التنهد من الأشجار النضرة المرحبة بلقاء أول أمطار الخريف.. وعاد دفء خجول يشع من الأرض وطلائع الذهبيات[1] فوقها ومن الفضاء وجدران المباني. كان يحدس أن شقيقه عبد الفتاح ينتظره عند المنعطف. بالرغم من عمله وحيداً في المشغل مع أربعة أنوال جاء ليحضر حفل التأبين فقد كان يحنو عليه بصفته شقيقه الأصغر سناً. ولكن أمجد شعر أنه بحاجة للانفراد بنفسه فبدّل دربه وانحدر ماشياً صوب النهر، وبدت له مآذن التكية السليمانية[2] أذرعاً عملاقة ممدودة إلى السماء في رشاقة حجرية حية ذات حركة سرية تنبض بالتضرع والنداء مثله (ساعديني أيتها السماء. إني أتعذب، قتلتها. لا. لم أقتلها). تأمل نهر بردى وهو يتحول من نهر إلى مرآة ضوئية وقد توقف الزمان قليلاً وقت المغيب. احتوى بعينيه انحناءة القباب المذهبة بالغسق وعسل الغيوم يسيل فوقها بعذوبة، وفوق جبل قاسيون و «تنابل»[3] التكية ودراويشها ومتسوليها المقيمين، وفوق الشوارع الزاخرة بالحياة والمباني والناس. شعر بشيء من العزاء كما ارتاح لمشهد بسطات الباعة التي ما كادت العاصفة تمر والمطر يتوقف، حتى عادت إلى الانتشار والتجدد. وكاد أمجد الخيّال يبتسم لبائع انتظر فيما يبدو مرور العاصفة وأعاد بسرعة نشر بضائعه على «الكراجة» وعلى الجدار من جديد

(١) الذهبيات: الاسم الشامي لأوراق الخريف ذهبية اللون.

(٢) تكية السلطان سليم.

(٣) تنابل: كسالى.

كعادة أهل مدينته في الانتظار - ريثما تمر العاصفة - ولكن في الاستمرار رغم كل شيء. تذكّر كيف كانت صرخة «عباية»[١] تعني الاختفاء بسرعة ريثما يمر الجند الفرنسيون القادمون لاعتقال أحدهم بعدما وشى به أحد أصحاب «الخط الحلو»[٢] مثلاً، وفي لحظات يتبدل وجه الزقاق والمقهى ويختفي المطلوب رأسه ورفاقه. وما تكاد عاصفة حضور الجند تمضي بجزماتهم وبنادقهم حتى يخرج «الشوام»[٣] من تحت عباءة الاختباء ويعاودون سيرتهم الأولى.

ضايق أمجد أن أوراق «الدهبيات» المكومة على الأرصفة تبللت ولم تعد تصدر ذلك الصوت المحبب إلى قلبه وهو يدوسها، كمن يقرع باباً لامرئياً بقدمه، فيرد عليه صوت أليف حنون شبيه بأغنية سرية عليه تفكيك رموزها..

ملأته المرئيات حوله بالعزاء وحنت على جراحه شجاعة الرجال البسطاء الذين يستمرون رغم كل شيء، وعناد الباعة في وجه المطر، وقوة الحياة فيهم، وأنعشه مرأى بردى المتدفق كشريان مفتوح على شرايينه، ومرأى قاسيون وهو يطل من علٍ كملاك حارس بـ«قبة السيّار» فيه و«جبل الأربعين» وحواكير الصبار و«كرسي الداية» وبقية مرابع طفولته ورفاقه فيه. انعطف أمجد يميناً ومشى بمحاذاة النهر (لا. لم أقتلها. ليس بوسعنا كرجال البقاء إلى جانب النساء لمجرد أنهن حوامل. هن يحملن ونحن نتابع ركضنا وحروبنا وصيدنا، فلماذا ألوم نفسي؟ ليلة داهمها المخاض، كنت في بيروت لضرورات عملي، كما كنت أشارك في مهمة وطنية انتدبت لها وكنت قلقاً على هند وأنا أعرف أنها على وشك الوضع ولكن ما باليد حيلة.

نجاحي في عملي كان أحد هواجسها، أنا أحد القلائل المتعلمين في أسرة عريقة من معلمي نسج البروكار ومن تجار «الحراير» أباً عن جد. أسرتنا كسدت تجارتها وحياكتها في فترة الحرب وما بعدها لأننا لم نغازل الوالي العثماني ولا ضباط الانتداب الفرنسي، وثابرنا على مناكدتهم وعلى المساهمة في تمويل الحركات الشعبية ضد أي متسلط قدر طاقتنا ورزقنا نكسبه بالاستقامة ومخافة الله. تكاثرت مهماتي في «الكتلة الوطنية» ضد الفرنسيين إلى جانب عملي كمحام، ولم يكن بوسعي ترك عملي أو إهماله لأن زوجتي حامل وعلى وشك أن تلد! ولحظة أنجزته لم

---

(١) «عباية»: أي اختفِ خلف عباءة عن أعين العدو.

(٢) «الخط الحلو»: تعبير شامي عن المخبرين والمتجسّسين على الناس وكتبة التقارير!

(٣) الشوام: أهل دمشق أو «الشام» كما يدعونها.

أذهب للسهر في «الزيتونة»[١] مع الرفاق بل قررت العودة إلى دمشق ليلاً، لأكون إلى جانب زين وأمها. إذ غمرني هاجس قلق متطير على هند. قلت لنفسي: ستكون هناك ليلاً يا رجل وهذا هو المهم. لا أدري لماذا توهمت دائماً أن الناس لا يولدون ويتعذبون أو يموتون إلا ليلاً. ولكنها كانت قد بدأت ولادتها العسيرة في الثانية بعد الظهر، وكنت قد أوصيت شقيقي بها، واستحلفته أن ينقلها إلى المستشفى فور الإشارة الأولى لأوجاع المخاض لأطمئن. وقلت له إن ولادتها العسيرة لزين جعلتني أتوجس خيفةً من الثانية، وذكرت له تحذير الطبيب. فسخر مني ومن مخاوفي قائلاً إن النساء يلدن كالقطط، ويمتن بالشيخوخة فقط، والدليل في كثرة الأرامل من النساء حولنا. لكنه وعدني قبل سفري بتحقيق رغبتي. وحين عدت ووصلت إلى دمشق ليلاً، ودخلت «زقاق الياسمين» نصف المظلم ماشياً صوب البيت الذي لا تستطيع السيارة أن تبلغ بابه لضيق الزقاق، شعرت بشيء من الراحة. هذه مملكتي وغابتي التي أعرفها وأحبها. هذه الحوانيت مغلقة الأبواب أعرف أصحابها واحداً واحداً، وهذا الجامع أعرف مأذنته وسبق لي أن رفعت عقيرتي منها بأذان الفجر قبل سفري إلى فرنسا. لا. لا يمكن أن يصيب هند مكروه في هذا المكان الودي الأليف وبين «ربعي».

ولكن في ذلك المساء الحزين بعد ولادة زين بأقل من خمسة أعوام كان الموت هو السيد. هذا ما قاله لي وجه أمي القلق الذي أرعبني. بادرتني بوران: ما كدتَ تطبق الباب حتى صارت البومة تنعق.. وبعدها بقليل بدأت هند مخاضها.. أضافت أمي باختصار وبهدوئها الأزلي: وحين نزفت هند كثيراً وعجزت «الدايات»[٢] الثلاث اللواتي استدعاهن عبد الفتاح عن توليدها، ذهبت بنفسي وأحضرت الطبيب، فنقلها فوراً إلى المستشفى لسوء حالتها وساعده عبد الفتاح في حملها.

سألتها بحرقة: لماذا لم ينقلها عبد الفتاح إلى المستشفى لحظة شعرت بآلام المخاض كما طلبت منه.

قالت أمي بلا مداورة: أنت تعرف أن شقيقك لا يريد أن يكشف على حريمنا طبيب. لقد أحضر لها أفضل «دايات» الحي، ولكنه رفض مناداة الطبيب كي لا تتعرى أمامه وأمام الأطباء في المستشفى. ذهب إلى الجامع واستشار الشيخ طه وأفتى الشيخ بذلك وقال له إنه لن يصيبها إلا ما هو مكتوب لها.

(١) حي الملاهي في بيروت ذلك الزمان.

(٢) الداية: القابلة باللهجة الشامية.

ضربتُ على رأسي بيدي. لم يكن بوسعي تبرئة نفسي تماماً من ذلك واتهام البومة التي أكد أخي فيما بعد أيضاً أنها نعقت بصورة استثنائية خلال النهار على غير عادتها.

كنت أعرف في قاعي ضمناً أن شقيقي المتزمت لن يدع طبيباً ذكراً يكشف عليها أياً كانت توصياتي له، وكنت أعرف أن الشيخ طه سيفتي بعدم جواز إحضار طبيب يكشف عليها. ومع ذلك رحلتُ، وتركت أخي ينفّذ حكمه و «حكمي»؟ فالحريم هن الحريم، وموتهن أفضل من العار. ومن العار أن يكشف عليهن رجل. والطبيب رجل. وإذا لم تنجح في الولادة بدون طبيب فهذا معناه أن إرادة الله تقضي بأن تموت في الولادة وأتزوج غيرها. صرت أُعذّب نفسي وأجلدها بالأسئلة. أما كنت أعرف أنه لن يستدعي طبيباً ولن ينقلها إلى مستشفى وسيتهم البومة بأنها مسؤولة عن موتها. لا لم أكن أعرف. نعم. لا. نعم. لا. نعم.. وفي المستشفى وجدت هند تحتضر..).

* * *

يتوقف أمجد الخيّال فوق جسر فيكتوريا طويلاً وهو يتأمل الذهب المنصهر بين ضفتي بردى وقد تبدت لعينيه أناقة خط الأفق ورشاقة المآذن. منذ مراهقته كان يجد العزاء لأحزانه في المشي على ضفة بردى أو المشي من جسر فيكتوريا حتى الشادروان، أو في التوغل في أزقة دمشق القديمة وقت الغروب حين تختفي الشمس ولا يسقط الليل. في أوقات كهذه يشعر أمجد أن المشي في الأزقة العتيقة شبيه بملامسة الأبدية أو شبيه بنزهة في حدائق الأزلية حيث العتق وجه آخر للحيوية والاستمرارية. لكنه كان لاهياً عن ذلك كله تلك الأمسية الحزينة يمشي كرجل مطارد.

خلال سنواته الطويلة في فرنسا اكتشف عاماً بعد آخر أنه يحب دمشق بجنون. لم يكن يملك ثمن بطاقة العودة كل صيف إليها كبعض رفاقه، فصار يحلم بها ويزداد شغفاً بكل ما فيها، وتولّت ذاكرته تجميل حلوها وإلغاء مرها، فصار يعشقها بجنون، ويجدها مدينة غبارها النجوم، ووردة صحراوية لا مثيل لطراوتها، وردة ذهبية معجونة بالرمل المتحجر والسحر وضوء القمر والأساطير، مدينة قادرة على أن تنسيه حتى ايڤلين. وظل يجدها مدينة رائعة حتى بعد عودته من باريس، بل ازداد حباً بها لوداعتها وصغرها ودفء قلبها قياساً إلى باريس. ولكنه في تلك الأمسية الحزينة لحفل تأبين زوجته ظل ذاهلاً معظم الوقت عن جمالها الذي طالما تأمّله بعين الذواقة

المرهف، غارقاً في قاع أحزانه. يحدّق في نهر بردى ويراه تارةً ويغيب أخرى. وقبل أن يتابع سيره همس لنفسه بلا صوت **(يتبدل من دون أن يتبدل. كما حدث لحياتي منذ موت هند. كل قطرة في دورتي الدموية تبدلت إلى جمر دون أن يبدو عليَّ من الخارج أن شيئاً تبدل).**

تابع أمجد دربه من جسر فيكتوريا صعوداً إلى محطة الحجاز وقد خلّف شارع فؤاد الأول وراءه. وعندما وصل إلى مبنى فندق «الأوريان بالاس»، لم ينعطف إلى اليمين صوب الحلبوني حيث بيت صديقه الحميم معتز، بل أدرك عجزه عن الحوار حتى معه، وتجاوز محطة الحجاز وهو يغذّ السير إلى سوق الحميدية. بدّل رأيه فجأة دونما سبب ومشى حتى ساحة المرجة كما لو ركب قطار المطر ولم يعد يعرف كيف يغادره، وكاد «الترين»(١) يدهسه وهو شارد يروح ويجيء بين مداخل سوق الخيل وسوق العتيق وسوق البحصة، فعائداً إلى المرجة راكباً «ترامواي» خواطره بين فندق «فيكتوريا» ومسرح «زهرة دمشق».

كان يداوي خيباته غالباً بالمشي طويلاً في الزحام، حيث فوران الحياة يهزم شعوره بالسجن الانفرادي داخل ذاته وبالموت اليومي للأشياء الجميلة. قفل راجعاً صوب سوق الحميدية وهناك ظلت قطرات من المطر تنحدر فوق طربوشه ووجهه من ثقوب السقف العتيق، والسوق بدت نصف خاوية من الناس وقد فاحت رائحة صرر «الأوزي»(٢) من مطعم «الأمراء»، وانزوت بوظة «بكداش» خجلة من البرد الماطر، ولكن الصبي لم يتوقف عن دقها في المدخل المشع بنداء كله إغراء لأكل «القيمق»(٣)، وما زال يهوي عليها بالمطارق الخشبية بإيقاع مثل قرعات الطبل في سيمفونية السوق.

بدأت الحوانيت تغلق أبوابها مبكراً، وثمة رجل متعب ينوء بحمل «صندوق الفرجة»(٤) على ظهره راجعاً بدماه إلى الليل والصمت. و «البويجي»(٥) يهرول بصندوق «البويا» وهو لا يلوي على شيء، والمياه تقطر منه ومن المزاريب وثقوب السقف التي تتسع عاماً بعد آخر.

---

(١) «الترين»: الترام الكهربائي باللغة العامية.

(٢) طعام دمشقي احتفالي. (٣) البوظة.

(٤) صندوق الفرجة: علبة ذات شاشة زجاجية يتلصص عبرها الأطفال على دمى متحركة تمثل غالباً بدر البدور والشاطر حسن وعنتر وعبلة وسواهم..

(٥) البويجي: منظف الأحذية في شوارع ذلك الزمان.

المتسول الأعمى في ركنه المألوف الثابت. بائع «العرقسوس» ما زال يرن بفنجانين معدنيين بين إصبعين من أصابعه وينادي على شرابه. توقف أمجد وقد جفّ ريقه رغم المطر الذي بلّله حتى قاعه وشرب كوباً وقال له البائع «هنيئاً يا بك» بلطف واساه به.

حيّا بعض العابرين باقتضاب وتظاهر بأنه لم ير بعضهم الآخر من معارفه. لم يكن بوسعه أن يمشي في أي شارع من شوارع مدينته دون أن يلتقي برفاق قدامى أو معارف، وهو أمر أسعده كثيراً بعد عودته من باريس التي كان فيها رقماً إضافياً لا أكثر. «السلامات» المتلاحقة لم تكن كافية تلك الأمسية بلسماً لجرحه الكبير (**لست بحاجة إلى عزاء. إنني بحاجة إلى الانفراد بصوت جرحي. موت هند زلزل عالمي ونظرتي إلى نفسي ومن حولي وما حولي. إني بحاجة إلى إعادة النظر في هذا العالم المرتب الذي يرتب لي شؤون حياتي وينومني إلى المدى الذي يسمح له بأن يفكر عني ويتخذ القرارات ويغتال أحب الناس إليّ بمعونتي**). . ظل يروح ويجيء، يغادر السوق ويعود إليها. دار قليلاً حول «أشلة الحميدية»(١) ثم توغل في سوق الحميدية ولم ينصت إلى وقع أقدامه على الحجارة المبتلة المزنرة بالأقمشة والبسط والعباءات والغبار، ولا إلى انحدار المطر على توتياء السقف من ثقوب النور والظلال والصمت والضجيج.

كالأصمّ مشى ومشى ثم انعطف إلى اليمين في شارع الخانات والميازين المعدنية الصفر الوهاجة. راح وجاء وانعطف فوجد نفسه في الزقاق الضيق حيث «القباقبية». صافحت نظراته القباقيب الشبراوية(٢) المصدّفة والأغباني والثياب المزركشة والشراويل العجمية والزنانير المذهبة وحقائب اليد والمصاطب الخشبية. وتابع سيره طويلاً بعدما تجاوز قبر صلاح الدين و «مأذنة الشحم» متوغلاً في أزقة المسك والعطوس والعنبر والقرفة والدكك المتآكلة وبهارات الهند والكزبراء الجافة والكمون والزنجبيل وجوزة الطيب وأطياف كالأشرعة البيض لقوارب مسافرة بالحرير وبقطرميزات بلورية فيها مواد سحرية مجففة، وصدأ الهواء المحنط والخيش المغبر يزنّرها. أزقة تزداد ضيقاً كلما ازداد توغلاً فيها.

تاه طويلاً ودار مع الدرب ثم جافاها، وراح وجاء مثل روح ضالة في أسواق العصافير والببغاوات. وفي مدخل «زقاق الياسمين» الذي يقع فيه بيته فاحت

---

(١) «الأشلة»: القشلة أو الثكنة العسكرية.

(٢) الشبراوية: التي ترتفع عن الأرض شبراً.

سيمفونية روائح البهارات، وسرّ أمجد الخيّال لأن المقهى الصغير كان على وشك أن يغلق أبوابه ولم يناده أحد للدخول، والحكواتي يتثاءب في ركنه وهو يتابع بصوت خفيض رواية حكايا كاراكوز وعواظ كأنه يستأنس بسماع صوته هو.

الدكان الكبير للبقال أبو أدهم أرخى «الغلق»[١] المعدني الصدىء وفعل مثله العطار المجاور، ولكن رائحة البهارات من دكان العطار لم تكن لتغلق أبوابها بل تفوح وتعشش في الزقاق منذ عشرات السنين وتمنحه رائحته المميزة المبهرة بعبير الياسمين التي كانت تفوح في أنف أمجد وهو طالب في باريس ويشمها داخل أحلامه فيستيقظ ودموع الحنين على وجهه. ارتاح حين لم يرَ أحداً في الزقاق لأنه لم يكن قادراً على تقبل المزيد من التعازي التي لا عزاء له فيها حقاً بل إنها تنكأ الجرح. **(كأن حفل تأبين زوجتي هو عيد نكء الجراح وإعادة فك قطب النسيان واستخراج الميت من التراب لدفنه في الذاكرة).**

لم يمش أكثر من عدة خطوات في الزقاق صوب البيت إذ أحس فجأة بالحاجة إلى أن يظل وحيداً. فبدّل رأيه وغادره من جديد نصف هارب ليتيه ثانية في الأزقة الموحلة. شعر بعيون تراقبه من خلف الخص الخشبي لهذه النافذة أو تلك. لعلهن الجارات اللواتي ارتدين الرمادي حداداً و «مكارمة» لحزن آل الخيّال ولحزنهم الخاص عليها. **(في البداية نفر أهل الحي من زوجتي هند، الثرية ابنة الأسرة الكبيرة الإقطاعية، وازدادوا نفوراً حين عرفوا أنها تريد أن تستقل معي وزين بعيداً عن «زقاق الياسمين» في بيت من الأسمنت تشتريه «على العظم»[٢] في الأحياء الجديدة كشارع أبو رمانة وسط البساتين و «آخر ما عمر الله»[٣]. وخيّرتني بين أن يكون البيت في «عين الكرش» أو «طلعة المهاجرين» أو «أبو رمانة»، لكنني كنت عاجزاً عن مغادرة بيتي العتيق ورفضت ذلك بالرغم من أن «الأكابر»[٤] بدأوا يغادرون البيوت العتيقة عسيرة التدفئة إلى أخرى حديثة في شوارع عريضة لها أرصفة نظيفة وحدائق خارجية مفتوحة على الشارع أو إلى مبانٍ تعلو كثيراً كمبنى «كسم وقباني» خلف مبنى البرلمان الذي اشترط التاجر العجمي أن تقيم فيه ابنته في بيت مستقل عن بيت حميها.**

خيّرت هند يومها بين الإقامة معي في بيت الأسرة أو العودة إلى قصر والدها

(١) الغلق: ساتر معدني يرخى على الحوانيت من الأعلى إلى الأسفل.

(٢) «على العظم»: قبل أن يتم إنجازه.

(٣) «آخر ما عمر الله»: تعبير شامي عن الأماكن النائية.

(٤) الأكابر: علية القوم.

ونسياني. فرضخت لإرادتي دونما اقتناع واشترت بيتاً في «ساحة المدفع» حيث يطلقون مدفع رمضان في بساتينه في شارع أبو رمانة ربما على أمل إقناعي بالانتقال إليه يوماً. ولكن أهل الحي الذين خافوا منها وحاكت عجائزهم القصص الكاذبة عنها أحبّوها فيما بعد، فقد كانت تساعد الكسالى من أولادهم، وتعزف عن المشاركة في حلقات الثرثرة النسائية، وتجمع الأطفال حولها لتشرف على إنجازهم لواجباتهم المدرسية، وتعلّم من يرغب منهم الفرنسية والانكليزية مع طفلتها زين التي أضحت تثرثر بهاتين اللغتين. ومنذ مجيء هند إلى الزقاق لم يرسب طفل في صفه إلا نادراً. وبالرغم من شجارها مع الجارين أبو سطام النص وأبو قعّود البساتنه لأنهما مثلنا يعلّمان الصبيان من دون البنات، ومع أبو رشيد النص الذي يرسل رشيد إلى المدرسة ويحرم شقيقته دعد منها، ورغم غضبه لأنها تحاول تعليم ابنته القراءة والكتابة «من خلف ظهره» كما فعلت ذلك مع خادمتها الصغيرة جهينة التي أحضرتها معها من اللاذقية، إلا أنه كان كسواه يحترمها ولا يذكرها بسوء بالرغم من أنها ترفض أن تتحجب كبقية نساء الحي، وتذهب كل صباح إلى عملها كأستاذة مكتفية بمنديل ملون رمزي («إيشارب»)[1] تعقصه عند منتصف رأسها وترخيه على شعرها الأسود المشع الغزير الذي قصته قصيراً نسبياً على غير المألوف ولم يرق ذلك لأحد. . وكان ذلك المنديل ينزلق غالباً عن رأسها ولا تبذل جهداً يُذكر لإعادته إلى موضعه مجاهرة بأنها مع السفور وضد الحجاب، ومع الشعر القصير «ألاغارسون»[2].

حين وصلتُ إلى المستشفى بعد عودتي البائسة تلك من بيروت واستقبال أمي لي بالنبأ الرهيب عن تلكؤ عبد الفتاح في مناداة الطبيب، قال لي الطبيب: كانت الولادة عسيرة جداً. . لقد تأخرتم كثيراً في استدعائي وفي نقلها إلى المستشفى. إنها في حال خطرة وكذلك التوأم. لقد نصحتك منذ خمس سنوات بأن لا تدع زوجتك تحمل ثانية. لم أفهم شيئاً باستثناء أنني صرت أباً لصبيين بدلاً من واحد وصار عندي من زين العابدين اثنان! ولم أفهم معنى ما قاله الطبيبُ إلا حينما شاهدت وجهها محموماً وشاحباً في آنٍ. . عينان زجاجيتان رحلت نظرتهما بعيداً، كأنها لامبالية بأوجاع الجسد، تخترقني ولا تراني. . حاولت أن أقول لها شيئاً سخيفاً مثل «مبروك صرتِ أماً لصبيين». . لكن صوتي غاص في رمال متحركة ملأت حنجرتي فجأة. في البداية لم تعرفني. . لكنها كانت تهذي باسم زين وتناديها كعادتها: زنوبيا. . وتطلب

---

(١) الإيشارب: غطاء رأس صغير.

(٢) أي «مثل الصبي»، وهي تسمية قَصَّة الشعر القصيرة يومئذ.

حضورها. . وتوجست شراً حين لم تطلب مشاهدة طفليها، كما لو كانا وهماً.

في اليوم التالي، حين جئت بزين من البيت إلى المستشفى تلبية لرغبة أمها، كان أخي وأولاده وأصدقائي كلهم يملأون غرفة الانتظار. . من الذي أوصل إليهم الخبر؟ من الصعب طرح سؤال كهذا في مدينتي. الناس تعرف وكفى. وجدتهم يثرثرون في مناخ احتفالي بتوأم الصبيان. إذاً لم تقل لهم الممرضة شيئاً عن حالة هند أمهما. . أم أنهم لا يبالون؟ أم أنهم لا يصدقون مثلي أنها قد تموت؟ تراهم لا يأخذون خبر اعتلال صحتها البالغ مأخذ الجدّ أم أنهم لا يحفلون بذلك ما دام توأم الصبيان حيين؟

قلت لهم كالمجنون: هند في حالة سيئة. قهقه عبد الفتاح: ألم أقل لك إن النساء كالقطط بسبع أرواح. . لا تخف، ستشفى كما شفيت يوم ولدت زين. .

ولكن هند كانت بروح واحدة فيما يبدو لأنها بدأت تحتضر. . وأكد الطبيب: إنها حمى النفاس. . كالمرة السابقة. . ولكنها نزفت كثيراً هذه المرة. . . قالها وحمل زين إلى غرفة هند وحث بها الخطى كأنه خشي أن ترحل قبل وصولها إليها بساقيها النحيلتين الدقيقتين ومشيتها المرتبكة وسط هذا الاحتفال الهذياني. . كنت عاجزاً عن حمل زين أو الاقتراب من هند، مثل رجل تحجّر في مدينة الأساطير وكل ما يملكه هو السرنمة والتحديق المذهول. أجلسها الطبيب على الفراش إلى جانب أمها. . إنني أرى المشهد في خيالي باستمرار وبلا رحمة ومن زوايا متعددة ربما لأعذّب نفسي باستعادته على غير نحو وصيغة. .

كانت هند تجول بعينيها عبر الوجوه والجدران، وحين جلست زين قربها، بدأت نظراتها تعود من البعيد كأن كهارب خاصة صامتة تسري بينهما. . تأملت زين أمها وهي تبتسم لها بينما بللت الممرضة شفتيها بقطرات من الماء بالقطارة. دهشت زين كثيراً لأنهم يسقون أمها بالقطارة، وتعلقت عيناها بجرح صغير في شفتها وبدت مهتمة به اهتماماً بالغاً كما لو كان وحده سبب مرض أمها وسألتها من الذي جرحها هكذا في شفتها. ابتسمت هند ومدّت يديها كما لو أنها تريد تقريب زين منها لتقبّلها، لكن اليدين سقطتا، بينما اقتربت زين من أمها كأن قوة لامرئية تحركها وتملي عليها إرادتها. فتحت هند فمها تريد أن تقول شيئاً، فألصقت زين أذنها بفم أمها الذي تحرك هامساً. . وهزت الطفلة رأسها بالإيجاب وابتسمت. . وامتلأ وجهها بطمأنينة تمنيت لو تسري عدواها إليّ وأنا أسقط ببطء في بئر من الأحزان ودوامة من الرياح الملتهبة تبتلعني. .

كنت مستسلماً لقدري حين نقلوا الجثمان إلى اللاذقية، مسقط رأس هند. سجوه في قصر والدها إلى جانب جثمان طفلينا اللذين ماتا بعد موتها بساعات ولم تُكتب لهما الحياة. أصابني نمط من الجنون الهادىء كالذي عشته حين تلقيت نبأ موت ابنيّ واحداً بعد الآخر كمن هو راضٍ بالعقاب الإلهي. وظللت مستسلماً لقدري حين عدت وزين من اللاذقية مخلّفاً نصف أسرتي في قبرها على شاطىء البحر حيث دفنت هند وابنيها في مناخ مأسوي تأملته وأنا متحجر ومنيع بموتي الخاص.. كنت أعرف أن استسلامي لقدري سيظل يشوبه الندم، وأنني سأظل دائماً أردد بيني وبين نفسي في الظلام حين أكون وحيداً: لقد قتلتها.. أو شاركت في ذلك.. أو تركتهم يرغمونني على اقتراف ذلك.. أو رضيت بأن تتركني هند أقتلها!.. قتلتها؟ لم أقتلها؟ لا أدري. لقد استسلمت لكل شيء، حتى لذلك الحب المذهل الملتبس الذي غمر به الناس هند فجأة بعد موتها.. فجأة صارت شهيدة الأدب وهي التي كانت تكتب باسم مستعار كمن يعتذر عن إثم ولم يشجعها أحد يوماً على اقتراف التوقيع باسمها.. فجأة صارت المربية والمثقفة الكبيرة، والأستاذة المستعصية على النسيان.. لكنني أعرف أنهم سينسون وسأظل وحدي أتعذب وأتذكر. وقرروا إقامة حفل تأبيني كبير لها في مدرج الجامعة، وهي التي طالما تسولت منبره لتلقي محاضرة عن تحرير المرأة.. وجوبهتْ برفضي واستنكارهم، وصمتَتْ خوفاً على عملي أنا المحامي المبتدىء وخوفاً على رزقي رغم ثرائها وعدم حاجتها لدريهماتي المعدودة قياساً إلى إيراداتها. في حفل التأبين قبل ساعة كانت هند تهمس في أذنيَ طوال الوقت وهي تقهقه: ألم تلاحظ المهزلة؟ ألم تتعب معهم من تمجيد الموت بدلاً من بذل جهد للحفاظ على الحياة وعلى زين؟).

* * *

يمشي أمجد طويلاً وهو يهيم على وجهه. يجد نفسه يهرول في سوق «اتفضلي يا ست» مع خواطره ثم في «البحصة الجوانية»، ويمشي منها صوب شارع جمال باشا. يغيب في «باب الجابية» ويصحو في «السكرية»، ويغرق في «الشاغور» حيث جامع الخضيرية، ويصحو في «الميدان» عند خط «الترين»، ويمشي إلى «السويقة» و«باب مصلى» و«الشيخ عثمان»، ويغيب ويحضر فيجد نفسه في أزقة تأكل من قدميه، ويتقاذفه «مكتب عنبر» حيث مدرسة طفولته و«المكتبة الظاهرية» حيث صباه.. ثم يغلبه الإرهاق وهو يصحو في «سوق ساروجة» و«حارة الورد» و«الشالة» و«السمانة» و«العقيبة» و«مز القصب» كأنه يستمد القوة من روح أجداده الذين تعاقبوا

على هذه الأماكن على مرّ العصور وهو يتذكر أن تحت هذه الشوارع ترقد مدينة رومانية وتحتها مدينة آرامية وأنه يتسكع عبر الأزمان في الشام..

حين كاد ينهار تعباً ولّى وجهه شطر البيت في أزقة معتمة.. (**ما زلت أذكر أسلوبها في تحريك يديها وتمشيطها لشعرها، ومشيتها في ثوبها المنزلي الحريري الطويل عريض الأكمام.. كل ذلك بكثير من الرقة المنسابة في نعومة مخملية حين تقدم لي فنجان الشاي المسائي، ويستحيل العبير سرّاً مغلقاً، وهي نقطة ضوء مشعة تتحرك بين انحناءات الأقواس وخطوط الشرفات المتقاطعة مع الأعمدة كإيقاع لتلك الموسيقى الملموسة التي تتصاعد من الغبار المضيء لأركان بيتي إلى الأثير وتحوّله من غبار إلى حلم ومن جدران إلى خرافة**).

شعر بأنه يكاد ينهار. مر به العربجي وهو يصدر صوتاً مروعاً بالزمور الأسود المطاطي. أشار إليه بيده ليقلّه، لكن الرجل لسع حصانيه بالسوط وتابع ابتعاده كأنه حوذي الوهم، أو إحدى أحجيات دمشق التي تركها الزمن على مداخل المدينة كسلوك أهلها ورموز أبوابها الأثرية الخفية التي تبثّ في الروح بهجة العيش والطمأنينة حيناً والرهبة أحياناً. مشى ومشى كأنه انفصل عن الزمن ليخْلِص لنزوة الحزن المقطر، وهام هيام طائرة تريد الهبوط على نجمة بعيدة بلا ذكريات.

حين أقلّت عربة أمجد الخيّال ثانيةً إلى قرب مدخل «زقاق الياسمين» حيث يقيم كان الظلام مهيمناً. ترجل ومشى. هاجمت وجهه أصوات عرس الجيران في مطلعه وعزف العود والنقر على «الدربكة» وكانوا قد أجّلوه طويلاً إكراماً له ولحزنه (**إنها الحياة. فرح وحزن على سطح واحد وعليَّ أن أتابع المشي**). سقطت قدمه في بركة موحلة وهوى طربوشه عن رأسه في أخرى فانحنى ليرفعه ثم لا يدري لماذا تركه وتابع مشيه، وكان صوت المزاريب قد تحوّل إلى نقر قطرات من الماء تتساقط أحياناً على جبينه ورأسه نصف الأصلع وقامته الأقرب إلى الطول، وتعلو كلما خفتت أصوات العرس خلفه. مشى في الطين وخيّل إليه أنه سيتابع هذه المسيرة المحزنة الموحلة بقية عمره، لا ريثما يقطع الممر الروماني الضيق لزقاق الياسمين بأقواسه الحجرية حتى يصل إلى باب بيته الذي يتوسطه. مشي والزقاق ينفرج على فسحات تشع ببعض النور ولا يلبث أن يضيق كالمتاهة الغامضة حين يصل إلى باب بيته.

شبح في البيت الكبير

توقف أمجد الخيّال أمام الباب الخشبي الكبير لبيته المحفور بنقوش تتكاثف عند طرفه الأعلى المقوّس، المطروق بالنحاس، والذي ينفتح في أسفله باب آخر صغير يكفي لمرور شخص واحد. تذكر بحزن أن الباب الكبير الذي لا يفتح بأكمله إلا في الأعراس والجنازات، فتح مؤخراً يوم خروج نعش هند والتوأم منه إلى اللاذقية للدفن، وأيام التعزية بها..

مد يده وقرع الباب بالمدقة النحاسية فلسعته وكان لها شكل رأس لبوة، بدت حية وباردة ومكهربة تلك الليلة كأن البيت العتيق يناصبه العداء وكأن له روحاً كأي كائن حي آخر. لم يفتح الباب أحد. دهش. لم يكن يحمل مفتاحاً لبيته ولم يخطر بباله ذلك يوماً لأنه لا يمكن للبيت الكبير أن يخلو من عشرات الناس طوال أوقات الليل والنهار فهو أشبه بمضرب قبيلة منه ببيت. بل إنه ليس واثقاً من أن القفل الصدىء صالح للاستعمال. (لعل البيت لم يخل ممن يفتح الباب منذ تشييده قبل قرون وربما لذلك كانت هند تريد الإقامة في بيت مستقل. لم تكن تكره الساكنين والحي كما تبيّن للجميع فيما بعد، ولم تكن لتمقت أقواس الإيوان وأعمدته والخطوط المضيئة الأفقية والشاقولية حول صحنه وطينه وحجره ومداميكه وبركته وأشجاره والأقواس فوق أبوابه الشبيهة بقباب رمزية تنحني لله. لكنها كانت بحاجة إلى شيء من الحرية الفردية والخصوصية التي ألفتها في قصر والدها ومزارعه وعلى ظهر خيله التي أتقنت ركوبها. كانت تريد أن تخلو إلى نفسها وهو أمر لا محل له في البيت الكبير، لا في غرفة الزخارف الرخامية حيث تحاول أن تكتب فتهاجمها الجارات، ولا في غرفة الاستقبال بجدرانها المطعمة بالفريسك والمشقّف والمجزّع والقاشاني بعروقه النباتية وأزهاره وزرقته الخضراء المغطاة بطبقة زجاجية شفافة.. لم يكن بوسع أوراقها الخاصة ومذكراتها أن تكون في مأمن في «اليوك»[1]. ولا بوسعها أن تخلد إلى نفسها حتى في بيت الخلاء حيث لا بدّ وأن يقطع الخلوة طارق يريد احتلال الحمام.. كل شيء ظل يشي بها وبمرورها في هذا البيت: الفسقية الرخامية المرتفعة والمطعمة بالفسيفساء وخرير مائها في قاعة الضيافة والماء الذي يسيل على جدار السلسبيل. سقف القاعة الكبرى وعصافير الإيوان. كل شيء يشي بها، كل من شاهدها وعرفها من بشر وحجر. لقد تعبت من البيت الكبير الذي

(١) «اليوك»: خزانة في الجدار بلا باب.

أحبها وأحبته ربما لأن كل شيء فيه مشاع. لقد تعبت من البناء الطيني والحجري بلبنه ودرابزينه الحديدي المزخرف ومشربياته وغسيله المنشور وصدأ حديده وخصّه الخشبي الخاص بالمراقبة وسطوحه البوّاحة بالشجار والهموم، والأفراح والأطفال، والديون، والسهر، وحتى تنهدات النساء في المخادع مغلقة الأبواب مشرّعة النوافذ.. تعبت لأن كل ذلك مشاع كما في مضرب قبيلة ولا مكان في البيت الكبير للخصوصيات. فهو وحده الباقي وكل شيء آخر عابر بما فيه هند).

عاد يقرع الباب. لم يجب أحد. وقف ذاهلاً لا يدري ماذا يفعل، منهكاً عاجزاً عن المشي ولو خطوة واحدة وعاجزاً عن فتحه من الخارج (كأن قدر أبواب بيوت دمشق أن تكون كالقلوب لا تنفتح إلا من الداخل). انشق الباب واستقبلته أمه بحرارة وبالتعبير المألوف: «يا تقبرني»[1]. لماذا لم تعد مع أخيك؟ لقد انتظرك ومعه مأمون وفيحاء عند المفرق وأضاعك (نعم. أضاعني حقاً وضيّعني في آنٍ). هكذا قال بلا صوت وأجابها كاذباً: فتشت عنه ولم أجده. شاهد في الضوء الشاحب للمشكاة المتدلية من السقف جهينة وقد وقفت خلف أمه. جهينة، الخادمة التي أحضرتها هند معها بعدما «اشترتها» من قرية قريبة من اللاذقية. لاحظ للمرة الأولى أنها كبرت كثيراً. لاحظ عينيها المتورمتين من البكاء. أدرك أنهم أحيوا ذكرى هند في البيت أيضاً. أما والدته فليست من أهل البكاء. تبدو له أحياناً شابة صغيرة تقاربه سناً ـ وهي التي أنجبت ابنها البكر سفيان ولم يكن عمرها يومئذ ليزيد على خمسة عشر عاماً ـ وتبدو له حيناً آخر عجوزاً دهرية عمرها آلاف الأعوام: خمسة آلاف عام على الأقل.. بل أكثر بكثير.. فقد مرّ بها نوح حين حطت سفينته فوق جبل قاسيون، وعرفت قابيل وهابيل قبل إسكندر المقدوني ويوحنا المعمدان وصلاح الدين وتيمورلنك وعشرات سواهم، وهي مستمرة في السراء كما في الضراء صلبة ومغروسة في مكانها كأنها المرأة الأولى في التاريخ التي عرفت معنى الاستقرار في مكان واحد. ولعل هذا الالتصاق بالمكان هو الذي قوّاها وأعطاها بعضاً من بركة العناصر الأولى: الماء والتراب والهواء والنار... واللطف! يوم سفره إلى باريس للدراسة خافت عليه من الاستيطان هناك وحذّرته وذكّرته أن «الحجر في محله قنطار» وأن «من غادر داره قلّ مقداره»، وهي قلما تغادر البيت إلا للعزاء بميت أو لعرس أو لسيران[2].. خلع حذاءه المبلل وجواربه ولبس خفّه المنزلي في الممشى. لقد ألف

---

(١) «يا تقبرني»: دعاء شامي المقصود به أمنية موت المتكلم قبل السامع.

(٢) السيران: نزهة عطلة نهاية الأسبوع باللهجة الشامية.

ذلك منذ طفولته: أوساخ الخارج تبقى خارج البيت. وعليه أيضاً استعمال القبقاب المنزلي وترك الخف كلما دخل إلى بيت الخلاء في سلسلة من الطقوس التطهرية التي كاد ينساها خلال دراسته في باريس ثم عاد إليها كأنه لم يرحل. دهش حين وجد صحن الدار شبه جاف من الماء، وخرير ماء «البحرة»[١] الرخامية التي تتوسطه يتابع أنشودة المطر والبَرَكَة دونما توقف. . .

كأنما أيقظت العاصفة عبير النباتات الصيفية الخامدة، ففاحت رائحة الياسمين والريحان والورد البلدي الأبيض والزنبق والفلّ والشب الظريف[٢] وأشجار الليمون والنارنج والكبّاد المزروعة حول صحن الدار، تتخللها الخبيزة والأضاليا والطرخون «الخائن» الذي تتندر أمه بأنها تزرعه بيدها «الخضراء»[٣] في حوض فينبت في آخر. وهبّت رائحة «الياسمين العراتيلي» بالذات الذي تسلّق الجدار حتى غرفته، وكانت هند قد أحضرت شتلته بنفسها من اللاذقية مع شتلة «المجنونة» الليلكية وزرعتهما وتحداها يومها قائلاً لها إنها لن تعيش. ولكنها صمدت إلى جانب الأزهار البيض في البيت كالزنبق والفل والياسمين التي تهوى أمه زرعها. عاشت كـ«الشب الظريف» وأضاليا أخته. ورحلت هند وبقي عبيرها في الياسمين المتورد الملوّن والمدادة «المجنونة»[٤] بلونها الجميل الشرس مثل سكين تقص قلبه على حدّ الرقة.

سأل أمجد الخيال أمه: أين زين؟

أجابته: نامت.

تعجّب. عهده بزين مشاكسة منذ وفاة أمها وليس من السهل إقناعها بالنوم. تنام بعين وتصحو بأخرى. **(كيف يمكن لطفلة بعدة أسماء أن تنام؟ أمها المرحومة كانت تناديها زنوبيا. وأنا أناديها زين بدلاً من زين العابدين. جدَّتُها تناديها زينب بدلاً من زنوبيا. وعمتها بوران تناديها زنوبة. وخالتها تناديها بالفرنسية زيزي. وصديقة أمها تناديها زازو. وزوج خالتها يناديها زيزي. وزوجة عمها تناديها زينة. وجهينة تناديها زيّون، وهي ترد على النداءات كلها!).**

بدّل ثيابه المبتلة حتى عظامه وشعر بأوجاع في ساقيه وقدميه اللتين اهترأتا بالمشي. أدهشه سكون الدار غير المألوف وأدرك أن أمه بحكمتها لملمت قبيلة

---

(١) البحرة: بركة الماء المنزلية التي تتوسط صحن الدار الشامي.

(٢) الشب الظريف أو الشاب الظريف: اسم زهرة.

(٣) اليد الخضراء: التي تكبر النباتات برعايتها بغزارة استثنائية وتزدهر.

(٤) اسم نبتة متسلقة كثيفة الأوراق والأزهار.

البيت من دربه ومنعتهم من الصراخ اليومي والشجار الأليف منذ نهاية «العصرية»[١].
كانت العاصفة قد انحسرت، وشجعه الطقس الدافىء وخلو صحن الدار على الجلوس في الليوان[٢]. وكأنما أيقظ المطر الياسمين من سباته فتحوّل عطره إلى موسيقى صاخبة أسيانة تتدفق عبر الحواس كلها. صار يسمع صوت الرائحة يهدهده وغرق في أفكار سديمية غامضة. هرولت أمه تواكبها جهينة لتوضيب طعام العشاء له. سألها عن الأولاد. ادّعت كاذبة أنهم جميعاً تناولوا طعامهم باكراً ولم تقل إن كل أسرة تتناول الآن عشاءها في غرفتها، ومن تمرد فنصيبه «ديار»[٣] المطبخ أي صحن الدار الثاني الضيّق الذي ينفتح عليه المطبخ.

تربع على البساط الممدود فوق أريكة حجرية مغطاة بقبة تكسوها النقوش والمقرنصات وتحوطها المساند الملصقة بالجدار الرخامي خلفه. ولم يشعر كعادته بأنه سعيد في مملكته، بل شعر بالغربة عن كل ما يحيط به وسبق له أن أحبه وكل شيء حوله يبكي غياب هند: الأبواب الخشبية المنحوتة بزخارف إسلامية مطعمة بالنحاس المطروق التي تنفتح على «القاعة الكبرى» الخاصة بالضيافة بسقفها المرتفع كالإيوان وبقية الغرف الأرضية. الأبواب كلها تبكي وهو يقرأ بعين الذاكرة الآيات القرآنية والحكم المنقوشة عليها مثل «رأس الحكمة مخافة الله».

سمع أمجد الفسقية المرتفعة المطعمة بالفسيفساء الرخامية تبكي. الماء الذي يتفجر فيها ويسيل على جدار السلسبيل.. يسمعه عبر الباب المفتوح يبكي.. أقواس الإيوان الثلاثة تبكي.. والعمودان اللذان ينحدران منها برشاقة غزلانية حجرية استثنائية يبكيان.. بصمات الأجداد على كل شيء وأجداد أجدادهم قبل العصور تبكي.. كل ذلك العزّ العتيق المتوارث يبكي. ولا عزاء له إلا أن يعيد قراءة الحكمة على الباب الملاصق «ولا غالب إلا الله». وفي الداخل قاعة الضيافة الرخامية يحسّها تنتحب الآن بفسيفساء القلب فيها وزخارف الذاكرة. هناك قضى ليلته الأولى مع هند، ليلة عرسهما، بين الهمسات والتنهدات، وخرير ماء السلسبيل المتدفق من أعلى اللوح المرمري المسند إلى الجدار... كل ذلك يبكي الآن. تبكي الزخارف. يبكي المشقف[٤] والأبلق[٥] والعجمي[٦] والمجزع[٧]. تبكي النقوش كلها بألوانها

---

(١) العصرية: التعزية الشامية النسائية وتدور وقت العصر.
(٢) الليوان: الايوان باللهجة الشامية.
(٣) الديار: صحن الدار المكشوف.
(٤) المشقف: الزخرفة الحجرية.
(٥) الأبلق: الزخرفة الجصّية.
(٦) العجمي: الزخرفة الخشبية.
(٧) المجزع: الزخرفة الرخامية.

الزرقاء والخضراء والصفراء المغطاة بتلك الطبقة الزجاجية الشفافة كمآقي العين تبكي. كل ذلك يبكي. . المساند البروكار والكنبات المصدفة والخزانة العتيقة وتاجها المنقوش وقمقم ماء الزهر الفضي ومرآة هند ووجهها ما زال داخلها و«صدر المنقل» وصينية الفضة تحته. . كل ذلك يسمعه يبكي كما الزخارف الخشبية العجمية في سقف القاعة الكبرى. «اليوك» والكتب داخله وماء الورد ونقوش سقف الإيوان تبكي. . الماء في «البحرة» يبكي. الليل الموغل ظلمة بكل أبهته يبكي. يسمع الحجر في بيوت الشام كلها والآجر والخشب والطين والكلس تبكي. بوابات الشام كلها تنتحب الآن. بوابة الصالحية حيث تسكع وإياها عاشقين، وباب الصغير حيث دفن أجداده ورافقته لزيارة قبر شقيقه سفيان، وباب توما حيث بيت صديقتها جوزفين، وباب الجابية حيث كانا يتسوقان، وباب السلام وباب مصلى وكيسان. .

(كل تلك الأمكنة تبكي غيابها كما أبكيها. كل شيء يبكي كما يجهش السنونو في قلبي ومن جناحيه تهب رائحة اليانسون والقرفة والمشمش والتفاح والعنب والتوت والليمون والنارنج والفل والحبق والمانوليا والبنفسج و «الهرجاية»[١] وبقية روائح البيت الطليقة والمخزونة المعتقة في مطبخ يبكي مثلي ويتدلى من سقفه البصل والثوم. يبكي «بابور الكاز»[٢] و «النكاشة»[٣] وكل صغيرة في البيت وكبيرة تنتحب في أذني. تبكي الأفعى (الألفية) التي خاوتها أمي كما خاوت عفاريت البيت وجانه وملائكته. أشباح أجدادي المقيمة في البيت تبكي. الكنز العتيق المدفون تحت رخام «الديار» يبكي. ريشة الطاووس داخل المصحف تبكي، وحامله المرصع بالصدف يبكي. يبكي الدور الثاني للبيت بطينه ومداميكه الخشبية. غرفه المفتوحة على زخارف درابزين «المشرفة» والغسيل المنشور فوقها والثياب البيض للأطفال تبكي. . تبكي الحشايا المزركشة تحتي ووسائد البروكار العتيقة ودوارق الأوبالين الزرق في «أوضة»[٤] الضيوف. تبكي الخطوط حول صحن الدار بكل ما ترسمه من نوافذ وغرف. تبكي أسوارة هند بـ «مخمستها الرشادية»[٥]. يبكي خاتمها الماسي وخاتمها الآخر الذي له شكل ساعة. تبكي عباءتي الصوفية وقنبازي الحرير. القبقاب «الشبراوي» المصدف يبكي.

---

(١) الهرجاية: زهرة «البانسيه» كما يدعونها بالفرنسية، أو «لا تنسني» بالانكليزية.

(٢) بابور الكاز: أداة الطبخ في ذلك الزمان على زيت الكاز.

(٣) النكّاشة: إبرة رفيعة تساعد في إيقاد بابور الكاز.

(٤) أوضة الضيوف: غرفة الاستقبال.

(٥) ليرة ذهبية عثمانية للسلطان رشاد.

تبكي السطوح حيث كان يطيب السهر وتعزف هند على العود تارة وأنا أخرى، ويتحلق الجيران على السطوح المجاورة وتبدو دمشق مدينة شوارعها الأثير، مفتوحة للقمر والسهر والحب. سقا الله تلك السهرات على سطح البيت، فعلى «الأسطح» مدينة ثانية مكرسة لمشاركة القمر في التنهدات والسهر..

وهبتُ تنهدات قلبي لهند. كنت ابن عزّ غابر، لكنني رقيق الحال أمرّ وأسرتي بأيام صعبة. لم أكن معدماً بل ثرياً بجماعتي وحماقاتي، وجاءت هند وراحت، وبموتها «تعريت» من معظم قناعاتي، وها أنا أناصب عالمي العداء وألوم نفسي وأقرع رأسي بالجدران المنقوشة حولي ثم أغمسه في ماء «البحرة» وأختنق والنوافذ المتقاربة في الحارة تتهامس عليَّ، وعيون لامرئية تراقبني عبر الخصص الخشبية، وأنا حيوان مسكين جريح بحاجة إلى العزلة لأستجوب جرحي وأعالجه.. مذنب أم بريء؟ قتلتها بالإهمال أم كنت مجرد رجل آخر يذهب إلى عمله وصيد لقمته؟).

خيّل إلى أمجد ان البيت الكبير بأكمله قد تحوّل إلى رئة هائلة الضخامة تتنفس بكل ما يضمه صدرها من عصور وأشباح وأرواح أجداد مرّوا به وخلّفوا فيه حضورهم ودفنوا تحت ترابه كنوزهم.. رئة تتنفس بروح هند التي تحولت إلى «ستيتية»[1] بيضاء صغيرة.

يسمع أمجد رئة البيت وهي تتنفس بصوت يكاد يكون بشرياً وتبكي بنشيج دهري، في أصدائه صوت بكاء نساء خافت ممتزج بـ«الولاويل»[2] على طول عصور كأن البيت أخرج فجأة من صدره كل ما اختزنه من قهر سري، ومن بكاء نساء مررن به مكسورات الخاطر. كأن البيت قتلها وندم أو كأنه يعرف أنه هو قاتلها ويُعاديه، هو بالذات أمجد الخيّال، وصار الصوت يعلو ويكاد يصمّ أذنيه، وركضت أمام عينيه مآسٍ طالما شاهدها ولم يبصرها أو سمع بها منذ طفولته بنبرات منتحبة: لجأ هارباً من ذلك الهول كله الذي لم يعه من قبل إلى قراءة المنقوش على الأبواب حوله من حكم، مثل «قيمة كل امرىء ما يحسنه»، ومن آيات قرآنية وراح يرددها بصوت مرتفع. وقد وجد فيها الملاذ.

ما كاد يكف عن القراءة حتى عاوده إحساس غامض بأن جميع الذين مرّوا بهذا البيت خلفوا فيه بالتأكيد أشباحهم. (في بيت كهذا يبدو لي حضور الأشباح أمراً عادياً

---

(١) «ستيتية»: حمامة.

(٢) الولاويل: الاسم الشامي للبكاء الملتاع وصرخة «وِلي» ولعلها «الويل لي» مدمجة.

ونتعايش نحن الأحياء مع أمواتنا. . وها هو شبح هند ينضم إلى أشباح البيت الكبير، وتقطن معهم للمرة الأولى برضاها حمامة بيضاء. تراها فعلت ذلك حقاً أم أن شبحها يهيم الآن على شواطىء بحر اللاذقية، وفي مزارع والدها؟ هل يركب شبحها الحصان الآن في الحقول كما كانت تفعل وتطلق شعرها للريح ثم تتشاجر مساءً مع أمها لأنها خرجت بلا حجاب ولأن ركوب الحصان قد يفسد عذريتها؟ ها هي قد ماتت الآن وكأنها انتقمت مني. كأن موتها عمل موجَّه ضدي. شاهدتها للمرة الأخيرة وهي تغادر ثوب الارتجاف والخوف الذي أرغمتها على ارتدائه، وتتحرر بالموت مني ومن كل شيء وتمتطي حصانها الأبيض إلى حيث لا أدري. آه. . كيف أمحو خطواتها عن أرض «الديار» وعن صحن ذاكرتي؟).

البيت الذي تروي أحجاره تراكمات الزمن وتعاقب الثراء والفقر على أهله يتابع انتحابه على كتف أمجد الخيّال. (يبدو أنني لن أنجح يوماً في اقتلاع عريشة الياسمين العراتيلي المتورد الذي زرعته هند من شوارع وجداني، ولا نبتة «المجنونة» التي تسلقت الجدار حتى مدخل غرفتنا كأن أزهارها الأرجوانية آثار خطاها في الذاكرة. . هذه كلها ستركض أبداً داخل دورتي الدموية مع بقية عطور البيت أينما حللت. فأين المفر؟).

تناول بضع لقيمات بلا شهية زادت في شعوره بالشبع والخواء في آنٍ.

هبط شقيقه الكبير عبد الفتاح من الدور الثاني بسبحته وعينيه الآسنتين ـ كما شاهدهما أمجد ـ ترافقه زوجته فلك وبعض أولاده: لؤي وحميدة وفضيلة ومطيعة، وتشجعت شقيقته الكبرى بوران وجلست مقابله، وتسلل أولادها واحد تلو الآخر، دريد وقمر ورزان. وشيئاً فشيئاً عاودت سيمفونية الضجيج العائلي الأليف سيرتها الأولى حين تبعتهم أيضاً شقيقته الصغرى المطلّقة ماوية مع ولديها أمية وهاني، وجلست إلى جانبها فيحاء ابنة شقيقه سفيان اليتيمة وربيبة هند. في البداية كان الأولاد على قدر كبير من الهدوء ثم تصاعدت أصواتهم شيئاً فشيئاً مختلطة بصوت الماء في «البحرة».

لم يشعر أمجد الخيّال بالأنس كعادته بل بالوحشة المشوبة بالخيبة، وحين تقرّب منه دريد الذي يعتبره أباً له بعد ترمل أمه، أبعده عنه بشيء من الجفاء غير آبه بأعوامه التسعة وبالرغم من حبه ورعايته «المالية» الإضافية للأولاد كلهم ولبقية أولاد القبيلة حتى لقب بـ «أبو اليتامى».

جاءت أمه بعبير مقطّر في فنجان قهوة وثمة «قشطة» على وجهها كما يحبها.

كان يتضوع من الفنجان عبير الهال وماء الزهر إلى جانب «كباية» نظيفة شرب منها ماء بـ «المازهر»[1]، وابتلع قهوته دونما لذة وحوله ضجيج أطفال يولدون ويكبرون في غفلة منه ومن الأيام، وخرير ماء «البحرة» والفسقية وماء السلسبيل، وماء الزمن الذي لا يتوقف إكراماً لأحد في بيت عرف الفقر والغنى، والذلّ والكرامة، وتعاقبت عليه الأفراح والمصائب والفاتحون والمهزومون والأولياء والأبطال والمزوّرون والصلحاء وأصحاب الكرامات والأدعياء.. بيت يمرّ به العزّ فيترك بصماته جداراً هنا وبركة هناك، وفسقية هنا ولوحة فسيفسائية هناك.. بيت عرف رقّة الحال والغنى وكان أهله يتظاهرون دائماً بأنهم أفضل حالاً مما هم عليه. تظاهر أمجد بأنه في خير حال أمام أخته بوران التي جلست إلى جانبه متشاغلة بمعالجة حبات البن المحمصة والهال في مطحنة نحاسية تشبه أسطوانة طويلة لها ذراع تديرها بشدّة وبكل أحزانها، وأمام أمه التي أدخلت «بيضة الرتي»[2] في جورب لترفوه، وأمام جهينة التي ملأت جوف مكواة معدنية مسودة بالفحم المشتعل ووقفت تكوي له سرواله نصف المبتل..

في حوض الأزهار البيضاء الخاص بأمه، والذي لا تزرع فيه إلا الأزاهير البيض، شاهد أمجد في الظلمة وروداً سوداء وزنابق حزن رمادية تنمو بسرعة شيطانية ولا يراها سواه، والتفت إلى الساعة العتيقة الخشبية المعلقة على الجدار في غرفة الاستقبال والتي لم يسمعها تدق مرة واحدة منذ وفاة هند وفوجىء حين تفقدها بأنها تعطلت. لم تكن تبكي. توقفت وكأنها ماتت فجأة (**كم غضبت هند لأنني رفضت الاستقلال معها في البيت الذي اشترته في «ساحة المدفع» على السوكة[3]؛ كيف أغادر بيتاً من فسيفساء القلب، لا يُباع، ولا يُهجر؟ لقد كنت حياً قبل أن أعرف هند، ولي ذكريات لم تكن شريكتي فيها. حين دار دولاب الدنيا ومررنا بأزمتنا المالية بعد رحيل أبي لم تكن هند هنا. أتذكر يوم كسدت تجارتنا في حروب بلا نهاية وأصرّت أمي على أن المساعدات للثوار[4] من رفاق أخي المرحوم سفيان وعائلاتهم لا يجوز قطعها ولو قطعناها من لقمتنا. وأيدها شقيقي عبد الفتاح لكنه غضب حين قلت له إنني أريد متابعة دراستي بدلاً من مساعدته في الدكان على النول لأتعلم منه «الكار» الذي توارثناه أباً عن جد. قال لي إن منافسنا «النعسان» سيغلبنا إذا**

---

(١) المازهر: ماء زهر الليمون مقطّراً.

(٢) بيضة الرتي: بيضة خشبية لرتق الجوارب.

(٣) بيت على السوكة: بيت يتصدر تقاطع طريقين.

(٤) المقصود رجال الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧) في جبل العرب والغوطة.

لم أعمل معه في حقل تجارة الحرير على الأقل إذا كنت أكره حياكة البروكار. وقفت أمي حياة إلى جانبي وأيدتني وعملتْ «خيّاطة» كي ترسل لي نفقات دراستي إلى فرنسا متضامنة مع أخي في الإنفاق من ميراث والدنا على رفاق المرحوم أخي سفيان وولديه. لم تكن هند معي يوم سخر مني شقيقي وصار يردد ضاحكاً دروس مكتب عنبر: «أليفْ لا شن[1] عليها. ب نقطة من تحتها. ت اثنتان من فوقها. ث ثلاثة من فوقها. ماذا تريد أن تدرس أكثر».. فقلت له إن العلم شيء آخر، لا ينتهي في «الكُتّاب»[2].

حين حدث ذلك كله لم تكن هند هنا.. كما لم تكن يوم باعت أمي أساورها الذهبية واشترت لي بطاقة الباخرة.

ولم تكن هند معي في باريس يوم رضيت بممارسة أي عمل لأخفف العبء عن أمي بما في ذلك جلي الصحون في المطعم الجامعي. ثم كتبت الأطروحة الجامعية لرفيقي الثري مطاع مقابل مبلغ يعادل قسطي الجامعي، فنجح بامتياز وانهالت عليّ بعدها الطلبات من رفاقي «أولاد الأكابر» كي أقوم بكتابة الأطروحات بالنيابة عنهم، وفعلت وكسبت ما أتابع به دراستي وأخفف العبء عن أمي. لم تكن هند معي حين شعرت بالذنب لهذا الغش ولكنني تعلمت كمفلس أن أغفر لنفسي بعض التجاوزات. ولم تكن معي حين عدت وأفسح لي شقيقي مكاناً على المقعد الذي يتصدر الإيوان بالرغم من أنني الأخ الأصغر سناً منه. كانت لي حياة قبلها وستكون لي حياة بعدها. فلماذا أغرق هكذا في بحار الأسى ومسامير الحزن النحاسية تزنر أبواب قلبي الموصدة مثل صندوق هند العتيق المطروق؟).

تعالت أصوات الأهل حول أمجد الخيّال كأنهم ضجروا من طقوس الحزن وقد امتلأ بهم «الليوان»، وصحت السماء وجفت تماماً آثار الماء عن الأشجار والرخام والأزهار، وتبختر القمر راكضاً بين السحب، مشعاً كما لو استحم بالمطر. فقال أمجد لشقيقه: أريد أن أصلّي المغرب قضاء. أجابه عبد الفتاح: «سأنضم إليك ونصلّي العشاء أيضاً».

أنجز أمجد صلاته. ترك شقيقه يتابع تلاوة الأدعية وتسلل إلى حيث تنام زين ليتفقدها. تأملها نائمة وضوء القمر يشع فوقها وأذهله الشبه بينها وبين أمها. تراها نائمة حقاً أم تتظاهر بذلك كي لا تغضبه؟ غادر الغرفة عائداً إلى «المشرفة»[3] ماشياً

(١) المقصود لا شيء عليها أي لا نقطة لها.
(٢) الكُتّاب: المدرسة الابتدائية العثمانية.
(٣) الشرفة الداخلية المطلّة على صحن الدار.

على رؤوس أصابع حزنه. تناهى إليه نواح هاني الليلي وسمع بوران تقول لأختها ماوية: هاته لأقوم بـ «تكبيسه»[١] كي ينام. وتعالى صوت البومة التي تقطن فجوة مجهولة في جدار البيت أو سطحه، فقالت فلك زوجة عبد الفتاح: كل مصائبنا من هذه البومة. ناحت ليلة ولدت هند أول مرة فأنجبت بنتاً، وناحت يوم ولادتها الثانية فقتلتها والصبيين. من المؤكد أنها ناحت ليلة ولدتْ ماوية هاني فنحسته وجاء «عطيلة»[٢] وركبه الجان. إنها وراء كل مصائب البيت. لا بدّ من قتلها كي نرتاح. ولكن أين تختبىء؟ قالت بوران: زين هي السبب في موت أمها لا البومة وحدها. فلو كانت صبياً لما اضطرت هند لإعادة الكرة ولما ماتت. وأضافت قبل أن تغيب خلف الباب حاملة هاني الذي لم يتوقف عن البكاء: لو تركتموني أتعلم وأصير طبيبة لعالجتها ولما ماتت.

شعر أمجد أنه عاجز عن سماع المزيد. غادر الشرفة وتسلل هارباً من كل شيء إلى السطوح. كانت سطوح الجيران خاوية أو هكذا خيّل إليه، كأن المطر خدّر الجميع في أسرتهم. شعر بانقباض بالغ في صدره كأن قلبه يبكي. وبدأت دموع قليلة تنحدر من عينيه بهدوء في الظلام. التصق بجدار البيت الذي كان شبيهاً بسور الشام القديمة، وكل طبقة من الجدار تلخص حكاية قرن أو قرنين من الزمن. التصق به حتى صار من بعضه وهو يرتجف كتراب حي، وتأمل السطوح ذات الارتفاع الواحد والمآذن تعلوها، وخيل إليه أنه يرى في الظلمة مدينته بوضوح ببيوتها المتراكبة على أسوارها كما لو كانت امتداداً للأسوار. يرى مساجدها وخاناتها وبيمارستاناتها وتكاياها. يرى أسواقها. يهرول في «الصاغة» و«القباقبية». يهرول في «المسكية» و«مدحت باشا» و«البزورية» وأقدامه تغوص في الطين والإسفلت شيئاً فشيئاً حتى عنقه. جاءه من سطح آل العسيري المجاور صوت عزف على العود وغناء شجي خافت لشاب ميّز فيه صوت وحيدهم عيدو العسيري ينشد: «أنا هويت وانتهيت». وظلت دموعه تنهمر على خديه في قاع الظلام بصمت وهو يرتجف.

شعر بجثة الليل ثقيلة على كتفيه، وجثة القمر تجثم فوق صدره، كما جثة الحب هائلة الضخامة التي عليه الآن أن يجرجرها وحده بخجل ويدفنها في مقابر الذاكرة. فهو لم يألف البوح بمشاعره وتربى على أنه من العار أن يبكي وإلا صار موضع سخرية الأسرة كعبد الفتاح ذي الدمعة الحاضرة السخية، وها هو يبكي سراً في العتمة كمن اقترف إثماً.

---

(١) تكبيسه: قراءة بعض التعاويذ والأدعية عليه.

(٢) عَطِيلة: فيه خلل صحي أو يعاني تخلفاً عقلياً.

يرى القط هارون وقد لحق به وحام حوله قليلاً كأنما ليدرس مدى استعداده للتواصل معه. ولعله التقط كهارب إيجابية فصار يتمسح بقدميه وهو يمط جسده إلى أعلى مصدراً صوتاً ودياً غامضاً. تطلع أمجد حوله وحين تأكد له أن أحداً لا يراه، انحنى وحمل القط وضمه إليه وهو يلاطف فراءه ويرتاح إلى دفء جسده النابض حيوية وحياة ومودة. كان يداعب القط سراً دائماً ويخشى أن يضبطه أحد في لحظة ضعف معه، وراح يحدّثه بصوت هامس حتى سكن روعه، والقط يحنو عليه ويهدهده كطفل أو هكذا خيل إليه.. تناهى إليه صوت البومة التي قررت تقديم سيمفونيتها مرات تلك الليلة. خشي أن يوقظ صوتها زين. غادر قبو ظلمات قلبه على «السطوح»، ومر بغرفة زين يتفقدها ثانية. دهش حين سمع صوتها كأنها تحاور شخصاً ما. وجدها جالسة في العتمة. وحين شاهدته صمتت.

سألها: مع من كنت تتكلمين؟

أجابت مدهوشة من سؤاله: مع «الماما»[1]. ألا تراها نائمة إلى جانبي؟

حدّق ولم يرَ شيئاً. خاف عليها من هذا الحوار مع شبح وقال لها بصوت جهد وسعه كي يبدو عادياً: ولكن أمك سافرت إلى السماء.

ـ إنها لا تزال هنا. ألا تراها؟

أحسّ بحضور غامض في الغرفة، وبما يشبه نسمة تلامس عنقه كما لو كانت أصابع من أثير.

سأل زين بصوت مرتجف: ما الذي تفعله الآن؟

أجابت بدهشة: إنها تغادر الغرفة.. ألا تراها؟

سرت رعدة في جسده. صحيح أنه لم يرَ أحداً، لكن حضوراً خفياً هيمن عليه. كاد يركض حتى باب الغرفة وينادي «هند». لكنه تماسك إكراماً لزين وسألها، وقد عادت البومة إلى النحيب: هل أيقظتك البومة؟

أخذت زين تقلّد صوتها بحبور ولم تجب إلا بعدما كرر سؤاله، وهمست: بكاء هاني أيقظني وكنت عطشة.

ـ لماذا لم تنادي جدتك لتعطيك كوب ماء؟

ـ لأن الماما جاءت..

حاول تبديل الموضوع ريثما يحاورها حول رحيل أمها نهاراً وسألها: هل

---

(١) الماما: الأم.

تخافين من صوت البومة؟

قالت زين: البومة صوتها لطيف كما تقول الماما.. المهم أن تفهم كلامها!

ـ وماذا تقول البومة؟

أجابته زين بدهشة وكانت فيما بدا له تعتقد أن الناس جميعاً يعرفون الإجابة: ماما تقول إن البومة تسبّح الله مثل العصافير كلها. وأضافت بلهجة لوم مستغرب: ألم تكن تعرف ذلك مثل الماما؟

سكت.. وعى وعياً مبهماً أن شبحاً جديداً انضم بالتأكيد إلى أشباح البيت.. فعادت زين تكرر سؤالها: ألم تكن تعرف ذلك مثل الماما؟

الماما.. دوماً.. الماما! ألن يتوقف هذا الكوكب عن نكء جراحه؟ أودع أمجد زين بين ذراعي كوابيسها الكثيرة متملصاً من محاولاتها لاستدراجه إلى حوار أو إلى أن يروي لها قصة، فقد كانت تمطر داخل حنجرته قطرات كاوية ومالحة وقد غمره شعور قاس جديد عليه بأنه وحيد في هذا العالم. وحتى الألفة بينه وبين البيت القديم انكسرت وثمة مناخ من الشماتة وصقيع القلب والتنصل يكاد يحسه من الآخرين. حزنه كان عادة صحراوياً صامتاً كالكثبان والصخور ولا يدري لماذا تحوَّل تلك الليلة إلى حزن مائي ناري دامع متشح بالصمت، يأخذه إليه بلا انتحاب. شعر أن حزنه يبدله، يقلّم له أظافره ويمسح الغبار عن عينيه.

يعانق ذكراها ويضمها إليه كحبيبة أنجز قتلها فازداد ولعاً بها.

ذلك الندم الملتبس الشبيه بالشعور بالذنب. يهبط به إلى بئر معتمة بعيدة الغور في أعماقه لم يسبق له أن ارتاد منحدراتها السحيقة. وعى عجينة الخوف والهذيان والدوار التي تجتاحه للمرة الأولى كعاصفة مكهربة مخيفة وهو على حافة هاوية هادرة. لا. لم يكن قد ارتاد من قبل بحيرات الحزن كلها في قاعه.

يتذكر هند بشفافية بكماء.. فيشعر أنه يستعيد الطفولة ويكتشف الجنون. (لم **يعد في انتظاري غير الحزن).**

اشتهى أن يفقد ذاكرته. هل كان يشتهي قتلها دون أن يدري؟ (ها هي الآن **حب نهائي أبدي، غير مهدد بالفراق. حب اكتمل ولم يعد قابلاً لوداع. ها أنا أدخل في أمان موتها وتنتهي مرحلة القلق والصراع والتهديد بخسارة الحب. لم تعد الخسارة ممكنة. بالموت ربحت الحب وخسرتها. يا لصفاقة الذاكرة التي أستعيض بها عن امرأتي!.. كم أنا وحيد في هذا العالم!).**

«السيـران»

«ثوغية ثوغية يا هيا تالروه / توتب الثورايا نوروهو يلوه / يا زيناتا دونيا»...

تنشد زين لجدتها - للمرة العاشرة - ما غنّته قبل أسابيع في موكب الذكرى الأولى لعيد الجلاء مع بقية «الجراميز» و «الزهرات»[١] في العربة الخاصة بالأطفال في الموكب. تصفق لها الجدة بإعجاب وهي تستزيدها. أما والدها فيزجرها مصححاً لها: سوريا سوريا يا حياة الروح / كوكب الثريا نوره يلوح / يا زينة الدنيا يا شمس البلاد / أحييت شعوراً.. انتبهي إلى لفظ «سوريا» وليس «ثوغية». يذكر بغصّة أنه كان يلتفت إلى أمها كلما أخطأت في لفظ الحروف العربية معاتباً: هند خانم[٢]. هل يعجبك أن تجهل ابنتك وهي تكاد تبلغ الخامسة من عمرها كيف تنطق الحاء والشين؟ قبل أن تعلّميها المزيد من الفرنسية والإنكليزية علّميها بعض الآيات القرآنية ليستقيم نطقها. شعر بالحنان على تلك الطفلة (ولدتْ في الحرب. تعمدت أذناها بقصف الفرنسيين لدمشق والبرلمان منذ حوالي عامين. انكسر قلبها بموت أمها أكثر مما غمرته أفراح الجلاء).

تتجاهله زين وتغني من جديد لجدتها المبهورة بها: «ثوغية ثوغية ياهيا تالروه». تصفق الجدة بإعجاب بالغ لحفيدتها المفضّلة وهو إعجاب تغمرها به كل لحظة حتى حين تكسر «حُقْ»[٣] الماء كلما أصرت على مرافقة جهينة لملئه من «الفيجة»[٤]. حين تكرر زين «ثوغية» بدلاً من «سوريا» ينتاب أمجد الخَيّال الغضب فجأة. صحيح أنه درس في الكتّاب «أليف لا شن عليها» وزين تتعلم في البعثة العلمانية الفرنسية (اللاييك)، حيث كانت تعمل أمها أستاذة للفرنسية، لكن ذلك لا يبرر جهلها بحروف الحاء والشين والضاض والراء. لا، إن ذلك لا يطاق. صحيح أنه يلثغ بحرف الراء حين يتكلم الفرنسية لكنه حفظ القرآن غيباً في «الكتّاب» قبل ذلك، ويلفظ الراء باللغة العربية لا بالفرنسية. منذ عام كانت كل غلطة في اللفظ تقترفها زين مشروعاً لشجار زوجي مع هند، أما اليوم فعليه أن يزجرها بنفسه ويلعب

(١) «الجراميز» و «الزهرات»: أسماء كشفية للأطفال المبتدئين.

(٢) خانم: لقب شامي للسيدات.

(٣) حُقّ: الجرة المنزلية الشامية.

(٤) الفيجة: سبيل معدني منتشر في أزقة دمشق كان يملأ منه الناس الماء الخاص بالشرب لبيوتهم، أو يقف العابر ويشرب منه بيده وقد انحنى فوقه.

دور الأم والأب مع طفلة عنيدة لا تطاق مثلها. تصاعد غضبه، لكن صوت بردى المتدفق على بعد خطوات منه كالضوء المائي الشفاف الحي صار ينسكب برداً وسلاماً على غضبته العابرة الآنية.. فهو كما تصفه أمه مثل الحليب يفور بسرعة ويهدأ بسرعة. انتقل من جديد إلى النقيض وشعر ثانيةً بما يشبه الشفقة على زين الأقل دلالاً في البيت بعد وفاة أمها **(إنها ليست كبنات عمها وعمتيها نصف شقراء بعيون ملونة بل هي سمراء بشعر أسود داكن وتشبه ملايين البنات وليست «فرنجية» المظهر، نحيلة كدودة وقد ازدادت نحولاً بعد وفاة أمها، ثم إنها لا تحاول الرقص ولا الغندرة ولا التظاهر بخفة الظل استدراراً لحب الأسرة كبنات عمتيها وعمها.. إنها النعجة السوداء بامتياز.. أذكر أن عمتها حاولت تكبيسها مدّعية أن عليها «ثقل»[1] من الجان، ورفضت زين بشدة متملصة، ورفست عمتها هاربة مما جعلها توقن من دخول جني شرير في جسد زين!).**

تهبّ نسمة محملة بشذى خليط من الروائح الزعترية الريحانية فيتحوّل أمجد بأكمله إلى رئة تستنشق الضوء المترع بعسل الشمس وينسى ما كان يريد قوله، مستسلماً لمباهج السيران. إلا أن بوران أعادته إلى الفوران امتعاضاً، بقولها ضاحكة: زين مثل «نص نصيص»[2]، حجمها صغير وضجيجها كبير. الله يعين دريد عليها حين يكبران ويتزوجان! تضايق أمجد من مشروع الزيجة هذا بين طفلين لمجرد أن دريد ابن عمتها التي ارتأت ذلك. لكن هدهدة النهر أسكتته مع صوت العصافير، فعدّل من جلسته على البساط تحت شجرة الدلب الضخمة كبيت، وتابعت بوران: «زين لدريد ودريد لزين». تجاهلها مستسلماً لنسائم هبَّت حاملة ضحكات الأولاد وهم يلعبون «لعبة القنصل الفرنسي والحارس السوري»، ممتطين عصيهم راكضين بها. أما البنات فيلعبن دور الممرضات كنازك العابد التي لم يبقَ أحد لم يروِ لبناته كيف ظلّت إلى جانب يوسف العظمة الجريح بعدما هرب الجميع وقامت على تمريضه حتى وفاته. حين غنّت زين من جديد «ثوغية ثوغية»، قرّعها أمجد بلطف على رداءة لفظها العربية، ولم يدلِ عبد الفتاح الذي لا يفوّت حواراً كهذا بدلوه حول عدم فصاحة زين بالعربية ساخراً من إتقانها الفرنسية والإنكليزية بعدما اعتلى النعاس لحيته وكرشه وسبحته واكتفت بوران وماوية بشماتة غير عدوانية وتظاهرتا بأنهما لم تسمعا شيئاً كأمهما.

***

(١) عليها ثقل: حضور شرير غامض.

(٢) نص نصيص: عقلة الإصبع.

مع كل ربيع يخيَّل إلى أمجد أن أمراً غرائبياً يحدث في دمشق، وأن ثمة جنياً لامرئياً هائل الضخامة يقف مع تباشير نيسان فوق جبل قاسيون وهو ينفخ ببوقه ويوقظ براعم الأشجار وأهل «الشام» من سباتهم الشتائي، معلناً أن فصل الربيع قد حلّ، وجاء موسم الهجرة إلى «السيران»، وانتهى فصل عمهم آذار الذي خبأوا له «فحماتهم»[1] الكبار. يخلعون قمصانهم الصوفية. يرتدون قميص الاسترخاء الأخضر. يسارعون إلى دفن موتاهم ورتق جراحهم، وترميم بيوتهم وقلوبهم، وإيقاف نزف الشتاء الماضي، وإغلاق دكاكينهم وذاكرة هزائمهم وانتصاراتهم على طول خمسة آلاف سنة هي من بعض عمر مدينتهم الدهرية، ويعيشون هدنة غير معلنة بينهم وبين أنفسهم في عطلة نهاية الأسبوع.

يحملون معهم مرضاهم والعُجَّز والأطفال. يركضون إلى حزام الخضرة الذي يطوق خاصرة دمشق في «عراضة»[2] جماعية. فالسيران في نظر أمجد علاقة حب بين «الشوام» والفضاء الزمردي المضيء لمدينتهم، حين يصير للهواء لون الخضرة المشعة من منجم الماس والزمرد في سماء واحات الشام، ويحتفي «الشوام» بانتصار الحياة والفرح والسلام على كل شيء..

لقد تنقّل أمجد كالكثيرين من حال إلى حال. جرّب سيران الفقراء والأغنياء، فرقيقو الحال يكتفون بالذهاب بـ «زوّادة»[3] متواضعة مشياً، أو على «الطنبر»[4]، إلى أقرب واحة، وما أكثرها حول مدينتهم الدهرية على امتداد أسوارها القديمة. يأكلون «خبزة وبصلة» ولكن على ضفاف الماء الفاخر أو وسط بحيرات الخضرة المتماوجة بالعبير. متوسطو الحال يذهبون بـ «العربيات»[5] التي تجرها الخيل، ويتفقون قبل ليلة مع «العربجي» الذي ينقلهم باكراً قبل أن يحين موعد سيرانه هو أيضاً، ثم يعود بعد سيرانه ليوصلهم إلى البيت. ومن يملك سيارة من تلك النادرة التي بدأت تغزو المدينة فبوسعه أن يختار سيرانه حيث يحلو له في زنار الماء والخضرة، من بلودان إلى الزبداني مروراً بـ «عين الخضرا». «جدَيْدة بردى». «الريحانية». الهامة. دمر. الربوة. المزّة. الغوطة. القدم..

---

(١) فحماتهم: الفحم. والمثل الشائع يقول: «خبّي فحماتك الكبار لعمك آذار». ويصدق غالباً في طقس دمشق.

(٢) العراضة: التظاهرة باللهجة الشامية.

(٣) الزوادة: طعام السيران.

(٤) الطنبر: عربة خشبية مكشوفة يجرها حمار أو بغل لنقل الأثاث.

(٥) «عرباية» أو «عربيّة» أي العربة.

يحب أمجد الأيام التي تزحف المدينة فيها إلى الفرح بشهية كما تزحف إلى الحرب حين تضطر لذلك. ويقف جنّي الربيع وقد فرد قامته بين قمة قاسيون وزرقة السماء اللامتناهية وينفخ في بوقه مرات، ولا تبقى حلزونة داخل قوقعتها ولا سلحفاة في صدفة شتائها ولا أرملة في سرير مرضها. وأحياناً يكتفي البعض بنزهة على ضفة نهر بردى وقد يتأمل بدهشة سيدة تقود سيارة (يا للعجب!) ويقرر أنها بالتأكيد أجنبية، أو يتوقف على الجسر القريب من «التكية السليمانية» بقبابها ومآذنها ويلتهم شطيرته، أو يمشي في البساتين الممتدة من جبل قاسيون حتى المنزل الصيفي لفخري البارودي[1] الضائع في غابة من البساتين المخضرة التي شقّوا على طرفها شارع أبو رمانة، وحيث تناثرت بيوت قليلة آثرت الإقامة في تلك الضاحية الريفية ومثلها بيوت نادرة في ضاحية المزة شبه الخالية من المباني باستثناء المستشفى العسكري ومبنى آخر كبير أو اثنين في «آخر ما عمّر الله» على حد تعبير الناس. وقد يمشي طويلاً متجاوزاً «كيوان» بعد شارع بيروت حتى يصل إلى «الربوة» وينضم إلى أصحاب أكثر ثراء احتلوا الشرفات الخشبية المعلّقة فوق فرع بردى «نهر شورى» والشلالات تتدفق منه.

تتعالى أصوات لعب الأولاد أكثر مما ينبغي في نظر بوران. تستدعي البنات وتزجرهن واحدة تلو الأخرى: تنفسي من فمك فقط ولا تلهثي. عيب. كلي «النعّومة»[2] هنا. لا تأكلي أمام الصبيان. أنزلي يديك عن وركك حين تقفين وعن خصرك حين تتحدثين. لا «تترقوصي» في المشي عيب. وأنتِ لماذا «تتغمين» بعينيك هكذا؟ عيب. وأنتِ يا زين لماذا «تتحشرين» في لعب الصبيان. عيب. عيب. انكسر «خاطر» البنات فجلسن بلا حراك. وها هي بوران تنظر إلى شقيقها أمجد نظرة ذات معنى كي يزجر الصبيان بدوره لأنهم يلاطفون الكلب (النجس) الشارد، لكنه يتابع إعداد نارجيلته متجاهلاً، وحين تفتح فمها لتقول شيئاً يدمدم بما معناه أنه ذاهب لإحضار «التنبك»[3] من الشاحنة الصغيرة (البيك آب) التي استعارها من صديق طفولته أبو أدهم البقال مقابل إعارته إياه سيارته «الرينو» الصغيرة. وكان قد وجد الترتيب مناسباً حيث يخرج البقال العريس مع عروسه، فـ «يشحن» أمجد أسرته الكبيرة إلى السيران في «البيك آب».

كم عرضت عليه هند ذات يوم شراء سيارة «جيب ستيشن» فاخرة كبيرة تتسع

---

(١) قرب ساحة الأمويين اليوم.

(٢) النعوّمة: القضامي مطحونة.

(٣) التنبك: التنباك.

للأسرة هدية منها إليه ورفض. يشعر الآن بعد أشهر على موتها بندم على «حماشته» التي توهمها واجباً حفاظاً على رجولته.

أما عبد الفتاح فتابع عبثه بحبّات سبحته في حركة عصبية ثم أخرج من جيب جبته زجاجة «عطر المشايخ»[1] وبدأ يشمها ثم صار يوزع قطراتها على لحيته وشاربيه. زجرته زوجته فلك متعجبة من هذه العادة الطارئة. لم يجرؤ على أن يقول لها إنه بحاجة إلى العطر لأنه يشم باستمرار منذ أسابيع رائحة كريهة تنبعث من جسده كأنه جيفة. ولا يدري لماذا تنهد وقال: «رحم الله هند.. كانت تحب هذه الجلسة».. ولم تفهم فلك الصلة بين عطره ورحيل هند. عادت بوران تطلب منه زجر الصبيان الذين تعالت أصواتهم. صحيح أن الصبيان أقلية مطلقة في البيت (لؤي ودريد والطفل هاني) مقابل كتيبة من البنات، لكن الصبيين اصطحبا معهما ثلاثة من رفاقهما أولاد الجيران...

بدلاً من زجر الأولاد ناداهم أمجد حين وصلت خالته أم موفق والتف الجميع حول بعضهم بعضاً لأنه يريد التقاط صورة لهم كلهم، كعادته في كل سيران، بآلة التصوير «الكوداك» المكعبة أمام العين[2]. أحاطوا بنصب رخامي صغير كشاهدة قبر كتب عليه مجهول من زمان: «كم مرّ أمثالنا على هذه‌العين، ثم ذهبوا في غمضة عين». وخيل إليه أنه يستوعب معناها للمرة الأولى على كثرة ما قرأها قبلاً!

تذكر فجأة وهو يضغط على زر آلة التصوير أن آخر صورة التقطها لسيران كانت هند فيها حاملاً وأنها اللقطة السابقة لهذه، ولمّا يقم بتحميض الفيلم بعد منذ الربيع الماضي ولم يمسّ آلة التصوير بعدها. وداهمه شعور بأنه لن يجرؤ على تحميض الفيلم أبداً. التقط الصورة ثم ذهب لإحضار «التنبك» من السيارة.

عمّر النارجيلة وبدأ «يؤرغل» شارداً مع أفكاره (لم أعش في حياتي كلها موسم «سيارين»[3] شامي كهذا الموسم، والزحام لا يصدق في كل مكان على «شم الهواء»[4].. ألأنه عيد الربيع أم عيد الجلاء؟ أم أنه زواج العيدين؟ كأننا هنا لا نحتفي بالحياة فحسب بل بالحياة الحرة الكريمة لا أية حياة. إنه ربيع خلجات الروح التي تتسلل إلى نفسي فواحة كعطر مخدر في الهواء. تراها خلجات الحرية التي تعطي الياسمين عبيره.. وربيع الخلاص من عسكر السنغال والذين قبلهم

(١) عطر المشايخ: عطر خاص بالشيوخ رخيص السعر نفّاذ الرائحة.
(٢) العين: نبع ماء.
(٣) سيارين: جمع سيران.
(٤) شم الهواء: النزهة.

وقبلهم؟.. لن أناكد نفسي وأقول لا يكفي الخلاص من الانتداب بل من المهم بناء دولة أو المهم الخلاص من انتداب التخلف كما يقول معتز. أنا الآن في إجازة من النكد والحزن والتفكير..

كم كنت أتمنى لو ذهبنا اليوم إلى الغوطة، حيث الناس في حلقات متقاربة، والفرح الجماعي، ورقص الدبكة والدربكة[1] والأغاني و «على أوف مشعل أوف مشعلاني. مع السلامة يا بعد خلاني. مع السلامة والدرب سلطاني»، الأغنية المفضلة لأمي وأناشيد العتابا والميجانا، والسيران الذي يطول حتى طلوع القمر، والنسمات الراكضة بالفرح والقهقهات، والأغاني ورائحة المشاوي وأصحاب البساتين الذين ينضمون إلينا وهم يرحبون بأية أسرة «أوادم» تريد قضاء السيران في البستان سواء جاءت بالسيارة أو بالطنبر قائلين: «الأرض أرضكم والبيت بيتكم والصدر لكم والعتبة لنا». وتمطر أشجار الغوطة قناديلها البيضاء والصفراء والحمراء فوق رأسي وفوق فروع بردى السبعة المتوزعة على البساتين، المتدفقة من خير نبع بردى والعين الخضرا والهامة ودمر والربوة و.. و.. لقد خاويت الأنهر السبعة لـ «الشام»، منذ طفولتي.. وكنت أتمنى أن أكون جزءاً من هذا المهرجان. لكن المرحومة هند لم تكن ترتاح إلى الزحام بطبعها وتميل إلى الطبيعة البكر الأكثر توحشاً، وإلى النهر الذي يجري بجبروته قبل أن يتدجن في فروعه السبعة. وهي لذلك كانت تعشق «قرية الريحانية» بين «الجديدة» و «الهامة» وتحب خالتي أم موفق التي تأنس بحضورنا. ها أنا هنا إكراماً لأم زين ولحضورها في غيابها. كانت تكرر أنني لا أفعل شيئاً إكراماً لها وها قد صرت اليوم مسكوناً بها حتى الثمالة ولكن بعد فوات الآوان).

بعدما أنجزت بوران زجر البنات والصبيان للمرة الثالثة منذ بدء السيران التفتت صوب فيحاء، ابنة أخيها المرحوم سفيان، التي كانت تقرأ في كتاب وشعرت أن ذلك غير مفيد لمستقبلها كيتيمة بلا معيل «زوجي» بالرغم من أن شقيقها مأمون طبيب ومسؤول عنها. فالزواج مصيرها، فلم الكتب بدلاً من إعداد التبولة؟ وقبل أن تقول لها شيئاً ناداها عمها عبد الفتاح قائلاً: يا فيحاء، أعدّي لي فنجان قهوة. وصعق الجميع حين أجابت: لماذا لا تعدّه بنفسك؟ ألا ترى أنني اقرأ واستعد للامتحانات؟ زجرتها عمتها بوران: عيب أن تردي هكذا على عمك الكبير. كان ثمة إجماع على أن المرحومة هند أفسدت فيحاء بتشجيعها على العلم ومساعدتها رغماً عن الجميع باستثناء أمجد وشقيقها مأمون حتى أنها تقدمت بطلب للانتساب إلى دار

(١) الدربكة: آلة موسيقية لضبط الإيقاع.

المعلمات حيث تقبض راتباً كالرجال.. تنهدت بوران: «يا لطيف من هذا الزمان»، لكنها تحسرت على نفسها (منذ صغري وأنا أتمنى لو كنت طبيبة. يا حسرة.. ليتني فعلت مثل فيحاء!).

يقذف لؤي بالكرة بعيداً فتتدحرج عن المرتفع الصغير الذي لا يُسمح لهم بمفارقته خوفاً عليهم من الغرق في النهر. تركض جهينة خلف صدرها الناهد وخلف الكرة، وتوعز للأطفال أن يتابعوا لعبهم وهي ستبحث لهم عن «الطابة» بنفسها. ها قد سنحت الفرصة أخيراً للهرب من الأسرة الكبيرة بحجة البحث عن الكرة إلى حيث ينتظرها عيدو العسيري في الدغل القريب. تتدحرج كرة لامرئية على سلالم من ذهب تتوسط بحراً من الخضرة وهي تركض خلفها وقد استحالت إلى بدر البدور وسط سبعة بحور وتتوقف الكرة أمام قدمي عيدو. ينحني ليناولها إياها. تمسّ يده يدها. يرتعشان وتسري كهرباء خفية تتوهج لها الوجنات ويتألق بريق العيون وتجف الحنجرة في تداخل الظلال بالنور.. يتأمل وجهها وظلال أوراق الأشجار الميّاسة تروح وتجيء فوقه مع الريح.

يبدو له الوجه أثيرياً بعينين زرقاوين بل كثيفتي الزرقة تحدقان فيه عبر أهداب ترف كفراشات مسحورة، وقد توج ذلك السحر كله شعر أشقر يرقص عند أدنى هزة منها لرأسها الذي يعتلي قامة فارعة أكثر طولاً من قامته بعدة سنتمترات. قامة ملفوفة على عوالم من الجمال الرشيق كجواري ألف ليلة وليلة من السبايا الغربيات. تهمس جهينة بخفر: كيف جئت؟ يجيب ضاحكاً: على بساط الريح.

ترمقه بنظرة شبه معاتبة. يضيف: على دراجتي الهوائية.. تمسّكت بـ «البوسطة»[1] معظم الوقت. تهمس: سأحاول العودة إليك حين أقدر.

ـ سأنتظرك إلى الأبد.

لقد مسّه السحر فأحبها يوم لاحظها للمرة الأولى وكانا صغيرين. قال لأمه بعفوية: ما أجمل ابنة جارنا أمجد الخيّال. أجابته أمه ابنة الباشا التركي وهي تصلح من وضع غطاء رأسها: هذه ليست ابنته. إنها جهينة «الصانعة»[2]. أخرجَتْها الست هند معها في جهاز عرسها. جاءت بها منذ ليلة الدخلة كي لا تغسل بنفسها صحناً ولا تمسح أرضاً. اشترت بيتاً واسعاً في الشام الجديدة في شارع نوري باشا أو ساحة المدفع، لا أعرف تماماً، لكن أمجد رفض الإقامة فيه. أجل. تذكرت. إنه بالتأكيد

---

(١) البوسطة: حافلة الركاب (الباص).

(٢) الصانعة: الخادمة باللهجة الشامية.

في ساحة المدفع. قال أمجد لهند إنه لا يحب صوت المدافع، فأخبرته أنهم سينقلون مدفع رمضان من هناك إلى البساتين المجاورة بعدما تكاثرت البيوت المبنية حوله. لم يكن عيدو مهتماً بالثرثرة عن هند، لكن أمه تابعت ناقلةً ما تظنه جواب أمجد لزوجته، حسبما تناقلت الجارات: «اسكنيه وحدك مع ابنتك والصانعة إذا أحببت»!

رغم لامبالاة عيدو بالقال والقيل حول الست هند تابعت أمه بإصرار كلامها عنها لا عن جهينة: والد الست هند خلّف لها أموالاً لا تأكلها النيران، وأمجد طلعت ليلة القدر على وجهه حين حظي بثرية مثلها بعدما افتقرت عائلته منذ أيام «السفر برلك» وبارت تجارتهم. والد هند «أكابر». . لم يكن عيدو معنياً بأن يكون والد هند «أكابر» أو «أصاغر». تعاملوا مع الفرنسيين أم رفضوا ذلك كما أخبرتهم الجارة. أبقي ابن عم الست هند عند الفرنسيين في السجن سنوات طويلة أم لم يبق. سألها عيدو يومها محاولاً إعادة الحوار صوب موضوع جهينة:

ـ ابن عم جهينة دخل السجن؟

ـ ابن عم الست هند. من يتحدث عن الصانعة؟

سكت يومها عيدو العسيري الذي تلقبه بوران بـ «ابن العز والدلال» ولم يبال إن كانت تلك التي رمقته بنظرة زرقاء هي خادمة الجيران. فوجهها يقول للقمر غبْ لأجلس مكانك تماماً كبدر البدور.

يتذكر عيدو كل كلمة سبق له أن سمعها عن جهينة أو لم يسمعها وهو يختبىء خلف الأشجار الكثيفة محرجاً بانتظار عودتها إليه، والشعور بالذنب يوجعه إذ ثمة قانون غير مكتوب حول أخلاقيات السيران: لا أحد ينظر إلى «حريم» أحد ولا يقترب منهن ولا يشرب الخمرة. الذين يشربون المنكر لهم مقاهٍ معروفة فيها أجنحة للعائلات بعيدة عن رائحة «المشروب»[1] على كتف بردى في الربوة. والمقهى الفخم يقدم الويسكي ويرفض أن يقدم لهم العرق الذي تُعتبر رائحته الأدنى في سُلَّم المشروبات والخطايا، فهو الأرخص ثمناً.

شرب عيدو جرعة بلا ماء من بطحة العرق التي حملها معه ليستمد منها بعض الشجاعة على ما اعتزم القيام به. يريد جهينة. يريدها بأية وسيلة وبأي ثمن وأينما

---

(١) المشروب: الخمرة.

كان. على العشب أو فوق سرير العرس. براءتها تلهب أعوامه الثمانية عشر المتأجّجة بالوجد. . .

* * *

تحمل بوران كيساً من الشبك مليئاً بالمشمش والخوخ الأبيض والجانرك وتذهب به صوب شاطىء النهر. تضع على الضفة، حيث المياه رقراقة، ثلاثة أحجار ثقيلة كمن يشيّد بحيرة صغيرة اصطناعية وتودع الكيس بينها كما لو كان بطيخة كي تبرد محتوياته دون أن يجرفها الماء. تلحق بها خالتها أم موفق التي تستضيفهم كل سيران في بستان زوجها حيث تقيم صيفَ شتاء بعيداً عن الشام، وتحلف بغربتها. . تلحق بها وقد حملت معها المنقل الصغير و «دولة»[1] القهوة لإعدادها، بعدما رفضت فيحاء ذلك وتابعت القراءة في كتابها. كل ما في أم موفق يتدفق شوقاً إلى سماع حكايا الشام، وأهل الشام، في حوار «شهي» من القال والقيل لا يحلو السيران بدونه. . .

ـ هل صحيح أن عيدو العسيري ما غيره «حاطط عينه»[2] على «صانعة» المرحومة كَنّتكم؟

ـ شاب واستحلى. . . جدّه لأمه باشا من اسطمبول ولا أحد يعرف «قرعة أبوها»[3] هي. . إنها من قرية لا تصلها السيارات فوق اللاذقية قرب أملاك المرحومة.

ـ ولكنها تزداد جمالاً. . سبحان الخالق. . مثل ممثلات السينما. .

ـ وذكية وشاطرة جداً. . علّمتها المرحومة هند القراءة والكتابة، لكنها ليست فالحة في العلم. علّمتها أمي الخياطة وصارت تخيط «بيجامات» الأولاد كلهم وفساتين البنات. . اسم الله عليها فالحة جداً في الخياطة. . الفستان الذي ارتديه هو من خياطتها وعمرها الآن ست عشرة سنة. . . لقد كتبت لها حجاباً كي يتزوج عيدو منها. ولم تضف: «نكاية بأمه»!

ـ هـذا الجيل يخوّف، من «صنـاع»[4] وبكـوات. . كل شيء تغيـر وستقوم القيامة.

بلذة تقارب الشماتة اللطيفة تضيف أم موفق: وهل علم أبو عيدو بحالة ابنه؟

---

(١) دولة: اناء غلي القهوة. «الركوة» باللهجة اللبنانية.
(٢) حاطط عينه: يرمقها ويريد الحصول عليها.
(٣) المقصود أصلها ونسبها.
(٤) صنّاع: خدم.

بشماتة مشابهة تجيب بوران: الله لا «يقيمه» من هذه المشكلة. أيام «السفر برلك» جوّع الناس ودكّ الذهب في القصبة.. منذ اشترك المرحوم أبي في الثورة[١] ونفوه إلى اسطمبول أو ساقوه إلى حرب البلقان والله أعلم، منذ ذلك الحين وأبو عيدو العسيري، «الله وكيلك»، يعاملنا من فوق كما لو كنا عبيده لمجرد أننا صرنا «على الحديدة»[٢]. صحيح أن ذلك حدث من زمان، لكن أمي لا تستطيع أن تنسى أنه لم يقرع يوماً بابها ويسألها إن كانت بحاجة إلى شيء وهي تقاسي. «كوم احجار ولا هذا الجار»... تصوّري، شاهد أمي يوم عادت من بيت رفيق وابنه عبد القادر نظام الدين وهي تبكي حين قالا لها إنهما لم يريا أبي في المنفى في اسطمبول حيث كانا وإنه لم يعد معهما ولكنهما طيّبا خاطرها. ولم يكلف أبو عيدو «خاطره» بالحضور لتعزيتها، أو سؤالها عن ماوية التي ولدت في غياب والدنا. العزّ الذي كان في بيتنا نسيه. كل الناس صارت «أولاد اليوم». والدنيا دولاب والدهر يوم لك ويوم عليك. لكن أبو عيدو نسي صحبته القديمة وأبي وحاول شراء البيت منا بالرخيص. «يا عيب الشوم»[٣].. وكل ذلك بدلاً من أن يحمل لنا الطحين والسكر من بيته وهو تاجر الحبوب الكبير، كما يحمل أخي الرزق لأرملة صديقه. قالت أم موفق: يا عيب الشوم!

أضافت بوران: الحق كله على زوجته «بنتْ الباشا»... نحن نعطي من لحم عظامنا لرفاق المرحوم سفيان وعائلاتهم وهو يزداد بخلاً وبطانة جبّته من الحرير. لو ساعدنا لدرست وربما لصرت طبيبة مثل مرغريت ماهر ولتعلمت مثل فيحاء التي «تعمل ما في رأسها» غصباً عن الجميع.. ها أنا اليوم أكتب الحجابات والله أنعم عليّ، ولكن لو كنت طبيبة لكانت لحجاباتي قيمة أعلى.. وحجابي لجهينة لن يخيب بإذن الله وسيتزوج منها عيدو.. بالنتيجة لا الطبيب يفهم شيئاً ولا أنا.. أجل كل البلاء منها بنت الباشا التركي. هي التي علّمت أبو عيدو قسوة القلب..

تحمّست أم موفق كثيراً لهذا التفسير، فقد كان اتهام الأجنبي يريح الجميع لأن الأمر يصير مؤلماً حين يكون «دود الخل منه وفيه».. اكتفت أم موفق من الكلام عن آل العسيري فانتقلت إلى موضوع آخر من مواضيعها المفضلة فسألت بوران: لماذا لم تذهبي مع بيت «حماك» وآل زوجك إلى السيران؟

---

(١) الثورة: تقصد الثورة العربية الكبرى وعودة المنفيين سنة ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب وانعقاد المؤتمر السوري.

(٢) على الحديدة: معدم، مفلس.

(٣) يا عيب الشوم: تُقال للاستنكار.

ـ لأن سيرانهم «مثل سيران الكلاب، غَبْرة وقلّة واجب»[١].

ـ «عُمر ماضي ونيّال الراضي»[٢].. وسيران الكلاب وحدي أعرفه في غربتي هنا في الريحانية.. زوجي يريد أن يعيش في هذه «الجورة»[٣] الحفراء النفراء كرمى للنهر وأنا مشتاقة للشام وياسمين الشام وأهل الشام في غربتي هذه. كلما قلت لـ «أبو موفق» ذلك، يضحك مني قائلاً إنني أحلف بغربتي أكثر من شقيقه المهاجر إلى البرازيل!

ـ كل واحد منا وهمّه أكبر منه. هل سمعت بالهمّ الجديد لجارتنا درية أم بدرية؟ انتعشت أم موفق وسألت بشراهة: ما هو؟

ـ مسكينة مصيبتها كبيرة بابنتها بدرية. رفضت الزواج من ابن «الفصيح» ابن العيلة والعز والمال والجاه وقالت إنها تحب غيره وتريد الزواج من «عصفور طيار» لا شغل له يقول عن نفسه إنه «شاعر» يا بعدي![٤]. وضعت لها أمها جمرة مشتعلة في فمها أحرقت لسانها لأنها قالت «أحبه» وأفهمتها أن هذه الكلمة عيب.

ـ هذه هي التربية والأصول. قولي لي هل صحيح إن كنّتكم فلك حامل أم بطنها كبير من كثرة الأكل؟

ضحكتا وقالت بوران: إنها حامل حتى «حلقها»[٥]، وأخي عبد الفتاح سيجن إذا لم تنجب شقيقاً للؤي بعدما جاءت له بخزامى وحميدة وفضيلة ومطيعة. صبي واحد على أربع بنات قليل. إنه مصمّم على أن تظل فلك تحمل كل سنة حتى تنجب صبياً آخر على الأقل.

ـ بنت أم صبي غير مهمّ. المهمّ أن تنتهي الولادة بـ «خلاص وخلقة مثل الناس».

ـ كلنا نقول ذلك، لكننا في قرارة نفوسنا نفضّل إنجاب الصبيان.

ـ البنت أفضل لأمها وأكثر حناناً..

ـ صحيح ولكن ولادتها غصّة وعقصة.. هل نسيتِ كم بكيتِ يوم ولدتْ فلك ابنتها الأخيرة مطيعة، يوم ضربوا القنبلة الذرية على هيروشيما في آب اللهاب؟

ـ حر جهنم هبَّ ذلك اليوم من ولادة البنت أكثر من القنبلة الذرية. هكذا قال

---

(١) مثل شعبي دمشقي طريف يعني: كنزهة الكلاب، غبار، وقلة احترام.

(٢) نيال الراضي: ما أسعد حظ الراضي..

(٣) الجورة: الحفرة.

(٤) يا بعدي: تعبير دمشقي معناه تمني المتكلم للسامع بطول العمر بعده.

(٥) الحلق: الحنجرة.

عبد الفتاح لأمها . .

ـ الحق معه.

ـ لماذا تطيل جارتكم دعد شعر ابنها الذي أنجبته بعد طلاقها هكذا؟ صار يشبه البنات بفستانه الوردي. شاهدته عندكم في آخر زيارة ولم تتح لي فرصة سؤالك . .

ـ إنها تخاف عليه من العين إذا عرف الناس أنه صبي ومثل القمر . . نذرت أن ترضع ابنها وتتركه في ملابس البنات بشعر طويل سبعة أعوام حين كانت حاملاً به. ذهبتْ إلى «الولي» عسقلان في باب مصلى بالميدان ونذرت له ولغيره من الأولياء كي تنجب صبياً وتقهر ضرتها التي ولدت بنتاً . . ونذرت أن تحميه من العين أيضاً.

ـ لا ألومها . . . العين الحاسدة خطرة.

ـ خطرة يا لطيف . . هل تعرفين أنني كتبت حجاباً لأم محمد صائم الدهر الغنية ونصحتها بإلباس أولادها ثياباً مهترئة ليلة العيد لكي «تصرف النظرة» وتحميهم من العين؟ إذا لم يتظاهروا بالفقر والتعاسة ليلة الوقفة، «ستطرقهم» العين «الصايبة»[1] بالحسد التي تصيب العافية بالمرض، والحجابات وحدها لا تكفي لصرفها ولا الخرزة الزرقاء . . .

ـ ولماذا لا تكتبين لزين حجاباً؟

ـ عليها «ثقل» كله شر وهي ترفض أن «أكبّسها». وحين أفعل وهي نائمة يكاد عفريتها القوي يخنقني. ضربت «المندل» وعرفت من أين جاء. لحق بها عفريت أمها من اللاذقية وتلبّسها. يجب أن أضربه «فلقة» لكن والدها سيقصف عمري إذا فعلت وتجرأت على ذلك لتهريب العفريت.

ـ أسمع صفيراً داخل أذني اليمنى.

ـ ثمة من يذكرك بالخير. المهم ألا تصفّر أذنك اليسرى[2].

جاءهم صوت الحاجة حياة التي لم تفقد الأمل في الصلح بين ماوية وزوجها سليم وهي تغني لابنتها المطلقة ماوية! «مرجانة حردانة دبّرها يا سليم»[3]. افتقدت عتابا وميجانا ابنها أمجد وكنتها هند وعزفهما على العود وإنشادهما كفرقة موسيقية، أيام الصفاء، فعادت تغني بصوت ذابل: مرجانة حردانة دبرها يا سليم.

سألت أم موفق بوران ابنة أختها: أما من مجال للصلح بين ماوية ومطلقها؟

---

(١) عين الحسد التي يُخشى أن تسود.

(٢) من المعتقدات الشعبية: حينما تصفر الأذن فثمة من يذكرنا.

(٣) أغنية شعبية شامية.

أجابتها: «الرجال بلا. فيهم بلا، وبلاهم بلا»[1]..

ـ وهل صحيح أن خالتك أم عامر ستأتي مع أولادها من فلسطين لقضاء الشتاء عندكم؟ اشتقت كثيراً لأختي.

ـ إنها كل ساعة بعقل. أعلمتنا أنها بدّلت رأيها وقررت البقاء مع زوجها، لكن «اليهود» ليسوا ناويين على الخير وقد تضطر للحضور.

ـ يا لطيف.. من حرب إلى حرب.. هذه حياتنا.. ولكننا سنكسر «اليهود» إذا حاربناهم.

ـ طبعاً سنكسرهم. أمة الإسلام ضد عصابات الهاغانا.. ماذا تنتظرين؟

ارتفع صوت بكاء دريد محتجاً لأن لؤي يضربه. صرخت فلك بابنها: لا تستطيع ضرب دريد على رأسه هكذا.. فسألها ببراءة: وأين أستطيع ضربه؟

علا صوت زين وهي تتشاجر مع إحدى بنات عمها لأنها تكره أكل الليمون الحامض بالملح وترفض المشاركة في ذلك كبقية البنات. فسألت أم موفق بوران: ومن يربّي هذه اليتيمة بعد أمها؟

ـ تربية أمها لم تكن تربية، ولكن الكلام عن الأموات حرام. وهذه «الجردونة»[2] نسخة عن أمها بسمرتها وعنادها. قلت لك إنها منذ صغرها ركبها أكثر من عفريت. تذكرين أنها صارت تتكلم بالفرنسية مع أمها وعمرها تسعة أشهر، يا لطيف! وذهبت إلى المدرسة وعمرها سنتان. وهي الآن تقرأ وتكتب بالفرنسي والعربي وتتابع تعليم جهينة القراءة والكتابة.. عفريتها قوي جداً... هذا العفريت جعلها نحيلة مثل الخيط و «مفصحنة» مثل «نص نصيص». ضربتُ المندل مرات من أجلها وكان الجواب واحداً: لا بد من طرد الجان منها.

ـ ما أخبار أختك بهيجة؟

ـ في حمص مع زوجها. كبرت ولم يرزقها الله بأولاد، ولكنني «كتبتُ» لهما حرزاً وسأذهب خصيصاً لتبخير سريرهما ورحمها و..

ـ هل استشارا الطبيب؟

ـ دفعا ما فوقهما وما تحتهما للطبيب الدجال ولم يصلا إلى نتيجة. الأطباء لا يفهمون شيئاً. المرض من الجان والأرواح والعفاريت والشافي هو الله.. هل تظنين أن ابن أخي الدكتور مأمون الذي عاد من الاختصاص في باريس قبل أشهر يفهم أكثر

(١) مثل شعبي شامي معناه: الرجال بلاء، بهم بلاء وبدونهم بلاء.

(٢) الجردونة: الجرذة الصغيرة.

مني، أو يستطيع أن يفيد هاني ابن ماوية أكثر مني؟ أصغر ندر عند وليّ صالح أفضل من أحسن طبيب..

ـ الله أعلم يا بوران.. قولي لي من زمان لم أرَ بهيجة. أما زالت جميلة؟

ـ بيضاء و «حلّتها سوداء»[1] كما تعرفينها، لكنها سمنت وكبرت.. وزوجها ما زال يغار عليها من النسمة.

لحقت بهما فيحاء وسألتهما وهي تطلق قهقهتها العالية المألوفة: ألن ينتهي إعداد هذه القهوة؟ علامَ تتآمران؟

فقالت الخالة أم موفق بنبرة دفاعية: لا شيء أبداً. كنت اسألها عن أحوال بهيجة.. وعلمت أنها بخير وزوجها ما زال يحبها..

ـ يحبها؟ إنه فقط يغار عليها.

سألتها بوران: ما الفرق؟

ـ زوج عمتي بهيجة يغار عليها ولا يحبها. إنه فقط يحب امتلاكها كسلعة.

قالت الخالة أم موفق ببراءة: ما معنى سلعة «يا بعدي»؟

قالت بوران بضيق: فلسفة من كتب الست فيحاء!

تجاهلتها المرأتان وتابعتا متعتهما باستعراض الأخبار وسألت أم موفق: «شو في ما في»[2] و «شو صار ما صار»؟ ما أخبار أختي أم عامر؟ أدركت بوران أن خالتها نسيت حوارهما قبل دقائق عن أم عامر والهرم بدأ يتلف ذاكرتها كأن تذهب إلى إحدى الغرف لإحضار شيء وحين تصل إلى الغرفة تنسى ما هو هذا الشيء، كما شكت لها. كررت سؤالها: أم عامر، هل تسمعون منها؟

أشفقت بوران على خالتها من ضعف ذاكرتها ولم تقل لها أمام فيحاء إنها أخبرتها للتو بحكاياها كي لا تسخر منها الصبية بل قالت: مسكينة خالتي أم عامر وأسرتها. لقد نغص اليهود حياتهم في عكا. اتصل زوجها بأخي أمجد مستأذناً ليبعث بها وبأولادها لقضاء الشتاء عندنا وأبلغه أن الأحوال سيئة جداً في فلسطين، وهو لم يعد «يلفي»[3] على البيت إلا نادراً لأنه حمل البارودة[4] مع أهل البلد. اليهود يضايقونهم كثيراً. ولا نعرف بعد هل ستحضر أم لا..

ـ الله يقدّم ما فيه الخير..

---

(١) حلّتها سوداء: شعرها، حاجباها، أهدابها، لون عينيها.. إلخ.

(٢) شو في ما في: ماذا حدث أو لم يحدث.

(٣) يلفي: يحضر.

(٤) البارودة: البندقية.

ـ انتبهي كي لا تفور[1] القهوة ونحن في شغل عنها بالكلام . .

ـ سأنتبه والله يلعن الشيطان . .

تركتهما فيحاء وانضمت إلى جدتها الحاجة حياة التي كانت تنفض بساطاً أطول منها بمرتين وحاولت انتزاعه من بين يديها لتقوم عنها بالعمل موفرة عليها المشقة وهي الضئيلة الجسم، لكن الجدة حياة الملقبة بـ «الحاجة» رفضت وومض في عينيها ذلك البريق هائل السطوة التي يجعلها بلطفها ورزانة عقلها ملكة البيت السرية والعلنية .

غلت القهوة وفاضت على جمر المنقل، فصرخت أم موفق: ها هي القهوة قد فارت وراح نصفها . . سأعيد غليها من جديد . . حديثك الحلو يا بوران أنساني القهوة . . هاتي أولادك وتعالي لقضاء أسبوع عندنا في الريحانية . تظلين مشغولة مثل أم العروس!

ـ ولكنني أم العروس . قمر ستتزوج في الشهر القادم فتعالي أنت للعرس وابقي معنا أياماً .

ـ لا أستطيع ترك «أبو موفق» . ألا ترين حاله؟ صرت مضطرة للذهاب مشياً إلى الجديدة لشراء حاجياتنا بمعونة «المُرابع»[2] . لم تعد حياتنا هنا ممكنة وهو يرفض مغادرة المزرعة . يا لحظي العاثر بهذا الزواج . ليتك تكتبين له حجاباً ليكره المزرعة ونعود إلى دمشق . .

ـ تكرم عينك .

ـ سمعت بأن «حجاباتك» فعالة ورغباتك مستجابة .

ـ بإذن الله .

ـ سمعت أنك ، «صمّلا عليكي» ،[3] كتبت حجاباً لـ «أبو نجيب» كي يكف عن السهر مع مغنية «ملهى السيريانا» .

ـ صحيح . لقد عقدت له ذَكَره عن كل أنسية غير زوجته . جاءتني تبكي وحملت لي سلة من البيض ودجاجة كهدية وشكت لي همها ، وبعد ذلك بأسابيع أصيب أبو نجيب بفتق مختنق ولم يعد بوسعه خيانتها . ادعى هو أنه حمل قنطاراً من حطب الشتاء إلى بيته لكننا كلنا نعرف أن وراء ذلك تعاويذي و «الحجاب» الذي

---

(١) فارت: غلت وفاضت.

(٢) المُرابع: فلاح يعمل عن صاحب الأرض ويحصل على ربع المحصول.

(٣) «صملاّ عليكي»: اسم الله عليكِ.

كتبته له وخاطته له زوجته داخل بطانة معطفه دون أن يدري.

ـ وما أخبار أم شادن التي تدهورت أحوال زوجها؟

ـ كتبت لزوجها حجاباً وربحت تجارته بالسجاد وعاد ثرياً، لكنني لم أعد أرى لها وجهاً. لا تدعو لصاحبك بالسعادة، لأنك تخسره!

ـ وأختك ماوية؟

ـ كتبت لها حجاباً وجاءها الخطّاب، لكنها لا تريد الزواج ثانية. حياة المطلقة صعبة والكل يطمع فيها، إذ لا بكارة ولا مسؤولية وكلام الناس لا يرحم، لكنها عنيدة وكرهت جنس الرجال.. والحق معها!.. إنها تتعبني هي وابنها هاني.. لقد ركبه عفريت قوي يا لطيف!

ـ وهل كتبت لصهرك حجاب المحبة؟

ـ صهري معين ليس بحاجة إلى حجاب. إنه يحب قمر و «يعبدها» بعد ربه، وعنده الله في السماء وقمر في الأرض. «مادياته» محدودة، فهو ضابط يعيش على راتبه، لكنه «حلو يا بعدي». والبنت رغبت فيه. أهله بسطاء لكنهم شرفاء و «أوادم».. صحيح أنه ليس ابن الحفّار أو القوتلي ولكنه ملأ عين قمر...

ـ يا لطيف على هذا الزمان.. كنا نتزوج ولا نرى العريس إلا «ليلة الدخلة» مثلي و «أبو موفق». قالوا لي هذا زوجك قبرك، وقلت حاضر..

ـ معين شاهد قمر ذاهبة إلى المدرسة وأعجبته فلحق بها واهتدى إلى بيتنا ثم جاء وأهله وصديق له قال إنه مثل شقيقه اسمه فارس، وخطبها. أهله قرويون من ضواحي حلب، وفوجئنا أن في وجه أمه وشماً بدوياً أزرق وعلى يديها أيضاً، لكنه لا يخجل بها. وأقول لك الصدق إن ذلك سرّني منه.. قمر «طار عقلها»(١) به. تلصصت عليه من شق الباب وقالت لعمها إنه أعجبها... «غَنْدَرتْها»(٢) خالتها ماوية ودخلت وصافحته وجلست مقابله وتحادثا في حضورنا. إنها تعشق ثياب الضباط. وبلا طول سيرة، هجم النصيب وكتبنا الكتاب.. المهمّ السترة.

تعالت ضحكات البنات وهن يلعبن، فزجرتهن بوران: كثرة الضحك من قلّة الأدب.

وتركت خالتها أم موفق ومضت صوبهن لتأديبهن، وقد عبست بكل ما فيها: بقامتها القصيرة الممتلئة بكثير من السمنة، ووجهها الطويل كوجه الحصان بعينين

(١) طار عقلها به: أُعجبت به.

(٢) غندرتها: وضعت لها «الماكياج» أي مستحضرات التبرّج.

يزيدهما الكحل ضيقاً، وقد بدت فخورة بنفسها وعلى وشك البكاء في آنٍ كأنها مُقْدِمَة على عمل خيري شاق.

انتحبت فضيلة بصوت عال لقسوة بوران، أما زين فجلست إلى جانب جدتها التي كفت عن شغل الإبرة وخلعت نظارتها المقربة فاستولت عليها زين ووضعتها على عينيها وتعجبت لأن الدنيا بدت لها مقعرة وغريبة. زجرتها جدتها واستعادت منها «الكزلك»[1]، ثم ضمتها إليها مراضية لها، لكنها ابتعدت عنها وجلست إلى جانب قمر. وأعطتها فيحاء ورقة بيضاء من دفترها فطوتها بعناية وصبر وصنعت منها طائرة ورقية كما كانت قد علمتها أمها. ركبت فيها وصارت تطير بها فوق «السيران» ومرت بها البومة وسألتها: هل تريدين أن تطيري معي يا زين؟

ـ إلى أين؟

ـ إلى السماء.

ـ سأطير معك لنرى «الماما». .

قالت البومة لزين: إنني أزورها كل ليلة. وقد أخبرتني أنها ستعود قريباً.

ـ إذاً أنت مثلي لا تصدقين عمتي بوران التي تقول لي إنها مسافرة عند الله ولن تعود.

ـ أنا لا أحب عمتك بوران.

ـ وأنا أيضاً لا أحبها. .

ـ هيا نطير معاً. .

ـ وسنرى الماما. . .

وراحت زين تحلّق عالياً بطائرتها الورقية إلى جانب البومة، وشاهدتها عمتها وهي تحمل ورقة مطوية وتركض بها وتكاد تسقط في النهر دون أن تراه، فزجرتها، وسقطت الطائرة بزين على الأرض وصارت زين تبكي بلا صوت. . أما فلك فصارت تغني: «مجروح جرح الهوى ومضروب بسكينه».

دمدم عبد الفتاح وهو يداعب سبحته: إن أنكر الأصوات. . وسكت فجأة. فقد شاهد ابنه لؤي يلحق بابن عمته دريد وقد حمل دريد في يده صحناً كبيراً ووضع فيه قنفذاً صغيراً. زجره وأمره بأن يرميه وحذّره من أشواكه. لم يبالِ به الصبيّان بل تابعا ركضهما ودريد يحاول حماية القنفذ الصغير الذي وقفت أشواكه ذعراً من لؤي وبطشه، ومن دريد الذي يحاول إنقاذه!

(١) الكزلك: النظارات باللهجة الشامية.

تأمل أمجد كف يركض نهر بردى دون أن ينصت كثيراً إلى الثرثرة على ضفافه جيلاً بعد آخر.. يتبدل دون أن يتبدل.. بين أشجار السرو والصفصاف والزيزفون والحور والدلب على جانبيه، يتبدلون ولا يتبدلون مثله ويركضون بين أولاده السبعة[1].. يأتونه دائماً أطفالاً ثم يلحقون بأطفالهم ثم يعجزون عن الوقوف ويتطاير غبارهم على ضفافه وهو يتابع مسيرته وقد ألف مباهجهم وهواجسهم وحروبهم وانتصاراتهم وحرائقهم وهزائمهم و تملقهم لعمهم حين يصير زوج أمهم و «عراضاتهم» ولعبهم لطاولة الزهر والبرجيس[2] والشطرنج، وقيلهم وقالهم على حوافيه.. ردد أمجد: «يا دايم الدوم كل مين إلو يوم»[3].

وسط الحلقات المتناثرة المتباعدة في بساتين الريحانية حيث يرسم بعض الفنانين لوحاتهم ويعزف بعضهم الآخر على العود أو ينقر على الدربكة وتتعالى الأغاني والموسيقى والأناشيد في بعض اللحظات مع اتجاه الريح، جاء صوت «النورية» الغجرية: «بصّارة، برّاجة، بصّارة، برّاجة» مع صفير القطار...

تناديها بوران التي تشك في نوايا الكون نحوها، لكن شقيقها أمجد يزجرها: كبّري عقلك يا بوران خانم!

لا يؤيده شقيقه عبد الفتاح المؤمن بالبخت والنصيب المكتوب، وتفكّر زوجته فلك بسؤال البصّارة هل ستنجب هذه المرة بنتاً أم صبياً ولكنها تظل جالسة في كسل لذيذ.

جهينة تلحق بالبصّارة بعينين ترسلان أشعتهما الزرقاء وتتسلق المرتفع صوب الغجرية وسكة القطار والأطفال يركضون خلفها لمشاهدته.

تناديها الغجرية وهي تقول لها: تعالي يا حلوة لأرى لك بختك. تمسك بكفها وقد انتزعته انتزاعاً وتقلّبه وتقرأه وهي تهدر: يا لطيف! أمامك عز كثير ومال كثير وحزن كثير وفرح كثير.. تقول جهينة بصوت مسكين وهي تنتزع كفّها منها: لا مال معي أدفعه لك. أنا الصانعة. هل تنجمين لي مجاناً؟

ـ لا مال معك إذاً لا بخت لك ولا بخت لي معك! وتمضي «النورية» وهي لا تلوي على شيء بحثاً عن حلقة أخرى أكثر مالاً على ضفة النهر الطويل.

* * *

---

(١) المقصود فروع بردى. (٢) البرجيس: لعبة نسائية بالودع. (٣) الكل عابر والله وحده الدائم.

شعر عبد الفتاح بألم في أصابع يديه فصار يدلكها ويردد لنفسه بصوت عال: «يا باني الحيط من الخيط»[1] هذا جزاؤك. ثم التفت إلى فلك وكاد يقول لها إنه متعب بعد أسبوع شاق، عمل فيه عشر ساعات كل يوم خلف نوله. خاف إنْ شكا لها أن لا تهابه بعد ذلك. حافظ على قناعه الحجري و «خلّيه بالقلب يجرح ولا يطلع لبره ويفضح»[2].

تنهّد مدمدماً: الشكوى لله.

سخرت منه بوران: ما القصة يا أخي؟ هل صرت تتكلم وحدك؟

قال لها: «كار الطاق لا يُطاق»[3]... تاجرنا بالأكفان فلم يعد أحد يموت...

قال أمجد ملاطفاً: أنت شيخ الكار وملك البروكار..

أجاب عبد الفتاح بلهجة لا تخلو من اللوم: كان عندنا أربعة أنوال وعدة عمال «نسّاجين». واليوم لم يبق إلا نول واحد.. ذهبتم كلكم إلى المدرسة وتركتموني مع النول.. وآل النعسان سبقونا كما آل المزنر ووسّعوا أعمالهم ونحن تراجعنا. وإذا لم نشترِ نولاً آلياً فعلى المهنة السلام.. لا بدّ من رأس مال و...

لم يكن أمجد راغباً في حوار ينتهي بشجار في السيران، ثم إن أهم طقوس السيران نسيان الهموم ومشاكل العمل، فقال بلطف: الله يقويك، الكل يعرف أنك تعمل بوجدان وبضمير حي...

ـ الله وكيلك، أقضي عشر ساعات لأحيك متراً واحداً...

ـ أعرف.. ولذا يوصون عندك على فساتين «أهمّ» العرائس.. لا أحد ينسج مثلك البروكار الحريري الموشّى بخيوط الذهب.. «ما كل من صف الصواني قال أنا حلواني».. اصبر يا أخي....

ـ ما بعد الصبر إلا المجرفة والقبر..

ـ ستتحسن الأحوال باطراد بعدما انتهينا من عساكر السنغال...

ـ «عيش يا كديش لينبت الحشيش»[4].

أراد عبد الفتاح أن يشرح ثانيةً شيئاً حول ضرورة شراء أنوال آلية، لكن تلك

---

(١) يا باني الحيط من الخيط: أي يا من يشيد الجدار من الخيط والمقصود صانع النسيج.

(٢) مثل شامي في مدح مزايا كتمان الألم.

(٣) «كار الطاق لا يطاق»: أي مهنة الحياكة بالخيطان لا تُطاق لأنها متعبة.

(٤) مثل شامي يُعبّر عن اليأس من تحسّن الأحوال.

الرائحة الكريهة التي صار يشمها وهي تفوح منه كأنه يتعفن أزكمته، فحبس أنفاسه وأخرج من جيبه من جديد زجاجة «عطر المشايخ» ووضع قطرة تحت أنفه.

قالت له فلك: ما حكايتك يا «أبو لؤي»؟ رائحتك مسك وعنبر وزكية دائماً، فلماذا تتعطر هكذا؟ كنت تعيب على المرحومة كثرة العطر ومنذ وفاتها بدأت تتعطر، فماذا حدث؟

سكت الجميع سكوتاً عدوانياً. كانت أية إشارة إلى هند محرّمة وعلى «الكنة» أن تحترم «قانون البيت». أخذت الدموع تتدفق من عينَيْ عبد الفتاح. كان منذ حداثة سنه معروفاً بدمعه السخي الذي تهطل منه قطرات كلما ذكر أحدهم ميتاً.. كادت فلك تضيف: وصرت أيضاً تنتحب بصوت عال منذ وفاة هند.. وتدخن خلسة بعدما كنت قد أقلعت عن التدخين...

لكن نظرة «الحاجة» سمّرتها فصمتت. صحيح أن حماتها حياة لم تذهب بعد إلى الحج ولكن أخلاقها السامية وسمعتها العطرة جعلت الجميع يلقبونها بالحاجة وينادونها بهذا الاسم مبجلين. وهي لا تشاركهم رأيهم وتجد حماتها سيدة باردة وخبيثة!

شعر عبد الفتاح فجأة بالحاجة إلى تدخين لفافة. لقد توقف عن التدخين منذ صار دفتر السيكارة بما يُعادل ربع مجيدي وحفنة التبغ بمجيدي وكان يشتريها من طريق الجبخانة. وصار مؤخراً يسرق سيجارة «بافرا» من تلك الخاصة بالضيوف في القاعة الكبرى، ويرضى بلفافة «خانم» الخاصة بالنساء ذات الطرف الأحمر إذا لم يجد «البافرا». خاف أن يطلب لفافة من همام صهره، زوج ابنته البكر خزامى، وتقول له فلك إنه تبدل.. ثم إن وجه صهره في هذا السيران لا يوحي بالاطمئنان ولا بطلب حتى لفافة منه. يبدو له ساهماً وعلى غير عادته. لم يهلل خلال الغداء للـ «يلنجي» والـ «بابا غنوج» والـ «قيمام بايلغي»(١) وبقية الأطباق الشهية، ولم يحدّثهم للمرة الألف عن «الباطرش» الحموي طبقه المفضل. أما فلك فمنذ أسابيع وهي تضايقه ولا هاجس عندها إلا تذكيره بأنه تبدل.. دمدم بصوت مرتفع: سبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر.

لم يفهم سامعوه ما الذي دعاه إلى هذا القول.. وأرادت فلك أن تسأله ثم

(١) يلنجي وبابا غنوج وقيمام بايلغي: من الأطباق الشامية.

تذكرت أنه لا جدوى من «تسميم» حياة الرجال.. ثم إنها لا تقول شيئاً إلا وتسخر منها فيحاء قائلة: «دجني دجتك العافية»[١]!.. كوني «نازيك»[٢].

***

استرخت النساء طويلاً بعد الغداء اقتداء بذكور السيران.

بطنان كبيران مدوران تأملتهما الجدة حياة وبدت لها خزامى طريفة وهي تجلس ببطنها المكور إلى جانب أمها الأربعينية المنهكة فلك، الحامل هي الأخرى.

ها هي حفيدتها حامل، ومن يدري فقد تنضم هي أيضاً ذات يوم إلى مئات من جدات الجدات الشاميات اللواتي يتندرن بأن أحفاد أحفادهن ينادونهن: «يا جدتي كلّمي جدتك»، أي يا جدتي جدتك تناديك!.. تنهدت بسعادة لهذا الخاطر ورددت لنفسها: دنيا.. وسبحان الحي الباقي.

بوران التي لا تضجر من ترتيب الزيجات كانت أول من غادر كسله وقالت لزوجة أخيها: غداً نزوِّج لؤي ورزان حين يكبران. أجابت فلك بشيء من الجفاء: أعوذ بالله.. هل نسيت أنني أرضعت رزان مع لؤي؟ إنه شقيقها بالرضاع! لم تتذكر بوران شيئاً كهذا، ثم إن لؤي أكبر سناً من رزان بكثير فكيف رضعا معاً؟ وهل ترفض فلك «اللئيمة» أن تصير هي حماة ابنها؟

أمسكت خزامى بيد زوجها همام ووضعتها على بطنها كي يتحسس تحركات ابنه / ابنته، لكنه جذبها منها بشيء من الجلافة كأنه مشغول بأمر آخر أكثر خطورة، ونهض من جانبها ومضى صوب عبد الفتاح وأمجد اللذين اكتفيا من «قش الزفرة»[٣] وانتحيا جانباً يلعبان «الطاولة»[٤].

جلس همام فوق البساط قربهما صامتاً يراقبهما ساهماً. وحين انتهى «الدق»[٥] الأول وبدأ الثاني، قال فجأة كأنه لا يرى أن عمه عبد الفتاح رمى النرد وجاءه «دوشيش»[٦]: توكلت على الله وسأسافر بعد أيام مع القاوقجي. خزامى أمانة برقبتكم ريثما أعود.

جمد الرجلان وتوقفا عن اللعب، ولم يرقص عبد الفتاح جذلاً كعادته كلما جاءه «دوشيش» وبدأ يربح، بل صمت كمن ضربته صاعقة (إلى أين يريد «الأفندي»

(١) مثل شامي عن قلة الرقة.
(٢) نازيك: خفيفة الظل ناعمة ورقيقة.
(٣) قش الزفرة: قيلولة مختصرة.
(٤) الطاولة: طاولة الزهر.
(٥) الدق: اللعب.
(٦) دوشيش: ٦ مرتان.

أن يذهب ويترك لي ابنتي الحامل وهي لم تتم سنتها في بيت عريسها بعد؟).

سأله أمجد بهدوء: هل تريد أن تبقى خزامى مع أختك هدى أم أن تعود إلى بيتنا؟

أجاب همام: تبقى مع أختي هدى وستحضر أمي وأبي من حماة للبقاء معهما ريثما تتخرج هدى من دار المعلمات وتلد خزامى وأعود منتصراً بإذن الله. شرد عبد الفتاح (وكيف تبقى مع أهله وصلتها بهم ليست على ما يرام؟ ما هذا الخبر النكد في السيران؟ حقاً إن البنات هَمٌ وبلاء، سواء زوّجهن المرء أم لا. وأنا محق لأنني لا أريد أن تلد زوجتي إلا الصبيان).

بالرغم من امتعاضه، شعر عبد الفتاح بالاحترام نحو صهره همام ولم يدهشه موقفه. ألم يسبقه والده عادل إلى القتال مع فوزي القاوقجي قبل أحد عشر عاماً في ثورة ١٩٣٦ في مثلث جنين ـ نابلس ـ طولكرم؟ ألم يشكُ له يوم جاء لخطبة ابنته لهمام قائلاً إن الجرح لم يؤلمه بقدر ما آلمه جحود الناس وقول البعض إن جيش الإنقاذ باع فلسطين لليهود في مسرحية لجيش بلا علم ولا نظام واتهموهم بإزعاج الناس بالخوات والممارسات المضحكة؟ طيّب يومها عبد الفتاح خاطره وقال له إن بين كل الناس أولاد حلال وبعض المندسين المرتزقة، ولم يخطر بباله أن صهره سيمشي على خطى والده.. ويترك له ابنته حاملاً!

الامتعاض غلبه من جديد حين وقعت نظراته على البطن المكوّر لابنته فقال لصهره همام مناكداً: بدلاً من أن تقاتل عصابات الهاغانا وشتيرن في فلسطين، لماذا لا تذهب إلى الشمال وتقاتل من أجل «إسكندرونة» التي قضمتها تركيا منذ ثمانية أعوام ولم نتحرك؟ أنا لا أظن أن جيش الإنقاذ قادر على طرد «اليهود»، فلماذا لا تبقى يا ابني في بيتك مع حريمك؟

ما كاد يسمع صوته وهو يقول ذلك حتى شعر بالخجل الشبيه بالندم. فأردف محاولاً «الترميم»: على أية حال الله يحميك يا ابني ويبارك بك أينما ذهبت.

قال همام: يا عمي عندما خرج يوسف العظمة يقاتل الجنرال غورو في ميسلون كان يعرف أنه لا يستطيع الانتصار عليه، لكنه قرر أن يستشهد حتى لا يقال إن الجيش الفرنسي احتل دمشق بلا مقاومة. إنها بطولة الهزيمة يا عمي. ألا يقاتل الآن عبد القادر الحسيني مع نفر قليل من جماعة «الجهاد المقدس»؟ أنا ذاهب مع القاوقجي حتى لو كنا سنُهزم. عيب أن يقال إننا اختبأنا كالحريم.

قال له أمجد: «الحريم» لم يختبئن ولم يقصّرن، بل حملن السلاح للمقاتلين تحت «البرلين»[1]. لا تقلق على خزامى. المهمّ أن تكون واثقاً من قرارك.

ـ لن أنتظر حتى يصل «اليهود» إلى وسط بيتي ويغتصبوا حريمي كما فعل من قبل عسكر تيمورلنك.

صمت الرجال ونهضت خزامى تحوم حولهم وقد توجّست شراً. لا بدّ وأنه أمر خطير ذلك الذي جعل والدها يتوقف عن لعب «الطاولة» بالرغم من أنه كان يبدو رابحاً..

تجاهل عبد الفتاح نظرات خزامى التي أحسّها تخترقه ونادى زوجته: «فلك.. سأتمشى قليلاً في البستان، عن إذنكم جميعاً». هرب من الميدان. ولم يبقَ أمام خزامى من تستجوبه إلا عمها أمجد بعدما أغمض زوجها همام عينيه متظاهراً بالنوم، فأغمض عينيه بدوره وقد حدس أنها تحوم حوله، وقرر أن لا ينقل إليها النبأ بنفسه.

شعر همام بنظرات خزامى تخترقه عبر عينيه المغمضتين، وتذكّر أمه وقلقها على والده خلال غيابه وأشفق على خزامى التي لم تتجاوز السادسة عشرة. بوسعه أن يتخيل وقع النبأ عليها.. (هذه حياتنا.. نساء قلقات مثل أمي واليوم زوجتي، ورجال مثلي يمضون إلى الحروب فوجاً بعد آخر.. رجال مثلي قُتلوا في حرب الاستقلال في اللاذقية عام ١٩١٩، ونساء مثل خزامى تبكيهم. رجال مثلي قُتلوا في حلب عام ١٩٢٠ وفي جبل الدروز[2] والغوطة أعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧، ونساء مثل خزامى يندبن. رجال مثلي هنا وهناك في الحروب المحلية والعامة، ونساء كأمي يزنرن الأرض ويبكين ببطون كبطن خزامى.. منذ سنة واحدة ارتحنا من عسكر السنغال، والآن جاء دور الحرب مع عصابات الهاغانا.. فمتى نرتاح؟).

فتح همام عينيه وأخرج علبة سجائره الـ «بافرا». استل لفافة. بدأ يدخنها وقد شرد بنظره في النهر. انقضت عليه خزامى: ماذا كنتم تقولون؟ ماذا قلت لهم حتى توقفوا عن اللعب بـ «طاولة الزهر»؟

أجاب بجفاء: لا شيء.

امتلأت بشحنة عدوانية فصبّت نقمتها على لفافته: حرام «مصروف» التدخين. أنت تنفق على السيجارة أكثر من إنفاقك على «جهاز» الطفل وثيابه وسريره وأشيائه وحفاضاته.

---

(١) البرلين: العباءة النسائية الشامية وهي قصيرة تصل إلى ما فوق الخصر.

(٢) جبل العرب.

أجابها بجفاء مماثل: وأنت ترتدين الفستان الأحمر وتعرفين أنني لا أحبه ولا أريد أن ترتدي الأحمر. لا توجد في أسرتنا في حماة سيدة محترمة ترتدي الأحمر.

ـ ولكنك تعيش في دمشق أنت وأختك هدى خانم من زمان. وأختك ترتدي الأحمر وتخرج إلى الشارع أيضاً.

ـ ها قد عدنا إلى حكاية أختي. ألن نرتاح من الشجار ومن «دقي واعجني»؟

تدخلت الحاجة بصوت نصف مداعب: صلّوا على النبي يا شباب.. «البحر لا تعكره ساقية»..

قال همام: اللهم صلِّ وسلّم وبارك عليه. حاضر يا حاجة. ونهض ومشى صوب شجرة الكينا الكبيرة على ضفة النهر وهو يدمدم منشداً: «صهيوني دبّر حالك نفدوا الثوار / فيهم فوزي القاوقجي البطل المغوار».

قالت الحاجة لخزامى تقرّعها: لا تكوني «أدبسيس»[1] مع زوجك. طلع الشعر على لساني وأنا أنصحك بمعاملة أخته هدى بالحسنى ريثما تنجز دراستها في دار المعلّمات وتعود إلى حماة. إنها لطيفة معك..

ـ إنها كذابة و «مكولكة»[2].

ـ أنت تبالغين. هدى لطيفة معنا جميعاً.

ـ ولكنها شريرة.. و «يا ما تحت السواهي دواهي».

وجاء أحد أولاد الجيران المدعوين يبكي لأن دريد ضربه وهو يشير إلى يده ويقول «واوا». فقبّلت له الحاجة يده قائلة: ها هي قد شفيت و «صحّت»، فسكت الصبي وعاد إلى اللعب. وتابعت نصائحها لخزامى: زوجك قبرك فلا تناكديه. ما من خيار آخر لك. وإذا هجرك ستتذكرين أفعالك بندم...

رددت خزامى بصوت خافت: ما الذي سأذكره منك يا سفرجل.. كل عضة بغصة. نحن طبخنا وهو تدلل. قلب الخسة الطري له. قطعة اللحم الشهية له. لماذا هو «فرفور وذنبه مغفور»؟

علا صوت فضيلة وحميدة وهما تنشدان: «يا أولاد محارب يويو ـ شدو القوالب يويو ـ قوالب صيني يويو ـ شغل الفليني يويو ـ علي ما مات يويو ـ خلّف

(١) أدبسيس: قليلة التهذيب.

(٢) مكولكة: مرائية.

بنات يويو ـ بناته بيض يويو ـ مثل العفاريت يويو ـ بناته سود يويو ـ مثل القرود يويو. . .».

يهمس همام متضايقاً من صوتهما: يقصف عمر البنات. . صحيح مثل القرود. .

تكرران: خلَّف بنات. . خلّف بنات. . يتأمل همام بطن زوجته خزامى بذعر (تراه يخفي بنتاً؟ يا للهول!). أما فضيلة وحميدة فتتابعان لعبهما وتزعقان وقد أدارت كل منهما ظهرها للأخرى وشبكتا أذرعهما من الخلف وكل واحدة تحمل الثانية على ظهرها بدورها وتزعقان معاً: أنا النحلة / أنا الدبور / أنا مسافر / على بيروت. وينشد لؤي ودريد: «كرسي الباشا عواشا». . وهما يحملان ابن الجيران على أكفهما المتشابكة كوسادة مقعد مفترضة.

تتنهد خزامى وعمتها بوران تسألها: هل تريدين أن أبصّر لك بالفنجان؟ لا تجيب. . تتأمل اللوحات الضوئية التي يعاد تشكيلها على تموجات النهر في كل مرة يهز فيها النسيم الأغصان برفق يكاد يكون لامرئياً لامسموعاً. تتنهد (يا لتلك الأيام الوعرة!). تأسف لأنهم أخرجوها من المدرسة قبل شهادة «البريفيه»[1] بصف من أجل هذا الإزعاج الملقب بالزواج وكانت تتوهمه جنة. تدخل إلى صمتها وتختبىء داخله وتغلق الباب خلفها. (لو أن همام يكلّف نفسه عناء الحوار معي. لو أنه يبوح لي بما باح به لوالدي).

يعلو صوت بوران وهي تغني: «سكابا يا دموع العين سكابا / تعي وحدك ولا تجيبي حدابا».

استرقت فيحاء النظر إليها وشاهدتها أرملة غارقة في السواد ولكنها تغني وتضحك من قلبها كله فقالت لنفسها: يا إلهي كيف تنتهي الأشياء!. . لا أحد يشجع بوران على الغناء فتغني بصوت أكثر ارتفاعاً: على دلعونا على دلعونا. . وتنضم إليها الحاجة!. ثم تنشدان: يا طيره طيري يا حمامة / وديني لدمر والهامة. . هاني ظل هادئاً طوال السيران ولم يسمع أحد نواحه اليومي كأن صوت النهر هدهده. أما لؤي فقد لحق بالكرة حتى حافة النهر تحت الدلبة وصرخت به الحاجة وقد توقفت عن الغناء: توقف واتركها. . أمّك كبرّتك كل شبر بنذر. . وجاء دريد يبكي من خدش بسيط في إصبعه، وهدّأت الحاجة من روعه وقالت: عرج الجمل من شفته. . لا

(١) البريفيه: الشهادة المتوسطة.

تفوروا كالحليب يا أولاد.. بعد قليل نركب «الأطومبيل»[1] ونعود.. قالت بوران: يا فيحاء اغلي لنا قهوة. لم تجب فيحاء هذه المرة وظلت تقرأ في كتابها وتظاهرت بأنها لم تسمع. تأملتها خزامى بحسد. نهض أمجد على رؤوس أصابع حزنه كي لا يسمعه أحد وأخذ يتأمل شجرة الدلب بحثاً عن البومة التي تحبها زين وأمها. كانت هناك في عشها المتقشف داخل غصن مجوف مغمضة العينين. تذكّر بحسرة هند وقال لنفسه وهو يتأمل العينين الشاسعتين للبومة وقد فتحتهما فجأة: يا للحزن الملتبس.. والموت الملتبس!

***

أنجزت ماوية إطعام ابنها هاني رغماً عنه كي يزداد وزناً، ولا تقول حماتها إنه «يأكل من زيت الجامع» عند أهلها، ثم شعرت بالضجر...

فهي لا ترتاح كثيراً إلى السيران، لأنها بحاجة دائمة إلى عيون غريبة تقوم مقام المرايا وتقول لها في كل لحظة إنها جميلة. كان قد استقر رأي الجميع على أن ماوية جميلة ولكن حظها سيء، وكانت ماوية أكثر الناس اقتناعاً بذلك. وكل ما تقوم به من صغيرة وكبيرة يكاد يكون استعراضاً يومياً لهذه «الحقيقة» المؤكدة في نظرها. فهي تعتني بجمالها كثيراً وتضع المساحيق على وجهها مع طبقة إضافية من أحمر الخدود، وتبدو شقيقتها بوران وابنة عمها فيحاء وزوجة شقيقها فلك شاحبات وشبه مريضات قياساً إلى توردها.. ولكن زينتها الأولى كانت الحزن الذي يليق بجميلة سيئة الطالع مثلها. وإلا فلماذا حباها الله بزوج لديه العلم والمال والجاه، أستاذ جامعي فاضل لا علة فيه، باستثناء أنه يضربها! لطالما قالت لها الحاجة قبل طلاقها: «الرجل في البيت رحمة ولو كان فحمة»[2]، فكوني طويلة البال. وكانت النصائح كلها من هذا النمط. لكن ماوية قررت أن صفعة إضافية واحدة على خدها تكفيها لتنسى ذلك الهراء كله ولتعود إلى «البيت» وهي تجر خلفها ابنتها أمية وتحمل طفلها هاني على ذراعها. عادت وآثار عشرات الصفعات على وجهها والكدمات الزرق تلطخ جسدها بعد عشرة أعوام من الزواج والضرب والاعتذار والشجار والصلح وتدخل الأهل وندمه وتوبته وضربه ثانية لها. وحين لوح بطلبها إلى بيت الطاعة، ذهب إليه أمجد وكلّمه بالفرنسية وليس بالعربية إذ إنه كان قادراً على محاورته بعقلانية بالفرنسية فقط، أما حين يتحدث سليم بالعربية فيصير لاعقلانياً! وهكذا

(١) الأطومبيل: السيّارة.

(٢) فحمة: قطعة فحم. وهذا القول مثل شامي.

أقنعه أمجد ووجهاء الحي أن أحداً لا يستطيع حقاً بعد اليوم إرغام امرأة على معاشرته و« هذه الطينة ليست من هذه العجينة»، فتركها وشأنها مع مخاوفها من اليوم الذي تبلغ أمية فيه سن التاسعة ويسلبها حضانتها لها وحضانة الصبي حين يبلغ السابعة. واشترط لتطليقها أن تتنازل له عن «المتأخر»(١)، ولم تتردد في التخلي لزوجها عن «حقها ومستحقها» كما تردد الحاجة في مجالسها مؤكدة أنها نصحت ماوية بالعودة إلى سليم فرفضت قائلة: «عاشقك لا تتزوجيه ومطلقك لا ترديه»!

ولكن ماوية ليست جمالاً حزيناً متحجراً، وظلت بالرغم من مصيبتها تتدفق بالود ودفء القلب نحو كل ما يحيط بها رغم إحساسها بقسوة حياتها كمطلقة وترادادها لمن حولها كلما غازلها أحدهم: «كل من رآني أرملة شمَّر وجاءني هرولة». لا تتدخل في شؤون سواها وتزين عرائس الحي وتتقن تصفيف شعورهن بعد أن تقوم بتحمية السيخ العريض الخاص بتجعيد الشعر على المنقل وحتى على «بابور الكاز»، وتبتكر التسريحات لهن، وتحيط عيونهن بالكحل العربي وترفض استعمال البودرة البيضاء كالكلس لوجوه السمراوات كما يفعلن عادة، وتبدو وجوههن وكأنها مطلية بالكلس ومركبة فوق رقبة من الطين، وتحاول إقناعهن باستعمال أشياء جديدة ملائمة اللون تشتريها من «مخزن فمينا» الإفرنجي في طريق الصالحية. ولم تعد مهمتها تقتصر على تزيين العروس وأمها وحماتها، بل معظم المدعوات في حارة الياسمين وسواها حتى إن بعض العرائس كن يأتين إليها دونما معرفة من حي القنوات والميدان وحتى من الأحياء الجديدة كعين الكرش والروضة ونوري باشا راجيات منها أن تزينهن وتسرح شعرهن ليلة العرس حاملات بعض الهدايا. ولم تكن ترد طارقة ولا هدية، بل وترافق العروس أحياناً إلى بيتها لتزيين شقيقاتها وأمها ومعظم المدعوات القريبات، وتقبل بامتنان ٢٥ ليرة تدسها في جيبها أمٌّ فرِحة بعرس ابنتها وتخرجها خلسة من جيبها لتخفيها في عبها داخل منهدتها.

حدقت ماوية في فيحاء. لا تدري لماذا استفزها منظرها وهي تقرأ مستغرقة في كتابها. تأملتها (ليس بمقدوري - حتى أنا - أن أجعلها تبدو جميلة، ببشرتها المشوهة بآثار الجدري وفمها العريض وأنفها الكبير. ولعل بشاعتها أنقذتها، فهي تذهب وتأتي إلى المدارس على هواها دونما مرافقة. عيناها فقط جميلتان ولكن شعرها الأجعد كشعر السنغاليين لا يمكن تطويعه حتى بالسيخ الساخن. ثم إنها أطول قامة مما ينبغي كأنثى، وضخامتها تجعلها شبيهة بالفيل ومثل «قطرميز مصر لا رقبة ولا

(١) المتأخر: مؤخر الصداق.

خصر». فلماذا تبدو على وجهها باستمرار علامات الرضى، مع أن «الجمل لو رأى حدبته لوقع وانكسرت رقبته». ثم إنها يتيمة الوالدين أقامت معنا في «البيت» ريثما عاد شقيقها مأمون من دراسته في باريس)..

لم تدر ماوية ما الذي يستفزها في فيحاء. عجزها عن تزيينها لبشاعتها؟ أم قوتها وقدرتها على أن تقول نعم ولا.. **(لو ضربها سليم كما كان يضربني لضربَتْه بدورها وكسرت له يده!)**. لعل ما يستفزها هو السعادة الداخلية التي تنعكس على وجه فيحاء ثقة بالنفس تبلغ حدود الوقاحة أحياناً، كأنها صبي وليست بنتاً «مكسورة» الخاطر ويتيمة؟ **(أم أنه الكتاب المتربع دائماً في حضنها؟ عالم حُرِمتُ منه أنا وأختي بوران إكراماً لتعليم أمجد «الصبي» بدلاً منا نحن البنتين كما هي عادة أهل حارتنا. ويا لحظنا بوران وأنا لأننا تعلّمنا القراءة والكتابة على الأقل.. أما اختي بهيجة فأمّية كأمنا..)**.

كأن فيحاء شعرت بعينين تتفرسّان فيها فرفعت عينيها عن الكتاب وشاهدت عمتها ماوية تجلس إلى جانبها وتسألها بعدوانية ليست من عاداتها: إلى أين سيوصلك هذا الكتاب الذي أراه دائماً في حضنك؟

ـ إلى دار المعلمات. أريد أن أتعلّم لأصير معلمة مدرسة، وليصير لي راتب. وتابعت بصوت خافت: المرحومة هند نصحتني بذلك. لا أريد أن أكون عالة على أخي وعلى زوجته حين يتزوج. لولا المرحومة لما عدت إلى المدرسة.

ـ سمعت أنك تقومين بتدريس الحساب لولديّ الجيران.

ـ أجل. وأتقاضى منهم أجرة ذلك. المرحومة كانت ثرية وبوسعها التدريس مجاناً، أما أنا فـ «على الحديدة».

واتبعت فيحاء عبارتها بقهقهتها المدوية المشهورة.

لم تضحك ماوية بل سألتها: أليس من العيب أن تتقاضي مالاً من الجيران؟

أجابت فيحاء بلا مواربة: بل العيب أن لا تتقاضي أنت أجرة تزيين العرائس. الدنيا تبدلت يا عمتي...

ـ ما هذا الكلام الذي تقولينه؟

قهقهت فيحاء بضحكتها الفياضة بطيبة القلب وقالت: «من يدق الباب يسمع الجواب».

تدخلت بوران التي لم يكن يراها أحد إلا وهي تلتهم شيئاً. وكانت لحظتها

تتلذذ بالتهام تينة مجففة بعدما حشتها بجوزة: علامَ تتهامسان؟ على الدكتور مأمون الذي غاب عن السيران. . منذ عودته قبل أشهر من فرنسا دكتور «قد الدنيا»، لم نره إلا مرات قليلة. ما معنى «مختبر التحليل» الذي «فتحه»؟

قالت فلك ضاحكة معلّقة على تدخل بوران شقيقة زوجها في كل شاردة وواردة دون أن تتوقف عن الأكل: «عينها بالطبق وأذنها لمن زعق»!

لم تدع فيحاء بوران تفسد لها جو المباسطة مع ماوية وتابعت همساً في أذن هذه الأخيرة: كان عليك ترك زوجك من زمان بدل هدر عشرة أعوام من عمرك. . فلا تهدري المزيد وعودي الآن إلى الدراسة. . أو اعملي مزينة واكسبي مالاً، أم تُراك تنتظرين عريساً آخر يضربك؟ أم تنتظرين أن يكبر هاني لـ «تبركي»[1] عنده وعند كنّتك؟

ـ لا أريد غير السترة. جاء الآن دور ابنتي أمية لتتزوج. صارت صبية. . بعد أعوام تصير عروساً.

ـ حرام عليكي. . اتركيها تتعلم. . الزواج بطيخة مغلقة لا أحد يعرف ما بداخلها. . العلم مفيد دائماً. .

بدأ هاني بالبكاء وقد عاودته نوبة مغص من نوباته. هرعت إليه بوران، وحملته وقلبته على بطنه ومددته فوق فخذها وصارت تقرأ عليه بعض الأدعية.

قالت فيحاء لماوية: هذا الطفل مريض. لماذا لا تدعين أخي الدكتور مأمون يفحصه؟ يجب أن «تعرضيه» على أي طبيب إذا كنت لا تطمئنين لمأمون العائد حديثاً من «التخصص».

أجابت ماوية: لقد اصطحبته إلى الدكتور مراد وقال لي أن لا مرض عضوياً في بدنه. . تعرفين الدكتور مراد، عمره سبعون سنة ويداوي الناس «من زمان وزْمِنِه»[2].

ـ اعرضيه على طبيب آخر إذا كنت لا تثقين بمأمون. لا يكفي أن تعلقي له على صدره ثلاث خرزات زرقاء.

ـ بوران قالت إن هنالك من كتب لهاني عند الشيخ. حماتي هي التي فعلت ذلك على الأرجح كي ينغص لي عيشي واضطر لإعطائه إلى والده.

(١) تبركي: أن «يبرك» العجوز أي يصير مقعداً أو مسناً عاجزاً عن النهوض.
(٢) زمان وزِمْنِهْ: تعبير شامي المقصود به: منذ وقت طويل.

سألتها فيحاء باهتمام: ألم يكن مريضاً هكذا قبل طلاقك؟

ـ لا. لقد بدأ بالبكاء بعد الفطام. أرسل له الشيخ عفريتاً ليعذّبه ويعذّبني معه منذ فطامه حين لم يعد بحاجة إلى ثديي وصار بمقدور حماتي أن تربيه!

كادت فيحاء أن تفتتح محاضرة حول خزعبلات الجهلة وخلطها بالدين وعن شيوخ ليس لديهم من البركات إلا العمامة، لكنها صمتت واهتمت بهاني ملحّة عليها: اسمعي مني ودعي أخي مأمون «يفحصه». إنه يفهم في الطب أكثر من «الشيخة بوران» التي بدأت تتحول منذ وفاة زوجها إلى «شيخة الحي». وقهقهت فيحاء بصوتها المجلجل لنكتتها الخاصة بينما تعالى صوت هاني بالبكاء فهرولت ماوية صوبه، ولم تسمع فيحاء وهي تقول لها: «زمان أول تحوّل». . فدعي مأمون يعالجه.

* * *

يتأمل أمجد الفضة المنصهرة بين ضفتي النهر ويغرق في أفكاره بعيداً عن أحاديث النساء التي يسمعها عبر زمجرة الماء الشبيهة بأصوات عصافير طريفة.. تذكّر هند بحنين وزين تقفز حولها رافضة اللعب مع الآخرين، تريد «التسلط» على أمها كما تحاول مؤخراً الاستحواذ عليه وتغار من دريد الذي يجد فيه أباً بديلاً.. (نهضت هند عن البساط في السيران الأخير بصعوبة. تحركت ببطنها المكور وهي تسند يدها إلى الوسادة الكبيرة ولبّت رغبة زين في النزهة معها بين الأجمات لتنفرد بها. لحقتُ بهما أرافقهما كالرجل اللامرئي، وهما تهملاني وتتأملان معاً تفاصيل الأشياء بتمعن.. وهند تعلّم زين كيف ترى الأشياء: ورقة الشجرة.. الحرذون الصغير اللطيف الراكض.. العصافير.. أشجار الحور والصفصاف والسرو. تحدّثها هند كما لو كانت شخصاً «كبيراً». وزين تعشق ذلك. تكره الدمى الميتة واللعب الغبي بها والتظاهر بأنها أم الدمية وتفضل عليها لعبة الطبيب والمريض مع دريد ولؤي رغم زجر عمتها لها ولهما..

ترشدها أمها إلى الطيور التي تملأ الأشجار.. وأنا أنصت إلى رقتها المطلقة وهي تذوب تحناناً وتهمس لزين: انظري هذا عصفور دوري يلتقط خبزه ويهرب به، يأكل لقمة ويتركه وهو جائع.. العصفور عقله صغير، لا يثابر حتى على أكل طعامه.. هذا حسون جميل الصوت. هذا نورس نهري.. إنه يصطاد السمك من النهر. انظري عالياً، هذا الذي يطير ويحلّق نسر.. إنه رمز بلدك سورية...

من داخل شجرة دلب مظلمة مكتظة الأغصان أطل طائر نصف غاف واسع العينين يفتحهما ويغلقهما. لفت أنظار زين فسألتني برهافة كي لا أشعر أنني مهجور: بابا ما هذا العصفور الحلو؟ فتقول لها هند: هذا طائر البوم الذي تسمعين صوته ليلاً في البيت. لاحظي كم هو جميل العينين.. إنه لا يحب الناس كثيراً فهو يخاف من شرورهم وشؤمهم...

وتسأل زين ببراءة: هل هذا هو الطائر الذي تقول عمتي بوران إنه قتل زوجها؟ وننفجر ضاحكين أنا وأمها..

تصرّ زين على الاقتراب منه وتأمله. تقول لها أمها: سيهرب. إنه مثلي لا يحب الزحام.. ثم إنه بوم «طفل» صغير. دعيه وشأنه إذ يبدو أنه لمّا يتعلّم الطيران بعد. ولكن زين تفلت من يد أمها وتركض صوبه. لا يهرب.

يحدّجها البوم بنظرات تكاد تكون إنسانية. «هل أستطيع أن ألمسه؟». لا. سيظن أنك تريدين إيذاءه وسيدافع عن نفسه. وهو مقاتل شرس وقد يجرحك «بمخالبه». لا تبالي زين بنصيحة أمها وتتقدم من البوم شبه مسحورة وهي تقول: ما أحلى عينيه!

ـ قلت لك إنه لا يحب الناس لأنهم يؤذونه ويقتلونه بلا سبب.

تلمسه زين ولا يتحرك. تقترب منه هند وتقول لزين: إنه مجروح الجانح. تصرّ زين على اصطحابه وعلاجه رغم احتجاج أمها بأن ذلك قد يضايق الباقين..

تسأل زين: لماذا؟

تقول لها أمها بتحبب: أليس عندك غير كلمة لماذا... لماذا؟ لماذا لا تسأليهم هم؟ تسألها زين من جديد: لماذا؟ لماذا؟ تقول أمها: البوم طائر مثله مثل العصافير كلها.. طائر حلو.. تهتف زين: إنه عصفور يرتدي نظارات مثل التيتي[1]. ما أحلاه! وتتدحرج بجسدها الصغير وهي تحمل البومة بين يديها فتستكين لها بجانح جريح يثير الحنان وتبهرها بعينيها المختلفتين عن عيون العصافير الأخرى.. تغني زين: عصفور له «كزلك» وتركض به صوب بقية أفراد الأسرة تحت الدلبة الأخرى. عمها عبد الفتاح الذي كان ينعم بغفوة هادئة يرى البومة ويصعق: فأل الله ولا فألك يا بنت يا «مسخوطة»[2]. جدتها تقول لها: اتركي البومة وشأنها... اتركيها في الشجرة وقولي لها طيري يا مباركة كما أقول للألفية: سيري يا مباركة. عمتها بوران

---

(١) التيتي: الجدة باللهجة الشامية.

(٢) مسخوطة: ممسوخة.

تصرخ: ما المصيبة التي ستحل بنا الآن؟.. ارمي بها في النهر وإلا مسخك الله بومة. خيل إليّ أن زين تمنت تلك اللحظة لو تتحول إلى بومة تطير كالعصافير كما يحلو لها بعيداً عن عمتها بوران التي تزجرها: تخلّصي من هذا النحس...

أطلق شقيقي عبد الفتاح النداء: تعالوا يا أولاد واقتلوا البومة قبل أن تنحسنا جميعاً. هجم دريد مع الأولاد لافتراس البومة. قبل أن أعي خطر ما يدور رأيت زين تتسلق بجسدها الهش الدلبة وهي تضع البومة داخل ثوبها عند الصدر هاربة منهم.. أصبنا جميعاً بالذعر، فتَحْتَ شجرة الدلب هناك «الدوّار»[1] الذي لم يسقط فيه ولد وخرج حياً منه، ولا بد من سباح ماهر ليجرؤ على محاولة إنقاذه. ولطالما غرق فيه المنقذ والضحية معاً من أولاد الفلاحين. ففي الدوار تتسارع مياه بردى بصورة جنونية بعد مغادرتها لمعمل توليد الكهرباء في الجانب الآخر من القرية. وكيف لزين أن تعرف أنه دوار ماء شديد القوة يشد أي سابح أو تدرك أن جمال الجلسة تحت الدلبة آتٍ من ذلك المشهد النادر للنقيضين: أشجار كثيفة ووديعة تجاور خطورة الدوار في القاع المفترس.. ولكن إذا سقطت زين في الماء مع البومة المنحوسة (أو بدونها)، فلن يغامر أحد بمحاولة إنقاذها خوفاً من جنّي الدوار، وإذا فعلتُ فسأغرق معها على الأرجح لأنني لم أتعلّم السباحة على أصولها وأعوم بصعوبة. ولعل شجرة الدلب بدت لزين شاهقة وشاسعة مظلمة الداخل كبيت للأشباح مغلق على أسراره، فاكتفت بتسلق غصن قريب وعلى وجهها ارتسمت أمارات الخوف والعناد في آنٍ وهي تحمل البومة هاربة من الصبيان. جلستْ كما لو أحست بالأمان وأخرجت البومة من صدرها، ولكن النهر الهادر في القاع والذي لم تعِ خطره من قبل أخافها فيما يبدو. تقدمتُ منها وقلت لها بهدوء: اتركي البومة على الغصن لترتاح وأعطيني يدك لأساعدك على الهبوط.

أعرف أنها كانت تحبني رغم إهمالي لها لأنها ليست «زين العابدين». كم ندمت في تلك اللحظة لأنني لم أكلف نفسي حقاً عناء إخفاء تلك الحقيقة عنها. وبالرغم من ذلك، كان يكفي أن أمد يدي إليها لتتجاوب معي كأنها تكنّ لي حباً خاصاً أو أنني أحب أن أعتقد ذلك!

ولكن الأصوات تكاثرت عليها: عمتها الكبيرة بوران والثانية ماوية وزوجة عمها فلك وجهينة ودريد وبقية أولاد عمتيها وأمها وعمها، فتابعت الهرب داخل

---

(١) الدوّار: موضع تكثر فيه التيارات النهرية.

مدينة الدلب إلى الأعلى مع البومة اللعينة وتسلقت غصناً آخر صغيراً قريباً منها.

صرختُ بهم: اسكتوا جميعاً ودعوها وشأنها واتركوني أتصرف. الذعر عقد لسان أمها، وعبر هلعي على زين فوجئت بمدى حبي لتلك الطفلة التي كنت أطلب منهم إبعادها عن وجهي منذ ولادتها. صمت الجميع. مددت نحوها يدي مبتسماً ووقفت أمها إلى جانبي بعينين تسيلان حناناً وكررتُ: تعالي يا حبيبتي. أودعت زين البومة أحد الأغصان بعدما قبّلتها، ثم مدت يدها نحوي). تنهَّد أمجد بحرقة وكله حنين إلى هند وأيامه معها. حتى اللحظات التي بكى منها في الماضي صار يحنّ الآن إليها.. ولكن!

* * *

انتهزت جهينة فرصة انشغال الأسرة بالقيلولة أو الثرثرة المسترخية ببطون ممتلئة وعادت إلى الدغل حيث ينتظرها عيدو وهي تفرك شفتيها بالحمرة الدامية لحبة «توت سياج»[1] قطفتها، وتكاد تتعثر بتنورتها المخملية الجميلة البنفسجية العريضة الطويلة حتى لتبلغ تراب الأرض ببطاناتها العديدة الملونة، وكانت سيدتها المرحومة قد وهبتها إياها.

حين وصلت إليه شاهدته يحفر بموسى على جذع شجرة الحرفين الأولين من اسميهما وقد أحاطهما بقلب عميق جرّح به قلب الشجرة. هبط عليه حضور جهينة كطائر مسحور، فأخذ عيدو يرتجف كقصبة في الريح كما حدث له يوم طبع على خدها القبلة الأولى المفعمة بالذعر والبراءة على السطوح وكانا صغيرين. أخذها هذه المرة بين ذراعيه القويتين وضمّها إليه كالمسعور حباً والتهمها بالقبلات على وجنتيها وفوق عينيها الزرقاوين وجبينها وشعرها الأشقر وشدّ عن كتفها القميص القطني الأبيض والتهم عنقها وانحدر صوب نهديها وكانا يرتجفان في زلزال يرسل موجاته في جسديهما. لكنها تراجعت فجأة وقالت: لا.. لا.. وتذكرت «ليلى بنت الفقراء» في سينما «العباسية» التي رافقت إليها بوران وأختها بهيجة حين جاءت من حمص خصيصاً لحضور فيلم ليلى مراد، وأنور وجدي الذي كان سيحضر شخصياً إلى قاعة سينما «العباسية»، وخذل النساء في آخر لحظة ولم يحضر «شخصي» كما قلن. هي أيضاً «ليلى بنت الفقراء» ولن تستسلم للحبيب إلا بعرف الله والناس: الزواج.

---

(١) توت سياج: نبتة توت برية كثيفة وكلها أشواك تزرع على أسوار الحقول لأشواكها أو لثمرها الذي يحبه الصغار رغم حموضته.

والزواج لا يعرف التفاحة وورقة التوت كما سبق للحاجة أن أوصتها مرة كل أسبوع على الأقل منذ طفولتها.

ابتعدت عنه وكل ما فيها يذوب نحوه انصهاراً واشتهاءً. فهم كل شيء بومضة عين. قال لها: سأتزوجك. كرّر: سأتزوجك. قالت له: لا، كي لا يغمى عليها. هل يعقل أن يتحقق الحلم هكذا كما في السينما؟ ضحكا. وكرر العبارة منتشياً كأنها بدأت كذبة ثم صدّقها. قال لها من جديد ولكن بلهجة جادة كمن يتلو قسماً: سأتزوجك. . خافت أن تصدق فتجن فرحاً، فقالت له من جديد «لا» وتركت نفسها تستسلم لقبلاته التي تغطي جبينها ثم تنحدر لالتهام شفتيها. وهمس: ستصيرين جهينة خانم، كنة بنت الباشا. . وكادت جهينة تطير وتغني: «يا دي النعيم». بل خيّل إليها أن صوت ليلى مراد يملأ الوادي كله ويسيل من الأشجار.

لم يكن عيدو يجهل أية عراقيل ستواجه حبهما. فقد خطبت أمه مع سلفتها(١) لابن عمه الكبير في الشهر الماضي صبية حلبية من أسرة «صائم الدهر» الثرية. والدها من عليّة القوم والثراء. وأمها من أسرة «فوق العادة» العريقة. فأية ردة فعل سيواجهها حين يطلب منها خطبة «خادمة» كسلفة لهذه العروس؟ ابن عمه يتزوج ابنة أسرة وهو يتزوج من خادمة! ولمَ لا ما دامت تقول للقمر قم لأجلس مطرحك؟ راح يكرر: سأتزوجك، ربما ليصدّق أذنيه وهي تطير فرحاً وتنشد بصمت: «يا دي النعيم». نسيت جهينة كعبي قدميها المتشققين وأصابعها المتورمة في ليالي البرد وصقيع الماء على بلاط المطبخ ونومها على «السقيفة» حيث اعتبرت نفسها محظوظة لأنها لا تنام في غرفة «النصبية» في منتصف السلم مثل خادمة آل العسيري كما يقال. تذكرت خوفها وبردها ليلاً كلما تحركت الفئران أو خرجت الأفعى الألفية وهي مغطاة بلحاف الوحشة والحزن والليل البارد، وسألته بقلق مغرور: هل سيرضى أهلك بي؟

القبلات المنهومة المنهوبة مدّته بطاقة هائلة على كل شيء بما في ذلك الكذب، فقال لها مؤكداً: ولم لا وأنت أجمل صبية في الحارة؟ وكان يدهشه وهو يكذب أنه يصدق نفسه ويقرر بصوت عالٍ: سأنتحر إذا رفضوا زواجنا. . الموت أو أنتِ. .

وقبل أن تبدي المزيد من المخاوف وهي تسلّط عليه الشعاع الأزرق المسحور

---

(١) السلفة: زوجة شقيق الزوج.

لعينيها قال: سأمضي الآن قبل أن يراني أحد.. وداعاً يا حبيبتي..

كان قد قطع الطريق الطويلة من دمشق على أمل امتلاكها على العشب والتراب كما حلم دائماً، وها هو يغادرها دون أن يلمسها كأي فارس شهم. قال لنفسه ذلك وكاد لا يصدق أنه يحدث له، فصار يكرّر بصوت نصف عال: سأتزوج منها أو أنتحر.

***

بالرغم من أنه ما من شاردة أو واردة تفوت بوران خانم، إلا أنها لم تنتبه لحمرة وجنتي جهينة والتهاب شفتيها، ولم يخطر ببالها أن عيدو صار يلحق بهم إلى السيران ويعرف وادي الريحانية وأدغاله وقد قرأ كتاب الماء والخضرة وزرقة العيون فيه. استرخت على البساط وقد أسندت ظهرها إلى شجرة الدلب كملكة متوَّجة.. وعامت فوق مجدها كأرملة بطل حين قال لها شقيقها الدكتور أمجد إن صحافياً آخر يريد أن يقابلها لتحدّثه عن زوجها الراحل الذي مات شهيداً بحق مع بقية رجال الدرك السوريين في حامية البرلمان. بماذا تحدّث الصحافي؟ ابتسمت بمرارة وقد تذكّرت أنهما كانا على وشك الفراق وربما الطلاق قبل رحيله، ومع ذلك فقد فُجعت فجيعة حقيقية بمصرعه.

دبت «الولاويل» لخراب بيتها حين أعادوه إليها جثة مفقوءة العينين بعدما مثّلوا به وبرفاقه الدرك من حرس البرلمان ودفنوا بعضهم أحياء جرحى. شاهدته بذراع مقطوعة، الذراع اليمنى بالضبط أما اليسرى فما زال خاتم الزواج في بنصرها بالرغم من أنها سمعت أنهم قطعوا الأصابع لسرقة الخواتم واقتلعوا الأسنان الذهبية للمحتضرين.. وها هي لا تزال حتى اليوم ترتدي الخاتمين معاً في بنصرها الأيسر، خاتمها وخاتمه في الإصبع ذاتها إشارة إلى الحداد والامتناع عن أي زواج جديد. قلبت المرايا إلى الداخل في غرفة نومها، وعلّقتها ووجهها الناصع الفضي ناحية الجدار وعرضت ظهرها الأسود كأعلام الحداد. وقدّر الجميع وفاءها للشهيد ورفضها لفكرة الزواج ثانية (**أجل، كيف أفكر بالزواج ثانية بعد كل ما عانيته مع زوجي الراحل؟**). في الفترة التي سبقت استشهاده بأشهر، لا تذكر بالضبط كيف ولماذا صارت أية عبارة يتبادلانها مدعاة للشجار. كان يكفي أن يكونا في غرفة واحدة حتى يجدا ما يجعل كل منهما يعوي على الآخر، حتى ولو دار الحوار حول ملح الطعام أو تقشير البرتقال أو ضياع «السكجك»(١) وقت انتعاله لحذائه العسكري الثقيل.

---

(١) السكجك: قرن يُستعمل في انتعال الحذاء.

شكت لأمها، فقالت لها رافضة فكرة الطلاق ومؤكّدة: «زوجك تاج رأسك كيفما كان». وتمنت هي لو «تبدل قرودها بغزلان» وتتزوج سواه، ولكن كيف وعليها أن تعتني بـ «جْعَرّ»[1] أولاد على حد تعبير أمها؟

وشحنة العدوانية المتبادلة المكهربة بينهما لم يزدها الزمن إلا تصاعداً. . فقد كان يأخذ عليها الازدياد المطرد في وزنها بعد كل ولادة، وترهلها، وإهمالها لأناقتها وزينتها حين يحضر ولا يشم من عنقها إلا رائحة الثوم، حتى أعرض عن الاحتفاء بجسدها وصار يقوم بما ينبغي القيام به. . بسرعة.

صارت تشك في رغبته بالزواج من صبية لم يهترىء جسدها بالإنجاب مثلها. ولم تكن قادرة على التعايش مع ضرة كما سبق لأمه (حماتها) أن فعلت منذ صباها إلى يوم موتها حتى صارتا، حماتها وضرة تلك الحماة، بعد انقضاء سنوات على ترملهما «أعز صديقتين» وبينهما حلف لا تنفصم عراه. وقلائل يعرفون أن زوج بوران ليس ابن الضرة، وأن أمه الحقيقية ماتت إذ إن الضرة ربته بنفسها بحنان.يوم مرضت أمه لفترة طويلة واعتنت به وبها كما بكتها واستقبلت المعزّين بها، ولا تزال عيناها تتخضبان بالدموع لذكرها، وتدعو لها برحمة الله أمام كل الناس بعد كل صلاة.

كان زوج بوران خانم ينفي إمكانية زواج كهذا ولكن بأسلوب من يؤكده. ويحلو له استحضار الموضوع بصيغة النفي حين يراها تقبل بشراهة على الطعام ووزنها يزداد فتتحول من أنثى إلى كتلة من اللحم المترهل طفلاً بعد آخر. أما هي فكانت تزداد نقمةً عليه كلما ازداد وزنها وتشعر أنه بمعنى ما مسؤول. الأطفال لم تأتِ بهم من بيت أبيها، ثم إنها لم تعد تخلع قميص نومها حين يمتلكها، فهو دائماً على عجلة من أمره ويتم الأمر في الظلام خلسة وبسرعة وبلا قبلات، وقبل أن يتنهد جسدها مرحّباً به يكون هو قد انسحب إلى نومه وشخيره. لمّحت له مرة إلى «الموضوع»، فلمّح لها بدوره إلى أن الصبايا يفتحن النفس برشاقتهن. . وصار مناخ البيت يزداد توتراً مع التوتر المتعاظم بين الدرك وأفراد الحامية الفرنسية في «الأشلة» القريبة ، ومحاولتهم إذلال العساكر من أمثال زوجها. وصار عصبياً و «مقهوراً» لا يضحك وجهه حتى للرغيف الساخن، كما قالت لأمها. وليل قُتل كانت قد بدأت مرحلة هجر البيت و «الحرد» في بيت أهلها مع أولادها، وقد تعبت

(١) «جْعَر»: جمعٌ كثير، وتقال عادة عن الأولاد.

من الشجار مع حماتها أو بالأحرى ضرة حماتها المتوفاة التي تزايدت شراستها نحوها كلما ازداد زوجها استخفافاً بها، وتعالت أصوات شجارهما في بيت جدرانه كورق اللعب (الشدّة) لا تخفي ما يدور خلفها. . .

وحين سمعت ثرثرة مفادها أن ضرة حماتها خطبت له صالحة، الصبية المعجبة بزيّه العسكري رغم شيبه وابنة الأسرة الفقيرة «المنتوفة»، جن جنونها وخافت أن يقبلوا لفقرهم فكتبت له حجاباً يخسر به ما تبقى من قواه الجنسية وعقدت ذكره عن كل أنسية غيرها وخاطت الحرز داخل «كتّافة»[1] بزته العسكرية، ولكنها لم تكتب له حجاب الموت إذ إنها لم تكن واثقة من صدق «العصفورة»[2] التي نقلت إليها الشائعة. ليلة موته لا تُنسى بالنسبة لها ولدمشق في آنٍ:

ساعات طويلة من الهلع والمدفعية تقصف دمشق كما الطائرات[3].

ساعات من صراخ الأطفال، وزين التي قاربت الرابعة من عمرها أُغمي عليها يومئذٍ ولم يسمع أحد في الحي من قبل أن طفلة في مثل سنها يُغمى عليها ذعراً من دوي القنابل. . وحتى الجار أبو كعود الذي كان يُعالج في المستشفى من مرض خبيث، عاد تحت القصف مذعوراً هارباً كغيره من المستشفيات رغم عجزه عن الوقوف على قدميه. فـ «الفزع أطار الوجع»، وروى أن المرضى كلهم في المستشفى حملوا أوجاعهم مثله وهربوا إلى بيوتهم. ودبّ المزيد من الخوف حين أضاف أنه شاهد في طريقه المتاجر تُحرق واحداً تلو الآخر، ودمشق تلتهب وأحد الأحياء قرب سوق الحميدية قد اشتعل عن بكرة أبيه. . والناس يركضون ويصرخون كما يوم القيامة ويا لها من «حريقة»[4] مرعبة!. . وروى لهم أيضاً أنه شاهد الدبابات تتجه صوب مبنى البرلمان وأن المصفحات تجوب الشوارع وتزيد من المناخ الاستفزازي المرعب.

علمت بوران فيما بعد أن زوجها أشجع مما كانت تتخيل. . فقد رفض هو وإبراهيم شلاح ومحمد مدور والمفوض سعيد القهوجي وبقية رفاقهم من حرس حامية البرلمان أداء التحية للعلم الفرنسي حين ينزلونه عن ساريته على مبنى الأركان المقابل للبرلمان بالرغم من أنهم علموا بأن إنذاراً وُجه إليهم عن طريق رئيس البرلمان سعد الله الجابري. وانتقموا منهم وقصفوهم لاحتلال البرلمان لكنهم قاوموا بشجاعة كانت تجهلها في زوجها.

(١) كتّافة: حشوة قماشية مثبتة في الثوب فوق الكتف.
(٢) العصفورة: الواشية.
(٣) في ٢٩/٥/١٩٤٥.
(٤) حريقة: حريق.

وحين جاء الناجيان الوحيدان من المذبحة يزورانها بعد شفائهما في جولة على أرامل الرفاق وحدّثاها عما حدث شعرت بلذعة ندم أليمة إذ وعت أنها لم تتعرف حقاً على الرجل الذي شاركته طعامه وأنجبت له أولاده.

وحين عبّرت لهما عن حزنها لأن زوجها أعيد إليها مقطوع اليد ذكّراها بأن رفيقهما في الحامية عبد الله برهان أعيد إلى أسرته مقطوع الرأس وبعضهم لم يُعد حتى إلى أسرته.

قالت لهما وكأنها تسمع صوتاً يأتي من حنجرة غير التي ألفت الثرثرة بها: هذا نصيبي. مات ذلك اليوم حوالى ٦١٦ شهيداً كزوجي، وجُرح أكثر من ٢١٠٠ انسان.. و «سعري بسعر الناس»[1] الذين فقدوا عزيزاً مثلي، وما أكثرهم بعد تلك المذبحة!

وهكذا تحوّل المرحوم في نظر بوران من مشروع زوج خائن إلى شهيد، وقيل لها حرفياً إن اسمه سيُسجل بحروف من نور في التاريخ وينقش على لوحة رخامية تتصدر مدخل البرلمان وتحمل تاريخ المذبحة واسمه وأسماء أبطال الحامية من رفاقه الذين دفن الجنود الفرنسيون بعضهم جرحى أحياء ومثّلوا بالآخرين ذلك الربيع الفاجع يوم ٢٩ أيار سنة ١٩٤٥، وهو التاريخ الوحيد الذي تحفظه لأنها لا تعرف حتى تاريخ ميلادها باستثناء أنها ولدت يوم الثلجة الكبرى!

في البداية لم تع غير حزنها عليه وعلى دمشق المقصوفة المروعة.. وحين تبدد دخان الحرائق بدأت تقول لنفسها بخجل إن استشهاده أبعد عنها شبح الفضيحة: الطلاق.. فهي تعرف أن المطلقة في حارتهم شيء منبوذ وفاشل ومقهور مهما كانت براءته مثل أختها ماوية التي لم تفعل شيئاً سوى أنها لم تعد تطيق ضرب زوجها لها، ولا يُنظر إليها بعين الرضى ولا تعتقد بمقولة أمها «ضرب الحبيب زبيب»، بغض النظر عما فعله الرجل أو لم يفعله.. إنها تعرف جيداً أن المطلقة مذنبة بعدم القدرة على امتلاك رجلها.. ولكنها صارت أرملة الشهيد بدلاً من المطلقة، وارتقت مرتبة أعلى من مرتبة الزوجات إذ صارت متزوجة من البطولة والحلم إلى الأبد. حين جاءت صالحة ـ التي قيل لها إنه كان ينوي الزواج منها ـ لتعزيتها، عاملتها كضرة وكانت سعيدة بتجاهلها وسعيدة خلال تلك الزيارة بموته وهي تتأمل محاسن ضرتها «المحتملة» سابقاً، وتتخيل ما كانا سيفعلانه معاً لو لم يمت وكم كان ذلك سيعذّبها، وأية مكانة كانت ستحتلها هذه الغريبة في العزاء لو تأخر موته!

(١) «سعري بسعر الناس»: ما يصيبهم يصيبني.

تجاهلتها، ولم تصافحها وهي تمضي بعدما أذلّتها أمام الناس وتلذذت بقدرتها على إيذائها الآن، وهي التي ما كان بوسعها أن تطردها لو ظل حياً ولكان صدر البيت لصالحة والعتبة من نصيبها. وفجأة تحوّل دريد إلى شخص بالغ الأهمية مثلها، فهو الابن البكر للشهيد.

بعد ذهاب الضرة «المحتملة» سابقاً شعرت بشيء من الخجل من مشاعرها وغطرستها وبكت عليه بحرقة وهي تتذكر ما فعله به عسكر الفرنسيين، فلم تكتف بإخفاء المرايا بقلبها صوب الجدار بل وأخفت الطنافس الملونة وريش الطاووس الذي كان يزين الغرفة في إناء من الكريستال الفرنسي هديةً من هند، كما وضعت في الخزانة «مزهرية» الأزهار الاصطناعية المليئة بالغبار وظلت تبكي زوجها حتى أنهكها البكاء و «تنهنهت»، لكن ذلك لم يمنعها من أن تلحظ ليلاً أنه صار بوسعها أن تنام في السرير العريض دون أن يشخر هو إلى جانبها ويتجشأ ويأمرها بتحضير قهوته قبل الفجر. صارت تنهض من نومها حين تشاء وتنام حين يحلو لها، وتلتهم ما يحلو لها من الطعام دون أن يرمقها بعين اللوم والتهديد، وتعلن أن «بطنها كبير»[1] ويزداد وزنها كما تشتهي وتترهل بسلام، وترتدي فستانها المنزلي الأخضر الموسخ الذي لا يحبه وتبدله فيما بعد بثياب الحداد ووجه الحداد وتجلس محاطة بالإعجاب والتبجيل...

فكّرت وهي تسترخي على موضعها من البساط وتراقب فلك وهي تلبي أوامر زوجها وتعد له الشاي والقهوة و «لبن العصفور» أنها محظوظة! ما أكره أن تكون زوجة تخدم رجلاً يذلّها ولها ضرة، وما أروع أن تصير أرملة بطل!... كانت مشاعرها ملتبسة تجاه زوجها ومصرعه النبيل ولم تكن بقادرة على أن تسعد بموته سعادة كاملة (قال لي أمجد إن صحافياً يريد مني حديثاً عن زوجي، وذلك يمتعني. لكن الصحافي الذي جاءني منذ شهرين طلب الاطلاع على أوراقه الخاصة، إذ كان أبو دريد يباهي جيرانه وأقاربه ورفاقه في الحامية بأنه يتقن الكتابة شعراً ويسطّر مذكراته، وقد علم الصحافي بذلك. خفت من اطلاعه على الأوراق. ماذا لو كان قد كتب عن صالحة فيها وعني؟ ماذا لو كان قد كتب: أنه يحبها ويكرهني؟ لذا قلت له: سأطلعك عليها فيما بعد. لكنه لجوج!

ماذا لو كان هذا الصحافي الجديد قد سمع أيضاً بأوراقه؟ لا بدّ من انتظار اليوم

---

(١) بطنها كبير: تعبير شامي معناه أنها شرهة.

الذي يكبر فيه دريد ويمزق غير المناسب من أوراق والده ما دام أمجد رفض ذلك وقال إن علينا نشر أوراق المرحوم كما هي أو تمزيقها، أما الرقابة فعيب في رأيه كأن روحه تحت الانتداب). لا تدري بوران لماذا راحت تغني: سكابا يا دموع العين سكابا!

***

يتوسط المزرعة في «الريحانية» بيت قروي هجر أبو موفق البساتنه بيته المريح في حي الشاغور في دمشق ليقيم فيه بعيداً عن الناس سعيداً يمارس هوايته التي عرّضته للسخرية في الحيّ حيث كان يقيم، ألا وهي مراقبة الكواكب والنجوم إذ لم يصدقه أحد وظنوه يراقب بيوتهم. لقد نصب منظاراً مقرِّباً[١] على سطح بيته، ولم يزره أحد إلا وأخبره أنه اكتشف كوكباً صغيراً يبعد ٦٥٠ مليون كيلومتر عن كوكب الأرض، وكان يراسل العلماء ويعيش بانتظار إجابة منهم كي يسمّوا الكوكب قبل موته باسم المرحوم ابنه موفق. زين كانت تعشق عمها «أبو موفق» الذي يروي لها أن قطر الكوكب إياه ٣٢ كيلومتراً ويقع بين المريخ والمشتري. ولم تعد تحدق في النجوم دون أن تتذكره ولكنها عبثاً تصدق أن النجوم ليست مصابيح وثريات كريستالية!

يشكو أبو موفق لعبد الفتاح من المرض الذي يلتهمه ويجعله عاجزاً عن مشاركتهم السيران على ضفة النهر في أرضه، والقطط تتقافز حوله في الفراش وتمشي فوق عنقه وذراعيه وصدره، وعبد الفتاح يتجشأ بعد وجبة غداء من اللحم المشوي والتبولة وشطائر الجبن و. . و. .

يلعن أبو موفق المرض الذي أقعده طريح الفراش، عاجزاً عن ممارسة متعة الجلوس تحت الدلبة وعن العمل في أرضه. وها هو اليوم يفتش عن «مُرابع» جديد شاب يعمل عنه ويشاركه خيراتها. كان قد اختار العزلة في هذه المزرعة الجميلة النائية البعيدة عن دمشق، قبل أيام السيارات. واكتشف فجأة في شيخوخته أنه لم يعد بعيداً حقاً بعدما امتدت المباني وكادت تصل إلى حدود المزّة من جهة والقدم من جهة أخرى وسفوح قاسيون أيضاً وحتى إلى البساتين حيث شقوا شارعاً قرب بساتين الرمان قيل له انه يدعى شارع أبو رمانة. لم يعد بوسعه الذهاب إلى أي مكان آخر أكثر بعداً. . وقضت زوجته أم موفق ابنة دمشق والحارات والجارات عمرها معه وهي تشعر بالوحشة في الريحانية وتنوي الطلاق منه والعودة ولو كخادمة في بيت

---

(١) تلسكوب.

أبيها في الشام. ومرت الأعوام وهي لا تزال تخطط لذلك منذ ليلة عرسها حين فاتحها زوجها برغبته في الهجرة من الشاغور إلى الريحانية.

لكن موت موفق عام ١٩٢٥ في الثورة ضد الفرنسيين التي اندلعت في جبل الدروز أو جبل العزّ كما يدعوه أبو موفق، ثم امتدت إلى الغوطة حيث قُتل ابنها برفقه سفيان ابن خالته، جعلها تستسلم للعزلة وتعلّق بندقيته على الجدار فوق فراش والده وتقيم إلى جانبها ترعاها كذكرى حية ريثما يعلنون وفاتها هي الميتة منذ استشهاد موفق.

لكنها ظلت تحلم بين آنٍ وآخر بالطلاق والعودة إلى بيت أهلها في الشام لا كرهاً بزوجها بل بالعزلة وحباً بالشام. إنه طلاق لا تريد تنفيذه. كحلم مستحيل، هي بحاجة إليه لتستمر ولتشعر أن ثمة ما يخصّها وحدها: حلمها. زين أصرت على مرافقة عمها عبد الفتاح وزوجته فلك إلى «الزيارة» بدلاً من اللعب مع بقية البنات في المرج أو الالتصاق بوالدها وإزعاجه قدر طاقتها على حد تعبير جدتها. فقد كانت تحب التحديق عبر منظار «أبو موفق» حين يسمح لها بذلك ويحملها عالياً لتطاله. فضولها يحوّلها إلى قطرة زئبق لا تهدأ.

سألت ما هو «المُرابع» ولم يجبها أحد.

حاولت تسلق السرير وتحسس «البارودة»، فوسّخت الملاءات البيض بحذائها الموحل وزجرتها الخالة أم موفق.

خرجتْ إلى الشرفة فلحقت بها صاحبة البيت مذعورة خوفاً عليها من السقوط في النهر. فقد كانت الشرفة تطل على النهر من علٍ، وقد شيد البيت الطيني على قمة صخرة تعلو عن ضفة النهر حوالى ثمانية أمتار.

ذهلت زين كما في كل مرة أمام المشهد المهيب على الشرفة لاصطخاب الماء في القاع حيث يلطم الصخرة بما يشبه الموج البحري، وتأملته طويلاً وكأنها تراه للمرة الأولى، وثمة جسر خشبي ضيق يصل بين الضفتين مثل خط الصراط في خيالها.

على الشرفة قطة ممددة تموء. تركض زين صوبها وتُفاجأ بأنها تخفي تحتها عدة قطط وليدة.

يخرج عبد الفتاح وزوجته الحامل فلك خلفهما إلى الشرفة ويسمعان أم موفق تشرح لزين ضاحكة متندرة أن هذه القطة لا تنجب إلا البنات، وهي مضطرة

لـ «توديرها»[١] كي لا تنجب المزيد من القطط. ففي بيتها حتى الآن عشرون قطة ولم يعد بوسعها الاحتفاظ بغير ذكور القطط كي لا يتضاعف العدد عشرات المرات كل سنة. . .

انحنت زين على القطة الأم تداعبها حين انقض عبد الفتاح فجأة وانتزعها من تحت أصابعها الصغيرة ممسكاً بها من ذنبها، وصار يلوح بها في الفضاء بحركة دائرية وهي تموء معولة، ثم أفلتها فطارت عن الشرفة إلى النهر. . وقال كمن يطلق دعابة وهو ينظر إلى زوجته الحامل وبطنها الذي تكوّر: هذا عقاب القطة التي تلد البنات. ومن غاية المجد والمكرمات. . بقاء البنين وموت البنات.

تأملته زين بدهشة وذعر كمن يعجز عن فهم ما يدور، ثم نقلت نظراتها إلى القطة والماء يجرفها، وركضت هاربة على حافة البكاء وهي تنادي والدها مستنجدة.

لحقت بها أم موفق: لا تخافي. ستخرج من النهر. القطة بسبع أرواح!

تعالى الصراخ المشاكس لزين حين وجدت أن ثمة من يبالي بها. . حاولت أن تبكي حتى بعدما نسيت لماذا ولم تقدر. منذ وفاة أمها تناقص بكاؤها إذ صارت تعي أن أمها ليست هناك لتكافىء البكاء بالحمل والتقبيل.

ركضت زين هاربة.

كانت تئن في غمرة ركضها بين الأشجار، هاربة من الجميع ومن كل شيء. . وقد أوجعها حنين مفاجىء إلى ما لا تدريه!

* * *

لا يشبع أمجد من تأمل النهر المصطخب تحت «الدوار» وهو جالس على المصطبة فوق البساط (كنت أعرف أن نهر بردى يبدو لهند ابنة اللاذقية بديلاً بائساً من البحر ومن «شاطىء الطابيات»[٢] الرملي الشاسع الخاوي القريب من القصر العريق الشتوي لوالدها. . كما تبدو لها أشجار البساتين الشامية بديلاً مسكيناً من غابات كسب وصلنفة في الشمال حيث إحدى فيلات والدها الصيفية. . ولا أدري كيف أحبت هند هذه المزرعة الصغيرة في الريحانية التي تشبه جزيرة يزنرها نهر بردى وهو ينعطف انعطافة حادة عند «الدوار». . .

قالت لي مرة: ثمة سحر شامي ناعم تسلل ببطء إلى رأسي ولكن باستمرار،

(١) تودير: الذهاب بالقط بعيداً للتخلّص منه.

(٢) شاطىء في اللاذقية.

سحر خدّرني فصرت أسيرة له. جبل قاسيون العاري من الأشجار ليس جميلاً للوهلة الأولى وليس كبيراً، لكنه كبر في قلبي يوماً بعد آخر بسحره الخاص الاستثنائي، كما كبر نهر بردى الذي ما زلت أجده صغيراً لا يُقارن بنهر السين الباريسي حيث تعلمتُ في مدرسة داخلية للراهبات كانت تقع على ضفته.

كتبت لي مرة من اللاذقية، وكانت في زيارة إلى البحر وأختها: «كم أفتقد الريحانية!». شاركتها عشقها لهذه الضفاف التي تركض فيها أشجار الصفصاف والدلب والزيزفون والحور والسرو للقاء الماء، ويرقص الضوء مع الظلمة ويتصالحان في مهرجان للظلال المشعة، ويعربد شجر الجوز والتوت والبطم والسماء تتأمل المهرجان حيث تسترخي أشجار الزيتون والتين برزانة ووقار. في البداية لم «تحبنا» هند نحن «الشوام»، ولكنها شيئاً فشيئاً وعت أن الشوام امتداد بمزاجهم لطبيعة مدينتهم وعراقة تاريخها في آنٍ.

أجل في البداية لم تكن تحبنا كثيراً وأخذت علينا ولعنا البالغ بالتجارة والشطارة وكثرة المجاملة وتدليل كل من يصير عمنا زوج أمنا، على العكس من مناخات أهلها في اللاذقية حيث «نعم» تعني «نعم» و «لا» تعني دائماً «لا»، وثمة أبيض وأسود.. مع الزمن وعت شخصية الشوام حيث يشعر المرء بضآلته في مدينة مسنّة عمرها أكثر من خمسة آلاف سنة، كما وعت حكمة الشوام وأحبت «شعرة معاوية» التي يتركونها فيما بينهم حتى مع أعدى أعدائهم وأدركت أن الحياة علّمتهم فيما يبدو حكمة القول: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يصير بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يصير حبيبك يوماً ما»[1].. وكم تحدثنا حول ذلك وحاولتُ تعليمها حكمة «شعرة معاوية».

وصارت شيئاً فشيئاً تتفهم ما تدعوه بسلوكي «المرن المطاطي»، وتقول لي كمن يقنع نفسه إنه ربما حينما ينشأ المرء في أقدم مدينة في العالم لا يملك إلا أن يرى الحياة بصورة مختلفة ويتصرف على نحو مختلف بعض الشيء.

معنا نحن الشوام فارقتها حدتها وتعلّمت المرونة والطراوة. أعرف أن هذا الدرس أتعبها كما أتعبها حبنا الالتصاق بعضنا ببعض كما أزقة مدينتنا الدهرية وبيوتنا المتداخلة حيث يسمع الجار جاره إذا عطس أو انتشى أو تشاجر مع زوجته أو قضى حاجته. بالمقابل أحبت التصاقنا بالماء وعشقنا له إذ لا يحلو لنا السيران إلا قرب

(١) لا تبالغ في الحب ولا في الكراهية.

الماء حتى ولو كان ساقية، ربما لأن مدينتنا بوابة لصحراء. أذكر أنها وجدت سحراً خاصاً لمزرعة «أبو موفق» التي يحيط بها الماء من كل جانب كجزيرة إذ يزنرها بردى ويخترقها فوق ذلك جدول ينبع من وسطها ليصب في النهر، بل إنها عرضت عليه شراءها فغضب. رفض وكاد يطردنا رغم حماس خالتي أم موفق للخلاص منها والعودة إلى دمشق. .

قالت لي هند إن الشوام يشبهون في نظرها شجرة زيتون كريمة وصابرة. لكن شجرة الدلب «الألفية» الكثة هذه التي أجلس تحتها الآن كانت تبهر هند. مرة قالت لي: كم يشبه الشجر البشر باستثناء شجرة الدلب الضخمة هذه التي تظللنا في جلستنا، فهي تشبه البيت المسكون بالعصافير وبالأرواح. . بل تشبه قرية أشباح لها شوارع مظلمة داخل الأغصان المتشابكة وأسرار ومخلوقات. . .

أعرف أن هند كانت تتسلق شجرة الدلب في خيالها وتشتهي أن تجلس داخلها لتكتب قصيدة ولم أُتح لها يوماً الفرصة لذلك).

يستيقظ أمجد من غفوته مع ذكرياته ويعود من شجرة الدلب إلى الأرض وهو يسأل أختيه ماوية وبوران بقلق: أين زين؟ قالتا: اطمئن. ذهبت مع فلك وعمها عبد الفتاح لزيارة جدو «أبو موفق». لا يدري لماذا شعر فجأة بالقلق عليها فهي بحاجة إلى رقابة دائمة وإلا فستفلت منهما لتطارد فضولها. قال: سأذهب لإحضارها.

نادى على جهينة لتشاركه البحث عن زين، وترك بقية الأولاد في عهدة بوران وماوية.

* * *

تتمنى زين لو بقيت وحدها مع «جدو أبو موفق» لترافقه إلى السطح حيث يراقبان السماء بالمنظار. تمشي على غير هدى بين الأشجار بحثاً عن أرنب أو بومة.

تتأمل قنديلاً ترابي اللون وقد تدلى من أحد أغصان شجرة.

تدهشها مكعباته المتراصة التي تذكّرها بأكواز الصنوبر في الغابة قرب اللاذقية حيث كانت تشارك أمها في قطف الكوز وتكسيره بحجر ثم تشاركها في أكل حبات الصنوبر اللذيذ منه حبةً بعد أخرى. يدهشها هذا الكوز المنفرد الكبير جداً.

تقول زين لنفسها: لا ريب أنه شهي، وحباته سمينة.

تقرّر قطف هذا الكوز الكبير. تحاول تسلق الشجرة. تقع. تجرح ركبتها.

تبكي قليلاً. تنسى لماذا كانت تبكي وعيناها معلقتان على الكوز الكبير الترابي وذبابات كبيرة جداً ملونة تدخل إليه وتخرج باستمرار وثمة صوت أزيز يتعالى منه.

تتعجب زين من كوز الصنوبر العملاق هذا الذي يزوره الذباب الكبير الملّون بالأصفر والأسود. تزداد فضولاً. تلتقط عن الأرض قضيباً طويلاً وتضرب الكوز بذراعها النحيلة الضعيفة في محاولة لإسقاطه على الأرض.

تحاول مرات ومرات وتفشل. ترتاح قليلاً ثم تحاول من جديد. فجأة يغادر الكوزَ سربٌ من الذباب الملّون بالأصفر والأسود ويطير صوبها وله هدير مرعب، فتركض زين هاربة بجسدها الدقيق وقد تحولت إلى حنجرة تصرخ.. تبدو لها جهينة الراكضة صوبها ملاكاً هبط من السماء. في ومضة عين، تعي جهينة سرب النحل الذي يطارد زين. وقبل أن تفكر وجدت نفسها تخفي زين تحت تنورتها الواسعة الطويلة، وتغطي وجهها بذراعيها المكسوتين بالثياب وغطاء صلاة العصر ما زال يكلل شعرها وكتفيها.. وانقض النحل على أصابعها العارية يلسعها وهي تصرخ دون أن تركض أو تتخلى عن زين التي خبأتها تحت تنورتها. تصرخ وتصرخ، بعينين مغمضتين. تصرخ دون أن ترى محاولات أمجد اليائسة لطرد النحل وهو ينال نصيبه من اللسعات ومثله فلك وعبد الفتاح وأم موفق، وكانوا قد لحقوا بزين مفتشين عنها منادين عليها. وأصابت اللسعات أيضاً بعض الأطفال الذين استدعاهم الصراخ على عجل...

أحضرت أم موفق «طاسة الرعبة»(١) الفضية المختزنة لمناسبة كهذه وسقت بها زين الماء وهي تتلو الآيات القرآنية المنقوشة على الطاسة وسواها وتنفخها في وجهها. وأصرت بوران على فرك أمكنة اللسعات بفصوص الثوم المقصوصة من منتصفها. وعرضت ماوية الذهاب لإحضار «الشيخة» لعلاجهم ورفض أمجد ذلك بشدة رغم إلحاح شقيقه عبد الفتاح. وغضبت بوران لأنها موجودة فلمَ الشيخة وهي «شيخة ونص». حين ذهبوا بالسيارة بحثاً عن مأمون ليُعالجهم كانوا جميعاً يحدقون في جهينة التي أصابها القسط الأكبر من لسعات النحل كأنهم يرون للمرة الأولى المخلوقة المتورمة شبه المغمى عليها التي أنقذت حياة زين وحمتها بإخفائها تحت تنورتها الشبيهة بالخيمة، فكانت زين بذلك الوحيدة التي لم تعقصها نحلة واحدة!!

تصاعدت الخيبات في سيارة العودة. فقد انصبّ التقريع على زين، ووجدت بوران خانم في ما حدث مناسبة للإعلان عن رفضها لأسلوب المرحومة ومن بعدها

(١) طاسة الرعبة: طاسة معدنية يُشرّبون بها المرعوب لتهدئة روعه.

شقيقها أمجد في تربية ابنته. وحاولت جرّ أخيها إلى حوار ينتهي بشجار، لكنه تجاهلها كعادته حين يحاول أحد استفزازه أو ذكر شيء له صلة بهند. أما الحاجة فضمت إليها حفيدتها الصغيرة وقالت لها مداعبة: لا تقضي عمرك في نكش أعشاش النحل والدبابير كي لا تتعبي يا طفلتي.

لم تسمع زين النصيحة لأنها كانت قد غرقت في نوم عميق في حضن جدتها، وهي تحلم بفأر كبير بحجم رجل وقد ارتدى ثياباً حريرية فخمة وحذاء لمّاعاً أحمر وعلى رأسه قبعة مخملية ذات أرياش، تلحق به ويلتفت إليها غاضباً وقد اكتشف وجود مصيدة الفئران في «ديار» البيت، وها هو يلوح بيده في وجهها. تهرب زين منه كفأرة صغيرة، وأنكر ونكير يطاردهما معاً.

حين أغمضت زين نافذتَيْ عينيها ونامت لم يدرِ أمجد الخيّال لماذا شعر بالوحشة رغم ازدحام السيارة وألم اللسعات التي أجّجَت أوجاعه بلسعات رحيل هند..

أما عبد الفتاح فقال وهو يعبث بحبات سبحته: البومة هي السبب. يجب أن نقتلها ونخرب وكرها في الدلبة. لقد نحست السيران.

قالت بوران: هذه ضربة عين أو علينا رصد. سأبخّر البيت كله لدفع البلاء.

قالت الحاجة: اسكتوا ودعوا زين تنام.

انتحبت جهينة: آخ.. كم أنا موجوعة!

طيّبت فيحاء خاطرها: لا تقلقي. نحن في طريقنا إلى أخي مأمون وسيعالجك.

شعرت الحاجة بحركة في إحدى الطناجر لصق قدميها في السيارة، وحين كشفت الغطاء لمحت البومة الصغيرة والقنفذ «الطفل»، وقد أخفاهما دريد وزين خلسة لاصطحابهما معهما إلى البيت. ابتسمت بحنان ولم تقل شيئاً خوفاً عليهما من العقاب.

لا يدري أمجد لماذا صار يكرر بلا صوت: «كم مرّ أمثالنا علىهذهالعين، ثم ذهبوا في غمضة عين».

حين تجاوزت السيارة الهامة منحدرة صوب دمر، فوجىء بها أمجد تدخل في نفق شبه مظلم على جانبيه شموع حجرية عملاقة مشتعلة ترسل ضوءاً خافتاً رمادياً..

وثمة سيارة تحاول أن تتجاوزه، وما تكاد تفعل حتى يُلاحظ أنها بلا سائق وأن عجلاتها ترتفع عن إسفلت الطريق قليلاً كأنها تركض فوق الهواء وقد جلست في مقعدها الخلفي سيدة خيّل إليه أنها هندا

الفصل الأول (محاولة ثانية)

من الدفتر السري لمراهقة تخترع نفسها

«طيمشة منيمشة. بعتتني ستي عيشة. لأشتري بصل. وقع الكوز وانكسر».

تغني زين ذلك وهي تلعب في حديقة منزل جدها لأمها في اللاذقية وتكرر: «طيمشة منيمشة. بعتتني ستي عيشة. لأشتري بصل. وقع الكوز وانكسر. حلفت معلمتي. لتعلّقني بالشجر...». تسكت زين بانتظار صوت أمها الذي يتابع عادة ترنيم الجزء الخاص به من الأغنية بصوت عذب قائلاً: «والشجر نقوط نقوط. خبئي يدك يا حلوة. يا عروس أم الحلقة والدبوس». وتخبىء يدها خلف ظهرها فتدغدها أمها.. صارت زين تكرر: «لتعلّقني بالشجر».. ولم يأتِ الصوت الآخر المكمّل للأغنية.. «لتعلّقني بالشجر». تتذكر زين ذعرها من المشنوق المعلق في ساحة المرجة يوم اصطحبتها عمتها بوران وبقية الأطفال ليروه وأفهمتهم أن هذه عاقبة عدم الطاعة.

تتدلى من الشجرة أرجوحة. تركب زين الأرجوحة قليلاً. تضجر. تقرر أن تنزل. يأتي ابن خالتها هيثم يشد الحبل لينزلها. تتمسك بالأرجوحة. ترفض مغادرتها بعناد. ترفس هيثم في مكان حساس أوجعه كثيراً، فيبكي بكل ما في حنجرة طفل في الثامنة من القدرة على الزعيق.

ما يكاد يتركها لشأنها حتى يعاودها ضجرها من الأرجوحة فتتركها بدورها. تتناول حبل القفز وتقفز به، ممسكة بالمقبضين الخشبيين الملونين بالأصفر متضايقة كأنها أضاعت شيئاً. اللاذقية هي المكان الذي ترافق فيه أمها إلى البحر لتستمع إلى صوت الأصداف التي كانتا تلتقطانها عن الرمل. لذا تضايقت زين لأن أمها ظلت نائمة طوال الطريق إلى اللاذقية داخل علبتها الخشبية المغلقة كالدمية التي تدور وتغني عادة فقط حين يفتحون العلبة، ولم تحدثها كعادتها عن نزهتهما البحرية المرتقبة. هل ستنهض أمها وتدور وتغني إذا فتحوا العلبة؟

قال لها ابن خالتها هيثم بشراسة صبي مناكد ليلة البارحة لحظة وصولها مع والدها من دمشق وأمها نائمة في العلبة: خالتي هند ماتت. إذا فتحوا الصندوق لن تنهض. قالت: لا. إنها نائمة. وحين نفتح العلبة ستنهض وترقص وتغني. قال: لا. قالت: نعم. قال: لا. قالت: نعم، نعم. وركضت إلى الداخل لتكون لها الكلمة الأخيرة ولتلعب بالطاولات المصدفة. يحلو لها أن تنزع عنها الأصداف

الصغيرة الملصقة على خشبها متابعة ما بدأته في الزيارة السابقة في العيد.

القصر يعجّ بنسوة نائحات يرتدين السواد. تخاف زين منهن. تحاول أن ترجع إلى الحديقة. تحملها امرأة ضخمة كالغولة في الحكايا. تقبّلها وتبلل وجهها بدموعها. تقرف زين وتحاول الهرب بجسدها الضئيل. تصرخ امرأة ثانية: كم تشبه المرحومة أمها.. إنها نسخة عن هند.. وتنتزعها كشيء من بين يدَيْ الأولى، فتؤلمها وتصرخ زين ولا تبالي بها المرأة بل تقبّلها بهستيرية وهي تبكي. تشعر زين بالذعر من المرأة التي تشبه غولة حكايا جدتها. تعاملها النسوة ككرة. يتقاذفنها باكيات. يلتهمنها وهن يقبّلنها. يتبلل وجهها بماء مالح وشعرهن يقتحم فمها وأنفها. تتضايق عاجزة عن التنفس.

تفلت منهن مذعورة وتحاول العودة من حيث أتت، لكن باب الحديقة صار مقفلاً بكوكبة من النسوة يرتدين السواد. تزداد زين ذعراً منهن. تهرب صوب الداخل. تركض تركض حتى لا تعود تسمع أصواتهن. تدخل إلى غرفة كبيرة نصف معتمة. تفاجأ بأمها ممددة داخل علبتها، والعلبة مرفوعة فوق سرير كبير مرتفع. تتسلقه بصعوبة سعيدة بلقائها، وتنام إلى جانبها كما تفعل عادة. تناديها: ماما. فتستيقظ أمها. تنهض بهدوء في ثوبها الأبيض الحريري وقد انبعث ضوء من شعرها الأسود القصير. تمسك بيد زين وهي تقول لها: لا تخافي يا زنوبيا ألم أقل لك في المستشفى أن لا تخافي من شيء. تعالي معي إلى البحر. وما تكاد تنهي هند عبارتها حتى تجد زين نفسها في ومضة عين على شاطىء «الطابيات». تهب نسمات البحر دافئة مثقلة بالضوء وعطر ملوحة مائية رطبة.

تمشي هند وزين تلحق بها. تحاول كعادتها أن تخطو فوق موضع خطواتها على الرمال. ولأن خطى أمها أوسع بكثير من خطاها، تقفز قفزاً خلفها. تلتفت أمها. تراها. تضحك لها.

تتناول هند عن الشاطىء صدفة كبيرة وهي تبتسم. تلصق باطنها اللؤلؤي المورّد بأذن زين التي يدهشها صوت البحر داخل الصدفة وبعض الهمسات والوشوشات. تغمض زين عينيها. تنصت وأمها تسألها: ماذا تقول الصدفة؟ تظل زين مغمضة العينين وهي تنصت هانئة وبفضول شديد وتحاول أن تفهم همسات الصدفة عبر هدير البحر داخلها. تتعجب كثيراً: لم ترَ ماء داخل الصدفة، فمن أين يأتي هذا الصوت؟

تفتح زين عينيها على صراخ المرأة الكبيرة كغولة وهي تقول: من ترك زين

تدخل إلى غرفة المرحومة؟. . . تسمع وقع خطى كثيرة آتية صوب الغرفة وراءها. تخاف زين. ترى أن أمها أيضاً فيما يبدو تصاب بالذعر وتعود إلى التمدد داخل علبتها متظاهرة بالنوم أمام الغولة. تحاول زين الاحتماء بأمها النائمة وهن يحاولن عبثاً نزعها عنها.

يعلو صراخ النسوة وزين تزداد تشبثاً بأمها. تقول الغولة: «كيف لا تخاف هذه الطفلة من منظر الموت؟ يا لطيف على هذا الجيل!». حاولت زين أن تقول إنها تخاف منها هي وليس من أمها الجميلة الهادئة التي ذهبت بها إلى نزهة في «الطابيات» وأعطتها صدفة بلون اللؤلؤ كبيرة وموردة الباطن. . . تتقدم منها خالتها لبابة. تنتزع من يدها صدفة كبيرة وهي تسأل من حولها بدهشة: من أين جاءت هذه الصدفة الغريبة؟. . ليس لدينا صدفة كهذه في البيت. من أعطاها إياها؟!

تهجم زين على خالتها محاولة استعادتها وتقول بصوت جهدت أن يكون عالياً فجاء خافتاً: أمي أعطتني إياها. إنها لي. تسأل خالتها الحاضرات: من أعطى زين هذه الصدفة؟ تتبادل النساء نظرات التعجب وعدم التصديق وزين تؤكد: أمي أعطتني إياها. لا أحد يصدّقها.

* * *

تهمس عجوز: إنها مناكدة كصبي. ولكن يا للخسارة، فلو كانت زين صبياً لما ماتت أمها. تؤيدها أخرى: صحيح! لو ولدت هند صبياً من المرة الأولى لما اضطرت لإعادة الكرة والتضحية بحياتها.

«لو كانت زين صبياً لما ماتت أمها». . عبارة تسمعها زين باستمرار ولا تفهمها جيداً وتكاد تبكي. لماذا ماتت أمها لأنها ليست صبياً؟ تشعر بالذنب والندم. تقول أخرى، واهمة أنها تهمس بما يكفي لكي لا يسمعها أحد: أمجد الخيّال طلعت ليلة القدر على وجهه. ستة أعوام من الزواج، ربح فيها قسطاً كبيراً من ميراث الأم، وهو الوصي على ميراث ابنته. . .

ـ لم يكن بحاجة إلى الصبي ليرث. لقد كتبت هند الكثير من أملاكها في حياتها باسم زين وزوجها!

تلكزها جارتها وهي تغمز بعينها ناحية زين التي بدت على وجهها أمارات الإنصات. تدخل الندّابات وقت إخراج التابوت من البيت ويغمر زين رعب هائل مما يدور حولها فتخرج إلى الحديقة راكضة لتلعب مع هيثم.

في المساء شاهدت زين الغولة وبقية النساء وقد تجمعن والتأم عقدهن على المائدة يلتهمن اليلنجي والسمك وفتة «المقادم» والدجاج و «الكروش بأبوات»[١] و «الكولوشكور»[٢]، وثمة خروف محشي يتوسط طاولة هائلة ضمت آل الراشدي والعديد من سيدات الأسر «اللاذقانية» القريبة والصديقة وعائلات أخرى جاءت من حلب وطرطوس وبانياس وسواها.

تهرب زين من منظر الخروف الذي يتوسط الأطباق إذ يخيل إليها أنه الشاطر حسن بعدما طبخه الغول، وتركض هاربة من غرفة النساء لاحقةً بالحرذون الذي شاهدته يتسلل من النافذة زاحفاً بسرعة على الجدار. تجد نفسها في غرفة أخرى تتوسطها أيضاً طاولة عليها «شاطر حسن» آخر محشو بالرز واللحم طبخه الغول أيضاً بالتأكيد، وعلى المائدة رجال يحيطون بوالدها. حين التقت نظراتهما غمزته بعينها... وحزنت لأنه تجاهلها... قلبت شفتها السفلى دونما بكاء فحملها وأجلسها على حضنه وأطعمها لقيمات.

أحسّت فجأة أنها شبعت وانزلقت عن حضنه عائدةً إلى غرفة النساء بحثاً عن الحرذون الذي أضاعته. سمعت عجوزاً تقول إن سيدة عائدة من دمشق أخبرتها أن بوماً يقطن منزل آل الخيّال وأنه نحس هند لكثرة ما ناح ليلة وضعها. فردّت عليها عجوز أخرى مشيرة إلى زين: «كل البلاء من البنات»... قالت لها خالتها لبابة لتتخلص منها: هل تريدين مشاهدة طفلي الصغير معاوية؟ إنه في غرفة لصق غرفة هيثم مع المرضعة.

قبلت زين بسرعة لترى الصبي الذي لو جاء بدلاً منها لما ماتت أمها. صعدت إلى الطابق الأعلى. رأته صغيراً بأصابع كعيدان الثقاب وهشاً، ولم تفهم لماذا هو المنقذ لا هي الكبيرة الضخمة وعمرها خمسة أعوام كاملة كما علمت من والدها. تأملته بفضول. كانت معه امرأة دلقت ثديها وهي ترضعه.

وقفت زين في ركن الغرفة تحدّق فيهما. شاهدت صبياً كبيراً مثلها يلعب في الغرفة. سألتها المرضعة بصوت عدواني: أنت ابنة البيك الشامي؟ هزت رأسها بالإيجاب. قالت المرضعة باحتقار: هذا ابني، إنه ليس نحيفاً مثلك.. إنه أصغر منك بكثير ويكاد يكون أضخم منك. ثم انتزعت المرضعة ثديها من فم معاوية وأعطته لابنها الذي ركض صوبها.

---

(١) طبق سوري.

(٢) اسم حلوى والأصل: كُلْ واشكرْ.

دهشت زين كثيراً. لم تكن تعرف أن الناس يمكن أن يركضوا ويمشوا ويرضعوا في آن. لقد سمعت جدتها تقول إن الجارة دهنت ثديها بالبن والصبر حين صار طفلها يمشي كي يكف عن الرضاع. غريب. يمشون ويرضعون! صار معاوية يبكي. قالت زين: إنه ما زال جائعاً. أرضعيه. قالت المرضعة بغلظة: سأرضع ابني أولاً يا فأرة. أنت كالست لبابة تظنين أنكم اشتريتموني؟... لم تجب زين واقتربت من معاوية الباكي. أرادت أن تدلله. نهضت المرضعة لتبدل له ثيابه المبتلة وهو ما زال يصرخ ويبكي، فتأملت زين بفضول عريه وجسده الصغير، وحاولت أن تفهم لماذا لو كانت صبياً لما ماتت أمها، وما الفرق بينها وبينه. وحين سألت المرضعة عن ذلك انفجرت المرأة ضاحكة ببذاءة وقد اهتز ثدياها: هذا هو الفرق.. وأمسكت بقطعة لحمية متدلية من موضع في جسد الطفل، ولم تفهم زين شيئاً. وحين رفعت ثوبها لتقارن صرخت بها المرضعة وقد تطاير الشرر من عينيها: عيب.. اخرجي من هنا يا «تقصيرة الجن»[1].

وضعتها خالتها لبابة في السرير دون أن تحلّ جديلتها كما كانت تفعل أمها حين تسرّح شعرها الطويل وهي تدللها، ثم تضمها إليها لتقبّلها بينما تفوح منها رائحة جميلة ودافئة... بهدوء حلّت جديلتها بنفسها في الظلام لأن الخصل المشدودة أوجعتها وتمددت في السرير وقد تركت شعرها الطويل يتدلى عن جانبه كما تفعل بدر البدور وراء السبع بحور حين تدلي شعرها ليتسلقه الأمير كما روت لها جدتها، حاملاً إليها هدية سجادة مسحورة تطوى وتوضع داخل حبة فستق... لكن هيثم دخل إلى الغرفة. أضاء النور ليناكدها وقال لها: سيجذبك الجني من شعرك المتدلي. ألا تعرفين أنه يختبىء تحت السرير، ويشد البنات من شعرهن الطويل؟

سألته وهي تخفي شعرها بسرعة تحت رأسها: وأنت ألا يجرّك الجني؟ قال بفخر: أنا صبي. إنه يجرّ البنات فقط ولذا يغطين شعرهن دائماً... خافت وبدأت تصرخ منادية أمها. فقال لها إن أمها لن ترد عليها لأنها في القبر يحاسبها أنكر ونكير. فسألته زين من هما أنكر ونكير ولماذا يحاسبان أمها؟ فقال لها كلاماً أخافها ثم أطفأ النور وغادر الغرفة.

ارتجفت زين ذعراً. فعلى كتفها الأيمن يجلس ملاك، وعلى كتفها الأيسر يجلس ملاك آخر وبيد كل منهما ورقة وقلم كوبيا[2] لا يمكن محو أثره عن الورقة

(١) شتيمة خاصة بقصار القامة تعزو ذلك إلى صلة لهم بالجان.

(٢) كوبيا: قلم رصاص يتحول إلى حبر لا يمحى حين يبتل باللعاب.

بالممحاة كما شرحت لها عمتها بوران. ملاك اليمين يسجل حسناتها وطاعتها وملاك اليسار يسجل كل ذنب تقترفه وكل أمر لا تنفذه للكبار، وتحت السرير جني وأمها الآن في القبر يحاسبها أنكر ونكير كما قال لها هيثم لتذهب إلى الجنة أو النار. . وهي السبب في ذهاب أمها إلى القبر لأنها بنت وليست صبياً. . ومعاوية صبي لسبب غامض. بكت بهدوء وصمت وهي ترتجف مذعورة في الظلام من ذلك الهول كله. . . ولم تهدأ إلاّ حينما اقتربت منها شفاه أمها وهمست في أذنها كما فعلت في المستشفى: «لا تخافي. . .»، وأمسكت بيدها فوجدت نفسها من جديد على شاطىء الطابيات والشمس مشرقة وطيور البحر البيض تحلق حول أمها. تقفز خلفها على الرمل، والبحر الشاسع الأزرق يشع بالضوء الذي يغمر وجه أمها وشعرها. ويشتد الضوء وتبهت أمها وهي تذوب فيه تدريجياً حتى تتحول إلى طائر أبيض شفّاف في السرب وتطير معه بعيداً بعيداً إلى أن تختفي عن مرمى نظرها. .

يعمّ الظلام. تجد نفسها في البيت. تخرج الأفعى «الألفية» من وكرها في المطبخ عدوانية على غير عادتها وتهاجم زين فتصرخ مستنجدة بأمها، وتأتي نحوها بومة كبيرة جداً تطير بلا صوت وتحملها بقائمتيها من أمام باب المطبخ وتطير بها وتنقذها من الأفعى. . .

***

تضايقت زين حين أجلسها منير زوج خالتها لبابة في حضنه وفاحت منه رائحة التبغ والكولونيا وصار يتحسس وجهها بيده وهو يقول لأم هيثم: كم تشبه هند. . . سبحان الخالق إنها نسخة عنها. سالت الدموع على خدّيْ لبابة. تابع زوجها كلامه دون أن يلقي بالاً إليهما: مسكين أخي عفيف. كم كان يحب هند. تزوجتْ وهو سجين الفرنسيين، وها قد توفيت وهو في فلسطين يقاتل مع جماعة المفتي الحسيني. ولم يحضر الدفن كما لم يحضر من قبل جنازة أمنا التي ماتت قهراً عليه. . .

حاولت زين التملص منه فلم تفلح. . كانت دموعه تسيل وهو يبتسم كأنه مستمتع بلحظة التأمل تلك. دخلت المرضعة وهي تعول. . . قالت شيئاً عن مرض معاوية، فرمى بها زوج خالتها على المقعد وركض وخالتها. سُرّت زين بإطلاق سراحها. هربت إلى الحديقة. صارت تقفز وسط المربعات الرخامية للممشى الذي يتوسط العشب دون أن تدوس على أضلاع المربع عن عمد. تتخيل أنها ستظل تمشي هكذا حتى آخر الدنيا. . . ما هو آخر الدنيا؟ جدار؟ أم حافة منبسطة يسقط المرء

عنها حين ينتهي إلى آخر الدنيا.. يسقط إلى أين؟ حين تقع عن شجرة التين، تقع على الأرض. حين تقع عن الأرض، تقع أين؟ تقرر الذهاب لسؤال والدها عن نهاية الأرض، وإلى أين تسقط حين تسقط عنها. تمشي قليلاً وهي تناديه، ثم تنسى وتعود إلى الأرجوحة..

يدخل رجال مسرعون. تتعالى أصوات من الداخل. ترى زين المرضعة تركض في الحديقة هاربةً وسائق منير يلحق بها وهو يكيل لها الضربات كلما استطاع أن يصل إليها. ذهلت زين. كان يصرخ: يا مجرمة، أحضرناك مرضعة فكيف تتركين ابن البيك يموت جوعاً؟ قالت منتحبة وقد سقطت على الأرض: كنت أُرضع ابني كفايته وأعطي ابن البيك ما تبقى من حليب.

حين أمسك بها أخذ يكيل لها اللكمات وشعرت زين بذعر بالغ. لحقت به الخادمة والطباخ وجهدا لتخليصها منه. أما منير الذي لم يوسخ يده بها، على حد تعبير لبابة، فقال لها مهدداً: سوف أتركك تتعفنين في السجون. لم تقولي لنا إنك ترضعين ابنك الكبير وعندك طفل وليد في البيت. ردت بشراسة: من أين أطعمهما؟ عندي ثديان وبالكاد آكل شبعي. هاجمها السائق من جديد. خلّصها أمجد الخيّال فاحتمت به من منير والد الرضيع المشرف على الموت جوعاً وخاطبته منتحبة: أنا أرملة بطفلين. هل تريد أن أقتل أحدهما لأُرضع ابنه؟ ثم وجهت كلامها إلى منير: كان ابنك عليلاً يعاف صدري فلا أرغمه وأطعم ابني.. فمن أين أطعمه إذا فطمته؟ قال أمجد: دعوها الآن وشأنها.. وأحضروا طبيباً قبل أن يموت الصبي. سمعته زين فركضت إلى القصر لترى إلى أين سيذهب معاوية إذا مات. كان يصدر صوتاً خافتاً يشبه البكاء بين ذراعي خالتها لبابة. ابن المرضعة كان يبكي ولكن بصوت عال ومعاوية يشبه دميتها. حاولت مساعدة خالتها لبابة على حمله وإجلاسه ليغلق عينيه ويفتحهما وليقول مثل دميتها «ماما. بابا» حين ترفعها.. دخلت المرأة الغولة وهي تنوح وخلفها العديد من النساء وصرخت بها: ما الذي تفعله هذه البومة هنا؟ أخرجوها من الغرفة...

قالت أخرى: لا تصرخي بها هكذا، احمليها وهدّئي من روعها.. خافت زين أن تعاود الغولة تقبيلها وخنقها برائحة عرقها وإدخال شعرها في فمها وهي تضمها... سألت ثالثة: معاوية، كيف حاله؟ أجابت: إنه جائع... يكاد يموت جوعاً لا أكثر... حملت زين عجوز لطيفة الوجه وسمعتها تقول: لا تسمّيها بومة.. حرام عليك.. إنها يتيمة...

ما معنى يتيمة؟ هل يصير الصبيان أيتاماً أيضاً أم البنات فقط؟ تملّصت زين من العجوز وأفلتت منها وهرولت نحو معاوية لترى ما به. . فصبّت المرأة الغولة نقمتها عليها فجأة: يا لطيف! بنت عينها قوية. الله يستر من هذا الجيل!

قالت أخرى: معاوية بخير على ما أظن. . .

أخرج الدكتور كامل النسوة من الغرفة ليعتني بمعاوية قدر الإمكان، وهو الأخصائي النسائي، ريثما يصل طبيب الأطفال.

أمام باب المطبخ في الحديقة الخلفية وقفت زين تتأمل الرجل وهو يمسك بالدجاجة يثبّتها على الأرض برجله ويسمّي بالله، ثم يهوي على عنقها بالسكين. تركض الدجاجة بنشاط بالغ وعنقها يتدلى من جسمها ثم تدور حول نفسها كأنها ترقص حول نافورة دمها. تغرق زين في صمت مطبق شبيه بالذهول وهي تراقبه يعيد الكرة مع دجاجة أخرى فأخرى. ترفض أن تأكل دجاجاً على مائدة الطعام فيما بعد، فقد ظلت تراها وهي ترقص داخل الطبق الفضي الكبير. . .

قالت خالتها لبابة بحنان بعدما اطمأنت إلى سلامة ابنها: هذه الطفلة لا تأكل شيئاً. حاولت أن تطعمها لقيمات من «كرابيج حلب»[1] بعدما غطتها بـ «الناطف»[2] الأبيض، لكن نفسها عافت زحام الكبار على المائدة الكبيرة وبكاء العجائز وهن يلتهمنها بالقبلات وهي تلتزم بآداب المائدة. . . دخلت أمها فجأة في ثوبها الأبيض الطويل ومدت إليها يدها. ما كادت تلمسها حتى وجدت نفسها على شاطىء الطابيات من جديد، وفاحت رائحة الماء المالح ممتزجة برائحة تبغ شوارع اللاذقية، وصارت تقفز سعيدة خلف أمها كما تفعل دائماً محاولة أن تمشي على وقع خطواتها. مدت الأم يدها إلى زين بصدفة التقطتها عن الرمال وقالت: أنصتي إليها يا زنوبيا واسمعي ما تقوله. . وما كادت تمد يدها لتتناولها من أمها حتى وجدت نفسها ثانية في غرفة الطعام وزوج خالتها منير يهزها بشيء من الغلظة قائلاً: إننا نأكل على المائدة، وننام في السرير، وليس العكس.

قالت بالفرنسية «بردون» ـ أي المعذرة ـ كما علّمتها أمها. أخرج خال أمها الدكتور كامل من جيبه قطعة من الشوكولاته، وقدمها لها قائلاً: «كلي هذه القطعة من الشوكولا على الأقل».

أجابت: لا أريد. «ميرسي» ـ أشكرك.

---

(١) نوع من الحلوى المحشوة بالجوز.

(٢) نوع من الحلوى كالرغوة البيضاء.

قال لها منير وقد وجد الفرصة سانحة للتعريض بوالدها، الذي تسلّق السلم حتى شرفة آل الراشدي متزوجاً من ابنة عمه وشقيقة زوجته ووارثاً نصف تركة الأسرة: لماذا لا تريدين «الشوكولا» يا زين؟ ألأن والدك لم يعوّدك على أكل «الشوكولا»؟

بدت بنحولها وضآلتها مثل حنجرة كبيرة وهي تجيبه بالفرنسية بصوت مرتفع وحاد: ولماذا لا تقول إنني ضجرت من «الشوكولا» لكثرة ما أطعمني أبي إياها؟..

حدّقت الأسرة فيها كأنها تراها للمرة الأولى، فهي عادة خجولة ومنطوية، بينما نهض والدها من مقعده فخوراً بدفاعها عنه، ومدهوشاً بنوبة «وقاحتها»، هي الساكتة المطحونة عادةً. حملها وضمها إلى قلبه.. عزّ على زوج خالتها ما حدث، فجيّره لصالح أسرة الراشدي قائلاً: إن لها ذكاء أمها... ولم يقل أحد شيئاً بالرغم من أنهم كانوا جميعاً يعرفون أنه طالما اعتبر هند ابنة عمه وأخت زوجته مجنونة تتعب نفسها في العمل كمدرسة للبنات في مدرسة راهبات اللاذقية، ملطخة اسم الأسرة بعار العمل كأنثى يفترض أن تظل مرفهة وملكة في بيتها.. ولم يغفر لها ما اقترفته حتى حين رفضت أن تتقاضى من عملها راتباً حفاظاً على «السمعة المالية والزعامية» للأسرة... كما كان الجميع يعرفون اعتراضه على حب شقيقه عفيف لها وغضبه المضاعف لاستخفافها بهذا الحب وذهابها فوق ذلك كله وحيدة إلى دمشق للعمل هنالك. كما كان الجميع يعرفون المزيد عن حربهما غير المتكافئة، وغير المعلنة حتى ليقال إنها غادرت اللاذقية هرباً من تسلطه عليها بصفته ابن عمها والصهر وبالتالي ذكر الأسرة التي لم ترزق إلاّ بنتين هما لبابة وهند.

وحدها لبابة كانت تعرف أن أختها هند طالما مرّت بفترات تقاوم خلالها وتتجلد وفترات أخرى تضعف فيها وتمرض داخل القصر اختناقاً، وصهرها ابن العم يريدها مريضة ومقعدة كي ينجح في السيطرة على مالها وعلى روحها الجامحة القلقة الهائمة... والحفاظ على الثروة الكبيرة للجد، وهو أمر أفسده عمه حين وهب أملاكه قبل موته لابنتيه كما أفسده زواج هند من «الغريب» أمجد بعدما غادرت اللاذقية لتعمل بسلام في دمشق كأستاذة بدلاً من الزواج من شقيقه عفيف لحفظ الثروة ضمن الأسرة.

بل إنه في إحدى الفترات قبل زواجها حاول التهام نصيبها من الميراث بحجة جنونها كما فعل قبله أحد أصدقائه اللبنانيين بابنة عمه مي زيادة. لكن هند المشهود لها برجاحة العقل والعلم تزوجت من محاميها بعدما رفضت منح منير وكالة لإدارة

أملاكها بل وأقامت عليه الدعوى لحصر الإرث وكان محاميها أمجد الخيّال. فكيف لا يكرهه وهو الذي قوّاها وانتصرت به وسط «الحياد» الناعم لبقية أفراد الأسرة الذين لا يحبون التدخل بين ابن العم / الصهر وشقيقة زوجته؟ وكيف يغفرون لأمجد ذلك الزواج الذي أدى بمعنى ما إلى استيلائه على ميراثها؟

حامت هذه الأفكار في رؤوس الجالسين جميعاً. . . وامتلأ مناخ الغرفة بكهارب أحقاد دفينة وأحزان ولوعات وبعض تأنيب الضمير المتبادل كما يحدث في الأسر الكبيرة كلها. وتخضبت عينا منير بالدموع وقد داخله الندم الملتبس، فقد كان أيضاً يحب هند ويعرف أنها وقفت إلى جانبه في كل شدة كما تفعل نساء أسرته عادةً، وأنه خذلها فيما بعد كما يفعل ذكورها غالباً على حد تعبير لبابة. . . ولكنه كان يحبها كثيراً بقدر ما يكرهها أحياناً ولا يدري كيف انتهى بهما الأمر إلى شجار تفضّه محكمة.

ولأن زين كانت كالنشّافة، تمتص الفضاء العاطفي المحيط بها، فلقد ضاقت أنفاسها وقالت لوالدها بصوت مرتفع كأنها تستأذن الجميع: هل أستطيع الانصراف؟

ـ بالتأكيد يا حبيبتي. . .

خرجت من الغرفة راكضةً، في حين تابع والدها بلهجة ذات معنى موجِّهاً كلامه لمنير: إنها طفلة في غاية التهذيب، إلاّ حين يستفزها أحد. .

قال خال أمها الدكتور كامل ناسباً الفضل لأسرتهم: لقد أحسنت أمها تعليمها وتربيتها. . .

تدخل الدكتور منير: والآن من سيشرف عليها بعد وفاة المرحومة ابنة عمي؟ الذي أعرفه أن والدتك وشقيقاتك شبه أميّات!

اقترحت لبابة أن يدور الحوار في الصالون المجاور قرب البيانو على انفراد. ومع قهوة ما بعد العشاء أعاد منير طرح السؤال: من سيربي زين؟

أجاب أمجد: ستفعل ذلك والدتي وشقيقتَيّ. . .

قال منير: بيتكم صغير ومزدحم. . فإلى جانب والدتك وشقيقتك الأرملة والأخرى المطلقة وأولادهما هنالك شقيقك وزوجته وأولاده وغيرهم كما فهمت مرة من أختي. . فلماذا لا تبقي زين هنا؟ لماذا لا تتركها في القصر مع خالتها ومعي؟ عندك في البيت من الأيتام ما يكفي. . . سنحضر لزين كأمها، أفضل الأساتذة إلى البيت ومعلمة بيانو ومربية فرنسية خاصة بها وكل ما يلزم.

أجاب أمجد بلهجته الصريحة والبسيطة: لأنها ابنتي، سوف تقيم معي، ومع أمي وشقيقتيّ وشقيقي. بابنا مفتوح لكل من يدور عليه الزمان من الأسرة ويجد نفسه بحاجة إلى بيت بمن في ذلك أنتم. هكذا تربينا ولا قيمة للمال عندنا ولا أستطيع التنصل من مسؤولياتي تجاه نساء أسرتي. ولكن ذلك لا يعني أنني غير أهل لتربية ابنتي، ثم إننا أولاد عزّ أباً عن جد..

قال منير بحدّة: لقد ورثت وزين ثروة طائلة من المرحومة هند ابنة عمي، وهذا المال انحدر إليها من أملاك جدنا، ولا أرى سبباً لإنفاق ريع أملاك جدي على أرامل أسرتك واليتامى، ولن أسمح لك ببيع أراضينا لهذا الغرض. لقد أخبرتني المرحومة هند أنك فخور بلقبك «أبو اليتامى»!

قال أمجد دون أن يفقد هدوءه: نعم. لي الشرف بذلك... أما فيما يخصّ زين فسأتصرف بوحي من ضميري، والقانون معي حين أقرر كوصي عليها بيع شيء من أملاكها المشتركة معكم.

صمت منير.. فكر بغصّة: لو ماتت زين بدلاً من التوأم لورثها شقيقاها، ولما استطاع صهره الانفراد بمال ابنة عمه هند ولعاد إليه ولإخوته الأمل في استعادة بعضٍ من ثروة الأسرة. فالبنت ألعوبة في يد أبيها لا كالصبي.. وامتلأ صدره نقمة على هند وعلى جنس النساء الذي يسبب الأذى دائماً لثروة الأسرة بإدخال الغريب إليها!

* * *

- زين تمشي في نومها و «تروبص». إنها تقلقني.

هكذا قالت الحاجة لابنها وأضافت: شاهدتها فجر اليوم حين أيقظني صوت البومة، فنهضتُ قبل موعد صلاة الصبح ووجدتها تمشي فوق المحيط الدائري المرتفع «للبحرة». حملتُها وأعدتها إلى فراشها دون أن تدري بشيء مما تفعله فقد بدت عليها الدهشة. لا أدري كيف استطاعت أن تتسلق تلك الحافة المرتفعة، إذ لم أجد كرسياً قرب «البحرة» قد تكون صعدت عليه. ومن غير المعقول أن يكون ثمة من حملها وتركها هناك. لو سقطت في الماء لاختنقت وماتت. ولكن الله لطف.

ظن أمجد أن والدته تبالغ وأجابها مداعباً: هل تقصدين أن البومة أنقذت حياة زين؟

في الليل، سأل أمجد زين، وهو يقبّلها قبلة ما قبل النوم، وهي عادة يكرهها لكنه مضطر للقيام بها بعدما عودتها أمها على ذلك: هل تنامين جيداً؟ هل أنت

مرتاحة في سريرك؟ كان قد لاحظ أن نومها صار قلقاً بعد غياب أمها، وأقلقته «الحاجة» صباحاً بعض الشيء بحكايتها عن «روبصة» زين ومشيها خلال نومها.

فرحت زين لأن ثمة من قرّر الاهتمام بما يحدث لها حقاً في غرفتها خلال الليل. كانت زين الوحيدة في البيت الكبير التي حظيت بغرفة خاصة، فقد اشترطت هند ذلك كي ترضى بالإقامة في البيت الكبير، وأثثتها لها باللون الوردي، ووضعت في زاويتها البيانو الخاص بها الذي يطيب لها أن تعزف عليه حتى بدت الغرفة كأن لا صلة لها بروح البيت الكبير في زقاق الياسمين. وصحيح أن للحاجة غرفتها الخاصة لكنها كانت قلما تقضي ليلة واحدة بمفردها دون أن تستضيف أحد أحفادها.

واشتهت زين أن تحدّث والدها عن مغامرة الذهاب إلى السرير التي ترعبها كل ليلة. عن وحوش الوسادة التي تنبت في الظلام والعفاريت التي تختبىء تحت السرير لتجذبها من شعرها. عن الخطر الكبير حين تغمض عينيها فتجد نفسها في أماكن أخرى موحشة معرّضة لأهوال لا ينقذها منها إلاّ حضور أمها. لكنها لم تعرف كيف تقول له ذلك كله فسكتت حائرة. كيف تستطيع أن تعبّر له عن سعادتها باهتمامه بنومها؟ لم تعد تعرف ما تقوله غير تقليدها له صوت البومة وهي تحيط عينيها بأصابع يديها بعد تدويرهما كي تبدو شبيهة بالبومة. . . وأضافت إلى ذلك حركات بذراعين مطويتين لتقلّد له طيرانها، وكانت عادةً تخص أمها بهذا الاستعراض الودي.

سألها بصورة مباشرة: هل تحلمين بأمك وأنت نائمة؟ لم تفهم جيداً معنى أن «تحلم» لأنها لم تكن تميّز كثيراً بين ما يحدث لها في النهار أو في الليل ولكنها قالت: أمي تحضر في الليل كثيراً، وأرافقها.

سألها: إلى أين؟

قالت: نذهب إلى البحر أو إلى «الريحانية». وأحياناً نتمشى في «الديار» وأماكن أخرى لا أعرفها. . يطاردنا الجني أحياناً ويخوفنا.

سألها: هل تكلمك في الحلم؟

ظلت صامتة طويلاً. لم تدرِ كيف تعبّر له عما يحيّرها ويحدث لها. فهي تفهم ما تريد أمها قوله لها حتى ولو لم تقل لها شيئاً. . . إنها تسمع ما تقوله دون أن تسمع صوتها. . ظلت صامتة. قبّلها وأودعها السرير وهو متعب من خصب خيال الأطفال وأكاذيبهم الغامضة.

ذهبت زين إلى النوم مذعورة كعادتها بعدما حاولت تأخير ذلك قدر الإمكان، ونهضت من سريرها مرتين، مرة إلى الحمام ومرة لشرب الماء، وزجرتها عمتها

بوران حين التقت بها في دهليز الحمام وأفهمتها أن عليها أن تنام في السابعة مساءً خلال الشتاء وفي الثامنة صيفاً وقت العطلة المدرسية، وأن تشرب الماء وتزور الحمام قبل الذهاب إلى السرير وليس بعده..

في داخل بلد النوم التقت بأمها التي أمسكت بيدها وخرجت بها إلى صحن الدار (الديار) كما فعلتا من قبل مرات.

صارت زين تقفز سعيدة وحملتها هند وأوقفتها على حافة «البحرة» ومشت وأمها تمشي إلى جانبها فوق سطح الماء وهي تمسك بيدها كي لا تهوي عن الحافة. وراحتا تدوران على حافة «البحرة» بسرعة وزين تضحك. وجاء الطائر الأبيض يحوم حولهما وقد فرد جناحيه المشعين بالضوء، فقالت زين لأمها: أريد أن أطير مثله. وبصمت فردت أمها جناحين كانا مختبئين تحت ردائها الحريري الأبيض وأمسكت بيد زين بعدما طلبت منها أن تفرد جناحيها مثلها. صارت زين تبكي وتقول لأمها إنها بلا أجنحة، فقالت لها أمها إن لكل الناس أجنحة، وأرشدتها إلى جناحيها.

حين نهض أمجد باكراً كعادته ليؤدي صلاة الفجر وخرج إلى المشرفة شاهد زين في «الديار» تمشي في نومها فوق حافة «البحرة». إذاً لم تكن أمه تبالغ!

غمره الذعر من سقوطها واختناقها، وراح يقفز على السلم الذي تضاعف طوله فجأة ريثما وصل إليها.

ضمّها إليه قبل أن تقع. لم تفهم زين ما يدور. غمرها الذعر المتعجب حين وجدت نفسها مع أبيها وقد اختفت أمها. قالت له بعدما استجوبها وهي ترتجف كراجع من غيبوبة إن أمها كانت هنا تمشي حافية القدمين فوق ماء «البحرة» وسألته: أين اختفت؟ أفهمها أنها كانت تحلم، وأخذ يهدّىء من روعها وهي تحاول عبثاً أن تؤكد له أن أمها كانت هنا تعتني بها وتمسك بيدها، وصارت زين تتحسس كتفيها من الخلف بحثاً عن جناحيها ولم تفهم معنى عبارة «تحلم». أدرك أنها عبثاً تميز بين الحلم والحقيقة، وقال لنفسه إنها قد تكون على حق لكنه كرر لها أنها كانت تحلم. وبينما هو يكرر لها: إن ما كان حلماً يعني أنه لم يحدث، شعر بالخوف والرهبة إذ شاهد آثار خطى قدمين حافيتين مبتلتين بالماء مطبوعة على الرخام الجاف لصحن الدار، وكانت الخطى تتجه من «البحرة» إلى منتصف «الديار» كما لو تبخرت صاحبتها في الفضاء.

هل شاهد تلك الخطى حقاً أم أنه ضوء الفجر الشاحب وخيالاته؟ انحنى على

الأرض ولامس آثار الخطى فوجدها مبتلة. أهي مبتلة حقاً، أم أن حواسه تخادعه؟!

هذه الخطى لا يمكن أن تكون آثار أقدام زين، فهي تمشي بقدمين كبيرتين لشخص بالغ لا لطفلة، ولا يمكن أن تكون لأحد من أهل البيت إذ إنها توقفت في منتصف الردهة كأن صاحبها طار أو تلاشى.

حين روى لأمه «أوهامه» مع قهوة الصباح لم تبدِ عليها الدهشة وقالت له: لعل زين كانت مع أمها حقاً في «الديار»، ولعل أمها هي التي حملتها حقاً إلى حافة «البحرة» ومشت إلى جانبها فوق سطح الماء. ألم تكن تعرف أنه في بيتنا يعيش الأحياء والأموات معاً من زمان، وأكثر سكانه من الأرواح؟

أما هو فظل طوال الطريق إلى المكتب يفتش عن تفسير عقلاني لما حدث.

***

رافقت زين والدها صباح الجمعة في زيارة إلى آل العظيمي، فقد كانت السيدة فريحة العظيمي واحدة من صديقات أمها الحميمات. وضايقتها «خالتو»[1] فريحة حين استقبلتها بالبكاء الحار نظراً للشبه الخارق بينها وبين أمها، ثم قادتها إلى «الديار» لتلعب مع ولديها كريم وسعيد ريثما تعود ابنتها هداية التي تكبر زين بعامين من بيت عمتها، ومضت بعد ذلك إلى صالة الاستقبال ذات المقاعد المصدفة حيث جلس زوجها مالك المريض في مقعده الذي يكاد يعجز عن مغادرته، وضيفهما أمجد مقابله، حاملة إليهما القهوة وكوبين من الماء والقمقم الفضي للـ «مازهر».

بدت زين سعيدة وكريم يعلّمها لعب الدومينو، ثم يأتي بحزمة من العيدان ذات الأطراف الملونة ويكومها، والرابح هو الذي يستطيع تخليص عيدان الكوم بصبر دون تحريك أي عود غير الذي يمسك به. وتركها تلعب بلُعب الصبيان من سيارات وقطارات وتتعاون وإياه على تركيب البيت الخشبي ـ الأحجية.

عندما حان موعد انصراف أمجد استبقتها فريحة عندها لتلعب مع هداية حين تعيدها عمتها بعد الظهر وطلبت من والدها ألا يحضر قبل المغرب لاصطحابها. وجاء صبيان من أولاد الجيران أكبر من زين وسعيد وكريم وبعضهم في العاشرة من العمر تقريباً، فلعبت زين معهم باستمتاع لعبة الطبيب. وحينما جاء دورها لتصير مريضة جاء «الطبيب كريم» وكان في مثل سنها وفحص لوزتيها وعنقها، ثم أمرها بأن

---

(١) خالتو: الخالة.

ترفع ثيابها، يساعده «الممرض» في ذلك، ليُتابع فحصها باهتمام بالغ. مانعت خجلاً ثم انسجمت في اللعبة وندمت بعدها إذ سخر الجميع من جزء ناقص في جسدها، وقال أحدهم إن البنات يخجلن من عرض «ما عندهن» لأنه ناقص، وأروها ما عندهم بكثير من الخيلاء، لكنها أغمضت عينيها بيديها وقالت إنها لن تنظر، ثم غشّت ونظرت عبر أصابعها بفضول.

لم يلعبوا معها بعد ذلك بل أقصوها حين اختار كريم مباراة لا تستطيع أن تشارك فيها وهي: من منهم يستطيع أن يوصل مياه «إطفائه» أبعد من الآخر.. وأخرجوا «خراطيمهم» الصغيرة، والتفت إليها كريم متحدياً وهو يسابق رفاقه في رش حوض الشب الظريف والحبق... وانطوت زين على نفسها في ركن «الديار»، لا تدري لماذا تذكرت عمها عبد الفتاح وهو يرمي القطط الناقصة في النهر، وتذكرت أن جدتها أوصتها بعدم اللعب مع الصبيان لأن البنات لعبهن مهذب والصبيان لا يعيبهم شيء... ودخلت السيدة فريحة والتقطت عينها نهاية المشهد وغضبت لأنهم نجّسوا أزهارها.. وطردت أولاد الجيران... وامتدحت هدوء زين وتهذيبها، وعادت بها إلى الداخل لتطلعها على «شغل الكاناڤاه» الذي تفتخر به، وأخذت تحاول تعليمها قطبة بسيطة، كما عزفت لها على البيانو لحناً لشوبان ونصحتها بأن تتعلّم العزف كأمها.

بصمت مهذب أكلت زين قليلاً وقت الغداء. دخلت فريحة «لتقش الزفرة» في قيلولة مختزلة ألفتها، وأوصت زوجها في مقعده المتحرك بألا يترك الأولاد يغيبون عن بصره لحظة وقد خلفت علبة الخياطة و«شغل الكاناڤاه» على «الديوان»[1]...

جلست زين تلعب وكريم بتركيب سكة القطار على البساط وهما يزقزقان كالعصافير... أغفى الأب قليلاً وسقط رأسه على صدره وغابت أصواتهما عنه... وعادت... وحين فتح عينيه فوجىء بمشهد مريع: كانت زين تمسك بمقص الخياطة الكبير بيديها، يد لكل طرف، وقد فتحته تمهيداً لقص «الجزء الزائد» في جسم كريم الممدد مغمض العينين نصف عارٍ.. وقبل أن تغلق المقص وتتمّ العملية صرخ الزوج المريض صرخة رهيبة وانتفض في مقعده عاجزاً عن النهوض بسرعة والمشي، فسقط على الأرض. وخافت زين وتحجرت ذاهلة ولم تفهم ماذا دهى «عمو مالك». ركضت فريحة من سريرها مرتاعة وقد أيقظها صراخ زوجها وانتزعت

---

(١) الديوان: مقعد مستطيل في غرفة الجلوس.

كريم من بين يدي زين التي لم تفهم سبب ذلك الاضطراب كله. . . وكادت فريحة تضربها، ثم ضبطت نفسها (لا. زين ليست كأمها الوديعة التي يأكل القط عشاءها وهي ساكتة). . .

حين جاء أمجد مساء للعودة بزين إلى البيت سأل: فريحة خانم، هل تريدين أن أحضر لك زين لتلعب مع هداية يوم الجمعة القادم؟

اعتذرت منه السيدة فريحة مدعيةً الذهاب إلى بلودان ووعدته بأن تعاود الاتصال به حين تعود.

***

حلمت زين أنها تلعب بدمية، صبي جميل أشقر يغلق عينيه الزرقاوين ويفتحهما كلما أجلسته ثم مددته على حضنها ويقول: بابا. . . بابا. . . وأمها حامل تتحرك في الغرفة والشمس تضيء شعرها وفستانها الملون وبطنها المنتفخ كثيراً. . تنظر أمها إلى الركن المعتم بين الباب المفتوح والجدار كأنها ترى شيئاً لا يصدّق. وتحرك الباب فتلمح زين زنارها الملون على الأرض وقد بدأ يتحرك. . . وتطلق أمها صرخة رعب. لكن زين تتعجب ما الذي يخيف أمها في الزنار الملون، وتنهض لتمسك به وتناولها إياه. . . فترى ثلاثة وجوه تزجرها وتحذرها: ماوية وجهينة وبوران. . . وهن يقلن لها: إنها أفعى! . . .

تقول لهن وقد بهرتها الألوان المرقطة المتحركة: إنها جميلة ولا أخاف منها. . .

استيقظت محمومة مرتاعة ولا تدري لماذا تسللت إلى فراش والدها. .

لم يكن نائماً. كان جالساً على مفرش فوق الأرض مغطى بـ «الكليم»[1]، وقد وضع ساقاً تحته وطوى الأخرى واضعاً فوقها لوحاً خشبياً صغيراً ثبّته فوق ركبته عليه ورقة يكتب فوقها وقد تناثرت حوله الكتب. .

ترك اللوح والأوراق على الأرض ونهض وحمل زين التي بدت له مذعورة.

فروت له ما حدث لها وهي تشعر بالراحة لأنه ينصت إليها باهتمام وقال لها: هذا حلم أي أنه لم يحدث. ولكنه ليس حلماً خالصاً يا زين. . . لقد حدث شيء مشابه لذلك بالفعل منذ عام في بلودان. . . وكدت تمسكين بالأفعى وأنت تظنينها زناراً ملوناً. .

---

(١) «الكليم»: نوع من البُسط.

ذهلت زين وقالت لوالدها: إذاً حدث ذلك مرتين.

قال: لا. حدث مرة في الصيف. والليلة حلمت به...

حدث فعلاً... حلمتُ به... تذكرتُهُ... ما الفرق؟ تساءلت زين ولم تجد لذلك جواباً كما لم تجد فرقاً بين المرة الأولى والثانية...

حاولت أن تصيغ حيرتها في كلمات، وحين كادت تجد الكلمات نظر والدها إلى ساعة يده، وقال لها إنه مضطر للنوم ليذهب إلى العمل باكراً. وأعادها إلى سريرها وأطفأ نور الغرفة بعدما نصحها بأن تتخيل خرفاناً بيضاً وتحصيها ريثما تنام. وحين فعلت زين ذلك، صارت الخرفان تقفز داخل رأسها... خروف أسود... وآخر أبيض...

وتكاثرت الخرفان السود وذئب أبيض يطاردها. قرَّب الذئب وجهه من زين فتأملته بفضول.

سألها: ألا تخافين مني؟

قالت وهي ترتجف ذعراً: لا.

أضاف الذئب وهو يعبث بسبحة عمّها عبد الفتاح: ما جدوى حياتي إذا لم أخفك؟ أنا موجود فقط لذلك... إذا لم تخافي مني سأتلاشى...

فتحت عينيها ولم تجد الذئب.. مصباح الضوء الخافت قرب فراشها تركه والدها مضاءً.

أخذت تحدّق في السقف الذي رسمت الرطوبة على بياضه وجوهاً وحيوانات كالتي تراها أحياناً في السحب. وسط تلك الرسوم جذبها وجه لصبي وراحت تتأمله. غادر الجدار وصار يقترب من وجهها ويبتعد. تساءلت: تراه جني صغير من الذين تروي لها جهينة حكاياهم؟ أم أنه شبح كالذي حدّثها عنه لؤي كعادته ليخيفها من الأموات ومن أمها؟

سألت الصبي الذي خرج من بين رسوم الجدار: هل أنت شبح؟

قال: أليس ذلك واضحاً؟

سألته: خبّرني متى مت وهل التقيت بأمي؟

فوجئت زين بدخول والدها الغرفة سائلاً: «مع من كنت تتكلمين؟». وشاهدت الصبي يعود بسرعة إلى موضعه بين رسوم السقف. ولم تقل لوالدها شيئاً.

***

قالت لها بوران وهي تمّشط شعرها وتزينه بالأزهار: اليوم عرس عمو الدكتور جارنا.. هل ستلقين القصيدة التي هيأتها لذلك من زمان؟

قالت زين مشاكسة: لا...

فقالت بوران: ستغضب أمك منك وتبكي في قبرها في اللاذقية.

ردت زين: أمي سافرت عند الله وستعود وليست في القبر إلاّ أحياناً. وكانت زين تتخيل المقبرة محطة بين السماء والأرض يذهب الناس منها ويعودون حين يحلو لهم.

سألت الجدة: ماذا يقول عنا الناس إذا حضرنا عرس الجيران ولمّا يجف تراب قبر «كنتنا» زوجة ابننا بعد؟

كانت رغبة بوران في حضور العرس جامحة لا تقاوم، فتلك فرصة مهمة للقاء الخاطبات واستعراض بنات الأسرة الجميلات الصغيرات بعيونهن الزرقاء والخضراء وبياضهن الياسميني والحاضر يبلّغ الغائب. فقالت: انقضى «الأربعين» من زمان ولن نضع «الحزن في الجرن». جو الحزن في البيت يؤذي زين، وفي العرس ستتسلى وتلقي القصيدة ويحبها الناس وتفرح.

رضيت الحاجة لأنها شاهدت من الأحزان ما يكفي في حياتها وتعلّمت حكمة نساء دمشق حيث لا يضعن «الحزن بالجرن» ويجلسن حوله، بل لا مفر من «فك الحزن» وتجاوز المصائب بدون مبالغة في الطقوس اللامجدية... فبردى الحياة يجري، والسيران مستمر بهن أو بدونهن.

سرّحوا شعر زين الطويل بعدما فكوا ضفيرتيها كما في المناسبات المهمّة والأعياد، وللمرة الأولى بعد وفاة أمها. زيّنوه بالياسمين الذي قطفته ماوية عن النافذة، ياسمينة بعد أخرى، وأدخلتها بواسطة الإبرة في خيط فصارت عقداً جميلاً رفعوه كالتاج على قمة الشعر الأسود لزين، وكانت «مدادة» الياسمين تصعد من «الديار» لتغطي الجدار حتى نوافذ غرفة أمجد وهند.

قبل موتها كانت هند فخورة بأن ابنتها صارت تتحدث بالفرنسية والعربية قبل أن تبلغ أعوامها الثلاثة، وصارت بعدها تنظم أشعاراً لطيفة بالعامية للسهرات والأعراس وتلقيها فيذهل الناس من تلك الطفلة الجريئة الضئيلة الحجم الشبيهة بحنجرة ملصقة على جسد صغير. وفي حقيقة الأمر كانت زين برأي والدها طفلة خجولة وجبانة لكن حاجتها إلى الحب أكبر من كل شيء.. تريد إرضاء أمها لتحبها، وتلاحظ أن الأسرة تحبها أكثر حين يصفق لها الناس...

قالت زين: لقد هيأت قصيدة بالفرنسية أيضاً، وصفقت لها جدتها مقدماً اعتزازاً بها.

في الماضي لم تكن الحاجّة لتنظر بعين الرضى إلى حديثها باللغة الفرنسية وهي التي طالما خرجت في التظاهرات ضد الانتداب بإيعاز من ابنها ولم تفهم كيف كانت تقوم كنتها بتدريس الفرنسية وابن عمها سجين الفرنسيين، وقدّرت مثل ابنها عبد الفتاح جارهم «الوطني» الذي رسب في درس اللغة الفرنسية. وذات يوم ذهبت الجدة والعمة والكنة لزيارة أقرباء انتقلوا للإقامة في الشام الجديدة في عين الكرش، ترافقهن فيحاء التي تتقن الفرنسية بعض الشيء. كانت الجدة محجبة بالبرلين والعمة بالمنديل والكنة فلك بالحجاب الشرعي. مررن أمام «الأشلة» فقال السنغالي أحد حراس الحامية الفرنسية: يا له من «بال ماسكيه»(١). هنا قالت زين بالفرنسية: «اخرس أيها الوغد». وذهل العسكري السنغالي وفرحت بها جدتها كثيراً لأنه تركهن وشأنهن. كانت تلك أول مرة تلحظ فيها الحاجة حياة أهمية أن يتعلّم طفل وأية سطوة يمتلكها حين ينطق بلغة العسكري.

في العرس، جاءت اللحظة التي طالما انتظرتها بوران حين أوقفت زين على طاولة (ليراها الناس) فصارت قبلة الأنظار، وبنات عمتيها وعمها قد أحطن بها تحت أنظار المدعوين. وبدأت زين تلقي قصيدتها للعريس الدكتور ولكن بصوت متلعثم على غير عادتها حين كانت أمها حية، وقد زاد في تلعثمها حنان النساء عليها وهي تنشد:

عمو الدكتور يا محلاه قلبي مولع بهواه
الله يبعتله أولاد كتير كلهم مثلي ظراف كتير

علا التصفيق والاستحسان. التفتت زين فلم تجد أمها إلى جانبها بل بوران وهي تزجرها: تابعي القصيدة وقولي القصيدة الفرنسية أيضاً. ولا تعرف لماذا اختنق حلقها بالدموع ولكنها لم تبك.. ولم تعد ترى أحداً في المكان.. وثمة شيء قاس في نظرة بوران جعلها تعي من جديد وعياً غامضاً أنها إذا بكت فلن يضمها أحد إلى صدره كما كانت تفعل أمها..

حاولت أن تتابع قراءة القصيدة وتقرأ الأخرى التي نظمتها بالفرنسية في مدح عمو الدكتور العريس وعروسه ولم تقدر. كان الصمت يهبط على لسانها بعد موت

(١) بال ماسكيه: حفل بأزياء تنكرية.

أمها أكثر فأكثر يوماً بعد آخر ويحرمها حتى من البكاء، ناهيك عن رواية أحلامها وكوابيسها أو تلاوة قصائدها. وانطلقت هاربة صوب البيت ولحقت بها بوران وزجرتها وقالت لها إنها لا تستحق أن يحبها أحد أو أن يعتني بها غير الخادمة. وتركتها لجهينة تعدّها للنوم، وعادت إلى العرس. . .

لم يضايق ذلك زين، بل على العكس. كانت تحب جهينة أكثر من عماتها كلهن باستثناء عمتها بهيجة المقيمة في حمص. بيد واحدة حملتها جهينة، بجسدها فارع الطول الذي أنضجه العمل، وأخذت تدللها بحنان.

ما زالت جهينة تذكر يوم جاء بها والدها إلى قصر أسرة هند قبل زواجها بأيام وباعهم إياها لخمسة أعوام بثلاثمائة ليرة قبضها نقداً ومقدماً. ودهش حين لمس بيده مبلغاً ضخماً كهذا وقال إنه مريض وبحاجة إلى المال للعلاج، ولتعليم الصبيان، وذهب فتزوج بامرأة جديدة! وكان كلما احتاج إلى المال جاء وبكى وطلب مبلغاً إضافياً ثمناً لابنته. وسمعت جهينة مرة «سيدها» أمجد يزجره لأنه أنفق «ثمنها» على الزواج من جديد.

كانت هند تحنو على جهينة، وتعاملها جيداً، على النقيض من بوران التي انتظرت وفاة هند لتربّي الخدم كما ينبغي. إنما لم يمنعها ذلك من محالفتها وكتابة الحجابات لها حين لاحظت حب عيدو العسيري لها وذلك نكاية بأمه.

لذا كان لحزن جهينة على موت هند طعم الذعر الغامض من المصير خصوصاً وأن بوران ضربتها مرات عقاباً لها ـ كما تؤدب هي وفلك أولادهما ـ وهو ما لم يحدث لها من قبل في هذا البيت. . . صحيح أن بوران كانت كلما ضربتها تقول لها ما تقوله لبناتها: «اضحكي لمن يبكيك، ولا تضحكي لمن يضحكك»، وهي تعني أن محبتها لها تفرض عليها ضربها وعقابها. لكن ذلك جعلها تشعر بالذعر والغم. . . وبشيء خاص يشدها إلى زين كأنه رابطة الخوف.

بعدما غسلت جهينة لها وجهها وضمتها إليها، عادت زين إلى اللعب بسيارة ابن عمتها دريد ثم تسللت إلى غرفة أمها المقفلة لتحاول فتح الصندوق والعبث بأشيائها. سمعت حركة في الغرفة المجاورة التي تحتلها بوران وأولادها. اقتربت من النافذة وتلصصت. شاهدت ابن عمها لؤي وهو يحمل حقيبة يد عمته خلسة ويأخذ منها ورقة نقود وهو يتلفت حوله خائفاً. لم تجرؤ على أن تسأله ماذا يفعل، فقد كان ينتهز فرصة غياب الأسرة ليضربها بلا سبب غالباً، وأدركت إدراكاً غامضاً أن جهينة سوف تُضرب وتتهم ثانية بالسرقة.

حين علم والد زين بما حدث في العرس، طلب من أمه ألا تقرأ ابنته القصائد بعد اليوم في الأعراس، وقال لها: عليهم أن يتسلوا بلعبة أخرى!

***

ـ جهينة. من سرق من محفظتي السوداء ٢٥ ليرة؟

هكذا صرخت بوران بصوت ارتجفت له زين وهي تتذكر صوت الجني في قصة «علاء الدين والفانوس السحري» التي روتها لها فيحاء.

أجابت جهينة بصوت يخنقه الذعر: والله العظيم لا أعرف.

ـ تقسمين بالله يا كافرة يا رافضية! هذه هي المرة الثانية التي تسرقين فيها مالاً من حقيبتي..

تتدخل الحاجة: حرام، لا تقولي لها ذلك. إنها تصلّي وتصوم مثلي ومثلك..

ـ ولكنها سرقت ورقة «الخمسا وعشرين»!

تكرر جهينة: والله يا ستي لم أسرق شيئاً..

ومضت داخل رأس زين صورة لؤي وهو يأخذ ورقة النقود من حقيبة يد عمته كما أول مرة.

أرادت أن تقول ذلك لكنها خافت ولم تجرؤ. خافت من لؤي وحليفه الحميم دريد وتخويفهما لها كلما انفردا بها في الدهليز ومطاردتهما لها بالسلطعون في السيران.. خافت منه ومن أمه، خافت من عمّتها وعمّها والجني والمجهول وكل شيء.

عادت بوران تصرخ: قولي الصدق وأرجعي النقود وسأسامحك.

عادت جهينة تقسم بـ «اليمين والعظيم» أنها ليست هي السارقة، وعبثاً تجد زين صوتها لتقول الحق.

قال لؤي: أنا شاهدت جهينة تسرق من حقيبتك ليلة ذهابكم إلى العرس.

ـ ولماذا لم تقل شيئاً؟

ـ لم أجرؤ على أن أقول لها شيئاً إذ خفت أن تضربني.

ـ ولماذا لم تقل لي؟

ـ خفت ألا تصديقيني. ذهلت زين وهي تسمعه يقول ذلك وكان يبدو لها عملاقاً بأعوامه الثمانية، وأرادت أن تكذّبه فلم تجد صوتها. ولكن حين هجمت بوران على جهينة لتضربها، أمسكت زين بأذيالها وهي تحاول أن تدافع عنها

صارخة: اتركيها.. اتركيها.. ولكنها لم تجرؤ على أن تنطق بما رأته. خافت. شعرت بالعار وبحزن جارف وهي تسمع جهينة تصرخ ألماً بعد كل ضربة. سدت زين أذنيها بأصبعيها وصارت ترتجف وتنتحب بلا صوت لعجزها عن قول الحقيقة وذعرها من ذلك..

حين شاهدها والدها ترتجف كقط مذعور أبعد شقيقته عن جهينة وقال لها بصوت حرص على ألاّ تسمعه زين: لا أريد أن تضربيها بعد اليوم. هذه أمانة من المرحومة. أريد أن تدعي تربيتها وزين لي.

قالت زين فجأة: ليست جهينة السارقة. رمقها لؤي بنظرة مرعبة فلم تتابع كلامها، وأسكتتها في الوقت ذاته بوران بصوت هامس: اسكتي يا «تقصيرة الجن»!... وأردفت بصوت عال: لماذا تمضغين العلكة؟ ألم أحرّمها عليك؟ هل تريدين أن تمرضي من جديد بالتهاب اللوزتين؟ هل تظنين أنه لا عمل عندي غير تمريضك ثم إيصالك إلى المدرسة؟ ألا يكفيني همي مع هاني ومرضه؟ ثم خاطبت جهينة: وأنت يا حرامية يا سارقة يا كافرة، سأقطع لك يدك ولسانك إذا كررت ذلك.

حين غضب لؤي مساءً لأن زين تلعب له بسياراته ولحق بها ليضربها قالت له: شاهدتك تسرق الخمس وعشرين ليرة.

أمسك بها من عنقها وتحوّل إلي جني كبير أخافها وهو يقول: «إذا قلت كلمة واحدة سأضع لك في فمك جمرة مشتعلة مثل بنت الجيران».

لم تفهم زين ما الذي قالته بنت الجيران بدرية حتى وضعوا لها في فمها جمرة، لكنها خافت كثيراً، ولم تقل شيئاً عن السرقة حتى لوالدها. وحين غسلت لها جهينة قدميها ويديها قبل النوم وقبّلتها شعرت بشيء يشبه الألم يخترقها لكنها لم تجرؤ على البوح بالحقيقة. وسألت جهينة: ماذا قالت بدرية حتى أطعموها جمرة؟

أخبرتها جهينة ضاحكة: قالت إنها تحب. فعاقبتها أمها درية خانم!

وشعرت زين برعب إضافي يثقل عليها إلى جانب عفاريت السرير والجني تحته وأنكر ونكير وأعور الدجان[1].. والغول الذي اسمه الحب.

***

---

(١) أعور الدجان: أعور الدجّال.

صباح اليوم التالي استيقظت بوران وهي تشعر براحة وانتعاش خاص ومشاعر ودية نحو كل من حولها إلى جانب الندم لضربها جهينة وهياجها أمام زين. . . فمشطت شعر زين الطويل دون أن تؤلمها ولاطفتها ورافقتها وابنتها رزان في نزهة، واشترت لها أقلاماً ملونة وطلبت منها أن تناديها «ماما بوران». فرفضت زين بشدة ولكنها تجاهلت ذلك واصطحبتها في زيارة إلى بيت قريبتها أم منيب وأرتها أولاد «شامة» القطة التي تصادف أنها أنجبت قبل يومين سبعة قطط مرة واحدة. . . وأحست زين بسعادة غامرة وهي تداعب القطط الصغيرة مغمضة العيون، وأدهشها أن في أفواهها أسناناً لا كطفل الجارة الذي ولد منذ يومين.

عاد منيب فوجد زوجته الحامل وبناته وأمه وبعض القريبات وبناتهن ملتفات حول «شامة» القطة الأم يداعبن القطط الصغيرة التي ترضع بعضها من أمها دفعة واحدة من عدة أثداء، ورنين الأساور الذهبية في المعاصم يمتزج مع سيمفونية شهقات الصغيرات والقهقهات الناعمة للنساء. .

تأملت زين منيب بدهشة، كيف يرى بعين واحدة وهو الأعور، وأخذت تغمض عيناً لتجرّب هل بوسعها أن ترى بالأخرى. أما منيب فقد اقترب من القطة وصغارها، وصار يفحص الصغار: هذا قط. . وهذه قطة. . فيضع القط في ناحية والقطة في أخرى وهو يقول: بنت. . صبي. . وقبل أن تدرك النسوة قصد منيب تذكرت زين ما فعله عمها عبد الفتاح في السيران وخافت. ووحدها لم تدهش حين بدأ يرمي بالقطط الإناث عبر النافذة المشرفة على أسوار دمشق العتيقة التي تشكّل أحد جدران البيت، فتهوي القطط من علٍ على الجانب الآخر من سور المدينة. .

شهقت النسوة ذهولاً بينما انقضّت عليه زوجته للمرة الأولى في حياتها تضربه بقبضتيها على صدره وقد فقدت رشدها. وخافت عليها بوران وحماتها العجوز أم منيب والنسوة من أن يقتلها بضربة واحدة، وهي الحامل في شهرها التاسع، لكنه لم يلتفت إليها مثل فيل تعترض طريقه نعجة.

عاتبته بوران على ذلك بقولها: حرام عليك!

أجاب منيب بلهجة مازحة مداعبة بدت غريبة بعض الشيء: القطة تملأ البيت بنسلها، تذهب في شباط مع «الهوارين»[1] وتعود مثقلة البطن لا كالقط. . . اللعنة على البنات لا يأتي منهن غير الإزعاج. .

(١) الهوارين جمع هارون: ذكور القطط.

قالت بوران: كيف تقول ذلك وابنتك البكر أنجبت لك منذ أشهر حفيداً صبياً مثل القمر؟

أجابها: هذا ليس حفيدي بل حفيد حميها، أبي زوجها.

وأضاف منشداً:

بنونا بنو ابنائنا، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ولم تفهم النسوة شيئاً، أما زين فكانت ترغب في السؤال: كيف عرف أن هذه القطة بنت وذاك صبي، والقطط كلها جميلة ومتشابهة تماماً؟

حين غادر منيب الغرفة قالت بوران لزوجته: أعانك الله على «أعور الدجان» هذا!

* * *

قبل النوم نادت بوران زين وقالت لها: اكشفي شعرك عن جبينك لأقرأ عليه ماذا فعلت في غيابي حين كنت عند الجارة بعد عودتنا من عند أم منيب.

خافت زين لكنها نفّذت ما طلبته عمتها وهي ترتجف إذ كانت قد لعبت سراً بدبابة لؤي وكسرت يد دميتها الحلوة.

كأنه لا يكفيها الملاكان المتربعان على كتفيها وبيد كل منهما قلم «كوبيا» وورقة يُسجّلان كل ما تفعله، بل إن بوسع عمتها أيضاً أن تقرأ على جبينها كل ما تقترفه سراً، وكل ما حولها رقيب عليها. حتى جسدها يكيد لها ويغدر بها وجبينها يشي بما اقترفته يداها وهي خائفة، خائفة من نفسها وخطاياها والعقاب، وعمتها تقرأ الآن بالتأكيد أنها تعثرت بصحن حليب القط هارون ووسخت أرض المطبخ وهربت دون أن تنظفها.

قالت زين بصوت خافت: هل قرأت جبين لؤي وجبين دريد وفضيلة وحميدة ومطيعة و.. قاطعتها عمتها:

ـ ولماذا أفعل ذلك؟

لم تجرؤ زين على أن تقول لها إن لؤي هو الذي سرق الـ ٢٥ ليرة من حقيبة يدها لا جهينة. ولو قرأت جبينه لما ضربتْ جهينة ذلك الضرب المبرح. أم أن ذنوب كل يوم تمحى وقت النوم ويعود الجبين سبورة ممسوحة ليتسع لذنوب جديدة؟

تتأمل زين عمتها ماوية وهي تغني لهاني كي ينام بعد نوبة بكاء طويلة وتدور به

في أرجاء «الديار» وهي تهزه برقة على وقع الأغنية: نام يا ابني نام / لادبحلك طير الحمام / يا طير الحمام لا تصدق / عم بكذب على هاني حتى ينام.

التصقت زين بجدتها وسألتها: هل ستغنّين لي قبل النوم؟ فزجرتها عمتها: أنت صبية كبيرة. استاء أمجد من بوران ولم يقل شيئاً، فقد لاحظ أن الحاجة أسكتت بوران بنظرة ذات معنى.

لم يكن ليجهل مساوىء أختيه بوران وماوية وهما شبه أميتين، ولكنه يعرف أيضاً نواياهما الحسنة واستقامتهما التي شهدت بها هند بالرغم من أنها خصت فيحاء بحبها...

حمل أوراقه ونهض ليعمل بسلام في غرفته. لم يكن وقته يتسع للاهتمام بكل شاردة وواردة تخص زين... (**لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها... سأتكل الآن على حكمة أمي لضبط البيت، ريثما ألتقط أنفاسي قليلاً وأعيد النظر في كل شيء... أشعر أني مثل منطاد على وشك الانفجار**)...

قبل النوم ألحّت زين على جدتها وهي تجرها من خلف ماكينة «سنجر» للخياطة: هل ستغنين لي الليلة قبل أن أنام؟ هل ستقرأين لي قصة في الكتاب بالفرنسية؟ لم تكن الحاجة حياة تقرأ لا بالعربية ولا بالفرنسية. تعرف أن أمها المرحومة عوّدتها تلك العادة السيئة، ولم تكن معجبة بهذه العادات «الإفرنجية». صارت حياة أماً وهي لمّا تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، وحين أنجبت بكرها رفضت أن يدعوها الناس باسم أم سفيان لصغر سنها، كما رفضت أن تنادى باسم أم عبد الفتاح حين أنجبته لأنها كانت لا تزال صغيرة السن، فصارت فيما بعد أم أمجد وأنجبت تسعة بطون، مات منهم من مات وعاش من عاش، ولم يكن وقتها يتسع لتبكي ميتهم طويلاً أو لتغنّي للأحياء منهم إلاّ في طفولتهم الأولى، ناهيك عن أنها كانت ترضع طفلاً على كل ثدي ولم تكن تجلس لتستريح من عناء العمل إلاّ حين ترضعهم...

كانت تعمل ليل نهار لتنظيف البيت الكبير ولتعدّ الطعام لذلك «الجيش الجرّار» من الأولاد على حدّ تعبيرها، وتخيط لهم الثياب وتغسلها حتى قبل أن تتسخ لشدة وسواسها بالنظافة، ويعذبها غسيل الشتاء البارد حتى لتهترىء يداها وتزرقّان بين «لَجَنْ»(١) الغسيل وطشوته المتعددة وحبال النشر المثلجة في «مربعانية»(٢) الشام،

---

(١) لَجَنْ (بالجيم المصرية): وعاء كبير معدني للغسيل.

(٢) مربعانية: البرد الشتائي.

ولم تدخل خادمة إلى بيتهم لتعاونها إلاّ بعدما أحضرت هند جهينة معها. وقبل أن يعود زوجها الذي كان أيضاً ابن عمها ليلاً من حانوته كانت تحاول أن تقضي برهة مع «علبة الغندرة» لتتزين كي لا «يلعب أحد بعقله» ويغريه بالزواج من صغيرة أحلى منها باذلةً قصارى جهدها لتذكيره بأن «من يتزوج شامية ينام نومة هنية».

وفي الليالي المقمرة كانت تتناول العود وتعزف عليه، بل وتغني أحياناً بصوت أدهشها أنه جميل بشهادة شقيقاتها وجاراتها... ثم تُري زوجها حين يكون حسن المزاج فنون العشق الشامي التي انحدرت إليها أماً عن جدة حتى أن زوج إحدى شقيقاتها السبع الحلبي العائد من التجارة في «آخر الدنيا» في اليابان قال لشقيقتها إن «الشاميات» أفضل من «الجيشا». وقد ازداد تعلقاً بزوجته بعد عودته، ولكنها لم تفهم لا هي ولا أخواتها ما هي «الجيشا».

كانت الحاجة نموذج الشامية «الآدمية»[1]، لا تغادر بيتها إلاّ في الأعياد والمناسبات الأخرى الاستثنائية النادرة كالأعراس والسيران و«أخدان الخاطر»[2]. وحتى متعة الذهاب إلى حمام النساء مع بناتها وجاراتها وشقيقاتها لم تعرفها إلاّ نادراً، وكانت تغلي ماء وتستحم في الركن المظلم داخل المطبخ لضيق وقتها. ورغم كل شيء تركها زوجها وحيدة ومضى منضماً إلى ثورة شريف مكة حسين على العثمانيين قبل حوالى ثلاثة عقود، وكان أولادها صغاراً يومئذٍ وكانت حاملاً بماوية.. وقيل لها إن زوجها منفي في اسطمبول مع رفاقه. وحين جاء الشريف فيصل منتصراً وصار ملكاً على سوريا، عاد بعض المنفيين وجلّهم من الأثرياء والوجهاء ولم يعد زوجها... فاستلم العمل من بعده في تجارة الحرير ومشغل البروكار ابنها الأكبر سفيان والد مأمون وفيحاء يعاونه عبد الفتاح، ورفض أمجد أن يترك «الكتّاب» ليعاونهما... كان يريد متابعة دراسته ويحلم بالسفر إلى باريس للحصول على شهادة «كبيرة» قيل لها إن اسمها «الدكتوراه». وهكذا بدلاً من الغناء لأطفالها ليلاً صار عليها حسم الشجار بين الإخوة ومحاولة إقناع عبد الفتاح ـ الذي رفض أن يتابع شقيقه علومه في غير الجامع ـ بصواب قرار أمجد.

«قاضي الأولاد شنق حاله»[3]، ولكنها لم تشنق نفسها بل عملت كخياطة لنساء الحي بعدما استنفدت الأيام والأحداث الميراث والمدخرات وأنفقت على ولدها المصرّ على العلم أمجد نور عينيها خلف ماكينة «السنجر». ازدهر عملها

---

(١) الآدمية: حسنة السلوك.　(٢) أخدان الخاطر: التعزية.　(٣) مثل شامي.

وصارت تخيط ثياب الجيران كلهم وبينهم أسرة التاجر الكبير أبو عيدو العسيري وزوجته التركية ابنة الباشا، وتأتيها الزبونات من الأحياء المجاورة في الميدان والشاغور وبينهم آل اللحام والعائدي والدهان وسواهم. وكاد ينطفىء نور عينيها، ودرزت إصبعها غير مرة مع طرف الفستان على ضوء قنديل «الكاز» الشاحب. كما أنفقت على يتامى «البيت المفتوح» واحتفظت من ذلك الزمان المؤلم بذكرى حية هي ظفر سبابتها المشوّه، وكدحت وزوّجت بناتها بجهاز لائق رغم رقة الحال.. إلى أن عاد ابنها من باريس يحمل «الدكتوراه» وسط زغاريدها هي ونساء الحي. ورقيهن وتعاويذهن وحجاباتهن. ولم يعد إليها ومعه زوجة أجنبية كما خوفوها.. بل عاد كما ذهب، يصلّي ويصوم ولا يمس السجائر ولا يذوق الخمرة ولا يلعب الميسر، مما شجع الجميع فيما بعد على ترك مأمون يذهب إلى باريس للتخصص في الطب بدلاً من أن يحل محل والده المرحوم في الحانوت. كان أمجد يساعدها في الإنفاق على نفسه خلال دراسته في باريس ويعمل في الغربة، كما سبق له أن عمل مؤذناً في الجامع المجاور وفي جامع الخضيرية بالشاغور أيام دراسته في دمشق قبل السفر... فمن أين جاءت لها كنتها المرحومة هند بهذه العادات كالغناء للأولاد إلى أن يناموا حتى بعد فطمهم والقراءة في الكتاب الفرنسي لهم حتى ينعسوا؟ ثم إن الشمع كان عزيزاً أيام «السفر برلك»، والنوم بسرعة أرخص!

تعتقد الحاجة حياة جازمة أن ثرثرة كنتها هند بالفرنسية مع ابنتها جعلت زين شبه غريبة عن أولاد عمّها وعمّتيها في البيت، تلعب معهم، يناكدونها وتناكدهم، لكنهم ينظرون إليها كطائر من فصيلة أخرى، وزوجة عمها فلك لا تحبها كثيراً وبوران لا ترتاح لتربيتها.

لكنها كانت تحب زين حباً جارفاً وتشفق عليها من نحولها الذي ورثته عن أمها وقصر قامتها وصغر حجمها وسمرتها القمحية.. (**لا خبز في حارة الياسمين لغير البيضاء الشقراء «الملظلظة».. ولن يكون إيجاد عريس لزين أمراً سهلاً، فطفولتها لا تنم عن طباع هانئة**).

عادت زين تكرر بإلحاح: هل ستغنين لي قبل أن أنام؟ هل ستغنين؟ هل ستغنين؟

زجرتها بوران ثانية فأسكتتها الجدة: حرام. يتيمة اتركيها..

لم تفهم زين معنى «يتيمة» التي يعيّرها بها ابن عمتها دريد منذ أسابيع كلما

تشاجرا على الكرة وهما يلعبان، ريثما يأتي لؤي ويقول له: ألا تخجل من اللعب مع بنت؟ ثم يتابع مقلداً والده: مع حرمة أجلّك الله؟

***

حاولت زين الدخول إلى غرفة والديها فقد تجد أمها في الداخل وتمشطها وتتسامران معاً وتُطالعان القصص في الكتب الفرنسية الملونة. منعتها عمتها بوران، قالت لها إن وقت النوم لم يحن فالآن وقت الطعام ولا بد من الطاعة والنظام. لم تبك زين لكنها شاكست وقالت إنها تريد أن ترى أمها المختبئة في الغرفة وحرنت. أكدت لها بوران للمرة الألف خلال الأسابيع الأخيرة أنّ أمها طلعت عند الله وازداد فضول زين نحو الله الذي سافرت أمها إلى عنده وقررت أن تستجوب والدها لأنه يعرف الأجوبة كلها. ومنعتها عمتها بحجة النظام أيضاً من الدخول إلى غرفتها، وكانت تريد أن تلعب بالصدفة وتنصت إليها وتكسر بعض دماها كالعادة، ثم تنتقل من فراشها الوردي إلى الطاولة الصغيرة الوردية وتلون شعر الصبيان من الدمى بالأخضر والأزرق... داهمتها الرغبة في ذلك وفي تسلق الطاولة الكبيرة التي يغطيها الصدف كلها وقلع بعضه لتلعب به. لكن بوران سدت الباب بجسدها الضخم وقد قطبت ما بين حاجبيها وهي تحدق بها، «زورتها»[١] وأخافتها.

اختنق الدمع في حلقها وقلبت شفتها السفلى استعداداً لنوبة بكاء بلا صوت ولا دموع كعادتها منذ ماتت أمها، حيث توقفت عن البكاء تماماً. مضت في سبيلها وبوران تكرر لها: الطاعة والنظام، هل فهمت؟ وهزت زين رأسها بالإيجاب ولكنها لم تفهم شيئاً.

قالت بوران لأمجد: أعاهدك بأن أربيها أفضل تربية وأصنع منها عروساً محترمة يتمناها أحسن شباب «الشام». هنا تدخلت فيحاء ابنة شقيقها المرحوم سفيان التي صارت طالبة في «دار المعلمات» بعدما استطاعت أن تتعلم، رغم سنوات من حرمانها من الدراسة خوفاً من كلام الناس، وأفسدت هند تربيتها برأي بوران. قالت فيحاء: لقد تبدّل الزمان ولم يعد بوسعك تربية زين على الطريقة القديمة. بادرتها بوران بلهجتها الساخرة: ربما كان عليَّ تربيتك أنت لتفوزي بالعريس؟ ما زال الأمر مبكراً على زين.. أما أنت فقد دخلت في سن اليأس...

وكان سن اليأس يعني عندها الرابعة والعشرين. فالفتاة التي تبلغ هذه السن بلا

---

(١) زورتها: رمقتها شزراً.

زواج تكون عانساً في نظرها. وصحيح أن المرحومة هند زوجة شقيقها أمجد كانت تقترب من الثلاثين يوم زواجها، إلا أنها كانت شيئاً خاصاً، مما جعلها محبوبة جداً من البعض ومكروهة جداً من كثيرين لا يعرفونها. كانت محبوبة بصورة استثنائية من قبل تلميذاتها وصديقاتها المقربات، وأدباء منتدى سكينة الذي كانت تتردد عليه وتحاضر فيه من وقت إلى آخر، ورئيس تحرير الصحيفة التي تنشر فيها ما تكتبه باسم مستعار. ومن أسباب انكماش بعض نسوة الحي وتحاملهن عليها أن زواجها لم يتم بعد خطبة مألوفة، بل بعد تعارف مباشر دونما خاطبة، ووجهاً لوجه في المنتدى لا من خلف حجاب وهي السافرة، واتفقا معاً على الزواج غير آبهة لمعارضة أسرتها الثرية الإقطاعية لزواجها من شامي رقيق الحال مهما كان «ابن أصل». ولكن وجود خاطبها وابن عمها عفيف في سجن الانتداب ساهم في تبديد الصعاب دون أن يشفع لها عند نساء زقاق الياسمين اللواتي لم يغفرن لها أنها تزوجت رغماً عن إرادة أهلها.

أكدت بوران على أهمية دورها: سأصنع من زين ست بيت شامية محترمة ويأتيها العرسان من مصر ولبنان. أجابت فيحاء مداعبة عمتها: لم يعد إتقان أعمال البيت مهماً جداً هذه الأيام... والدليل أنك ما زلتِ أرملة...

وأطلقت فيحاء ضحكاتها الخاصة المجلجلة... كانت هائلة الضخامة. طويلة القامة وبدينة، وكل ما فيها كبير... عيناها الجميلتان كبيرتان وكذلك فمها وأنفها وأسنانها وصوتها.. وصراحتها!.. شكلها يذكّر زين بالذئب بعدما تنكّر بثياب الجدة وجلس في فراشها بانتظار حضور حفيدتها ذات الرداء الأحمر، ولكنها كانت تحبها.

أدرك أمجد أن موت هند خرَّب التوازن الدقيق في البيت بين النسوة.. ولو لم تكن فيحاء مقيمة مع مأمون ومشغولة بدراستها في «دار المعلمات» لقامت الحرب بين بوران وفيحاء ربيبة زوجته ووارثة أفكارها التي ما زالت تردد بحماس كل ما سمعته منها وتساعد مثلها في تعليم نساء الحي القراءة والكتابة ليلاً رغم اعتراض بعض الأزواج.

كانت بوران تحب فيحاء كابنة لها بعد وفاة والدها، فأمها التي لحقت به بعد مرض غامض، اتهمت به بومة نعقت كثيراً أسبوع موتها. ومنذ اليوم الذي أقنعت فيه هند فيحاء بالعودة إلى الدراسة في مدرسة خديجة الكبرى رغم تقدمها في السن نسبياً، اعتبرت بوران ذلك اعتداءً على سطوتها بالرغم من أنها طالما كرّرت أسفها لأنهم لم يدّعوها تتابع دراستها لتصير طبيبة. وانضمت إلى بوران في اعتراضها أختها

ماوية وزوجة شقيقها فلك وبعض الجارات اللواتي جعلهن حضور هند في الحي وفي حياتهن يزدن من تزمتهن وتدينهن الاستعراضي بالصلاة مثلاً في «الديار» بعدما كن يفعلن ذلك من قبل في مخادعهن كالحاجة وهند. وصارت بوران تزداد تبرجاً كلما ازدادت تديناً وتحيط عينيها بالكحل الأسود العريض فتبدو مغرية من خلف الحجاب الشفاف الذي يخفي عيوب بشرتها على العكس من هند التي لم تكن تتبرج أو تتحجب.

تنهّد أمجد بضيق لهذا التلاسن. لا يريد أن تتحول «تربية زين» إلى ساحة حرب بين نساء الأسرة... ثم إنه مرهق بالعمل، وعليه أن يعوّض عن أيام انقطاعه في اللاذقية لدفن هند وولديهما.. وما زال يعاني من أحزان غامضة في صدره تجعله ينفر نفوراً جامحاً من البيت الكبير والزقاق.. ولأن أشياء هند صارت تعذّبه طلب منهم إخفاءها والتبرع بثيابها للفقراء. ولكن بوران رفضت أن يتبرعوا بفرائها وبعض ثيابها الثمينة ربما على أمل أن تستولي عليها بعد أن تمر الأيام وتتبلسم الجراح، وربما لتحتفظ بها تذكاراً لزين حين تكبر كما قالت. وهكذا جمعوا أوراقها في الصندوق الذي حملته معها من اللاذقية المطروق بالفضة، وفكّروا في البداية في تعليق فرائها الثمينة وثوب عرسها في «النصّية» التي تتوسط السلم، ثم استقر الرأي على تعليقها في غرفة زين داخل الغرفة الصغيرة المظلمة تماماً الشبيهة بخزانة والتي كانت هند تدعوها بـ«الشامبرنوار». أُحكم إغلاق الأبواب على أشيائها خوفاً من خروج حضورها منها أو مجيء أشباح تعذّبهم جميعاً قد تخرج من كل ما سبق ومسّته هند.

ورغم سعة البيت الكبير شعر به وقد تحوّل إلى جحيم ضيق خانق لا يتيح له أن يخلو إلى نفسه قليلاً... وهو ما لم يكن يشعر بالحاجة إليه من قبل، كأن الحزن أعاد إليه فرديته وآدميته بعيداً عن الاحتماء بالقطيع... وصار يهرب من الأصوات والناس وكل شيء باكراً إلى العمل...

أمه التي كانت تدير البيت الكبير تابعت حياتها، أما شقيقتاه بوران وماوية فقد وجدتا عملاً إضافياً: تربية زين، والتحكّم بالخادمة جهينة! بموت هند وعى أمجد بذعر أنه ليس تكراراً للآخرين. لقد فقد التجانس المتكاتف مع الذين حوله والذي جعل حياته في البيت الكبير ممكنة بل وضرورة ملحة فرضها على هند (لعلي قتلتها لأنني كنت معها صوت «الآخرين» وتكراراً لهم؟). ومرة زجرت بوران زين لأنها تلعب مع دريد ومع الصبيان. فسألتها زين: لماذا تزجرينني أنا لا دريد مثلاً؟ أجابتها

بوران بصوت غير قابل للمناقشة: لأنك بنت أما الصبي فلا يعيبه شيء.

* * *

في الليل غنَّت الحاجة لزين والظلام شبه دامس إلاّ من شعاع صغير قادم عبر الباب: «أنا الطير الأخضر.. بمشي ويتمختر.. أمي دبحتني.. وأبي أكل لحمي.. وأختي الحنونة.. تلم عظامي وتبكي».. وشاهدت زين الطائر الأخضر يتبختر وأمه تذبحه مثل الدجاجة وهو يركض بعنق مقطوعة والدم يتفجر منها...

لم تفهم لماذا فعلت أمه ذلك ولماذا التهم أبوه لحمه، وبدت الأشياء لها مخيفة ومعقدة والجني قابع تحت سريرها باستمرار ليشدّها من شعرها ويخنقها، والملاكان على كتفيها يسجّلان كل ما تفعله وتفكر به، وأنكر ونكير يستجوبان أمها كما يفعلان مع كل الذين يسافرون لعند الله، وعلى جبينها سجل بذنوبها تطالعه عمتها. تصير زين هي الطير الأخضر الذي يمشي ويتبختر ويد تذبحها أمام باب المطبخ كدجاجة خالتها لبابة وتركض والدم يتطاير من عنقها... وانفجرت تبكي بصوت عال، وركضت بوران لتزجرها وفوجئت بوجود جدتها معها. لم تفهم سبب بكائها وقالت الجدة بحنان: مسكينة. إنها «مستوحشة» لأمها. وعادت تغني لها موالاً كانت تنشده «أيام الصفا» بصوتها العذب: «نامت عيونك وعيون الله ما نامت / ما في ولا شدّة على مخلوقها دامت / وإن دامت الشدة ما يدوم صاحبها / راحت ليالي الهنا يا ريتها دامت»...

لم تسمع زين بقية الأغنية فقد مضت إلى النوم مع صبي رسوم السقف وحلمت بأنها تحولت إلى رسم ملاصق لصورته.

* * *

لعبت زين طويلاً بثلاث علب كبريت فارغة وصلتها بعضها ببعض بخيط غبر ثقوب وراحت تجرها خلفها كقطار ركبته وكان مسرعاً. ضجرت فتركتها وأحضرت خلسة من المنقل قطعة فحم. رسمت بها على الأرض خطاً أسود. صارت تحاول المشي عليه جيئة وذهاباً دون أن تخرج قدمها عن الخط قيد أنملة. كانت مستغرقة في حرصها على البقاء فوق الخط حتى إنها لم تسمع جدتها وهي تزجر جهينة: «حرام عليك. كيف نسيت البارحة أن تسقي الزريعة؟ ألا تعرفين أن ذلك حرام يعاقبك الله عليه؟»

أما بوران فزجرت زين: لماذا وسّخت الأرض هكذا بالفحم؟

حملها أمجد بحنان وشبهها بأمها يوجعه، ومضى بها إلى الناحية الأخرى من «الديار» وسألها شبه هامس: لماذا فعلت ذلك؟

أجابته: كنت أتمرن على المشي على الصراط كي لا أسقط عنه في جهنم واحترق كما قالت عمتي بوران. كان يعرف أن شبهها الخارق بأمها يستفز بوران أحياناً وتخاف عليها محاولةَ تطويعها وتبديلها.

ضمها إليه وطمأنها بأنها ليست مضطرة للقيام بتمارين للمشي على الخط المستقيم ولا فوق الخيط، المهم أن تكون بنتاً طيبة. ما كاد يفلتها، حتى شاهدها بعد دقائق توسّخ يديها بطين حوض جدتها ذي الأزهار البيضاء الذي أنجزت جهينة ريّه قبل قليل، وتكاد تقتلع نبتاته. حملها من جديد وقبل أن يسألها ما الذي تفعله سألته: هل تريد أن تساعدني على التفتيش عن الكنز في الحوض؟

كان يعرف أن أسرته أباً عن جد تعتقد اعتقاداً جازماً كمعظم الأسر الشامية بوجود كنز مدفون تحت البيت في مكان ما، حتى إن عبد الفتاح في إحدى الفترات استشار عرافة «تضرب المندل»(١) لترشده إلى مكانه.

أضافت من عندها: عمتي تقول إنه في هذا الحوض بالذات! وقبل أن يقول شيئاً لبوران قرع الباب. صرخت جهينة: «مين؟» وهي تركض صوبه وحتى قبل أن تصل إليه!

فرحت زين حين شاهدت فيحاء. امتعضت فلك وماوية لا لأن فيحاء صارت تزورهم في فترات متباعدة كضيفة بعدما بدأت دوامها المدرسي في دار المعلمات، ولكن لأنها تعيش «على هواها» وتقوم بالزيارات بلا مرافق أو حسيب وشقيقها الدكتور مأمون «يرخي لها الحبل» وعمها أمجد يؤيده. الحاجة سرّت بحضورها، وبعد جلسة مختزلة لم تغادر خلالها زين حضنها، شربت خلالها قهوتها بسرعة بـ «قشطة» على وجهها كما تحبها وانسكبت بقاياها على ثوبها بحركة طائشة من قدم زين، فمسحتها بخرقة مبتلة وهي تتابع تدليل زين، قالت فيحاء إنها مشتاقة لزيارة الجارات واستأذنت في اصطحاب زين معها ورحّب الجميع بذلك.. وغرقت في حوار مع عمّها عن دروسها في وقفة قرب باب الخروج طالت كزيارة مستقلة، وانسحبت منها بوران لأنها لم تفهم شيئاً كثيراً مما يقولانه. وحين سمعت فيحاء صوت بكاء هاني، عادت إلى الداخل وألحت على ماوية من جديد بعرضه على

---

(١) تضرب المندل: من الطقوس السحرية للتنجيم.

شقيقها الدكتور مأمون الطبيب الاختصاصي من جامعات باريس، فقد يكون ببساطة مريضاً ولم يركبه عفريت كما قالت، وهي تنظر إلى عمتها بوران نظرة ذات معنى.

بدأت الزيارة بآل ديب، فقد ربطتها بهم أواصر محبة منذ كانت تقيم في بيت جدها. صحيح أنها تحدّثت عن شوقها للجيران عامةً، ولم تكن تكذب، لكنها أرادت أيضاً أن تتجسس على أخبار نقولا، الجار الوسيم المتزن، وتهرب بزين من المناخ المكهرب المضطرب المخيم على البيت كما خيّل إليها. وبدت زين كثيرة المرح بين ذراعي الجارة وداد المعلمة في مدرسة خديجة الكبرى، وأمها العجوز النحيلة الشفافة أنطوانيت، وكانت زين تناديها «ماما ديب».. وتحدثت «ماما ديب» بفخر عن ابنها الذي تناديه زين «بابا ديب» وتحبه كثيراً للطفه معها، واستفاضت حول تخرجه من الجامعة مضيفة: «إنه شاب كامل مكمّل سبحان الرب الذي صوّره». وكادت فيحاء توافقها على ذلك لإعجابها به حتى اشتهاء الزواج منه لو لم يكن مسيحياً ولن ترضى أسرتها أو أسرته بذلك، وخاب أملها لأنه لم يكن في البيت لتملأ عينيها من وسامته على الأقل. وكانت شقيقته تثني على كل كلمة تقولها أمها في مديحه، مضيفة ارتياحها للخلاص من تهديد سلطات الانتداب له بالاعتقال طوال أعوام وهو الوطني المعروف في أوساط الطلاب بنشاطه من أجل الاستقلال...

بعدما التهمت زين قطعة «بلورية»[1] كبيرة بشهية أخذتها فيحاء إلى البيت المقابل الموسر لأسرة الفحاط... واستقبلتهم الأم بالترحاب وفي عينيها ذلك الحزن المكسور.. كانت مأساتها وزوجها معروفة: أنعم الله عليهما بكل شيء، وحين أنجبت صبياً جاء متخلفاً عقلياً ولا علاج له...

لاحظت فيحاء أن أدهم كان قد كبر كثيراً في كرسيه الحديدي المتحرك وصارت أمه عاجزة عن حمله لضخامته، لذا ترغمه على البقاء جالساً خلال غياب والده عن البيت. وارتسمت ظلال شاربيه، لكنه كان لا يزال عاجزاً عن المشي بصورة سوية أو الكلام الصحيح. شردت فيحاء (**أهذا عقاب الله لزواج الثروة من الثروة بين أولاد العم لأجيال متعاقبة؟ ماذا لو تزوج أبو أدهم من فقيرة مثلي مثلاً لينجب أطفالاً بدم جديد؟**)...

زين بدت مذهولة وهي تراقب أدهم يحدّثها بصعوبة كما لو كان أصغر سناً منها، واقتربت منه وصارت تداعبه بحنان... وضحك معها فسال الدمع من عينيه

---

(١) بلورية: حلوى شامية.

وأنفه وتدفق سائل أبيض من فمه وأنفه وفاحت رائحة كريهة من ثيابه التي تبللت فاشمأزت زين وابتعدت عنه، وراقبته وأمه تضمه إليها وتقبّله بلهفة. . ولا تدري زين لماذا نهضت فجأة لتشاكس ولتلعب بودع «البرجيس» المنسي على الأرض بعدما لاحظت أن كل ودعة هي بالفعل صدفة صغيرة جداً تشبه تلك التي أعطتها إياها أمها. وفي غمرة اندفاعها اصطدمت بمصباح ثمين جداً من «السيڤر» الفرنسي القديم لم تنتبه إليه، فسقط على الأرض وتحطم! اكتفت فيحاء باعتذار بسيط من أم أدهم إذ لم يخطر ببالها أن ثمنه ثروة صغيرة. وعادت بزين إلى البيت وحرصت على عدم إخبار أحد بما حدث عند الجارة ولكنها كانت واثقة من أن أم أدهم ستذيع النبأ كما فعلت قبلها فريحة أم كريم.

* * *

حلمت زين أنها نائمة على أرض «الديار». . وأنها استيقظت من نومها على صوت العلبة الموسيقية لأمها. . . فنهضت وتبعت الصوت. كان منبعثاً من غرفة نومها الوردية والباب مفتوح والمصباح المغطى بالأصداف إلى جانب السرير يشع بنور دافىء. . .

لم ترَ أمها لكنها شمت رائحة دفئها وعطرها «السوار دي باري» في الغرفة كأنها غادرتها للتو. . اقتربت من دماها. . . وما كادت تتناول واحدة منها مغمضة العينين حتى فتحت الدمية عينيها ولم تقل «ماما»، بل حرّكت شفتيها دون أن يصدر عنهما أي صوت. ثم جاء صوت هاني من داخل الدمية ينوح بطريقته الخاصة الأسيانة. . وشاهدت خيطاً رفيعاً جداً من الدم يسيل من إحدى عيني الدمية في حين أغمضت عينها الأخرى. . . ونهضت بقية الدمى ومشت وحدها وصارت تكبر حتى صارت بطولها، وصوت هاني الباكي يتعالى منها جميعاً. . . هربت وحاولت أن تتسلق ساق الطاولة المغطاة بالصدف فلم تستطع، وأخذ لؤي يشدّها من ساقها كي تسقط. . وصار الصدف يخمش كفيها ويجرحهما وهو يتساقط على الأرض عند ساق الطاولة، كلما حاولت من جديد تسلقها، لتحتمي فوقها من الدمى. وسمعت حفيف ثوب أمها خارج الغرفة فركضت ولؤي يطّاردها متقدماً الدمى. ولمحتها تمشي صوب الشرفة فلحقت بها، وبقفزة واحدة كأنها تطير في الهواء، صارت أمها تمشي برشاقة فوق حافة الشرفة المطلة على صحن الدار وقدماها ترتفعان فوق إفريز الشرفة كأنها تطير. وجرّت زين الكرسي فتسلقته والتفتت هند إليها وابتسمت ولامست بيدها كف زين المجرحة المرتجفة ذعراً، لأن الدمى لحقت بها. وما كادت يدها تمسها

حتى وجدت نفسها من جديد على شاطىء الطابيات تمشي سعيدة إلى جانب أمها التي بدت شفّافة، وقد ضاعت أطراف ثوبها في الضياء الفسفوري المنبعث من البحر كأنه غلالة ممتدة من ثوبها إلى الماء فالأفق..

استيقظ أمجد على وقع يد تهزّه. فتح عينيه. شاهد أمه تشير صوب الشرفة وهي معقودة اللسان. قفز من سريره إلى الشرفة، فشاهد زين في الجانب الثاني منها. همست الحاجة: انظر زين تمشي في نومها على حافة الشرفة!

خافا من سقوطها إلى صحن الدار إذا أيقظاها. تقدم أمجد صوبها بهدوء حتى حملها بين ذراعيه وأنقذها من سقطة مميتة. كادت زين تبكي لأن والدها أعادها هكذا من شاطىء «طابيات» اللاذقية. تعجبت الحاجة لأن الغرفة «المحرمة» كانت مفتوحة الباب والمصباح الوردي الصغير مضاء إلى جانب السرير...

منذ داهمت الكوابيس زين، قرّر أمجد أن تنام ابنته في غرفة جدتها. فقد كانت تقضي وأمها ساعات طويلة في تلك الغرفة، ولعلها تحرّض كوابيسها. وتم إقفال الغرفة بالمفتاح، ووُضع المفتاح فوق الخزانة الكبيرة العالية وراء التاج، فكيف استطاعت زين أن تصل إليه؟

أسرّت الحاجة إلى ابنها بذلك فتفقّد المفتاح وذهل حين وجده في موضعه. فمن فتح الباب إذاً؟ تُراها بوران نسيت إقفال باب الغرفة وعهده بها لا تنسى هذه التفاصيل؟ الحاجة لم تتعجب. كانت تعرف أن الأحياء والأموات يقطنون معاً في البيت وبوسعهم جميعاً فتح الأبواب المغلقة وإضاءة النور. تنهّدت وتلفتت حولها كأنها تتوقع أن ترى شبح هند.

دار أمجد طويلاً في بيته على الشرفات وفي صحن الدار كشبح يتفقد الأرواح التائهة في مملكته الحزينة المخربة. وجاءه انتحاب هاني كطقس يومي رتيب كلما نهضت أمه لصلاة الفجر فكاد يختنق.

***

ارتدت الحاجة معطفها الأسود الوحيد ووضعت فوق رأسها «البرلين» الأسود الذي يغطي شعرها وكتفيها حتى خصرها بعدما عقدته تحت شعرها من الخلف وتدلى منه فوق وجهها نقاب أسود نصف شفاف..

بوران اكتفت بمنديل أسود غطت به شعرها ووجهها... فلك وضعت على رأسها «قمطة» غطت شعرها بأكمله، تدلى منها منديل بطبقتين على وجهها، وماوية

اكتفت بحجاب شرعي ستر شعرها ولا يُرى منها غير نصف جبينها وبقية وجهها حتى أسفل ذقنها. أما فيحاء فمشت صوب الباب معهن والشجار دائر حول سفورها واقتدائها بالمرحومة هند التي كانت لا تضع الحجاب على وجهها وتترك «الإيشارب» يسقط عمداً عن رأسها وشعرها، مثلها مثل نساء الأجانب. طلبت منهن فيحاء ألاّ يتدخلن بشؤونها. ولاحظت بوران أن ابنة شقيقها هذه أضحت أصعب مراساً منذ صار لها راتبها الخاص من دار المعلمات كطالبة فيها.

رجتهن جهينة أمام الباب أن يصطحبنها معهن لأنها لم تغادر البيت منذ أشهر. فلم يجبن طلبها.

أمجد الجالس في «الليوان» يتأمل موكبهن كأنه يراه للمرة الأولى: عدة عصور تتهادى وتتعايش وبينهن زين. غمره قلق جارف عليها داخل هذه الفسيفساء من الأزمنة والأمزجة، ولكن زين كانت تصر على مرافقة جدتها وفيحاء أينما ذهبتا. سار موكب النسوة في زقاق الياسمين الضيق بأقواسه الرومانية وانفراجات الضوء والظلمة حتى الجامع الأموي فالمرجة فجسر فيكتوريا فشارع فؤاد الأول صوب طريق الصالحية.

حين وصلت النسوة أمام مبنى البرلمان قالت زين إنها تعبت، فحملتها الجدة وضمتها بشدة إلى صدرها إذ تذكرت ما حدث لهن في موكب مشابه حين زجرت زين العسكري السنغالي بالفرنسية. وبصوت عال صارت الحاجة تلعن السنغال وتصبّ دعواتها عليهم بالعمى في الدنيا ونار جهنم في الآخرة! وضحكت النسوة وتعجبن من دعوات الحاجة بعد ما لم يبق سنغالي واحد في الشام منذ أكثر من عام، أم تراها تذكرت مصير صهرها الشهيد؟

حملت فيحاء زين عن جدتهما قائلة: صارت صبية لم يعد بوسعك حملها. حملتها ودللتها فتشجعت زين وسألتها أين حجابها الذي كانت ترتديه؟ أجابت الجدة: كانت تغطي وجهها خوفاً من الفرنسيين والآن ذهبوا. وقالت فيحاء: كنت أضع المنديل على شعري ليتركني عمي عبد الفتاح وشأني كي أتعلّم وأعمل وأكون حرة كما أنا اليوم...

ـ «حرة... ما معنى حرة»؟ سألتها زين.

أجابت فيحاء ضاحكة: حرة يعني صبي... وأطلقت قهقهتها العالية في الشارع، فالتفتت بوران صوبها مستنكرة.

وصلت النسوة إلى بيت قريبتهن أم سامي في بساتين عين الكرش للمباركة، وكانت قد أنجبت صبياً وانقطع حليبها رعباً يوم ضربها زوجها، فاضطر لإحضار مرضعة له. وأقسم أبو سامي ألاّ يضرب زوجته ثانية توفيراً لماله. أحبت زين الطفل. كان جميلاً وقبّلته أكثر مما قبّلت قطة البيت ولم يخمشها وتمنت أن تعود به معها. . تأملته حين تناولته المرضعة أم معروف وألقمته ثديها. لم يضايقها أن النسوة تخلّصن منها وتركنها مع المرضعة والطفل، وهي عادةً تحب البقاء مع الكبار والاستماع لحوارهن مما يربكهن ويضطرهن أحياناً للكلام بـ«لغة العصفورة»[1]، ولكنها تظل تستفسر مثل حكاية «إبريق الزيت»[2]. أقسمت النسوة أنهن لسن غريبات وسيساعدن أم سامي في لف «اليبرق»[3] في المطبخ. .

بقيت زين جالسة كالحارس المتنبه، وقد ذكّرها حضور المرضعة بشيء غامض سبق أن شاهدته وأخافها. وحين انتزعت المرضعة الطفل عن ثديها فور خروج النسوة، وهي تقول بصوت عال كأنها تحدّث نفسها غير آبهة لحضور زين: «ابني أحق منه بحليبي»، وتركته يبكي وقد أخذت طفلها لترضعه، انقضت زين عليها مثل قطة صغيرة متوحشة وهاجمتها وغرست أسنانها الأمامية في ثديها وعضتها. . . صرخت المرأة ألماً وحاولت عبثاً نزعها عنها. . دبّت في زين قوة لا تتناسب وضآلة حجمها.

حين استطاعت بوران إبعادها عن المرضعة كان الدم يسيل من ثديها وهي تصرخ: مجنونة. . . هذه الصغيرة مسكونة بالعفاريت. . . حاولت الجدة تلطيف الموقف وسألت بحكمتها ودعابتها في آن: «ماذا حدث يا أم معروف؟ طولي بالك اعملي معروف». .

قالت أم معروف: من قلب الدنيا قفزت عليَّ وعضتني مثل التي ركبها عفريت.

التفتت النسوة إلى زين، لكنها لم تقل شيئاً. . . لم تدرِ كيف تفسر لهن أنها لا تريد أن يمرض سامي أيضاً مثل ابن خالتها معاوية. وحين عدن إلى البيت رقتها عمتها وكتبت لها حجاباً وقرأت جدتها القرآن ونفخت على وجهها. وحين استجوبها والدها ليلاً وحيدين على السطح عما حدث، أرادت أن تقول له إنها خافت أن

---

(١) لغة العصفورة: الكلام الرمزي.

(٢) حكاية إبريق الزيت: حكاية بلا نهاية.

(٣) اليبرق: ورق الدوالي أو العنب.

يموت سامي كما كاد يحدث لمعاوية، لكنها لم تجد صوتاً في حنجرتها، كما لم تجده من قبل حين لم تقل من السارق الحقيقي لـ «الخمسا وعشرين» ليرة وتبرىء جهينة.

***

انقضى أسبوع قبل أن يذهب بها والدها بنفسه لزيارة أم سامي لتعتذر من المرضعة!

اختار أن يأتي وحيداً مع زين. . أضحى يرتاح إليها كما أنها تهدأ في حضوره، وصار يفضّل صحبتها حين يكون بحاجة إلى خلع قناعه وترك أفراس أحزانه تهرول فوق وجهه.

تأمل الطفل الجميل الوليد وقال لنفسه: بطفل كهذا قايضت المرأة التي أحببتها أكثر من أي مخلوق آخر؟ بدت على وجهه أمارات الألم ولم يقل شيئاً، بينما صعدت زين على المقعد كي تصل إلى جبين أبيها وتقبّله تماماً كما كانت تفعل أمها حين تجده مهموماً.

جلس صامتاً، بالرغم من استقبال أبو سامي الحار له بـ «يا أهلين وسهلين». . . احترمت أم سامي ارتباك أمجد وحزنه البادي عليه، فلم تقل له شيئاً عن سوء سلوك زين. أما المرضعة، فما كادت ترى زين حتى غادرت الغرفة هاربة إلى المطبخ.

زين سارعت إلى تدليل الطفل وتقبيله. فقد كانت تعشق الأطفال والحيوانات. . لم يقترب أمجد منه أو يلمسه، ولم يلاطف القطة «فلة» خلسة كما كان يفعل من زمان حين تتمسح به، بل نهض فجأة بعد جلسة رسمية قصيرة مستأذناً بالذهاب، وطلب من زين أن تلحق بالمرضعة للاعتذار منها.

دخلت زين إلى المطبخ وقال للمرضعة: «بردون».

أجابتها المرضعة: «يعضّك الجردون. اخرجي من هون».

ألحّت أم سامي على أمجد: لم تكمل بعد «زبدية الكراوية»[١]. .

هز برأسه معتذراً، وهي تتابع: قطعة شوكولاته، قطعة «برازىء»[٢] أو

---

(١) الكراوية: حلوى منزلية تقدم بمناسبة ولادة طفل جديد.

(٢) برازىء: نوع من الكعك الشامي.

«غرَيْبة»[1]. . وهو يمضي بعيداً في الدهليز الطويل وزين تلحق به وقد اكتأبت فجأة كأن خيطاً لامرئياً يربط بين مشاعرهما دونما حاجة للغة أو الفهم. كان بوسع كل منهما أن يلتقط كهارب الآخر، ودهش أمجد من قوة تلك الطفلة على حدس مشاعره كما لو أن أمها تتقمصها أحياناً.

«حرَنت» زين أمام حنفية الفيجة قرب المدخل في الدهليز ودخلت في مزاجها المشاكس الذي يرافق اكتئابها، فأحضرت لها أم سامي كأساً لتشرب وملأتها بالماء. . كانت نقوش زجاج الكأس نسخة عن تلك التي تسقيها بها أمها قبل النوم وهو ما لم يفعله أحد بعدها، إذ صاروا يسقونها بالكأس «المكاوية»[2] كي لا تنكسر الكأس ولا ترى زين الكوابيس.

شربت زين ولا تدري لماذا عضّت على الكأس بشدة فانكسر الزجاج بين أسنانها وسال قليل من الدم من جرح صغير في فمها، فأسرعت أم سامي تسمّي بالرحمن واقترحت إحضار جارهم الشيخ لتكبيس زين لأن «عليها ثقل». أما زوجها فقرر أن بيتهم بحاجة إلى تبخير وذبح دجاجة سوداء أمام مدخله مع سكب الماء المغلي على العتبة. وأضاف قائلاً عن زين: الذنب ليس ذنبها بل ذنب الأسياد الذين يحاولون تملّكها منذ وفاة أمها كما سمعت. .

أما أمجد فقال لزين هامساً: عضّي على جرحك ولا تبكي أمام أحد.

* * *

تأملت زين حصان عنترة الأبيض في لوحة غرفة النوم وهو يغادرها.

صار كبيراً بحجم زين وله جناحان فردهما. دعاها للركوب هي وجهينة. هربت جهينة من الغرفة. لم تقو زين على الهرب لكثرة ما خافت. لكن أمها حضرت فجأة وقالت لها: لا تخافي. . حملتها وأركبتها فوق ظهر الحصان الذي راح يطير بها فوق شاطىء الطابيات، وأمها تلوّح لها واقفة فوق الرمل. وما كادت أمها تتلاشى حتى تلاشى الحصان تحتها وصارت تهوي في الفضاء وتحاول عبثاً أن تصرخ. وجاءت البومة وحاولت إنقاذها والتقاطها بقائمتيها، ولكنها انزلقت منها وظلت تهوي وتهوي.

استيقظت زين مذعورة ودهشت حين وجدت فراشها تحتها وقد سقطت عليه

(١) غرَيْبة: حلوى شامية.

(٢) المكاوية: كأس معدنية من مكة عليها آيات قرآنية.

من شاهق وكان الوقت نهاراً فصار ليلاً.

نهضت خائفة حائرة وركضت صوب «التتخيتة»[1] حيث تنام جهينة ولم تجدها..

ركضت صوب جدتها وأيقظتها وسألتها أين جهينة، وبكاء مخنوق يرقد ساكناً في حنجرتها. وكانت الحاجة قد تعذبت طويلاً قبل أن تنام بسبب آلام لثتها التي لم تألف بعد وجبة أسنانها الاصطناعية الجديدة، لكنها ضمت زين إليها وقالت لها بصبر عجيب حنون: جهينة ذهبت عند عريسها عيدو. ألم تحضري اليوم بعد الظهر «كتب الكتاب»؟

تذكَّرت زين أنها شاهدت جهينة في ثوب أبيض جميل وقد تزينت بالمساحيق للمرة الأولى حتى إنها لم تعرفها. وأن عمَّتيها كانتا تقومان على خدمتها وظنتهما تلعبان معها لعبة «ضيفة وضيوف»، وتعجبت لأنهما عادة لا تلعبان مع جهينة ولا أحد يلعب معها سواها. وامتلأ قلبها بسائل أسود كاوٍ غامض. أرادت أن تسأل جدتها لماذا تذهب جهينة وهي تحبّها؟ لماذا لا تذهب عمتها بوران؟ لماذا يذهب الذين تحبّهم؟.. لكن دفء فراش جدتها وحنانها تسللا إلى عينيها وجسدها المرتعد. وتأملت «بدلة أسنان» جدتها وهي تسبح داخل الكأس الممتلئة بالماء وتخيلتها أسناناً لسمكة كبيرة ولطيفة مبتسمة. وخلال ثوان كانت قد غرقت في النوم، أما الحاجة فظلت مؤرقة حتى الفجر. ولكن وقت الصلاة كان قد حان فنهضت على مهل خوفاً من إيقاظ زين ذات النوم القلق وقالت لنفسها: «لا تنكشوا نهر قليط!»[2].

***

استيقظت زين والأسرة كلها على صوت «ولاويل» ونواح «ماما ديب»..

شاهد الجيران حين فتحوا أبوابهم ابنتها وداد وقد خرجت إلى زقاق الياسمين حافية القدمين أمام باب بيتها وهي تولول: لقد حملتُ القهوة إلى شقيقي نقولا كعادتي ولكنه لم يستيقظ. كانت نظراتها زائغة لا تستقر على وجه كأنها تشكو لأحجار الزقاق وأقواسه.

شهقت الحاجة: شاب مثل الفلة يهدّ الجدار. فماذا حدث؟

---

(١) التتخيتة: غرفة صغيرة علوية تكون عادة في المطبخ.

(٢) قليط: أحد فروع بردى. رائحته كريهة ولذا يتحاشون تحريك مياهه.

ردّدت بوران خلفها بذهول: شاب جميل ومتعلّم وكان يبدو بأفضل صحة. . .

سرى الرعب في قلب أمجد ممتزجاً بالحزن: من كان يصدق أن هذا الشاب النضر سيموت في نومه؟!

* * *

حين عادت زين من المدرسة علمت من أمية بما حدث للشاب نقولا، وأضافت فضيلة أنه صعد إلى السماء هو أيضاً. كانت الحاجة قد عجّلت بارسال زين صباحاً إلى المدرسة مع ماوية كي لا تبدأ يومها بهذا النبأ. لحقت زين بجدتها وبوران وماوية وفلك إلى بيت «ماما ديب». . لم يلاحظها أحد، فقد كان البكاء حاداً يليق بالمأساة، وحتى «ماما ديب» لم ترها حين نظرت إليها. . فتسللت إلى غرفة «بابا ديب» لتحمّله رسالة إلى أمها ما دام ذاهباً إلى السماء. شاهدته مسجّى على فراشه بكامل ملابسه وصعقها أنه كان ينتعل حذاءه أيضاً كأنه يستعد للذهاب. . . وحين شاهدها فتح عينيه وقال لها بلطف كعادته: أعطني قبلة. . فاقتربت منه وقبّلته قرب شفتيه المزرقتين وحاولت أن تخرج له القطن من أذنيه وأنفه وسألته: هل أنت ميت؟

قال لها: نعم أنا ميت.

سألته: إلى أين ستذهب؟

قال: إلى الجنة أو النار.

قالت: هل الجنة زرقاء لأنها في السماء والسماء زرقاء؟

ـ لا أعرف.

ـ إذا ذهبت إلى الجنة هل ستلتقي بأمي؟

ـ ربما. هل أمك هناك؟

ـ نعم. جدتي قالت إنها هناك لأنها طيبة وإن جميع الذين يموتون يذهبون إلى الجنة أو إلى النار. . . بعد أن يمشوا على الصراط. هل تدربت أنت على المشي فوقه؟ أنا أتدرب. .

ـ ماذا تريدين أن أقول لأمك؟

ـ أن تعود بسرعة لأن زياراتها لي قليلة.

سمعت زين حركة في الغرفة، رفعت رأسها فشاهدت عمتها بوران تجرها من يدها بعيداً عن جثمان نقولا وهي تزجرها: ألا تخافين من الأموات يا «تقصيرة الجن»؟

قالت زين بصوت خافت جداً: أخاف منك أكثر منهم...

لم تسمعها بوران وحملتها جدتها قرب الباب وكانت زين حائرة: هل ستصل الرسالة إلى أمها؟ أم أن «بابا ديب» سيذهب إلى جهنم ولا يلتقي بها؟ قلقت كثيراً من ذهابه إلى جهنم رغم أن جدتها أكّدت لها حين سألتها عن مصيره أنه سيذهب إلى الجنة لأنه آدمي وابن حلال.

في البيت بعد عودة الجميع سمعت خزامى تصرخ ألماً. فقالت حميدة لزين: لا تخافي، إنها تلد.

ازدادت زين ذعراً. صراخ عند الجيران للموت، وصراخ عندهم للولادة.

قالت الحاجة لعبد الفتاح: يجب أن ننقل ابنتك إلى المستشفى. إنها «بكرية»[1]، وقد تكون ولادتها عسيرة.

لم يقل شيئاً وغادر الغرفة. قال أمجد لزين وهو يساعد خزامى على المشي في «الديار» وخلفها بقية أفراد الأسرة الكبار كلهم دونما استثناء: كوني عاقلة في غيابي ولا تشاكسي جدتك.

ما كادوا يمضون ويتخلّصون من إلحاح الصغار على مرافقتهم حتى هطل المطر، مطر آخر أيلول الذي «ذَنَبه مبلول»[2]، رغم الشمس التي لمّا تغرب بعد. ونادت الحاجة الأطفال من «الديار» ليجلسوا في «الليوان» لأن «إبليس يحمم زوجته»[3]. تخيّلت زين زوجته شاهقة القامة منتصبة على سطح بيتهم حتى الغيم وشعرها طويل وكثيف كغابات الفرلق. وتعجبت حين انقطع المطر بسرعة وتساءلت: ترى هل شطف لها إبليس شعرها جيداً؟ وهل يضع لها عليه «الطرابة»[4] المعطرة كما كانت تفعل لها أمها؟ وهل يقول لها كما تقول لها جدتها بعد الحمام وهو يسكب عليها الطاسات الأخيرة: «دياتك عشرة. ورجلياتك عشرة. وعلى قلبك وبدنك عافية ونشرة»؟[5]

تمنت زين أن تصير ضخمة جداً كزوجة إبليس وأن تستحم مثلها بالغيوم وقد

---

(١) بكرية: تنجب ابنها البكر.

(٢) إشارة إلى قول شعبي دمشقي: أيلول ذنبه بالماء مبلول.

(٣) عبارة تقال حين تمطر الدنيا والشمس ساطعة!

(٤) الطرابة: ما يشبه التراب، مادة معطرة للشعر.

(٥) تقال للأطفال بعد الحمام عند سكب الطاسات الأخيرة.

وقفت فوق قمة قاسيون. . . خيّل إليها أنها تكبر وتكبر فجأة وأنها منتصبة في ساحة المهاجرين وكتفها قرب قبة السيار والمطر يهطل على ضفيرتيها. واستيقظت من متعتها على يد تضربها على ذراعها ولؤي يزجرها: أين وضعتِ دبابتي الخضراء؟ ألم أقل لك أن تكفي عن اللعب بدبابتي؟ وعادت زين طفلة صغيرة جداً. . ومضروبة!

* * *

انتهزت بوران فرصة سفر شقيقها أمجد إلى حمص لعمل مستعجل، له صلة بمعمل السكر الذي سمعت أن بعض أصحابه يعمّرونه هناك، وهو المستشار القانوني للمشروع، وقررت أن تنظّم لزين حياتها، وتضبطها بلا مساومة بعدما طار صيتها كبنت مشاكسة. فالست فريحة أسرّت لإحدى صديقاتها بالمصيبة التي كادت تقع لولدها كريم على يدي زين بعدما أقسمت الصديقة على الكتمان، ولكن الخبر انتشر في «الاستقبال»[1]، كما انتشرت حكاية عضّها لثدي المرضعة وكوب الماء الذي كسرته بأسنانها وغيرها من الأعمال غير اللائقة ببنت لا تريد عمتها أن تضيّع مستقبلها، ولا يجوز أن تستمر على هذا المنوال، وتؤذي أيضاً بقية بنات الأسرة اللواتي قد يتعلمن منها مسلكها أو تسوء سمعتهن بسببها. وهكذا كان لا بدّ من عقاب زين وردعها حين عادت من المدرسة. وضبطتها بوران وهي تمضغ اللبان كالبنات غير المهذبات وتنفخ «العلكة»[2] بالوناً تفجّره في وجوه من حولها. وتذرعت بأن ذلك يتسبب في التهاب اللوزتين لديها ومرضها ونحولها. . ولم تجرؤ على ضربها، لذا قررت سجنها في «النصّية» حيث غرفة المونة المعتمة الخالية من أية نافذة التي تتوسط السلم، لكنها خافت أن تمزّق زين أكياس البرغل والسكر والطحين، وتكسر «قطرميزات» الجبنة المكبوسة بالماء والملح واللبنة المكوّرة السابحة في الزيت و «المكدوس» متسببة بكارثة حقيقية. . فقررت حبسها في الغرفة الصغيرة المعتمة ـ داخل حجرة زين الوردية ـ المقفلة في العادة والخاصة بتعليق الثياب، وقد علّقوا فيها ثياب المرحومة الثمينة بعد رحيلها كالفراء وغيرها. وصرخت بزين: هيا إلى «الشامبرنوار»! وقالت إنها ستكتفي هذه المرة بسجنها وهددتها بأنها في المرة القادمة سوف تدهن لها أذنيها، أذناً بالدبس وأخرى باللبن، قبل أن تسجنها كي تقرضهما الفئران في الظلام، واقترح لؤي شامتاً دهنهما بالعسل!

توقعت بوران أن تخاف زين وتتوسل إليها لتعفو عنها، لكن الطفلة كانت تزداد عناداً وانطواءً على ذاتها كلما زادتها بوران تهديداً بالعقاب، ولم تبك ولم تقل شيئاً

---

(١) الاستقبال: لقاء نسائي دوري.

(٢) العلكة: اللبان.

ودخلت إلى الغرفة المعتمة وقد هبّت في وجهها رائحة نفتالين نفاذة. وحين انطبق الباب عليها شعرت للوهلة الأولى بذعر مروع من الظلام وخيل إليها أن للعتمة جسداً يتنفس ويجثم فوقها ثقيلاً، أم تراه جسد جني ما تحت السرير؟

توهمت أن شيئاً ما لمس وجهها وهو يخفق بأجنحته، وحاولت أن تصرخ هلعاً فلم تجد صوتها. لعله الطير الأخضر في حكاية جدتها. لا، إنه جني مصباح علاء الدين. أم تراه «أعور الدجان» الذي خوّفها به لؤي ولا تعرف هل هو جني أم أنسي.. لا إنه كائن تجهله له مئات الأذرع وفي كل ذراع آلاف الأصابع التي تتحسس الآن وجهها. راحت دموعها تنحدر على خدّيها في الظلمة بصمت وهي ترتجف.. تخيلت أنها ستسقط على أرض مليئة بالجرذان والديدان. صارت تتلمس ما حولها لتتمسك بشيء ما. أحست بملمس فراء تحت أصابعها فأخذت تتحسسه وقد خُيّل إليها أنه دافىء. وحين اصطدمت يدها بوجه الثعلب الذي كانت أمها تلّف فراءه على عنقها خيل إليها أنه حي ويعضّها. سألته بلا صوت: لماذا عَضتتني؟

ـ هل آلمتُكِ؟

ـ بعض الشيء. ربما لأنني خائفة.

ـ خائفة مني؟ أشفقي على حالي. أنا مسجون هنا دائماً في الظلمة ولا أتنفس إلا النفتالين. ثم إنني أفتقد أمك اللطيفة التي كانت تلفني حول عنقها وتنزّهني. إني خائف كثيراً من غيابها..

ـ إني خائفة أكثر منك.

صارت زين تداعب فروه كما تداعب القط هارون وقالت له: كم أنت ناعم ولطيف أيها السيد الثعلب.

ـ ولكنني خائف.

ـ وأنا خائفة.

سمعت صوتاً أليفاً يهمس: لا تخافي.. وميّزته. إنه صوت أمها. وبالرغم من الظلمة الدامسة، باستثناء شعاع صار بوسعها أن تراه آتياً من ثقب الباب، ميّزت زين ملامح أمها تدريجياً وهي تقف في الغرفة المعتمة إلى جانبها في ثوبها الأبيض الطويل وتمدّ يدها إليها. وما تكاد تلمسها حتى تجد نفسها من جديد على شاطىء الطابيات في اللاذقية.. والشمس ساطعة.. وطيور البحر البيضاء ترفرف في المسافة بين الأفق وشعر أمها. تأخذها هند بين ذراعيها وتجلسان على الرمل وهي تغني لها

بالفرنسية «أوكلير دو لا لون»[1]، فتغفو على ركبتها سعيدة ودفء الرمال يسري في أوصالها.

قلقت بوران التي كانت تنتظر خلف باب الغرفة المظلمة بكاء زين وتوسلاتها، كما تفعل رزان وحميدة وفضيلة وأمية حين تعاقبهن ثم تفاوضهن على الطاعة والنظام والاحترام، مقابل الخروج من الغرفة، إذ لم تسمع لزين صوتاً. كذلك خاب أمل دريد ولؤي اللذين وقفا إلى جانبها لممارسة متعة الشماتة بزين لكثرة ما تناكدهما. وحين فتحت الباب وجدت زين نائمة على أرض الغرفة المعتمة بسلام! حملتها وضمّتها إلى صدرها بحنان وأخذت تبكي كما تفعل دائماً حين تعاقب ابنتها رزان وبقية الأولاد..

* * *

قررت بوران «تربية» زين بأساليب أخرى. ستنقل المعركة من الغرفة المعتمة إلى المطبخ!

تقول زين بصوتها الضئيل: لا أريد أن آكل بامية. لا أحب البامية.

تزجرها بوران: البنت لا تحب ولا تكره. تأكل ما يُقدَّم لها. هيا كلي.

ـ لن آكل.

ـ لن تأكلي شيئاً آخر على الغداء. ستظلين تأكلين البامية حتى تتعلمي أكل ما يُقدَّم لك مثل بناتي وبنات عمتك وعمك وبنات الناس المحترمين.

ـ لن آكل.

ظل ذلك الحوار يدور ثلاثة أيام وقت الغداء حتى لاحظ أمجد الخيّال يوم عودته شحوب ابنته ودوارها.

حين أخبرته بوران بما يدور طلب منها غاضباً أن تدع زين وشأنها وذكّرها بأنه سبق له أن رجاها ذلك. توقع أن تتراجع معتذرة.

غاضبة قالت: هل تريد أن أربيّها أم لا؟ لا بدّ من ترويضها منذ الصغر، من أصغر حكاية، وإلا تمردت عليك حين تكبر. . أريد تربيتها كابنتيّ وأقسم لك أنني أحبها مثلما أحبهما.

ـ اتركيها لي. سأتولى بنفسي تربيتها. . أنتما لا تتفاهمان.

---

(١) في ضوء القمر أعرني يا صديقي بييرو ريشتك.

- دعني أضربها كما أضرب بناتي. ضربة صغيرة على اليد بالمسطرة لا تؤذي.
- لم تضربها أمها في أي يوم ومنعتني من ذلك. سأكسر كل يد تمتد إلى زين بعلم مني أو سراً. مفهوم؟

كانت كلمته لا ترد. سكتت بوران على مضض، وازدادت نقمتها حين رمقتها زين بنظرة متحدية نصف منتصرة أو هكذا خيّل إليها إذ إن زين لم تكن تسمع حوارهما نصف الهامس.

صرخت بوران بزين مؤنّبة: لماذا حذاؤك مقلوب هكذا إلى الأعلى صوب السماء؟ هيا اقلبيه بسرعة صوب الأرض واستغفري الله. سارعت زين إلى تنفيذ ذلك قائلة: أستغفر الله العظيم يا ربي. ورفعت عن الأرض قطعة خبز كانت قد رمتها احتجاجاً على البامية وقبّلتها ووضعتها على جبينها ثم على رأسها وهي تستغفر الله كما علّمتها أمها وجدّتها أيضاً. .

دخل دريد وهو يبكي: لقد سقط سنه الأمامي، سن الحليب. هدّأت جدته من روعه ونصحته بأن يدفنه في تراب الحوض وهو يقول: «خذوا سن الحمار واعطوني سن الغزال»[1]. وكانت زين تراقب ذلك بذهول: لماذا للبشر أسنان حمير أو غزلان؟ وهل للحمير والغزلان أسنان بشرية؟ كم هذا غريب!

نسيت كل شيء عن زجر عمتها لها ولحقت بدريد لتسأله لماذا في فمه أسنان حمير؟ وهل في فمها هي أيضاً أسنان حمير؟ وما الفرق بين سن الحمار وسن الغزال؟ ولماذا حرام أن ينقلب الحذاء إلى الأعلى؟

أجابتها الحاجة عن السؤال الأخير فقط: لأن الله تعالى في السماء، فهل ترضين بتوجيه أسفل حذائك القذر صوب مكان يقيم فيه؟ دارت زين على غرف البيت لتتأكد من أن الأحذية كلها في وضع سليم. وحين ضبطتها عمتها ماوية تحت سريرها لم تصدّقها حين قالت لها إنها تريد ترتيب حذائها لها، وخافت أن تكون كعادتها قد دسّت لها تحت السرير ضفدعاً أو حرباء، كما فتشت جيداً تحت وسادتها خوفاً من صرصار تزعق كلما لمحته من بعيد، مما يضحك الأطفال ويجعلهم يدسون لها من وقت إلى آخر صرصاراً تحت الوسادة أو رتيلاء صغيرة داخل حذائها بإيعاز من زين!

* * *

(١) عبارة يرددها الأطفال حين تسقط أسنان اللبن.

تخاف زين وقت الذهاب إلى النوم. تخاف كثيراً لأنها لا تدري ما سيحدث لها، وبمن ستلتقي. وما أكثر ما يحدث لها حين تركب قاطرة النوم التي يقودها جني وتلتقي بمن تعرفهم وبمن لا تعرفهم وتحدث لها أشياء غريبة معظمها مرعب. وحين تعود صباحاً من هناك وتروي مغامراتها، لا أحد يصدّق أنها حدثت لها أو أنهم لا يبالون ويتثاءبون وهي تروي لهم بالتفصيل مغامراتها المرعبة «هناك» في النوم. ولعلهم لا يصدّقونها بالرغم من أنها تخفي عنهم أحياناً ذنوباً ارتكبتها في ما يدعونه «أحلامها» إذ تخاف من عقابهم. ترى هل تقرأ بوران على جبينها أنها خنقتها مرة في الحلم بفراء أمها، وجعلت ثعلب الفراء يعود حياً في مرة أخرى وينقضّ على عنقها وهي تراقبه نصف خائفة ونصف مسرورة؟ ترى هل يسجّل الملاكان على كتفيها ما تقترفه في أحلامها وتعاقب على ذلك أيضاً في جهنم، أم أن جرائم الأحلام مباحة؟ وكيف تعرف كلما جذبت شعر عمتها وأوجعتها أنها تفعل ذلك في الحلم وليس في الحقيقة؟ وكيف تميّز بينهما؟

* * *

تتأمل زين مصيدة الفئران في المطبخ والأخرى في «الديار». مصائد فئران كيفما تحركت. مصائد ضخمة في البيت والمدرسة والشارع. عيون مرشوشة بمصائد الفئران. أفواه تختبىء فيها مصائد فئران. غلطة صغيرة. تك.. ويلطشها الحديد البارد.. وهي خائفة.. خائفة دائماً.·. تبذل جهدها كي لا تقع في أية مصيدة. تعتني بنظافة مريول المدرسة الكحلي. تفوح على وجهها كل مساء رائحة دهن اللوز وهي تلمّع حذاءها. تغسل محرمتها البيضاء قبل النوم وتلصقها على زجاج النافذة كي تجف وتصير مكوية في آنٍ. تغسل شرائط شعرها وتلصقها أيضاً على زجاج النافذة بصعوبة وتبذل جهدها لتسوية المخمل ولكنه لا يعود حقاً كما كان بعد الغسيل الأول. ثمة أشياء كثيرة ليس بوسعها أن تعود كما كانت.. وبعد رحلة النهار الطويلة تشعر قبل النوم أنها شريط مخمل أنهكوه تنظيفاً ولم يكن قذراً حقاً. يزجرونها باستمرار على ذنوب لم تقترفها إنما كان يمكن لها أن تقترفها.. إنها خائفة منهم ومما قد تفعله وما لم تفعله. كل ذلك في دنيا ضبابية مخيفة نصف سكانها لامرئيون مثل الجان وأنكر ونكير والغول وأعور الدجال، وفوق ذلك كله لا يتوقف هاني عن النواح والياسمين عن التنهد.. الياسمين الذي توجعها رائحته ويذكّرها بأمها حين كانت تزيّن لها شعرها بعقد مضموم من أزهاره.. كم تكره الياسمين وتحبه! الياسمين مصيدة لا تخطىء قلبها!

* * *

تحب زين الذهاب إلى بيت الجارة مبجل واللعب معها حيث تعطيهما أختها الكبيرة معزز دماها القديمة كلها لتلعبا بها على هواهما، وتكسرانها أيضاً دون أن تزجرهما هي أو أمها الحلبية المبتسمة دائماً «أم علي».

قال والد معزز ومبجل وعلي لزوجته صارخاً، مشيراً إلى القط الذي يلتصق بزين ومبجل وهما تلعبان: أنا أو عنتر!

ارتجفت زين ومعزز ومبجل لصوته، وعبست الأم ذعراً. هربن كلهن إلى المطبخ والقط عنتر يتقدمهن وكأنه فهم كلام «أبو علي».

كرّر أبو علي بصوت عال من الغرفة: أنا أو القط.

أجابته أم علي من المطبخ بصوت مشابه: القط!

لحق بها ليضربها أمام زين وابنتيها. قالت: حسناً. سأتخلص منه.

صرخ: الآن!

لبّت رغبته. قرّرت «توديره» القط وزين تبكي بلا دموع ومعزز ومبجل تنتحبان وأمهما على حافة البكاء.

وضعت أم علي القط في كيس من الخيش المتين والقط يموء ويقفز داخله، ومشت به وزين ومعزز ومبجل طويلاً طويلاً في جنازة نسائية صامتة وهو يموء بهلع حزين كمن يعي ما يفعلنه به. بعيداً أفلتته أم علي من الكيس وعلا انتحاب معزز ومبجل، وزين متحجرة الوجه تبكي إلى الداخل. عدن إلى البيت صامتات كمن عاد من تشييع عزيز، وأمام باب البيت في زقاق الياسمين كان القط في انتظارهن!

فرحت زين وضمّته إليها وتساءلت: من وضع أمها في كيس وأفلتها في مكان مجهول حتى اختفت هكذا؟ وهل ستجدها ذات يوم أمام الباب كالقط؟

أبو علي ذهل حين عرف الحكاية وشاهد القط عنتر، فغفر له أنه حي وخبيث يعرف الطريق إلى البيت وقرّر الاحتفاظ به! عادت زين إلى بيتها سعيدة. لم يكن ثمة ما يؤلمها كالفراق!

- *

«مسكينة يتيمة».. هكذا قالت صديقة عمتها بهيجة التي تحبها زين كثيراً وتفرح بحضورها من حمص حيث تقيم. «مسكينة يتيمة».. كررت المرأة وهي تنظر بوجه كالضبع المبتسم إلى زين من فوق.. من قمة قامتها الشاهقة.. وعادت تكرر ذلك كأنها تتوقع من زين أن تبكي مصداقاً لقولها. اكتفت الطفلة بالانزواء داخل

جسدها كما تنسحب السلحفاة إلى داخل صدفتها. . لاحظت عمتها أنها ترتجف كهلام محارة حيّة عصروا عليها الحامض، فضمّتها إليها بحرارة وهي التي لا تنجب، وغمزت الصديقة بعينها هامسة: إنها حسّاسة كثيراً. يقول والدها إن «شوك الخس يجرحها». . تحذرها الصديقة هامسة: هنالك بنت «طقت وماتت» حزناً على أمها. ثم بدّلت الحوار وقد التمعت عيناها: أريد أن أسألك، هل حبلت كنة أم عارف؟ ولم يكن قد انقضى على زواج الكنة المذكورة أكثر من أسبوعين. فأجابتها العمة: فأل الله ولا فألك يا جارة. . ما زالت في الأسبوع الأول من شهر العسل، فكيف تريدين أن نعرف إلا إذا كانت ـ لا سمح الله ـ حاملاً من قبل! وضحكتا. . . وغرقتا في ثرثرة أثارت فضول زين وعجبها.

* * *

تحب زين العيد الكبير أكثر من العيد الصغير لأن أهلها يكونون أقل عصبية في العيد الكبير منهم بعد رمضان.

لا تحب زين اليوم الأول من العيد. فهي لا تكاد تفرح بالثوب الجديد والحذاء الصقيل اللمّاع حتى يأتي دور تقبيل أيدي الكبار ووضعها على الرأس، ومقابل ذلك يعطونها «العيدية»[1]. سألت والدها هل يمكن أن تعطيها عمتها بوران نصف العيدية شرط ألاّ تقبّل يدها، أو ربع العيدية؟ ضحك طويلاً. وحين دخلت زين لتعايد الأهل، قال لهم: «تقبيل الأيادي ضحك على اللحى». دعونا نبطل هذه العادة. أمر زين بعدم تقبيل يد أحد فامتعضوا وثابر أولاد عمها وعمّتيها على تلك العادة، أما هي فاكتفت بتقبيل يد جدتها ووالدها بكل غبطة. كانت تريد ذلك معهما فقط. ولكن الخلاص من تقبيل الأيادي لم ينقذها من نساء هائلات الضخامة يحملن جسدها النحيل الهش ويقبّلنها وهن يعصرنها فتكاد تختنق ويدخل وبر وجوههن الخشن في لحمها كما الشعر المتدلي من فتحات أنوفهن التي تراها عن قرب بوضوح كما الوبر فوق الشفاه الشبيه بالشارب. . . تهرب راكضة وتغسل وجهها في بحرة «الديار». تسأل والدها: لمَ التقبيل؟ يقول: لأنهم يحبونك.

إذاً هذا هو الحب الذي تكتب له عمتها بوران الحجابات. تمنت لو تكتب لها حجاباً ضد القبلات.

* * *

(١) العيدية: إكرامية العيد للصغار.

غادرت زين المدرسة من بابها الخلفي مع بقية البنات. لم تجد أحداً من أسرتها بانتظارها لإعادتها إلى البيت. الثلج يغطي الزقاق. غروب يشهق برداً. فكّرت بأن تسرع لتمشي مع رفيقاتها. انزلقت. سقطت على الأرض وتوجعت وهي تشاهدهن يغادرن الزقاق ولا يلتفتن إليها. كادت تبكي ولم تفعل. تذكّرت أن والدها أوصاها بالانتظار أمام باب المدرسة إذا تأخرت عمتها عنها قليلاً. نهضت وهي تحمل حقيبتها وامتلأت حنجرتها بالدمع. شاهدت بائع الكستناء وهبّت رائحة الدفء، ومقابله جلست المتسولة الضخمة العمياء وهي تنوح كعادتها: «يا ابنتي.. خسارة جمالك يا ابنتي. كيف أخذتها يا الله وتركتني.. يا حبيبتي يا ابنتي.. عودي إلى أمك».. وكانت زين عادةً تشارك رفيقاتها السخرية من المتسولة العمياء، وفي حالات نادرة تعطيها كل واحدة منهن قرشاً حين تبادر إحداهن إلى ذلك في نوبة كرم مفاجىء.

ذلك المساء وعت زين للمرة الأولى معنى ما تقوله المتسولة كأن الثلج وألم السقطة والبرد أرهفت حواسها... لا تدري لماذا وجدت نفسها تركض فجأة صوب المتسولة وصدرها الكبير لتعانقها وتقول لها بعد ذلك بصوت خافت: أنا ابنتك. ضمّتها المتسولة إليها وفاحت من ثيابها رائحة عفنة ودافئة ومغبرة وهي تغمر رأس زين وجسدها بيديها الكبيرتين. استرخت زين وتمنت أن تطول تلك اللحظة وأن لا تغادر صدر تلك التي تهمس بصوت كله حنان وهي تقول «يا حبيبتي يا ابنتي اشتقت إليك»، وأخذت تتحسس وجه زين بيدها، فضفائرها، ثم رمت بها بعيداً كجرو صغير، صارخة بشراسة لبوة: أنتِ لستِ ابنتي.. اذهبي وفتشي عن أمك.

سقطت زين على الثلج متوجعة وأجهشت بالبكاء، ولم ينحن بائع الكستناء ليرفعها عن الأرض. لملمت زين نفسها وقد لسعها الجليد وجرّح ركبتها، وحملت حقيبتها المدرسية ودموعها تنحدر على وجهها بصمت.. وحين وصلت عمتها ماوية معتذرة عن تأخرها لانزلاقها على الثلج لم تقل زين شيئاً. وسألتها عمتها: هل تبكين؟ لم تجب.. وأضافت ماوية: المدينة كلها تبكي. في الثلج تنحدر دموع الجميع ولا أعرف من الذي يبكي ومن المزكوم! كانت قد التقت ماوية بمطلقها في الشارع مصادفةً، لكنه صفعها لأنها تزينت بأحمر شفاه من خلف منديلها، كما لو كانت لا تزال زوجته! وتمنت لو كانت زين أكبر سناً بقليل لتشكو لها همّها!

* * *

في قاعة «الصف الأول الابتدائي» في مدرسة «الليسيه» الفرنسية في شارع بغداد بين «السبع بحرات» و «مقبرة الدحداح»، جلست زين كعادتها إلى جانب لمعة حين تذكرت أن أمها لن تكون بانتظارها أمام الباب بل بوران وقد عقدت حاجبيها في وجهها وهي تكره «عقدتها» تلك. فقالت فجأة للمعة: تعالي نهرب من المدرسة. هربتا من الباب الرئيسي للمدرسة إلى شارع بغداد، وكان «الآذن»[1] نائماً على مقعده، وفرحت زين كثيراً بالمشي على هواها للمرة الأولى في حياتها، ولكن لمعة خافت فجأة وبكت وقالت إنها تريد أمها وأصرّت على العودة إلى بيتها على الرصيف الثاني.

بدا الشارع عريضاً جداً وهما تقطعانه وكادت سيارة تدهسهما. سألهما شرطي: ماذا تفعلان وحدكما؟ أجابت لمعة وهي تكاد تبكي: إننا ذاهبتان إلى البيت على الرصيف الثاني يا سيدي.

ـ ما اسم والدك؟

أجابته لمعة. فهز رأسه مقتنعاً وصدّقهما وتركهما، لكن لمعة رفضت أن ترافق زين إلى حيث كانت أراجيح العيد مرة قرب «الدحداح» وخافت قائلة إن المقبرة هناك ولا تجرؤ على المرور أمامها لأن أمها أيضاً تخاف من مقبرة الدحداح. وأكدت لها زين أن أمها تسكن في مقبرة في اللاذقية كما قال لها لؤي والمقابر لا تخيف، لأن الناس يغادرونها إلى السماء معظم الوقت، ولكن العجائز الباكيات هن المرعبات ويتدلى الشعر من أنوفهن ولهن شوارب.

رافقت زين لمعة إلى البيت مرغمة شرط أن تلعبا «العبة الحرامي»، وتسللتا من الحديقة إلى غرفة نوم الأب، وكان يغفو على السرير في قيلولة. وأرادت زين أن تتأكد من وجود الجني تحت فراشه فانسلّت تحت سريره واصطدمت قدمها بإبريق الماء الفخاري الذي انكسر فصحا الأب غاضباً.. وذهل وهو يرى زين عندهم. هنا قالت لمعة باكية إن زين أجبرتها على الهرب معها من المدرسة. تعجبت زين من هذه الكذبة وبهرها ذلك إذ إن لمعة كانت قد تحمست مثلها للهرب! ارتدى الأب ثيابه وأعاد زين إلى المدرسة بعدما شرح للمعلمة ما حدث. ووجدت بوران في الحكاية فرصة لتطالب من جديد بإخراج زين من «الليسيه» وتعليمها ما ينفع كالطبخ والخياطة وحسن الأخلاق و «جزو عمّ» ودروس الدين. فإحضارها كل يوم إلى

---

(١) الآذن: بواب المدرسة.

شارع بغداد متعب، وكانت من قبل ترافق أمها. أما الآن فإيصالها إلى المدرسة وإعادتها منها إزعاج لا طائل منه.

* * *

قالت المعلمة لأمجد بالفرنسية: لا أدري ماذا حدث لزين فجأة. كانت طفلة هادئة ومطيعة وصارت شرسة ومتعبة تهرب من المدرسة. وأرته أيضاً موضع الحبر الذي قذفت به إحدى رفيقاتها وآثاره على البلاط... وبدا له مثل بركة من الدموع السود الجافة.

لم يقل شيئاً... قرر تبديل المدرسة والرصيف الذي كانت أمها ترافقها عليه، فقد يساعدها ذلك على النسيان. ثم إنه أراد دائماً أن تدرس في مدرسة عربية خاصة كـ «دوحة الأدب» أو «معهد النجاح» أو «الكلية العلمية الوطنية» أو أية مدرسة رسمية جيدة للبنات كـ «مدرسة خديجة الكبرى» أو «مدرسة ميسون» أو «الفيحاء» في بوابة الصالحية، ولم يكن راغباً في «المدارس المتفرنسة» الخاصة بالأثرياء كـ «مدرسة الفرنسيسكان»... وخاف أن يفسدها جوهم ويشوّه لها حياتها ويزوّر لها عالمها الحقيقي المليء بالفقر والهموم، وخشي عليها من «عزلة روحية» مترفة شبيهة بعزلة بنات صديقة هند السيدة كوكب ومباهاة أمهن أمامه بذهابهن إلى السينما لمشاهدة فيلم أجنبي كل خميس بعد الظهر ثم لتناول «الشوكولا مو» و «الكريم كاراميل» عند «أرلكان» طريق الصالحية حيث يمر الشبان «الهاي لايف» للتعارف وربما الخطبة لأن ذلك على الموضة!

وفكّر بأن يعهد بها إلى عادلة الجزائري صديقة المرحومة أمها ومؤسسة مدرسة «دوحة الأدب» المشهود لها بالعلم والوطنية والأخلاق.. وقد يساعدها دفء حنو عادلة خانم على أن تتوازن من جديد.. ولكنه مشغول عنها بهمومه ومشاكله ومتاعب أسرته الكبيرة وبنجاحه (كما اعترف لنفسه)، وربما كان من الأفضل له أن يأخذ بنصيحة السيدة فريحة العظيمي ويسجل زين في مدرسة داخلية شهيرة للراهبات في بيروت ليتولين تعليمها وتأديبها.

* * *

اصطحب أمجد زين إلى بيت السيدة خيرية رضا، رفيقة أمها منذ طفولتهما في اللاذقية، لتلعب مع أولادها حزيمة ورشا وأميمة ومحمدوفيق، منتهزاً الفرصة لتقديم التعازي لها مجدداً بمناسبة أربعين زوجها الذي يحلّ بعد يومين.

حين علمت زين من صديقتها حزيمة أن والدها توفي وأن أختها أميمة تبكي بسبب ذلك، حاولت زين استجوابها هل والدها ما زال في البيت أم سافر إلى السماء. فقالت حزيمة التي تقارب زين سناً إنها واثقة من وجوده داخل غرفة مكتبه التي أقفلوها، واتفقت الطفلتان على أن ذلك مؤكد، وإلا فلماذا أقفلوا الغرفة؟ أما أميمة فقالت إنها شاهدتهم يُخرجونه في صندوق خشبي ولم تصدقاها.

أعارت حزيمة زين «طاقية»[1] من «شغل المحابيس»[2] أحضرتها أمها إلى البيت، فالأم تعمل في جمعية لمعونة المساجين تتولى بيعها لمساعدتهم. وحين نادت السيدة خيرية أولادها للسلام على عمو أمجد، وضعت زين القبعة على رأسها وتصادف ان أحداً لم يخاطبها كأنهم لا يرونها، فاقتنعت بأن تلك التي على رأسها هي «طاقية الإخفا»[3].

عاد الأولاد للعب في الحديقة، لكن زين قررت التسلل إلى غرفة عمو رضا ـ كما كانت تدعوه ـ المقفلة وذلك من النافذة المنخفضة للغرفة المشرفة على الفناء الخلفي للحديقة وقد وضعت على رأسها «طاقية الإخفا»، واقتنعت بأن القبعة مسحورة إذ لم يخاطب الأولاد زين حين عادوا للعب في الحديقة. حتى «الشوحة»[4] التي تخطف الأولاد من الأرجوحة وتغني عمتها ماوية لهاني مبدية حذرها منها: «لاحطك بالمرجوحة / وبخاف عليك من الشوحة». . حتى الشوحة لم ترها بسبب «طاقية الإخفا» على رأسها ولا «الستيتية» التي ظلت تنقر الحب من الحديقة ولم تطر أو تبالِ بها فهي بالتأكيد لم ترها.

دخلتْ من بين القضبان إلى تلك الرقعة المحرّمة منذ موت العم رضا، وكان دريد قد علّمها مرة في بلودان كيف تستطيع المرور عبر النوافذ: تمرر رأسها أولاً بين قضيبين وليس جسدها، وبعد ذلك ـ إذا مر رأسها ـ تلوي جسدها وتلحق برأسها بمواربة. . . القضية بسيطة، فأي قضيبين لا يمر رأسها بينهما، معنى ذلك أنها لن تستطيع عبور نافذتهما. . . .

وجدت نفسها في الداخل. صارت تفتش عن «عمو رضا» وقد غمرها شعور غامض بأنها إذا وجدتهُ وجدتْ أمها أيضاً أو حمّلته إليها رسالة شفهية على الأقل. . . كانت تريد أن تجد أمها أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. . تتخيل دائماً جداراً من الزجاج شفافاً تراها خلفه وعليها أن تمر عبره دون أن تكسره، مثل مرآة

(١) طاقية: قبعة.
(٢) حياكة المساجين وكانت شائعة ذلك الزمان.
(٣) «طاقية الإخفا»: قبعة الرجل اللامرئي الخفي.
(٤) الشوحة: طائر أسود لعله الغراب.

تخطو إلى داخلها شرط ألاّ تكسرها، وإلا لما تبقّت داخلها صور .

كان الصمت مخيماً في الغرفة والظلام النسبي سيداً. عبر النافذة يبدو لها المشهد الذي تراه وكأنه ينتمي إلى «نمط» آخر: حديقة مشمسة وحزيمة ورشا ومحمدوفيق يلعبون «زي عروستي»[1]. . . ويبدون في غاية البعد خارج المرآة. . وزين في الطرف الآخر داخل المرآة. . وها هي تركض بين الأثاث المغطى بالقماش الأبيض كالأكفان وتجذب الشراشف عن المقاعد ولا تجد «عمو رضا» ولا أمها. . ثم ترى خزانة تشبه خزانة والدها المقفلة دائماً، القسم الأعلى منها مليء بكتب خلف واجهة زجاجية. . تحاول فتحها. هذه أيضاً مقفلة. ترى طاولة. تشد أحد أدراجها إلى الخارج. إنه مغلق. تعالجه بمفتاح الجارور الثاني. لا يفتح. لعل أمها أخفت لها رسالة ما هنا أو رسماً، أو لعل عمو رضا ترك لها كلمة عن مكانه. لماذا لا تملك مفتاحاً تفتح به أبواب العالم كلها وخزائنه وجواريره لتستريح؟ تفتح الجارور الثاني. إنه مليء بالأوراق والرسائل. تفتح الثالث في الجانب الآخر للطاولة. ترى مجموعة من الساعات الكبيرة والصغيرة، تتحرك كلها وتسمع صوت تكاتها عالياً في أذنيها. . تحصيها كي لا تبكي ذعراً وهي مذهولة. . حين تصل إلى رقم ٢٩، يدخل الخادم السوداني وهو يضحك، وقد بانت أسنانه البيضاء اللطيفة ويقول: الست الكبيرة تملأها كل يوم. . هل أعجبتك ساعات المرحوم رضا بك؟ تتحسس زين «طاقية الإخفا» على رأسها وتتعجب كثيراً كيف استطاع الخادم أن يراها أم أن ذوي البشرة السوداء يرون الناس بالرغم من «طاقية الإخفا»؟

حين لاحظ «درج» الرسائل مفتوحاً حملها ضاحكاً قائلاً: منذ الآن تتلصصين على الرسائل؟ ماذا ستفعلين غداً برسائل زوجك؟

وضعها في الحديقة كي تذهب لتلعب مع حزيمة ورشا ومحمدوفيق «زي عروستي». . كانت تتحين الفرص لتعود إلى الرسائل والأوراق العتيقة وقد خيّل إليها أنها ستجد فيها سر رحيل أمها.

أدراج الموتى المغلقة وأوراقهم تثير في أعماقها شعوراً مستثاراً غامضاً بالدهشة. تبهرها الأشياء المراوغة المبسوطة أمام عينيها التي تراها وتفهمها ولا تفهمها. . كم تحب التجسس على الخزائن المغلقة للأموات والأحياء! . .

زجرها والدها بلطف حين عاد بها إلى البيت قائلاً إن «خالتو خيرية» كانت

---

(١) لعبة «حزورة» عن «عروس» مضمرة يقول كل طفل بعض أوصافها.

مسرورة كثيراً بها لو لم تتسلل إلى غرفة المرحوم لتعبث بأشيائه.

* * *

بالرغم من اعتراض عمها عبد الفتاح على تولي الراهبات تربية زين المسلمة وعدم حماس بوران لهن، إلا أن الخلاص من زين المزعجة كان كافياً لقبولهما بالقرار المفاجىء لأمجد الخيّال بإدخال زين في مدرسة داخلية للراهبات في بيروت.

كان يريد أن يمنحها كل ما لم يحصل عليه في صغره. وحين قالت له السيدة العظيمي إن هذه المدرسة الداخلية تربي البنات الصعبات بلطف وحزم كمدرسة «عينطورة» للصبيان ولطالما خرّجت أجيالاً من الناجحات السعيدات، وافق دونما تردد وقد خيّل إليه أن إبعاد زين لفترة عن المناخات كلها التي تذكّرها بأمها قد يكون مفيداً. كان قبلها حائراً في أمر زين لا يستقر على رأي ولا يدري أي المدارس أفضل لها. وافتقد هند كثيراً وحكمتها ومشورتها فيما يخص زين. كان يتلذذ وقتها بانتقاد قراراتها، وها هو اليوم يتخذ قرارات ليس واثقاً من صوابها ويعود أحياناً عنها.

خلال أسبوع واحد أنجزت الحاجة خياطة الشراشف والثياب المطلوبة من إدارة المدرسة الداخلية للبنات في بيروت حيث تمّ تسجيل زين ودفع والدها القسط الباهظ كاملاً بالرغم من انقضاء أكثر من نصف العام الدراسي.. ولم يبد على زين أنها تفهم بالضبط ما يدور لأنها كانت سعيدة جداً في السيارة كعادتها كلما انفردت بوالدها، تتأمل المرئيات بشراهة، وتطرح الأسئلة حول كل شيء.. وحين بلغا ميسلون أخبرها بحكاية يوسف العظمة الذي قُتل في هذا المكان حين خاض حرباً عرف سلفاً أنه سيخسرها، وأدهشه أنها فهمت ما يقول، وتحمّست وطرحت عشرات الأسئلة وقرأت الفاتحة على روحه وبدت له مهذبة ووديعة وقد غادرتها الروح الشريرة التي تلبستها منذ ماتت أمها (كما تدّعي بوران علناً وماوية وفلك صمتاً).. وسألها بعدما اجتازت بهما السيارة شتورة وتسلقت «ضهر البيدر»[1]، هل هي حزينة لأنه ذاهب بها إلى مدرسة داخلية في بيروت، فقالت إنها لا تعرف وستحزن فيما بعد. أما الآن فتريد أن ترى الطريق والثلج الجميل في «ضهر البيدر» وستبكي ليلاً بعد ذهابه!... سألها من جديد: ولكن هل أنت متضايقة؟ سألته بدورها: إذا بكيت هل ستعيدني معك؟ قال: لا. أجابت: حسناً. لن أبكي إذاً!...

وفي المدرسة، جاءت الراهبة لتذهب بها بعيداً عن والدها إلى غرفتها

(١) ضهر البيدر: ممر جبلي على طريق دمشق - بيروت.

الجديدة، فقلبت زين شفتها السفلى كعادتها استعداداً للبكاء ولكنها لم تبكِ. .

غادرها والدها دامع العينين منقبض الصدر، وحين وصلت به السيارة إلى ميسلون انفطر قلبه، فقفل راجعاً وأعادها معه!

* * *

ـ هذه البنت المفسودة بحاجة إلى «تكسير رأسها». كيف ستطيع زوجها حين تكبر وهي «مكبّرة رأسها» هكذا يا بوران؟

ـ إنه والدها الذي يدللها ويفسد تربيتها يا أم علي. تبدأ القصة بأريد ولا أريد أكل البامية وأكره الحليب والملوخية، وتنتهي بأريد هذا العريس ولا أريد ذاك العريس!

ـ يا لطيف على بنات هذه الأيام! يجب تزويجهن في الرابعة عشرة من عمرهن ليتروضن في بيت الزوج منذ صغرهن، وقبل أن يكبرن، يصرن أمهات ويروضهن أولادهن.

حين كانت زين تقرأ للمرة الثانية قصة «الملك لير» مبسّطة للأطفال، نادتها عمتها بوران كما نادت ابنتها رزان وأمية ابنة ماوية وبنات فلك كي يشاركن في أعمال المطبخ ويرين كيف يتم حشو أوراق العنب باللحمّ والرز مؤكدة أن «لف اليبرق» أهم من الكتب كلها.

ذهبت زين إلى المطبخ وهي تقرأ ورفضت أن تترك الكتاب من يدها وكادت تبكي بينما «الملك لير» يحمل ابنته بين ذراعيه بعدما ماتت ليسجيها على فراشها ولا يصدق أنها ماتت ويضع لها أمام أنفها ريشة طائر ليرى هل تتحرك أم لا وهل تتنفس أم لا. تصير زين بطلة القصة المسجاة الميتة. تدخل عمتها بوران وتراها «ميتة» وتندم لأنها ترغمها على شرب الحليب الذي تكرهه وتزجرها لكل شيء تفعله أو لا تفعله. ضوء الغرفة شاحب ووجه زين أزرق. تنتحب جدتها، وينتحب والدها مع الملك لير. وما تكاد تسمع بكاء والدها الذي يصير شبيهاً بالملك لير ويرتدي ملابسه كما في صورة الكتاب ـ ما تكاد تسمعه حتى تنهض من موتها وقد حزنت لحزنه وتضمه وتقول له إنها تريد أن تموت لتندم عمتها ولكنها ستعود حية حين يحضر ولا مبرر لقلقه. قالت بوران: لا تشدي ورقة «اليبرق» كثيراً على الحشوة لأن الرز يتضاعف حجمه في الطبخ و «تنفزر» اليبرقة. . يا للهول!

* * *

تحب زين مدرستها الجديدة الرسمية القريبة من البيت والمديرة التي حملتها بقامتها الفارعة وثوبها الأسود وقالت لها بحنان: إذا ضايقك شيء تعالي إلى غرفتي وقولي لي.

تحب زين دفاترها المدرسية الجديدة. لون غلافها الأول أخضر وعليه صورة العلم السوري كما حفظته بفخر: مستطيل أخضر في الأعلى، أبيض في الوسط، أسود في الأسفل وثلاث نجوم حمراء فوق بياضه[1]، وعبارة «كن مستعداً قوياً متحداً» على غلافه الثاني. تجلّد دفاترها بـ «طبق» التجليد الكحلي دون أن تهدر شيئاً من الورق الذي تحب رائحته. يخيّل إليها أنها رائحة اللون الكحلي. لكل لون عندها رائحة. لكل مزاج أيضاً رائحة. حين تغضب عمتها بوران تشم زين لغضبها رائحة الخروف الكئيب المطبوخ في «العزاء»، وحين يبتسم لها والدها تشم أريج الياسمين. تنجز التجليد بعد أن تتفنن في عدم إهدار سنتيمتر واحد. جدتها تحذرها من الهدر. حرام. ما من قطعة خبز ترمى في البيت. الخبز الزائد يجفف ويتم الاحتفاظ به ثم يتحول إلى «فتوش». الطعام الزائد يأكله جامع القمامة (الزبّال) حين يمرّ، وإذا شبع وزاد عنه فالجدة تنادي العجوز الذي يدور بين البيوت وهو يصيح «ثياب عتيقة للبيع» وتطعمه، أو تعطيه للمجلّخ أو لأي فقير يقرع الباب مستعطياً وزين تتأمل حذاءه المثقوب ولا تدري لماذا تشعر بالخجل.

تحب زين «ورق الكربون» الكحلي المسود الذي يوسِّخ اليدين. تضعه بين ورقتين فتكتب ـ ويا للدهشة ـ كل كلمة مرتين على ورقتين مستقلتين كالسحر!

تحب زين الكتب. تشعر عبرها بفرحة تشبه فرحتها حين تفتح النافذة في الشتاء فترى الشمس.

تحب قراءة كتب القصص لأنها حين تقرأ تجد نفسها في مكان آخر وقد هربت ونجت بجلدها من بوران ولؤي والجميع.. ومن بكاء المسكين هاني الذي يأتيها نواحه وهي تتابع تجليد كتبها.

* * *

منذ غادرت تلك الخطوط السوداء طلسميتها على الورق، وصارت تعني دنيا من الصور والرموز.. منذ تعلّمت زين القراءة وأتقنتها، وجدت ثقباً مضيئاً في الظلام تخرج منه إلى دنيا رحبة مثيرة متجددة لا تقمعها، وعوالم أخرى بوسعها أن

(١) حمراء فوق بياضه: العلم السوري يومذاك.

ترحل إليها مهما كانت مذعورة وضئيلة وخجولة، وتغادر بها جسدها الهش وطفولتها المكسورة لتعايش ولتتقمص شخصيات ومناخات متعددة العصور، ولتلتقي بأشخاص تفهمهم ويفهمونها أكثر من عمتها بوران، وتنصت إلى لغة الطير والريح والبحر والصدفة... فرحت الحاجة باستغراق زين في القراءة لأنها صارت «أقل شراسة» وخرجت منها بعض العفاريت خصوصاً بعدما صارت تحضر جلسات حفظ القرآن.

منذ طفولتها وزين تعشق نغمة الكلمات حتى قبل أن تفهمها جيداً، ويلذّ لها أن تردد في الظلام حين تخاف: ﴿قلْ أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شرّ الوسواس الخنّاس...﴾، وتنصت إلى صوتها وهو يهمس بحرف «السين» ويخيل إليها أنه يطرد الغول والجان وكل ما تخاف منه. ثم إنها تطرب له، وتخاف وتطمئن في آنٍ... ولكن الأشياء كلها تبدلت حين صار بوسعها أن تحدّق في عشرة سنتيمترات من الخطوط المتعرجة التي تدعوها المعلمة بالأبجدية لترى عبرها خمس قارات وعصوراً وأزمنة وبشراً. ولم يكن بوسعها ترك قصة قبل أن تنجز قراءتها مهما حدث.. وصارت تلتهم كل ما يحمله إليها والدها من كتب وقصص للأطفال بالفرنسية والعربية، وتضع تحت وسادتها الكتاب الذي تحبه لتحلم به وليحميها من الكوابيس. لم تكن عمتها بوران راضية عن جنونها الجديد بالقراءة لأنه يفسد جمال عينيها ولا جميل في وجهها غيرهما، ثم إن القراءة جعلتها نائية بعض الشيء وأكثر قوة وأقل خوفاً وهو ما يزيد تطويعها صعوبةً.

لم تبالِ زين وبدأت بقراءة سلسلة قصص كامل كيلاني للأطفال بالعربية بتشجيع من والدها بعدما كانت أمها تحمل لها القصص ذات الرسوم الملونة بالفرنسية.. توقفت طويلاً عند تلك القصص التي استوحاها كامل كيلاني من شكسبير. حزنت كثيراً لمصير الملك لير. أشفقت على ابنته الصغيرة لأنها كانت مثلها لا تعرف كيف تقول لوالدها كم تحبه وأحزنتها الويلات التي جرّها عجزها عن الكلام.. كانت مثلها لا تعرف كيف تقول.. تقول ماذا؟ مشاعرها وكوابيسها وأحلامها مثلاً.

وجدت عزاءً كبيراً بها وبغيرها من أبطال القصص الذين يشبهونها أكثر من شبهها بفضيلة ومطيعة وحميدة وأمية ورزان، ويزورونها ليلاً أحياناً وتتحدث معهم، فيزجرها عمها عبد الفتاح لأنها تتكلم في الظلام وحدها، وهو سلوك غير لائق. فكيف تشرح له أن بدر البدور التي تقول للقمر قمْ لأجلس مكانك وعقلة الإصبع

والسندباد وعلاء الدين يحيطون بفراشها أحياناً ويسامرونها كي تنام؟

* * *

في ١٧ نيسان، يوم الذكرى لعيد الجلاء، ارتدت زين زي فراشة واتخذت مكانها في السيارة التي غطتها الأزهار والرياحين حاملة اسم مدرستها... صحيح أنها تضايقت لأن «معلمة خانم» لم تضعها في جوقة «الأكورديون» لأنها فأرة صغيرة (كما قالت رفيقتها الكبيرة نائلة) ولا تستطيع حمل تلك الآلة الموسيقية الضخمة حتى لا يصدق فيها المثل القائل «فأرة تحمل جرذاً»، ولا حتى في جوقة «الصنج»، لكنها سعدت فيما بعد بدور الفراشة وصارت تطير عالياً فوق الناس المحتشدين في الطرقات وهم يغنون ويصفقون فرحاً.. لم ترَ في حياتها من قبل وجوهاً كثيرة تحدّق في وجهها وتبتسم بدلاً من البكاء إلا في هذا النهار الجميل.. اكتشفت كم تستطيع أن تكون سعيدة وتحلّق بعيداً وهي تشارك رفيقاتها الغناء:

يا فتاة الجيل يا زهو الحمى ... يا ضياء في حواشي الظلم
أنت إن ثرتِ على الظلم انمحى ... وأطل الفجر حلو المبسم
يا فتاة الجيل هبي واعلمي ... أن هذا الكون للمتقدم

وراحت ترش الأزهار والملبس على الناس وتمد وجهها لتقبيل كل من يقترب من السيارة التي تسير ببطء.. ثم تعود إلى التحليق فوق مبنى البرلمان ومنه إلى بوابة الصالحية فإلى الشيخ محي الدين فساحة المهاجرين فقاسيون حيث تتمشى أحياناً مع والدها.

مكهربة بالفرح عادت إلى بيتها وقبّلت عمّتيها بحرارة وعتبت على عمتها ماوية لأنها ليست سعيدة مثلها. وكان مطلقها قد زار الحاجة مهدّداً بأخذ ولديهما منها إذا تبرجت ماوية بعد اليوم، ونصحته الحاجة بأن «يترك للصلح مطرح» ويكفّ عن أسلوب: «سأقص سأقص» إشارة إلى حكاية شعبية عن جحا الذي يهدد بقص الحبل المربوط هو به داخل البئر، وإذا فعل سقط... وزجرت زين فهيمة، الخادمة الجديدة، لأن وجهها ليس بشوشاً واليوم عيد الجلاء. فسألتها فهيمة وهي تقف حافية في المطبخ وتحاول تنظيف طنجرة نحاسية كبيرة وعلى وجهها أمارات التعب: ماذا سيتبدل بالنسبة إليَّ؟

لم تدرِ زين بماذا تجيبها لكنها عرضت عليها مساعدتها في تنظيف المطبخ. حملتها فهيمة وقبّلتها ثم طردتها من عندها. وحين جلست قرب والدها سألها: ما

هو الانتداب؟ وما هو الاستقلال؟

قالت بمرح: الانتداب هو عمتي بوران. . . والاستقلال ذهابها إلى بلودان.

وضحكت الأسرة، وحتى بوران ضحكت وضمت إليها زين وهي تقبّلها بحرارة وتعصرها بين ذراعيها حتى أوجعتها، ثم قالت لها: يا حبيبتي، أخاف عليك ولا أريد أن أضايقك. تذكّري دائماً هذا القول: «اضحك لمن يبكيك ولا تضحك لمن يضحكك». لم تفهم زين شيئاً لكنها استطاعت التملّص من أسر عمتها وأعادت المطلع: الانتداب عمتي بوران. الاستقلال ذهابها إلى بلودان. وتابعت ارتجال قصيدة على هذا المنوال، وفَرِحَ أمجد لأنها كانت المرة الأولى (منذ وفاة هند) التي يرى فيها زين مرحة وقد عادت إلى تأليف الزجل وإلقائه أيضاً.

* * *

تعشق زين الرحلات المدرسية. «البوسطة» التي تركبها ورفيقاتها المصنوعة من السكاكر الملونة و «الجاتوه» ـ كما تبدو لها ـ والمعلمات اللواتي يتحوّلن إلى دمى من الشوكولاته ويبتسمن على غير عادتهن وشعرهن يصير من الخيوط الحريرية لحلوى «غزل البنات» وقد جئن بوجوه لا تراها وزميلاتها كثيراً. كم تحب زين شطائر «النخاعات المقمّعة»[١] التي تعدّها جدتها لها خصيصاً لهذه المناسبة، وشطائر البيض الملفوف باللحم (زنود البنات) وصرة الملح المخلوط بالفلفل.

قال أمجد ساخراً حين كانت بوران منهمكة بتحضير «سفرطاس»[٢] الرحلة لزين: لماذا عيب أمام الناس أن لا تكون الشطائر على مقام الأهل؟ أهي رحلة مدرسية أم منافسة طبخ بين العائلات؟ وأضاف أمجد ضاحكاً: حين يتعلّق الأمر بالمنافسة والتشاوف تتحسن حياة الأولاد ويأكلون بشكل أفضل في الرحلات المدرسية، وبعد دعوات الغداء حيث تتبقى أكوام من الطعام الشهي لهم بعد ذهاب الضيوف الذين لا بدّ من «إشباع» عينهم لأن «العين تأكل» أيضاً.

قالت بوران مزايدة عليه: بل لا بدّ من «قلع عينهم» بكرمنا!

سألت بوران زين: هل تحضر بقية البنات معهن قطعة بقلاوة وقطعة «عش البلبل»[٣] إلى الرحلة؟

---

(١) النخاعات المقمّعة: شطائر معدة من مخ الخروف.

(٢) سفرطاس: وعاء خاص من عدة طبقات لحمل الطعام.

(٣) «عش البلبل»: حلوى دمشقية.

ـ لا.

ـ إذاً سأضع لك في «سفرطاس» الرحلة قطعتين منهما.

في الرحلات المدرسية سمعت زين للمرة الأولى أغنية غير مهذبة تنشدها بعض رفيقاتها الأكبر سناً «عا الميجلك عا الميجلك. واحد دقنه طويلة يسأل عنّك. واحد ذقنه طويلة مو قصيرة. ذقنه تفرش حصيرة تحت منّك». كل ذلك الكلام المحرم «رجل يسأل عنك» يُقال هكذا على مسمع من المعلمات؟! شعرت زين بلذة خاصة وهي تسمع ما لا يُقال عادة علناً، وما ليس من المفترض قوله.. وانخرطت مع رفيقاتها في إنشاد أغنية صارت جديدة عليها بعدما حوّرتها البنات الأكبر سناً:

طالعة من بيت أبوها / فايته بيت الجيران / لابسة الأبيض عا الأحمر / والعيون تضرب سلام / تطلعت على يمينها / شافت الخوري جبران / قالت له دخلك يا خوري / أنا واقعة بهوى الشبان / قالها توبي آه يا بنتي توبي عن هوى الشبان / قالت له لكن يا خوري الشبان زي الغزلان / قال لها طيب حبِّيهن وحبِّيني أنا كمان / طالعة من بيت أبوها...

انتعشت زين للغة اللامألوفة والكلام الذي لا يُقال عادة إلا همساً وهو يتحول إلى أغنية، وذهلت وهي تسمع البنات ينشدن بحماس متمرد:

واجب علينا / واجب / نتف الحواجب / واجب...

تنهدت زين: ما أجمل الحياة حين تخرج عن سكتها الرمادية المعهودة! وما أعذب وجوه المعلمات حين تغادر أقنعتها المتجهمة الكاذبة! تجدها أكثر جمالاً وإشاعة للفرح في القلب حتى من تلك اللحظة التي أعطتها فيها المعلمة دفترها المدرسي وقالت لها مهنِّئةً إنها الأولى في المدرسة وستبحث مع والدها أمر «تنطيطها» صفاً إذا أحضر لها أستاذاً خاصة للحساب لتنجز برنامج عامين في عام.

* * *

استيقظت زين على الصوت الجميل لوالدها وهو يؤذّن أذان الصبح في بلودان، في البيت الذي استأجرته الأسرة خلال فصل الصيف واستضاف الجميع على صغره! عادت إلى النوم. أيقظها والدها من جديد وهو يسألها: هل تريدين أن تمشي معي؟... كان يشعر باختناق في صدره لم يسبق له أن عانى مثله. فهناك جولات الحرب في فلسطين[1]. ثم أخبار الهدنة بين الجيوش العربية والعصابات الصهيونية.

(١) صيف ١٩٤٨.

شيء ما في وجهه ذكّرها بنفسها وهي توقظه في الليل كي تروي له كوابيسها.. لم تكن تعرف عبارة «الوحشة» لكنها كانت تعرفها حين تراها في وجه والدها والوجوه الأخرى. رغم نعاسها نهضت لترافقه، وسمعت عمتها بوران تقول لجدتها: «كان يمشي هذا المشوار معها»..

فهمت أنها تعني أمها.

الكل يتحاشى ذكر اسمها أو الحديث عن أي شيء يخصّها.. سمعت مرة جدتها تقول إن ذلك أفضل للجميع.. لا تدري لماذا يظنّون أنها لا تسمع ولا تفهم شيئاً، وأنهم أذكياء لمجرد أن أجسامهم كبيرة. كما لا تدري لماذا يزجرونها باستمرار كما فعلوا يوم تسللت إلى غرفة زوجة عمها فلك لتتلصص عليها وهي تلد هزار ولترى لماذا تصرخ ولتراقب الملفوفة والطفل يغادرها ولتعرف من أين تأتي الملفوفة؟

فرحت زين لأن دريد لم يستيقظ ليرافقهما. تحب أن تنفرد بوالدها وتمتلىء غيرة لأن بوران أقنعت ابنها بأن خاله أمجد هو في مكان والده ومن يومها وهو يلتصق به في دمشق وفي «الصيفية».

غادرا «بيت الصنيف» في بلودان الكائن في درب ترابية متفرعة من طريق «أبو زاد» ومشياً في درب «قادومية» صوب بقّين في مسالك ترابية ضيقة تقطع الطرقات المعبّدة في خطوط مستقيمة أكثر انحداراً وقصراً.. حين وصلا أمام نبع بقّين كانت زين تلهث مثل كلب صغير...

جلسا على طرف الأرض الترابية المشرفة على الزبداني ليستريحا قليلاً.

ها هي تنفرد أخيراً بوالدها لتطرح عليه ما يحلو لها من أسئلة.

تسأله: من أين جاءت الدنيا؟

ـ الله خلقها...

ـ ومن أين جاء الله؟

ـ الله هو الذي يخلق الأماكن والمسافات وكل شيء.

لم تفهم زين كثيراً وعادت تسأل:

ـ ما شكل الله؟

ـ جاء في القرآن الكريم: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دريٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة

لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يُضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ نور على نور. . ﴾.

سكتت زين طويلاً بخشوع ثم عادت تسأل: قال مأمون إن جدتي مصابة بالضغط العالي وعمتي ماوية بالقرحة. ما معنى ذلك؟

قال باقتضاب: إنهما مرضان يصيبان الكبار.

ـ هل يصاب القط هارون بذلك؟

ارتبك أمجد وتشاغل عن السؤال الذي يجهل إجابته بقطف بعض «توت السياج»، وابتسم في سره لأنها لم تسأله: هل للقردة غشاء بكارة؟! وتوقع أن تطرح على جدتها أسئلة كهذه حين تكبر لكثرة فضولها.

سألته: لماذا تبكي عمتي ماوية حين تقشّر البصل؟

ـ لأنه يطلق غازاً يسيل الدموع.

ـ لماذا نصافح الناس بأيدينا؟ ما معنى ذلك؟

ـ معناه أننا نطمئنهم إلى أن يدنا لا تحمل خنجراً لطعنهم. إنها إشارة سلام.

ـ لماذا أسمع صوت البحر حين ألصق الصدفة بأذني؟

ـ الشكل الحلزوني للصدفة يسبب صدى تسمعينه.

ـ صدى ماذا؟

تشاغل عنها من جديد بقطف «توت السياج».

ـ لماذا تدق عمتي ماوية على الخشب كلما قالت إن أمية ابنتها تزداد سُمنةً وجمالاً؟

ـ لحمايتها من «العين الصايبة».

ـ ما هي «العين الصايبة»؟ وما علاقة الخشب بها؟

عاد أمجد يقطف «توت السياج».

سألته: لماذا تلوّن «ماما ديب» البيض في عيد الفصح وتوزّعه علينا؟

قال لها: لماذا لا تسألينها؟

شعر بأن زين تعطيه درساً في الفضول حين يحاول إعطاءها درساً في الحياة!

سألته: ما هي الروح؟ قالت عمتي بوران إن «بابا ديب» طلعت روحه.

ـ ومضة بأمر من عند الله تدب في قشرة هي الجسد.

لم تفهم زين إجابته فقرّرت سؤاله سؤالاً آخر: الخفاش، لماذا يتدلى برأسه

هكذا إلى الأسفل كما في صورة قاموس «اللاروس»؟

أجاب مقهقهاً: لأنه يمارس «اليوغا» كفقراء الهنود ورأسه إلى الأسفل.

ظنت زين أن فقراء الهنود يفعلون ذلك كي يشعروا بالجوع أقل. قرّرت أن تقف على رأسها في رمضان حين تصوم «درجات المئذنة»[١]، وتجوع كثيراً بين الغداء والإفطار.

عاودا السير والغبار يتطاير من تحت أقدامهما، لكن أسئلة زين لم تتوقف:

ـ ما هو أطول نهر في العالم؟

لم يجب. إنه لا يعرف. أهو النيل أم غيره؟

سألته بجدية مفرطة: هل هو بردى؟

ـ لا.. إنه ليس بردى.

ـ هل أعلى مبنى في العالم هو مبنى «كسموقباني»[٢] خلف البرلمان؟

ـ لا. ثمة ما هو أعلى منه بكثير..

صفّرت بشفتيها علامة على الدهشة إلى حد عدم التصديق. كيف يمكن لمبنى في الدنيا أن يعلو أكثر من عشرة طوابق؟!

سألته: هل ولدت جدتي عجوزاً هكذا؟

ـ لا. كانت طفلة مثلك.

لم تصدقه. ومضت تسأله: لماذا يرضع ثلاثة أطفال من ذئبة شاهدت صورتهم في «اللاروس»؟

أجاب: إنها أسطورة عن بناء روما سأرويها لك ذات يوم. خشي أن تصرّ إذ لم يعد يذكر الحكاية، فقرر الهرب من أسئلتها بأن يطرحها هو عليها.. سألها بدوره مداعباً: هل تؤلمك أجنحتك لكثرة المشي؟

ذهلت وتساءلت بجدية بالغة من أين يعرف أن لها أجنحة وهي التي كانت تظن أن ذلك هو سرها الخاص وأمها والبومة؟

صمت طويلاً وهما يتابعان السير. ثم عاد يسألها: هل تحبين سوريا؟

ـ كثيراً.

---

(١) صوم خاص بالأطفال لتعويدهم منذ حداثة سنهم على الصيام بحيث يمتنعون عن الطعام بين الوجبات!

(٢) كسم وقباني لكن أهل دمشق كانوا يلفظونها «كسموقباني».

ـ لماذا؟

ـ وأنت هل تحب أمك؟

ـ كثيراً.

ـ لماذا؟

قهقها معاً. توقف فجأة وسألها: هل ترين جيداً ما حولك من جمال؟ هل تقولين شكراً للأشجار الحلوة؟ للعصافير والبوم؟ هل تقولين شكراً للشمس كل صباح؟ أم أنك تتصرفين كالأولاد «المفسودين» المدللين؟

تأملت زين والدها وخيّل إليها وهو واقف أن ساقيه مغروستان في التراب تحته كأية شجرة جميلة أخرى. قال لها: تعلّمي دائماً أن تشكري كل ما يحيط بك من جمال، وتجرّعي كؤوس الضوء، فلك جسد آخر لا ترينه لكنه من أثير.

لم تفهم زين جيداً ما يقوله والدها لكنه أمتعها كأغنية جميلة بلغة تجهلها.

سألها إن كانت قد تعبت وتريد العودة إلى بلودان بالبوسطة؟ وسألته إن كان يستطيع هو العودة مشياً؟ فهزّ رأسه إيجاباً.. وفعلت مثله وقد غمغمت بكلمات غير مفهومة كالكبار، مضيفة: وأنا أيضاً. قفلا راجعين، ولم يسمح لها بشرب الماء فقد كانت الشمس قد سطعت والعرق يتصبب منها وأفهمها أن الماء البارد سيؤذي حنجرتها...

كانت العودة أكثر صعوبة، فقد تعبت وكذبت على والدها حين ادّعت أنها تستطيع العودة مشياً لإرضائه وخوفاً من خسارة حبه.. ولم تعد تتساءل عن الحياة السرية للأشجار، أو تتأمل خضرتها والألوان الزاهية للأشواك الملونة بعشرات الألوان الخضراء المختلفة الإيقاعات، والسياج المثقل بتوته البري، والجراد الذي يقفز وهو يفرد جناحيه الملونين من الداخل بألوان زاهية حمراء خلافاً للون جسده الصحراوي المتقشف، ولا يظهر جماله إلا في لحظة الطيران والحرية تلك.. بل إنها أرادت أن تقول لوالدها شيئاً عن ذلك.. عن جمال الجرادة حين تطير وكيف تشبه الصرصار البشع حين تقف.. ولكنها وجدت حنجرتها جافة، وثمة طنين خافت يطنّ في أذنيها والشمس تضربها على رأسها بالمسطرة كالمعلمة...

أيقظها صوت والدها: سنرتاح قليلاً عند هذا النبع. بدت لها المرئيات شاحبة قليلاً، والعرق يتصبب منها. ركضت صوب النبع لتشرب ومياهه تنزلق بين صخور ناصعة البياض لتتجمع في بركة، حصاها من الماس ـ كما بدا لزين ـ ثم تتابع

انحدارها. . . ولكن والدها منعها من الشرب. قال لها إن عليها أن تتعلّم ترويض رغباتها ولا تكون عبدة للماء. . وأكّد لها: «اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم». لم تفهم كثيراً ما يقوله ولكنها امتثلت لإرادته. تحاملت على نفسها. صممت على أن تستمر ماشية بقية الطريق ولا تتلاشى وتطلب من والدها أن يحملها كي يظل يرافقها ويغمرها بحضوره الحبيب. تعجبت حين وجدت أنها أقوى مما تشعر وتظن، وأن قوة جديدة كانت كامنة في داخلها قد استيقظت وجدّدت حيويتها المستنزفة. وهكذا اكتفت بـ «المضمضة» وبجرعة صغيرة من الماء ابتلعتها خلسة دون أن تقوى على مقاومتها. . وندمت بعدها لأنها غشّت والدها!

تابعا مسيرتهما، والدها يحدّثها عن الإرادة وخزانات الروح السرية ومدلول صوم رمضان حين يخرج الإنسان من تبلد الحواس ويدخل في متعة اكتشاف الكنوز التي أودعها الله فيه من صبر وقدرة على الاحتمال. وحدّثها عن فقراء الهنود الذين شاهدهم يمشون حفاة على الجمر بفعل الإرادة وهي تفهم قليلاً ولا تفهم، لكن كلماته ترن في أذنيها كالموسيقى التي يحفظها المرء دون أن يدري. . وأكّد لها أن عليها أن تتعامل مع الشرب والطعام في رمضان بعد الأذان ومع كل شيء تحبه في الحياة كما تعاملا مع النبع. . بإرادة ضد الشراهة موجهة لاكتشاف. . . اكتشاف ماذا؟. . لم تعد تفهم أو تسمع غير وقع خطواتها على التراب وهي تكاد تتلاشى، وصارت تضخ من بئر سرية في داخلها قوة خاصة لم تكن تعرف أنها موجودة. وصلا إلى جرف خيّل إلى زين أنه أكثر ارتفاعاً من كل ما سبق. تسلّقه والدها بسهولة والتفت إليها مترقباً، فمدت يدها إليه كي يساعدها ويحملها إلى أعلى، لكنه لم يفعل وقال لها: بوسعك الصعود وحيدة. اعتمدي على نفسك.

قالت: لا أستطيع.

ـ ولكنك صعدت ما هو أكثر ارتفاعاً منه.

ـ لقد تعبت ولم أعد أقدر.

قال لها والدها: قومي بتشغيل «المحرك الثاني» داخلك. كل إنسان عنده قوة داخلية يجهلها ولا يستعملها لأنه يجهل وجود «المحرك الثاني» داخله.

ـ لا أقدر.

ـ حاولي.

ـ يستحيل أن أقدر.

ـ جرّبي.

نظرت زين في عيني والدها وتحاملت على نفسها وفوجئت بأنها قادرة على الصعود وحدها وقد تفجّرت قوة داخلها كانت تجهلها.

حين وصلا إلى البيت، لم تصدق الأسرة أن هذه البنت «الفصعونة العصموصة»[1] ـ كما تدعوها عمتها بوران ـ رافقته طوال الطريق من بلودان إلى بقّين ذهاباً وإياباً ولم يحملها ولم يُغمَ عليها. التهمت زين بشهية طعاماً لثلاث بنات، وأمية تتأملها بدهشة، وشربت ثلاث زجاجات «سينالكو» وفضيلة تكاد لا تصدق أن ابنة عمها «السرنوة»[2] تقدر على ذلك. ونامت زين في السادسة مساءً دون أن تتشاجر مع أحد وعمتها بوران لا تصدق!

* * *

اصطحب عبد الفتاح الصبيين دريد ولؤي للسباحة، واصطحبها والدها معه بعدما رفضت اللعب مع بنات عمها وبنات عمّتيها مصرّة على مرافقته. وأمام بركة سباحة فندق بلودان الكبير جلس أمجد وعبد الفتاح يشربان القهوة، بينما كان لؤي يعلّم دريد السباحة وزين تراقبهما بغيرة تكاد تدفعها إلى البكاء.. ووالدها يدرك ما يجول في قلبها وهو يراقب شفتها السفلى التي ترتجف وقد قلبتها دون أن تبكي...

زجرها عمها عبد الفتاح لكثرة تمسحها بوالدها.. وسألها عمّا تريد منهما؟ ولماذا لا تدع الرجال وشأنهم وتبقى في البيت تلعب في حديقته مع حميدة وفضيلة ومطيعة وأمية وبقية البنات؟.. لم تجبه بل قالت مخاطبة والدها: «أريد أن أتعلّم السباحة مثل لؤي ودريد»، وصارت تكرّر هذه الجملة بلجاجة. فحملها عمها فجأة نصف غاضب نصف مداعب وقال لها: «ستتعلّمين السباحة كالجرو»، وتظاهر بأنه يريد أن يرمي بها في الماء عقاباً لها، ولكنها انزلقت من بين يديه وسقطت بغتة بثيابها في حوض السباحة! وكان «الميترناجور»[3] واقفاً قربهما، وكاد يقفز لإخراجها، لكن والدها استوقفه وهو يراها تكافح كي لا تغرق كأي جرو رموه في الماء.. وراح يشجعها. وحين سمعت صوته هدأ اضطرابها وأخذت تتحرك محاولة استبقاء رأسها فوق الماء...

جاءها صوت والدها: لا تخافي.. وظلت تصارع لتحافظ على رأسها فوق

الماء وهي تبتلع بعضه ويكاد يطيش صوابها، ثم تتذكر مشوار بقّين والنبع والإرادة والمحرك الثاني وتسمع كلمات والدها داخل رأسها فتسيطر على ذعرها وتتابع تحريك يديها ورجليها بصورة غريزية. . .

صار والدها يصفق لها، فتشجعت وقرّرت أن تظل تتحرك هكذا حتى تموت ولن تبكي. . وحين أخرجها مدرّب السباحة من الماء، شعر أمجد بالفخر حين قال له الرجل: إنها بنت شجاعة.

احتضنها والدها والماء يسيل منها على ثيابه دون أن يبالي، فأخفت وجهها في صدره خجلاً لكنها سمعته يسأل مدرّب السباحة: خلال كم يوم تستطيع تعليمها السباحة على أصولها؟

قال الشاب: خلال أيام قليلة. . .

قال أمجد: سأحضرها إليك كل يوم. أريد أن تعلّمها أنماط السباحة كلها على أصولها. . «كراول»[1] و «فراشة» وتحت الماء بعينين مفتوحتين وفوق الماء. .

قال الشاب: هذه بحاجة إلى أسبوعين.

ـ فليكن.

أنّبه عبد الفتاح: ستندم ذات يوم على ذلك يا أخي. . . دعه يُعلم دريد ولؤي بدلاً منها.

ـ سيعلّمهم ثلاثتهم معاً. . .

* * *

إنه الفجر. . يوقظها والدها. . الوضوء. وقع الماء البارد على قدميها النحيلتين. . الصلاة. . تلصق جبينها بصورة الجامع على سجادة الصلاة الملونة وصوت والدها الجميل يصدح مسبّحاً إله هذا الكون. فرحاً رأته ذلك الكون وهي تهرول فجراً خلف والدها في نزهتهما شبه اليومية منذ أسابيع على الدرب الترابية الضيقة التي تنحدر حتى قاع الوادي في الزبداني مروراً ببقّين. كانت زين حائرة: هل تعشق دروس السباحة بعد الظهر أكثر أم هذه المسيرة التي تنفرد فيها أخيراً بوالدها وتستمتع بسماع حديثه الذي لا تفهمه كله لكنه يدهشها؟

تأملت زين ريشة الشمس وهي تلوّن بالذهب أطراف أشجار اللوز والتين والجوز ويظل ما تبقى من جسدها داكن الخضرة. . . هل للأشجار قلب ينبض؟ هل

---

(١) كراول: سباحة سريعة يكون فيها الرأس تحت الماء.

الريح وحدها تحرك الشجر أم أنه يتحرك من تلقاء نفسه؟ هل يمشي الشجر وهي نائمة؟

قال أمجد لابنته: اغمضي عينيك وتنفسي جيداً.. دعي الهواء النقي يدخل عبر مساماتك حتى روحك.. تنفسي سورية.. تنفسي رائحة بلدك.. تذكرت أنها طالما تأملت صور الشُعَبْ التنفسية المنتشرة في الرئتين في الكتاب المصور وأدهشها ذلك الشبه بينها وبين جذور الأشجار في التراب.. «هل التراب رئة الأشجار؟» هكذا سألت والدها.. انفجر ضاحكاً وهو يقطف لها بعض حبات «توت السياج» عن السور الشوكي لأحد البساتين والتهمتها عن يده مثل عصفور أسود غريب الأطوار.. حين وصلا إلى بقّين سألها: هل تستطيعين المتابعة إلى الزبداني؟ صرخت بحماس: أستطيع.. قال: تذكّري درب العودة.. تذكّري أنها ستكون صعوداً.. تذكّري دائماً معرفة قوتك لا استعراضها. قالت متراجعة: حسناً. لا أستطيع. وأضافت ضاحكة: لكنني سأكون طوال طريق العودة السلحفاة التي تقفز كالأرنب.. هاجمتها صورة السلحفاة في بيت غازي قوتلي قرب مزار الشيخ محي الدين.. لم ترَ قبل ذلك سلحفاة وأدهشها أن بيتها جسدها، تختبىء داخله، وحين يختفي وجهها تصير علبة عتيقة.. تخيّلت السلحفاة تمشي معها ووالدها وقد خلعت صدفتها ولم تعد خائفة من شيء مثلها.. سلحفاة ترقص «الباليه» كما في صور الكتب وهي تقفز على التلال بين بلودان وبقّين والزبداني.. لوّنتها قليلاً بالقلم البنفسجي.. تحب أن تلوّن الأشياء كلها.. صارت تلوّن البيوت القرميدية البعيدة بالأخضر.. والأشجار بالبرتقالي.. والسماء بالأصفر.. والشمس بالأزرق.. أحبت الدنيا كثيراً بعدما لوّنتها، ثم التفتت إلى والدها لتلوّنه، فوجدته جميلاً كما هو.. وتركته على حاله.

في مدخل بقّين ناداهما شيخ جليل من شرفته وحيّاهما.. فمضيا صوبه.. وضمّها الشيخ إليه وهو يحملها بقامته الفارعة وتخضبت عيناه بالدموع، وانقبض صدرها لأنها لم تعد تريد أن يبكي أحد حين يراها.. ولكنها فرحت في الوقت ذاته لأنها حدست أنه سيقول شيئاً عن أمها.. من زمان لم يذكرها أحد بكلمة.. أضحى اسمها محرّماً في البيت وخارج البيت أيضاً لأن والدها غمز للشيخ بعينه وطلب منها أن تلعب في الخارج. وحاولت عبثاً أن تسترق السمع إلى حوارهما وحين فشلت صارت تعبث بأوراق الشيخ على الطاولة وتفتح «جوارير» مكتبه وأدراجه..

حين غادرا «الڤيلا» قال لها والدها: هذا صاحب «مدرسة المناهل الوطنية».. وسألته دون أن تنظر إلى وجهه: هل هي إحدى المدارس التي كانت تعمل فيها أمي

«معلمة خانم»؟ لم تدرِ وهي تسمع صوتها كيف عرفت هذه الحقيقة إذ لم يحدّثها أحد عنها. ولم يجبها، ودهش، تُرى من أين سمعت بذلك؟

راحت زين تضرب الحصى بقدميها وهي تمشي وأدرك أنها حزينة.. إنها تنسحب إلى صدفتها حين تحزن وتصير مشاكسة. وبدأ يغني ليروّح عن نفسه وعنها أول أغنية خطرت بباله من أغاني أمه الحاجة عن ابنة التاجر المخطوفة في الحكاية:

جمّال أبي جمّال أبي / ودي الخبر لأمي وأبي / وبديعة كانت غالية / وبديعة صارت راعية / ترعى الغنم ترعى البقر / وتدير الساقية.

لاحظ أنه زادها غماً فبدّل إيقاع الأغنية منشداً: «موطني.. موطني»، وشاركته الغناء بحماس وصوتها يعلو شيئاً فشيئاً وهي تردد المقطع: ولن نكون للعدا[1] كالعبيد كالعبيد.. لا نريد.. لا نريد..

ثم تعب وصار صوته يخفت واستمرت هي تغني وصوتها يعلو أكثر فأكثر. همس لنفسه: إنها تزدهر وتنمو وأنا أذبل. إنها تتعلم كيف تعيش وأنا أتعلم كيف أموت.. قال لها: تنفسي سورية.. تعلّمي متعة التنفس. كانت تطيعه طاعة عمياء لحبها له، وتنفست بكل طاقاتها الطفولية حتى كادت تصير أثيراً...

النبع من جديد.. النبع إياه. الإغراء اللامتناهي المطلق المحرّم. الحر اللاهب. الإرهاق. الشفاه الجافة. الماء الفضي بحصاه المسحورة ماساً، يراودها عن نفسها.. تريد أن تلقي بنفسها في الماء وتشرب.. تشرب حتى تذوب فيه كقطعة ملح.. تنطلق من أعماقها أصوات والدها حاملة نبرتها الخاصة حتى لكأنها صوتها هي.. تحدّق في الماء دون أن تمسّه، ووالدها يدعوها إلى شرب القليل و «المضمضة». تتأمل الماء، وللمرة الأولى تغمرها مشاعر متناقضة تنوء تحتها: تريد الماء، ولا تريده.. تشتهي وترفض داخل لحظة واحدة.. وخيّل إليها أنها ترى صورتها معكوسة داخل مياه النبع.. ولم يتسع لها الوقت للإعجاب بها أو تأملها، فقد كان النبع حيّاً متحركاً وصورتها كذلك في تدفق مستمر وتكسّر مستمر وسط الماء.. وقطف لها والدها زهرة نرجس وقدّمها إليها.. فأمسكت بها كما لو كانت قلم تلوين، وصارت تلوّن له وجهه بها. والتلال.. والحقول.. ثم لوّنت الماء عرقسوساً وتجرّعت قطرات منه وغشت قليلاً وهي تشرب.. قليلاً جداً.. واختفت صورتها من الماء حين لامسته بشفتيها.

---

(١) العدا: الاعداء.

عادا إلى البيت منهكين. التهما فطوراً متأخراً يكفي جملاً برأي الحاجة وهي تنهرهما: ستضيعان غداءكما.

لم تفهم زين ما الفرق بين الفطور والغداء.. المهم أن تأكل حين تكون جائعة وتنام حين يحلو لها!

* * *

سألت الحاجة الصبيان: من سيذهب إلى السوق لإحضار رطل من البندورة و «كيلو لحمة كبة» من دكان أبو جريس...

صرخت زين: أنا.. أنا..

قالت بوران وهي تدلل هزار وتهزها في حضنها لتنام: هذه العفريتة نحيلة مثل العودة ولكنها لا تتعب.. فرح أمجد لأن بنية زين بدأت تنضح عافية. لا يريدها هشّة كأمها...

غادرت زين البيت ولكنها لم تنحدر عبر الدرج العتيق العريض عرض الزقاق، بل قررت اكتشاف طريق «مقاطعة» مسترشدة بخارطة ذهنية كما علّمها والدها.. ودخلت في حقل اللوز وقررت أن السوق يجب أن تكون في قاعه، لكنها فوجئت ببيوت لم تحسب حسابها، تنتصب في وجهها. بيوت حجرية قروية منخفضة متلاصقة. فتسلّقت طرفها المنخفض ووجدت نفسها على مصطبة تفصلها درجات عن السطح. صعدت إلى السطح وأدهشها أن السطوح كلها متصلة تقريباً، وراحت تقفز من سطح إلى آخر كما في أحلامها. وشاهدتها قروية. نهرتها وسألتها عمن تكون. أخبرتها أنها ابنة مستأجر بيت «أبو جريس» بعلامة أن بناته هن سارة ووداد وهاجر. فلانت المرأة وأرشدتها إلى السطح الأقرب للطريق، وصار قلبها يضرب بشدة وشعرت بلذة خارقة حين نجحت في الوصول إلى السوق.. لذة تشبه نشوتها حين قطعت حوض السباحة «الشاسع» سبع مرات جيئة وذهاباً دون أن تتعب كثيراً...

* * *

طلبت الحاجة من دريد ولؤي أن يذهبا بـ «عصابة» الأولاد بعيداً للعب في الحقل ليرتاح الكبار قليلاً.. ومشى الموكب: دريد ولؤي وأمية ورزان وفضيلة وحميدة.

تنهّدت الحاجة وهي تراقب الموكب يتجه صوب حقل اللوز والتين والجوز على المنحدر لصق حديقة البيت وهي تحمل هزار وتهزّها لتنام. قالت بحسرة: أسرتنا كلها بنات. . .

فقالت كنتها فلك بحسرة أكبر خوفاً من حمل جديد رغم سهولة ولادتها: الله ينجينا من شيء أعظم! وفكّرت بذعر: ماذا لو حملت بتوأم بنات في المرة القادمة؟ تذكرت توأم الصبيان اللذين أنجبتهما هند وماتا، وردّدت بصوت مسموع: «الله يطعم الحلاوة للذي بلا أسنان»، ولم يفهم أحد ما المناسبة!

كانت زين قد أتقنت تسلق شجرة اللوز وحفرت عليها الحرف الأول من اسمها في موضعين، وأحبت أن تستعرض أمام البنات مهارتها، فخلعت صندلها وباشرت في تسلقها، بينما انعزل لؤي ودريد عن البنات في مطاردة لقنفذ بالعصي داخل دهاليز ترابية. . بدأت زين بتسلق الشجرة بسرعة ونظرت إليها رزان باشمئزاز، فهي البنت المثالية كما تكرّر أمها بوران للجميع وليست كزين. قالت لها رزان: سيمسخك الله قرداً. . ردّت زين: لن يمسخني الله قرداً لأنني أتسلق شجرة. . أبي يُحَفِّظُني القرآن، وليس فيه شيء كهذا. . لقد حفظت «جزو عمّ» بأكمله و «جزو تبارك». . فقاطعتها رزان: أمي قالت ذلك. . قالت إن الله سيمسخك قرداً أو بومة. ولم تجبها زين، فقد انشغلت بتسلق غصن عالٍ كثيراً وصارت حذرة تتحاشى الانزلاق. . وحين بلغت أقصى غصن وصلته من قبل وشاهدت زرقة السماء عبر ذلك الغصن استخفّ بها الطرب وطفقت تغني وهي تهزّ الغصن تحتها: أتسلق شجرة ولست قرداً. . أزقزق ولست عصفوراً. . أطير ولست فراشة ولا بومة. . . أطير. . أطير! . . .

قالت حميدة بغيرة: وأنا أيضاً سأتسلّق الشجرة. . .

فقالت زين: حاولي وإذا لم تقدري عدتُ لمساعدتك. . .

تعاونت فضيلة وحميدة على تسلق الشجرة وزجرهما لؤي، وحين تجاهلته البنات ذهب ليشكوهن إلى جدته. . وركضت أمهن فلك غاضبة من زين التي تفسد البنات حتى صرن يطلبن تعلّم السباحة وقالت لها: انزلي يا قردة. . لا توجد أم تترك بناتها معك يا «مفعوصة»[1]. إنك تفسدين أخلاقهن. .

واصطحبت الأولاد كلهم معها علامة على الغضب.

---

(١) مفعوصة: صغيرة غير مطيعة.

بقيت زين وحيدة على رأس الشجرة، وفوجئت بسعادتها لذلك وصارت تكلّم الحرذون الجميل على الغصن المجاور كي لا تشعر بالوحشة. وفرحت حين شاهدت بومة تفتح عينيها قليلاً جداً ثم تعود لإغماضهما وقالت لها: «كم أنت جميلة يا سيدتي البومة».. لم تكن بومة بل طائراً ما، لكن حب زين للبوم يجعلها ترى ما تريد.

* * *

استيقظت زين مذعورة على صوت العويل. لا تدري لماذا تذكّرت أمها. غطت وجهها باللحاف وحاولت أن تعود إلى النوم. وجدت نفسها مستيقظة على شاطىء «الطابيات» تلحق بأمها على الرمل، وتريد أن تقول لها إنها تعلّمت السباحة.. الأم تريد أيضاً أن تقول لها شيئاً.. تفتح فمها ولكن خيطاً نحيلاً من الدم يسيل، وتحرّك شفتيها إنما لا تصدران كلاماً مفهوماً بل صوتاً يشبه صوت الصدفة.. تحاول أن تفهم لكن موجة عالية تجرفها. تحاول أن تسبح مثل السندباد البحري ولا تستطيع لأنها تختنق. كذلك لا تمر بها سلحفاة كبيرة لتتسلق ظهرها وتنام، حتى لو غطست السلحفاة بعد ذلك في الماء وتركتها لرحمة الأمواج. تختنق وتشهق ويصير البحر نفقاً من السواد وتتلاشى أمها...

صوت العويل... نهضت زين راكضة.. كانت فلك تلطم وجهها وتعول: راح همام.. وصرت يا وضّاح يتيماً.. وأمر أمجد الأولاد أن يرتدوا ثيابهم بسرعة ويذهبوا للعب في الحقل. وسألته زين: ماذا حدث؟.. فأجابها كعادته كمن يكلم شخصاً ناضجاً: قتل همام زوج ابنة عمك خزامى في الحرب في فلسطين.. كان مفقوداً، كان في سجونهم وقتلوه.

حملت وضاح وأعجبتها لعبة الأم.. فكّرت بأن تخوّفه أو تقص له رواندة، لكن حناناً جارفاً انبثق من داخلها حين استرجعت عبارة جدته فلك: صرت يا وضاح يتيماً. إذن هو مثلها.. «يتيم». ووضاح يبتسم لها بعينيه اللتين تشبهان عيون القطط ويتمسّح بها. إنه الدمية اللطيفة التي يسعدها أن تدللها لأنها تشبهها حقاً، لا مثل دماها، تلك المسوخ الجميلة الشمعية. لؤي يساعدها على إنزاله عبر فجوة السياج مسروراً لأن زين اختارت هذه الطريق بدلاً من الهبوط ببساطة على الدرجات الثلاث للدرج!!.. قالت لدريد وللؤي: أنا روبنسن كروزو وأنتما جمعة وسبت.. وحاولت فضيلة وحميدة ورزان وأمية الاحتجاج ثم صمتن إذ ازداد صوت العويل ارتفاعاً...

كلهم فهم. لكن زين لا تفهم لماذا يختفي الناس باستمرار هكذا؟ وإذا كان اختفاؤهم أمراً عادياً فلماذا يبكي الناس هكذا؟.. لماذا لا يجدون دواء ضد السفر إلى السماء الذي يلقبونه بالموت أو يألفونه؟.. تذكّرت النبع حين كانت تريد ولا تريد داخل لحظة واحدة.. فهل تحدث الأمور هكذا للجميع، يريدون تقبّل الموت ولا يستطيعون؟

شعرت فجأة أن الأشياء معقّدة كثيراً.. وأنها تريد أن تلعب بالأرجوحة ثم نسيت. أخرجت من جيبها موسى صغيرة اشتراها والدها لها لتقشير التفاح وقطع الشوك، ونوت أن تحفر على الشجرة اسمها واسم وضّاح. وحين سلّط عليها دريد نظرة متسائلة قالت: إني أحفر أسماءنا كي تتذكرنا الشجرة إذا متنا. ثم ضجرت بعدما حفرت حرفاً فصارت تأخذ الصمغ عن شجرة اللوز وتغزله على إصبع، وتجف خيوط الصمغ كالحرير فتبدو كخيوط الشرنقة. كم تحب زين شرانق دود القز وتراقب اللحظة التي تثقب فيها الشرنقة وتغادرها وتطير، وتحب تربيتها رغم أن الحاجة تشمئز من رائحتها وفضلاتها بعد أكلها لأوراق التوت.

صرخت فلك بزين طالبةً منها أن تعيد الطفل وضّاح خوفاً عليه، وأطاعتها بسرعة إذ ضجرت أيضاً من لعبة الأم.

حين عاد الأولاد إلى البيت كان الجميع يعول وينوح: لقد قتل اليهود زوج خزامى في فلسطين. تعجّبت زين لأن أحداً لم يتهم البومة كعادتهم كلما مات شخص ما، وغمرها حسّ غامض بالهول.. الموت دائماً الموت. قررت أن تستجوب والدها ليلاً عن ذلك، وقضت بعد الظهر وهي تقرأ في كتاب التاريخ الذي يخصّ دريد عن الفراعنة وطقوس الأبدية، وبهرتها حكاية المراكب التي تبحر في نهر الموت. ترى هل يعود المركب بأمها ذات يوم؟ ولماذا لم يحنّطوها قبل وضعها في القبر مع أنكر ونكير؟ أم تراهم فعلوا؟

كانت الحاجة تتوسط حلقة تنوح فيها خزامى وبوران وفلك وماوية وفيحاء والبنات. وتتعالى الأصوات كلما صرخت خزامى مولولة والحاجة وحدها صامتة وهادئة. سألتها زين: هل حنّطوا أمي؟ زجرتها النسوة وطردنها. لم تبالِ. لحقت بها فيحاء وحملتها وأخذت تدللها بحب بالغ حتى كادت زين تبكي لسبب مجهول. وسألتها: هل تستطيع أن تنام إلى جانبها ليلاً؟ قالت فيحاء: آسفة يا حبيبتي. بعد قليل أركب البوسطة وأعود إلى «الشام».

ـ لماذا؟

ـ لأنني أعمل معلّمة في مدرسة نسائية لمحو الأمية. هزّت زين رأسها كالكبار لكنها لم تفهم ما هي هذه المدرسة. اكتفت بالهرب من فيحاء خائبة. تسلقت شجرة اللوز من جديد ولم تخف من الأفعى، فالأفاعي تقطن أشجار التفاح مع آدم وحواء كما قرأت في الكتاب. كانت شجرة اللوز هذه عسيرة على التسلّق وجرحت زين أصابعها وسقطت عنها في المرحلة الأخيرة من الهبوط على مؤخرتها وتوجعت، ولكنها قطفت حبات اللوز ولم تذق ـ بعدما قاسته ـ ما هو أشهى منها!

* * *

استعدت زين بكثير من السعادة لمرافقة عمّتها بهيجة وبقية الأولاد للذهاب إلى أراجيح العيد يوم «جحش العيد»[1] في شارع بغداد بعد زيارة إلى بيت الجيران لاصطحاب مبجل معهم. كانت زين تحب البنتين مبجل وأختها الكبيرة معزز بالرغم من سخرية الأولاد من والدهما أبو علي الذي صاروا يلقبونه بـ «أبو بريص»[2] منذ قراره الفاشل بـ «تودير» القط عنتر. كما تتندر نسوة زقاق الياسمين بحكاية زوجته التي أجابته حين طلب منها الاختيار بينه وبين القط عنتر فقالت: «عنتر»! كما يُروى أن أم علي دعت عليه بأن «يكسر الله رجله» عقاباً له على رغبته في التخلص من القط وغيرته منه، والغريب أن أبو علي سقط بعدها بأيام على درج الجامع وكُسرت قدمه!

وكانت بهيجة قد جاءت من حمص في آب اللهاب حاملة هداياها من السمن الحديدي الحموي، والبطيخ «الرستني»[3] العملاق وكل بطيخة يزيد وزنها عن أربعة كيلوغرامات، والباذنجان الحمصي الصغير الخاص بالحلويات، وغيرها من الأطايب المحلّية. جاءت لقضاء العيد مع الأسرة وللتعزية بالشهيد همام (زوج ابنة أخيها) في أربعينه، بعدما تعذّر عليها الحضور قبل ذلك لأن زوجها كان محموماً ربما بضربة شمس، حين تعطلت شاحنته وسط الصحراء في الطريق بين حمص وبغداد وأحرقته الشمس فصار يهذي بالأفاعي التي قام بشوائها فوق حديد السيارة الأمامي والتهمها! ولم يكن بوسع بهيجة أن تتركه مريضاً على هذه الحال، فالأولوية دوماً للزوج كما أوصتها أمها. وبعد شفائه ارتدت الثوب الرمادي علامة على الحداد لأن أمها أفهمتها أيضاً منذ صغرها أن المرأة لا ترتدي السواد إلا حداداً على زوجها، أو على أبيها وأخيها شرط أن تكون عزباء، ووجود الزوج في حياتها كشامية له الأولوية على كل اعتبار.

---

(١) اليوم الأول بعد انقضاء العيد كما يدعونه في دمشق.

(٢) «أبو بريص»: سحلية صغيرة بيضاء اللون.

(٣) الرستني: من الرستن قرب حمص

كان أفراد الأسرة قد غادروا بلودان إلى دمشق ـ بالرغم من تصادف رمضان في تموز الحار ـ وذلك لتقبّل التعازي بالصهر الشهيد همام، ولم يعودوا إليها فقد أثقلهم الحزن ووصول أم عامر وزوجها من فلسطين مع ولديهما عامر ورويدة بعد ذلك لاجئين من عكا، يروون حكايا الأهوال التي تعرّضوا لها خلال انتقالهم بالمركب إلى بيروت. وهكذا لم يعد أحد إلى «بيت الصيفية» في بلودان بالرغم من أنهم كانوا دفعوا إيجاره مقدماً لأشهر الصيف الثلاثة.

تصادف أربعين همام في الأيام العشرة الأخيرة من رمضان. تصدر مجلس العزاء منذ البداية أبو عامر، وفي الأيام التالية للأربعين جاءت وفود من حماة للتعزية ترافق عادل (أبو همام) وعلى رأسها هشام ابن عم الشهيد وبقية شباب حي «بين الحيرين»[1]، ومعظمهم يرتدي الكوفية والعقال فوق بزته الرسمية وقد حضروا رداً على مجيء وفد آل الخيّال إلى حماة في الأيام الأولى للتعزية. وتحول «الديار» إلى منتدى سياسي لتقبّل التعازي يومياً بفلسطين التي لم تستطع سبعة جيوش عربية تخليصها من يد «اليهود». واتفق الجميع على رفض فكرة «إسرائيل المزعومة»[2]، وقاموا بنبش الغبار عن فضائح «الكبار»، من سياسيين سوريين وعرب، وألاعيب «الميرة»[3] وتزوير الانتخابات وتعطيل صحف المعارضة وانشغال الحكام بملء جيوبهم بالرشاوى والصفقات وإعطاء رخص الاستيراد والتصدير لأزلامهم، وغيرها من الأحاديث التي كانت تضجر زين كلما جاءت مصطحبة هاني لتجلس في حضن والدها بين الرجال وتسمع أحاديثهم.. وتفهم ولا تفهم.

إلى جانب أبو عامر جلس الملازم الثاني معين زوج قمر الذي ما زال «يعرج» بسبب جرحه نصف الملتئم في الحرب وربطة عنقه السوداء إيذاناً بحداد بلا نهاية على شقيقه الملازم الأول ناجي، الذي لم ينجُ من الحرب وقُتل حين انفجر مدفع بين يديه لأن القذيفة كانت فاسدة.

انشغل الرجال بهمومهم وبفلسطين عن الاهتمام بالشيخ طه الذي ألف أن يكون قبلة المجلس وضايقه كثيراً إعراضهم عنه، وهاني الذي لاطفه فجذب له

---

(١) حي بين الحيرين: حي في حماة قرب النواعير.

(٢) «إسرائيل المزعومة»: هكذا كانت تدعى إسرائيل في ذلك الزمان. وكانت تسمية إسرائيل بدون «المزعومة» تُعتبر شبه خيانة كتسمية الشهيد بالقتيل.

(٣) الميرة: مؤسسة يعين فيها الموظف المحظوظ لأن الرواتب فيها عالية كما إمكانيات اختلاس المؤن إلى جانب الرشاوى.

الطفل لحيته وأوجعه، فقرر طرح موضوع مهم من وجهة نظره يعجز الملازم معين والمجاهد عادل عن الخوض فيه، فسأل بصوت مرتفع منتهزاً لحظة صمت نسبي: هل لأهل الجنة لحية؟

نظر إليه أمجد شذراً. ها هي فلسطين قد ضاعت والناس تشرّدوا والشيخ طه مشغول بلحى أهل الجنة! لم يلتفت أحد إليه وتابع الرجال استعراض حكايا السلاح الفاسد ورصد أسباب الهزيمة، ولذا لم يبالِ أحد حين أضاف الشيخ: أجل، أيكون لأهل الجنة لحية أم يكونون مرداناً؟

حين لم يجبه أحد، قال للدكتور مأمون: أنت شاب متعلّم، فهل قرأت كتاب العالم الدمشقي ابراهيم بن محمد الناجي الذي انتقل إلى رحمته تعالى عام ٩٠٠ هجرية؟

أجاب الدكتور مأمون باقتضاب ممتعضاً: لا يا شيخنا. قال الشيخ: لا يعقل ذلك. سأذكّرك به واسمه «حصول البغية للسائل هل لأحد من أهل الجنة لحية». هنالك أيضاً كتاب آخر في هذا الموضوع ألّفه العالم الدمشقي مثلك ابن طولون الصالحي المتوفى سنة ٩٥٣ هجرية واسمه «الدرر الفاخرة في ذكر من له لحية في الآخرة»..

نظر الدكتور مأمون إلى عمه أمجد مستنجداً، فقاطع أمجد الشيخ طه قائلاً وهو يوجّه كلامه للحضور: هل سمعتم بحكاية الشيخ محمد عبده مع تلميذه الذي جاءه يوم تحليق أول رجل عن كوكبنا في طائرة، ليست للأسف عربية الصنع ولا عربية القائد؟ لقد سأل التلميذ يومها معلمه الشيخ: إبريق المرحاض أيوضع إلى يمين المتوضىء أم إلى يساره؟

فأجابه الشيخ: يا ابن (الكذا...) أقول لك طاروا وأنت تسألني عن إبريق المرحاض!!

***

ظلت زين تتسلل إلى «الديار» بين آنٍ وآخر ليدللها والدها، منتزعة منه وعداً بالعودة إلى بلودان لتتدرب على السباحة حتى وصفتها عمتها بوران بـ«الزقة بزر كتان» على خاصرة والدها، لكنها فرحت بالخروج مع بهيجة لشوقها إلى مبجل والأراجيح. صحيح أنه آب اللهاب لكنه العيد.

قالت الحاجة لابنتها بهيجة كمن يؤدي واجباً ليس مقتنعاً به: عيب أن تذهبي

بالأولاد للاحتفال بالعيد ونحن في حداد.

أجابتها: ما ذنب الأولاد يا «ميمتي»[1]؟ حرام.. «سيطق» قلبهم من الحزن والحر والسجن في البيت و «الولاويل».

ركب الجميع في «عَرَبايَهْ» يجرها حصان متعب، وصمّم دريد ولؤي على التعلّق بالعربة من الخلف جالسين على القضيب العرضاني الذي يحمي مؤخرتها، وأرادت زين أن تحذو حذوهما فمنعتها عمتها لأنه «عيب على البنت» أن تفعل ذلك.

اشترت بهيجة للأولاد بالونات، واختارت البنات اللون الوردي أو الأحمر واختار الصبيان اللون الأزرق. وطلبت زين بالوناً بنفسجياً فتعجب البائع وقال إنه غير موجود، فرضيت بالأخضر الذي «باخ» لونه وبهت بعدما نفخته، فلوّنته بلون البنفسج بقلم سحري فطار بها عالياً وهي معلّقة بالخيط وسعيدة، ومرّت بها بومة تحلّق وحيّتها بحرارة لأنها تعرفها من زمان. كما شاهدت أفعى حكاية عمتها الكبيرة ذات اللحية المتدلية في الفضاء والعيون العقيقية والجسد الذهبي وهي تطير وتطارد علاء الدين على بساطه السحري، لكن زين ارتفعت أكثر منها بكثير ولوّحت لعلاء الدين بيدها وفكّرت بمساعدته، لكنها هبطت مرة واحدة على الأرض على صوت عمتها وهي تقول: هذا الحر سيشوينا.. سأطعمكم «دندرمة»[2] عند «بكداش» في طريق العودة كي «نبّل قلبنا». تفرّج الأطفال على رجل يقوم بترقيص قرد وهو ينقر على دف ويوجّه القرد بعصاه، وقهقه الأطفال وهم يشاهدون «كيف تنام الأرملة» فينام القرد على وجهه مكسور الخاطر، و «كيف تغزل العجوز» وبهلوانيات أخرى. تعلّقت نظرات زين بجرح يحيط بعنق القرد كأنها آثار قيد واكتأبت.

بعد ركوب الأطفال «طنبر» العيد الخاص المزيّن بالبالونات والأوراق الملونة والمفروش ببساط عتيق والقيام بجولة على حدود السرادق الاحتفالي، وبعد ركوب «الدويخة» والأرجوحة وصيحات «قوّيها منجدد»، وبعد شراء «الفلين»[3] للصبيان و «ضوء الليل»[4] للبنات، عاد الموكب في «عربيّة» حتى مدخل سوق الحميدية وقالت بهيجة متعبة: كنت مستعدة لركوب حتى «الطنبر» بدل العودة مشياً.

* * *

(١) يا ميمتي: تصغير أمي.

(٢) الفلين: نوع من المفرقعات.

(٣) دندرمة: صنف من المثلجات الشامية (بوظة).

(٤) أسياخ تشعل فيتطاير منها شرر أبيض يشبه النجوم.

خريف آخر . .

«دهبيات» تتكرر من دون أن تتكرر . . صار أمجد يلجأ إلى صحبة زين هرباً من اختناقه، ومشيا طويلاً في اليوم التالي لاغتيال «اليهود» للكونت برنادوت ومرافقه الكولونيل سيارو، حين أدخل القاتل رشاشه من نافذة السيارة . . . ولكنه لم يقل لها شيئاً وتمنى لو تكبر بسرعة . .

زين تستمتع بمرافقة والدها في النزهات مشياً إلى بساتين المزرعة وأبو رمانة وعين الكرش، ويهبطان أحياناً من قبة السيار في قاسيون حتى مصيف دمر. كان إحساسه بضيق في الصدر قد استفحل وقال له مأمون أن لا مرض عضوياً لديه والقضية نفسية. وكيف لا يختنق ويجوع إلى الهواء بعد ربيع أعلن فيه قيام «دولة إسرائيل»، وصيف هُزم فيه العرب وضاع جزء من فلسطين وتهجّرت خالته وأسرتها واستشهد صهره همام. زين كانت عزاءه الوحيد، ينسى أحزانه معها وشعوره بالاختناق، لكنها تتخلى عنه لترافق عمتها بوران إلى بعض الزيارات كمجلس العزاء الذي حرصت على اصطحاب بنات الأسرة كلهن إليه، إذ إن أحد المعارف في حي الشاغور نشر في الصحف نعوة لابنته المسلمة وراح يتقبل التعازي بها لأنها تزوجت «خطيفة» من شاب مسيحي وهاجرا إلى افريقيا خوفاً من القتل، فاصطحبت العائلات المحترمة بناتها للتعزية وليرين بأعينهن في «العصرية» ماذا يحل بمن تفعل فعلتها. كما رافقت عمتها بوران لشراء خروف قرّرت أن تذبحه فداء لعطل طارىء ألمّ بسيارة شقيقها أمجد وطال أمده، وقرّرت توزيع لحمه على الفقراء «دفع بلاء» عن السيارة. وقال أمجد صراحةً إن الزكاة لا تؤذي أحداً ولكن لا بدّ للسيارة من مصلّح، وذبح الخروف وحده لا يكفي وإلا لذبحوا جملاً من أجل شاحنة معمل السكر المعطلة منذ أسابيع. وقال إن استيراد السيارة لا يجدي إذا لم يكن لدى اليد العاملة المحلية العلم والخبرة لصيانتها، ولم يفهم أحد في البيت معنى كلامه. وحين تمّ تصليح سيارته كانت بوران مقتنعة بأن تضحيتها بالخروف والتعاويذ التي قرأتها ونفختها على السيارة هي سبب شفائها (أي شفاء السيارة). ولكن ذلك لم يمنع ماوية من جرّ زين من يدها واصطحابها معها حين حملت هاني إلى عيادة الدكتور مأمون ابن المرحوم سفيان شقيقها رغم شجارها مع أختها بوران التي طلبت منها أن «تكبّر عقلها» فعلاجه عند الأولياء . . . وكان حب زين لهاني لا يوازيه سوى غرامها بوضّاح، إذ كانت تعتبر هاني «يتيماً» ما دام والده «مسافراً» عن أسرته وبحكم الميت! بعد فحص طويل دقيق طلب فيه مأمون من هاني أن يسعل وهو يتحسّس مواضع عديدة من

جسده العاري، وزين تتلصص عليه بفضول، قرّر الدكتور مأمون أن لا عفاريت تقطن جسد هاني، فهو ببساطة مريض بفتق في موضع ذكورته، ومرضه سبب بكائه، كما أن البكاء يزيد في تفاقم ذلك الفتق. والعلاج هو في نزع زنار «الحرز» الذي أعدّه له الشيخ طه ولف به بطنه، ووضع زنار آخر طبي خاص بدلاً منه تحت موضع الفتق في جسد الطفل ليسنده ويرفعه، وطمأن أمه إلى أنه يمكن لهذا النوع من الفتق أن يشفى من تلقاء نفسه حين يكبر هاني ويبلغ سن الثامنة وربما قبل ذلك، والمهم أن يثابر على وضع الزنار ليل نهار على ما في ذلك من مضايقة.

* * *

بينما كانت زين تداعب القط هارون بسلام في غرفة جدتها دخل دريد وشاهدها محنية على القط وثمة ضوء خاص نادر يشع من سعادتها. لا يدري لماذا اقترب منها وقبّلها على وجنتها وانطلق هارباً. فوجئت زين بأن القبلة «سحرتها» وحوّلتها إلى امرأة كبيرة شاهقة بيضاء وممتلئة، شعرها من حرير أشقر وبشرتها من ضوء وقد فاحت منها رائحة الياسمين. حين عادت بنتاً صغيرة تساءلت بغصّة: لماذا يصير دريد لطيفاً حين لا يراقبنا أحد، ويترفع عن اللعب معي أمام بقية الصبيان؟

أمسكت زين بالمقصّ وتخيلت أنها تقصّ له ما سبق وكادت تقصّه لكريم.

زجرتها جدتها لأنها تلعب بالمقصّ.

* * *

شعرت زين بالهلع وهي تقرأ أن السندباد شاهد في بلاد الهند جنازة دُفنت فيها الزوجة حيّة في القبو المعتم مع جثة زوجها. لم تكن تدري أن على قمر أن تموت قبل زوجها معين وإلا دفنوها حيّة معه. ولم تدرِ لماذا لم يدفنوا خزامى بعد مع همام. قررت ألاّ تتزوج في أي يوم كي لا تُدفن حيّة. أم أن ذلك لا يحدث إلا في الهند؟ رمت بالكتاب وتناولت كتاباً آخر بالفرنسية عن الحيوانات. قرأت أن الإسفنجة التي تستحم بها كانت كائناً حياً آخر في البحر. حين استحمت مساءً صارت تتحدث مع إسفنجتها. زجرتها جدتها لأن أحداً لا يحاور «إسفنجة» الاستحمام. فردّت زين: ولماذا تتحدثين أنتِ مع حوض أزهار «الهرجاية» ومع الحبق والعطرة؟

أجابت الحاجة: أنا لا أتكلم مثلك مع الضفدعة والجرادة والحرذون والحلزون والسلطعون والبومة. إنني أكلم نباتاتي كي تكبر.

سألتها زين باهتمام: وهل تسمعك بدون أذنين؟

ردّت الحاجة متعبة: الله أعلم. بوسعك أن تتكلمي مع حيواناتك ومع إسفنجة الحمام كما تشائين و «اعتقيني» من أسئلتك!

* * *

قرأت زين عن المرآة السحرية التي ترى فيها الأميرة صورة وجه من تحب. تسلّلت إلى غرفة عمتها ماوية وأخذت مرآتها وعادت بها إلى غرفة جدتها وصارت تتمنى أن تكون هذه المرآة سحرية كي ترى فيها وجه أمها. أنّبتها بوران وطلبت منها أن تعيد مرآة عمتها لأن اللعب بالمرآة مكروه وكسرها مساءً يعني مصيبة ستحلّ. ما كادت تكمل كلامها حتى انقطع التيار الكهربائي. أشعلت شمعة وتمنت ألاّ يطول العطل وتضطر لإضاءة قنديل الكاز. اقتربت زين من الشمعة وصارت تحاول أن تضع إصبعها على لهبتها قدر الإمكان لتجرّب جهنم ولتعرف كيف يؤلم الحرق الذين غضب الله عليهم. زجرتها جدتها لأنها تلعب بالشمعة. انبطحت زين على بطنها وأخذت تجرّب الكتابة باليد اليسرى كما فعل والدها يوم كسرت يده وتدرب على الكتابة بالأخرى وكان فخوراً بإتقانه ذلك بفعل الإرادة مؤكداً للجميع أن ليس هناك من مستحيل.

دخل والدها وشاهدها تكتب باليسرى فزجرها خوفاً من أن تصير «عسراوية»!

* * *

قرأت زين في كتاب القصص أن أميراً أعطى حبيبته ثلاث شعرات من رأسه قبل سفره وطلب منها أن تحرق شعرة كلما كانت بحاجة إليه فيحضر إليها حالاً.

لذا كسرت زين الإبريق الفخاري الذي تدلق عمتها بوران منه الماء إلى «بلعومها» مباشرة وهي ترفعه إلى الأعلى وترمي برأسها إلى الوراء وقد فتحت فمها على وسعه.. كسرته كي تسجنها عمتها في «الشامبرنوار»، وتحصل على شعرة عن كتف أحد معاطف أمها.

قالت لها بوران: الله يهديك يا ابنتي. ولم تعاقبها. تضايقت زين. كانت تريد أن تعاقبها عمتها بالسجن في «الغرفة المعتمة» كي تقدر هناك على تنفيذ خطتها واستدعاء أمها، فقد صار الدخول إلى غرفتها الوردية حيث «الشامبرنوار» عسيراً بعدما احتلتها الخالة أم عامر وأسرتها.

أمسكت بعلبة الخياطة ورمت محتوياتها على أرض «الديار». بدلاً من زجرها

ضمّتها عمتها بوران إلى صدرها وسألتها: ما بك اليوم مكهربة و «لايجة»[١]؟ اذهبي والعبي مع البنات. أو اذهبي وحضّري دروسك للمدرسة، فقد«ذهب العيد وفرحاته، وجاء الشيخ وقتلاته»[٢].

حين يئست من عقاب عمّتها لها، تسللت زين إلى غرفتها الوردية القديمة وفرحت حين وجدتها خالية من أم عامر وولديها، ولم تر أحداً فدخلت إلى «الغرفة المعتمة»، وتركت بابها مشقوقاً وراحت تفتش عن شعرة على كتف معطف أمها بعدما تسلقت صندوقاً على أرض الغرفة. وجدت شعرة. أمسكت بها وغادرت المكان. ذهبت إلى المطبخ وأخذت علبة كبريت. دخلت إلى غرفة جدتها التي صارت تشاطرها إياها وأشعلت الشعرة بعود الكبريت. أغمضت عينيها طالبة من أمها الحضور.

جاءت هند بكل بهائها وقالت لزين: وأنا أيضاً أفتقدك و. . وقبل أن تكمل كلامها صرخت بها جدتها: لا تلعبي بالكبريت يا زين! وهربت أمها كعادتها منذ سفرها إلى السماء كلما حضر مخلوق آخر غير زين.

أمسكتها جدتها من يدها وأعادتها معها إلى «الديار»، وزجرتها عمتها بوران بلطف: لماذا لم تذهبي مع عمتك ماوية إلى السينما؟

لم تجب زين فقد انشغلت بعروس بحر نصفها الأسفل سمكة وقد خرجت من بركة الماء أمامها وتشبه كثيراً الصورة في الكتاب.

لحق بعروس البحر حوت وصار يطاردها في البركة التي كبرت وملأت «الديار». أمسكت عروس البحر بسكين جدتها الخاصة بتقطيع اللحم وشقّت بطن الحوت. خرج منه شاب وسيم لكن عروس البحر أدارت ظهرها له وغطست واختفت تحت الماء. لحقت بها زين ووجدت في جدار البركة باباً. فتحته ومشت إلى الداخل فوجدت نفسها في مدينة من النحاس غارقة تحت الماء.

شوارعها نحاس وبيوتها وحتى نوافذها الموصدة من النحاس. اقتربت من صبي أمام أحد الأبواب فوجدته تمثالاً متحجراً ولكنه لم يقل مثلها «أواه ما هذه الحياة!» كما قالت هي جملتها الوحيدة في المسرحية الإذاعية لبرنامج الأطفال في الإذاعة حين تحوّلت إلى بنت متحجرة. سألته عن اسمه. فلمْ يجب. وقال تمثال آخر إلى جانبه يمثل أمه: ابني لا يتكلم إلا لغة الطير.

---

(١) لايجة: قلقة البال، مضطربة.
(٢) قتلاته: ضرباته.

قالت لها زين: أنا أعرف لغة البوم.

استيقظت زين على يد والدها وهي تهزّها. حملها من جلستها أمام البركة وقال لها ضاحكاً: أين كنتِ في أحلام اليقظة؟ لقد ناديتك مراراً ولم تجيبي.
قالت له زين: هل تعرف أنه توجد مدينة من النحاس تحت ماء البركة؟
أجابها مقهقهاً: كنت أزورها كثيراً وأنا صغير مثلك!

حين نامت زين شاهدت في «بلاد النوم» أمها داخل سفينة تكاد تغرق في بحر هائج ووالدها يقول لها: خذي حفنة من تراب حوض جدتك الأبيض وارميه في البحر يهدأ هياج الماء.

استيقظت زين قبل أن ترمي بالتراب في البحر. شاهدت في الغرفة رجلاً له جسد حصان يغادرها قبل أن توقظ جدتها لتريها إياه.

نهضت من فراشها وحملت صدفتها الوردية ووضعتها على الشرفة كي تمطر السماء في اليوم التالي. لا تدري زين لماذا تمنّت أن تمطر..

* * *

حينما عادت زين من المدرسة، وجدت عامر بانتظارها أمام الباب.. لم تحسده كما يحسده لؤي لأنه لا يذهب إلى المدرسة، فهو «لاجىء» كما تقول جدتها.. ولأنهم سيعودون إلى بيتهم في عكا بعد أسبوع (كما يقول أبو عامر منذ أشهر وهو يتحدث عن محاربة اليهود لاسترجاع بيتهم وبيوت الفلسطينيين كلها).
قال لها بلطف على غير عادته: هل تريدين أن نلعب؟ دهشت وفكّرت بخوف: هل يريد مني أن أشتري له شيئاً؟ ماذا يريد مني؟ تضايقت وبدت لعامر متحفّظة على غير عادتها.. لم تجبه وتابعت سيرها وهي حائرة. هل تعاتبه لأنه يمنع أخته رويدة من اللعب معها أم لا تعاتبه؟ ظلّت صامتة..

لحق بها إلى «الديار» وصعد معها السلم وهو يقول: في الحقيقة لا أريد أن ألعب. أريد أن أسألك، هل ترغبين في الذهاب معنا للحرب في فلسطين؟ سنكون بحاجة إلى ممرضات.
قالت له غاضبة: لن أذهب معك إلى أي مكان.. لا أريد أن أموت مع صبي يقاطعني ويمنع أخته من الكلام معي.. تريدني أن أموت معك ولا تريد أن تلعب معي؟

وأغلقت بغضب باب غرفة جدتها حيث تنام، ولعنت للمرة الأولى جنس

الرجال كما تفعل عمتها ماوية، وجلست تقرأ في كتاب «رحلات غاليفر». . وكبر جسدها فصارت هي غاليفر في بلاد الأقزام في جزيرة نائية وبعيدة عن لؤي ودريد وعامر.

* * *

قالت الحاجة لزين والأطفال: هيا ساعدوني في نفخ البالونات وتزيين البيت بها وبالورق الملوّن. ضحـك الأولاد وضجيجهم أيقظا أمجد أم تراها رائحة الياسمين التي لامست وجهه كأنامل لامرئية؟ للعطر في بيته ملمس وصوت حين يجن الياسمين والفل بين الربيع والصيف. كان قد صلّى الصبح وعاد إلى النوم، لو لم ينشب العطر أنفاسه وينفخها داخل فمه! ارتشف أمجد قهوته بماء الزهر وهو جالس في ركنه المفضّل في الإيوان قبل أن يودّع البيت الكبير متأهباً للانتقال إلى بيت هند في شارع أبو رمانة عند ساحة المدفع لصق البساتين.

تأمل بدهشة والدته وهي تقود حملة تعليق البالونات الملوّنة في المدخل وقاعة الاستقبال و«الديار». هل يحلم؟ لم يسبق لأسرته أن زيّنت البيت إلا لعودة من حج، أما بدعة أعياد الميلاد فكلهم ينفر منها وتبدو وافدة عليهم، وكان الكل يمتعض من احتفال هند بعيد ميلاد زين. ففي البيت باستمرار عشرة أطفال على الأقل، والظروف لا تسمح بطقوس كهذه وبتنافس على البذخ واستعراض الشطارات بحجة أعياد ميلاد الأولاد (ولن أحتفل بعد اليوم بعيد ميلاد هند في قلبي إلا بغصة مضاعفة، فقد ولدت هند يوم ١٥ أيار. . وأضحى ذلك التاريخ ذكرى مريرة مذ أعلنوا قبل عام في مثل هذا اليوم قيام «دولة اليهود». أحسد هند لأنها ماتت قبل أن تشهد هذا اليوم).

سأل أمه: خير إن شاء الله، لمَ الزينات؟

ـ هل نسيت ختان دريد؟

كان قد نسي كل شيء وهو يودّع البيت الكبير بغصة ومرارة كمن يودع يده قبل قصّها!. . سيفتقد شبح هند وضجيج الأولاد والزقاق وصياح الباعة ووقع القبقاب على صحن الدار والأقواس والأبواب المحفورة بالآيات القرآنية على قمتها. . والكنز المدفون في مكان ما من هذه الدار بكل ما فيه من جواهر أسطورية وذهب كما روت له أمه في طفولته حين أوصته بألاّ يغادر الدار بأي ثمن. . .

منذ وفاة هند وهو يعتزم الإقامة في بيت شارع أبو رمانة، ويتراجع، ويودّع

البيت الكبير مرة بعد مرة ويبقى فيه مثل عاشق مستهام يودّع حبيبته ليلتصق بها أكثر ولسان حاله يقول: لن يكون وداعاً.. قال لنفسه: لا مفر من مغادرة البيت الكبير بعدما انضمت إلى زحامه أسرة جديدة هي أسرة أم عامر وقد فقدت كل أمل في العودة إلى فلسطين عاجلاً وسمعوا أن أسرة يهودية احتلّت بيتهم. والدته قالت: «بيت الضيق يسع ألف صديق». ولعل مجيء أسرة أم عامر حجة لمغادرة البيت، أما في قرارة نفسه فإنه يشعر أن زين بحاجة إلى مجال حيوي أوسع لتنمو فرديتها.. ولم يكن بوسعه أن يبخل عليها بفضاء.. **(أجل سأغادر البيت الكبير في أسرع وقت. لا. ليس بوسعي مغادرته. نعم لا بدّ من الذهاب، فالحياة فيه أضحت لا تطاق لشدّة الزحام. لا. لن أستطيع مغادرته فالحياة بدونه لا تطاق أيضاً).**

زين تدور حول الحاجة وتمطرها بالأسئلة مستفسرة عن حسني الزعيم الذي تردد اسمه كثيراً مؤخراً في السهرات وسألتها ما الذي يفعله. أجابتها: «علمي عْلمِكْ»[1]. بدت لها جدتها سعيدة ومستثارة وهي تجهّز الزينات لحفل ختان دريد وتضع اللمسات الأخيرة على الفستان الحريري الأبيض الطويل الذي سيرتديه بعد الختان كما قالت لحفيدتها.

سألت زين جدتها: ما معنى «تطهير» دريد؟

قالت لها الحاجة إنهم سيقصّون له شيئاً زائداً «هناك».. تساءلت بصمت: ترى هل سيفعلون به ما أرادت هي أن تفعله بكريم وأغضبت أمه؟ ولماذا يقصّون «عمود البيت» كما تغني جدتها لوضّاح وهي تبدّل له حفاضه؟.. قالوا لزين إنها كانت ستقتل كريم لو نجحت في قصّ ما كانت تعتزم قصّه.. فهل سيموت دريد؟ وشعرت بيد معدنية تعصر قلبها.. وطمأنتها جدتها إلى أنه سيظل بخير، وللقصّ أصوله، ولكنه سيصير رجلاً ويثبت رجولته وشجاعته إذا لم يبكِ...

صباح اليوم التالي جاء الشيخ طه مصطحباً الحلاق العجوز الذي ختن نصف شبان الحي يوم كانوا أولاداً. وحين فتحت له فهيمة، الخادمة، الباب بلا حجاب تعوّذ بالله من الشيطان الرجيم بصوت عال وأمرها أن تذهب وتتستر وتغطي شعرها، ولعن النساء كلهن باستثناء زوجات الرسول وبناته.. فرمقته فهيمة بنظرة كلها كبرياء، ولم تجب، وقال في نفسه: كم هي جميلة.. تبارك الخالق!...

توافد الأقارب والجيران والمعارف من كل مكان.. أحد الأقارب جاء من

---

(١) اي لا أعرف أكثر مما تعرفينه.

بصرى اسكي شام حيث يعمل، كما حضر آخر وأسرته من الموصل.. وفي المطبخ كانت هنالك فرقة كاملة من النساء تعمل على إعداد ما لذّ وطاب من مآكل شامية.. وقد فتحت أم نقولا ـ «ماما ديب» كما صار الجميع يدعونها اقتداءً بزين ـ فتحت باب بيتها المقابل ووضعت صالونها تحت تصرف آل الخيّال. كما أضحى مطبخها ملحقاً بالمعمل النسوي لإعداد الحلويات وصواني «الكنافة المدلوقة»[1]، وأعدت بنفسها الأطباق التي تعتقد الحاجة أن المسيحيين يتقنون تحضيرها أكثر من المسلمين، مثل التبولة والجاتوه والكبة الحميص وسواها. وبالرغم من حضور الحلاق الذي سبق له أن أجرى الختان لمئات الأولاد، إلا أنّ الدكتور مأمون أصر على إحضار طبيب مختص لابن عمته دريد بحيث يعمل الحلاق معاوناً له مما أغضب الشيخ طه. غلب على زين فضولها فحاولت الدخول للفرجة والوقوف بجانب دريد وإمساك يده، ولكنهم طردوها شر طردة. وحتى والدها لم يجرؤ على التحزب لها كعادته.. كانت الجلسة رجالية محرّمة على النساء.. مثل محفل خاص بديانة ذكورية غامضة الطقوس لعبادة «عمود البيت». تلصصت زين عبر نافذة «الليوان»، وبدا لها دريد نحيلاً وصغيراً وسط رجال صخريين.. شاهدته وهو يقلب شفته السفلى مثلها حين توشك على البكاء، ثم تجلّد حين شجّعه الجميع بقولهم: «يا رجل»، يا «شاب».. ولم يبك حتى حينما تناثر الدم.. بل ارتسم على وجهه تعبير جديد لم تره زين من قبل: القسوة. نظر إلى جسده وإلى جرحه بقسوة، ثم جال بعينيه في الحضور نظرة شديدة مركزة تستمد صلابتها من ألم لا يطاق وبأس فخور الزهو.. القسوة والزهو.. كمن حلّت فيه روح شريرة.. وهتف به خاله عبد الفتاح: أهلاً بالرجولة.. وزغردت الحاجة من وراء الباب وبقية النسوة فازداد دريد خيلاءً كأن وجعه تحوّل إلى قوة ضارية عمياء... ووصلت فرقة الدراويش بالطبل والدف.

قبل أن تنام زين، اقتربت من دريد لتلاطفه وتواسيه فتحاشاها.. داعبته بشأن فستانه الحريري النسوي الأبيض، فلم يضحك لنكاتها بل رمقها بنظرة شرسة متعالية كتلك التي تطل باستمرار من عينَيْ لؤي.. تساءلت زين عن سر تلك القوة العدوانية التي ضخّها فيه الرجال.. أكان ذلك ختاناً أم مجلس سحر؟...

صباح اليوم التالي روت زين لجدتها ما حدث أمامها في الليل وتدعوه الجدة حلماً.

---

(١) الكنافة المدلوقة: حلوى دمشقية.

قالت: شاهدت دريد يموت.
ـ هذا معناه أن عمراً جديداً كُتب له.
ـ وشاهدت الدم يسيل من عنقه كدجاجة مذبوحة.
ـ ما دُمتِ قد شاهدت دماً فهذا معناه أن المنام قد فُسخ ولم تعد له قيمة.

سمع أمجد حوارهما وابتسم إعجاباً بحكمة أمه وجدته وأمها وأمهاتهن. ففي تفسير الحاجة للأحلام الموت عمر جديد، والدم يفسد المنام، والمقصود من ذلك كله إلغاء القلق بعد حلم مزعج. تذكّر أيضاً أن قصّ الأظافر ليلاً مكروه ربما لأن ضوء الشمعة كان شاحباً كقنديل «الكاز»، وبالتالي كان يمكن للأولاد أن يجرحوا أنفسهم إذا قصّوا أظافرهم. وشراء الفحم بعد المغرب مكروه، ربما لأن لهب الشمعة لم يكن يومها كافياً لتنظيف آثار ادخاله إلى البيت. ازدادت ابتسامته اتساعاً وهو يتذكر قول أمه إن طعام الشخص «العسر» ذي الطباع الصعبة قلما يأتي جيداً، وهي صيغة مهذبة كي لا يقال إنه يربك الطابخة. وقولها إن الحصى الصغيرة في الرز لا توجد إلا في صحن الرجل، وهذا يعني ضمناً أنها أحسنت تنقية الرز وثمة قوة غرائبية ترش الحصى في طعام الرجال ولا داعي بالتالي لأن يزجروا زوجاتهم.. شعر بحب جارف نحو أمه وتمنى لو يقبّلها فجأة على خدها أو يدها، لكنه خشي إغضابها، فقد ربّته على إخفاء مشاعره ولحظات ضعفه ليكون جديراً باسم رجل. حينما أنجزت زين استجواب جدتها وابتزازها، تمسّحت بوالدها، وحين لم يُلقِ بالاً إليها وتجاهلها عامداً صارت تتظاهر بالسعال، فقال لها: «صحة»، ولا يدري لماذا تذكّر متسول سوق الحميدية.

* * *

زين بنت صغيرة سعيدة تعيش مع أمها على شاطىء «الطابيات» في اللاذقية وتقضي وقتها في تعمير قصر على الرمل والإنصات إلى صوت الصدفة.. قالت لها أمها الجميلة إن صوت الصدفة شيء عظيم لأنه صوت البحر ويجب أن تتعلّم كيف تفهم لغته.. ثم نامت على الشاطىء فحلمت بأنها بنت صغيرة في دمشق أمها مسافرة.. وهذا الحلم المزعج يضايقها. أم تراه ليس حلماً؟ لا تعرف زين متى تكون نائمة ومتى تكون مستيقظة، ومتى تكون هي بطلة الحكاية ومتى تكون راويتها، ومتى تكون حالمة ومتى لا تكون. توقظها بوران لتذهب إلى المدرسة.. وفي المدرسة تأتي عبلة الحلوة الشقراء الطويلة ذات العيون الزرق صباح كل يوم سبت وتلقي تحية العلم: «عش هكذا في علو أيها العلم، فإننا بك بعد الله نعتصم»...

لماذا عبلة وحدها تلقي التحية كل يوم سبت من دون بقية البنات؟ لا تدري زين ما الذي انتابها حين خرجت من صف البنات المصطفات كأسنان المشط وطلبت من «معلمة خانم» أن تلقي هي تحية العلم السبت المقبل. غضبت المعلمة وضربتها بالمسطرة على يدها ضربة موجعة كضربة سيخ محمّى بالنار، وكادت تشنقها على حافة المسطرة أمام البنات كلهن كما خيّل إلى زين، وأوقفتها في الصف لضق الجدار، فنبتت لها أذنا حمار وذنب سنجاب. وحين ذهبت «معلمة خانم» التفّت البنات حولها في الفرصة وقالت بنت كبيرة من صف عبلة إن «الحق مع زين»، ومن المفترض أن تقوم كل بنت بتحية العلم بالدور حتى ولو كانت سمراء ونحيلة وبشعة مثل زين.. اتفقت البنات الكبيرات على مقابلة «مديرة خانم» لتقديم هذا الطلب وجررن معهن زين لأنها هي التي «أكلت» ضربة المسطرة.. وصارت كل واحدة تقرع الباب ثم تهرب حين تقول المديرة: «ادخل».. وحين نفد صبر المديرة وجاءت إلى الباب لترى ما الحكاية كانت البنات قد هربن كلهن وزين وحدها أمام الباب. سألتها «مديرة خانم»: ما بكِ؟ فغمرها الذعر وقلبت شفتها السفلى كعادتها بدلاً من البكاء. لكن المديرة أدخلتها إلى الغرفة وأغلقت الباب وكررت السؤال بلطف وحنان فتشجعت وروت لها القصة.. لم تقل المديرة شيئاً وطلبت منها أن تعود إلى الصف لأن «الفرصة» انتهت والجرس يرن...

صباح السبت التالي، فوجئت زين بالمديرة تناديها لتلقي تحية العلم، فخرجت مثل النملة، وغمرها الخجل وهرب صوتها من حنجرتها، لكن ابتسامة «مديرة خانم» المشجعة جعلتها ترفع رأسها بسعادة صوب ذلك المستطيل الخفّاق على إيقاع قلبها وفي صدرها تخفق أفراح عيد الجلاء.. وبدأت تتلو تحية العلم. في البداية شعرت بالخوف وأكثر من ألف عين تحدّق فيها، ثم تحوّلت إلى فراشة وهي تصيح ملء صوتها: عش هكذا في علو أيها العلم، فإننا بك بعد الله نعتصم. ونسيت كل شيء عن العيون والآخرين.

* * *

تضايقت زين حين جاء صديق والدها الصائغ شفيق حنين من «حارة اليهود» وكانا على وشك الذهاب في نزهة بالسيارة إلى الربوة قبل هبوط المساء. كانت زين تريد أن تتهجأ حروف تلك العبارة المكتوبة بالدهان الأحمر على صخرة شاهقة هناك أسرها منظرها منذ طفولتها قبل أن تتعلّم القراءة. والدها قرأها لها مراراً كلما كررت السؤال عنها. عبارة تقول: «اذكريني دائماً». ولكن زين لمحت عبارة جديدة على

الصخرة في نزهتهما الأخيرة نبّهته إليها وخيل إليه أنه قرأ عبارة إضافية حقاً هي: «لا أنساك». ولكنه لم يجرؤ على أن يقول ذلك لزين إذ خشي أن يكون مخطئاً وهو يخشى من الوقوع في أي خطأ أمامها، فهي تكاد تقدّسه وذلك جعله حذراً كي لا تكتشف أنه بشر مثلها ويخيب أملها فيه! لم تكن وحدها التي تحاول إرضاءه بل إنه لطالما ضبط نفسه في لحظات غضبه وهو يبذل جهداً حذراً كي لا يخيب أملها.

ثم إن تلك الصخرة المنشارية في الربوة إلى يمين الطريق من دمشق صوب دمر كانت تأسر خياله، إذ يتعذر على أي شخص تسلقها دون تعريض حياته للخطر، ومن أجل ماذا؟ كي يكتب عبارة «اذكريني دائماً».. ولطالما تساءل: ما هو ذلك الدهان السحري الذي سطّرت به تلك العبارة؟ وكيف يزيده المطر رسوخاً ولمعاناً ولا تمحوه الرياح وزخات «حب العزيز»[1] وشمس الصيف الحارقة؟ ومن هو ذلك العاشق؟ ولمن وجّه تلك العبارة؟ وهل تسلقت حبيبته الأسطورية بدورها صخرة الموت المنشارية تلك لتكتب له الإجابة: «لا أنساكَ»، أم أن المقصود بالعبارة «دمشق» أي «اذكريني دائماً يا دمشق»؟.. هل سطّرها عاشق للمدينة مثله قبل سفره للدراسة مثلاً، وكتبت له روح دمشق الحيّة إجابتها ببساطة: «لا أنساك»؟ ماذا لو كانت التي سطّرتها امرأة لا رجلاً أحبت أن تقول لدمشق «اذكريني دائماً» وردت عليها المدينة «لا أنساكِ»؟

لذا شارك أمجد زين ضيقها بالضيف المفاجىء، ثم إنه منذ الهزيمة في فلسطين أضحى يشعر بنفور لا يدري مرده من صديقه اليهودي شفيق حنين. صحيح أن الرجل شامي عتيق مثله، وأنه لم يشارك يوماً في التبرع لعصابات الهاغانا، لكن القلوب تنافر ودها من طرفه على الأقل، وأمجد يشعر بشيء من الذنب نحو شفيق لأن ذلك الشعور ليس منطقياً.

استقبله بالحفاوة القديمة ذاتها كأنما ليريح عقله وفوجىء بالرجل ينفجر باكياً على المقعد ذاته الذي بكى عليه أبو عامر ليلة وصوله من فلسطين وقد غادر بيته في عكا.. ودهش حين وجد شفيق حنين يبكي للسبب ذاته: إنه قرر مضطراً مغادرة بيته ودمشق والهجرة إلى سويسرا لأن الناس في «الشام» صاروا يتجنبونه منذ إعلان دولة إسرائيل، ولا يشترون منه ولو خاتماً ويقاطعونه ويعتدي عليه بعض الفلسطينيين بالضرب أو الشتائم. تمنى أمجد أن لا يهبط أبو عامر من الغرفة في الدور الثاني لأنه

---

(١) حب العزيز: البرد.

قد يفعل الشيء ذاته به لمجرد أن شفيق حنين يهودي. ألم يفعل به اليهود شيئاً مماثلاً؟ جاءت فهيمة بالقهوة وسأل أمجد الخيّال ضيفه: وماذا تريد مني أن أفعل؟

ـ أريـد أن تساعدني علـى بيع بيتي ولو بنصف سعـره. إنني مضطر لمغادرة دمشق.

ـ هنالك فلسطيني مطرود من عكا هو زوج خالتي يفتش عن بيت يشتريه. سأفاتحه بالأمر.

أنصتت زين بذهول إلى حوارهما وتعجبت: لماذا يقطن كل واحد منهما في بيت الآخر ما دام الرجلان يبكيان ولا يبقى كل منهما في بيته؟

بعد انصراف شفيق حنين، لم يجرؤ أمجد على مفاتحة «أبو عامر» بشأن شراء البيت البديع للصائغ بثمن بخس، إذ خاف أن توقظ الحكاية مرارته وغضبه، وأسرّ بالأمر إلى خالته التي كانت واقعية ورحبّت بذلك. وحين قالت ذلك لزوجها، أجابها: سأشتريه، لا لشيء إلا لأحرقه!

ـ أليست الإقامة فيه أفضل من إقامتنا هكذا في بيوت الناس؟

سمعتها الحاجة فقالت: صدر البيت لكم والعتبة لنا. و«أهلاً وسهلاً ومرحبتين بهاالقامة وبهاالعين»...

أضاف عبد الفتاح: «لو تعرف الأرض من قد زارها لفرحت واستبشرت وباست موطىء القدم»...

كفّت زين عن التشاغل بالقراءة وهي تنصت لقول عمها بإعجاب، وأرهفت السمع حين همست فلك لشقيقة حماتها أم عامر بأمر آخر كأن حكاية شراء البيت غير مهمة مقارنة بحكايا تزويج البنات: خزامى جاءها عريس عقبال عند رويدة. شاب مثل القمر هو هشام ابن عم المرحوم همام.

ـ وماذا قالت حماتها السابقة وعمّها عادل؟

ـ وافقا كي لا يربّي حفيدهما غريب.

ـ وهل الشاب غني ومتعلم؟

ـ الغني لا يتزوج أرملة. سيغسل قدميه ويدخل إلى البيت الذي اشتراه وأثّثه المرحوم ابن عمّه.

ـ ما مهنته؟

ـ مسكين، أستاذ مدرسة.

ـ وأين مقر عمله؟

ـ في حماة، ولكن أمجد وعد بالتوسط لنقله إلى «التجهيز الأولى» في دمشق.

ـ الله يجعل التمام على خير.. ولكن أليس من المبكر تزويجها الآن؟

ـ لقد انقضى ما يقارب العامين على ذهاب همام مع القاوقجي واقتربت سنويته..

سمع عبد الفتاح هذا الجزء من الحوار فتدخل قائلاً بدعابة: لا. ليس الوقت مبكراً، فدعيها تعود إلى بيتها.. «جوّزت بنتي لأرتاح من بلاها، جاءتني وأربعة وراها».

وأيدته بوران بقولها: «جوّزناكِ لنرتاح من أكلك، جبتيلنا همّك وهمّ ابن عمك»![1]

التفتت بوران إلى زين التي كانت تنصت باهتمام شديد، وقالت لها كما يطردون الدجاج: بِتْ بِتْ بِتْ.. اقترب وقت النوم...

كل ليلة، تمضي زين مرغمة إلى دنيا النوم التي ترعبها وهي تواجهها عزلاء لا تدري كيف تحمي نفسها منها. بعد الاستحمام والعشاء، قبّلت والدها نصف دامعة كمن يودعه للمرة الأخيرة وقبّلت الحاضرين مودّعة إلى النوم وضحكت عمتها قائلة: «لا أوحش الله منك».

* * *

كل ليلة، تعيش زين بعد ذهابها إلى النوم عالماً آخر، يسعدها أحياناً ويعذّبها غالباً، ولا تعرف دائماً كيف تحكيه لهم.. وإذا فعلت أضحت مدعاة لسخرية عمتها بوران ورثاء جدتها ومداعبة فهيمة: ها قد عادت زين إلى قصة «إبريق الزيت».. وحتى إذا استيقظت ليلاً مذعورة وقد عادت من إحدى رحلاتها المرعبة، وتصادف وجود والدها مستيقظاً وجرّها من يدها إلى الشرفة وحيدين لتروي له ما حدث لها، كانت بعد أن تفعل تشعر براحة مشوبة بشيء من خيبة الأمل لأن ما تقول لا يشبه حقاً ما وقع وما كانت تتمنى أن ترويه...

تلك الليلة، اكتشفت زين بعد القراءة شيئاً جديداً كانت تظن أنها وحدها عرفته اسمه الكتابة.. كتابة شيء لا صلة له بالوظيفة المدرسية أو بالعقاب مثل كتابة: «لن أثرثر في الصف ثانية» ٥٠ مرة.

(١) ابن عمك: كان الزوج في دمشق آنذاك يُلقّب بابن العم.

السبع، واستخرجت من داخله ورقة رُسمت عليها طلاسم وكلمات لامقروءة، فمزقتها ووضعت كابوسها مكانها وأعادت ربط الورقة التي كتبتها داخل قماشة الحجاب.

* * *

رافقت زين والدها إلى معمل الزجاج في «القدم»، وذهلت وهي ترى السائل المنصهر، الذي تقصّه الماكينة، ثم تصبّه فيصير زجاجة.. تك تك.. زجاجة زجاجة.. مئات منها.. لا تزال محمرّة، تركض على بساط معدني متحرك.. فرحت للوهلة الأولى، ثم خافت قليلاً وهي ترى العامل مثل دميتها الميكانيكية التي تكرر الحركة ذاتها، فهو يحرّك يديه بحركة واحدة تتناغم مع حركة الآلة وبسرعة كدمية.. قالت لوالدها: من يملأ «رقّاص»[1] هذا الرجل؟ وهل له في ظهره مفتاح معدني يديرونه كل صباح في المعمل ليكرر الحركة ذاتها كما تفعل دماي بعد أن أدير مفتاحها المعدني لتتحرك؟

أجابها بكلمة واحدة: الجوع...

حزنت. كان والدها يذكّرها دائماً بأمر لم تعانِ منه يوماً: الجوع. الفقر. الفقر الذي كان قد جربه ولا ينساه ويحب في كل مناسبة ان يذكّرها به وبأهله.

عادت تتأمل الزجاج المنصهر. بدا لها الأمر جميلاً ومثيراً.. ثم إنها تعشق الأشياء المنصهرة والشفّافة.. ولطالما وقعت صريعة غرام تلك القبة الشفّافة من الزجاج التي تحيط ببرج مضحك من المعدن وحينما تقلب الدمية يتساقط الثلج على البرج.. ماذا كان اسم البرج؟ إيفل؟ لا تذكر.. كانت تلك الدمية إلى جانب علبة الموسيقى في غرفتها الوردية.. تأتيها الصور شاحبة داخل زجاجة مصهورة، كما لو كانت تمشي داخل تلك القبة الزجاجية والبرج يتوسطها والثلج ينهمر على البرج وعليها كما يحدث عادة كلما «خضّت» تلك اللعبة التي كانت أمها تدعوها «بيبلوه»[2] تذكاري.

تقلب زين الزجاجة داخل خيالها فتنهمر الكوابيس وينطلق سرب من النحل بدل الثلج.. كل شيء هكذا.. محفوظ داخل زجاجة.. قالت زين لنفسها، مضيفةً، إذا حركناه طار سرب من النحل وعقصني لأنني صرت داخل الزجاجة...

ضاقت أنفاسها كما يحدث لها دائماً حينما تهاجمها أفكار متناقضة ملحقة

---

(١) رقّاص: زنبرك. (٢) كلمة فرنسية معناها قطع تزيينية.

بذكريات غامضة ونتف من المشاهد.. وأمسكت بيد والدها الذي بدأ يشرح لها بحماس فخره بافتتاح هذا المعمل ويعيدها إلى الأرض الصلبة.. غادرا المكان إلى سيارة «الجيب الستيشن» الخاصة بالمعمل، وسألها والدها: هل تريدين مرافقتي غداً إلى حمص؟ شيّدنا هناك معملاً للسكر... الاستقلال ليس فقط أن تلعبي دور الفراشة في عيد الجلاء.. إنه بناء وطن.. لم تفهم ما يقصده، ولكن معملاً للسكر؟ نسيت كل شيء عن القبة التي تمطر ثلجاً والأخرى التي كانت سجينتها وتطلق نحلاً يعقصها إذا حرّكتها، وسألته بذهول: وهل للسكر معمل؟ كنت أظنهم يجدونه في الصحراء حول تدمر كما يجدون الملح على شاطىء البحر.. ضحك أمجد، وركضت في عينَيْ زين الملاحات الجميلة بمربعاتها ومثلثاتها ومستطيلاتها على الشواطىء وطواحين الهواء تعلوها، ورجال حفاة عراة السيقان كالسلاطين تسوطهم الشمس يعملون فيها.. من عبّأ مسنناتهم و «زنبركاتهم» ورفّاصاتهم؟ هل هو الجوع كما قال لها والدها؟

* * *

في حمص، ما كادا يدخلان حرم المعمل حتى التقت بأحد أولاد «أبو جميل» قريب والدها الذي يعمل فيما يبدو موظفاً هناك، وكانت قد رأته من زمان يحضر إلى البيت مطلع كل شهر وجدتها تعطيه مئة ليرة من دخل ابنها لـ «الأولاد»... سمعت جدتها عاماً بعد آخر تطارد ابنها أمجد لتقتطع من دخله رواتب لـ «أبناء عم» لم تعرف زين يوماً مدى قرابتهم له ولها بالضبط ولكن الحاجة تؤكد لها كلما سألتها بفضول: إنهم من «عظام الرقبة»[1]...

بهرتها الخنادق المليئة بـ «الشوندر»[2] خمري اللون كبير الحجم.. كانت قد شاهدت كوماً من التفاح في «الحقلة» في بلودان، ولكنها لم ترَ في حياتها هذه الكمية اللامتناهية من الشمندر السكري مكومةً في خندق يشبه مجرى نهر.. وراح الوالد يشرح لها وهي مذهولة.. ثم خطف انتباهها منظر صبي يعلّمه آخر الركوب على الدراجة الهوائية. إنه ابن «عمو أبو جميل» الذي يعمل ناطوراً في المعمل ويقيم فيه كما ذكر لها والدها. وحين تقدّمت منها أمه ودعتها للدخول وشرب العرقسوس، استأذنت والدها قائلة إنها ستبقى عند «خالتو أم جميل»، وستتركه لاجتماع العمل. ولم يعرف أمجد سر هذا السلوك الاجتماعي المفاجىء لزين لكنه أدرك أنها تدبّر شيئاً ما..

(١) الشوندر: الشمندر باللهجة الشامية.
(٢) «عظام الرقبة» أقارب جداً.

حين عاد من المعمل بعدما قضى أموراً ملحة بصفته عضواً منتدباً في مجلس الإدارة ومستشاراً قانونياً للشركة شاهد زين راكبة على دراجة جميل، والصبي ورفيقه يساعدانها على تعلّم قيادتها.. ثم وهي تسقط، لكنها تنهض بسرعة لتحاول من جديد.. وسارعت أم جميل نحوه معتذرة عما يدور، قائلة إنها حاولت منع زين ولم تقدر. طمأنها بابتسامة، سرعان ما اتسعت وهو يشاهد زين تقود الدراجة بإصرار، وتمضي بها طويلاً قبل أن تسقط من جديد، وتنهض، وتعيد الكرة وهي تتجه صوبه وفرحة جامحة انطلقت من وجهها الصغير النحيل، ومن عينيها الواسعتين كعيني أمها. كان دريد ولؤي قد رفضا تعليمها ركوب الدراجة حين طلبت إليهما كما شكت له زين، ثم إنه سمع الحاجة تنهرها وتحذرها من ذلك لأنها «بنت» خوفاً على شيء لم تحدده لها، وها هي قد أقنعت المسكين جميل ورفيقه بالتخلي لها عن الدراجة، وتعليمها أيضاً...

ضمّها إلى صدره في طريق العودة من المعمل وهي نائمة بسلام بالرغم من خدوش في ركبتها وكفيها التي أصيبت بها حين سقطت مراراً ولم تلاحظها!...

ضايقه أنه أيقظها حين حملها ليزورا قبل عودتهما إلى دمشق عمّتها بهيجة المقيمة في حمص حيث يعمل زوجها سائقاً لشاحنة في شركة الـ «آي. بي. سي.».. ونهضت زين من نومها مستثارة فهي تعشق عمتها بهيجة، وراحت تدور في حديقة بيتها وتطارد قططها العديدة وقد انتعشت كأنها بدأت نهارها للتو وتتحسس الدانتيل الأبيض على مساند المقاعد المخملية عند موضع اليدين وعلى ظهر المقعد.

استبْقتها عمّتها ودعتها لتنام عندها، وتحمّست زين وقبلت بينما رفض أمجد في البداية كي لا تغيب زين عن المدرسة والامتحانات على الأبواب، لكنها أقنعته بأن المعلمة لم تعد تدرّسهن جديداً وكل ما يفعلنه هو «مراجعة» ما سبق درسه وهي تحفظ كل شيء عن ظهر قلب. فوافق والدها ما دام سيعود إلى حمص على أية حال بعد يومين لحضور اجتماع في المعمل ويعيدها معه.

نامت منهكة وهي تعانق قطة ملعونة خمشتها بعد طول قبلات، وقبل أن تنام وجدت نفسها كالسندباد فوق جزيرة صغيرة طافية على وجه البحر والماء يحيط بها من كل جانب. وشيئاً فشيئاً صارت الجزيرة الجرداء تغرق بها ببطء في الماء ووعت أنها تقف فوق سلحفاة ضخمة تريد أن تنام في قاع البحر، فراحت تغرق معها وتغرق إلى قاع النوم!

* * *

استعارت بهيجة لزين ثوباً لائقاً من الجارة التي لها ابنة تقارب سنها سن زين، لترتديه بدلاً من سروالها «الكاوبوي»(١)، فالبنات في حمص لا يرتدين البنطلون. كما اشترت لها حذاء يرفعها كعبه «الكريب» الأبيض عن الأرض سنتيمترين لتضيف إلى طولها إصبعاً فقد تتحسن أحوالها قليلاً هي الصبيانية الشعر، السمراء التي تشبه ملايين البنات. لقد ورثت عن أمها تلك السمرة الداكنة ولم ترث أية حصّة من العيون الزرق أو الخضر والشعر الكستناوي المشقر كبنات عمّتيها وعمّها.. ولا يميزها شيء، لا شقرة ولا جمال ولا بشاعة ولا طول ولا قصر ولا عاهة ولا جاذبية خاصة.. وعسى أن يخصّها الله بالحظ، وإلا فمن أين لهذه المسكينة بعريس إلا إذا اشتراه لها والدها «صهر بيت»؟

وهكذا رافقت زين عمّتها إلى زيارة «صبحية» عرس.. دوماً تلتقي بعشرات النساء أينما تحركت مع عمتها. جلسات نساء بلا رجال عكس جلساتها مع والدها، وهي تستمتع بسحر الجلستين وتعشق الوجوه الجديدة التي تروي حكاياها. وجلست مع النسوة في ردهة الدار حيث «الأسكي»(٢) ما زالت قائمة في صدر المكان، ومقاعد العرس القشية ما زالت مكومة ولما يأت صاحبها ليتقاضى «الكراء» ويذهب بها. وتغامزت عمتها مع خالة العروس مشيرتين إلى باب مجاور وفهمت أن العريس ما زال في الداخل مع العروس والكل بانتظار أن يغادرها لتخرج إليهن.. دهشت زين، كم يتبدل شكل النساء داخل البيوت!.. في الخارج تبدو النساء كلهن مثل عمّتها، أطول قليلاً وأعرض أو أقصر قليلاً.. في البيوت يخلعن المعاطف السود الطويلة وتنبت لهن عيون وشعر وأذرع بضّة وسيقان جميلة وتصير لهن أصوات عالية، ثم يعدن وقت الخروج بقعة حبر سوداء على الرصيف في الشارع تطاردها ممحاة كبيرة.. خرجت العروس، جميلة كما تصف جدتها الجمال.. فارعة الطول، زرقاء العينين، شقراء، ممتلئة حتى السمنة، والأساور تزغرد في معصميها كمشيتها وصوتها المبنج بالزغاريد...

جلست العروس. أحاطت بها النسوة. قبلات. ضحكات ناعمة. همسات. عطور. عالم من العذوبة والرقة كادت زين تغطس في مباهجه وهي تتخيل أن العروس كانت إلى ما قبل دقائق هناك في الغرفة تقوم بأشياء غير لائقة على الفراش كما أفهمتها زميلتها في الصف.

---

(١) كما كان يُسمى بنطلون «الجينز» في ذلك الحين.

(٢) الأسكي: منصّة تزينها المصابيح الملونة والأزهار ويوضع عليها مقعدا العروسين.

لكن زين لاحظت آثار كدمات زرق تغطي الذراعين وآثار جرح كآثار عضة كلب أعلى منبت الثدي اختفت بقيته تحت الثوب. . كدمات كتلك التي غطت ذراعي جهينة مرة من زمان حين ضربتها بوران. خيل إليها أنها تشاهد دموعاً كالفضة معلّقة بين أهداب العروس. . سمعت زين المرأة الأخرى تهمس لعمتها فخورة بالكدمات على ذراعي ابنة أختها: «انظري. . لقد هيّجته. وجنّنته. . لو رأيت كدمات بطنها وظهرها وفخذيها لعرفت أنه مجنون بها. . ربطته ولن يتزوج عليها في أي يوم».

شعرت زين ببعض الذعر أهذا هو الزواج: كدمات وضربات وعضات ورابط ومربوط؟ لن تتزوج أبداً. . إنها زين العابدين لا زين. . . .

تحت أصبغة وجه العروس، وكحلها وحمرتها، لاحظت زين أنها صغيرة. فبالرغم من ضخامة حجمها فهي تشبه نائلة رفيقتها في المدرسة. وتشجعت واقتربت منها مقعدين فسمعت خلسةً حوارها مع صديقة لها.

سألتها الصديقة: لماذا ضربك هكذا؟

أجابت العروس هامسة: إنه لا يستمتع إلا هكذا. . الرجال يحبّون ذلك. . .

ـ وأنتِ؟

ـ عيب. . البنت المحترمة لا تفعل شيئاً غير التمنع فالاستسلام.

قرّرت زين أنها لا تريد حين تكبر أن تصير امرأة. . لا تريد أن تلد مثل فلك وتصرخ حتى يشق صوتها عنان السماء لتنجب هزار أو تموت مثل أمها هند.

لقد شاهدت في السينما مرة رجلاً يضم إليه حبيبته في حنان كأنها ابنته. . وهي تحتضنه كما لو كان طفلها. . يبدو أن ذلك لا يحدث إلا في الأفلام. . وخارج الشاشة البيضاء، كل شيء محموم ومسعور وافتراس وضرب وكدمات على الذراعين وفي القلب. . . .

للمرة الأولى في حياتها داخلها شيء من الكراهية الحذرة للرجال. . وحين اصطحبتها عمّتها بعد ذلك لزيارة «سيدي خالد»[1]، دعت إلى ربها ألاّ تحلّ بها مصيبة الزواج كي لا تصيبها الكدمات إذا ظل زوجها حياً وتدفن معه إذا مات!

* * *

صرخت الحاجة: أين زين؟

(١) سيدي خالد: قبر خالد بن الوليد في جامع يحمل اسمه في حمص.

بحثت عنها في كل مكان في البيت ولم تجدها. سمعت حركة مريبة داخل الغرفة المظلمة التي تدعوها بوران بـ «الشامبرنوار» حيث سجنتها قبل أيام ونسيت فيما يبدو إقفالها ثانية.

هل أخفت لها زين فيها ضفدعاً أو جرذاً كما أخفت في «الريحانية» البوم داخل الطنجرة وأرعبتها؟ فتحت باب الغرفة فوجدت زين محمرة الوجه مختبئة في الظلام. أخرجتها قائلة: ستختنقين. ما الذي تفعلينه هنا؟

ـ أختبىء كي لا يراني الله لأني خائفة.

ـ الله يراك أينما كنت ويعرف كل ما تفعلينه. ما الذي اقترفته الآن؟

رفضت زين الاعتراف، فنصحتها جدتها بأن تصفي حسابها معه تعالى مباشرةً.

سألتها زين: كيف؟

ـ بالصلاة له واستغفاره.

كانت زين قد بللت طبشورة المعلّمة بالماء فعاقبت الصف كله لأن المذنبة لم تعترف!

قالت لها جدتها: تعالي نلعب «هدّا الحمام. طار الحمام»[1]، وأخذتا تضعان أيديهما على الأرض وترددان العبارتين وهما تحركان أيديهما مقلدتين هبوط الحمام وتحليقه. وفجأة قالت الحاجة: «هدَّا الحمام. طار البيت». فانفجرت زين ضاحكة ونسيت ما كان يحزنها...

* * *

ذهبت زين إلى المدرسة مهمومة. فثمة شجرة برتقال ستنمو وتخرج من فمها لأنها ابتلعت بزرة رغم تحذير فضيلة لها من ذلك.

عادت زين من المدرسة سعيدة وقد نسيت كل شيء عن شجرة البرتقال، فهي تحمل معها «دفتر العلامات» وهي الأولى في صفها. ذلك سيُفرح والدها كثيراً وليس ثمة ما يُريحها كابتسامته لها. في زقاق الياسمين لم تمشِ زين. أخرجت جناحيها وانطلقت تطير بهما حتى الباب.

في البيت اختبأت زين داخل حبة الفستق المسحورة بانتظار حضور والدها لأنها لم تكن تريد أن تقول شيئاً عن «علاماتها» لأحد قبله.

* * *

(١) هدّا: أي حط على الأرض.

تفرح زين كلما عاد فصل الصيف واخترعت عمتها بهيجة لزوجها حجة وجاءت من حمص لسبب مهم أو مختلق.. فذلك يعني اصطحابها إلى حمام السوق والأراجيح و «الدويخات» إذا كان الوقت عيداً، وأكل صرة الأوزي من عند «أسدية» والبوظة في الجناح الخاص بالنساء عند «بكداش» والسينما والزيارات وغيرها من المباهج...

لم تنتقل الأسرة ذلك الصيف إلى بلودان للاصطياف اكراماً لحزن أم عامر وأسرتها. وبدأ موسم الزيارات بإعلان بهيجة عن اصطحاب زين إلى بيت أم علي لتلعب ومبجل وتداعب القط عنتر.. وحملت بهيجة «دفتر علامات» زين معها لتتباهى به أمام الناس، فقد كانت فخورة بأنها الأولى في صفها دون أن تعرف ما يعنيه ذلك بالضبط لأنها أُمِيّة.

أمام باب الخروج بدأ الهمس بين بهيجة وزوجة شقيقها فلك. تظاهرت زين بالانشغال عنهما بتأمل مقبض الباب المعدني المزخرف واللعب به وهي تسترق السمع.

سمعت حواراً ولم تفهم منه شيئاً إذ قالت عمتها بشهية مفرطة لسماع الجواب: هل صحيح أن معزز «قطعتها» يا لطيف... وما رأت دماً بعد الموعد المحدد بستة أسابيع؟

ـ ......

ـ من الذي عمل بها ذلك؟ هل هو معروف؟

ـ ......

ـ سمعت بالخبر في الحلبوني عند «بنت حمايي».. ما هذه المصيبة!..

ـ ......

ـ سمعت أنها كانت دوماً «فائرة» كالحليب المغلي يا لطيف.. لا تترك الصبيان من شرها ولا البنات..

ـ ......

ـ إذاً لم تعترف البنت بشيء؟

ـ ......

ـ لا أفهم كيف يرفضون إحضار الداية للتأكد من أن معزز «صاغ سليم».. يا لها من فضيحة!..

ـ ......

ـ سنذهب لزيارتهم وسأتظاهر بأنني لم أسمع شيئاً. .

لم تفهم زين ما الذي حدث لمعزز؟ وما هو الدم الذي كان يجب أن تراه منذ ستة أسابيع؟

فوجئت زين حين شاهدت معزز. . . لم تكن تشبه البنت الحلوة كما هي في ذاكرتها، أما مبجل التي تقاربها سناً فلم تكن في البيت بل عند جدتها. . بدت معزز لزين «كبيرة» وسلّمت على زين كأنها لا تعرفها، وحملت وعاء الغسيل وفيه كومة من الثياب المبتلة واتجهت به صوب السطح لنشره، وقد غطت رأسها بـ«إيشارب» أسود. . .

لحقت بها زين ولم تسمع معزز وقع خطاها. . وبدا وجهها نائياً.

حارت زين هل تتقدم منها وتكلمها أم تعود إلى «الديار» حيث عمتها. ومشت خطوات فصارت خلف عمود عريض انتشرت من خطافاته المعدنية الصدئة حبال الغسيل، وقد حجب زين شرشف أبيض منشور عن معزز وعن والدها «أبو علي» الذي شاهدته زين يخرج من باب السلم دون أنّ يراها، لاحقاً بابنته وفي عينيه نظرات حادة كسكين المطبخ. . لا تدري زين لماذا جمّدها الذعر حتى قبل أن يقول الأب شيئاً. . كانت كاليتامى والعميان تتواصل بالعالم الخارجي عبر الكهارب البشرية والكلمات اللامسموعة وإيقاع قلوب الآخرين وسيالات حضورهم. . وصعقها حضور والد معزز العدواني فجمدت في مكانها ولم تجد صوتاً تعلن به حضورها، أو ساقين تقفل بهما راجعة هاربة. . حدث ذلك كله في سرعة البرق.

تقدّم الأب من ابنته ومد ذراعيه صوبها قائلاً: من فعل بك هذا؟ قولي وإلا خنقتك.

قالت معزز بهدوء داخله الذعر وهي تعود إلى الوراء خطوات بطيئة مبتعدة عن مدى يديه: لا أحد. . لم يفعل بي أحد شيئاً. . إنها شائعات. . لم يمسّني مخلوق.

ـ أيتها «العاطلة» الكاذبة. . اعترفت أمك بأنها «فاتتك»[1] منذ ثلاثة أسابيع. . .

ـ صحيح. . ولكن لم يفعل بي أحد شيئاً. . لا أدري لماذا حدث ذلك.

ـ يا «عاطلة». . كيف تفعلين بنا ذلك؟ ماذا سيقول عنا الناس. . يا ربي ما هذه الفضيحة!؟

---

(١) فاتتك: يقصد العادة الشهرية.

وانقضّ عليها محاولاً الإمساك بعنقها بين يديه، فتحاشته ورجعت إلى الوراء بسرعة وفقدت توازنها وهوت عن السطح في الهواء وهي تطلق صرخة مرعبة، وزين ترى ذلك كله كما لو لم يكن حقيقياً، أو كما لو كان حقيقياً جداً ككوابيسها. وكما في كوابيسها عجزت عن الصراخ..

أسرع الأب إلى الحافة الطينية للسطح ونظر منها إلى تحت ثم ضرب رأسه بيديه كالمجنون وقفل راكضاً.

خرجت زين من خلف الشرشف الأبيض المنشور، وهي ترتجف وركبتاها لا تقويان على حمل جسدها الضئيل، ومشت صوب حافة السطح حيث سقطت معزز. لكن ساقيها كانتا ترتجفان تحتها كأنهما انفصلتا عن جسدها وصارت لهما حياة مستقلة، كساقي دجاجة ذُبحت للتو وما زالت تمشي.. وتعثرت بـ «لجن» الغسيل، فانقلب معها على الأرض وتوسخت الثياب المغسولة. وراحت زين تضرب الغسيل بيديها وحين نهضت داسته بحذائها الوسخ ونزلت السلم وهي تتعثر.. لم يلاحظها أحد، فقد كانوا مشغولين بمعزز المسكينة التي انتشر خبر سقوطها عن السطح وهي تنشر الغسيل. كما كانت أمها تولول تساعدها بهيجة في ذلك.. ولم يقل والدها شيئاً عما حدث بينهما على السطح، بل إنه كان يبكي بدموع حارة ويسأل الذين حوله: ماذا حدث؟ أين كانت؟ أحضروا الطبيب...

ذهلت زين وهي ترى والد معزز يبكي ويتساءل: «ماذا حدث؟» ويكرّرها. وأرادت أن تقول له إنه هو السبب، ويعرف جيداً ماذا حدث، لكنها لم تجد صوتها.. كانت جبانة وخجولة وتتعذب كثيراً لأنها كذلك، وتذكّرت كيف لم تجرؤ على القول إن لؤي سرق الـ ٢٥ ليرة وكان ذلك يجعلها تشعر بالخزي، فصارت ترتجف كقط مذعور سيرمون به من النافذة على سور دمشق.

قررت أن تخبرهم بما حدث ولكن صوتها خانها حين دخل عمها عبد الفتاح وزوجته ومجموعة من الجيران والجارة الداية وهم يتحدثون جميعاً في وقت واحد بصوت عالٍ. ولم تكن متأكدة هل قالت شيئاً مفككاً لم يسمعه أحد أم أنها اكتفت بالأنين كحيوان صغير جريح...

وسط الاحتفال الهمجي، شاهدت زين معزز وقد مددوها على صينية الأكل النحاسية كالخروف المحشي في سهرات التعزية واستعدوا لالتهامها.. عيناها شبه مفتوحتين وزجاجيتان كعيون الدمى، ولا تتحرك مثلها، وقد عاودها جمالها الفتّان مثلها. خافت زين منها لأنها تخاف كثيراً من الدمى ولا تعرف متى تدب فيها الحياة

وتطاردها في الغرفة، ومتى تقول شيئاً آخر مرعباً بصوت خشن غير «ماما»، ومتى تنزف من عيونها وآذانها وفتحات أنوفها، ومتى تركض كما في أحلامها وتسقط عن الشرفات والسطوح. .

قالت الداية إن معزز ما زالت حية وتريد أن تختلي بها ريثما يحضر المسعفون. ورحّب الجميع بهذا الاقتراح إلا الأب الذي قال إنه لا يسمح لأحد بالشكّ في عرضه. ولكن الجيران كانوا متلهفين إلى معرفة المزيد من الأخبار الشهيّة، فأخرجوه من الغرفة. وأرادت زين أن تبقى لكن عمّتها جرّتها من يدها. . .

خيّم صمت عميق حتى خرجت الداية وهي تزغرد وتطمئنهم. وتعجبت زين وهي ترى الفرح يشرق في الوجوه حتى إن أحداً لم يلاحظ رجال الإسعاف وهم يحملون معزز ويخرجون بها إلى المستشفى.

بدا لزين ما يدور حلماً طويلاً تتلهف لتستيقظ منه. ولم تعد تعرف حقاً أين تنتهي الأحلام وأين تبدأ الحقائق. . بدت الأشياء متداخلة، وشعرت بحاجة جامحة لكتابة هذا الكابوس كما حدث لها حين استيقظت في الليل وحيدة ومذعورة، وها هي في النهار محاطة بالزحام ومذعورة، بل أكثر ذعراً من أي وقت مضى. . وأخرجت من جيبها قلمها «الكوبيا» وأخذت تكتب به على الباب: أبو معزز هو الذي. . وتكررها مرات لأنها لا تعرف بعد كيف تكتب ما تريد قوله، وهي تبل القلم بلعابها كي يتحول خط قلم الكوبيا إلى حبر. زجرتها عمتها لأنها توسخ الباب وجرّتها من يدها ومضت بها. لاحظ الأب ما تفعله زين، وحين قرأ تلك الكتابة على الباب تأكد من أن البيت مسكون بالجان. . وزين أيضاً. وقرر أن يطلب من جارته بوران القيام بطقوس طرد الجان من بيته وزين معاً.

عادت بهيجة بزين إلى البيت الكبير واجتمع شمل النساء في صحن الدار وتم إبعاد البنات إلى صحن المطبخ وأدارت الجلسة بوران بحضور ماوية وجهينة التي صارت السيدة العسيري، وقد نادتها بوران عن «السطوح» وصار لقبها عندها: «جارة الرضا»، وفيحاء والحاجة وأم عامر وخزامى وقمر التي حضرت في زيارة إلى أهلها. وكانت الداية تزور بيوت الحي بيتاً بيتاً لتروي لهم أن معزز عذراء وغياب «العادة الشهرية» سببه سحر غيّور، والجميع يهنئون بعضهم بعضاً لأن البنت «صحيح ولد وفلتانة شوي» ولكنها ليست «عاطلة» وما زالت عذراء. .

حين جاء الدكتور مأمون رحّبت به النسوة وروى له عبد الفتاح حكاية الجيران. وبدا الضجر عليه حين سمع بحكاية الداية وانقطاع طمث الفتاة والتهم

الشائنة التي ترتبت على ذلك، فأخبرهم وهو الطبيب بما كان على أهل الفتاة وعليها أن يعرفوه وهو أن هذه الأمور قد تحدث بسبب المرض والإرهاق النفسي. بدت الدهشة على عبد الفتاح وزوجته، وقالت فيحاء إن الوعي الطبي منعدم، ولم يفهم أحد ما تعنيه.

وتدخلت فلك قائلة: الحمد لله لأنها سقطت بالصدفة عن السطح وهي تنشر الغسيل... ليعرف الناس براءتها...

قالت ماوية: رب ضارة نافعة.. لو لم تقع لما عرفنا الحقيقة...

وأضافت بوران: ولظللنا نشك في أخلاقها من أعمالها مع البنات قبل الصبيان...

ـ حرام أن تقولي ذلك.. إنها شائعات...

قالت الحاجة: «من عاب ابتلى يا دافع البلا».

تداخلت أصوات النساء: كنا سنعرف الحقيقة بعد تسعة أشهر...

ـ حتى لو لم يكبر بطنها لما اقتنعنا. كنا سنظن أن أمها أجهضتها سراً...

قالت بوران: اخفضوا أصواتكن كي لا تسمعنا زين والبنات...

أما مأمون فسألهن عما أصاب معزز من سقطتها تلك ولم يبدُ أن أحداً يبالي بذلك حقاً، لا بل دُهشن لسؤاله. تُرى، من يبالي بكسر أو كسرين في سلسلة الظهر ما دامت «البنت صاغ سليم»؟

لم تكن زين تسمعهن كما لم تكن تلعب مع البنات.. لقد شعرت برعدة برد تجتاح جسدها وبضعف شديد، وقررت أن تقول ذلك لعمتها بهيجة ولكنها لم تصل إليها ولا تدري لماذا تكومت على الأرض في الممشى بين صحن الدار الكبير قرب المدخل والصحن الصغير أمام مدخل المطبخ مغمضة العينين.. عاجزة عن المشي. لقد نوت في البداية الاستماع إلى ما يقوله الكبار ثم انهارت.. وحين وجدتها فهيمة على الأرض ترتجف سارعت فيحاء إلى نجدتها وقالت لهم: هذه الطفلة محمومة.. وتأسفت لأن شقيقها الدكتور مأمون ذهب قبل أن يراها.

أخذت زين ترتجف برداً في سريرها دون أن تقوى على كتابة الكابوس الذي شاهدته عن سقوط معزز، ورأسها يلتهب ناراً. وعندما جاء والدها، قبّلها كعادته ثم التفت إلى النسوة شبه مؤنّب قائلاً: زين محمومة. أين ميزان الحرارة؟

قالت بهيجة: لم يكن بها أي شيء.. إنها «مرعوبة» من سقوط معزز عن السطح وهي تنشر الغسيل لا أكثر. قبلها قضينا وقتاً ممتعاً في «الحارة».. لا أدري

ماذا دهاها؟ قالت الحاجة: «بالدوارة مثل الشرارة وبالبيت مثل الخيط»! مدللة و «نعنوعة» ويلبق لها.

حاولت الحاجة أن تضع لها الميزان في الموضع المزعج، فرفضت وعلا صراخها كما في إحدى نوبات شراستها. وطلب منهم أمجد وضعه في فمها.. ورفضت بهيجة خوفاً من أن تقضمه كما فعلت مرة بكوب الماء.. وضمّها الوالد إليه بحنان وهو يقول: لن تفعل.. ستعدني بأنها لن تقضمه.. أليس كذلك يا زين؟

رغم الحمى بذلت زين مجهوداً خارقاً كي يستقر الميزان في فمها كما لو على وسادة حريرية من ريش النعام.. لم تكن ترفض لوالدها طلباً.

ظلت محمومة أياماً ووالدها قلق يستدعي الأطباء ولا يرتاح لرأي... قال الطبيب الأول إنها الملاريا. قال الثاني: التيفوئيد. قال الثالث: الكوليرا. قالت البصارة: يجب طرد العفريت منها. قال مأمون بعد زرع الدم واجراء التحاليل اللازمة: إنها بحاجة إلى ما تدعوه العجائز بتبديل الجو و « شم الهواء»، أما الميكروب وفقر الدم فتفاصيل. فزين مصابة أولاً بصدمة عصبية هي السبب في تساقط شعرها لا الحمى كما تشيع العجائز. قصّوا شعرها الجميل الطويل كي لا يتساقط أكثر من جراء الصدمة العصبية أو من جراء الحمى لا فرق.

جاء الحلاق الذي شاهدته يختن دريد وقصّه لها. قصّوه قصيراً «على الزيرو»[1] كشعر المساجين، وفرحت زين بذلك.. لن تضعها بعد اليوم عمّتها بوران بين قدميها في الحمام وتوجعها وهي تحمّم لها شعرها وتمشطه بشدة ساخرة من احتجاجاتها قائلة عنها: «مدللة ومغنجة».. انتهى ذلك كله. من زمان وهي تتوسل إليهم أن يقصّوا لها شعرها لأنه يؤلمها ويعطّلها عن المدرسة ويهدر وقت دراستها في فك الضفائر وتمشيطها واعادة «تجديلها»، وهم يرفضون لأن لا شيء جميلاً فيها غيره برأي زوجة عمها فلك.

كانت ما تكاد تصحو غارقة في عرقها حتى ترى الكابوس المزعج عن معزز ويعاودها البرد والارتجاف فالحمى والهذيان.. حاولت أن تحدّث والدها عن كابوسها الذي يؤرقها وهي ترى عشرات المرات في اليوم معزز ووالدها يحاول خنقها وهي تسقط عن السطح هرباً منه، فلم تجد صوتها. لكنها كثيراً ما استيقظت وهي تهذي باسم معزز، وبهيجة والحاجة تتبادلان النظرات ولا تقولان شيئاً لأحد.

(١) على الزيرو: حلاقة شعر الرأس حتى الجلدة.

وحين تعافت زين بدت نحيلة وشاحبة، فقلق والدها عليها وقرر أن تصطحبها جدتها «لشم الهواء» في الريحانية. ونصحهم الدكتور مأمون بذلك قائلاً إن الهواء الطلق يناسب صحة الأطفال ويحفز الشهية. وتحمس والدها فهو يعرف مدى عشقها للأشجار والحيوانات ونهر بردى والسيران. . .

تحمست الحاجة للذهاب بها إلى الريحانية، وكان أمجد قد اشترى المزرعة هناك إكراماً لخاطر الحاجة التي ألّحت عليه أن يشتريها كي لا تذهب الأرض للغرباء، فذلك سيُحزن أبو موفق البساتنه المتمسك بها والمضطر للتخلي عنها بعدما تفاقم مرضه، ولم تعد أم موفق بقادرة على تدبير شؤونها وحيدة في «منفاها» ولتقدمها في السن هي أيضاً. وسيكون بوسع آل البساتنه النزول في ضيافتهم حين يحلو لهم أو حين تسمح صحة أبو موفق بذلك.

كانت الحاجة تعرف أن بقاءها هناك مع زين والخادمة لن يستمر أكثر من يوم أو يومين وستلحق بهم بوران وأولادها أو ماوية أو القبيلة بأكملها! ولم تنس زين أن تصطحب معها الدفتر السري لكوابيسها وأحلامها حيث ترسمها حيناً وتحاول كتابتها حيناً آخر، وقد وضعته في حقيبة كتبها المدرسية خوفاً من سقوطه بين يدي عمتها بوران التي ستحضر بالتأكيد وتقوم كعادتها بغارات دورية على ثيابها وخزانتها وحتى على كتبها وأوراقها. . وستصطحب معها دريد الذي يلعب معها بلطف، فقط حين يكونان وحيدين بل ويقبّلها أحياناً بسرعة عصفور حط وطار. . .

* * *

بالرغم من أن زين ألفت هذا المشهد منذ نعومة أظفارها كما ألفه والدها ولكنهما وقفا على قمة التل كعادتهما كلما ذهبا إلى الريحانية بالسيارة مباشرة بدل ركوب البوسطة إلى الهامة، ومن ثم المشي في الوادي على سكة القطار حتى الريحانية. كان المشهد جميلاً اخترق زين بفرحة هائلة لا تنضب كأنها تراه للمرة الأولى، حين ترجلت ووالدها من السيارة فوق التل المرتفع الأجرد بعدما تجاوزا الهامة إلى الصحراء وانعطفا إلى اليمين (دون أن يتابعا طريقهما صوب الديماس فميسلون). وهبطت بهما السيارة في درب ترابية لا توحي بأنها تقود إلى غير المزيد من التراب. . وها هي تقود إلى ما يشبه. . الجنة!

ففي القاع انشقت الصحراء عن واحة ترقص خضرة تحت الشمس ونهر بردى يركض في قاعها، رعاياه الأشجار الشاهقة، وينعطف مشكّلاً شبه جزيرة تتوسطها صخرة كبيرة عالية وقد شُيِّد فوقها بيت صغير. . وادٍ مدهش الخضرة والجمال يحفّه

من جانبه الآخر جبل أكثر ارتفاعاً من التلة التي وقفا عليها، تغيب فيه الخضرة تدريجياً فيبدو الوادي مثل جوهرة نفيسة مسحورة تخفيها الجبال الجرداء عن العيون الفضولية وتحميها كحرز صحراوي من حجر رملي. وأشار والدها إلى شبه الجزيرة الخضراء التي يتوسطها البيت قائلاً: هذه المزرعة صارت لك يا زين.. لقد اشتريتها من عمك أبو موفق البساتنه الذي سينتقل للإقامة في دمشق لمرضه، ولكنه وزوجته سيحضران إلى البيت حينما يقدران أو يرغبان في ذلك.

انحدرا في درب ترابية وزين تتحرق للوصول إلى النهر.

كانت تفوح من الخضرة ذلك النهار رائحة منعشة ندية، وتركض أصوات الحشرات التي تطير ملونة جميلة تقفز بينها الجنادب كلما مرّا بها، وتنط الضفادع وتركض الحراذين مبتعدة دهشة لحضور الطفيليين إلى هذا المكان غير المطروق.. ومرت زين بالعديد من أشجار الجوز الباسقة وانتقت شجرة وقررت كعادتها أن تحفر اسمها عليها فيما بعد لأنها ملساء وجميلة اللون حتى لا تبقى شجرة في الوادي تحبها لا تحمل توقيعها. وشاهدت حجراً كالجرن تحت إحدى الأشجار المجاورة لسكة القطار وقد تلوّن بالبني الضارب إلى الحمرة، وأدركت أن صبياً ما يكسر الجوز بالحجر على طرف الجرن وهي تعرف جيداً اللون الذي تخلّفه قشرة الجوزة الخضراء على الأيدي والحجر.. ولطالما أدهشها أن القشرة زاهية الخضرة لكن اللون الذي تخلّفه على الأصابع داكن وقريب من السواد...

نسيت كل شيء عن كوابيسها، وراحت تقفز مرحة إلى جانب والدها في المنحدر بعدما تجاوزا سكة القطار التي تتوسط الوادي. وحين مرّا من فوقها صوب الطرف الثاني للمنحدر قال لها والدها: هنا تبدأ حدود مزرعتنا الصغيرة.. وتابعا الانحدار قليلاً حتى مرّا بجدول صغير من تلك العديدة التي تنبع من أرضهما وتعيش حوالى مائة متر ريثما تصب في بردى على مرمى حجر.. يعلوه البيت الصغير فوق الصخرة، وشرفته التي تطل على النهر من علٍ... وعلى الجسر الخشبي نصف المهترىء المعلّق فوق بردى إلى ضفته الأخرى.. وعلى مسطرة عملاقة مرقمة مثبتة في مجرى النهر عمودياً لقياس ارتفاع مياهه كما قال أمجد لزين حين سألته عنها.

استقبلتهما الخالة أم موفق والحاجة التي كانت قد سبقتهما مع الخادمة لترتيب المكان وتجهيز «الفرشات»[1] للنوم.. والتهمت زين وقت الغداء كبداً نيئاً تباهت

(١) الفرشات: فراش يوضع على الأرض فوق بساط بدل السرير.

أم موفق بأنه لا يزال حاراً من الذبيحة، مع بصلة كبيرة ورغيف مرقوق خبزته أم موفق أمامهما في التنور قرب النبع. وهدهدها صوت النهر وصوت النسيم الراكض عبر الأشجار، فنامت بقية النهار حتى صباح اليوم التالي، وصحت على صوت والدها الجميل وهو يغني: «مرّيت على بيت الحبايب». أنصتت بهدوء مستمتعة حتى صمت، فخرجت إليه وشاهدته يتنفس ملء رئتيه كأن رئته والفضاء صارا واحداً وقد رفع ذراعيه كمن يتأهب لعناق تلك السماء المتدفقة زرقةً حتى ذرى الأشجار...

غسلت زين وجهها فشاهدته جيداً في المرآة للمرة الأولى منذ سقطت فريسة الحمى.. بدت كالصبي الأقرع بشعرها القصير جداً الأكثر قصراً من شعر والدها وعمها وأولاد عمتيها وبسروالها «الكاوبوي» الذي تتدلى من زناره «الموسى» الصغيرة الخاصة باللعب في حقول بلودان... ولم يضايقها أن تبدو كالصبي بل على العكس من ذلك ملأها بغبطة خاصة، وقالت لنفسها: ثم إن الفرق ليس كبيراً حقاً.. «قطعة لحم» زائدة لا أكثر.. وناداها والدها مدللاً كما يفعل دائماً فخوراً ببعض طباعها «الصبيانية»: تعالي يا «حسن صبي».. فقالت له ضاحكة: أنا صبي يستطيع إنجاب الصبيان... وضحك لجوابها.

وخرجا لاكتشاف المزرعة معاً بالرغم من أنهما يعرفان عن ظهر قلب كل شجرة فيها وكل حجر وكل بومة. مشيا على ضفة النهر على ما في ذلك من صعوبة لأن الأشجار الكثيفة والأعشاب والأشواك والنباتات الللبلابية المتداخلة بالأغصان كانت تجعل ذلك شبه مستحيل وأكثر متعة في نظر زين... مشيا طويلاً حتى وصلا إلى عين الماء. أخذت زين تتهجأ ما هو مكتوب على الرخامة: «كم مرّ أمثالنا على هذه العين، ثم ذهبوا في غمضة عين»، ولم تفهم بالضبط ما تعنيه تلك الكلمات لكنها اكتأبت وتعجبت لماذا يصرّ والدها في السيران على التقاط صور الأسرة أمامها كل مرة. ثم مضيا إلى تحت الدلبة، حيث الأشجار الكثة تحجب الشمس وضوء النهار فيبدو الوقت غروباً أو شروقاً طوال الوقت...

كانت زين مغرمة بشجرة الدلب العملاقة داكنة الألوان التي تمتطي النهر كأن جذورها مغروسة في قلب الماء المظلم في القاع.. وأغصانها المسكونة بالبوم والطيور والفراشات والسناجيب، وبالأفاعي كما يدّعي لؤي لتخويفها، كأنها مدينة أو مغارة خضراء بجدران من الأوراق الحية، والمياه تهدر في ذلك الموقع هديراً مرعباً وتدور أمام الضفة بسرعة تبهر خيال زين. رمت في «الدوار» بقضيب فدار على وجه الماء بسرعة خارقة ثم صارت المياه تجره إلى الأسفل وهي تدور به واختفى

خلال لحظات ولم يطف ثانية على وجه الماء.. حين لحقت بهما الخالة أم موفق فيما بعد لم تسأم من تكرار حكاية جني الدوار المقيم في هذه البقعة الخطرة من النهر، وكم من الأولاد حاولوا السباحة هناك فابتلعهم جني الدوار الذي يقطن شجرة الدلب الكبيرة.. كانت تجد في ذلك واجباً كي لا يتهور طفل أو يتسلق الشجرة مثلما فعلت زين (إكراماً للبومة) ويسقط عنها.

قضت زين أسبوعاً مدهشاً مع والدها الذي بقي معها معلناً أنه هو أيضاً بحاجة إلى إجازة. وفي تلك المزرعة فاحشة الخصوبة، المرمية على طرف الصحراء كواحة تفور بالماء والخضرة والطراوة، استعادت زين عافيتها بين السلاطعين والسحالي وأنوف الأرانب المرتجفة والقطط البرية والجراد أحمر الأجنحة وأزرقها والأفاعي والعقارب معتدلة الحجم، وتسلقت أشجار الجوز وقطفت ما تيسر وكسرته بالحجر على طرف الصخرة ووسخت أصابعها كما يحلو لها، وانزلقت على أغصان الصفصاف ونزلت إلى بركة الري مستعرضة مهارتها في السباحة أمام جدتها، وطاردت ضفادع النبع في الساقية الصغيرة، واستمتعت بغناء والدها الجميل ليلاً حين تفوح رائحة الكاز من القنديل ويتقاطر البعوض والفراشات صوبه، ويتم الاستغناء عنه ساعة تنشقّ الأشجار عن القمر الذي استحم للتو في بركة من الفضة المصهورة وخيّل إلى زين في بعض لحظات تأججه·أنه بئر في السماء مملوءة بالماس والضياء... وامتلأ قلبها بالحب نحو النجوم المدهشة مفترسة الجمال وهي تحدق فيها حين تستلقي على السطح إلى جانب جدتها، وأسفت لأن أبو موفق يتعالج في دمشق وليس هنا لتحدّق بالنجوم عبر منظاره، وراحت تحصيها رغم تحذيرات الحاجة من نمو الثآليل على أصابع يدها إذا فعلت، منصتة إلى أصوات الليل الغامضة ونداء كائناته التي ترى الكوابيس مثلها، ولم ترَ إلا أحلاماً لطيفة في نهارات مضمّخة بغناء والدها العذب ومغموسة في الضوء الأخضر للشمس وسط الأجمات ذات الكهارب الحنونة.. وشعرت بأنها تتواصل بسعادة مع الأشجار والعصافير والحراذين والضفادع والقطط. وحتى حين مرت بهما أفعى لم تخف منها وأسعدها أن أحداً لم يقتلها وأن جدتها قالت للأفعى بهدوء: «سيري يا مباركة». واستطاعت زين أن تطرح على والدها ثانيةً الأسئلة المحرجة كلها التي كانت تتوق لسماع أجوبة واضحة ومبسطة لها بما في ذلك سؤاله من جديد عن شكل الله تعالى، فأعاد قوله لها إن الله نور السموات والأرض.. إلى آخر الآية، وجعلها تحفظ تلك الآية كما طلب منها أن تعيدها على نفسها كلما خطر لها هذا السؤال. واكتملت فرحتها حين أعطاها والدها

حقيبة كتب بنية اللون كهدية، وكانت مليئة بكتب للصغار بالفرنسية المبسّطة. وحارت زين بين تلك المباهج، في أي الدفاتر تقرأ: دفتر الطبيعة أم دفتر الإنسان؟ . . .

تأملها أمجد مسروراً. . لقد استعادت زين عافيتها خلال أيام. هكذا هي منذ طفولتها: تمرض حتى يخيّل إليه أنها ستموت ثم تشفى بسرعة استثنائية كأنها لم تكن على حافة الانهيار قبل ساعات. حين أطلق القطار صفيره فجراً، شاهدها تنهض من فراشها وتركض بثياب النوم حافية فوق التراب والحصى كي لا تفوتها رؤيته ثم تعود لترتدي سروالها «الكاوبوي» خلسة متوهمة أن أحداً لم يرها!. . وأدرك أنها استعادت مزاجها الطبيعي الجامح للاكتشاف وعافيتها فاقترح عليها زيارة الوادي والذهاب إلى قرية «الجديدة»[1] القريبة. اقترحت أن يلحقا بنهر بردى حتى «عين الخضرا» بل حتى نبع بردى. . قال لها والدها بالتركية: «يا واش يا واش». . لم تلاحظهما الجدة حين مضيا فقد كانت مشغولة بتحضير تراب حديقتها الخاصة لصق البيت تمهيداً لزرعه بالحبق والشب الظريف والهرجاية والمضعف المستحي والريحان، هذا ناهيك عن حوضها المفضّل الذي لا تزرع فيه إلا الأزهار البيض كالفل والياسمين وغرسات الجاردينيا.

سارا وسط الأجمات الكثيفة، وسعادة خارقة تنبع من حواسها. . . سعادة لم تعرفها إلا على شاطىء البحر وأمها تناولها الصدفة لتنصت إليها. صوت الريح وسط الأشجار يذكّرها بحديث الصدفة. . عند المنعطف التقيا بأحد مسؤولي معمل الكهرباء القريب الذي حيّا والدها بحرارة: «الله معك يا بيك. . الله يسلّم لك ها المحروس». . .

وضحكا. . . . قال لها والدها: لقد ظنّك ابني الصبي. . .

لم تفرح ولم تحزن. فقط تساءلت ما الفرق؟ ولماذا يحدث ذلك للبنات من أجل قطعة لحمية لا تُذكر؟ تذكّرت معزز دون أن تدري لماذا، وشاهدتها تتراجع هاربة حتى حافة السطح وتهوي. . . هل كانت تقصد ذلك؟ هل دفعها الخوف من والدها إلى. . . أن ترمي بنفسها عن السطح؟ أم أنها هربت مذعورة من الأفعى على الغصن فسقطت في فم التمساح كما في القصة التي رواها لها والدها ليلاً؟ اكفهرّ وجهها وهي تفكّر بالقصة وبمعزز معاً، ولاحظ والدها وجومها فسألها: هل ضايقك

---

(١) الجديدة: جديدة الوادي.

أنه ظنّك صبياً؟. . تذكري دائماً أنك صبي قادر على انجاب الصبيان وهو ما يعجز عنه لؤي ودريد. . .

تذكّرت أنها شاهدت العلقة على ظهر عمتها ماوية حين كانت مريضة وفصدتها بوران سراً عن الدكتور مأمون الذي يرفض علاجاً كهذا. . سارعت زين إلى «اللاروس» حيث اكتشفت أن العلقة أنثى وذكر في آنٍ. . وهي تريد أن تكون مثلها. . .

قالت لوالدها: أريد أن أكون علقة. . .

لم يفهم ما تعنيه وسألها ضاحكاً: كي تمصّي دم الصبيان؟

أرادت أن تقول له: لأنني بنت وصبي في آنٍ. لكنها سمعت صفير القطار فصمتت بانتظار مروره بعدما نزلت عن حديد أحد قضبان السكة الذي كانت تمشي فوقه طوال الوقت محافظة على توازنها. حين يمر القطار بهديره وصفيره في «البوغاظ»[1]، تتأمله زين مبهورة وهو يركض بالوجوه خلف النوافذ بسرعة خارقة. . تلوّح بيدها لهم فيرد بعضهم التحية، وتظل تهز بيدها حتى بعد أن يختفي القطار. . . تغصّ قليلاً: كم مروا بسرعة، وما كادت تتبين وجوههم حتى غابوا. . دوماً ترى وجه أمها هكذا في الأحلام والذاكرة. . لا تكاد تتبينه حتى يغطس من جديد في الظلام. . .

في قرية «الجديدة» أدهشها اتساع النهر وبطئه حتى أن المتنزهين كانوا يخوضون فيه على عرضه، فشمّرت سِروالها عن ساقيها حتى الركبتين وفعلت مثلهم. . ورشت والدها بالماء، ففعل مثلها، وعاد طفلاً في الثامنة من عمره مثلها. ولمحه أحد المحامين المتمرنين عنده في مكتبه ولم يصدق عينيه. . وفي طريق العودة سألت والدها: أهو النهر ذاته حقاً؟ هل بردى نهر واحد؟

ـ ما هذا السؤال الغريب؟

ـ ما هذا النهر الغريب؟

لم تعرف كيف تصوغ دهشتها. . كيف يكون ضحلاً وعريضاً وهادئاً في موضع، ثم يصير شلالاً يولّد الكهرباء كما شرح لها والدها، فينحدر بعد ذلك بقوة جارفة أمام أرضهم عميقاً وهادراً ويصير دواراً عند الدلبة يقطنه جني؟ فهم والدها ما تعنيه وقال لنفسه: حقاً إن بردى نهر غريب، يشبهنا نحن الشوام، يركض جامعاً

(١) البوغاظ: مضيق يشبه نفقاً بلا سقف بين تلّين.

الكسل والجموح والعلم والخرافة والسيران والموت!

ولكنه عاد يسألها كي لا ينقطع حبل الحوار: ما الغرابة في بردى؟

قالت: إنه مثل الحزورة. كبير وصغير. ضعيف وقوي. بطيء وسريع. . .

ضحك والدها وقال: النهر مثل البشر يا زين. . لا تنسي ذلك. . إذا زعلت من عمتك بوران لا تقولي إنها شريرة. حاولي أن تفهمي مسار سلوكها من منبعه إلى مصبّه. . ثم إن منابع البشر غير محددة، ومصبّاتهم كذلك. . .

كان يحدّثها منذ موت أمها كما لو أنها كبيرة السن، وهي غالباً لا تفهم شيئاً، ولكن كلماته التي لا تفهمها تخلّف فيها باستمرار أثراً عميقاً غامضاً تختزنه في قاعها. . كصوت أغنية آتية من قلب الليل من بعيد لا تفهم ما تقوله كلماتها لكنها تحمل إليها رسالة ما. . . أو كقطار عبرتها وجوه نوافذه سريعاً لكنها خلّفت فيها أثراً ما مبهماً. . .

***

بعد الغداء بدأت زين تلحّ: أريد السباحة في النهر. . أريد السباحة في النهر. . كانت قد سبحت في البركة الكبيرة للسقاية التي نظفها المُرابع مرزوق جيداً قبل حضور «البيك»، كاعتذار عن غيابه لأنه ذاهب إلى قرية «تل منين» لإحضار العروس. . . عادت «تنق» وتكرر: أريد السباحة في النهر. لم يجبها أحد إذ كانوا قد غرقوا في قيلولتهم جلوساً.

ولكن النهر كان يناديها. . بركضه السريع. بالشهية إلى المغامرة. . جمحت تلك النار المشتعلة في قلبها وتأججت والجدة مسترخية على المصطبة الخشبية التي شُيّدت كشرفةٍ فوق النهر بمتر واحد، تغمرها المياه شتاء حين يرتفع منسوب الماء ولا بدّ من إصلاحها مع مطلع كل صيف. . . لكن جمال تلك الجلسة كان يُنسي أم موفق النفقات السنوية لإصلاحها الذي لم يعد المرابع مرزوق يرضى القيام به مجاناً. ووسط تلك الشرفة الشبيهة بقارب خشبي معلّق فوق النهر كانت الخالة أم موفق تدخن نارجيلتها مستمتعة والخادمة فهيمة تحمل الصحون وتمضي بها إلى مكان واطىء ملاصق للماء لتنظيفها، وكانت قد حملت ثلاثة أحجار كبيرة ركّزتها على ضفة النهر كحوض ووضعت فيها البطيخة كي تبرد وتؤكل بعد القيلولة، والأب يتأمل وجه ابنته (كم تزداد شبهاً بأمها كلما كبرت. . ولكن هند كانت تبدو شاحبة وهادئة حتى حين تغضب مني. زين شعلة من نار والمهم ألا تحرق نفسها. . وألا يقتلها خجلها وانطوائيتها. ثمة لحظات أشعر فيها أنني لا أعرفها حقاً).

عادت زين تلح: أريد السباحة في النهر.. لم يجبها أحد فقد أبحروا بعيداً في نهر قيلولة بين النوم واليقظة.. وخلعت زين سروالها وقميصها، وكانت ترتدي زي السباحة تحتهما. ويظهر أن الخالة أم موفق استيقظت فجأة فزجرتها: اخجلي يا بنت. البنت المهذبة «المربابة»[1] لا تخلع ثيابها أمام أحد...

قالت زين بهدوء: حسناً. في المرة القادمة سأخلع ثيابي في البيت! وقفزت إلى النهر. وحينما لسعها الماء البارد وعت أنها لم تسبح من قبل في مياه حية متحركة لا كمياه البرك الميتة، وسمعت ذلك الصوت يقول لها: «لا تخافي». لسعها برد الماء القارس فكادت تعجز عن تحريك جسدها الموهن وأحسّت كما لو أنها بعوضة مرشوشة «بطساسة» الـ «د. د. ت»[2] والماء يجرفها والنهر يهدر في أذنيها متسرباً إلى فمها وأنفها، وكادت تتلاشى ذعراً حين غاب عن بصرها والدها والشرفة الخشبية خلف المنعطف.. ثم تماسكت. وأغمضت عينيها كي لا تزداد هلعاً والأشجار على الضفتين تركض إلى الوراء بسرعة فخافت أكثر وفتحتهما، وصارت تسبح داخل الزلزال المائي. وشيئاً فشيئاً أخذت تعلو وتهبط مع التيار كموجة منسجمة مع الإيقاع الجامح حولها. ووعت أهمية أن تسترجع كل ما قاله لها أستاذ السباحة من دروس في بلودان وأخذت تنفّذها قدر الإمكان، ولكن سرعة الأشجار في الركض أدهشتها. كادت تستمتع حين تيقنت من قدرتها على العوم وسط هذا الجنون المائي المزبد ولكنها تذكرت أن الدوار لم يعد بعيداً، فأنشب الذعر أصابعه المعدنية في قلبها وقامت بانعطافة مفاجئة صوب الضفة لتغادر الماء الذي ظل يجرفها وكاد يقلبها.. وراحت تساير الماء بمقدارٍ يسمح لها بألا تغرق ولكنها تمضي في وجهتها نحو الضفة. وحين حالفها الحظ بغصن صفصافة تدلّى فوق الماء، قفزت مثل التمساح الصغير لتمسك به وساقاها متدليتان في الماء حيث صارت تستعين بيديها وهي تسبح برجليها حتى غادرت بجسدها الصغير نهر الهياج إلى الضفة الأقل جموحاً وتسلقت الحافة المرتفعة نوعاً ما وانطرحت على الأعشاب والتراب.

أدهشتها تلك النار من الدفء التي شبّت في جسدها حين غادرت الماء البارد، كأن مساماتها استيقظت مرة واحدة وتضوعت بالجمر... كانت تجهل أن الماء كاوي البرودة يتحول في الجسد فيما بعد إلى حس مذهل بالدفء والانتعاش حين تغادره.. شعرت بأنها تكتشف شيئاً لم تكن تعرفه في جسدها... وضحكت ملء

---

(١) المربابة: حسنة التربية.

(٢) طسّاسة الـ د. د. ت.: مضخة مليئة بسائل يُرش به البعوض لقتله.

قلبها وهي ترى والدها الذي لحق بها في الماء وهو يغادر النهر وقد ابتلت ثيابه وفاض وجهه بالقلق.. وقالت وهي تداعبه: الرجال المهذبون لا يسبحون بثيابهم. وقهقها معاً وقال لها إنه فخور بها لكنه لا يريدها أن تتهور ويفضّل أن تسبح وهو غير نائم! لقد أصابه ما اقترفته بالذعر، لكنه أخفى ذلك عنها كي لا يثبط عزيمتها. يخشى عليها من التهور لكنه يخشى عليها أكثر من الجبن.

وقت الغروب، حين يضيق صدر أمجد دائماً.. تحاول زين أن تسري عنه بعدما قال لها ذلك مرة ولم تنسه، وادّعى أن المخلوقات كلها كذلك، ولذا يتعالى صوت الحيوانات وخوارها في المزارع المجاورة وقت الغروب.. تطلب منه أن يغني لها ليتلهى عن انزعاجه المسائي، فينشد سيمفونيته المعتادة: أغنية تركية كلها آهات، «أمان جانم أمان»، فأغنية فرنسية «روڤيان مون آمور»[1]، قال لها إن مطرباً يدعى «تينو روسي» كان يغنيها في باريس، فأغنية لعبده الحامولي وأخرى مستوحاة من الكانكان الفرنسي يتبعها بـ «أنا هويت» وأخيراً ينشد «موطني.. موطني..» كمن تعب من بقية الأغاني، وتشاركه زين إنشادها بفرح...

ولم تعد تنام في الثامنة كما تقضي قوانين عمتها بوران، بل إنها قالت لجدتها حين نصحتها بالمحافظة على هذه العادة الحسنة.. «لن أنام.. لن أنام»، وصارت تنشدها على أنغام مقطع من أغنية موطني يقول: «لا نريد لا نريد.. ذلنا المؤبدا وعيشنا المنكدا.. لا نريد بل نعيد مجدنا التليد».. مجدنا التليد.. تُرى ما معنى ذلك؟ زنوبيا ملكة تدمر وأليسار ملكة صور وبلقيس ملكة اليمن وشجرة الدر ملكة مصر وبقية الملكات كانت أمها تحدّثها عنهن، ولم تنس بل أخذت تستفسر عنهن منه فيما بعد، فذكّرها بأن مجدها يكمن أيضاً في خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي وطارق بن زياد.. وأسماء أخرى لم تحفظها بعد رغم تأنيب والدها لها....

في الليل كان الحر خانقاً فنامت الأسرة على السطح وزين تحدّق في النجوم، وتتساءل أين تنتهي؟ وتنصت إلى حكايا والدها وتضرب بعوضة هاجمتها... ثم جاءت أمها، فمضت معها بعيداً إلى شاطىء «الطابيات» وألصقت الصدفة بأذنها فقالت لها أمها: اكتبي على الرمل ما تقوله الصدفة.. وصارت تفهم بعض ما تقوله وتمليه من ألوان وروائح وأصوات.. مزيج غامض من الهيولى الكونية الراكضة المتأججة... وهي تكتب على الرمل بجناح طويل نبت لها... وحين استيقظت مع الفجر والكل بعد نيام، عادت بنتاً صغيرة بلا أجنحة، سمراء قصيرة ونصف بشعة،

(١) أي: عد يا حبي.

بومة لا يحبها أحد في الدنيا كما يحبها والدها النائم الذي توهمته للوهلة الأولى ميتاً. . . وماذا لو مات؟ للمرة الأولى تخطر في بالها هذه الفكرة المروّعة. . إنه بالطبع لا يموت فهو والدها القوي الجميل، والدها الوحيد. . ولكن الخاطر ملأها ذعراً، فتسللت من السطح إلى دفترها في الغرفة وكتبت على ورقة: أنا خائفة، وأخطأت في تهجئة كلمة «خائفة». ثم طوت الورقة، ولم تدرِ أين تخفيها، ولم تدرِ كذلك لماذا وضعتها داخل زجاجة «سينالكو» فارغة ثم أغلقتها جيداً بفلينة زجاجة الخل، ثم مشت نحو الشرفة ورمت الزجاجة في النهر. . وعادت إلى مكانها على السطح ووالدها نائم، وتمددت من جديد نصف صاحية نصف حالمة وهي تتخيل صبياً صغيراً تجهله يشبه «صبي السقف» في البيت الكبير يطارد الزجاجة في الماء أو تستقر على الضفة أمامه فيفتحها ويقرأ الورقة. . وغمرها سلام عجيب وهي تتخيله يقرأها. . ونامت من جديد مبتهجة دون أن تحصي الخرفان إلى أن لسعتها شمس الصباح.

رافقت زين والدها إلى الطرف الآخر من الوادي، صوب الهامة فدمر. . . كانت المزرعة في «الريحانية» تتوسط «الجديدة» و«عين الخضرا» من ناحية، و «الهامة» و «دمر» من الناحية الأخرى. . . زين تغني مع والدها بسعادة غامرة، في النفق داكن الخضرة حيث سكة القطار، النشيد السوري:

حماة الديار عليكم سلام   أبت أن تذل النفوس الكرام
عرين العروبة بيت حرام   وعرش الشموس حمى لا يضام

ورفعا عقيرتهما بالغناء حين بلغا:

نفوس أباة وماض مجيد   وروح الأضاحي رقيب عتيد
فمنا الوليد ومنا الرشيد   فلمَ لا نسود ولم لا نشيد

وقطعا غناءهما حين مر بهما في الدرب بعض العمال في ثياب موسخة، وقال لها والدها إنهم عمال المدبغة القريبة. وبعدما حيّوه بحرارة وردّ عليهم بمثلها دعوا له بسلامة «المحروس» وقد ظنوا زين بشعرها الحليق صبياً. . . كان بعض أفراد الأسرة يدللها باسم «زنزون» إلا والدها الذي آثر أن يدللها باسم «حسن صبي».

قالت لوالدها فجأة: سأسبح اليوم في النهر قبل تدريسي لفهيمة.

سألها متجاهلاً حديث النهر: هل تتقدم في دروسها أم «فالج لا تعالج»؟ هل ستتعلّم القراءة والكتابة؟

أجابت: القراءة ربما أما الكتابة فمستحيل مع غبائها. لكنني سأظل أحاول!

كان مسروراً بتلك «الأريحية» من زين نحو فهيمة التي حلّت محل جهينة عقب زواجها من عيدو بعدما ألفت الأسرة الكبيرة وجود خادمة في البيت (كم هي طفلة طريفة.. تعشق وضّاح طفل خزامى وتدلّله لكنها تصير شرسة إذا دللته أنا! تحب تعليم الأطفال الأصغر سناً منها القراءة لكنها تغار عليهم إذا فعل ذلك غيرها! تحبّني بكثير من الرغبة في التملّك كالناس جميعاً لكنها لا تبذل جهداً يذكر لإخفاء حقيقتها وهذا بالذات ما يجعل صحبتها مسلية. هل الأطفال كلهم مثلها أم أنني أخترع لها المزايا لأنها ابنتي؟).

قالت زين: جهينة كانت ذكية وشاطرة. أما فهيمة فبهيمة! وقد تصير في العام المقبل قادرة على قراءة الأبجدية! ضحك أمجد وتابعت زين: لقد غارت منها عمتو بوران وطلبت مني أن أعلّمها الفرنسية، فوعدتها بذلك مقابل أن أنام في العاشرة ليلاً....

ـ هل قبلتْ؟

ـ قالت إنها تريد أن تفكّر.

ـ وإذا لم ترضَ؟

ـ سأطلب منها ربع ليرة في الساعة على الدرس...

ضحك والدها في سره وقال لها: الكلام عن النقود عيب. المال هو أتفه ما في الدنيا.. المهمّ أن نفعل شيئاً يفيد الناس.. انظري إلى عمّك عبد الفتاح.. إنه ينفق على أسرة رفيق طفولته أبو عزت منذ حوالى عشرة أعوام... منذ مات الرجل في سجون الانتداب الفرنسي قبل الاستقلال... وهو يفعل ذلك رغم انتقادات زوجة عمك فلك له. إنه يحمل إليها اللحم والخضار والفواكه مرة كل أسبوع مساء الخميس ويقرع بابها ويرفض الدخول ويترك لها السلة أمام الباب.

لم تكن زين تجهل ذلك... منذ صغرها وهي ترى عمّها عبد الفتاح يحمل الطعام والفاكهة في سلّتين، سلة للبيت وسلة لأم عزت.. ويضعها لها خلف الباب ولا يدوس بقدمه عتبة البيت مقسماً ألا يفعل ذلك إلا بعد أن يصير سن عزت ثمانية عشر عاماً كما تردد جدتها.. ولطالما رافقته إلى هناك. تذكّرت أنه عمّها ذاته من رمى بالقطة في النهر. هل حدث ذلك حقاً أم أنها كانت واهمة وكان حلماً؟ لم تعد متأكدة.. لا.. لقد حدث ذلك.. لم يحدث. حدث. لم يحدث.

لا تدري لماذا حدّقت في بردى عبر الأشجار.. إنه شلال بردى بكل نقاء

مياهه في موضع توليد الكهرباء، وبعدها بمئات الأمتار يمر بمعمل دباغة الجلود ويصير مثل نهر «قليط» كما تدعوه جدتها بقرفٍ كلما مرّت بالمعمل. إنه النهر ذاته: نظيف ووسخ. لا تدري لماذا يذكّرها عمّها بأحوال النهر ولا كيف تصيغ هذا الحس الغامض بالتشابه لتقوله لوالدها.. أو حتى لتكتبه.. ولماذا تكتبه؟ لأنها حين تكتب تفهم قليلاً وترى الأشياء على نحو أكثر وضوحاً.. وغموضاً... وازدحمت أفكارها وأظلمت ثم تناثرت حين شاهدت أرنباً لطيفاً يركض وخطفت قلبها نظرته الحمراء وأذناه المرتجفتان.. ولحقت به ورمت نفسها فوقه وأخطأته وجرحت يدها ولم تبالِ. ووعدها والدها بمرافقتها إلى بيت العم حاجور أعلى التلة حيث مزرعته الكبيرة لتربية الأرانب والدواجن.

* * *

أغلقت زين قبضة يدها ورسمت عليها بالأقلام الملوّنة وجهاً. صارت تفتح يدها وتغلقها فتتبدل ملامح الوجه بطريقة أدهشتها. تأملها والدها طويلاً وتساءل: تُرى من رسمني أنا على يده؟ وهل يتسلى بي كما تتسلى زين بهذا الرسم، تبسط يدها فيعبس، تغلقها فيبتسم؟

* * *

تأملت الجدة زين وهي تُخرج ماء الشرب بالمضخة من البئر، وقد اشتد عودها وصارت تسبح كل يوم في ماء النهر المثلج الجارف رغم احتجاجها هي وأختها أم موفق، وتعجّبت لأن علاج الدكتور مأمون أفادها أكثر بكثير من حجابات عمّتها بوران ووصفاتها «البلدية». ولكنها قلقة من طريقة ابنها في تربية هذه الطفلة الجامحة غريبة الأطوار.. هذه الـ «حسن صبي».. ومن يرضى بالزواج من «حسن صبي»؟

ومضت زين إلى النهر لتسبح يرافقها والدها بدلاً من أن يردعها، فمضت الجدة إلى حديقتها وهي تردد لنفسها: «لا عين ترى ولا قلب يحزن»، وجلست خلف نارجيلتها تتسامر وأختها أم موفق التي تستعد للحاق بزوجها وتودع بفرح لا يخلو من الأسى أيامها في الريحانية.

سبحت زين باستمتاع، والماء يحملها، ولاحظت أن قاع النهر ليس على سوية واحدة، وأن بعض الصخور تعلو فيه وتجرحها في ركبتها أحياناً في رضة مؤلمة، فصارت تتحاشاها بمهارة وقد بدأ جسدها يتقن الحوار مع لغة الماء، مزودة بنصائح والدها التي كانت «مقدسة» عندها تنفّذها بحذافيرها ولا تنسى حتى نبرته وهو يقول

لها: اتركي «شعرة معاوية» بينك وبين كل شيء، حتى الماء.. لا تقطعيها.. وإذا غدر بك النهر لا تجافيه مرة واحدة بل تعاملي معه بالتي هي أحسن...

هكذا مرّت بتلك الصخرة المنشارية التي كادت أن تقطع لها ركبتها منزلقة من فوقها وعاجزة عن اقتلاعها في آنٍ.

تلك المتعة الكاوية حين تغادر زين الماء المثلج فتشتعل دفئاً ظلت جديدة ومتأججة مع كل غطسة. لقد اكتشفت مسامها... تلك التي تتنفس وتشتعل وكلها عيون وآذان وأصابع ومتع.. وشعرت بضيق غامض حين تذكرت ثرثرة عمتها بوران باستمرار أمامها ومع ابنة عمّها الأكبر سناً منها فضيلة وهي تكرر بصوت عالٍ لتسمع البنات كلهن، وتعني أهمية ذلك الموضع الصغير الحساس: «حافظي يا فضيلة على نفسك من السباحة وتسلق الأشجار والقفز من طرف الجرف. لا يجوز أن تخسري بكارتك وإلا خسرتِ كل شيء»!.. كانت زين تعرف أنها المقصودة بالتحذير الذي لم تفهمه ولم تعرف ما المقصود به، وقالت لنفسها: لا أريد أن أخسر السباحة وتسلّق الأشجار والقفز بحرية مقابل أي شيء!...

غادرا الماء.. كان أمجد يرتدي هذه المرة ثوب الاستحمام ويستمتع كطفلته بالشمس ولسع الماء.. قالت زين فجأة: أريد أن أسبح عكس التيار...

ألف نزواتها، فقال لها ضاحكاً: الآن، بعدما صادقتِ النهر صرتِ تريدين ترويضه؟

ـ النهر لطيف ولكنه يخيفني أحياناً.

ـ انتبهي.. ليس للنهر صديق.. لقد روّضك على السباحة على ذوقه، وباتجاهه. إذا أردت أن تسبحي على ذوقك.. عرضانياً أو عكس اتجاهه لا تعانديه... حاولي السباحة عرضانياً أولاً، فذلك أسهل نسبياً...

لكم بدا ذلك سهلاً على الضفة.. أما حين هبطت إلى الماء، فقد هاجمها ما بدا لجسدها الهش موجاً عاتياً بصورة خاصة حين حاولت أن تزيح قيد أنملة عن الوجهة العامة للمجرى... تذكّرت نصائح والدها، ولم تقطع شعرة معاوية معه. صارت تحاول أن تسبح داخل انجرافها، وتزيد تدريجياً زاوية انحرافها حتى بلغت الضفة الثانية ولكن في موضع بعيد نسبياً.. وأعادت الكرّة مرة أخرى وهي تعود إلى ضفة والدها فاكتشفت أنها ربحت بضعة أمتار لصالحها.. وجرّبت مرة ثالثة، وهي تلهث كجرو صغير.. وفي المرة الرابعة كسرها النهر واضطر والدها لإخراجها من

الماء وهي تلهث منهكة، وحين هدأت قال لها: يجب أن تحسني تقييم نفسك وقواك.. ولا تخلطي بين الرعونة والشجاعة... «رحم الله أمرءاً عرف حده فوقف عنده»...

وسألت والدها لاهثة: ألم تقلْ لي مرةً إنه لا حدود لطاقة الإنسان، وكنت تحثّني على المذاكرة للامتحان وبعدها على صعود جبل بلودان؟

وانفجرا يضحكان معاً وقال لها: ذاكرتك القوية لا تُناسبني...

* * *

استيقظ أمجد كأن يداً قلقة هزّته. مضى إلى غرفة زين فلم يجدها نائمة في فراشها.. خرج إلى الشرفة، فوجدها في منتصف النهر وهي تصارع الماء عكس التيار بكل قواها فتبدو واقفة في مكانها.. وقد ولّت وجهها شطر شلال توليد الكهرباء وظهرها صوب المصبّات.. امتلأ قلبه قلقاً عليها. ماذا لو جرفها النهر وغرقت؟ أدرك أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً.. إنه لن يسجنها، ولا يستطيع بالمقابل أن يلفّها بمخمل الحماية والحراسة ليل نهار.. ولم يبقَ أمامه إلا الخيار الأخير: تحذيرها من طيشها ومحاولة لجمه بالحكمة الذاتية عبر القراءة التي تحبها.. لن يلهيها شيء عن مشاكسة النهر غير القراءة.

تأمّلها، تلك الطفلة التي كان يرفض أنْ يراها لأنها ليست زين العابدين. استولت على قلبه وقطفت عشقه القديم كله لأمها هند. نحيلة ولكن صلبة أكثر مما يبدو عليها، عنيدة وقوية، وأقلّ هشاشة مما يتوهمون جميعاً، وتخفي داخل خجلها وصمتها طفلة أخرى يحب أن ينفرد بها كما في إجازتهما الأولى هذه معاً ليتعرّف عليها، ولكنه أشفق عليها من نفسها وهي لا تزال تصارع الماء دون كلل، والتيار يجرفها شيئاً فشيئاً، لكنها تظل تضربه بذراعيها الصغيرتين ورجليها المتمردتين وتقاوم حتى في اندحارها.. ناداها ولم تسمعه فقد كان هدير الماء يصمّ أذنيها.. ولكنها رفعت رأسها بعد ذلك بقليل صوبه، وحين شاهدته بدا عليها وكأنها استمدت قوة جديدة من حضوره.

كان لا مفر من عودته إلى دمشق بعدما اطمأن عليها.. تذكّر أنه وعدها بمرافقتها إلى بيت العم حاجور الذي يقيم في مزرعته صيف شتاء لترى الأرانب وعزّ عليه أن يخذلها.. وهو الذي طالما زارهم بدونها لاستعمال هاتفهم لتصريف بعض أعماله. لقد كان يتوجس شراً من تلك الزيارة خوفاً عليها من محاضرات العم

حاجور، الرجل المتزمت الذي سأله في زيارته الأخيرة كم سن ابنته ولماذا لم يحجّبها منذ سن السابعة؟ أمجد يجد تزمته مرضاً وبحاجة إلى علاج وإلا فلماذا يرفض تزويج بناته الخمس بالحلال، ويغار عليهن من نسمة الهواء ويمنعهن من مغادرة البيت حتى إلى الحقل خوفاً عليهن من لقاء أحد العمال أو أي ذكر ويحبسهن في «الصندوق» منعاً للمعاصي؟

قال له أمجد حين أجرى من عنده مخابرته الهاتفية: ألا تفرّخ المعاصي داخل الصناديق أكثر مما تفعله تحت الشمس؟ أجابه حاجور بلومه لأنه لمح زين معه وهي ترتدي سروالاً صبيانياً. لا يريد أمجد أن يعرّضها لكلمة جارحة منه لمجرد أنها ولدت بنتاً. كان يعي جيداً موقع ابنته من عالمها الذي لم تعه بعد، ويكاد يسقط في الحيرة بين وقت وآخر. . . هل يفعل بها حين تكبر ما فعله حاجور ببناته؟ يسجنها خلف نافذة تتأمل منها الأرانب التي تتناسل وتتوالد والحرمان يأكلها؟ وأي شرف هذا الذي يلطخه حتى الزواج؟. . . لا. . لقد بالغ حاجور وبلغ حد المرض والجنون. . . (ولكن، ألا يقطن في أعماقي أنا أيضاً كما في أعماق كل رجل شرقي مجنون صغير؟ ألا يقلقني أنا أيضاً ذلك اليوم الذي ينهد فيه صدر زين وتحيض وأصير مضطراً لمواجهة الأشياء، أنا الذي يهرب منها الآن بحجة أنها طفلة. . إنها لن تبقى طفلة إلى الأبد، فما الذي سأفعله بها، وأنا الذي أربّيها الآن كصبي، وماذا لو كبرت وأصرّت على التصرّف كصبي؟). . لا. لن أذهب بها إلى مزرعة العم حاجور. لقد تجاوزت نقاهتها واستردت عافيتها ولن أعرّضها الآن لصدمة أخرى. . سنذهب معاً إلى الدلبة للتفتيش عن البوم الذي أعرف أنها تحبه كأمها. إنها منذ وصولها تبحث عن بومة ولا تعثر على واحدة. ترى هل تولّى المرابع مرزوق قتلها كلها بأمر من الخالة أم موفق كي تعود العافية إلى زوجها؟

تأمّلها بحنان وهي لا تزال تصارع الماء وقد ضعفت ضرباتها ثم استسلمت وهو يجرفها إلى الضفة وارتمت على بطنها تلهث كجرو صغير.

قبل أن يمضي إلى دمشق، أوصى الحاجة وفهيمة سراً عنها بألاّ تتركانها تغيب عن عينيهما لحظة واحدة شرط ألاّ تضايقانها. . وأوصى جدتها بأن تدعها وشأنها، وكان واثقاً من أنها لن تفعل وهو ممتن لذلك! ضايقته مشاعره المتناقضة. . يريدها حرّة وقوية ولا يريد أن تؤذي نفسها. . ولكن كيف؟

ودّعت زين والدها حتى أعلى التلة حيث درب «الكروسة» والسيارات، بالقرب من مدخل مزرعة العم حاجور، ومرّت بهم مجموعة من الصبيان المحليين

فتبادلوا التحيات مع والدها ومعها. . . وعادت مكتئبة لسفره ترافقها فهيمة. . وعند سكة القطار مرت بهم جماعة من عمال المدبغة الذين سبق وشاهدتهم حين كانت برفقة والدها وسمّوها يومها «المحروس» وحيّتهم كما فعل والدها، فردوا التحية باستثناء أطولهم قامة وأحلاهم وجهاً. . فقد تعلّقت نظراته بوجه فهيمة بذهول متأجج، ولاحظت زين أن فهيمة بادلته تلك النظرة المشتعلة المكهربة الخضراء المشمسة. . وتذكّرت أن جدتها لم تكن تريدها في البداية أن تعمل في بيتهم إذ وجدتها أجمل مما ينبغي، وقالت معلّقة عليها وعلى جهينة: «كل واحدة أحلى من الثانية».

وحين مرّ الرجال سألتها فهيمة من هم ولماذا حيّتهم. قالت لها زين إنهم عمال في معمل دبغ الجلود ويظنّونها صبياً بسبب شعرها وسروالها «الكاوبوي». . وضحكتا. . وتعجّبت زين من تسمية «معمل دبغ الجلود» أو «معمل الصباغة». جلود من يدبغون؟ ولماذا يصبغون الجلود! ندمت لأنها نسيت أن تسأل والدها ثم نسيت السؤال حين نزلت إلى النهر تحاول أن تسبح عكس التيار، ولم تغادر الماء رغم فشلها إلا بعدما تقطّعت أنفاسها وكاد يُغمى عليها. .

* * *

لا تعرف زين سر تلك المتعة الموجعة التي تستولي عليها وهي تسبح في النهر كاوي البرودة، ضد التيار الذاهب إلى المصبّات مستسلماً لمجراه. . والهدير يصمّ أذنيها، وهي تضرب الماء الصلد بذراعيها وساقيها محاولةً التقدم صوب الينابيع ببطء لا يثير يأسها، والماء يضربها على بعض الصخور الناتئة التي تتوسط النهر، وهي في غمرة جموحها إلى المستحيل لا تلاحظ جراحها إلا حين تغادر الماء وتؤنبها جدتها على عنادها العبثي. . . ماذا لو قالت لجدتها إنها تسبح وهي تحلم بالوصول إلى معمل توليد الكهرباء على بعد كيلومتر من تلك البقعة التي تصارعها منذ ساعة لتتقدم فيها عشرة أمتار لا أكثر دون أن يمنعها ذلك من الحلم بتسلّق الشلال إلى الأعلى سباحةً في قلب المولّد الغامض حيث تنبت الطاقة. . الضوء والنار. . ما يضيء كما يقول لها والدها وما يصعق بخطر الموت كما تقول اللافتات المرسومة على الأعمدة العالية وأسوار المعمل، محرّمٌ على الجميع الاقتراب منه تحت طائلة الجمجمة والعظمتين! . . هل صارت أمها في التراب جمجمة وعظمتين كما في الصورة؟ تتساءل زين. . . وهل حاولت قبلها السباحةَ في مياه كهذه صوب المصدر؟ مصدر ماذا؟ لا تعرف بالضبط. تهاجمها أفكار لا تفهمها جيداً ولا تعرف كيف تحيط بها.

حين كلّمت والدها عن ذلك سمّاها «الأسرار». هل ماتت أمها لأنها سبحت صوب الأسرار؟ أم أن الناس كلهم سيصيبهم ذلك، سواء قضوا عمرهم مثل الجار المريض أدهم في مقعد متحرك لاهين عما يحيط بهم، أو حاولوا مثلها السباحة إلى. . . ؟ تتساءل وهي تريح جسدها المنهك على ضفة النهر، وحلمها بالسباحة حتى شلال معمل الكهرباء ما زال يؤرقها. . نادتها جدتها وطلبت منها أن تصعد لتتعلّم كيفية إعداد طبق «الباسماشكات»[1]. وحين لم تجبها التفتت الجدة إلى فهيمة مؤكّدة: «هذه البنت يداها لا تصلحان لشيء». . قالتها بصوت مرتفع لم تسمعه زين!

ارتدت سروالها «الكاوبوي» وتركت أصابع الشمس تجفّف شعرها الصبياني القصير بمشط النسيم الصيفي الحار ومضت راكضة صوب نفق الخضرة والصخور حيث سكة القطار حين سمعت صوته من بعيد يصفر وسط «البوغاظ». وتركت فهيمة لحم «الباسماشكات» الذي كانت تخيطه كالجراب على حشوة من الرز والصنوبر واللحم والبهارات ولحقت بها سعيدة بتنفيذ أوامر «سيدها» أمجد. وحين نهرتها الجدة قالت لها فهيمة وهي تركض خلف زين: يا ستي، سيدي أمرني ألاّ أترك زين تغيب عن عيني. . .

للمرة الأولى في حياتها ترى فهيمة القطار عن قرب هكذا. . شاهدته وقد وصل محمّلاً بالممثلات الجميلات ونعيمة عاكف ترقص على سطحه وتغني «لهاليبو يا ولد» كما شاهدتها في السينما برفقة بوران وماوية في حفلة يوم الخميس الساعة الثالثة بعد الظهر الخاصة بالسيدات. وقد جاءت نعيمة عاكف إلى دار السينما شخصياً. في إحدى نوافذ القطار شاهدت أنور وجدي وليلى مراد يتبادلان قبلة حارة، ومديحة يسرى جالسة في حضن محمد فوزي، وتحية كاريوكا وسامية جمال ترقصان بينما شبّت النار في العربة الأخيرة بكاميليا. . وتنهّدت فهيمة التي عملت قبلاً خادمة عند الراقصة «قوت القلب» طويلاً وحنّت إلى أيام عملها السعيدة هناك إلى أن ماتت الراقصة منتحرة وأرعبتها جثتها.

اختفى القطار خلف المنعطف، وعلى الجانب الآخر للسكة شاهدته للمرة الثانية، شاهقاً عريض المنكبين مدهش الوسامة كأنه مزّق للتو صفحات مجلة «الاثنين» التي تعلّمها زين تهجئة كلام الصور فيها بعدما لاحظت اهتمامها البالغ بصور الممثلات والنجوم.

---

(١) الباسماشكات: طبق شامي شهير.

«يا له من وسيم!».. ذهلت فهيمة وهي تراه كأنه مزّق شاشة السينما وغادرها وهجر زينات صدقي زوجة الباشا إكراماً لعينيها، ونزل إلى الصالة واختارها ليرقص معها «ليالي الأنس في ڤيينا»... شعرت بنشوة لا تقاوم، وهي تراه.. ذلك العامل طويل القامة الذي أخبرتها زين أنه من معمل الدباغة.. هو الذي طالما حلمت به أيام كانت تنام على «السقيفة» في بيت قوت القلب في «الرئيس»[1]، وتتخيّله يحيطها بذراعيه القويتين ليحميها من شر الفئران التي تقفز حولها في الظلمة والصراصير التي تسرح في فراشها الرث المرمي على البلاط البارد، والبق الذي يتقن عضها كلما وجد النوم سبيله إلى عينيها... قالت لنفسها إن هذا «الشاطر حسن» الذي تدّعي زين أنه عامل مدبغة هو الذي سيحملها خلفه على حصانه كما في اللوحة التي تزين غرفة بيت معلمها لعنتر شاهراً سيفه في وجه الأشرار الذين يريدون التهامها لحماً ولفظها عظماً (كما تحذّرها ستّها حياة).. ركضت تلك الصور في دمها، فصار قلبها طبلاً إفريقياً يقرع بشدة في شطآن حارّة ترقص فوقها قبيلة من العراة... اقترب منها، ولم يلمح زين التي كانت قد قبضت على نملة كبيرة من «جمل الحر» بإصبعيها وقربتها من يدها الأخرى لتجرّب عضتها.. وأذهلها أنها موجعة فرمتها من يدها واختفت النملة هاربة وندمت زين لأنها لم تقتلها وتدوس عشرات منها وفكّرت بصمت (سيرسم النمل بعدها على باب الوكر جمجمة وعظمتين)... وأخذت تضحك وحدها. خاب أمل فهيمة حين لم يقل لها الشاب الطويل العريض الوسيم غير عبارة: «يا صباح الخيرات».. كانت تريده أن ينشد لها كما أنشد عبد الوهاب لراقية إبراهيم «شايف في واحد بيحبك وانتي تحبيه»، لتكرّر هي من جديد «طيب إقرالي اللي في قلبي واحكيلي عليه»...

هكذا.. تحية سريعة متقشفة نكست وراءها نظراتها خجلاً تبعها بتحية إلى زين مداعباً: «مرحباً يا شيخ الشباب». وسارعت زين لتجيب بصوت جرّبت أن يكون أجشاً: «مرحبا وعليكم السلام». وفرحت لأنه ظنّها من جديد صبياً.

تابع «الأمير الوسيم» بنبرة هادئة أسفت فهيمة لها لأنها لا تشبه نبرة عبد الوهاب المحمومة وهو يقول لراقية إبراهيم «علشان تحرّمي تاكلي جلاس وتدوبي في قلوب الناس»، معلناً ببساطة: «محسوبك اسمي ريمون ملشيّة.. عامل في المدبغة.. وأشار بيده صوب معمل الدباغة.. «وحضرتك؟»».

---

(١) الرئيس: اسم حيّ في دمشق كان يقيم فيه الرئيس شكري القوتلي (رئيس الجمهورية آنذاك) فسمّوه على اسمه.

قالت: فهيمة...

سألها: فهيمة ماذا؟

وحبست زين أنفاسها لأنه سبق لفهيمة أن قالت لها، حين سألتها السؤال ذاته، إنها تجهل الاسم الكامل لوالدها فأجابتها أن ذلك أفضل من حال جهينة التي كانت تجهل حتى اسم والدها ناهيك عن أسرتها!.. وتعجّبت لماذا يحرص الآباء الذين يبيعون بناتهم خادمات على عدم حفظ البنات لاسم الوالد.. ولكن فهيمة أجابت بجرأة أذهلت زين: اسمي فهيمة الخيّال!

سألها ريمون: ابنة أمجد بك الخيّال؟ فهزت رأسها بالإيجاب، فقال: «والنعم وسبع تنعام»[1].

وبدت على وجهه خيبة أمل وهو يكرّر: «احتراماتي يا خانم».. ويهرب من دربها كمن ضربته صاعقة.. فهو لا يؤمن بالحب من النظرة الأولى ولكن شيئاً كهذا حدث له، وإلا فلمَ هذه الرغبة الجارفة بأن يمسك بوجهها الجميل بين يديه ليحدّق فيه حتى نهاية العمر ويغرق في عسل عينيها؟

لم تندم فهيمة فيما يبدو لأنها انتحلت شخصية زين ابنة أمجد الخيّال بل قالت لزين: تعلّمت الكذب عند الست قوت القلب.. ماذا كان بوسعي أن أقول له، أنا «الصانعة» خادمة أمجد الخيّال ولا أعرف حتى اسم والدي؟

ورمقت فهيمة زين بخوف، لكن زين أشفقت عليها وبدا لها الأمر مسلّياً، فقد سبق لجهينة أن ادّعت الشيء ذاته، وهي لا تستطيع أن تفهم لماذا يتسابقن على لعب دور شقيقاتها!.. أما ريمون ملشيّة فقد تابع دربه صوب المدبغة مكسور الخاطر (ابنة أمجد الخيال؟.. أستطيع أن أحلم بالزواج من «بدر البدور» وسط «السبع بحور» قبل أن يزوّجني الخيّال ابنته.. ولماذا يفعل، وأنا مسيحي وهي مسلمة؟ وفوق ذلك كله أنا فقير «أندبوري»[2] وعامل مدبغة يحلم بالعمل في مكان «أنظف» كمعامل الغزل والنسيج التي يملكها أصحابه «الخماسيون»[3] من أهل الجاه. ولكنني بلا «واسطة»[4].. ومن يتوسط ليساري مسيحي مثلي؟ وإذا سأل عني، سيقولون له: هذا العامل اليساري المسيحي «الأندبوري» هو المشاغب الذي خرّب الماكينة يوم

---

(١) والنعم وسبع تنعام: عبارة مجاملة وقت التعارف بمعنى أنعم واكرم.

(٢) أندبوري: بالغ الفقر باللهجة الشامية.

(٣) الخماسيون: المتمولون الكبار من أصحاب «الشركة الخماسية» آنذاك.

(٤) واسطة: شخص ذو نفوذ يتوسط له.

الإضراب في معمل الكبريت. وسيكذبون عليه كما كذبوا على الشرطة التي استدعتني للتحقيق معي في مخفر القابون أولاً ثم في سجن القلعة فيما بعد، إذ لا «واسطة» عندي تخلّصني، وتمّ بعدها طردي بلا تعويض من معمل الكبريت ولم يبق أمامي إلا العمل في المدبغة. ولم أكن، للأسف، قد خربت الماكينة يومها ـ وليتني فعلت ـ بل إن مدير المعمل هو الذي ورّطني حين جاء بشاهد هو أبو عادل، والد الصبي المصاب بمرض خطير ونادر والذي سيموت إذا لم يحصل له والده على بطاقة طائرة وسلفة للعلاج، فأعطوه مقابل اتهامه لي وشهادته الكاذبة البطاقة والسلفة.. والفلقة لي ولبقية الرفاق)....

صعد ريمون سلم المدبغة وهاجمته الروائح الكريهة. استيقظ سعال الربو في صدره (ها أنا أعمل هنا مياوماً بلا حقوق، أركب الباص كل صباح من باب توما حتى الهامة وأتابع مشياً إلى هنا إلى أن تهترىء رئتاي وأموت عقاباً لي على ما يدعونه نشاطي النقابي. فكيف تتزوج ابنة أمجد الخيّال من مسكين فقير مثلي وعنيد رأسه مثل الحائط الصلب، ومثل راس والده الذي لن أنسى يوم ألقى خطاباً بالفرنسية ضد الانتداب في دكانه ولم يصمت يوماً رغم تهديدات انتهت بسجنه؟ ولا يزال يزجرني حين أقول له: ما الفرق بين اليوم وأيام الانتداب حين كنتُ صغيراً؟ كان الغريب يُذلّك وأضحى ابن البلد يُذلّني. فهل أذهب الآن وأقول له أن يبيع دكانه الصغيرة التي يعمل فيها «رتّا»[1] لأنني أريد الزواج من فهيمة الخيّال وأريد مهراً لها؟).

وهبّ البخار على وجهه من الماكينة التي تعثرت أصابعه في تشغيلها، فألهب خده. وجاء زميله ليحل محله قائلاً: اذهب واغسل وجهك.. تبدو مريضاً. (كيف لا أبدو مريضاً، والصبيّة الوحيدة التي ارتعش قلبي لمرآها منذ النظرة الأولى هي حبي المستحيل؟.. العينان الملوّنتان الشاسعتان، الأهداب الجارحة، الأنف الدقيق، الفم الكرزي الشهي، الشعر التائه بين الكستنائي والأشقر حتى الشمس... نعم. إنني أشتهيها كما لم أرغب في امرأة في حياتي.. أحلم بالمستحيل في فراشي كما في عملي.. وقد خسرت الرعشة الوحيدة التي عشت عليها في اليومين الماضيين حين لمحتها للمرة الأولى مع شقيقها الصغير بين الأشجار ولم ترني، وأنستني بجمالها خيباتي.. لقد انطفأ المصباح من جديد، وعمّ الظلام الطويل)...

وأمسك بعصا مرمية على الأرض، يستعين بها عادة لإخراج الجلود من ماء

(١) رتّا: شخص يرفو الثياب.

الدبغ، وصار يستعملها كعكاز وقد قفل راجعاً إلى موضعه خلف الماكينة التي تبصق البخار في وجهه. وتنهّد بحسرة (لماذا كانت تلك الحورية ابنة أمجد الخيّال؟ لماذا لم تكن فلاحة من القرية أو عاملة لأجرؤ على الزواج منها وتحقيق حلمي؟).

* * *

قالت زين: تعالي نمشي صوب معمل الكهرباء.. لحقت بها فهيمة وقد امتلأت بمشاعر موجعة متضاربة بعد ذهاب ريمون.. إنها تطير سعادة بين ذراعيه وهي تتخيّل مباهج أن يحتضنها ويحميها من الأشرار ويغمرها بتلك اللّذات السرية المبهمة التي طالما تاقت إليها وهي تسمع تأوهات قوت القلب ليلاً كلما زارها أحد عشّاقها، وهي وحيدة في فراشها الحقير تتأمل نضج جسدها وتتحسّس صلابته المرمرية في مرآة صغيرة مربّعة لا تتسع له كله، فتنقلها بيدها من موضع إلى آخر لترى صورتها وتتحسس كنوزها.. تريد أن تمنحه ذلك الجمال كله الذي بهرها يوم شاهدته دفعة واحدة أمام المرآة الكبيرة حين غابت قوت القلب عن البيت. كانت تكنس الأرض، ولا تدري ماذا دهاها فجأة فتعرّت أمام المرآة في غرفة نوم الراقصة وشهقت وهي تدور بحُسنٍ يضيء الغرفة، وقرّرت أنها أجمل من قوت القلب ومن الممثلة الجديدة مريم فخر الدين. والتصقت بصورتها في المرآة تقبّلها وقد اشتعلت أناملها بسحر جسدها وأسراره واكتشفت طاقتها على الإبحار وحيدةً في نهر الألعاب النارية والتنهّدات، والانفجارات المشعة أنيناً.. فهل يقود ريمون بها المركب؟ وماذا سيفعل حين يعرف أنها ليست ابنة الخيّال؟ هل سيصفعها على وجهها كما يفعل يوسف وهبي بأمينة رزق؟ (لماذا أنا خادمة لا ابنة الخيّال لأجرؤ على أن أحلم بالزواج من ريمون وتحقيق حلمي؟).

أرادت فهيمة أن تقول شيئاً لزين عن ذلك كله.. فهي الوحيدة التي تحبّها وترتاح إليها وتثق بها. ولكنها ما زالت صغيرة، صغيرة جداً، فهل ستفهم؟....

تأملت فهيمة زين وهي تطارد سلطعوناً على طرف الساقية وتتحفز طويلاً قبل أن تنقضّ عليه وتمسكه من ظهره وترفعه عن الأرض كما أرشدها والدها، ويدها ترتجف بينما السلطعون يحاول عبثاً أن يخمشها بأذرعه أو يبلغها بخطّافيه المرعبين اللذين لا يستطيعان التحرّك إلى الوراء لعضها، كما أفهمها أيضاً والدها. هنا أدركت فهيمة أن لزين مشاغل أخرى، وقد بدت شديدة الزهو بالسلطعون.

كانت المرة الأولى التي تقبض فيها على كائن مرعب كهذا، وبعد ذعرها الأول امتلأت فخراً وشجاعة وحملته ومشت به صوب فهيمة التي صرخت هاربة. حدث

ذلك في اللحظة التي انشقّت فيها الدرب عن ثلاثة صبيان في سن تقارب سنها يضحكون للمشهد طرباً وإعجاباً وميّزت في أحدهم الصبي الذي حيّاها ووالدها. . . اقترب الصبي ضاحكاً وقال لزين: هل تُخوّف أختك بالسلطعون؟

هزّت زين رأسها إيجاباً ولم يكن ذلك قد خطر ببالها. . كانت فقط تريد أن تشاركها فهيمة متعة اكتشاف السلطعون، بل إنها كانت ستعلّمها كيف تمسك به لو أرادت. . قال الصبي الجميل الكستنائي العينين والشعر: أنا عبد الهادي، وأنتَ ما اسمك؟

قالت بصوت مكسور: زين الخيّال.

ـ أهلاً بزين الخيّال. . . إذاً أنتَ ابن البيك الذي اشترى الأرض من «أبو موفق». هل تريد أن تلعب معنا؟

وأدركت فهيمة أنهم يظنّون زين صبياً بسبب رأسها الحليق، وفتحت فمها لتقول إنها بنت اسمها زنوبيا أو زينب أو زنزون أو زين لا زين العابدين، لكن نظرة متوسلة من ركن عين زين جمّدتها فظلت صامتة. . . ثم إن زين لم تفضحها أمام ريمون وتركتها تزوِّر هويتها على هواها، والآن جاء دورها للوفاء بالدين كما في فيلم فاتن حمامة وشادية. كرّر عبد الهادي: هل تريد أن تلعب معنا. . سنسبح في بركة «السقاية».

وارتعدت فهيمة. كانت تعرف أن بركة «السقاية» البرية تعجّ بالحشرات والأسماك والطحالب والأقذار ناهيك عن أفاعي الماء. . لكن زين اقتربت منها هامسة بما يشبه الرجاء: أرجوك أن تعودي ولا تقولي لهم إنني بنت ولا تقولي لجدتي شيئاً. . ومضت فهيمة لا إكراماً لزين فحسب، بل خوفاً من أن تبوح لريمون بحقيقتها إذا باحت هي لعبد الهادي وبقية الصبيان بالسر. . وقدّرت أنه لن يصيبها مكروه وهي في صحبتهم وبينهم صبي كبير.

مشت زين معهم بعدما رمت بالسلطعون فالتقطه عبد الهادي وقصف إحدى أذرعه، وسمعت صوت تكسّر قشرته الصلبة، فأحسّت بالحزن وكادت تصرخ ثم تذكّرت أن الصبيان لا يبالون بذلك كالبنات. وحين قصف كلاّبته لم تستطع الصمت وقالت بلهجة آمرة: دعه وشأنه.

سألها محمد، الصبي الثاني: هل قلبكَ رقيق كالبنات يا زين؟

أجابت بقسوة: اسمي زين العابدين، وأريد أن أراك تصارع التنين لا هذا

السلطعون المسكين..

وسألها سورش، الصبي الثالث الكردي كما شرحوا لها ولم تفهم معنى كلمة «كردي»: ما هو التنين؟ لم تجب وعاد يسألها بإلحاح: ما هو «التنين»؟

فشرحت له ما قرأته في كتاب القصص.. وسألها عبد الهادي مشفقاً: وهل يرغمكَ والدكَ على قراءة القصص؟.. والدي يرغمني على الذهاب إلى المدرسة فقط.

أجابت بتكبرٍ كأي صبي: والدي لا يجرؤ على إرغامي على شيء.

ونظر إليه (إليها) الصبيان بإعجاب.. وقال محمد: من وصفك للتنين عرفته. إنه موجود.. ولكننا نسميه هنا «جنّي الدوار»، وهو موجود في أرضكم عند الدلبة.

وارتعدت زين وهي تتذكر ذلك الموضع، وتصلّي كي لا يطلبوا منها السباحة في «الدوار».. وصارت تفكّر، أية أهوال تنتظرها في بركة «السقاية»؟.. وأخيراً بلغوها.. وقد سبق أن مرّت ووالدها بها وخافت منها، ولم يخطر ببالها أنها ستسبح فيها!!.. ومشوا وانضم إليهم ثلاثة صبيان في سن مشابهة تتراوح بين الثامنة والعاشرة، وحين وصلوا قال لها عبد الهادي الذي بدا لها عجوزاً في العاشرة وأكبر منها سناً بعام ونيف بجسده الفحل: صحيح أنك ابن البيك، لكن الانضمام إلى عصابتنا له ثلاثة شروط: أن تسبح في بركة «السقاية». وأن تروي لنا جديداً عن البنات حصل معك أو شاهدته.. قالت له زين: هذه بسيطة. أعرف كل شيء عن البنات. أضاف عبد الهادي قبل أن يكمل شروط الانتساب لـ«العصابة»: ويصير زعيماً لعصابتنا من يجرؤ على السباحة في «الدوار»...

ولا تدري لماذا مرّ ببالها خاطر كاد يضحكها: أليس من الأسهل لها أن تحمل المقص وتدور به عليهم كما كانت تفعل حين كانت صغيرة بدلاً من المرور بتلك الأهوال؟

وانضم إليهم صبيّان أكبر سناً بكثير كأنهما في الثالثة عشرة من عمرهما، وجلسا قرب بركة «السقاية» يتسامران ويتفرجان على «لعب الصغار»!

تأملت زين الماء.. كان بنياً داكناً لم يشفّ عن الأهوال التي يحتويها، وأصابها ذلك بالذعر. فقد تخيّلت الغول والجني والعنقاء والرخ والتنين و«أعور الدجان».. وكل من أرعبها في كتبها القصصية وحكايا جهينة وبوران وجدتها، مقيماً هنا، تحت هذه المياه الساكنة إلا من الفقاعات التي تتصاعد من آنٍ إلى آخر

إلى سطحها بين الطحالب العفنة والأشواك العدوانية الحيّة التي انتشرت على وجه الماء.. وبدأ عبد الهادي يخلع ثيابه، وأشاحت بوجهها بخجل وهي تتساءل بترقب: هل سيخلع كل شيء؟.. تذكرت عجوزاً مجنوناً تحرّش بها ذات مرة وهي تركض على السطوح في بلودان بدلاً من درب «الكروسة»[1] وقال لها: «أريني باريس.. أريني باريس».. ولم تفهم لماذا سمّى «ذلك» باريس.. فهل سيفعلها عبد الهادي؟ لكنه توقف في الوقت المناسب.. والتفت إليه (إليها) متحدياً: ما رأيك؟

تجاهلته إذ تذكرتْ أنها ترتدي ثوب استحمامها النسوي، وهي بالتالي لا تستطيع أن تخلع ثيابها لأنهم سيعرفون الحقيقة فوراً وعليها أن تسبح بثيابها. أمسكت بحجر وقذفت به إلى الماء متظاهرةً أنها تحاول سبر عمقها، ثم أحضرت عصا، وأخذت تحركها على السطح قليلاً لتباعد بين الطحالب. وقفزت ضفدعة مائية وخيل إليها أنها قد لمحت أفعى بيضاء ملساء تركض إلى القاع، أم تراها كانت سمكة؟... تطلعت إلى الأعلى، كان قرص الشمس قد توسط السماء وفاحت رائحة الزعتر البري واليانسون والزعرور، في يوم جميل غير صالح للرعب أو الموت... قال عبد الهادي: هل أنت خائف يا زين العابدين؟ وسألها محمد: هل تعرف السباحة؟

وضحكوا جميعاً.. حتى الصبيّان الكبيران ضحكا... وصعد الدم إلى رأسها.. إذاً فالحكاية ليست حكاية «مقصات» وزوائد صغيرة.. إنها مذعورة لأنها بنت.. هكذا أفهمتها جدتها دائماً.. وعليها أن تحتمي بالرجل «عمود البيت» كما كانت تنشد جدتها في أغنية «بذيئة» تدلّل بها وضّاح كلما غيّرت له حفاضه ولا تنشد شيئاً حين تبدّل حفاض هزاز.. سمعت صوت والدها: «أنتِ مثل الصبي، وتمتازين عليه بأنك تنجبين الصبيان»... مرت بهم بنت جميلة جداً، فقالت زين محاولة الهرب من القضية: من هذه البنت الحلوة؟

قال عبد الهادي غاضباً: إنها أختي ناجية.. وبدت ناجية شبه راكضة هرباً من العيون الغدوانية التي رمقتها وهي تحمل جرة ماء بيديها معاً وتضمّها إلى صدرها كي لا تسقط...

- لماذا لا تلعب المسكينة معنا؟

- تريد أن تلعب معنا بنت؟.. عيب يا زين العابدين..

---

(١) الكرّوسة: الدرب الإسفلتية.

وقال أحد الصبيين الكبيرين: من لا يجرؤ على السباحة في البركة خير له أن يلعب مع البنات. . .

صمتت زين نادمة على كذبتها. . وكادت تركض هاربة إلى ناجية، حين قفز عبد الهادي في الماء مباهياً. . وسبح مثل الجرو الصغير الجميل (كلبوني)، وقدرت زين أنه تعلّم السباحة وحده لأنها كانت تفعل مثله قبل أن يعلّمها «الميترناجور» السباحة على أصولها. . ولكنه شجاع. . لا يخاف شيئاً. . .

قال محمد عن عبد الهادي: إنه يقطع البركة كلها جيئة وذهاباً دون أن يتعب. .

وفكّرت زين (وأنا أستطيع ذلك مرات وتحت الماء أيضاً. . ولكنني جبانة). . .

وخرج عبد الهادي من الماء والطين يقطر منه وقد التفّت الطحالب على ساقيه وقال لزين: ماذا قرّرت يا زين العابدين؟

وومض خاطر في ذهنها لثانية: إذا كان هو قد فعلها ولم يمت، فلماذا لا أقدر أنا أيضاً؟. . (لأنني بنت!). ولسعتها تلك الإجابة التي جاءت من أعماقها هي ولم يقلها لها هذه المرة أحد. وقفزت إلى الماء بكامل ثيابها في لحظة جموح ورفض من لحظاتها المجنونة النادرة وقد مدّت يديها أمام رأسها كأي سباح كبير، وغطست وسبحت تحت الماء دون أن تجرؤ على فتح عينيها ذعراً، ووصلت حتى إلى الطرف الآخر للبركة، وخرجت قبل أن يصطدم رأسها بالجدار، وسمعت صوت الصبيان يصفقون لزين العابدين «القبضاي»، فسبحت من جديد فوق الماء «كراول» جيئة وذهاباً بسرعة خارقة بالنسبة لها كسرت فيها أرقامها القياسية كلها ذعراً من الأفاعي التي خيّل إليها أنها كانت تلتفّ حول ساقي سروالها وعناكب الماء على وجهها، لكنها استمرت وهي تسمع في أذنيها صوت يقول: «لا تخافي». . وجاءها صوت والدها مكرراً: «المحرك الثاني. . أديري المحرك الثاني داخلك». فكّرت بمغادرة البركة. قالت لنفسها: ما دام هو قادراً على ذلك ولم يحرقه التنين، فذلك يعني أنني قادرة أيضاً. . . وامتلأت بنشوة خارقة وهي تتبيّن كم البركة التي توهمتها شاسعة صغيرة تقطعها بعشر ضربات على الأصول كما علّمها أستاذ السباحة، بل وسبحت على ظهرها واستعرضت كل ما تعرفه من فنون السباحة، من فراشة و «كراول» وغطس، وقد تجلدت وصمّمت أن تفعل مثل الصبي عبد الهادي وأكثر!

وغادرت زين المياه وقد غمرها ذعر جارف أخفته، متلذذة بتصفيق الأولاد حتى الكبار منهم وهم يقولون: زين العابدين شيخ الشباب. وقال عبد الهادي: يجب أن تعلمنا السباحة يا زين العابدين على أصولها مثلك.

ومرّ بهم العم حاجور ولمح زين وهي تغادر بركة السقاية والصبيان يصفقون لها «يعيش يا يعيش»، وذهب به الظن إلى أنه لا بدّ وأن يكون صبياً ولعله ابن عمها الذي يشبهها والكبر قد أفسد نظره. . .

كرر لها عبد الهادي بإعجاب بالغ: أنت بطل الأبطال. . متى ستعلّمنا السباحة مثلك؟ وتمنت فقط لو كان لؤي ودريد الآن معها ليريا من هي! وحين كرر عبد الهادي رغبته في تعلّم السباحة منه (منها)، قالت له كي لا تضطر ثانية لممارسة هذا الرعب: سأعلّمكم السباحة في مكان نظيف. السباحة هنا مقرفة! ولا تدري لماذا تابعت: سأعلّمكم شرط أن أعلّم ناجية السباحة معكم.. بوسع البنات السباحة مثلنا. . أختي مثلاً تسبح مثلي بالضبط.

قال عبد الهادي: عيب يا زين العابدين. . ماذا يقول الأولاد إذا عرفوا أن بنت فأرة مثلها تلعب معنا. . ثم إنني أرفض أن تلعب أختي مع الصبيان.

قال محمد جاداً: هل أنت معجب بها وتريد الزواج منها؟

قالت زين مقلّدة الرجال: معاذ الله. . بشرفي إنها مثل أختي (ولم تكن تكذب). . .

قال سورش: لا تتعب نفسك. . ناجية لن تتعلّم. البنات ذهنهن غليظ. هل تتصور أنك تستطيع تعليم بنت السباحة كما تسبح أنت؟

وأجابت زين وقد استمتعت بالموقف: بالتأكيد لا. . .

قال محمد: إنهن بنصف عقل. . .

وقالت زين: وأنتم بلا عقل لأنكم تسبحون في مياه وسخة كهذه. . .

وانفجر الصبيان ضاحكين من «رفيقهم» الممتع المهذار. . وأحسّت زين بأنها تريد أن ترمي المقصّ من يدها بعدما أنجزت للتو قصّ خمس زوائد. . ولكن متعتها لم تطلْ، لأن عبد الهادي قال له (لها): والآن مباراة قتل السلاطين والضفادع. . وقصّ رأس القطة على العتبة.

كانت تعرف أنها ستُهزم هذه المرة. . إنها عاجزة عن مجاراتهم في التعذيب. . منذ رمى عمها عبد الفتاح بالقطة عن الشرفة ومحبتها له تشوبها كراهية غامضة. .

شاهدتها أمام عينيها تختنق في الماء، أم أنها كانت تحلم؟ لا تدري ما الفرق حقاً. . . .

لا. . إنها لا تستطيع أن تعذّب سلطعوناً. وكم كرهت فاروق يوم أمسك بجرادة في ملعب المدرسة وقطع جناحها وراح يتأملها وهي تحاول عبثاً أن تقفز. . هذه الألاعيب الصبيانية تشمئز منها ومنهم. . وامتلأ قلبها الصغير بالحقد وقررت أن تمسك بالمقص من جديد ومرة واحدة. فأجابت بمكر ودهاء (كما يصفون الملكات في كتبها): ما هذه الألاعيب السخيفة؟. . أليس لديكم تحد كبير؟

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل أن نذهب إلى الضبع ونتركه يسبعنا ويلطشنا بذيله، ونرى من منا يقاوم تنويمه ولا يتبعه مستسلماً إلى وكره. . .

صمت الصبيان. لا يريدون هذا التحدي. عبد الهادي التفّ على الاقتراح بدهاء: لستَ زعيم العصابة ولا يحق لك أن تقرّر الامتحانات. سنمشي على اتفاق العصابة ونتصرّف وفقه كما فعلنا دائماً وكما فعل إخوتنا الكبار قبلنا. . هنالك أصول والضبع خارج الأصول. . .

سألته زين بفضول: وجنّي «الدوار»؟ ندمت على سؤالها وكان الأوان قد فات.

قال محمد: ضمن الأصول. لكن أحداً لم ينجح يوماً في السباحة ويخرج حيّاً. . أخي الكبير سكر مرة، وسبح هناك، ولم يخرج. استبقاه الجني معه وكان كبيراً عمره ثلاثة عشر عاماً. . .

ـ ألم يجدوه بعدها؟

ـ بالتأكيد لا. . الجني احتفظ به. . .

قالت زين: وإذا صرتُ زعيم العصابة، هل أستطيع تبديل دستورها السخيف؟

قال عبد الهادي مغتاظاً: بالتأكيد إذا خرجت حيّاً من «الدوار». . .

ولا تدري زين أية حماقة دفعتها إلى القول: حسناً. هيا إلى «الدوار».

كانت خمرة الفخر والمباهاة قد صعدت إلى رأسها كأنها تحوّلت إلى صبي ـ كما تتخيّله ـ وتقمصته.

انحدروا من التل صوب النهر، وتجنبت زين المرور أمام البيت كي لا تراها جدتها وتقصف عمرها وتذلّها (**لو كان لؤي مكاني لفخرتْ به. . ولكنني بنت**). . . وتابعت الهرولة معهم وقد داخلها الندم (**دوماً أنا هكذا، أتحمس ثم أندم**، و «**لاتَ**

ساعة مَنْدَمِ» كما يقول السندباد).

ودخلوا إلى العتمة النسبية الظليلة حيث تظلم الأشجار، ويصير النهر رمادياً ببقع سوداء وبيضاء وهو يدور مزمجراً ومياهه تبتلع كل شيء نحو القاع، وقد ابتلعت بسرعة خارقة عوداً كبيراً رمته زين على صفحة الماء بعدما دار به «الدوار» دورات سريعة على سطحه كزفّة الموت.

وخيَّم الصمت على الأولاد وتوقفوا عن المداعبات والهذر.. حتى الصبيّان الكبيران سقطا في فخ رهبة الموقف، وشجرة الدلب تطل عليهم من علٍ مثل جني كبير يحرس مدخل قصر الماء..

ولم تكن ثياب زين قد جفّت كلها بعد، فراحت ترتجف وهي لا تدري هل تفعل ذلك ذعراً أم برداً وسط هذا الحرّ الخانق... وأدركت أنها لا تستطيع أن تقفز إلى تلك الهوة مرعبة السواد والهدير والهيجان.. وستتحطم على الصخور بضربة واحدة من يد الجني.. وقرّرت الهرب من الصبيان وليقولوا عنها «جبانة»، ولكنها لن تقفز. وتذكرت صوت جدّتها يردد باستمرار «ألف قولة جبان ولا قولة الله يرحمه». وفهمت للمرة الأولى مدلوله، وهربت مذعورة من الصبيان إلى شجرة الدلب التي كانت قد ألفت تسلّقها ولاذت بغصنها المعهود وقرّرت أن تعتصم به وتبقى هناك حتى يمضي الصبيان. غمرها الندم على ما اقترفته وكأن الصبيان أيضاً وعوا هول ما قد تفعله بعدما سبحت في بركة «السقاية»، وبدأ عبد الهادي بمناداتها: زين العابدين، ليس من الضروري أن تقفز عن الشجرة إلى الماء.

وعلى الرغم منها تدفقت دموعها وغمرها ما يشبه الخجل والحسّ بالعار وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى حتى لا يراها الصبيان، وظلت صامتة لم تجب وغمرها هاجس أنها بنت ناقصة كما تقول عمتها بوران وكل ما تفعله كذلك. ولكن دموعها تحجرت ذعراً، إذ شاهدت على الغصن ضبّاً مخضراً رمادياً يميل لونه إلى السواد، وخيّل إليها أنه أكبر بكثير من الحرادين السمراء التي تحب تأملها على الجدران. صار يتقدم صوبها على الغصن كبيراً كجرذ ضخم وهو يفتح فمه وينفخ في وجهها وهدير الدوار بدا لها قادماً من فمه المرعب. وتراجعت إلى الخلف وقد قررت الهبوط عن شجرة الدلب. ولا تدري كيف زلت قدمها ولم تشعر إلا وهي تهوي في الفضاء.. وقبل أن تصرخ ذعراً لطمها الماء، ولم تسمع عبد الهادي وهو يقول: كم هو شجاع!.. ظننته صعد إلى الشجرة ليختبىء وهو صعد ليقفز منها.. وأخذت تضرب المياه بكل قواها، وهي تتذكر كل ما تعلّمته في دروس السباحة

والتنفس، ونسيت كل شيء عن الجني وصار همها الوحيد مقتصراً على الحفاظ على رأسها فوق مستوى الماء.. ودهشت كم كان ذلك سهلاً.. صحيح أن المياه كانت تدور بها وتكاد تجذبها نحو الأسفل، لكن ضربتين قويتين كانتا تخرجان بها من قلب الدوامة التي تعود لتجذبها من جديد. حاولت مغادرة الماء على الضفة وتعذر عليها ذلك، ووعت أن المرعب في الدوار ليس في السباحة بل في مغادرة الماء.. وصار الصبيان يشجعونها وقد استولى على أصواتهم ما يشبه الذعر من موت زين العابدين.

وأدركت زين بهلع أنها عاجزة عن مغادرة الماء على هذه الضفة وتذكّرت أن والدها نصحها مرة وهو يرى ولعها بتسلق الدلبة لمشاهدة البومة بأن قال لها مداعباً: إذا سقطت في الماء لا تسبحي في الدوار بل اغطسي تحته صوب الضفة الأخرى.

وغطست تحت الماء مع الدوار ثم سبحت تحته أيضاً وفوجئت كم أضحت السباحة يسيرة صوب منتصف النهر والماء يجرفها، ثم صعدت برأسها لتتنفس وأدهشها أن ماء الدوار نفسه صار يطردها صوب الضفة الأخرى تدريجياً، وكانت قواها قد خارت فانقلبت على ظهرها وتركت الماء يمضي بها، وراحت تقترب من الضفة حتى استطاعت أن تغادر النهر في نقطة تبعد عشرات الأمتار عن نقطة انطلاقها حيث الدوار. تمدّدت على الضفة وأغمضت عينيها عاجزة عن النهوض والعودة عبر الجسر إلى الصبيان في الضفة الأخرى.. وظلّت ممددة تلهث كجرو حتى جاؤوا بأنفسهم كلهم وأحاطوا بها وأمطروها بكلمات الإعجاب بحرارة ممتعة. وتملّقها الكبير الجميل قائلاً إن اسمه منصور وإنها أشجع صبي رآه في حياته، فقالت وهي تكاد تسقط مغشياً عليها: أنا زعيم العصابة.. وهزجوا فرحاً وحملوها «كرسي الباشا»[1] كما طلبت، وتمنّت شيئاً واحداً: لو كان دريد ولؤي هنا وشاهداها! ثم أمرتهم بتقبيل يدها كما كان يرغمها عمها عبد الفتاح على تقبيل يده، وفعلوا دون تردد وأبدوا إعجابهم بساعتها «ضد الماء» باستثناء عبد الهادي الذي تردد قليلاً ولم يقبّل يدها لا هو ولا سورش. ثم أمرتهم بعدم مناداتها باسم زين العابدين بل باسم «دولة الزعيم زين العابدين»، واقترح منصور أن توزّع عليهم صورها مثل حسني الزعيم كي يعلقوها على أبواب بيوتهم وأعمدة الكهرباء قرب إشارة خطر الموت ووافقوا على ذلك. وعيّنت الصبي الجميل الكبير منصور وزيراً للميمنة مكافأة له على أفكاره، وعبد الهادي وزيراً للميسرة لأنها اشتمت منه رائحة عصيان وتمرد وأرادت إرضاءه وإسكاته. وتمنّت من جديد لو كان دريد ولؤي هنا ليرياها. ثم شعرت بالنعاس

(١) كرسي الباشا: حمل شخص على السواعد المتشابكة لشخصين.

وبوجع في جسدها، فخجلت من القول إنها متعبة وقالت لهم: أستأذن يا شباب.. عندي عمل مهم في المزرعة.. غداً أعلّمكم السباحة على أصولها وحتى في الدوار. ندمت بعد ذلك على وعدها، وقالت لنفسها إنهم إذا اكتشفوا أن بوسعهم السباحة مثلها في الدوار وإذا تعلّموا الغطس على أصوله وفتح عيونهم تحت الماء فلن تكون زعيمة العصابة فيما بعد! قال عبد الهادي ضاحكاً: بقيت القصة عن البنات يا مولانا حتى يكتمل مجدك...

أجابت زين ثملة بالنصر: هذه بسيطة. أعرف كل شيء عن البنات. أقسم لكم أنني أعرف كل شيء عنهن.

ضحكوا وقال سورش: مرابعكم مرزوق ذهب ليتزوج وسيعود الليلة مع عروسه. ما رأيك يا زين العابدين بأن نتلصص من النافذة على ليلة الدخلة؟

سبق أن ومضت الفكرة في رأسها ولم تكن لتجرؤ على تحقيقها رغم أنها قلبتها في ذهنها مرات وكادت تفاتح فهيمة بها.

أجابت على مضض خوفاً من أن تراهم جدتها وينفضح سرها: كما تشاؤون...

سألها عبد الهادي: هل تخاف من والدك يا زين العابدين؟

أجابت زين: من يسبح في الدوار ولا يخاف الجني لا يخاف والده!

اشتعل الصبيان فضولاً وإعجاباً بأفكار «زعيمهم» وصفق بعضهم حماساً، ونسيت زين حذرها ومخاوفها.

قالت: ما جدوى الثرثرة إذا كنا سنتأمل على الطبيعة ما يدور؟ سأُحدث الآن خلسة ثقباً في الباب والنافذة..

أضاف عبد الهادي: ما رأيكم بأن نلتقي في العاشرة والنصف تحت الجوزة الكبيرة عند سكة القطار.. وهتف منصور: سنراه وهو يقفز عليها كالحمار على الأتان.. وقهقه الصبيان وشعرت بالخجل لقلّة عهدها بكلام مكشوف كهذا.

عادت منهكة، مبتلة مثل قطة صغيرة عبث بها تمساح صغير مثلها. زجرتها جدتها: لماذا أنت مبتلة هكذا؟ قالت فهيمة إنها تركتك تطالعين كتاباً تحت شجرة الجوز وتتفرجين على القطارات.. هل سبحت بثيابك؟

قالت زين وهي تلتقط أنفاسها عبثاً: زلّت بي القدم في الساقية.

للمرة الأولى منذ زمن طويل، نامت زين بعد الظهر في قيلولة طويلة دون أن

يأمرها أحد بذلك.. وحينما جلست إلى العشاء ساهمة سألتها جدتها عمّا بها، فقالت: عيناي متعبتان من القراءة وأريد أن أنام مبكراً.. وقبيل الثامنة أوت إلى فراشها بلا شجار وقبل أن تظلم الدنيا، وغطّت رأسها بملاءة السرير وهي تحدّق في ساعتها المضيئة العقارب وقلبها يضرب بانتظار موعد الليل.. وحين وصل المرابع وعروسه حوالى الثامنة واستقبلتهما جدتها بحرارة تظاهرت زين بأنها لم تسمع شيئاً.

* * *

كادت زين تتراجع عن غارتها الليلية لاكتشاف «عرس» المرابع، ولكنها تذكرت السندباد البحري ورحلاته والأهوال التي قاساها ونجا منها وتشجعت.

لا تدري لماذا تبث قراءة القصص في نفسها الشجاعة والإقدام، ربما لأنها تتعرف عبرها إلى أشخاص فضوليين مثلها وتطمئن إليهم وتمضي معهم بعيداً عن عفاريت ما تحت السرير وجني البنات غير المطيعات المكلّف بخنقهن..

إنها رحلتها الليلية السرية الأولى والأهل نيام...

غادرت زين سريرها بعدما كشفت عنه «الناموسية» العازلة للبعوض. لم يكن القفز من النافذة المنخفضة عسيراً.. شعرت زين أنها تقفز عن آخر العالم الذي تعرفه لتتوغل في قلب الأسرار.

زين ترتجف. الأشجار ترتجف. التراب يرتجف. الليل يرتجف. جثث الطمأنينة ممددة تحت الأشجار. في البداية خافت كثيراً، ثم شعرت أنها سعيدة ومستثارة وخفيفة مثل سمكة فضية تعوم في الفضاء. تذكّرت قصة جدتها عن ذهاب ابن الصياد لإحضار الماء للملك من نبع الحياة الأبدية التي تشربها الأميرة وتشفى من شللها. خيل إليها أنها في رحلة مشابهة والماء لها! القمر مفترس الجمال والضياء يتضوع بروائح الزعتر البري والتوت النازف في الحر الشهي والروائح الخفيّة لأشجار الصفصاف والدلب والجوز والحور، وروائح أخرى عطرية غامضة.. والريح العذبة تحرّك رؤوس الأشجار فتبدو أشباحها وكأنها ترقص على رؤوس أصابعها دون أن تبتعد كثيراً أو تقترب، كحلم لا يغادر القلب ولا يلتصق به حتى الألفة المضجرة.. وانتشرت أصوات الليل: البوم الذي ذكّرها وقع صوته العذب في أذنيها بالبيت الكبير. صوت خوار ثور. عواء كلاب. مواء «الهوارين». هدير النهر اللامبالي بمسطرة قياس ارتفاع مياهه الملصقة على الجدار الاسمنتي لمجرى النهر مقابل شرفتهم.. صوت صراصير الحقول وهي تمارس جنونها المسائي الملحاح.

الأصوات السرية لقطط البرية والجراد أحمر الأجنحة والعقارب والسحالي وبنات آوى والأرانب والضفادع.. صوت خطواتها على التراب الحي وشفاه الحصى التي تئنّ مرحبةً بمسيرتها صوب سكة القطار وشجرة الجوز.. والحرية.. والمغامرة. أصوات تتداخل وتنتشر كدوائر الماء على سطح بركة زرقاء سقطت فيها حبة كستناء.. للمرة الأولى تذوق زين طعم الفضاء والحرية المطلقة.. أن تكون وحيدة في الليل مع المجهول والأسرار وتمشي بلا رسن في عنقها..

خافت واستخفّ بها الطرب في آنٍ ونسيت خوفها من جديد حين شاهدت مخلوقات مضيئة كالفراشات الصغيرة تطير أمام عينيها، أم تراه انعكاس ضوء القمر عليها؟ فكّرت بأن تقبض على واحدة منها وتضعها تحت كوب لتتأملها جيداً وتعرف ما هي، ولتظل تستمتع بها وهي تضيء في غرفتها قنديلاً حياً، وكادت تحدّث الصبيان عن ذلك حين وجدتهم بانتظارها.. ثم تذكّرت أنها ليست زين بل زين العابدين، زعيم العصابة الذي لا ينطق بغير ما يبهج أتباعه، وتمنّت للمرة الألف لو كان دريد ولؤي هنا ليشاهدا كيف خرجت في الليل وحدها وكيف لعبت دور زين العابدين تحت الشمس، والآن في ضوء القمر. تجد زين صعوبة أكبر في لعب دورها كزين العابدين ليلاً.. كأنما ثمة شيء في روح الليل لا تفهمه لكنه يدفع بها نحو قول الصدق.. حتى لكأنها فقدت شهيتها لتلك الأكذوبة ـ اللعبة، وكبرت عليها فجأة...

لم يدهشها أيضاً أن الصبيين الكبيرين منصور وفتّاح حضرا وجلبا معهما صبياً لم تره من قبل، وكلهم يرتعد شوقاً إلى المجهول مثلها...

لم يقولوا شيئاً، واكتفت هي بعبارة: اتبعوني وحذار من إصدار أي صوت...

خلع عبد الهادي خفّيه ووضعهما تحت إبطه، وحذا حذوه محمد وسورش ومنصور وفتّاح وبقية الصبيان، وحسدتهم على قدرتهم على المشي فوق الحصى والأشواك بلا حذاء وقرّرت فيما بينها وبين نفسها أن تتدرب على ذلك... ومشت «العصابة» صنوب بيت زين، وقبل أن تصل إليه بمئة متر انعطفت بهم زين يميناً عند الساقية صوب بركة السباحة وتجاوزتها.

همست زين بصوتٍ لا تدري لماذا سمعته مختنقاً وخشناً: لقد وصلنا...

تحت ضوء القمر، كان البيت الطيني المؤلّف من غرفة واحدة، يبدو للأولاد كامرأة عملاقة تمددت على الشاطىء الخاوي عارية مسترخية منفرجة الذراعين

والساقين كاشفةً عن أسرارها، دون أن يخامرها أدنى شك أن «عصابة» من الأطفال الملاعين الصغار كعقلة الإصبع أو كغاليڤر تتلصص عليها.. وحين اقتربت زين من النافذة لتلقي النظرة الأولى على ما يدور فوجئت بستائر سميكة تغطي النوافذ وتصفّحها.. وما من صوت آتٍ من الداخل كأنما ليكتمل السر. وعاد أفراد العصابة إلى بيوتهم مع خيبة الأمل.

* * *

قرب بركة «السقاية» كانت العصابة قد أشعلت ناراً «أبّيلة»[1] وبدأت بشوي السلاطعين حيّة عليها استعداداً للغداء.. حين وصلت زين بعدما غافلت جدتها وفهيمة المشغولتين بإعداد الطعام، وحيّتهم، طالعها سلطعون قذف به عبد الهادي فوق الجمر في منتصفه تماماً. ولوهلة حار السلطعون إلى أين يتجه ثم راح يركض مسعوراً على الجمر، وقبل أن يغادر دائرة النار انهار مستسلماً.. تناوله عبد الهادي وقصف أحد أرجله، ثم كسرها من المنتصف عند الموضع الأكثر عرضاً وشرع يستخرج لحماً أبيض بضّاً بعود صغيرة تناولها عن الأرض ويلتهمه. ابتعدت زين.. كان منظر السلاطعين الراكضة على الجمر يحزنها ولكنها كانت أيضاً تتوق إلى تذوق لحم السلاطعين.. قالت لنفسها: (الصبيان متوحشون.. يقتلون السلاطعين والضفادع)، وتذكرت لؤي الذي غرس صنارة شغل الصوف الخاصة بأمه في حسّون الجيران داخل قفصه وقتله، وأضافت: (ويقتلون الحسّون والعصفور)...

وجاءها صوت آخر من أعماقها.. صوت والدها يقول لها يوم شاهدت للمرة الأولى لؤي يشوي سلطعوناً على جمر شوي الذرة وركضت إليه هاربة باكية: «ولكنك أنت أيضاً تأكلين الخرفان والدجاج. فما الفرق بين موت السلطعون والضفدع والجاموس والخروف؟».

ناداها عبد الهادي: تفضّل يا زين العابدين وكُلْ معنا...

قالت لتجد ذريعة للهرب: أحاول أن أصطاد سلطعوني..

أكّد: اصطدنا الكثير منها عند الفجر حين خرجت من أوكارها.. ولعبنا بها قبل الظهر...

عادت صوبهم وهي تسألهم ببراءة: ألم تناموا؟

قال الصبي الكبير الجميل منصور: لا.. كنا نلعب لعبة العريس والعروس مع

---

(١) الاسم الدمشقي لنار الشواء أو التدفئة في الهواء الطلق.

كل ما وجدناه في دربنا. . الخرفان والقطط والتيوس. . وأنتَ ماذا فعلت؟

لم تجب زين. لم تعرف ماذا يفترض أنها كانت ستفعله كزين العابدين لتجيبه. . . .

وتذوقت وهي شاردة القطعة البيضاء التي استخرجها عبد الهادي من الكلابة العريضة للسلطعون وناولها إياها، وبذلت بعدها جهداً خارقاً كي لا تتقيأ، لكنها دهشت حين وجدتها شهّية فقررت مشاطرتهم هذا الطعام الجديد. وحاولت أن تكسر الكلابة الأخرى بأسنانها فعجزت لقسوة قشرتها، وقالت بعفوية وهي تحطّمها كالجوزة بالحجر: هذه أول مرة أذوق فيها السلطعون. إنه شهي. . وندمت بعدها إذ من المفروض أن زين العابدين يعرف كل شيء.

فرح الصبيان لأنهم أدهشوا زين العابدين أخيراً وصارت تنهال عليه (عليها) «عطاياهم». . ذقْ بطنه، قال أحمد وهو يفتحه فيدهشها وجود بيوض صفر فيه. هل تبيض السلطعونة؟ هل أولئك أطفالها؟ كادت تضعف وتحزن ثم تذكرت أن الصوص يخرج من البيضة، فما الفرق كما قال لها والدها. وعاد صوتها الآخر يسألها: «لا ترتعدي قرفاً. ما الفرق بين بيض الدجاج وهذا البيض؟». . ذاقته فوجدته شهياً، وشاركت الصبيان وليمتهم الهمجية بسعادة وهي تقول لنفسها إنهم ليسوا أشراراً بقدر ما نحب أن نتوهم نحن البنات، ثم تراجعت عن ذلك مرة واحدة وهي ترى الصبي الكبير يعذّب الضفدعة قبل شوي أفخاذها ويحاول أن يفقأ العينين القاسيتين للسلطعون رغم أن المسكين كان يدخلهما إلى صدفته من حيث هما ممدودتان إلى الخارج والصبي يستعين في ذلك بعود ثقاب.

تساءلت زين: تُرى هل بقية البنات مثل الصبيان أم مثلها؟ ولم تجد جواباً على تساؤلها، واضطربت نفسها، وشعرت بالرغبة في الذهاب بعيداً والقراءة، بالرغم من أن الصبي الكبير الوسيم منصور أخذ يغني له (لها): «آه يا زين العابدين / يا ورد مفتح جوه البساتين / سنتين وأنا بستنّاك. . .».

مشت وهي تضرب الحصى بقدمها وغاصت في خضرة حقل الفصة والكرسنة ولحق بها منصور وسألها: هل تريد يا زين العابدين أن نلعب معاً لعبة العريس والعروس؟ أنا العريس لأنني أكبر. . .

وارتبكت زين وصمتت بذهول، لأنها لم تلعب تلك اللعبة من قبل رغم أن كريم العظيمي عرض عليها ذلك مرة. قرّرت الهرب، وقبل أن تتحرك من موضعها

كان منصور ينقضّ عليها ويسقطان في حقل الخضرة. وقبل أن تفتح فمها للاحتجاج كانت يد منصور تحاول أن تتحسس «باريس» من فوق سروالها، وهي نادمة وتكاد تموت خجلاً وتدافع عن نفسها لتهرب. وبعد ثوان، انطلق منصور هارباً منها وهو يصيح مذعوراً: زين العابدين ليس زين العابدين!..

وضحكت «العصابة». فلم يفهموا ما قاله منصور بالضبط، ولم يتوقف هو ليشرح لهم ما يقول، فقد بدا وكأنه فقد صوابه.. أما زين فقد هربت صوب البيت وهي ترتجف والدموع تنهمر من عينيها على غير عادتها.

* * *

لم يصدّق الصبيان ما رواه لهم منصور عن زين العابدين من أنه.. بنت!

قال محمد: مستحيل أن يكون بنتاً.

أضاف سورش: ما من بنت تسبح في بركة «السقاية».

تابع فتّاح: ناهيك عن الدوار.

أكّد منصور من جديد: قلت لكم إنه بنت.. بنت.

أما عبد الهادي فضرب رأسه بيده وقال: لا يجوز أن يكون بنتاً.. هل تفهمون معنى ذلك؟

قال محمد، وقد استوعب فجأة أبعاد الفضيحة: ستصير «عصابتنا» سخرية الوادي...

قال سورش: إذا صحّ ذلك يجب أن نحاصر الفضيحة.. ونكتم السر.. سيقولون إن بنتاً سبحت في الدوار وليس بيننا من يجرؤ على ذلك...

قال منصور: ماذا تعنون إذا صحّ ذلك؟ لقد لمست ذلك بيدي.. إنها بنت.. ألا تظنون أنني في هذه السن أستطيع أن أميّز بين البنت والصبي؟

أكّد عبد الهادي: لا أصدق هذا الهراء كله.. دعونا نذهب إلى بيت زين العابدين ونتحرى عن الحقيقة...

مضت «العصابة» صوب بيت زين، والتقى الصبيان بالحاجة وشقيقتها أم موفق أمام باب البيت وهي تدلل حديقتها. قال لها عبد الهادي: نريد أن نلعب مع ابن أمجد الخيّال.. أين هو؟

قالت الجدة مسرورة: ما زال في دمشق يا ابني.. أنت تقصد دريد ابن أخته أم لؤي ابن أخيه؟

أجابها: أقصد زين العابدين.

سارعت فهيمة إلى إحضار أقراص «المعمول»[1] للضيافة لإلهائهم عن الكلام وقد حدست ما يدور وكانت تتوقعه منذ اللحظة التي ادّعت فيها زين أنها زين العابدين.

قضم عبد الهادي لقمة بلا شهية رغم عشقه للمعمول عسير المنال وقال: نريد أن نلعب مع زين العابدين.. أين هو؟

قالت الحاجة: زين بنت يا ابني.. اسمها الأصلي زنوبيا لا زين العابدين.. وهي البنت الوحيدة لأمجد الخيّال ولا صبي عنده.

سمعت زين الحوار وهي تقرأ في غرفتها خلف الستارة وترتجف ذعراً. وكم دهشت لتلك الراحة التي غمرتها فجأة حين عرف الصبيان حقيقتها.. كانت تظن أنها ستموت لحظة اكتشف سرّها منصور، وأنها ستتحول إلى كومة من رماد حين يعرف عبد الهادي وبقية الصبيان الحقيقة. وها هي تشعر الآن براحة عميقة غريبة تشبه النشوة.. وأرادت أن تخرج وتقول لهم إنها بنت وصبي في آنٍ.. كالعلقة.. لكنها خافت من جدتها التي سألتهم: من قال لكم إن زين صبي يا ابني؟

أجاب محمد وقد نسي في غمرة المفاجأة كتمان السر: هي قالت لنا.. وسبحت في بركة السقاية.. وعند الدوار... وقفزت من الدلبة إلى النهر.. و...

لكزه عبد الهادي وأخرسه. فتراجع منصور قائلاً: إنني أمزح.. إننا لم نرها ولم نعرفها.. سمعنا فقط بابن أمجد الخيّال.. وراح يتفوّه بعبارات مرتبكة متناقضة وهو يخطو إلى الوراء.

انسحب الصبيان بسرعة، وجلسوا عند سكة القطار ولم يكسروا الجوز كأن مصيبة كبيرة حلّت بهم!

* * *

سمعت زين جدتها والخالة أم موفق تتهامسان، ولم تعرف نوع العقاب الذي ستقرر المرأتان إنزاله بها. لكنها لم تخف كثيراً، فجدتها حنون عليها وعلى الآخرين ولم تضرب أولاد عمّها وعمّتيها وجهينة في أي يوم، بل تكتفي بزجرهم والدعاء لهم بأن يهديهم الله. ما كان يقلقها هو كيف تفاوض الصبيان لتظل زعيمة لـ «العصابة»

(١) المعمول: نوع من الحلويات الشامية.

لأنها الوحيدة التي سبحت في الدوار..

تجاهلت الحاجة كل شيء عن حكاية الصبيان ثم قالت لزين ملاطفةً بصوت حازم: ستذهبين مع الخالة أم موفق إلى بيت أم مكارم لتكبّسك ولتثقب لك أذنيك.. قررت أن أهديك «جوز حلق»[1] من الذهب لأنك عاقلة وشاطرة والعافية عادت إليك...

أدركت زين أنهم يريدون دمغها بقرطين ليعرف الجميع أنها بنت...

سألت بهدوء: وإذا قلت لا أريد؟

أجابت الحاجة بحزم بعدما مدّت «شعرة معاوية» حتى أقصاها: هنالك حكاية لا أريد أن أحكيها لابني أمجد.. فأكفنا شر الشيطان واذهبي مع أم موفق.. وسترين كم ستصيرين حلوة بالحلق.. سأهديك قرطي الذهبي بالفيروز وكان هدية من هدايا جدك لي «الله يرحمه».. بعت كل شيء ولم أبعْ «جوز الحلق» هذين.: إنهما آخر ما بقي لي من جدك.

خلعت الجدة من أذنيها قرطاً صغيراً: فيروزة صغيرة ضمن إطار ذهبي مقتصد.. ووضعتهما في يد زين.

قالت زين لنفسها: هذا ثمن حرماني من دور زين العابدين أم أنه تعويض لي عن «القطعة» الناقصة عند البنات.. وكادت تضحك!!

رافقت زين الخالة أم موفق إلى البيت الصغير لأم مكارم قرب «معمل الكهرباء». وفوجئت بالعديد من النساء القرويات ينتظرن دورهن للدخول عليها.

أولتهما أم مكارم اهتماماً خاصاً وأدخلتهما قبل الجميع هي وأم موفق التي طلبت منها تكبيسها بكلام الله ومن ثم ثقب أذنيها لتضع فيهما حلق جدتها.. قالت أم مكارم: سنثقب أذنيها أولاً ثم نكبّسها..

وأحضرت إبرة ثخينة وخيطاً غمستهما بالزيت وطلبت من أم موفق أن تمسك بها ومن زين أن تدير وجهها.. لكن زين رفضت وطلبت منها أن تعقّم الإبرة بإحراقها بالكحول على لهبة الشمعة لتطهيرها من الجراثيم التي تحدثت عنها المعلمة في المدرسة وأصرّت على ذلك.. فجاءت أم مكارم بالكحول وهي تقول لأم موفق نصف ساخرة: تبدو متعلّمة.. بنات هذه الأيام لا يعجبهن العجب

(١) جوز حلق: قرط الأذن.

قالت أم موفق: متعلّمة ومتكلّمة ولكنها «ولد» وأخلاقها صعبة بعض الشيء.. وتابعت هامسة: طالعة لأمها «يا بعدي»!

قالت أم مكارم: الله يهديها.. واشتعلت الإبرة في قعر الصحن المغطى بالكحول بلهبة زرقاء.. وبرّدتها المرأة بالزيت بعدما غسلت يديها أمام زين كما أصرّت وتقدمت منها لتثقب أذنيها.. كادت زين تبكي وقد استولى عليها الذعر، لكنها تجالدت كما يليق بزين العابدين وتماسكت وقد اختنق شيء في حنجرتها.. (**لن أبكي أمامها، سأبكي فيما بعد حين أصير وحيدة. قال لي أبي: عضّي على جرحك ولا تبكي أمام أحد**). أغمضت عينيها بشدة، وانغرست الإبرة في شحمة أذنها، وأدهشها أنها لم تتوجع بالقدر الذي كانت تخشى.. وقصت المرأة العجوز الخيط، وطلبت منها أن تدير لها الخد الآخر. ولم تدرِ زين ما الذي دهاها حين تناولت الإبرة من يد أم مكارم، وقبل أن تفهم المرأتان ماذا يجري شاهدتا زين تغرس الإبرة بنفسها في أذنها الثانية أمام المرآة.. وكاد يُغمى على الشيخة «الساحرة»، أما زين فشعرت بألم أقل وبقوة داخلية تستولي عليها، كتلك التي كانت تسيطر بها على نفسها أمام النبع.. وتحت الدوار.. وغمرتها فرحة صغيرة أنستها وخز الألم في أذنيها وهي تؤكد لنفسها: (**سأبكي فيما بعد حين أكون وحدي.. وسأعض الآن على جرحي**).

قرّرت أم مكارم وقد أذهلها سلوك زين وهي تثقب أذنها الثانية بنفسها أن «تكبيسها» ضروري... وأخذت تدمدم بكلمات غير مسموعة. أغمضت عينيها. وضعت يدها على رأس زين وكان الألم يخترقه آتٍ من أذنيها المجروحتين. صارت أم مكارم تتثاءب بشدة وهي تقول كمن يتكلم في غيبوبة بصوت ممطوط: عليها «ثقل».. هذه البنت عليها «ثقل»، وجسدها كله يرتجف بشدة وزين تتوق للهرب..

تبدّل صوت الشيخة التي كان يدعوها والدها ساخراً بـ«الساحرة» فصار غليظاً، ولم تعرف زين هل يحدث ذلك للعجوز حقاً أم أنها تمثل. وطلبت من أم موفق أن تشعل البخور في «الصحن» وتغلق الستائر لأن «الأسياد» سيحضرون لطرد هذا العفريت الشرير من زين، فقالت لها زين في غمرة خوفها إنها في صلح مع العفاريت ولا داعي لطردهم. تجاهلتها العجوز. مضت تقرأ. تتثاءب. تتكلَم بعدة أصوات. وطأة الجو الثقيل بدأت تخنق زين مع الزبد الذي صار يخرج من فم العجوز. أم موفق تتلو صلواتها مذعورة.

ضاق صدر زين تدريجياً حتى كاد يسحق قلبها وتسارعت أنفاسها..

هربت من ذلك كله إلى شاطىء «الطابيات» في اللاذقية.. وأغلقت أذنها بالصدفة اللامرئية ولم تعد تسمع شيئاً آخر غير صوت البحر، وهي تمشي إلى جانب أمها وتحتمي بها وتطير إلى جانبهما البومة الصغيرة اللطيفة وقد شفي الجرح في جناحها وكبرت.

وقبل ذهابهما طلبت أم مكارم من أم موفق إحضار دجاجة سوداء لذبحها كي تطوف بها حول البئر سبع مرات وتقرأ أدعية خاصة بطرد عفاريت زين. حين غادرت زين بيت أم مكارم شعرت برأسها ينوء تحت ثقل الخيطين المتدليين من أذنيها.. وبحاجة ملحة للبكاء قاومتها وهي تتذكر عين الماء ومقاومتها لشهية الشرب.. ولكن شهية البكاء كانت أقوى، وأنقذها منها مرور القطار الجميل الذي لا تدري لماذا تركض دائماً لتراه، ولكنه دهس هذه المرة قطة أمام عيني زين وأم موفق دون أن يراها أو يتوقف ليتفقدها...

قالت زين إنها تريد دفن القطة، فجرّتها أم موفق من يدها بعيداً وهي تدمدم: «الله يعطينا خير هذا المنظر»...

ليلتها شاهدت زين كثيراً من الكوابيس. نهضت وكتبتها وأودعتها الزجاجة ورمتها في النهر. ترى من يستلم رسائلها تلك؟

* * *

توقعت زين أن تأتي فهيمة لتواسيها صباح اليوم التالي، فأدهشها أنها جاءت لتغبطها وتلحّ على الحاجة وترجوها أن تذهب هي أيضاً إلى أم مكارم لتثقب لها أذنيها وترقيها وتجلب لها الحظ.

رقّ قلب الحاجة لها قائلة: سترافقك زين إليها غداً...

كان انكشاف أمر زين أمام «العصابة» قد روع فهيمة كثيراً، لا لأن الجدة اتهمتها بإخفاء السر، بل لأنها رأت نصب عينيها الانكشاف المحتوم لسرها.. فماذا تفعل حين يكتشف ريمون أنها ليست ابنة أمجد الخيال؟.. لقد التقته سراً تحت الدلبة ليلاً بعدما تجرأ واقترب من نافذة المطبخ وضرب لها موعداً...

لقد غمرها بحبّه، ولم يجرؤ على تقبيلها رغم ضوء القمر المتسلل عبر الأشجار لكنه أسمعها الكلمات كلها التي طالما تاقت إلى سماعها أيام كانت تغار في السينما حين ترى ذلك يحدث لسواها، ومحمد فوزي يقول لمديحة يسري: «أنا بحبك.. بحبك قوي»... ولن تنسى يوماً صوته لحظة غادرته وهو يهمس لها:

سأحضر لخطبتك. هل تقبلين بي زوجاً؟.. وإجابتها الموجزة وهي تفرّ كغزالة: يا ليت...

* * *

عاد الدكتور أمجد من دمشق منهكاً، وغطس بإرهاقه وهمومه في بركة الخضرة الحنون.. كان متلهفاً للسباحة مع زين. أدهشه أن يجدها وقد ثقبت أذنيها وممنوع أن تبتلا بالماء قبل يومين بأمر أم مكارم.

اكتفيا بنزهة صوب الدلبة، في تلك الرقعة النائية الهادئة. وفرحت زين حين شاهدت البومة تتلصص عليها بعينين جميلتين من بيتها الشبيه بثقب واسع في الشجرة. أما أمجد فترك صوت النهر يملأ أذنيه ويطرد منهما الهموم كلها.. «بلاغ رقم ١» من حسني الزعيم[١] يتبعه «بلاغ رقم ١» من سامي الحناوي[٢].. وزلزال يمهّد لآخر فآخر.. وأحلامه التي بدأ ورفاقه بتحقيقها تكاد تتكسر: تأسيس شركات وطنية.. شركة الزجاج ومعملها في منطقة «القدم».. شركة السكر ومعملها في حمص.. شركة الطيران الوطنية.. إنهم بحاجة إلى استقرار وديمقراطية وعمل بدلاً من الشرذمة والتنافس على المكاسب.. فليهدر النهر ولتسقط همومه واحدة تلو الأخرى كما ترمي زين بالأحجار في الدوار.. الحجر تلو الآخر وهي صامتة... ثم تتسلق جذع الدلبة بحثاً عن البومة التي أسمتها «زنزونة». بدت له حزينة وساهمة. حملها فجأة وأنزلها عن الدلبة. قبّلها. أجلسها على كتفيه وأخذ يقفز بها وهو يغني: «زنوبتنا بالوادي.. عما تصرخ وتنادي.. إجا ليها البغدادي.. وإيدي وإيدها بالوادي.. نأكل تين سوادي.. نأكل نأكل لنشبع ونجيب معنا زوادي».. وضحكت زين وهي تغني معه ونسيا همومهما...

بعد العشاء، قال أمجد لأمه: لقد انتزعوا وضّاح من خزامى.

شهقت أمه وأختها: لماذا؟

- خلاف على الميراث.. يريدون الضغط عليها بابنها، لأكل حصتها أو بعضها..

- والقانون؟

- القانون معهم.. فالحضانة لجدته لوالده في حال زواج الأم، وقد تزوجت.

- يا ويلهم من الله.. تزوجتْ من ابن عم المرحوم برضاهم.. وبتشجيع منهم

(١) آذار ١٩٤٩.
(٢) آب ١٩٤٩.

كي لا يكبر ابنها في ظل غريب. . .

ـ القانون لا يفهم هذه التفاصيل. . الحق معها والقانون معهم. . .

عصر الحزن قلب زين. . كانت تحب وضّاح كثيراً، وتكره الفراق.

زاد الخبر خوفها من فقدان الذين تحبّهم. . وجموحها إلى الحرص عليهم. . فنهضت تدلّل والدها وقبّلته فجأة وقد دهمها خوفها المجنون من سفره إلى السماء.

قالت الحاجة: يجب أن نعود إلى دمشق بعد أن ترتاح قليلاً. . لا نستطيع تركهم يواجهون هذه المصيبة وحدهم.

أجابها أمجد: لقد اتصلتُ بكبير الأسرة ابن عم المرحوم عادل والد الشهيد همام، وسنصل إلى تسوية مالية معقولة. . لكن الأمر يتطلب وقتاً. . وخزامى تكاد تجن بلا ابنها. . .

ـ الله يعينها. . .

قررت زين أن تفعل شيئاً هي أيضاً لتعينها ولكنها لم تدرِ كيف. . .

ذهبت إلى فهيمة في المطبخ وروت لها المأساة الجديدة. . ولم تبدُ المبالاة على الصبية، فقد كانت مشغولة بأحلامها المجنونة حول ريمون ملشية. ماذا لو جاء حقاً يخطبها؟

* * *

جاء يخطبها. .

كان قد لمح الدكتور أمجد حين وصل في اليوم السابق. . فارتدى في اليوم التالي «طقمه» الوحيد نصف العتيق وغسل جيداً يديه ونظّف تحت أظافره وقرّر أن يأتي وليكن ما يكون. . يطرده. . يقول له إنه لن يزوج ابنته الجميلة لفقير ومسيحي. . إنه مستعد للاحتمالات كلها، وصوتها: «يا ليت» يحفزه. . .

وفوجىء الدكتور أمجد بزيارة رجل قدّم نفسه على أنه من أسرة ملشيّة المسيحية الدمشقية العريقة بأخلاق رجالها ووطنيتهم، ينمّ وجهه عن الاستقامة وثيابه تشهد على رقة الحال، مما قرّبه من قلبه وهو الذي لم ينسّ يوماً فترة الفقر القاسية ورابطته الوثيقة مع هذا النمط من الرجال الذين يكدحون ليأكلوا بكرامة، فاستقبله بلطف غير مصطنع لأنه كان يكره الفقر ويحب الفقراء ويعتقد بصدق أن سيد القوم خادمهم.

ـ أهلاً يا ابني.. شرّفت.. أمر.. خدمة؟

ـ لا أمرَ عليك ظالم.. جئت يا سيدي أطلب يد ابنتك...

ـ تكرم يا ابني.. شرّفتنا.. لكن ابنتي صغيرة جداً.. إنها بالكاد في التاسعة من عمرها...

ونادى زين التي دخلت وحيَّت ريمون بحرارة وفوجىء بها، فقد كان يظنها صبياً، فتابع يقول: أعني كريمتكم الكبيرة الآنسة فهيمة.. هي التي أطلبها منكم بالحلال...

وصمت الدكتور أمجد ولم يقل شيئاً. فقال ريمون بلا مداورة: أنا دبّاغ. عامل في المدبغة المجاورة.. لم أتجرأ على مصافحتك حين وصلت كي لا تشم رائحة يدي وأوسخ لك يدك. كنت عاملاً في معمل الكبريت في القدم، ولكنهم ـ سامحهم الله ـ تخلّصوا مني لأني يساري ولنشاطي النقابي دفاعاً عن حقي وحق الزملاء. ذلك لا يعني بالطبع أنني أكره المال لكنني أيضاً أحب قناعاتي. لم أطلب من أمي وأبي الحضور لخطبة كريمتك خوفاً عليهما من رفضك، فأنا أعرف أنني فقير أطلب القمر، ولكننا نحب بعضنا بعضاً أنا والبنت.

ندم ريمون حين نطق عبارته الأخيرة.. تذكَّر أن أصحاب معمل الكبريت هم بلا ريب من أصدقاء «البيك»، وسيوغرون صدره ضده وضد زيجة بائسة كهذه، ولا مبرر للزّج بفهيمة في شجار مع والدها، لكنه أحب أن يستقوي بها، وخجل من نفسه وكاد ينسحب قبل أن يزداد غرقاً في شعور بشع بالمذلة والحزن معاً.. لكن صوت الدكتور أمجد انتشله: تريد الزواج من ابنتي بالتبني فهيمة؟ تكرم عينك يا ابني.. ولنا الشرف بزيارتكم أنت وأهلك، ولكن دعني أستشيرها أولاً وسأرد الجواب عليك بعد أيام.. أنتم أسرة محترمة، والمال يأتي ويذهب والمهمّ الأخلاق يا ابني.. أنا موافق مبدئياً ولكن عليَّ أن أستشير البنت.. وأصارحك بأنني أعاملها كابنتي وعلّمتها زين القراءة والكتابة، وهي مثال الأمانة والأخلاق والعمل...

ـ ......

ـ الله يجعل التمام على خير.. سأستشيرها وأترك لك أن تستشير أسرتك أنت أيضاً.. إنها تعمل عندنا منذ عامين تقريباً وهي مثال الاستقامة كما ذكرتُ لك.

ـ ......

ـ بأمان الله يا ابني....

غادر ريمون البيت ودوار في رأسه.. ابنته بالتبني؟ ماذا يعني هذا الكلام؟

يعني ببساطة أنها «الصانعة» التي يؤجرها أهلها للعمل. فهل أريد حقاً الزواج منها حتى ولو كانت «صانعة»؟

وراحت الأصوات تتصارع داخل رأسه.. (وماذا في أن تكون خادمة؟ هذا معناه أنها مثلي تعمل لتكسب رزقها.. ولكن خادمة جميلة مثلها، هل يمكن أن يتركها الرجال من شرهم؟ هل هي شريفة كما تبدو لي؟ هل يستولي عليها كل ليلة أمجد بك على عادة بعض أهل طبقته ويريد الآن تزويجها لي والتخلّص منها ستراً للفضيحة؟ ولكنها تبدو بريئة لم يمسّها بشر.. وأستطيع التحقق من ذلك إذا كانت عذراء.

ماذا لو لم أجدها عذراء؟ سيسخر مني الجميع ويقولون لي: كيف توقعت أن تكون خادمة جميلة مثلها عذراء؟ هل أنت مجنون؟ نعم. أنا مجنون. مجنون بها. وسأتزوج منها. والمهمّ في نظري أن أنجح في إقناع أسرتي التي رفضت مبدئياً فكرة زواجي من ابنة أمجد الخيّال لأنها مسلمة «لا تناسبهم»، فهل يقبلون الآن بخادمته؟ لن يرضى عني والدي بعد اليوم.. لطالما زجرني على نشاطي النقابي، ففي رأيه أن المعركة انتهت يوم طردنا الفرنسيين وأنا أرى أنها بدأت يومها.. فماذا سيقول عني الآن حين أقول له إنني لن أتزوج من قريبتي ابنة العزّ والتربية الحسنة وأريد الزواج من «صانعة»؟ وكيف أفهمه أنني عامل وهي «عاملة منزلية» مثلي؟. بل كيف أفهم نفسي قبله؟. ذلك بالضبط ما يعذّبني. إنني متناقض. لا أريد في قرارة نفسي الزواج من خادمة. والمشكلة ليست بيني وبين أهلي بل بيني وبين نفسي. نعم أحبها لكنني لن أتزوج منها. وداعاً يا فهيمة).

* * *

التقت زين مصادفة بعبد الهادي وهي تهرول على إيقاع صفير القطار لتلوّح للوجوه خلف النوافذ الهاربة.

نظر إلى قرطيها بغضب وكانت له عين حمراء وعين خضراء كما بدا لزين. ركبت فوق بساط الريح وطار بها فوق التل المقابل الذي تحلم دائماً باكتشاف ما يقع خلفه إذ منعها والدها من تسلقه وحدها. حلّق عصفور بالقرب منها وهي على البساط تطير عالياً. رمقها عبد الهادي متعجباً لأنها جلست على الأرض فوق كيس من الخيش ولكنها كانت في خيالها جالسة فوق بساط الريح تطير عالياً وبعيداً. وحلّق نسر يشبه شعار سورية المرسوم على دفاترها وحام بالقرب منها وسألها: هل أنتِ عصفور؟

قالت له: أنا بومة!

ـ ولكن البوم لا يطير إلا في الليل.

ـ أنتَ عصفور دوري لا تعرف شيئاً.

ـ أنا نسر... وأعرف مثلاً أنك بنت صغيرة ومكانك على الأرض لا هنا.

انقضّ النسر عليها وأخذ ينقرها.

وجدت نفسها على الأرض جالسة فوق كيس من الخيش. نهضت ومشت وهي تضرب الحصى بمقدمة حذائها. عثرت على فردة حذاء قديم مهترئة. تساءلت، هل هذا حذاء الطنبوري الذي قرأت عنه؟ لا.. إنه بالتأكيد الحذاء المسحور الذي يكفي أن تنتعله لتقطع آلاف الفراسخ بخطوة. انتعلت الحذاء المسحور، وصارت بخطوة واحدة فوق التل. خطوة أخرى ووجدت نفسها في الهامة. أعادها إلى الريحانية صوت ناجية أخت عبد الهادي وهي تقول لها: لماذا تنتعلين فردة الحذاء المهترئة هذه؟ خلعتها زين بسرعة ولم تقل شيئاً. تابعت ناجية: ظننتك صبياً، ولكن عبد الهادي قال لي إنك بنت.. شاهدتك تسبحين و....

قاطعتها زين: هل تحبين أن أعلّمك السباحة؟

ـ سيضربني أبي.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف.

مشت زين مع ناجية وهي تفتش عن طريقة تعلّمها بها السباحة لتصير أكثر مهارة من عبد الهادي ولتغيظه لأنه قاطعها ولم يعد يلعب معها.

في البيت وضعت ناجية الجرة على الأرض فقالت لها زين: أريني غرفتك.

ـ بيتنا غرفة واحدة هي هذه الغرفة.

ـ وأين تضعين كتب القصص؟

ـ عندي كتاب واحد للمدرسة.

ـ لم أرَ مدرسة هنا.

ـ إنني أذهب إلى «الجديدة» مشياً. هناك مدرستي ومدرسة أخي.

ـ وأين تضعين لعبك؟

تعجّبت ناجية ولم تفهم السؤال. شعرت زين بالارتباك لسببٍ غامض فقالت: تعالي معي. سأعلّمك السباحة في بركتنا. لن يراك أحد.

مشتا معاً، وزين تروي لها حكاية قرأتها عن شاب يترك لحبيبته ثلاث شعرات، وحين تكون بحاجة إليه تشعل شعرة منها فيحضر فوراً حتى ولو كان في أقاصي الدنيا.

حين وصلتا إلى البركة قالت زين وقد ضجرت من حكايتها: «توتة توتة خلصت الحدوتة».

تلصصت الحاجة على زين بحنان وفرحت حين شاهدتها تلعب مع بنت بدلاً من الصبيان، وتعلّمها السباحة وقد أعارتها ثوب سباحة من عندها.

حين مضت ناجية، تأملت زين بسعادة ضفدعاً جميلاً أخضر اللون، وجرادة تتمشى بدلاً من أن تقفز. وذهلت وهي ترى الضفدع يتناول الجرادة بلسان أرسله كالسوط ويبدأ بابتلاعها. حارت هل تنحاز إلى الضفدع الجائع أم إلى الجرادة الحلوة وهي تحبهما معاً، وأحزنها ما يدور أمامها. وقرّرت أن تنام فوق زنبقة كبّرتها في خيالها عشرات المرات فصارت ردهة بديعة من الرخام. تساءلت: ترى أين تنام أمها الآن؟ هل فراشها في السماء زهرة عملاقة؟ وكيف تستطيع أن تموت هي أيضاً لتصعد إلى السماء وترى أمها هناك؟

مرّ بها المرابع مرزوق وخيّل إليها أنه ينفث النار من منخريه المليئين بالشعر، فهربت إلى غرفتها. راحت تتأمل السقف الذي خربت رطوبة بردى دهانه، وشاهدت فيه أشكالاً بشرية بدأت تتضح لها، كما ميّزت حصاناً وساحرة تطير راكبة عصاها وصبياً يشبه صبي السقف في البيت الكبير. وحين أطالت النظر شاهدت الأشكال كلها تتحرك كما لو كان السقف حياً.. وركض على الجدار حتى السقف «أبو بريص» وتمنت لو كان بوسعها أن تفعل مثله وفكّرت بانتعال حذاء من المغناطيس كالذي تجمع به جدتها الدبابيس لتمشي فوق جدار وسقف من حديد.. ثم نهضت وأمسكت بمرآة وجّهتها نحو السقف وصارت تنظر داخلها وهي تمشي وتتخيل أنها تمشي على السقف الذي تراه داخل المرآة.. ضجرت من نزهتها تلك فقالت للجدار: «افتح يا سمسم». فانشق جدار غرفتها عن مغارة، وما كادت تحاول الدخول إليها حتى نادتها جدتها لتناول طعام الغداء!

بعد قيلولة الحاجة جلست تتسامر مع أم موفق، وأشعلتا ناراً لشوي الذرة. تمددت زين على الأرض قرب المنقل وتركت ساقها مرتفعة وصارت ترغم نفسها على إبقائها هكذا أطول وقت ممكن لتمرّن إرادتها كما سبق وطلب منها والدها.. فزجرتها جدتها متعجبةً: لماذا تريد زين إشعال سروالها؟

* * *

لم تتعجب زين لأن خزامى جاءت من بيتها برفقة زوجها هشام تنتحب وهي تتوسل إلى عمّها المحامي أمجد كي يساعدها على استعادة طفلها «المخطوف». لم يدهشها أن عينيها الزرقاوين محمّرتان من البكاء المستمر. ما أدهشها هو أن ترى بوران في وضع مشابه حزناً لفراق حفيد شقيقها. الهشاشة السرية لعمّتها أدهشتها. فقد كانت تبكي شوقاً إلى وضاح بصوت يقطع نياط القلب وتنتحب حتى لتحاول جدته فلك تعزيتها وكذلك جده عبد الفتاح..

لم يخطر يوماً ببال زين أن الخالة القاسية لسندريللا التي ترغمها على الدخول إلى المطبخ لتقشير البصل، تلك المرأة التي قيل إنها لم تبكِ زوجها كما يجب والتي ترتعد منها البنات خوفاً كما جهينة قبل زواجها من عيدو وتعاقب الجميع بلا رحمة أحياناً، يمكن أن تنتحب بدورها طويلاً، لأي سبب كان.. حتى ولو كان ذلك اختطاف ابنتها. أربك ذلك زين التي كانت قد ارتاحت إلى فكرة أن عمتها بوران «شريرة»، وفجّر في أعماقها مشاعر متضاربة غامضة ذكّرتها بصوت الصدفة...

للمرة الأولى أحسّت أنها لم تعد متأكدة من أن «عمتو بوران» شريرة وبلا قلب. ثمة أشياء كثيرة لا تفهمها في الناس وهي التي كانت واثقة من أنها تعرف كل شيء!!

ثم إن زين كانت تحب وضّاح، وغيابه سبّب لها عودة الكوابيس...

حلمت مرات عديدة بموت أشخاص تحبهم وكانت جدتها تقول لها: كُتب لهم عمر جديد. وضاح «اليتيم» كما يدعونه أحسّته قريباً منها وتبنته ولطالما حملته رغم السخرية والقول إنها فأرة تحمل جرذاً.. كان وضّاح الطفل صديقها الوحيد من بين «جيش» الأولاد في البيت الذين يقاربونها سناً ويناكدونها معظم الوقت ساخرين من نحولها وسمرتها وانكبابها على القراءة وعزوفها عن اللعب معهم بحيث بدت لهم من الخارج متعجرفة. لم يخطر ببالهم أنها كانت خائفة وخجولة تغطي خجلها بقشرة من التكبّر والعزلة. مع الطفل وضّاح كانت تجد سلامها، فهو يؤنسها ويسلّيها دون أن يؤذيها. وهو بالرغم من أنه صبي ما زال رقيقاً وعذباً ثم إنه «يتيم» مثلها ويحلو لها أن تعلّمه الكلام.

أحبّت الأسرة كلها وضاح الذي كان يقضي معظم الأيام في البيت الكبير بعد زواج أمه من هشام ابن عم الشهيد همام. جهينة أيضاً بكت غيابه وكان يزورها في بيتها ويلعب مع طفلها، وقالت منتحبة إنها هي التي ربّته.. وقالت الشيء ذاته ماوية وفلك والحاجة، فكل طفل في البيت الكبير ابن للنساء كلهن حرصن على تربيته كما

لو كان ابناً «شخصياً» لهن.

سألت زين دريد: هل تريد أن ترافقني لزيارة وضّاح؟

تجاهلتها عمّتاها والحاجة..

أجاب دريد: لا. خالي سيحلّ المشكلة.. وسأراه حين يعود.. وأيده لؤي في ذلك...

سألت هشام، زوج خزامى الحالي: هل سترافقني أنت؟

قال هشام متجاهلاً سؤال زين وهو يزيحها جانباً مخاطباً الحاجة وعيناه على فلك حماته جدة الطفل وعلى عبد الفتاح جده كمن يعتذر بصورة غير مباشرة: موقفي حرج يا حاجة. صحيح أنه من غير اللائق أن يذهب وضّاح لقضاء يوم الجمعة مع عمته وجدته كعادته فلا ترجعانه، ولكن الخلاف هو بين زوجتي وبيت عمّي... وما بيدي حيلة.. امتعضت خزامى من الاعتذار «الصفيق» - في نظرها - لهشام بدلاً من أن يتدخل لصالحها لاسترجاع وضاح. قارنت بينه وبين زوجها الأول همام وقررت أن المرحوم كان أكثر مروءة وشهامة، ونسيت اللحظات المرة معه وتحوّل همام في ذاكرتها إلى حمامة بيضاء. وأقنعت نفسها بأن اخته هدى هي سبب خلافاتهما أيام كان حياً. سمعت هشام يتابع كلامه: ربما كان من الأفضل أن لا تستفز خزامى بعد اليوم هدى. فهدى تعتقد أن تقوّلات خزامى عنها كانت السبب الحقيقي وراء فسخ خطبتها.. وها هي هدى تنتقم من خزامى عبر أمها (جدة وضّاح لأبيه) بانتزاع طفلها منها وطلب الحضانة رسمياً للطفل في المحكمة. وعلى أية حال، إذا اصطحبتا وضّاح إلى بيت الأسرة الكبير في حماة فلن يجرؤ شرطي على الذهاب إلى حيّنا «بين الحيرين» لاسترجاعه. ولم يقل هشام لخزامى أن من أسباب نقمة هدى عليها زواجها من ابن عمها هشام أي منه وهو الذي كان يروق لها.

سمع أمجد طرف الحوار وهو داخل فقال: القانون معهم ولا بدّ من حل القضية بالحسنى، أي بالمفاوضة، دون قطع «شعرة معاوية» معهم.. ثم إن الدافع الأساسي لـ «اختطافهم» وضّاح مادي، وهو الخلاف على ميراث وضاح من والده وجده، وهي مناسبة انتهزتها هدى لتصفية «حساباتها» مع أرملة شقيقها حيث حرّضت أمها على طلب حضانته. لكن العداوة المطلقة لا تجدي شيئاً، وتؤذي الصبي، فالحضانة شرعاً لجدته في حال زواج أمه.. هذا هو القانون.. صحيح انهم استعملوا وضّاح ورقة مفاوضة، وأنهم حرّضوا خزامى على الزواج إكراماً لحفيدهم

وكي لا يربيه غريب، ولكن تبديل المزاج لا يعاقب عليه القانون، وهو معهم.

سألت زين بفضول: ما هو القانون؟ لم يلتفت إليها أحد. وقال عبد الفتاح: لو كان عادل أبو همام حياً لما حدثت هذه التصرفات الكيدية النسائية، فقد كان رجلاً والرجل مسؤول عن كلمته، وهم الذين اقترحوا على خزامى الزواج من هشام إكراماً لوضّاح لا لانتزاعه منها. حقاً إن كيدهن لعظيم.. وسألت زين وقد صمت الجميع: ما معنى كيدهن؟

وطردوها من الغرفة «بالاجماع».. فهرولت لتزعج بأسئلتها جهينة التي جاءت في زيارة، وجلست في صحن الدار تنصت إلى المذياع الجديد ماركة «زينيت» الذي جاء به أمجد إلى البيت رغم اعتراض عبد الفتاح خوفاً على النسوة والبنات من الفساد وأغنيات الغرام، وكانت جهينة تبكي على أنغام أغنية أسمهان «يا حبيبي تعال الحقني شوف اللي جرالي»...

سألتها زين: متى تصطحبينني إلى السينما؟ متى.. متى؟

أجابتها جهينة: أعدك باصطحابك إلى سينما «العباسية» في حفلة الخميس الساعة الثالثة بعد الظهر إذا سمح لي عيدو بالخروج. قالت زين: ولكن اليوم هو الخميس، فدعينا نذهب بعد الغداء اليوم اليوم اليوم..

كانت جهينة ضعيفة أمام زين وتكنّ لها حباً خاصاً، تنفّذ لها معه كل رغباتها، وتتابع معها الدراسة كلما سنحت الفرصة لتَعَلُّم الإملاء والحساب بالذات لكتابة فواتير الزبونات، رغم عدم استمتاعها بذلك وحبها لخياطة الثياب فقط.

أما الذهاب إلى السينما فيعني أن تتشاجر مع عيدو الذي لا يسمح لها بمغادرة البيت إلا لزيارة آل الخيّال، وهي لا ترغب في شجار جديد معه. ثم إن عليها أن تترك طفلها في رعاية الحاجة، هذا إذا قبلت في هذه الأيام العصيبة. أما حماتها التي تعاملها بأسلوب عدواني فلا أمل يُرتجى من مساعدتها في العناية بالطفل، وهي التي تعاملها منذ زواجها كخادمة بلا راتب ولا حقوق.

تستأذن جهينة أمجد في اصطحاب زين إلى السينما.

يتساءل بصمت: ترى هل يؤذي هذه الطفلة ما ستراه على الشاشة؟.. ويقرّر كعادته: لا أستطيع لفّها بالقطن وإخفاءها في أنبوب مفرّغ من الهواء..

حين غادرتا السينما، استولى على زين شوق دامع ونزوة حادة إلى وضّاح الذي طالما بكى ليرافقهما إلى السينما ورفضتا اصطحابه لصغره. ومرة واحدة حملته

جهينة معهما فبكى أيضاً لأن جارة المقعد كانت تأكل «المجدرة والمخلل»[1] من «سفرطاس» حملته معها إلى السينما كالكثيرات في الحفلة الخاصة بالنساء، ولم تطعمه لقمة...

قالت زين لجهينة: ما رأيك بأن نعود عن طريق «سوق ساروجة»؟

ـ ولكن سوق ساروجة ليست «على طريقنا».

ـ سنحاول أن نرى وضّاح...

ـ كيف؟

ـ سنقرع الباب ونقول إننا حضرنا لزيارته.

قبلت جهينة على مضض بالمرور من سوق ساروجة وهي تضمر إقناع زين على الطريق بالعودة عن هذا الجنون، إذ ماذا لو طُردتا؟

مشتا حتى الزقاق الضيق للبيت، وفوجئتا بعمته الجميلة البدينة هدى وهي تتدحرج من الناحية المقابلة ماشية وقد أمسكت بيد وضّاح.. قالت زين مبتسمة: تعالي نخطفه. تلاشت الابتسامة عن وجهيهما وحلّت محلها نظرة جادة متبادلة، نظرة متهورة. ركضت زين نحوه بطفولة أشواقها وعانقها بلهفة خاصة وهو يشهق مزقزقاً بفرح. ولم تدرِ زين ماذا دهاها.. فقد حملته بين ذراعيها بصعوبة وانطلقت تركض به نحو جهينة التي تناولته منها وضمّته إليها. هنا صرخت بها زين: هيا نهرب به.. اركضي.. ترددت جهينة قليلاً، ثم سرت إليها عدوى جموح زين، وهكذا في لحظة عفوية هربتا بالصبي.. ركضتا منعطفتين في الأزقة الضيقة. والتفتت زين فلم ترَ أحداً يتبعهما، وتابعتا العدو حتى ورشة بناء فارغة من العمال أزالت بعض البيوت تمهيداً لشق طريق، وصرخت زين: انعطفي من هنا.. سنذهب «مقاطعة»[2] كما في بلودان.. وما كادتا تخترقان موضع الورشة حتى وجدتا نفسيهما على بعد خطوات من «المخزن الهندي».. وسارتا بسرعة كي لا يلاحظ المارة هرولتهما وهما تقطعان شارع فؤاد الأول فجسر فيكتوريا وتنعطفان صوب المرجة وسوق الحميدية فالجامع الأموي فزقاق الياسمين.

حين فتحت بوران الباب وقد هيأت نفسها لتوبيخ جهينة على تصرّفها الأرعن كمتشاجرة مع زوجها تعرف أنه لا يريدها أن تذهب إلى السينما وتترك له مهمة الانتباه لطفلهما وتخرج عن طاعته، ولتقريعها بكل ما في صدرها من شحنة الغمّ

---

(١) مقاطعة: طريق مختصرة تمر من أي مكان. (٢) المجدرة والمخلل: طعام شعبي سوري.

المسائي المروعة، فوجئت بهما تعودان إليها بوضّاح. . . وأصيبت بنوبة هستيرية من البكاء والضحك، ونادت أهل البيت وهي تقبّله وتلتهمه احتضاناً وتقبّل يدي جهينة وزين. . وأغمي على خزامى فرحاً، وأصيبت فلك وعبد الفتاح بنوبة صمت وهما يحدّقان بحفيدهما غير مصدقين. ذهلت زين. لن يكف الكبار يوماً عن إدهاشها! فهي خالفت النظام والطاعة وتوقعت أن تضربها عمتها، وإذا بها تقبّل يدها ويد جهينة في نوبتها الهستيرية!!

نصحت جهينة زين فيما بعد بألاّ تنجب طفلاً في أي يوم قائلة: إذا لم يقتلك وهو يولد، فسيقتلك الحزن حين ينتزعونه منك.

لم تفهم زين شيئاً مما تقوله لها جهينة، ولعله تسرّب إلى عقلها الباطن.

«اختطاف» وضّاح بدّل مجرى الأشياء. . ويبدو أن جدته لأبيه وأولادها من ورائها لم يصدقوا إقدام طفلة على ذلك، وتصوّروا أن الدكتور أمجد (ورجاله) كانوا يحرسون الزقاق، وهم الذين تولوا نقل الصبي بدراية بوليسية. ولعلهم أعدّوا بيتاً في الحي كمخبأ مؤقت لوضّاح ريثما ينقلونه ليلاً، وإلا لما فشل عمه الحموي القبضاي، وكل واحد منهم كما يقولون «يقص رأس الحية بأسنانه»، في مطاردة «البومة والصانعة» واستعادته. . .

حضروا إلى طاولة المفاوضات، ودهشت زين وهي تراهم بعد جلستين يتبادلون المجاملات، وبوران وفلك من جهة تتبادلان القبلات مع عمة وضّاح هدى التي تبادلت القبلات مع خزامى وتصافتا. وتمت تسوية قضية الميراث وتعهدت خزامى بدفع ما يلزم لحماتها. أما عن الخطيب الهارب من هدى فقد أقسمت خزامى أنها ليست وراء ذلك. وقالت هدى: لم أكن أريده على أية حال.

قالت زين لوالدها قبل النوم: لا أفهم الكبار. . لا أحب لعبهم. لا أريد أن ألعب معهم. ولن أكبر مهما حدث!

بعدما ذهبت زين إلى النوم، وقف أمجد وحيداً على سطح البيت، وبدت له في الظلام المقمر سطوح الحي كله على سوية واحدة كما لو كان يقف على سطح بيت واحد كبير يمتد من الصالحية حتى سور دمشق!

فكّر بأمزجة زين،! بخجلها البالغ الذي تقطعه نوبات مفاجئة من الجرأة الشبيهة بالتهور وقَلِقَ عليها. صحيح أنها ما زالت طفلة لكنه يخشى أن تكبر وتكبر معها هذه الخصلة. جاء القط هارون الذي أبعده عيدو كارهاً، وكان قد أهداه بنفسه إلى جهينة

ذات يوم حين كانا صغيرين كما اعترفت للجميع بعد زواجها، وادّعت يومها أنه قط صغير لقيط. . جاء هارون يتمسح بساقيه مصدراً ذلك الصوت الودي الذي تظل زين تسأل جدتها عما يعني القط به والحاجة تقول لها: إنه يسبّح الله. وتساءل بدوره: ما الذي يريد القط أن يقوله؟ لاحظ للمرة الأولى أن عالم الصغار ليس صغيراً حقاً، وشعر برغبة في الاقتراب من زين أكثر، ولكن مشاغله في العمل وتحصيل الرزق وحل مشاكل الجميع بصفته «أبو اليتامى» يلتهم وقته.

ظلّ القط يتمسح به بإلحاح. حمله وصار يداعبه سراً وهو يتلفّت حوله كي يتأكد كعادته من أن أحداً لا يراه. وابتسم وهو يتذكّر أنه من غير اللائق أن يبدي رجل مثله مشاعره نحو قط كي لا يفقد هيبته كما قالت له أمه منذ صغره! حمل القط بيد إلى صدره وأخذ يمسح فراءه الناعم بيده الأخرى، وتذكّر أيضاً أن هذا القط هارون أنقذ حياته يوم جاء جنود الانتداب لاعتقاله وكان الطقس حاراً جداً وهو نائم على السطح. وفزع القط الصغير يومئذ حين فتح عبد الفتاح الباب عند منتصف الليل وفوجىء بهم قادمين لاعتقال شقيقه فقال كاذباً إنه مسافر. وركض القط من فزعه صوب السطح وقفز على وجهه فأيقظه وأنقذه بذلك، إذ قفز أمجد بدوره عن سطح الدار إلى سطح آل العسيري الملاصق ولجأ إليهم. . وخاف أن يشي به يومئذٍ ذلك الصديق «المخلص» للانتداب السيد العسيري، وهو الذي كان مخلصاً قبل ذلك للوالي العثماني وزوجاً لبنت الباشا، ولكنه قدّر أنه لن يجرؤ على ذلك بعدما كثر اللغط حول سلوكه غير الوطني وكان الناس في الحي يقولون: «طلعت رائحته»، ويضجّون من أسلوبه في قول «يا عمي» لكل من «أخذ أمه». . على رأي المثل الشامي. وحين علا بكاء طفل الجيران في الظلام ضمّ أمجد القط الدافىء إلى صدره وشعر بأنه وحيد في زقاق الياسمين، وحيد في زحام البيت الكبير، وحيد رغم حبه للجميع وفخره بلقبه «أبو اليتامى». وقد زاد في تفاقم وحشته وإحساسه بالاختناق مسلسل الكوارث الأخيرة، بدءاً بضياع فلسطين واستشهاد همام وانقلاب عطوفة الزعيم حسني الزعيم الذي صار بعدها «دولة الزعيم»، فانقلاب الحناوي وزعزعة الحكم الديمقراطي بالرغم من التحضير لانتخابات نيابية، وانتهاء بوضع أسرة المقهور «أبو عامر» الذي لا حديث له إلا عن العودة إلى بيته في عكا وقلقه على «المونة» التي خلّفها في بيته من السوس وخوفه من إهمال الذين احتلوا البيت وتقاعسهم عن ري حديقته. وأمجد يفتش عبثاً عن وسيلة يقنع بها أبو عامر بترك عامر يذهب إلى المدرسة ولا يضيّع عاماً دراسياً آخر، و «أبو عامر» مقتنع بأن العودة

وشيكة حيث سيرجع عامر إلى صفه ومقعده ومدرسته (لا مناص. ها أنا أفكر من جديد بهموم سواي وكأنهم أنا).

* * *

زين تشاكس لأن والدها يريد مغادرة البيت بعد ظهر الخميس دون أن يصطحبها معه وهي مصرّة على مرافقته. زجرتها عمتها بوران قائلة إنه من الأفضل لها أن تلعب مع حميدة وفضيلة وأمية ورزان..

قال لها والدها: أنا ذاهب إلى ندوة أدبية. ثمة شاعرة ستقرأ قصائدها في منتدى سكينة. لم تفهم زين معنى ذلك. كل ما تعرفه هو رغبتها في أن تكون معه. أصرّت على مرافقته. قال لبوران: حسناً. فلترتدِ ثيابها ولترافقني.

في المنتدى صافحت زين زملاء والدها بهدوء مهذّب أدهشه وحيّت الناس معه. جلست إلى جانبه كما لو كانت صبية. وحين اعتلت الشاعرة طلعت الرفاعي المنبر، صفّقت زين لها بحماس شديد. وأرهفت السمع لقصائدها دون أن تفهم الكثير وهي تتأملها على المنبر شجاعة وجميلة يتدفق الشعر منها، فتتحول القاعة إلى مكان مسحور ويصير الكل رعاياها. صدرها ناهد يشق الهواء باعتزاز، ولا تبدو مكسورة لأن عندها «شيئاً ناقصاً». تخيّلتها زين تدور على الذكور بمقص لتقطعه لهم، ووجدتها، وهي تلقي الشعر هكذا، ملكتهم بكل ما لديهم أو ينقصهم، ولا حاجة لها بمقص لتصير مثلهم!

بعد الندوة الشعرية كانت زين سعيدة جداً حين اقتربت من الشاعرة برفقة والدها وشاهدتها عن قرب. ولم تعد طلعت الرفاعي داخل شاشة سينمائية نائية بل هي كائن بشري مثلها. وامتلأ قلب زين بالشجاعة وصارت تتحدث إلى زملاء والدها الأساتذة بجرأة.

شعر أمجد بالفخر بها وفرح لأنها غادرت قوقعتها ونسي كل شيء عن كلمة الغزل التي كان ينوي أن يهمس بها في أذن الشاعرة.

في الليل وقبل أن تنام قال لها والدها: سأصطحبك معي دائماً إلى الندوات الأدبية. وقال لعمتها بوران: لم أرها يوماً سعيدة هكذا.

* * *

قالت زين بلا مداورة: لا أريد أن أتعلّم إعداد المكدوس. لا أريد أن أشارك في صنع كرات اللبنة. لا أريد أن أشارك في كبكبة أقراص الكبة وغسل «الكروش

والأبوات»[1] وحشوها وحفر الكوسا.

قاطعتها عمتها بوران وقالت لها نصف مداعبة: لن يتزوج منك أحد.

زين تشاكس: لا أريد أن يتزوج مني أحد.

تتابع بوران: سمراء مثلك يجب أن تعوّض عن كونها «جلدة وعظمة» بالشطارة في أعمال البيت.. هل رأيت رجلاً يرضى بالزواج من واحدة مناكدة مثلك حتى ولو كانت جميلة؟

وتابعت كلامها هامسة لماوية: إذا رضي بالزواج منها لثرائها سيقول لها كل ليلة: «قومي لننام يا قفة العظام، ويا حسرة قلبي على البيض الملظلظين السمان»[2].

ناولت بوران زين «جاطاً»[3] كبيراً مليئاً بحلوى «الرز بحليب» لتضعه وسط طاولة الطعام فسقط من يدها وانكسر.. وتطايرت الشظايا ممتزجة بالحلوى البيضاء.

طردتها جدتها من المطبخ وهي تقول لبوران: مسكينة هذه البنت. يداها لا تصلحان لشيء.. مصيرها حين تكبر يقلقني..

هربت زين إلى غرفتها بيديها اللتين لا تصلحان لشيء، لتكتب باستمتاع «وظيفة الإنشاء». كانت من الفتيات القليلات في المدرسة اللواتي يفضّلن المدرسة على البيت ويتضايقن في أيام العطلة الأسبوعية إلا إذا وعدها والدها باصطحابها في نزهة في بساتين أبو رمانة وطريق بيروت حيث الأشجار كثة والبيوت نادرة.

جاء والدها يتفقدها وسألها ضاحكاً: ماذا تكتبين؟

ـ قصة لمجلة المدرسة...

ـ ما اسمها؟

ـ لا أدري بعد...

ـ منذ متى وأنت تكتبين القصص؟

ـ من زمان.. إنني أكتب أحلامي وكوابيسي..

ـ حسناً اكتبي لمجلة المدرسة كهواية، ولا تدعيها تحول بينك وبين دراسة الطب.. أريدك طبيبة حين تكبرين.

---

(١) الكروش والأبوات: أحشاء الخروف.

(٢) السمان: البدينات.

(٣) جاط: إناء مستطيل للطعام.

ظلّت زين صامتة فأضاف والدها: لعل بوسعك أن تجمعي بين الطب والأدب..

قالت مناكدة دون أن تفهم ما يعنيه: لا أقدر.. دوماً تطلب مني الصعب.. لا أحد يطلب من ابنته ما تطلبه أنت مني.. إذا نجحت أمية في صفها دون أن تكون الأولى تمدحها، وحين أكون الأولى في الصف تزجرني لأنني لست الأولى في المدرسة أو في سورية.

ـ تذكّري أن «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين».

ـ ما معنى ذلك؟ إنك تكرّره لي دائماً.

ـ معناه... حسناً سأشرح لك بعد أعوام معناه.. من أين جاءتك فكرة أن تكتبي قصة للمجلة؟

ـ من «معلمة خانم». قالت إنني قد أصير كاتبة.

قال باستنكار: كاتبة؟! وبدت على وجهه أمارات تفكير عميق ولكنه لم يقل شيئاً، كأن الدوامة كانت أعمق من أن تبلغ السطح بسهولة.. وفي عينيه طفت تلك النظرة الزائغة الدامعة، التي تراها زين في عينيه حين يذكر أحد اسم أمها.. كأنه يلمح وجه هند عبر نافذة قطار مسرع تحت المطر.. ما الذي ذكّره الآن بها؟ لم يدرِ.. ولم يدرِ لماذا وجد نفسه يردد بلا صوت:

«كم مرّ أمثالنا على هذه العين، ثم ذهبوا في غمضة عين».

الفصل الأول (محاولة ثالثة)
فسيفساء الظلال المتحركة

(يا مؤمنة بالرجال، يا مؤمنة بالماء في الغربال[1]).

تردد جهينة لنفسها بصمت وهي تتزين أمام مرآتها في غرفة نومها استعداداً للذهاب إلى عرس زوجها من امرأة أخرى (ولمَ لا أذهب؟ ألم تكن لمياء «زبونتي» وصديقتي؟ ألم أكن أنا وسيلة تعارفهما؟).

بكثير من الهدوء تضع جهينة البودرة فوق كريم «البوندس» فحمرة الخدّين. تحيط عينيها الزرقاوين الواسعتين بالكحل. تلعق بلسانها ريشة «الروميل» وتفركها على القرص الأسود الجاف ثم تمررها على أهدابها ببطء يشبه احتضار دمية طفلها، كلما أوشك «الزنبرك» المشدود داخلها على الانفلات وتباطأت حركة ذراعي المرأة الدمية. تمشط شعرها الأشقر الطويل الجميل وتتذكر بأسى حين حلقوه لها «على الزيرو» خوفاً من القمل يوم وصولها إلى قصر الست هند في اللاذقية (عمر من الحزن. يوم تزوج مني عيدو عشت الخاتمة السعيدة لفيلم «ليلى بنت الفقراء». ولم أكن أدري أنه لا توجد خاتمة سعيدة لبنت الفقراء. لستُ أكثر من حفنة ألم). ينتحب قلبها ويستفحل الحزن في كيانها كله. تعلمتْ منذ طفولتها أن حزنها الخاص أمر تافه وقضية لا تخص أحداً ولا يبالي بها آخر. ولذا لا تخطر الشكوى ببالها لأي مخلوق، فهي خادمة منذ طفولتها وإلى الأبد، «صدر البيت» لسواها والعتبة لها. أن تحزن أو لا تحزن لا يعني أن تتوقف لثانية عن متابعة عملها اليومي ولو كان ذلك لدفن أحد موتاها الأحياء أو الأموات أو الغائبين..

بل إنها رحّبت ذلك النهار بالذات بعملها اليومي الشاق. نهضت فجراً والثلج يندف بياضه الكفني بهدوء فوق فناء «الديار». توضأت بالماء نصف المتجلد. صلّت الصبح. انكبت على تنظيف الدار الكبيرة لآل العسيري غرفة بعد أخرى. حتى الغرف المغلقة لشقيقات عيدو منذ زواجهن قامت بتنظيفها، بما في ذلك الغرفة التي سيقضي فيها عيدو ليلة دخلته مع أخرى. فرشت السرير جيداً ونظّفت السجاد بهدوء بارد كمن يسبح داخل مياه ثقيلة مظلمة في نفق آخره نقطة ضوء خافتة ترشده إلى درب عذابه ليتابع السباحة. وكان يقطع عملها فاصل من الخدمات الجانبية كنفض

(١) المثل الشعبي الشامي: «يا مآمنة بالرجال، يا مآمنة بالميّ بالغربال».

الغبار عن ريش النعام والطاووس والأزهار الشمعية في الآنية الصينية الثمينة، وكحمل القهوة إلى حماتها في الطابق الثاني. وكانت تلك قد أدارت الأسطوانة على «الفونوغراف» على غير عادتها في الصباح الباكر، بل وأمرتها بتغيير إبرة الحاكي وامتثلت. . فهي «خادمتها المطيعة» منذ اليوم الذي طردت فيه الخادمة بعد عرسها بأيام ما دام ابنها أحضر إلى البيت خادمة. تعجّبت جهينة لأن اعتلال صحة حماتها التركية زادها تسلّطاً وسمّاً وقسوة. وبدلاً من أن تتعاطف مع تعب الآخرين صارت تتعمد أحياناً أن ترمي بفتات الخبز تحت مائدة الطعام ثم تعود لتتفقده لتتأكد من أن جهينة نظّفت المكان جيداً.

اعتنت جهينة بعد ذلك بوالد زوجها أبو عيدو نصف المقعد منذ مرضه. نظّفت تحته وغسلته وبدّلت له أغطية فراشه بأخرى نظيفة ومكوية ناصعة البياض نضرة بالنيلة كظل الزرقة الخفية الحية في بياض عينيّ طفلها. وكان أبو عيدو طوال الوقت يصبّ عليها شتائمه ولعناته كعادته وهي لا تجيب، كما لم يكن والدها يجيب «البيك» حين يشتمه كما تذكر بوضوح. تلك الشتائم واللعنات أضحت جزءاً من الروتين اليومي لعذابها الشاق الطويل الممتد على طول عصور كما يخيّل إليها. . (فتحتُ عينيّ على الشتائم. وحين أحاول أن أتذكر أبي، لا أراه إلا حافياً محني الرأس أمام رجل يركب حصاناً ويشتمه وهو يلكزه بعصاه والقمل يقفز من رأسه المنكس. مرة واحدة شاهدته يضربه بالسوط فينحني ليصعد البيك على ظهره كي يمتطي حصانه، وحين مضى ضرب أبي أمي وتشاجرا واختبأتُ وأخوتي لأننا نعرف أنه سيضربنا بعد ذلك لذنب نجهله. يوم تزوج مني عيدو طرت فرحاً ببيتي الجديد وتوهمت أنني صرت «السيدة العسيري»، ولكنني اكتشفت بعد فترة أنني انتقلت من خادمة في بيت آل الخيّال إلى خادمة في بيت العسيري. وبدأت أكره البيت يوماً بعد آخر والقط هارون مثلي. صار شرساً يخمش عيدو ولا يهدأ إلا في بيت الخيّال حيث اضطررت للسكوت على إبعاد عيدو له. عاداني البيت. صار ينبت البرد منه وتتنهد البالوعات بروائح كريهة كأنها حنجرة الشيطان. والسوس يتابع أكل الخشب ليلاً كما كنت أظن حتى عرفت أنه صوت الخشب وهو يحتضر ويموت ككل ما حولي. وتناسل النمل في المطبخ والديدان في حوض غسيل أواني الطعام. ومرة رفعت ليفة التنظيف من «المجلى» وصرختُ إذ وجدتُ تحتها مئات الديدان الصغيرة البيضاء المرعبة. وتكاثرت الفئران الحية والميتة أيضاً، وصارت الغربان تهاجمنا أحياناً كأنها أصيبت بالجنون. وراح أبو عيدو يتعفن في فراشه. يوم أنجبتُ الصبي وحمل اسم

جده، توهمت أن شيئاً ما سيتبدل. فأنا أم حفيد أبو عيدو، لكن جده ظل على قطيعته لي، وتحاشى حفيده كمن يبتعد عن «نجاسة». حين تزور شقيقات زوجي البيت مع أولادهن يأمرني أبو عيدو بالذهاب إلى المطبخ مع الصبي ويزجر أطفالهن إذا حاولوا اللعب مع ابني. لقد فرض عيدو حضوري عليهم حينما حاول الانتحار لإرغامهم على القبول بزواجنا، فانتظروا بصبر وحنكة يوم يسأمني ويطردني وابني.

العار الذي لحقهم بزواج ابنهم من خادمة مثلي سيصير ذكرى تشحب مع الأيام عن حادثة طيش لا يخلو منها بيت رفيع المقام. وها هو عيدو يقوم بالخطوة الأولى في درب تصحيح غلطته، وسيتخذ الليلة له زوجة ثانية هي لمياء ابنة برهون الباشا. ولعله اختارها لمجرد أن والدها أحد وجهاء حي القنوات وأكبر أثريائهم، وأستطيع منذ الآن أن أرى ورقة طلاقي ملصقة على جبيني، فإلى أين أذهب بولد؟ وهل كان أمامي غير قبول حجاب «الفراق» الذي كتبته الست بوران لإفساد فرحهم، ونصيحة الحاجّة أم أمجد بحضوري «عرس» زوجي والزغردة للعروسين والرقص فيه تكريماً لفرحتهما؟

حين مرت شقيقات زوجي، ولا أجرؤ على تسميتهن بـ «بنات عمي» أو «بنات حمايي» كما تدعو الشاميات أخوات الزوج.. حين مررن لاصطحاب أمهن إلى العرس، نظرن إليّ مثل حماتي نظرة شماتة أحسستها كلسعة مكواة حامية على خدي. كدت أنفجر باكية، ولكن لا كتف حانية لرأس كرأسي! ما الذي سيقلنه حين يشاهدنني بعد قليل وقد لحقت بهن إلى العرس؟).

تصبغ شفتيها بأحمر وهّاج يضيء وجهها بجمال استثنائي. ضوء الألم المكبوت ينبعث من مسام بشرتها، وتأتي شقرة الشعر الطويل الذي رفعته على قمة رأسها في تسريحة أنيقة وحمرة الشفتين لتضفيان عليها بعض الضراوة الأنيقة الجذابة. كانت ماوية قد علّمتها كيف تتزين لتبدو كـ «ابنة عيلة»[1] لا كدمية في ملهى، وكيف تمشط شعرها وتجمعه فوق قمة رأسها، وكيف لا تضع من الحلي إلا قطعة واحدة أو قطعتين لا أكثر، من تلك التي أهداها إياها آل الخيّال ليلة عرسها كجزء من الجهاز الفاخر الذي منحها إياه أبو اليتامى أمجد.

تتأمل نفسها، وداخل المرآة ترى خلفها سرير عرسها وقد تحوّل إلى فم ثرثار بعشرات الأصوات. (أسمع كل ما قاله لي عيدو في هذا الفراش منذ ليلة الدخلة حين

(١) ابنة عيلة: ابنة أسرة محترمة.

كان يرتجف أمام جسدي كقط صغير حتى ليلة البارحة حين صار نمراً ضخماً يزأر في وجهي: أريدك خادمة لضرتك. وإذا لم يعجبك ذلك خذي ابنك واذهبي إلى بيت أبيك. قالها ساخراً وهو يعرف أنني لا أذكر أبي ولم أرَ أخوتي منذ وصولي إلى دمشق ولا مكان لي أعود إليه، وليس بوسعي أن أعود إلى آل الخيّال بولد. من يرضى بخادمة مع ابنها؟).

تخلع ثوبها المنزلي لترتدي فستانها «السماوي»[1] الجميل الذي يُبدي مفاتنها خصيصاً لهذه الليلة (أريد أن يرى الجميع أنني أجمل منها بما لا يقاس، تلك السمراء «المبعجرة»[2]).

تتأمل نفسها بعدما امتلأ الثوب بها واغتنى باستداراتها. ترى جسدها في المرآة كما لو كان لامرأة أخرى وتشعر بانفصام عنه. تراه بحياد. قامة فارعة وقوية لم تترهل بالإنجاب لكثرة العمل ليل نهار وتشبه صور نساء المجلة الفرنسية التي تنقل عنها «موديلات» الفساتين التي تخيطها لزبوناتها. (كم تشبهين هيدي لامار. لا أنت أحلى. إنك تشبهين بعينيك إليزابيت تايلور، بقامة لانا تيرنر وشعرها الأشقر. هكذا قالت لي ناهدة صديقة زبونتي لمياء برهون الباشا يوم رافقتها إلى عندي لتقيس لمياء فستانها وكنتُ خيّاطتها المفضلة منذ عملي بعد زواجي أسوة بالحاجة حياة في شبابها، ولم أكن قد سمعت بهن كلهن، هيدي لامار وإليزابيت تايلور ولانا تيرنر. كنت أعرف فقط ليلى مراد وشادية وفاتن حمامة وصغيرات أخريات. وسألتُ ناهدة: ومن هن لانا وإليزابيت وهيدي؟ قهقهت لمياء ساخرة من جهلي وقالت ناهدة: نجمات سينما «هول يود»[3]. أرى صورهن في مجلة «الاسنين»[4].

ـ وما هي «هول يود»؟

قالت لمياء عني بتحبب ساخر: اتركيها. إنها «حمارة» لا تعرف شيئاً. موهبتها في يديها و «بس»[5] وفي «شك البراق»[6].

كنت حمارة بالتأكيد لأنني لم ألحظ النظرات المتبادلة بينها وبين عيدو حين التقيا في مدخل البيت وهي في سبيلها إلى الذهاب. سألني بعد انصرافها: من هذه السمراء الحلوة؟ لم أجبه يومها: «ضرتي»، إذ لم أكن أعرف أنها ستصير كذلك!

---

(١) السماوي: الأزرق.
(٢) غير جذّابة وسيئة التكوين.
(٣) «هول يود»: تقصد هوليوود.
(٤) تقصد مجلة «الاثنين» المصرية التي كانت تصدر يومها.
(٥) بس: فقط.
(٦) شك البراق: تطريزٌ بقطع براقة.

فاكتفيت بذكر اسم والدها برهون الباشا بمباهاة وليتني لم أفعل. ولكنني كنت «يا غافل لك الله». بلى، لاحظت بعدها أن عيدو صار يتعمد البقاء في البيت حين تأتي لمياء لتقيس ثيابها، وحين صارحته بذلك صرخ بي: لا أسمح لك بالشك فيَّ! وصرت «أشك فيه»، وأتأمله أحياناً نائماً وأشعر بالغيرة: بمن يحلم يا تُرى؟).

ترتدي جهينة معطفاً واسعاً أسود اللون. تضع «البرلين» على رأسها وكتفيها، وعلى وجهها يتدلى منديل شفاف السواد من ثلاث طبقات، ترفع طبقتين منه وتترك الثالثة على وجهها لترى دربها في الظلام. تفكّر باصطحاب طفلها معها إلى العرس، وتكاد تندم لأنها أودعته عند الحاجّة أم أمجد حين قرّرت اللحاق بالجميع إلى العرس لتتملق ضرتها رقصاً وفقشاً وزغاريد. تشعر برغبة ضارية في حمله معها ليراه الناس، أو ليراه والد العروس أمامه مخلوقاً حياً لا مجرد صورة ذهنية فقد يتراجع عندما يراه عن هذه الزيجة. إنها بحاجة إليه معها حين تدخل إلى العرس. حضوره سيمنحها شرعية ما. لن تعود «الصانعة» الوقحة المتطفلة التي جاءت إلى العرس بالزغاريد. ستصير «أم الصبي». ذلك يمنحها مكانة أرفع بكثير. تتردد في إخراجه من فراشه عند الحاجّة. تكاد ترى وجه طفلها الصغير هانئاً بنومه وهشاً وهي التي تريد الاحتماء به. لا. لن تستعمله ورقة «قاشوش» في لعبة الباصرة أو «دست» في لعبة البرجيز. ندمت لأنها أقلقت نوم الطفل بإيداعه عند الحاجة ولكن ما كان بوسعها تركه مع جده (ماذا لو استيقظ وبكى وأصابه مكروه؟ هل سيعتني به جده إذا مددته بالقرب منه وهو الذي يمنعه من الاقتراب؟ وإذا تركته في سريره وبكى هل يمكن لحنان جده أن يستيقظ وهما وحيدان في البيت؟ حتى إذا استيقظ حنانه وحاول الصعود إلى الطابق الثاني لرعايته لما استطاع، وهو الذي يعجز عن الوصول حتى إلى بيت الخلاء. مرة شاهدتُهُ يجرّ جسده وقد استند على عصاه بيد، وعلى الجدران بيده الأخرى، متحركاً ببطء شديد كسلطعون هرم. اقتربت منه لمساعدته، فرفع عصاه مهدّداً وغمرني بالشتائم التي لا تزال تركض في أذني كالصدى: «يا ساحرة. يا كافرة. التي لا يعرف أحد أصلك. ربطتِ ابني الوحيد وحرمتني من فرحتي به. بحذائي سأدوسك كصرصار أنت وابن الحرام الذي جئت به». يومها سمع عيدو الشتائم. تجاهل ولم يطيّب خاطري كما كان يفعل في الأيام الأولى لزواجنا، قبل أن يمضغني كسفرجلة قضمة قضمة ثم يبصقني «تفلاً»[1]. يومها حدست أن بداية النهاية حانت. ذهبت إلى «ستي» الحاجّة أم أمجد وأنا أضمر الشكوى لها، للتفريج عن

(١) التفل: بقايا القهوة في قعر الفنجان وبقايا ما يلوكه المرء عموماً.

وشيكة حيث سيرجع عامر إلى صفه ومقعده ومدرسته (**لا مناص. ها أنا أفكر من جديد بهموم سواي وكأنهم أنا**).

* * *

زين تشاكس لأن والدها يريد مغادرة البيت بعد ظهر الخميس دون أن يصطحبها معه وهي مصرّة على مرافقته. زجرتها عمتها بوران قائلة إنه من الأفضل لها أن تلعب مع حميدة وفضيلة وأمية ورزان..

قال لها والدها: أنا ذاهب إلى ندوة أدبية. ثمة شاعرة ستقرأ قصائدها في منتدى سكينة. لم تفهم زين معنى ذلك. كل ما تعرفه هو رغبتها في أن تكون معه. أصرّت على مرافقته. قال لبوران: حسناً. فلترتدِ ثيابها ولترافقني.

في المنتدى صافحت زين زملاء والدها بهدوء مهذّب أدهشه وحيّت الناس معه. جلست إلى جانبه كما لو كانت صبية. وحين اعتلت الشاعرة طلعت الرفاعي المنبر، صفّقت زين لها بحماس شديد. وأرهفت السمع لقصائدها دون أن تفهم الكثير وهي تتأملها على المنبر شجاعة وجميلة يتدفق الشعر منها، فتتحول القاعة إلى مكان مسحور ويصير الكل رعاياها. صدرها ناهد يشق الهواء باعتزاز، ولا تبدو مكسورة لأن عندها «شيئاً ناقصاً». تخيّلتها زين تدور على الذكور بمقص لتقطعه لهم، ووجدتها، وهي تلقي الشعر هكذا، ملكتهم بكل ما لديهم أو ينقصهم، ولا حاجة لها بمقص لتصير مثلهم!

بعد الندوة الشعرية كانت زين سعيدة جداً حين اقتربت من الشاعرة برفقة والدها وشاهدتها عن قرب. ولم تعد طلعت الرفاعي داخل شاشة سينمائية نائية بل هي كائن بشري مثلها. وامتلأ قلب زين بالشجاعة وصارت تتحدث إلى زملاء والدها الأساتذة بجرأة.

شعر أمجد بالفخر بها وفرح لأنها غادرت قوقعتها ونسي كل شيء عن كلمة الغزل التي كان ينوي أن يهمس بها في أذن الشاعرة.

في الليل وقبل أن تنام قال لها والدها: سأصطحبك معي دائماً إلى الندوات الأدبية. وقال لعمتها بوران: لم أرها يوماً سعيدة هكذا.

* * *

قالت زين بلا مداورة: لا أريد أن أتعلّم إعداد المكدوس. لا أريد أن أشارك في صنع كرات اللبنة. لا أريد أن أشارك في كبكبة أقراص الكبة وغسل «الكروش

والأبوات»[١] وحشوها وحفر الكوسا.

قاطعتها عمتها بوران وقالت لها نصف مداعبة: لن يتزوج منك أحد.

زين تشاكس: لا أريد أن يتزوج مني أحد.

تتابع بوران: سمراء مثلك يجب أن تعوّض عن كونها «جلدة وعظمة» بالشطارة في أعمال البيت.. هل رأيت رجلاً يرضى بالزواج من واحدة مناكدة مثلك حتى ولو كانت جميلة؟

وتابعت كلامها هامسة لماوية: إذا رضي بالزواج منها لثرائها سيقول لها كل ليلة: «قومي لننام يا قفة العظام، ويا حسرة قلبي على البيض الملظلظين السِمان»[٢].

ناولت بوران زين «جاطاً»[٣] كبيراً مليئاً بحلوى «الرز بحليب» لتضعه وسط طاولة الطعام فسقط من يدها وانكسر.. وتطايرت الشظايا ممتزجة بالحلوى البيضاء.

طردتها جدتها من المطبخ وهي تقول لبوران: مسكينة هذه البنت. يداها لا تصلحان لشيء.. مصيرها حين تكبر يقلقني..

هربت زين إلى غرفتها بيديها اللتين لا تصلحان لشيء، لتكتب باستمتاع «وظيفة الإنشاء». كانت من الفتيات القليلات في المدرسة اللواتي يفضّلن المدرسة على البيت ويتضايقن في أيام العطلة الأسبوعية إلا إذا وعدها والدها باصطحابها في نزهة في بساتين أبو رمانة وطريق بيروت حيث الأشجار كثة والبيوت نادرة.

جاء والدها يتفقدها وسألها ضاحكاً: ماذا تكتبين؟

ـ قصة لمجلة المدرسة...

ـ ما اسمها؟

ـ لا أدري بعد...

ـ منذ متى وأنت تكتبين القصص؟

ـ من زمان.. إنني أكتب أحلامي وكوابيسي..

ـ حسناً اكتبي لمجلة المدرسة كهواية، ولا تدعيها تحول بينك وبين دراسة الطب.. أريدك طبيبة حين تكبرين.

---

(١) الكروش والأبوات: أحشاء الخروف.

(٢) السِمان: البدينات.

(٣) جاط: إناء مستطيل للطعام.

ظلّت زين صامتة فأضاف والدها: لعل بوسعك أن تجمعي بين الطب والأدب..

قالت مناكدة دون أن تفهم ما يعنيه: لا أقدر.. دوماً تطلب مني الصعب.. لا أحد يطلب من ابنته ما تطلبه أنت مني.. إذا نجحت أمية في صفها دون أن تكون الأولى تمدحها، وحين أكون الأولى في الصف تزجرني لأنني لست الأولى في المدرسة أو في سورية.

ـ تذكّري أن «حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين».

ـ ما معنى ذلك؟ إنك تكرّره لي دائماً.

ـ معناه... حسناً سأشرح لك بعد أعوام معناه.. من أين جاءتك فكرة أن تكتبي قصة للمجلة؟

ـ من «معلمة خانم». قالت إنني قد أصير كاتبة.

قال باستنكار: كاتبة؟! وبدت على وجهه أمارات تفكير عميق ولكنه لم يقل شيئاً، كأن الدوامة كانت أعمق من أن تبلغ السطح بسهولة.. وفي عينيه طفت تلك النظرة الزائغة الدامعة، التي تراها زين في عينيه حين يذكر أحد اسم أمها.. كأنه يلمح وجه هند عبر نافذة قطار مسرع تحت المطر.. ما الذي ذكَّره الآن بها؟ لم يدرِ.. ولم يدرِ لماذا وجد نفسه يردد بلا صوت:

«كم مرّ أمثالنا على هذه العين، ثم ذهبوا في غمضة عين».

الفصل الأول (محاولة ثالثة)
فسيفساء الظلال المتحركة

(يا مؤمنة بالرجال، يا مؤمنة بالماء في الغربال[1]).

تردد جهينة لنفسها بصمت وهي تتزين أمام مرآتها في غرفة نومها استعداداً للذهاب إلى عرس زوجها من امرأة أخرى (ولِمَ لا أذهب؟ ألم تكن لمياء «زبونتي» وصديقتي؟ ألم أكن أنا وسيلة تعارفهما؟).

بكثير من الهدوء تضع جهينة البودرة فوق كريم «البوندس» فحمرة الخدّين. تحيط عينيها الزرقاوين الواسعتين بالكحل. تلعق بلسانها ريشة «الروميل» وتفركها على القرص الأسود الجاف ثم تمررها على أهدابها ببطء يشبه احتضار دمية طفلها، كلما أوشك «الزنبرك» المشدود داخلها على الانفلات وتباطأت حركة ذراعي المرأة الدمية. تمشط شعرها الأشقر الطويل الجميل وتتذكر بأسى حين حلقوه لها «على الزيرو» خوفاً من القمل يوم وصولها إلى قصر الست هند في اللاذقية (عمر من الحزن. يوم تزوج مني عيدو عشت الخاتمة السعيدة لفيلم «ليلى بنت الفقراء». ولم أكن أدري أنه لا توجد خاتمة سعيدة لبنت الفقراء. لستُ أكثر من حفنة ألم). ينتحب قلبها ويستفحل الحزن في كيانها كله. تعلمتْ منذ طفولتها أن حزنها الخاص أمر تافه وقضية لا تخص أحداً ولا يبالي بها آخر. ولذا لا تخطر الشكوى ببالها لأي مخلوق، فهي خادمة منذ طفولتها وإلى الأبد، «صدر البيت» لسواها والعتبة لها. أن تحزن أو لا تحزن لا يعني أن تتوقف لثانية عن متابعة عملها اليومي ولو كان ذلك لدفن أحد موتاها الأحياء أو الأموات أو الغائبين..

بل إنها رحّبت ذلك النهار بالذات بعملها اليومي الشاق. نهضت فجراً والثلج يندف بياضه الكفني بهدوء فوق فناء «الديار». توضأت بالماء نصف المتجلد. صلّت الصبح. انكبت على تنظيف الدار الكبيرة لآل العسيري غرفة بعد أخرى. حتى الغرف المغلقة لشقيقات عيدو منذ زواجهن قامت بتنظيفها، بما في ذلك الغرفة التي سيقضي فيها عيدو ليلة دخلته مع أخرى. فرشت السرير جيداً ونظّفت السجاد بهدوء بارد كمن يسبح داخل مياه ثقيلة مظلمة في نفق آخره نقطة ضوء خافتة ترشده إلى درب عذابه ليتابع السباحة. وكان يقطع عملها فاصل من الخدمات الجانبية كنفض

(١) المثل الشعبي الشامي: «يا مأمنة بالرجال، يا مأمنة بالميّ بالغربال».

الغبار عن ريش النعام والطاووس والأزهار الشمعية في الآنية الصينية الثمينة، وكحمل القهوة إلى حماتها في الطابق الثاني. وكانت تلك قد أدارت الأسطوانة على «الفونوغراف» على غير عادتها في الصباح الباكر، بل وأمرتها بتغيير إبرة الحاكي وامتثلت. . فهي «خادمتها المطيعة» منذ اليوم الذي طردت فيه الخادمة بعد عرسها بأيام ما دام ابنها أحضر إلى البيت خادمة. تعجّبت جهينة لأن اعتلال صحة حماتها التركية زادها تسلّطاً وسمّاً وقسوة. وبدلاً من أن تتعاطف مع تعب الآخرين صارت تتعمد أحياناً أن ترمي بفتات الخبز تحت مائدة الطعام ثم تعود لتتفقده لتتأكد من أن جهينة نظّفت المكان جيداً.

اعتنت جهينة بعد ذلك بوالد زوجها أبو عيدو نصف المقعد منذ مرضه. نظّفت تحته وغسلته وبدّلت له أغطية فراشه بأخرى نظيفة ومكوية ناصعة البياض نضرة بالنيلة كظل الزرقة الخفية الحية في بياض عينيّ طفلها. وكان أبو عيدو طوال الوقت يصبّ عليها شتائمه ولعناته كعادته وهي لا تجيب، كما لم يكن والدها يجيب «البيك» حين يشتمه كما تذكر بوضوح. تلك الشتائم واللعنات أضحت جزءاً من الروتين اليومي لعذابها الشاق الطويل الممتد على طول عصور كما يخيّل إليها. . **(فتحتُ عينيّ على الشتائم. وحين أحاول أن أتذكر أبي، لا أراه إلا حافياً محني الرأس أمام رجل يركب حصاناً ويشتمه وهو يلكزه بعصاه والقمل يقفز من رأسه المنكس. مرة واحدة شاهدته يضربه بالسوط فينحني ليصعد البيك على ظهره كي يمتطي حصانه، وحين مضى ضرب أبي أمي وتشاجرا واختبأتُ وأخوتي لأننا نعرف أنه سيضربنا بعد ذلك لذنب نجهله. يوم تزوج مني عيدو طرت فرحاً ببيتي الجديد وتوهمت أنني صرت «السيدة العسيري»، ولكنني اكتشفت بعد فترة أنني انتقلت من خادمة في بيت آل الخيّال إلى خادمة في بيت العسيري. وبدأت أكره البيت يوماً بعد آخر والقط هارون مثلي. صار شرساً يخمش عيدو ولا يهدأ إلا في بيت الخيّال حيث اضطررت للسكوت على إبعاد عيدو له. عاداني البيت. صار ينبت البرد منه وتتنهد البالوعات بروائح كريهة كأنها حنجرة الشيطان. والسوس يتابع أكل الخشب ليلاً كما كنت أظن حتى عرفت أنه صوت الخشب وهو يحتضر ويموت ككل ما حولي. وتناسل النمل في المطبخ والديدان في حوض غسيل أواني الطعام. ومرة رفعت ليفة التنظيف من «المجلى» وصرختُ إذ وجدتُ تحتها مئات الديدان الصغيرة البيضاء المرعبة. وتكاثرت الفئران الحية والميتة أيضاً، وصارت الغربان تهاجمنا أحياناً كأنها أصيبت بالجنون. وراح أبو عيدو يتعفن في فراشه. يوم أنجبتُ الصبي وحمل اسم**

جده، توهمت أن شيئاً ما سيتبدل. فأنا أم حفيد أبو عيدو، لكن جده ظل على قطيعته لي، وتحاشى حفيده كمن يبتعد عن «نجاسة». حين تزور شقيقات زوجي البيت مع أولادهن يأمرني أبو عيدو بالذهاب إلى المطبخ مع الصبي ويزجر أطفالهن إذا حاولوا اللعب مع ابني. لقد فرض عيدو حضوري عليهم حينما حاول الانتحار لإرغامهم على القبول بزواجنا، فانتظروا بصبر وحنكة يوم يسأمني ويطردني وابني.

العار الذي لحقهم بزواج ابنهم من خادمة مثلي سيصير ذكرى تشحب مع الأيام عن حادثة طيش لا يخلو منها بيت رفيع المقام. وها هو عيدو يقوم بالخطوة الأولى في درب تصحيح غلطته، وسيتخذ الليلة له زوجة ثانية هي لمياء ابنة برهون الباشا. ولعله اختارها لمجرد أن والدها أحد وجهاء حي القنوات وأكبر أثريائهم، وأستطيع منذ الآن أن أرى ورقة طلاقي ملصقة على جبيني، فإلى أين أذهب بولد؟ وهل كان أمامي غير قبول حجاب «الفراق» الذي كتبته الست بوران لإفساد فرحهم، ونصيحة الحاجّة أم أمجد بحضوري «عرس» زوجي والزغردة للعروسين والرقص فيه تكريماً لفرحتهما؟

حين مرت شقيقات زوجي، ولا أجرؤ على تسميتهن بـ «بنات عمي» أو «بنات حمايي» كما تدعو الشاميات أخوات الزوج.. حين مررن لاصطحاب أمهن إلى العرس، نظرن إليَّ مثل حماتي نظرة شماتة أحسستها كلسعة مكواة حامية على خدي. كدت أنفجر باكية، ولكن لا كتف حانية لرأس كرأسي! ما الذي سيقلنه حين يشاهدنني بعد قليل وقد لحقت بهن إلى العرس؟).

تصبغ شفتيها بأحمر وهّاج يضيء وجهها بجمال استثنائي. ضوء الألم المكبوت ينبعث من مسام بشرتها، وتأتي شقرة الشعر الطويل الذي رفعته على قمة رأسها في تسريحة أنيقة وحمرة الشفتين لتضفيان عليها بعض الضراوة الأنيقة الجذابة. كانت ماوية قد علّمتها كيف تتزين لتبدو كـ «ابنة عيلة»[1] لا كدمية في ملهى، وكيف تمشط شعرها وتجمعه فوق قمة رأسها، وكيف لا تضع من الحلي إلا قطعة واحدة أو قطعتين لا أكثر، من تلك التي أهداها إياها آل الخيّال ليلة عرسها كجزء من الجهاز الفاخر الذي منحها إياه أبو اليتامى أمجد.

تتأمل نفسها، وداخل المرآة ترى خلفها سرير عرسها وقد تحوّل إلى فم ثرثار بعشرات الأصوات. (أسمع كل ما قاله لي عيدو في هذا الفراش منذ ليلة الدخلة حين

---

(١) ابنة عيلة: ابنة أسرة محترمة.

كان يرتجف أمام جسدي كقط صغير حتى ليلة البارحة حين صار نمراً ضخماً يزأر في وجهي: أريدك خادمة لضرتك. وإذا لم يعجبك ذلك خذي ابنك واذهبي إلى بيت أبيك. قالها ساخراً وهو يعرف أنني لا أذكر أبي ولم أرَ أخوتي منذ وصولي إلى دمشق ولا مكان لي أعود إليه، وليس بوسعي أن أعود إلى آل الخيّال بولد. من يرضى بخادمة مع ابنها؟).

تخلع ثوبها المنزلي لترتدي فستانها «السماوي»[1] الجميل الذي يُبدي مفاتنها خصيصاً لهذه الليلة (أريد أن يرى الجميع أنني أجمل منها بما لا يقاس، تلك السمراء «المبعجرة»[2]).

تتأمل نفسها بعدما امتلأ الثوب بها واغتنى باستداراتها. ترى جسدها في المرآة كما لو كان لامرأة أخرى وتشعر بانفصام عنه. تراه بحياد. قامة فارعة وقوية لم تترهل بالإنجاب لكثرة العمل ليل نهار وتشبه صور نساء المجلة الفرنسية التي تنقل عنها «موديلات» الفساتين التي تخيطها لزبوناتها. (كم تشبهين هيدي لامار. لا أنت أحلى. إنك تشبهين بعينيك إليزابيت تايلور، بقامة لانا تيرنر وشعرها الأشقر. هكذا قالت لي ناهدة صديقة زبونتي لمياء برهون الباشا يوم رافقتها إلى عندي لتقيس لمياء فستانها وكنتُ خيّاطتها المفضلة منذ عملي بعد زواجي أسوة بالحاجة حياة في شبابها، ولم أكن قد سمعت بهن كلهن، هيدي لامار وإليزابيت تايلور ولانا تيرنر. كنت أعرف فقط ليلى مراد وشادية وفاتن حمامة وصغيرات أخريات. وسألتُ ناهدة: ومن هن لانا وإليزابيت وهيدي؟ قهقهت لمياء ساخرة من جهلي وقالت ناهدة: نجمات سينما «هول يود»[3]. أرى صورهن في مجلة «الاسنين»[4].

ـ وما هي «هول يود»؟

قالت لمياء عني بتحبب ساخر: اتركيها. إنها «حمارة» لا تعرف شيئاً. موهبتها في يديها و «بس»[5] وفي «شك البراق»[6].

كنت حمارة بالتأكيد لأنني لم ألحظ النظرات المتبادلة بينها وبين عيدو حين التقيا في مدخل البيت وهي في سبيلها إلى الذهاب. سألني بعد انصرافها: من هذه السمراء الحلوة؟ لم أجبه يومها: «ضرتي»، إذ لم أكن أعرف أنها ستصير كذلك!

---

(١) السماوي: الأزرق.
(٢) غير جذّابة وسيئة التكوين.
(٣) «هول يود»: تقصد هوليوود.
(٤) تقصد مجلة «الاثنين» المصرية التي كانت تصدر يومها.
(٥) بس: فقط.
(٦) شك البراق: تطريزٌ بقطع براقة.

فاكتفيت بذكر اسم والدها برهون الباشا بمباهاة وليتني لم أفعل. ولكنني كنت «يا غافل لك الله». بلى، لاحظت بعدها أن عيدو صار يتعمد البقاء في البيت حين تأتي لمياء لتقيس ثيابها، وحين صارحته بذلك صرخ بي: لا أسمح لك بالشك فيَّ! وصرت «أشك فيه»، وأتأمله أحياناً نائماً وأشعر بالغيرة: بمن يحلم يا تُرى؟).

ترتدي جهينة معطفاً واسعاً أسود اللون. تضع «البرلين» على رأسها وكتفيها، وعلى وجهها يتدلى منديل شفاف السواد من ثلاث طبقات، ترفع طبقتين منه وتترك الثالثة على وجهها لترى دربها في الظلام. تفكّر باصطحاب طفلها معها إلى العرس، وتكاد تندم لأنها أودعته عند الحاجّة أم أمجد حين قرّرت اللحاق بالجميع إلى العرس لتتملق ضرتها رقصاً وفقشاً وزغاريد. تشعر برغبة ضارية في حمله معها ليراه الناس، أو ليراه والد العروس أمامه مخلوقاً حياً لا مجرد صورة ذهنية فقد يتراجع عندما يراه عن هذه الزيجة. إنها بحاجة إليه معها حين تدخل إلى العرس. حضوره سيمنحها شرعية ما. لن تعود «الصانعة» الوقحة المتطفلة التي جاءت إلى العرس بالزغاريد. ستصير «أم الصبي». ذلك يمنحها مكانة أرفع بكثير. تتردد في إخراجه من فراشه عند الحاجّة. تكاد ترى وجه طفلها الصغير هانئاً بنومه وهشاً وهي التي تريد الاحتماء به. لا. لن تستعمله ورقة «قاشوش» في لعبة الباصرة أو «دست» في لعبة البرجيز. ندمت لأنها أقلقت نوم الطفل بإيداعه عند الحاجة ولكن ما كان بوسعها تركه مع جده (ماذا لو استيقظ وبكى وأصابه مكروه؟ هل سيمتني به جده إذا مددته بالقرب منه وهو الذي يمنعه من الاقتراب؟ وإذا تركته في سريره وبكى هل يمكن لحنان جده أن يستيقظ وهما وحيدان في البيت؟ حتى إذا استيقظ حنانه وحاول الصعود إلى الطابق الثاني لرعايته لما استطاع، وهو الذي يعجز عن الوصول حتى إلى بيت الخلاء. مرة شاهدتُهُ يجرّ جسده وقد استند على عصاه بيد، وعلى الجدران بيده الأخرى، متحركاً ببطء شديد كسلطعون هرم. اقتربت منه لمساعدته، فرفع عصاه مهدّداً وغمرني بالشتائم التي لا تزال تركض في أذني كالصدى: «يا ساحرة. يا كافرة. التي لا يعرف أحد أصلك. ربطتِ ابني الوحيد وحرمتني من فرحتي به. بحذائي سأدوسك كصرصار أنت وابن الحرام الذي جئت به». يومها سمع عيدو الشتائم. تجاهل ولم يطيّب خاطري كما كان يفعل في الأيام الأولى لزواجنا، قبل أن يمضغني كسفرجلة قضمة قضمة ثم يبصقني «تفلاً»[1]. يومها حدست أن بداية النهاية حانت. ذهبت إلى «ستي» الحاجّة أم أمجد وأنا أضمر الشكوى لها، للتفريج عن

(١) التفل: بقايا القهوة في قعر الفنجان وبقايا ما يلوكه المرء عموماً.

همي وذعري، لكنني لم أجد صوتي معي. لم يسبق لي أن شكوت لمخلوق، ولعلّ أمثالي لا يحق لهم إزعاج أحد بهمهم. إنني أكثر ضآلة من أن يكون لي همّ أو ألم، وتلك حقيقة لا أملّ من تذكير نفسي بها كما أذكّر نفسي مراراً بأنني حين أشكو همي اعتدي على الناس الأرفع مني إذ أضع نفسي بمنزلتهم إذا شكوت لهم. مكانتي المنحطة كـ «صانعة» تجعل ألمي سرياً وملكاً خاصاً وليس ألماً يهتمّ به الآخرون ويُروى وينصتُ إليه باهتمام كما ينصتون إلى الحكايا الطريفة المختلقة المنسوبة إلى الأولاد المدللين. شعرت أنني إذا شكوت لها سأهينها إذ سأعتبرها نـداً لـي. وسكتُ. لكنها هي فاتحتني. قالت إنها سمعت بخطبة زوجي من ابنة آل برهون الباشا. رفضتُ أن أصدق ونفيت لها الخبر بشدة وقلت لها إننا لا نزال «مثل الدبس والطحينة»[1] وفي غاية الانسجام. وكنت أكذب وكانت تعرف أنني أكذب. وسألتني وأنا أمضي ربما لتقول شيئاً محايداً، هل أنا ذاهبة إلى «بيتي»؟ وبكيت وأنا أودعها ربما من كلمة «بيتي». مشيت في زقاق الياسمين ولم أذهب إلى «بيتي». أسدلت على وجهي نقابي بطبقاته الثلاث[2] وأنا أبكي وأمشي على غير هدى. «بيتي»؟ أين «بيتي»؟ ومن هم أهلي؟ من هو أبي؟ ماذا حدث لإخوتي؟ هل ماتوا جوعاً كما كان سيحدث لي؟ هل أنجبت له زوجته الثانية بناتاً يبيعهن الآن كل واحدة بـ ٣٥٠ ليرة سورية لخمس سنوات يعود بعدها ليقبض الثمن من جديد؟).

تكاد جهينة تنتحب وهي تمر على غرفة نوم زوجها التي ستصير غرفة الدخلة بعد ساعات وترفع نقابها عن وجهها. تدور فيها وهي تكاد لا تصدق أن ذلك يحدث لها ولعيدو (كان عيدو صبياً يرتجف وهو يقف في مدخل الدار يوم أرسلتهُ أمه لتستعير من الحاجة سلم «التعزيل»[3] الطويل الشهير في الحي. قال لي: أريد أن أريك شيئاً. تعالي معي.

بدهشة مستثارة سألته: إلى أين؟ قال هامساً: إلى السطح. اطلعي إلى السطح وسألاقيك من جهة بيتنا. قلت نصف مذعورة: لا أستطيع الآن. قال: سأنتظرك طوال الليل. قولي لستك أن أمي بدّلت موعد الاستقبال إلى أول يوم ثلاثاء من كل شهر. ومضى حاملاً السلم. هل كان عمري يومها ١٢ سنة؟ لا أحد يعرف سني على وجه التحديد، ولا أنا. ولكن عيدو كان في الخامسة عشرة من عمره وليس في الحي من

---

(١) مثل الدبس والطحينة: تُقال دلالة على الانسجام التام.

(٢) في الأسر المحافظة جداً، كانت السيدة تسدل على وجهها ثلاثة مناديل وتكشف أحدها أو أكثر ليلاً لترى طريقها!

(٣) التعزيل: حملة التنظيف الواسعة.

لا يعرف سن الابن الوحيد لأبو عيدو العسيري. أما أنا فكل ما أعرفه هو أنني ولدت يوم صار عيدو ابن الجيران الوسيم يغمرني بنظراته خلسةً كلما التقينا أمام الباب أو تبادلنا التنهدات عبر المشربيات وفوق السطوح حين أصعد لنشر الغسيل وفي ليالي القمر حين تعزف ستي المرحومة هند على العود. بلّغت الرسالة للحاجّة وانتظرت نوم الجميع. صعدت إلى السطح. قال لي: مدّي يدك والمسيه. إنه دافىء. خذيه. إنه لك.

غمرني ذعر لذيذ. وقفت على رؤوس أصابعي وحاولت أن آخذ منه كيساً صغيراً مدّه إليّ وكان الكيس ينتفض كأنه حي.. ماذا فيه؟ لم أستطع الوصول إليه. تسلّق عيدو الجدار وقفز عن سطح بيت أبيه إلى سطح بيت سيدي والقمر مثل عين السماء، عين كبيرة مضيئة ترعانا كما خيّل لي.. وفاحت رائحة الياسمين وصار الفضاء ينفخها في وجهينا كأنها أنفاسه.

رحتُ أرتجف بسعادة لم أعرف لها مذاقاً من قبل. فجأة تحوّلتُ من خادمة لامرئية إلى شخص له حضور، يُرى ويُقفز عن الجدران لأجله. مددت يدي لآخذ الكيس، لكنه ركنه جانباً على الأرض واحتواني بذراعيه. كنت قد أشعلت منقل الفحم على السطح للشواء ظهراً وتساقطت بعض قطع الفحم السوداء على الأرض ولم تتح لي الفرصة لكنسها. وأنا أعود إلى الخلف نصف هاربة سمعت صوت انسحاق الفحم تحت خفّي المنزلي. لحق بي. أمسكني وصوت انسحاق الفحم يزداد ارتفاعاً تحت أقدامنا وهو يحاول أن يضمني إليه وأنا أتملّص وأحاول أن أظل بعيدة على قرب، حتى لامست شفتاه خديّ فاشتعلا. خجلت بسعادة مفرطة وغمرتني رغبة في الضحك والبكاء معاً. هبّت رائحة الياسمين بشراسة. ناولني الكيس بسرعة وقفز هارباً عن الجدار كمن شبّت النار في ثيابه. فتحتُ الكيس قليلاً ومددت يدي إلى داخله وفوجئت بعضّة صغيرة مؤلمة على إصبعي، وبصوت مواء. لقد أهداني قطاً وليداً نام إلى جانبي تلك الليلة. في الصباح حين سألتني ستي هند من أين جاء هذا القط. قلت لها: لا أعرف. كنت أنظف أمام الباب حين سمعته يموء وأشفقت عليه ففتحت الباب وأدخلته. هل أستطيع الاحتفاظ به؟ قالت: احذري من خمشاته.

صباح اليوم التالي فوجئت حين صعدت إلى السطح لنشر الغسيل بآثار أقدامنا على الأرض مرسومة بالفحم، متداخلة متمازجة، وحاولت عبثاً تنظيفها بالماء والصابون كما لو أنها انطبعت فوق الأرض مصرّة على البقاء.. وحتى حين جاء الشتاء وأمطرت طويلاً ظلت تلك الآثار تقاوم الزمن وأنا أخفيها عن الأنظار بأصص

من النباتات. لقد هرب حبنا وبقيت آثار أقدام مروره دعوة للانتحاب).

تدور جهينة في غرفة دخلة عيدو مخموشة على طول جسدها من الداخل، تحت جلدها، بين لحمها وعظامها.. مكوية بألم جارف ألفت احتواءه. (من زمان كان القط يلحق بي أينما ذهبت في البيت. يتمسح بقدميّ ويلعق أصابعي المتورمة في الشتاء برداً وأنا أمسح البلاط والرخام ويدخل لسانه الدافىء في كعبي المتشقق: حملته معي بعد زواجي وكان في الأيام الأولى يواسيني وأنا أتلقى شتائم أهل زوجي. ثم هرم وصار ينظر إليّ ولا يراني.. ويخمش عيدو بفتور مترهل. كل شيء يهرم ويُضجر ويُنسى.. حتى الحب).

تهبط السلم إلى ساحة الدار المكشوفة. تكاد تنزلق والرطوبة المتجلدة تغطي درجاته. في «الديار» تقع نظراتها على مشهد مفاجىء. للوهلة الأولى لا تصدق عينيها. أهذا هو أبو عيدو العسيري حقاً؟ رأته ممدداً في فناء الدار بين البركة ومدخل المطبخ، وقد سقط عن «عرشه» على الأرض، وطارت عصاه بعيداً وهو يحاول النهوض عبثاً مثل صرصار انقلب على قفاه، وسط طبقة من الثلج تحوّلت إلى جليد بفعل البرد (أهذا هو الرجل الذي عشت أعواماً على إيقاع شتائمه اليومية بينما أنا أنظف أقذاره من تحته وأطبخ له طعامه وأغسل ثيابه؟ أهذا هو الذي يبصق على حفيده منذ تعلّم المشي وصار يجرؤ على التسكع في الدار والاقتراب من جده المريض؟ أهذه هي المعدة التي لا تشبع طعاماً حتى أقعدها المرض، والحنجرة التي لن تسكت عن الشتائم حتى يملأها التراب؟ أهذا هو الجبروت وقد خرّ صريعاً على البلاط الذي طالما تشقق كعباي من البرد وأنا أنظفه في الصباحات المثلجة بأقدام تورّمت أصابعها واحمرّت حتى فقدتُ فيها كل إحساس؟ أهذا هو العقاب الإلهي؟ هل تلبي السماء الدعوات حقاً؟). تجمدت في موضعها تراقبه. تتأمله وقواه تنهار. لا تدري كم من الوقت مرّ عليها وهي جامدة هكذا في أبدية من العذاب وشريط تعاساتها معه وبه وبسببه يركض أمام عينيها وهو عاجز هكذا عند قدميها، غير قادر على النهوض والثلج يحيط به ويعزله في جزيرة من المجد المتوارث للبركة الرخامية بطبقاتها السبع والماء ينساب عبر جليدها بصوت يشبه خرير دم نازف من ثور هائل حان وقت تحنيطه.

يشاهدها أبو عيدو، وينظر إليها بخوف. خوفه يجعلها تعي ما لم يخطر ببالها قبل لحظات (ها هو الآن تحت رحمتي. لست مضطرة لقتله. كل ما عليّ أن أفعله هو أن أنظر إليه وأتظاهر بأنني لم أره كما يفعل هو بي منذ أعوام. لا، لم أره ولم

أسمع أنفاسه المتحشرجة بالألم والبرد. سوف أتابع دربي كما لو كان دودة أصغر من أن تُسحق كما يعاملني هو. وبوسعي أيضاً أن أبصق على وجهه الآن كما بصق على وجه ابني، حفيده، يوم حملته إليه بعد الولادة بأيام لأريه إياه للمرة الأولى. وبوسعي أن لا أفعل شيئاً. فقط أن أتركه حيث هو وأمضي إلى عرس زوجي ـ الذي تسبب به ـ كأنني لم أره يموت، وأنتقم منه ومن بناته ومن زوجته ومن زوجي الذي ستتحوّل ليلة عرسه إلى مأتم لوالده. سيموت متجلداً من البرد والكبرياء! ربما كان قد نهض لإحضار كوب ماء من المطبخ كي لا يهبط عن عرشه بمخاطبتي أو يطلب كوب ماء مني. ولعله يفضّل الموت على أن يستغيث بي كي لا يضعني بمنزلته: إنسان يساعده!). ظلّت تتأمله وهي تمشي ببطء نحو باب الخروج. (قد يستغيث حين يقترب منه ملك الموت، ولكن أحداً لن يسمعه من الجيران وسط هذه الدار الكبيرة المحاطة بالغرف الشاسعة الرخامية والجدران العالية في شتاء لا يفتح فيه مخلوق نافذة أو باباً).

تتابع جهينة مشيتها بهدوء وقد انفتحت دورتها الدموية على ليل يتدفق منه سمّ جديد المذاق على شرايينها المليئة بحامض كاوٍ كما لو تجمّع على مر مئات السنين... تلتفت إليه وهي تغادر «الديار» صوب باب الخروج. تراه هشاً شبيهاً بكومة رماد وقد تجمّع على نفسه وكوّر جسده وهو يرتجف برداً، وتشعر أن الهواء البارد ينعشها وأنها صلبة وقوية وجسدها الذي صقله العمل والعذاب صار طوع يديها... وها هي تنتصب طويلة القامة وخفيفة كالريح وبقفزة واحدة بوسعها أن تضع قدماً في جبل قاسيون وأخرى على الغوطة وبخطوتين تقطع مئات الأميال... تدبّ في روحها قوة استثنائية وهي تتجرع من كأس لامرئية شاسعة ترياقاً لا تعرف اسمه. وتصل إلى باب الخروج.

وهي تتأهب لفتحه يتناهى إلى أذنيها صوت أنين إنسان. صوتٌ يعيدها إلى جسدها الآدمي وزمانها ومكانها وعذاباتها وقهرها. ودون أن تفكر لا تدري لماذا تعود راكضة إلى ساحة الدار. تنحني على الرجل العجوز. تحمله بين ذراعيها القويتين وتعيده إلى فراشه وهو يُحدّق فيها بذهول. تمدّده على السرير وترى وجهه جيداً في الضوء الخافت، وإذا به يحدّق هو أيضاً في وجهها وكأنه يراها للمرة الأولى. تقرّب المنقل من سريره وتغطيه جيداً بالـ «حْرَام»[1] الدافىء، وتمضي وهي

(١) حْرَام: شرشف صوفي (بطانية).

لا تدري لماذا اقترفت ذلك في حق ألمها؟ بل إنها كادت تناديه «بيك أفندي» كما تفعل حماتها حين تدلله، لكن أخافها شحوبه وملأها بالرهبة.

حين غادرت البيت عرفها الحارس الليلي لزقاق الياسمين وأصرّ على مرافقتها حتى البيت الذي تقصده وهو متعجب من سلوكها اللامألوف بمغادرة البيت ليلاً بمفردها.

الزينات أمام مدخل بيت والد العروس التاجر الكبير برهون الباشا توجعها. **(أما كان بوسعه أن ينقل لمياء إلى غرفة النوم بلا ضوضاء كهذه؟ ألا يليق الصمت بالقتل؟)**. تدخل ولا تدري لماذا ترتدي أجمل ابتساماتها. تخلع أمام الباب معطفها وحجابها وتسلّم بتهذيب تعلّمته في بيت آل الخيّال. بشيء من الجفاء تُرد لها التحية، ولكن أناقتها البادية وجمالها الآسر وابتسامتها تفرض إفراد مقعد لها بين النساء. **(قالت لي الحاجة: جدتي أم أمي زغردت في عرس ضرتها ورقصت. وبعد أعوام صارت ضرتها أعزّ حبيباتها وتحالفتا على جدي وعاشتا معاً في سعادة وهو يكدح لإطعامهما وأولادهما ودفنتاه بعد ذلك بأعوام وعاشتا بعده عشرات الأعوام في هناء ووفاق. كوني طويلة النَفَس مثل الشام. حبيبك ليس حبيبك وعدوك ليس عدوك.**

لم أجرؤ على أن أجيبها: حبيبي كان حقاً حبيبي، وهو لذلك عدوي الآن.

أحبه أكثر من أي وقت مضى ولكن بمذاق جديد كله كراهية. لم يكن يدري وهو يحفر اسمينا على جذّع شجرة الحور أنه كان يحفره فوق عظام جمجمتي. إنه هاجسي. لا أستطيع ولا أريد الهرب منه. ليس صحيحاً أنني هنا لأنني أخاف من الشارع والطرد والتشرد. أنا هنا لأنه لا مكان آخر لي إلا في مجرّة حبي له وكراهيتي إياه).

تتأمل جهينة غريمتها وكأنها تراها للمرة الأولى. تبدو لها جميلة في ثوب عرسها ولكنها من فصيلة أخرى من النساء: لحمها رخو طري وحريري كالمساند المرفهة التي أسندوها إليها طفلة وكبرت في كنفها. تفتش لها عن عيوب. وبما يشبه الانتصار تلاحظ أن أنفها كبير وكذلك فمها مثل المركب. تفرح بذلك الاكتشاف وتتابع التنقيب عن عيوب لها وهي تتلذذ. يطالعها من فتحة الثوب نهدان. **(هنا سيغرق عيدو برأسه وسيقول لها ما قاله لي. ما أعظم ألمي.. ألمي!.. سأزغرد كي لا أصرخ باكية)**. تزغرد جهينة بصوت عالٍ وترافقها الحاضرات وهن يصفقن لها.

تنهض بقامتها الفارعة لتتمايل رقصاً. ببطء في البداية، ثم تتسارع الرقصة وتصفيق النساء وقرع «الدربكات» وعزف العود، وهي تنحني بقامتها على الحاضرات وتهز جذعها ويتساقط منها الياسمين وغبار النجوم وتهمس بعض النسوة: سبحان الخالق ما أجملها! وهي تتابع رقصتها وتدور على نفسها، ولا تدري لماذا تتذكر يوم ذبحوا الدجاجة في العيد وسقط رأسها على جنبها لكنها ظلت تركض والدم ينفر منها مثلما ينفر الماء من البركة وتركض وتركض فقال اللحام ضاحكاً إنها ترقص. في تلك اللحظة بالذات شاهدت عيدو قادماً إلى عروسه وتذكرت عيدو السطح. . ولا تدري أي جنون جعلها تخرج عن القواعد التي علّمتها إياها ستها الحاجة أم أمجد وتهاجم ضرتها على «الأسكي» كقطة ضارية فقدت رشدها وتضربها على وجهها وتمزق لها ثوب عرسها وهي تنتحب بصوت متوحش مثل صفير قاطرة احتبس بخارها عصوراً. يركض عيدو هارباً بدلاً من تخليص عروسه من زوجته، وتحاول النسوة تهدئتها دونما جهد يُذكر كما لو كن سعيدات بما يدور. . وتضاربت الآراء والهمسات وأم العروس تحاول تخليصها من جهينة.

لا تسمع جهينة صوت امرأة أحرقت ضرتها قلبها تقول: لمياء خرّابة البيوت العامرة. وجهينة ليست «صانعة». . إنها ست وأحسن ست وأحسن خيّاطة. . .

فجأة تتوقف جهينة عن ضرب ضرتها وتقول لها مرتاعة كمن استيقظ من كابوس: سامحيني. . سامحيني. فكّرت بأن تقبّل يدها. بأن تنحني لها كي تطأ فوق ظهرها لتصعد إلى فراش عرسها. تندم وترضى عما فعلته في آنٍ. تمتد يد تعطيها معطفها، وصوت يقول: مسكينة! ترتديه سريعاً. وترفض كوب ماء امتدت به يد إليها، تضربه أم العروس فينكسر وهي ترمي بها خارج الدار وجهينة تنتحب وتقول: سامحيني. . سامحوني. .

* * *

جلبة النساء جعلت والد العروس وأشقاءها يدخلون إلى قاعة «الحرملك»، بالرغم من مخالفة ذلك للأصول، فينسحب «جيش الحريم». البعض يستنكر كذباً ما حدث، وباستثناء أهل العروس كانت الشماتة السرية هي السائدة في التعليقات المستنكرة لـ «فعلة» جهينة.

ما يكاد الأب يرى وجه ابنته لمياء المدمّى المشعث حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله من هذا الزمان! صارت الخادمات وبنات بلا أصل يتجرأن على «الستات»!

يركض عيدو ليضمّ إليه عروسه، فيصرخ به والدها: لا تلمسها. يلتف حولها أخوتها وشقيقات عيدو وأمه. يدمدم عيدو: ولكن.. ولكن..

يتابع والدها: صحيح إننا كتبنا الكتاب، لكن الليلة لن تكون ليلة الدخلة. أريد «أن أنام» على ما حدث، وقد يكون من الأفضل لك أن تُطَلِّق واحدة منهما. نعم. عليك أن تطلق واحدة منهما.

يقول عيدو غاضباً هائجاً: الخادمة طالق بالثلاثة... ويحاول أن يجرّ عروسه من يدها. تنفر منه وتحتمي بأشقائها.

* * *

تقفل جهينة جيداً باب غرفة النوم بالمفتاح من الداخل حين يقرع عيدو الباب هائجاً..

يسمعه أبو عيدو والجيران وهو يصرخ كثور خائر مهدداً بكسر الباب إذا لم تخرج من البيت هي وابنها حالاً.. لا يعرف أن ابنه نائم عند الجيران.

شقيقات عيدو يحطن بالأب مليئات بالقلق كأمهن، ينتظرن اللحظة «المباركة» التي تخرج فيها هذه «الحيوانة» من بيتهن وتأتي إليه كنّة تليق بعراقته.

الأب صامت يتأمل ما يدور وقد أسندته الأم بالعديد من الطنافس كملك. وفجأة يقول بصوت متعب خافت: ليدعها الآن تنام وليذهب هو إلى النوم والصباح رباح. قولي له إنني أريد أن «نتحادث» بعد صلاة الصبح.

* * *

لم تبدأ جهينة أعمالها المنزلية كعادتها قبل انبلاج الفجر ولم تتوضأ لتصلي الصبح، وفوّتت على عيدو فرصة صفعها، وكان قد نام ليلاً نوماً قلقاً مضطرباً على أمل ذلك.

وحين ناداه والده فجراً هبط إليه، وافتقدت بنت الباشا التركي أم عيدو «خادمتها» التي تعدّ لها القهوة عادة في الفجر البارد. أشعلت المنقل بنفسها وكانت قد نسيت هذه العذابات الصغيرة بوجود خادمتها / كنّتها، واضطرت لخدمة نفسها بنفسها ناهيك عن زوجها. سأل أبو عيدو العسيري: ما الذي ستفعله يا ابني الآن؟

ـ سأطردها طبعاً مع ابنها وأطلّقها وأتزوج من المرأة التي تليق بي. كانت غلطة طيش وقد صحّحتها.

صمت الأب طويلاً قبل أن يقول: لا يا ابني. لا تستطيع أن ترمي ببنات الناس هكذا وبابنك.

ذهل عيدو كما أمه التي كانت تتنصت من خلف الباب فقررت الدخول إلى الغرفة تذكيراً بحضورها وإرادتها!

ومن الذهول انتقل عيدو إلى الغضب: الآن سأرمي بها في الشارع بثياب النوم تلك الـ. . . .

أجابه والده بحزم، وكاد عيدو لا يصدّق أذنيه وهو يسمعه يقول: جهينة في بيتي وفي حمايتي. لن يرمي بها أحد في الشارع لا هي ولا حفيدي. كانت تلك هي المرة الأولى التي يلفظ فيها أبو عيدو اسم جهينة، وكان يدعوها «الصانعة» أو «الكافرة»، ناهيك عن «ابنها» الذي صار اسمه الآن: «حفيدي».

قال عيدو: ماذا دهاك يا أبي هل خرفت؟ هل سحروك؟ هل كتبت لك بوران خانم؟

بدا الغضب على وجه والده وظلّ صامتاً.

أضاف عيدو: أنا أو هي في هذا البيت.

ساد صمت متوتر قبل أن يقول الوالد: جهينة ستبقى في هذا البيت. لا نستطيع معاملة «بنات الناس» هكذا. عيب! لم تمت النخوة بعد.

بدت في عينيّ عيدو نظرة تقول: «قريباً تموت أنت وأطردها. . («بنات الناس»؟ أي ناس؟ تعرف أنها آتية من «وراء البقر». وأنني وقعت في غرامها كالمجنون ولا أدري أية ساحرة كتبت لي، ولقد انفك الرصد الآن).

كأن أبو عيدو قرأ صمته. صارا يتفاهمان بالتخاطر. قال أبو عيدو لابنه: الآن سأسجّل البيت باسمها واسم ابنها. لن يجرؤ أحد على طردها وحفيدي لا في حياتي ولا في مماتي. يا ابني دعنا نرجع إلى أصلنا.

ـ أصلنا. . أصلنا. . نحن مع واحدة بلا أصل؟ تجعلني سخرية الناس ليلة عرسي؟ وأنا الذي رفعها من القمامة.

ـ «مثلك مثلها». . هي أيضاً خلقة الله. .

جرّت أم عيدو ابنها من يده وهي تشير له بأصابعها على رأسها بما معناه أن

عقل زوجها لم يعد صالحاً لشيء. . وأنه «يخضّ» و «ترللي»[1].

غادر عيدو الدار هائجاً وهو يقول لوالده: لن أعود قبل أن تطردها.

سُرّت أمه واثقةً من أن ذلك سيردع زوجها الذي أصابه الخرف وكان «تاجر التجار» وسيدهم. . ودمدمت: أمان. . أمان. . لعن الله المرض والتقدم في السن! لكنها لم تجرؤ على رفض طلبه حين أمرها بالذهاب إلى بيت الخيّال والطلب من أمجد الحضور لأمر هام يخصّ جهينة، لأنه لا يستطيع الذهاب إليه.

* * *

ـ طلبتني. ماذا تريد؟ أن أخلّصك منها؟

ـ إنك محامٍ وأثق بك. أريد أن تُحضر إلى بيتي كاتب العدل. أريد تسجيل هذا البيت باسم جهينة وحفيدي.

ذهل الدكتور أمجد. كان قد سمع بفضيحة ليلة البارحة حين جاءت صديقة لماوية عند الفجر لتخبرها بما شاهدته في العرس، وكاد يأتي من تلقاء نفسه لاصطحاب المسكينة التي أوصته بها زوجته خيراً، وامتلأ قلبه بالندم لأنه سايرها حين اختارت القطيعة مع أهلها واهماً أنه يمنحها حياة أفضل. بل إن الحاجّة احتفظت بالطفل عندها واثقة من أن جهينة ستُطرد مع تباشير الصباح.

توافد الرجال على مجلس أبو عيدو يتسقطون الأخبار، وبينهم والد العروس وأخوتها.

قال أبو عيدو بصوت واضح رداً على طلبهم بتطليق جهينة وطردها من البيت كشرط لإتمام الزواج: عيب يا رجال. لسنا بلا نخوة. لا أستطيع التخلي عن حفيدي وأمه.

قال والد العروس: ابنتي لن تسكن في هذا البيت مع ضرّة ليست من قيمتنا وقيمتكم، وضرّة مجنونة فوق كل شيء.

أجاب أبو عيدو: بوسع عيدو وعروسه الإقامة حيث يحلو لهما. هذا البيت صار لحفيدي وأمه.

لم تكن جهينة نائمة. لم تغمض لها عين طوال الليلة السابقة. تسللت قبل الفجر وحملت الحليب للقطة التي استعادتها قبل يومين من آل الخيّال رغماً عن إرادة عيدو، وكانت تموء وتموء وقد دبت فيها حياة جديدة لا تخلو من العدوانية الشرسة.

(١) مجنون.

وحين تركتها تغادر الغرفة سمعتها تهاجم عيدو وتخمشه بشدة وسمعته يصرخ ألماً ويلعن «ساعتها».

غادر عيدو البيت ولم تجرؤ جهينة على الهبوط، كما لم تجرؤ على ذلك حتى حين سمعت «سيدها» أمجد الخيال وهو يتحدث مع «عمها».

حين أُعيد الطفل ظهراً سجنته معها في الغرفة وهي ترتجف ذعراً. لكن الطفل غافلها وتسلل مثل مجرم على السلم ولحقت به لإعادته، لكن جده لم يبصق في وجهه هذه المرة بل أخذ يراقبه وخيّل إليها أنه ناداه باسمه، لكن الطفل لم يستجب له وعاد إليها هارباً.

* * *

جاء كاتب العدل.. ومضى دون أن تدري جهينة به.. جاء عشرات الرجال ومضوا.. وما كادت تتسلل كجائع مطارد لتسرق من المطبخ بعض الطعام لها ولابنها مذعورة من شقيقات زوجها اللواتي تقاطرن على البيت حتى سمعت صوت زين تسأل عنها آتية برفقة جدتها وبوران.. وتصعد إليها. فضمتها إلى صدرها مثل شقيقتين تلتقيان بعد طول فراق. قالت لها زين ضاحكة ببراءة: سمعت أنك ضربتها «بوكس»[1].. لماذا لم تضربيه هو؟

أجابتها جهينة: لم أكن أعرف ما الذي أفعله.. لا حين حملت عمي ولا حين ضربت ضرتي..

نقلت بوران إليها مستثارةً نبأ ملكية البيت التي انتقلت إليها وإلى ولدها، ونصحتها بأن تنام الليلة القادمة عندهم خوفاً من انتقام حماتها وبناتها، ريثما يستوعبن الصدمة. بدت جهينة نائية كأنها لم تسمع ما يُقال لها ولم تدرك مدى خطورته وأهميته، ولم يبدُ عليها أنها تفهم مدلوله، حتى إن بوران بدت أكثر سعادة منها.. أما زين فلم تفهم شيئاً غير أنها سعيدة مع جهينة التي تصطفيها بحبها. بقيت زين عندها بعد ذهاب بوران، فأسرَّت جهينة إليها بحكايتها مع عمها والد زوجها. كانت تعرف أن الأطفال وحدهم يكتمون السرّ.

* * *

قبل أن يغادر أمجد البيت وبرفقته زين إلى النزهة قالت له الحاجّة: دع دريد يرافقكما.

---

(١) ضربة ملاكم، لكمة.

فرحت زين حين رفض دريد ذلك وازداد التصاقاً بجمر المنقل، فقد كانت تحب كثيراً الانفراد بوالدها حيث يحدّثها كبنت كبيرة، كندٍ، لا كطفلة كما يعاملونها في البيت.

قالت بوران: اترك زين في البيت. الطقس البارد سيلهب لوزتيها وتمرض من جديد.. قاطعها الأب: يجب أن تألف كل شيء. ثم إن الطقس ليس بارداً والشوارع أكثر دفئاً من البيت.

حين غادرا «زقاق الياسمين» تنهدت زين براحة وقد نجت من فخّين كان يمكن أن يأتيا على نزهتها مع والدها!...

قال أمجد: كنت أريد اصطحابك إلى الباب الشرقي لتري من أين مرّ القديس بولص. ولكن الطقس بارد بعض الشيء، فدعينا نتغلغل في الحارات الضيقة. زارا المكتبة الظاهرية فالجامع الأموي من الداخل، ومنه إلى المتحف وهو يؤنبها لأنها لا تستأذنه في الذهاب مع رفيقاتها إلا إلى السينما!

ذهلت زين أمام لوحات الفسيفساء.. وكيف تبدو الصورة من بعيد وكأنها لوحة واحدة، وحين تقرب وجهها منها تجدها مؤلفة من آلاف القطع الصغيرة.. وبدأت زين تحاول أن تحصيها وهي تلامسها بإصبعها خلسة واحدة واحدة.. سألها والدها: ما الحكاية الآن؟ قالت بدهشة مستثارة: انظر.. كم هي كثيرة، وواحدة.. من بعيد واحدة، ومن قريب آلاف.. قال والدها: هذا هو الوطن يا زين.. وأنت قطعة الحصى الملونة الصغيرة هنا في اللوحة.. اختارت أن تكون الحصاة الخضراء.. لا.. الحمراء، لا.. البرتقالية.. وحارت ولم تفهم معنى «هذا هو الوطن» لكن أعجبتها موسيقى كلمة «الوطن»... كم تحب موسيقى الكلمات!

في بلودان عشقت موسيقى كلمة «وداعاً» وصارت تودّع الأشجار التي صادقت لأنها قد لا تعود إليها في السنة القادمة.. تهمس لها: وداعاً.. وداعاً.. وتحب صوت الكلمة.. كانت تشعر بلوعة الفراق لأنها قد لا ترى ثانية شجرة اللوز والجوزة النحيلة الطويلة والأرجوحة و«الأساطيح» التي تقفز فوقها من سطح إلى آخر حتى تصل إلى السوق حيث «بقالية» أبو جريس صاحب البيت وتشتري كيلو بندورة بفرنكين كما أوصتها جدتها ورطل تفاح سكري. كان الفراق يحزنها كالموت. يرعبها ويزلزل عالمها الصغير فترشو نفسها بموسيقى الكلمات. قبل العودة إلى «الشام»، ودّعت ساحة بلودان وسارة ووداد وهاجر والكنيسة الصغيرة التي رافقت

إليها أم جريس بفضول في مدخل الحارة الصغيرة على حافة الدرج العريض الذي يقود إلى الساحة وهمست للناس والأحجار والبوم والأشجار: وداعاً.. وداعاً..

أذهلت زين أيضاً النقوش والكتابة على الجدران.. الكتابة.. كم هذا جميل مثل الكتابة على المشكاة في مدخل بيتهم.. أدركت أن زيارة المتحف قرّبتها من محتويات بيتها وكانت تجدها كئيبة. لم تتأمل يوماً الزجاجة الشبيهة بإناء منتفخ الوسط ينساب بدنه إلى أسفل التي يدعوها والدها بالمشكاة، وحين تضيء ينسكب اللون الأخضر الشفّاف والآيات القرآنية المخطوطة عليها والرسوم الهندسية والزخارف الإسلامية. قالت ذلك لوالدها وأسعده اهتمامها، وتذكّر أيضاً أيام عمله مؤذناً في الجامع وكيف كان يضيء المشكاة قبل صلاة المغرب في زمن ما قبل الكهرباء فينزلها بالسلاسل المتحركة التي تربطها إلى السقف ويشعل الزيت داخلها ثم يعيد رفعها وتفوح منها رائحة زيت الزيتون والسمسم والسيرج، وكان فخوراً بأنه «صبي الجامع». كاد يقول لزين عن حنينه هذا، لكنه أدرك أنها لن تشاركه رعشته بذكرياته، فقال لها إنهما سيتابعان المشوار لزيارة قبر صلاح الدين.

ثم استدرك وسألها إن كانت تشعر بالبرد؟ كانت ترتجف ولكنها قالت له: لا.. إني سعيدة. متى تصطحبني إلى باريس مثل نديدة رفيقتي في المدرسة التي رافقت أبويها إلى هناك؟ قال لها: قبل السفر يجب أن تتعرفي على بلدك. ثم أضاف: ما رأيك بالذهاب هذا الصيف في جولة إلى تدمر ودير الزور والسويداء وكسب وصلنفة والشاطىء السوري بعد أن نزور اللاذقية وحلب وحماة وحمص وبصرى وغيرها من الأماكن؟ من المهم أن تزوري سورية أولاً. فرحت لأنه ذكر اسم اللاذقية. كانت تحب تلك المدينة وخالتها وبقية أفراد أسرة أمها وتتمنى الذهاب إليها أكثر وأكثر. كادت تسأله: ونحن هناك لماذا لا تصطحبني لزيارة قبر أمي؟ تدافعت الأصوات إلى حنجرتها والأسئلة والصور، ولم تجرؤ على قول كلمة كي لا تؤلمه كما سبق وحذّرتها جدّتها.. فاكتفت بالقول: أتمنى ذلك...

سألها: هل تحبين سورية؟

ـ كثيراً...

ـ لماذا؟

ـ وأنتَ هل تحب أمك؟

ـ كثيراً...

ـ لماذا؟

هكذا تجيبه باستمرار كلما طرح عليها سؤالاً لا تعرف له جواباً. وانفجرا يضحكان معاً حين مرّ بهما الدكتور معروف والدكتور أنور.. قدّمها إليهما فحيّتهما بتهذيب. وقال معروف: إذاً هكذا تقضي أوقاتك مع ابنتك وأنتما تضحكان كالأصحاب؟

كانا في طريقهما إلى زيارة زميلهما في التدريس الجامعي الدكتور جورج المتوعك الصحة.. ورافقهما أمجد وزين في السيارة إلى باب توما حيث بيت المريض.. وجلست زين بين عمو معروف وعمو أنور، وراحت تحاورهما مستشهدة بآية من «جزء عمّ». وتَقَرَّرَ اصطحابها فيما بعد معهم لزيارة أخرى.. ولسيرانهم ورفاقهم من الوجهاء والتجار وأساتذة الجامعة وبعض المحامين مع والدها في اليوم التالي الجمعة في مزرعة الدكتور معروف في الغوطة لتلعب مع بناته أيضاً أو لتجلس معهم كما أنذرهم والدها!

وحين عادا ليلاً كانت بوران «مسمومة»[1] من إفساد شقيقها لابنته التي تحاول عبثاً تربيتها.. وقالت لها بلهجة حازمة: غداً ستقفين معنا في المطبخ لتتعلمي إعداد «المحاشي»[2].. أجابت زين متحدّية: غداً أرافق أبي إلى سيران الدكتور معروف. إنني مدعوة شخصياً..

تعجبت بوران من سيران رجال شتائي تُدعى إليه بنت صغيرة.. يا لها من دنيا تنقلب رأساً على عقب!

لم تتراجع بوران وقالت لزين حين فتحت كتاباً لتقرأ: هيا ٱلحقي بي إلى المطبخ لتقومي بحصتك من تحريك «الزيتون المكلّس»[3]. أمامك مائة دورة بالعصا مثل بقية البنات.

وقفت زين في المطبخ، وقد حملت كتابها بيد والعصا بيد أخرى وصارت تدور بالعصا في «اللّجن» الواسع وتحرّك الزيتون وتقرأ عن عبيد يقومون بالتجذيف على مركب السلطان. وشيئاً فشيئاً صارت هي أحد العبيد المربوطين إلى السفينة كي يغرقوا معها إذا غرقت، ويجذفون بنشاط في العاصفة وهم ينشدون... وصارت تجذف معهم ونسيت نفسها وغنت معهم حتى استوقفتها عمتها: قلت لك مائة دورة

(١) «مسمومة»: في حنق شديد.

(٢) المحاشي: طبق دمشقي.

(٣) الزيتون المكلس: نوع من الزيتون الأخضر كبير الحجم ينقع أياماً في «اللجن» أو «طشت» فيه ماء ومادة كلسية ويجب تحريكه بعصا كل يوم حتى يصير شهياً ويذهب عنه طعم المرارة.

لا ألف دورة! والطرب لماذا؟ هل تظنين نفسك نجاح سلام وهي تغني «حوّل يا غنّام»؟ جاء دريد غاضباً يشكو لأمه فضيلة التي استولت على قلمه. قالت له بوران: «اخفِ أشياءك ولا تثق بالبنات في حياتك أبداً»! سمعتها زين ورمقتها بنظرة مكتئبة.

* * *

سمع الجيران الزغاريد تنطلق من بيت آل الخيّال وتعجبوا. إذ لم يكونوا على علم بخطبة لابنة لهم، فماذا حدث؟ لم تتمالك الجارة أم أنيس نفسها، فوضعت ملاءتها على رأسها و «القبقاب» بعد في قدميها وقرعت بابهم، ففتحته ماوية متهللة الوجه وهي تزغرد. «خير إنشا الله. هل خطبت ابنتك أمية؟ أجابت ماوية: أمية صغيرة عمرها ١٣ سنة.. ما زال الوقت مبكراً عليها...

قالت ذلك كاذبة بعفوية، فقد كانت أمية أكبر سناً من ذلك ولكن ذكر أعمار البنات قبل زواجهن ليس مستحباً! تابعت إطلاق الزغاريد وأم أنيس تلحق بها إلى صحن الدار فرأت بوران وفلك والحاجّة يقهقهن.

انفجر فضول أم أنيس لأنهن «عم يتصهصلوا»[1]، فزغردت مع ماوية ثم سألتها من جديد: لماذا «الزلاغيط»؟

ـ لأن مطلّقي تزوج.. الحمد لله تزوج.

تعجبت أم أنيس بعض الشيء إذ كانت وبقية نسوة الحي يثرثرن باستمرار عن قرب عودتها إلى مطلّقها. وأضافت ماوية: ألم تفهمي يا أم أنيس؟ ولو...

ـ لا لم أفهم. لماذا تزغردين إذا كان مطلّقك سيتزوج؟ أجابت ماوية: «بسلامة فهمك».. أزغرد لأنه لم يعد بوسعه الآن أن ينتزع مني حضانة أمية وهاني، ولا أن يهددني بذلك «على الطالعة والنازلة» كلما أراد قهري. الحضانة الآن شرعاً لي.. وصار بوسعي أن أطالبه بالنفقة وبكل ما لم يدفعه لي من قبل، وكنت ساكتة خوفاً من انتزاعهما مني للنكاية فقط! ولكن أرجوك يا أم أنيس لا تقولي لأحد ما سمعتِه مني.

أقسمت أم أنيس على الكتمان ومضت بعد زيارة مختزلة.

حزن أمجد وهو يسمع الزغاريد نصف المتوجعة لأخته. منذ وفاة هند وهو يرى الأشياء بعينيها (هذه المرأة المسكينة ماوية، اضطرت لتحمّل ضرب زوجها لها أعواماً كي لا تخسر ولديها إذا طلبت الطلاق. وحين فاض الكيل و «انكسر الدف»[2]

(١) عم يتصهصلوا: يقهقهن خلسة.

(٢) انكسر الدف: في الأصل: «انكسر الدف وتفرّق العشاق»، أي فسد الوئام.

وتفرّق الزوجان كان عليها أن ترضى بابتزازه الضمني فلا تطالبه بالنفقة المقررة للولدين كي لا ينتزعهما منها. يا له من ظلم!).

قال لأخته ماوية: غداً أقيم الدعوى على هذا الوغد وأحصل لك على كل ما لم يدفعه لك من نفقة، وعسى أن يقضي بقية شهر العسل في السجن.

حين غادرت أم أنيس منزل آل الخيّال دارت على نصف نساء الحي تنقل إليهن النبأ، ونقلته إلى النصف الآخر عن طريق السطوح وهي تنادمهن من سطح إلى آخر.. وسمع أمجد «نشرة الأخبار» النسائية قادمة من السطوح والقهقهات الناعمة ورنين الأساور الذهبية، مع الريح المسائية اللطيفة في «زقاق الياسمين» المشبعة بعبير الحدائق و «مكاغاة»[1] الأطفال وهمسات النساء وصراخهن وابتسم بحنان.

* * *

بالرغم من أن فيحاء غادرت البيت الكبير منذ وفاة أستاذتها وأمها بالروح هند، للاقامة مع شقيقها الدكتور مأمون بعد عودته من فرنسا واستقراره في دمشق، إلا أنها ظلت تتردد باستمرار على البيت الكبير وتحرص على قضاء وقت طويل مع زين واصطحابها إلى الزيارات أو إلى المكتبات لتشتري لها الكتب الملونة الفرنسية للأطفال كما كانت تفعل أمها، أو تذهب بها إلى الحفلات المدرسية في مدارس «خديجة الكبرى» و «ميسون» و «الفيحاء» من دون بقية الأولاد. وهي زيارات كانت تمتعض لها بوران خوفاً على «الصبايا» من التأثير «السيء» في نظرها لما ترويه فيحاء من قصص، فيحاء التي صار لها منذ اليوم الأول لدراستها راتب يناهز المائة وخمس وعشرين ليرة شهرياً وقويت شوكتها ـ في نظر عمتها ـ منذ ذلك الحين. صحيح أنها مضطرة للتعليم بعد ذلك أعواماً وفاءً لدينها للدولة، لكن حصولها على راتب خاص بها جعلها تزداد ثقة بالنفس، وها هي اليوم تحدّث ماوية ورويدة وأمية وفضيلة وخزامى وحميدة وزين وفلك المتثائبة عن «الاتحاد النسائي» الذي تأسس منذ فترة وانتمت إليه، وعن أسماء مثل عادلة بيهم الجزائري ومحمد كرد علي وماري عجمي وقاسم أمين ونظيرة زين الدين ونازك العابد ومحمد جميل بيهم وهدى شعراوي وأسماء أخرى لم تلتقِ بها بوران في «الاستقبال» ولم تسمع بها هي وبقية النسوة بالتأكيد ناهيك عن أم أنيس الجارة! وبالرغم من جهل بوران بالاتحاد النسائي أكّدت بصدق قاطع أن كل المنتميات إليه هن من العوانس والبشعات. وتجاهلتها فيحاء

---

(١) تدلل النساء الشاميات الأطفال الرضع بعبارة: نكغ نكغ وتدعى المكاغاة.

وروت لهن سعادتها بالدراسة في دار المعلمات وعملها الجديد كمعلّمة الآن. وأضافت أمام البنات مما ضايق بوران كثيراً: أنا حرة. ما من رجل فوق رأسي يأمرني بشيء. الحمد لله أنني حرة ولن أتزوج إلا رجلاً يتركني حرة.

ازدادت بوران ضيقاً وكظمت غيظها (حرة؟ أهذا الكلام البذيء يُقال أمام البنات؟!).

قالت بوران لإبراز وضع فيحاء الخاص أمام البنات مدّعية مديحها: مسكينة. أنت يتيمة وشقيقك الدكتور مأمون كان مسافراً يتعلّم وليس لك أحد غيرنا. ومن ناحية الجمال أنتِ «مهيوبة»، ومضطرة بالتالي للعمل معلّمة.

فهمت فيحاء قصد عمتها وأن قولها «مهيوبة» هو النعت المهذب للبشعة كما يعرف الجميع. فردت بشراستها المعهودة التي لا توفّر أحداً: ربما كان من حُسن حظي أنني يتيمة! لو لم يمت أبي لما استطعت إتمام دراستي على الأرجح.. ولولا المرحومة هند لأُرغمت على الزواج من رجل لا أعرفه مثل «بعض جماعة». ويا لها من مصيبة!..

وهذا ما زاد بوران امتعاضاً، إذ ما من امرأة في هذا البيت تزوجت حتى الآن من رجل تعرفه واختارته باستثناء المرحومة هند! فما الحكاية وفيحاء أطالت من «محاضرتها» وجلوسها وهي التي لا تمكث عادةً إلا قليلاً وتسارع إلى اصطحاب زين والهرب بها من البيت؟ قالت فيحاء ضاحكة: على أية حال، إذ تزوجتُ ـ لا سمح الله ـ سأطلب أن تكون العصمة في يدي!

وسألتها خزامى عن معنى ذلك وهي تدلّل وضّاح، فشرحته لهن وأسفت ماوية من جديد لأنها لم تكن قد سمعت بذلك قبل زواجها ولم يقل لها أحد إنه كان يحق لها شرعاً أن تشترط على زوجها وقت عقد القران أن تكون هي أيضاً قادرة على تطليقه حين تشاء. ولو فعلت لنجت من ضربه ومن طلبه إياها إلى بيت الطاعة ليستقبلها بالضرب من جديد. تحمّست ماوية لكلام فيحاء وأخذت تستزيدها، ولم تغادر هذه الأخيرة البيت إلا بعدما حرّضت عمتها ماوية على الذهاب إلى مدرسة ليلية أو على العمل في «صالون» خاص بالحلاقة النسائية من تلك «الصالونات» التي بدأت تنتشر في الشام وتلقى إقبالاً كبيراً بين النساء، لتكسب رزقها وتصير قوية، مؤكدة أنها مهنة محترمة كتدريس البنات لا يستطيع الرجال الاعتراض عليها ما دام لا اختلاط ذكورياً فيها ولا يعمل فيها إلا الحريم و «نسوان بين بعضهن»، بل وعرضت فيحاء على ماوية مشاركتها برأس المال مضيفة: حين أتزوج من ثري!

صدّتها بوران قائلة: عيب. بنات الأسر المحترمة لا يعملن وتأتي الأشياء لعند أقدامهن.

قالت فيحاء وهي تقهقه بضحكتها العريضة: زمان أول تحول يا عمتي. ألا تلاحظين أنه منذ وفاة المرحومة (ولم تذكر اسم هند) لم تعد امرأة عسيرة الولادة تلد في البيت بل في المستشفى، وصار مألوفاً أن يأتي طبيب رجالّي ويكشف على مريضة بدلاً من تركها تموت بأمر من الشيخ طه متلوف وأمثاله من أصحاب اللحى الكثة والعقول الرثة.

سألتها زين: ما معنى «اللحى الكثّة»؟ هل لعمتي بوران «لحى كثّة»؟ وما معنى «العقول الرثّة»؟ انفجرن ضاحكات. وطردت بوران «البنات» من الغرفة خوفاً على أخلاقهن. وأضافت فيحاء وعمتها ماوية تستزيدها: منذ حادثة قتل زوجة عمي هند تبدلت أمور كثيرة في زقاق الياسمين وهند بذلك لم تمت هدراً. إنها شهيدة.

زجرتها بوران: هند لم تمت مقتولة. ماتت بإرادة الله. كلنا أنجبنا في البيت أولادنا بمعونة «داية» واحدة لا أكثر، وهند كانت مدللة و «نعنوعة»[1] والذنب ليس ذنبنا. . كان قلبي يحدّثني بأن شراً سيقع لكثرة ما ناحت البومة المنحوسة.

زين تسترق السمع. كم تحب أن تُطرد من الغرفة لتتنصت ولتسمع الكبار يقولون أشياء لا تُقال في حضورها. كانت تلك أول مرة تسمع فيها اسم أمها في هذا البيت منذ موتها. رنّت في أذنيها عبارة هند ماتت مقتولة وتعجبت. لم تفهم الكثير لكن العبارة راحت عميقاً في روحها.

أضافت فيحاء: لم يعد أحد يرضى بتزويج ابنته لرجل متزوج وانتهى زمن «الضراير» وتعدد الزوجات. ومنذ انتحار وصال قبل عام ليلة عرسها لم يعد أب يجرؤ على تزويج ابنته رغماً عن إرادتها. لا تزال أمها تبكيها كل يوم وتحتفظ بفستان عرسها الأبيض الذي لطخه الدم كله حين تركت وصال عريسها العجوز يشخر بعدما دخل عليها وقام باللازم والحد الأدنى مع بكارتها، ودخلت إلى الحمام وارتدت فستان عرسها ثانية وقطعت شريان معصمها بشفرة حلاقته وتمددت على الأرض حيث وجدوها وقد نزف دمها حتى ماتت. ما الذي كان سيحدث لو تركها والدها تتزوج من عبود الذي تحبه؟

قالت ماوية: الحق معك يا ابنة أخي.

---

(١) نعنوعة: مدللة وضعيفة البنية، كثيرة الغنج.

امتعضت بوران وصرخت: هذا هراء. ها هي ابنتي قمر. تزوجت من معين بإرادتنا وبلا سابق معرفة، وهي سعيدة مع زوجها. جميع البنات هكذا، ووصال شواذ. والشواذ يجب قطعه لا مداراته.

بعدما مضت فيحاء أخيراً كعاصفة مرّت بالبيت وقد اصطحبت معها زين قالت بوران: لم أعد أحب أن أرى فيحاء كثيراً في هذا البيت. إنها «فلتانة ودايرة». هل لاحظت يا أختي أنها ترتدي ثوباً بكمين قصيرين حتى الكوعين؟!

للمرة الأولى عارضتها البنات علناً وعلى رأسهن فضيلة وحميدة ورويدة، وأيدتهن ماوية وأسكتت بوران الجميع.

الحاجّة التي كانت تراقب كل شيء صامتة هي وأختها أم عامر قالت بالرغم من أن فيحاء لا تُقَبّل يدها كما تقضي الأصول: فيحاء ذكية ومتعلّمة والدنيا تتغير، وصحيح إن زمان أول تحوّل.

كررت بوران بنبرة كلها سُلْطة: لا أحب أن أراها في هذا البيت.

وهي أمنية لم تتحقق طويلاً.

* * *

حين عادت فيحاء في زيارتها التالية إلى البيت الكبير أطالت السهر عندهم وأخبرت عمها أمجد أمام البنات أنها تعرّفت إلى شاب قروي من أسرة ميسورة من تلكلخ، تزرع الزيتون وتعصره، وهو متعلّم ومتنور ويعمل مثلها في سلك التعليم، وترغب في الزواج منه. ولم تكن تطلب الإذن منه بل «تخبره»!

تضايقت بوران كثيراً من أسلوب في الزواج لم يألفنه ولا يستسغنه في البيت وجعلهن ينقمن دائماً على هند.. وحين جاء الخطيب في التاسعة مساءً باتفاق مع فيحاء لاصطحابها إلى البيت لانشغال الدكتور مأمون، ذهلت بوران وماوية وفلك وهن يتلصصن عليه ويسترقن النظر كما هي العادة في مثل هذه الأحوال، ذهلن وبقية أفراد الأسرة من وسامته المفرطة وشقرته ونعومته، وزاد في ذهولهن أنه يصغر فيحاء سناً بعامين، وفوق ذلك كله بدا مغرماً بها!

ولشدّة فضولهن كسرن للمرة الأولى قاعدة عدم استقبال المحارم، ودخلن وصافحنه كالناس «المودرن»(١)، واكتفين بإيشارب على الرأس يخفي شعرهن.

---

(١) المودرن: على الموضة ـ عصريون.

وتأملته ماوية ناعماً نحيلاً وقامته أقل طولاً من قامة فيحاء الفارعة الضخمة وقالت لنفسها: على الأقل ليس بوسعه أن يضربها! أعجبها منظرهما كثيراً وتخيلت عنتر اللوحة يجلس وراء عبلة على الحصان الأبيض ويتمسك بها!

أما بوران فقد شاهدت فيحاء الضخمة وخطيبها «الناعم» مثل الجمل و «القبوط»[1]، وضايقها كثيراً استرخاء فيحاء ومزاحها مع خطيبها، وهي كعادتها تداعب الجميع بانطلاق ساخرةً من كل شيء حتى من نفسها بدلاً من أن تجلس خجولة وصامتة محمرة الوجه مزمومة الشفتين ليبدو فمها أصغر من حجمه الطبيعي، وتبدي لخطيبها أفضل ما عندها. (كل شيء ينهار وستقوم القيامة قريباً!). وقبل أن تنصرف فيحاء وخطيبها، كتب لها عمها أمجد على ورقة عنوان البيت في ساحة المدفع بشارع أبو رمانة الذي كانت هند قد اشترته وطلب منها زيارتهم باستمرار هناك، لأنه يتأهب للانتقال إليه مع الحاجة وزين.

قالت له فيحاء: لا أصدق إنك ستغادر هذا البيت.. هذه هي المرة الثالثة التي تعطيني فيها عنوانك الجديد ولا تقيم فيه.

أجابها: لا مفر من ذلك. أضحى البيت مزدحماً بعد حضور أبو عامر وخالتي أم عامر وولديها اللذين يكبران يوماً بعد آخر وتزداد حاجتهما إلى مجال حيوي أكثر اتساعاً كما زين التي صارت صبية وتجاوزت العاشرة من عمرها بأشهر.

ـ ألم يشترِ أبو عامر بيت اليهودي؟

ـ بلى اشتراه ولم ينتقل للإقامة فيه بل تبرع به كمدرسة للاجئين ريثما يعودون إلى الوطن. قال إنها فترة عابرة وغداً يعودون إلى بيتهم الأصلي في عكا قرب السور. إنه لا يريد أن يصدق أنه موجود هنا إلا بصورة غير دائمة. ولذا يريد أن يظل ضيفاً عابراً. ولكنه رجل عفيف النفس ويشارك في الإنفاق على البيت بإصرار شديد. قالت فيحاء باحترام: أفهمه وأقدّر شعوره. وأضافت: ولكن زين تكاد تختنق هنا.. مؤكّدة بجرأة: كأمها. فعجِّلْ بالانتقال هذه المرة يا عمي!

وكم دهشت فيحاء حين اكتشفت ان عمها أمجد غادر البيت الكبير حقاً ليقيم في حي أبو رمانة، بعد لقائهما الأخير بأسابيع، واصطحب معه الحاجّة كي تعتني بزين، وفهيمة.

* * *

(١) القبوط: الجرادة.

تصاعدت رائحة مياه آسنة من إحدى الحفر في الزقاق رومانيّ الأقواس، العتيق الضيق، المؤدي إلى البيت الكبير الذي يزوره باستمرار منذ غادره والحنين يشدّه إليه. لعن في سره الذين لا يعاملون الزقاق كامتداد لبيوتهم. كان يشعر بالزهو في تلك الأزقة التي لم يجرؤ جندي فرنسي يوماً على أن يطأها إلا نادراً، وحيث كان يلجأ المناضلون للاختباء في رئة دمشق (يريدون هدم بيتي لشق طريق وبناء مدينة عصرية! لن أقبض «ديّة» البيت. نقود العالم كلها لا توازي حياته. كيف أشرح لهم أنه حي، البيت بأكمله شخص حي عمره عشرات القرون كجدي الأول يتنفس ليلاً ويتنهد ويضحك ويبكي ويغضب، أتشاجر معه أحياناً وأنصت إلى أحجاره وهي تحدّثني بحكمة دهرية، فكيف يقتلونه؟ لماذا لا يتركونه على حاله ويعمّرون بعيداً عنه وعن بساتينه وغوطته؟). كان يشعر بالغضب الداهم لدى أي تبديل في تضاريس مدينته، ولم يخطر بباله ان الهدم قد يطال البيت الكبير. وحين يتحدث وعبد الفتاح - وهو يشرق بدموعه - عن الإسمنت والحديد و «المدحلة»[1] وإمكانية هدم البيت، وعن السبيل إلى تبديل خارطة الهدم الهندسية يخيّل لأمجد أن جدران البيت ترتجف ذعراً!

* * *

انتشر خبر «تطويب»[2] البيت العريق لآل العسيري باسم جهينة وولدها انتشار مذياع «الزينيت» في «زقاق الياسمين» وبراد ألواح الثلج وبرادات «الوستنغهاوس» لـ «أكابر» الحي. وقد أدهشت ردة الفعل الودية جهينة، بل إن أهالي «زقاق الياسمين» أدهشوا أنفسهم وانتهزوا فرصة عودة أبو عيدو العسيري من المستشفى لقضاء نقاهته في البيت للتعبير عن رضاهم.

أم أنيس أرسلت «زبدية كراوية» كبيرة هدية إلى أبو عيدو من نفاس كنتها وقد غطتها بطبقة غنية من الصنوبر والفستق الأخضر وجوز الهند المبروش واللوز النضر المقشر لـ «توجيبه»[3] مع دعواتها له بالشفاء.

أم سطام النصّ أرسلت إليه صحناً من الفضة وقد ملأته بأول قطاف فلّ من فلّتها الجديدة، وقد فاحت من الأزهار البيض رائحة زكية «تشق القلب».

بوران أهدته حجاباً فيه الشفاء «إنشا الله»، وقد خاطته في طرف شال رمادي

---

(١) المدحلة: آلية لتسوية الأرض.

(٢) تطويب: تسجيل عقار باسم شخص ما.

(٣) توجيبه: تدليلاً له واحتراماً.

دافىء يلف العنق حاكت قطبه الصوفية بيديها وحملته معها هدية إلى أبو عيدو حين رافقت شقيقيها أمجد وعبد الفتاح في زيارتهما الأولى (الرسمية) له منذ وفاة والدهم ،وعرضت عليه أن تقوم بعمل «كاسات الهوا»[1] له لتريحه من سعاله والتهاب قصباته . بل وعرضت أن «تحجمه» بالعلق ليمص الدم الفاسد. فشكرها مذعوراً.

أم ماهر أرسلت إليه صينية من «العصملية»[2] من «شغل يديها»، متمنية له الشفاء، حملها إليه أبو ماهر حين زاره. ولا يدري أحد هل انحازت النسوة إلى جهينة أم شمتن بحماتها ابنة الباشا التركي التي طالما تعاملت مع جاراتها بكثير من العجرفة منذ أيام السفر برلك وقد كبر الأولاد على كرهها.

وجاء رجال الحي يعودونه حتى «الزكرتية»[3] منهم الذين سبق لهم مقاطعته لبخله على «المعترين» ويتامى الثوار وأراملهم، ولصحبته مع الوالي العثماني التي لاموه عليها كثيراً بعدما ذهب الحكم العثماني، كما لاموه فيما بعد ذلك على صلاته الحميمة بالفرنسيين ولكن بعد زوال الانتداب الفرنسي، وكان الأمران من دواعي وجاهته أيام حكمهما!. . . وقرر الرجال أن أبو عيدو رجع إلى أصله، وجهينة. . «آدمية» و «محترمة» ولا يجوز رميها في الشارع مع طفلٍ بلا ذنب، و «النخوة» لا يجوز أن تموت أكانت خادمة أم لا، إنها سورية مثلها مثلهم وأفضل من ابنة الباشا التركي التي تتكلم معظم الوقت بالفرنسية أو التركية. أما في حمام السوق، فقد انعقد شمل النساء فيما يشبه المؤتمر العام العفوي. بوران تولت توجيه الدعوة بأسلوب غير مباشر تتقنه كشامية عتيقة محنكة، إذ قالت في يوم الاستقبال «الخميس الثاني من كل شهر» عند أم أنيس إنها ستصطحب معها جهينة وطفلها إلى حمام «الأرماني» يوم السبت بعد تسعة أيام، وفهمت النسوة ما لم يُقَل ومفاده: «الحاضر يبلّغ الغائب. . . واللقاء في حمام السوق». .

وجاء اليوم الموعود. . .

السيدة كلفدان التي اغتنى زوجها مؤخراً أوصت على صواني النمورة والبقلاوة وصرر الأوزي والصفيحة[4] من «مطعم الأمراء» كي تلحق بهن إلى الحمام. أم عادل التي أحضرت «سفرطاس» المجدرة بالبرغل والمخلل إلى الحمام أزاحته جانباً وهي

(١) كاسات الحجامة.

(٢) حلوى دمشقية.

(٣) القبضايات الطيّبون الوطنيون.

(٤) الصفيحة: شطائر اللحم بالعجين المخبوز.

تحلم بصرّة أوزي وتقول لنفسها ضاحكة: «العزّ للرز والبرغل شنق حالُه»[1]. . وتدمدم أغنية لسهام رفقي كأنها تخاف أن تكون أفكارها شفافة: «يا أم العباية، حلوة عباتش». فترد عليها بوران بأغنية «نادت الأرواح نفديك يا بطن بقاسيدي. . .»[2].

لاحظت فيحاء أنه في حمام السوق لا تخلع النساء ثيابهن فقط بل وحذرهن أيضاً، كأن الحمام هدنة غير معلنة مع التوتر والهمّ. وها هنّ يجلسن جنباً إلى جنب، الثرية و «مستورة الحال»، عاريات إلا مما قل ودل من «المناشف» وسط البخار الحار وفوق البلاطات الساخنة التي يتمددن عليها وقد أحطن بـ «جرن» الماء والحوار يتدفق مائياً دافئاً آتياً من شقوق القلب، ويشطف صابون الغار الحلبي المعطر كثيراً من الحذر الفطري والقفازات اللغوية والأقنعة. . .

تمددت بوران بجسدها المترهل الذي تركته يسبح في نعمة الشراهة منذ استشهاد زوجها وقد توسطت الحلقة، ومن أركانها فلك الكنة الحامل من جديد كي تنجب صبياً آخر غير لؤي كما أفهمها زوجها وقد اقتربت من «بيت النار» على أمل أن تجهض، فقد تعبت من الإنجاب والصبي المنتظر لم يحضر، وإلى يسارها ماوية بجمالها الهادىء الحزين و «ماكياجها»[3] من أحمر شفاه وكحل وسواهما مما لا تستغني عنه حتى في الحمام. وحتى فيحاء جاءت على غير عادتها مع عمّتيها وزوجة عمّها، فقد كانت أكثر الجميع فرحاً بما حدث لجهينة باستثناء بوران التي اعتبرت قدر جهينة انتصاراً شخصياً لها وجيَّرت بمهارة ما حدث لصالح الجني الذي يخدم مندلها وحجاباتها بإذنه تعالى. . ألم تكتب لها حجاب المحبة بنفسها فتزوجها عيدو، فحجاب الرزق فصار البيت باسمها؟ والتفت حولهن نساء من الأحجام والأشكال كلها. «شيء كبير وشيء صغير وشيء مقمط بالسرير»[4]. أجساد بضة. أثداء شامخة طالعة على الحياة تشير صوب الضوء وأخرى مترهلة حتى الخصر كأنها تشير صوب التراب. طريقان يتقاطعان في لحظات الإثارة الاجتماعية لحدث استثنائي ولإبداء الآراء. وهل من حدث يشبه «تطويب» بيت عريق لخادمة وابنها؟ وحدها جهينة غابت، فثمة ثوب عرس لابنة الدالاتي عليها إنجاز «شكّه» بالبراق الفضي قبل العرس الذي يصادف بعد أيام. لكن غيابها زاد في حضورها، وأطلق عقدة لسان الحاضرات بصورة أفضل إذ لم يعدن مضطرات لمحاباتها أو لتلافي

---

(١) حاله: نفسه.

(٢) أغنية دمشقية طريفة تُعدّد فيها الأطعمة بعد هذا المطلع.

(٣) ماكياجها: زينة وجهها.

(٤) من الأعمار كلها.

خدش شعورها بكلمة «زاحلة»[١].

تدفق الحوار ولم يخلُ من رأي لمشفقة على لمياء. وتصدّت فيحاء لهذه النظرة معلّقة: الحق عليها. كان عليها أن ترفض الزواج من رجل متزوج. من واجبنا كلنا أن نقلع عن ذلك.

لم تبالِ النساء بتنظيرها للأمر، وسألتها إحدى المسنّات اللواتي يبدو أن الزمان توقف عندها من زمان: أخوكِ مأمون هل ذهب إلى المدرسة؟

ـ أخي مأمون صار طبيباً.

لم تسمع العجوز جيداً ما قالته فيحاء بسبب قرقعة الطاسات وصراخ أحد الأولاد وصرخت: «شو؟». وردت ابنتها: مأمون لم يعد طفلاً. صار طبيب أطفال.

قالت العجوز جادة: إنشاء الله يكبر ويصير في المستقبل دكتور كبار.

قهقهت فيحاء بحبور وأنصتت إلى امرأة تشكو من شخير زوجها، فنصحتها النسوة بعدم إزعاجه والنوم في غرفة الأولاد بحجة رعايتهم. أما عليّة فشكت همها إذ إنها لم تنجب ومات زوجها فطردها سلفها من البيت لأن حصته ثلاثة أرباع البيت، وكانت قبلها قد عاشت عمرها مع الزوج في «القلّة والدّلة»[٢] لـ «تصميد»[٣] ثمن البيت وجمع القرش على القرش. ولم تفوّت فيحاء الفرصة فقالت إن ذلك غير عادل ولا بدّ من فتح باب الاجتهاد وتبديل الأحكام المجحفة بالمرأة. رمقتها أم اجتهاد شذراً ولم تفهم ما قالته فيحاء، وشكت من خيطان «ديه. ام. سيه»، فنصحتها السيدة بواظ بكباكيب «فِنْ ديكوس» الإسكتلندية، والمكيِّسة تفرك لها ظهرها بكيس الحمام، ومطيعة تصرخ متوجعة تحت أصابع أمها فلك المصرة على «صَمْتها زوم حمام» يظهر بياض بشرتها.

أما عناية فشكت لفيحاء من اغتصاب زوجها المؤلم لها بعد كل شجار لا يخلو من الضرب، ونصحتها فيحاء بالعمل في مشغل فساتين الأعراس الذي سمعت أن جهينة تنوي افتتاحه لأنها لم تعد تقدر وحدها على تلبية الطلبات كلها.

وقالت بوران وقد سمعت طرف الحديث: اسم الله عليها. لم تعرف الشام خيّاطة فساتين أعراس أكثر مهارة منها.. لا الخيّاطة إلڤيرا ولا «فهيمة كور» ولا أمي ولا مدام جانيت.. «شو جاب لجاب.. واه الواه»[٤].

---

(١) زاحلة: في غير محلها.
(٢) القلّة والدلّة: التقتير والذلّ.
(٣) تصميد: اقتصاد وتوفير.
(٤) واه الواه: أي أن الفرق شاسع بينهن وبينها.

يتناثر الحوار تناثر الماء والصابون والفقاعات والأطفال والبخار.. وتسأل السيدة بواظ عن التسريحة التي تنوي ماوية تصفيفها لأم العروس فتجيب: «شنيور»[1] لكي لا تنافس كنّتها، فهي أحلى منها. وأنصتت لها النساء فقد كان استعمالها لأسماء أجنبية يزيد من أهميتها في نظرهن ويؤكّد لهن ضمناً معرفتها بما يجهلنه.

- لماذا قصصتِ لابنتك الجميلة شعرها كالصبيان؟ شاهدتها في البنطلون تحت مريول المدرسة وظننتها صبياً.

- خوفاً عليها من «زعران»[2] هذه الأيام.

- هل سمعت بنادية التي بشّرت زوجها بأنها حامل؟

- وماذا في ذلك؟

- لقد أصيب بمرض أبو كعب في شبابه قبل الزواج ولم يعد بعدها قادراً على الإنجاب وقد أخفى الأمر عنها!

قهقهت النسوة وقالت إحداهن: هذه ليست جديدة. حدثت لسواها قبلها. سألت أخرى بخبث: هل دخل عيدو على لمياء بعد كتب الكتاب؟ أجابت بوران شامتة: ليلة الدخلة نامت العروس وحدها.. «الله لا يقيمها». أما عيدو فقد عاد إلى البيت ونام وحده على وجهه «طَبْ»[3]. قالت فلك: هذا من حظ لمياء، إذ ماذا يبقى من البنت بعد ليلة الدخلة؟ قالت فيحاء: يبقى كل شيء ما عدا عدة نقاط دم توسّخ فوطة ولا حاجة لنا بها.

ضحكن...

أما ماوية فقهقهت طويلاً وخرجت من ثوب الحزن الذي لا تخلعه حين سمعت خنزادة تنتقد عائدة: «شعرها كله مصبوغ يا عيب الشوم!». فقد كانت قد صبغت لخنزادة شعرها قبل أسبوع، ولكنها لا تستطيع البوح علناً بأسرار السيدات اللواتي يلجأن إليها وشعارها «هون حفرنا وهون طمرنا»[4]. ودار همس بين فلك الحامل وأم علي عن «الكبوت الإنكليزي» ومنافعه في حالتها. وسخرن من أبو مدحت الوسيم الخمسيني الذي يضع على وجهه خلسة من «كريم» زوجته للحفاظ

---

(١) شنيور: تقصد «شينيون» وهي تسريحة بشعر مرفوع عن العنق إلى قمة الرأس.

(٢) زعران: جمع أزعر أي الرجل السيء السلوك.

(٣) على وجهه طب: نام مغموماً.

(٤) أي «هنا حفرنا وهنا طمرنا السر». وتقال كوعد بالكتمان.

على نضارة بشرته، وشكت خنزادة من سلفها الذي مدت يدها لتصافحه ليلة خطبتها فسحب يده قائلاً إنه توضأ وانكسر خاطرها، وعلّقت فيحاء بشراسة: هذا وغد آخر يهين النساء بحجة الدين. وضحكت الجالسات لامباليات بتنظير فيحاء وقالت بوران: هو الخاسر!

ووشت إحداهن هامسة كي لا يسمع الأولاد وقد اجتمعت الرؤوس حول شفتيها الهامستين: أم أدهم ترفض أن يقربها زوجها إلا بعد أن يدفع لها «ثمن شعرها» كل مرة مثل النساء اللواتي لا ينفعن يا لطيف!

ـ وماذا يفعل؟

ـ يدفع لها كل مرة وتزيد لذته بذلك!

قهقهن. . .

قالت فيحاء: ولمَ لا والزواج عندنا لا يختلف كثيراً عن «الكذا» الرسمي؟

لم تلق النسوة إليها بالاً وقالت إحداهن: «دمك ثقيل يا فيحاء». وروت أم علي عن أطايب الطعام التي ذاقتها في «عزاء» أحد الوجهاء وهي تتلذذ بتسميتها وتتلمظ بالكلام: «بسماشكات» وسمك نهري و «طرطور» وأفخاذ غنم و «أطرطما» و «قيمام بايلغي» و «نقانق» و «شيخ المحشي» و «براصيا بالموزات»[1]. . ضاني بالبطاطا و «نخاعات مقمعة» وكبة بالرز بدل البرغل وفطاير سبانخ. . . وأضافت شاكية: ولم يقدموا لنا للأسف «فتة مكدوس». . ونسوا الطرخون في لبن اللبنية. فدمدمت بوران: «يا عيب الشوم!»، فالحديث المفضل عندها هو عن الطعام. وحتى حينما تأكل تتحدث في الوقت ذاته عن طعام آخر شهي فتتضاعف لذتها ويسيل لعابها.

ـ هل دريتن بأن أم حسون كادت تقتل زوجها بسبب «الريجيم» إذ أرغمها على تخفيف وزنها، وفي اليوم السابع بلا طعام «هَسْتَرَتْ» وهاجمته بسكين قَطْع اللحم. . قهقهت بوران واهتزت طيات لحمها وهي تدلق الطرابة المذوّبة في الماء على رأس مطيعة بعدما انتهى تكييسها وتلييفها. وقالت العجوز: مسكين أبو إسماعيل. عمَّر لنفسه قبراً فاخراً خوفاً من بخل أولاده بعد موته ولكنه مات محروقاً في دكانه، ولم يبق منه شيء للدفن في «التربة»[2].

---

(١) أطعمة محلية.

(٢) التربة: المقبرة باللهجة الشامية.

ـ زوجي عسير. . و «آكلة هم»[1] رمضان إذ إنه يضربني إذ نقص الملح أو زاد!

ـ ذوقي الطعام حتى ولو كنت صائمة ثم ابصقيه. اللهم يسِّر ولا تعسِّر.

ـ أحد «الزعران» لحق بجهينة حتى زقاق الياسمين حين عادت من سوق الخجا. . قيل إنه كان يرتدي ملابس جندي.

ـ جهينة «سرْبَسْت»[2] ولا خوف عليها.

صرخت ماوية ألماً إذ كانت «الاختصاصية» تنزع لها بعض الشعر عن ساقيها بـ «العقيدة»[3]، وتهامست عليها بعض الخاطبات لأرمل مسنّ لديه أولاد. ورفضت أم سطام النصّ أكل النمورة وسواها لأنها صائمة صوم الكفارة، وستصوم بعده صوم النذر.

ـ هل علمت بما فعله شخص لا أريد ذكر اسمه؟ أمه عملت طبّاخة في بيوت الناس لتعليمه ثم سمعت من الناس بعزمه على الزواج من ثرية «بنت عيلة». وحين ذهبت إلى العرس غير مصدقة قدّمها لأهل العروس على أنها مربيته «الدادا»!

ـ يا عيب الشوم!

ـ هل صحيح أنها تستعير الآن طفلاً لتشحذ عليه؟

ـ يا حرام. يا مسكينة. عملت طبّاخة إكراماً لابنها فصار يخجل بها والقصة قديمة. الجديد أن ابنها قتله الندم منذ شهر بعدما ماتت أمه وترك زوجته وهو يقضي وقته في الجامع مستغفراً ربه.

ـ هل صحيح أن عيوش خطبت ضرتها بنفسها لأنها ستراها أكثر من زوجها؟

قالت فيحاء وقد استفزتها «الخبرية»: من الأفضل لها أن تعمل طبّاخة ولا ترضى بهذا الذل.

تتطاير في فضاء الحمام عبارات مثل «تتبهور. تتفشور. التقبيج. طابس. مستثيمة. دجني دجتك العافية. تتنغور. مسرسبة. مكَهْوَلِة. تتفتل. تتغندر. ولي عليها وعلى بدنها. مدهرنة. مأمْأمه. واه الواه. مبوجقة. لألوثة حكي. العين الطراقة والشرامة. شرْنَة. عم تفرتك. يوه يا بعدي. شرشوحة. تشكْلي غرْق آسي. مشنططة. مطيشرة. مهبّرة. فشرت. باطل عليها. الفوجرة. الحرقصة. إيدها مبخوشة. الغوى بيهد القوى. الكولكة. المجاكرة. البربكة. الوأوأة. إفلاسْ

---

(١) آكلة هم: خائفة.

(٢) سربست: رصينة جداً ولا تعرف الهزل.

(١) العقيدة: سكر معقود لازالة الشعر الزائد.

مُصاحبة. تطلعي على قبري إنشا الله. تبويظ الرجلين. دوقها السم من هون والدم من هون. الجمل لو شاف حدبته لوقع وانكسرت رقبته. فخارة لا تكسرني. وارد طنّو ما في منه. كله ماضي ونيال الراضي. أنا بحلف وابني بيزلحف. عيونها منقرة. يبعتلها حمى يبعتلها هالكة يبعتلها داءات مختلفة. كلبْ يعوّي معك ولا كلبْ يعوي عليك. مأنشحة. عينه لبرّة. مَونْوَنِة. انمزع عقلها. ما تبلى وما تخ. مجلجأة. جربوع. ولاد آدو. على كراريت خلقها. بعينها جنجل. منتوفة. . . .»[١].

ـ الست إذا زوجها «حالب صافي وآدمي»[٢] فلتجمع القرش على القرش و «تصمّد»، وإذا «أزعر» من الأفضل أن «تنتفه»[٣] كي لا يتزوج عليها.

ـ فهيم زوجته معلمة لا تسكت في البيت لذا تزوج عليها خرساء. .

ـ نوْرية تعبت من زوجها العجوز الغني الذي يذلّها، وعشقت طبّاخها السوداني. . . يا لطيف!

ـ هل لاحظتم أنني أعطس كل يوم عطسة في مثل هذا الوقت؟

ـ فريزة ابنتها منحوسة «من يوم يومها». ولدت في آب اللهاب يوم رموا القنبلة الذرية على هيروشيما. صحتها «على قدّها».

ـ «فكريتْ» أرملة حامل، إذا ولدّت صبياً تبقى في بيتها وإذا بنتاً يطردها سلفها ويأخذ المُلك ويعطيها حصتها.

ـ الله يرزقها بصبي المسكينة لتبقى في سريرها وبيتها وعزها.

شعرت فيحاء بالخزي لأنها تمنّت أن يرزقها الله بصبي ريثما تقوم هي شخصياً بتبديل هذا القانون الجائر حين تصير وزيرة كما تحلم باستمرار. قالت بوران: المرحوم عباس كان لا يشبع من الزواج. جاءتني زوجته الأولى فكتبت له تعويذة ومات بعدها باختناق الفتق. لكنني حزنت عليه! قهقهت النساء وتابعت بوران حديثها عن الحظ العاثر لإحدى الغائبات كما لو حققت انتصاراً شخصياً بتعاسة الجارة.

ـ لماذا شعر ابنك مثل البنات؟

ـ مندور لسيدي خالد. سأقصّه له في المسجد في حمص حين يبلغ السابعة.

ـ هل حبلت كنتكم؟

ـ أجل. إنها «مستثيمة».

---

(١) كلمات وتعابير شامية عامية.

(٢) طيب.

(٣) تحاول افقاره.

تدخلت أخرى في الحوار قائلة: سمعنا وتطمنّا. . .

وهمست ثالثة: المسكينة صامَتْ صامَتْ ثم فطرت على بصلة! عريسها «عدمان» ولا يصلح لشيء.

قالت العجوز: هل سمعتن بأم عبد الودود التي دفنوها خطأً ولم تكن ميتة، وحين ذهب ابنها في اليوم التالي لزيارتها وجدها قد نبشت ترابها إلى أن ماتت مختنقة عن جد؟ أرجوكم لا تدفنوني إلا بعد مرور أسبوع. . .

ـ دعينا من سيرة الموت. . هل سمعتن بحكاية أم محمد«السيوعي»[1]؟ سجنوه فذهبت أمه لتجمع له «الفطرة» الرمضانية من المحسنين المؤمنين!

ـ كان قبلها قد طلّق زوجته لأنها خرجت في المظاهرة بدون إذنه وتزوج من «زوزيفين»[2] الفرنسية يا لطيف!

قالت بوران: كنت أمشي في المظاهرات حين يأمرني بذلك أخي أمجد، والآن أمشي في مظاهرات صهري المقدم معين.

قالت فيحاء: وأنت. . ألا رأي لك؟ ألا تعرفين أنك مواطنة مثله؟

قالت لها بوران: يا لثقل دمك!

قالت أخرى: ابني دمه خفيف ويغوي البنات.

اعتبرت والدة إحدى بنات «زقاق الياسمين» ابنتها معنيّة وسألتها: لماذا تتباهين بأنه يغوي بنات الناس؟ وماذا عن الذي يغوي لك ابنتكِ انتِ. هل يعجبك؟

أما نادرة الستينية الأرملة الثرية فقد أعلنت أنها ما زالت تقضي فترة «العدة» ولا تفكّر بالزواج إذ قد تكون حاملاً. . وكانت جادة بحيث لم تجرؤ أي من النساء على القهقهة.

ـ هل خطب سميح؟

ـ نعم، وهو متنوّر وسمح لخطيبته بالذهاب إلى الجامعة شرط المحافظة على حجابها. . .

همست فيحاء لماوية: والخطيبة تطيع الجميع وتفعل ما تشاء «على ذوقها» بالسر. . و «من تحت لتحت».

---

(١) «السيوعي»: تقصد الشيوعي.

(٢) زوزيفين: جوزفين.

صرخت بوران مذعورة وهي ترى سائلاً أزرق يسيح تحتها وتحت النساء على الرخامة. وتبين أن مدحت أحد الأطفال الملاعين أحضر معه مكعباً من النيلة. قالت بوران إنه صار في السادسة وكبر على حمام النسوان، وكان الطفل يتجسس على الأجساد بفضول وقد استدارت عيناه كعيني بومة صغيرة.

جاءت عدول الخبيرة في فك الأوجاع و «طق الظهر» وكادت تتعثر بزين الهادئة الصامتة، فضربتها على مؤخرتها قائلة إنها «جلدة وعظمة» كأنها تأكل من «زيت الجامع». وبينما كانت ماوية تمشّط شعر زين بمشط خاص من العاج ومدحت حفيد أم أنيس يضرب الأرض بالطاسة الفضية، استلمت عدول ظهر بوران التي جمعت المجد من طرفيه: الصهر صاحب النفوذ في الانقلابات الثلاثة المتعاقبة والجان، وكان لعدول طلب عندها بعدما شاع أنها لا ترد طارقاً وكل ما تأمر به يلبيه لها صهرها الضابط النافذ الذي تشيع بوران أنه صار «الكل بالكل»[1] منذ «طار» شكري القوتلي. وقفزت ضفدعة بين الأقدام وتعالى صراخ الصغيرات، وكان صبي آخر في السادسة من عمره أحضرها معه، فتقرّر حظر دخول الصبيان في هذه السن «المتقدمة». ومشّطت ماوية شعر زين ـ التي اصطحبتها جدتها من البيت الجديد لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في بيت جدها ـ فصرخت متوجعة، فقالت لها عدول: ماذا بكِ مثل «غنّاجة حمّام القاري»؟ وروت للحاضرات غنج تلك السيدة التي تعرّفت عليها في حمّام القاري، هنا قالت فيحاء: كل الشاميات غنّاجات حمام القاري!.. وروت عدول حكاية تلك «الغنّاجة» التي كانت تظنها عاقراً لا تنجب كما شاع عنها ولكن زوجها يحبها ويدللها. وبعد موته وزواجها من آخر جاءت إلى الحمام وهي حامل، وتبيّن أنها لم تقل لأحد أن زوجها السابق هو الذي كان لا ينجب وذلك حباً به. فهي غنّاجة بالأمور الصغيرة لكنها تحمل حملاً «يهدّ الصخر» وهي ساكتة ككل الشاميات.

زين كانت تنصت بهدوء اسفنجة إلى كل ما يدور حولها، مسحورة، مبهورة، مستمتعة، ودهشت عمتها بوران لأنها «قاعدة عاقلة» حتى كادت تنساها.. وخافت أن تكون مريضة، فتحسّست جبينها ثم ضمتها إليها وغمرتها بثدييها ولحمها الأبيض السخي وبحنانها وقبّلتها بكثير من الحب.

تحبّ زين حمام السوق كما تحب الليل، إذ يصير الناس فيهما أشخاصاً جدداً كأنها لا تعرفهم من قبل أو كأنها تتعرّف عليهم وتراهم لأول مرة.. وتحب حكايا

(١) «الكل بالكل»: صار مهماً.

حمام السوق ولا تدري لماذا لا يرغب والدها في اصطحابها إليه. إنها تتضايق فقط حين يتمّ طردها هي وبقية البنات اللواتي لم يبلغن بعد الخامسة عشرة من العمر إلى قاعة أخرى حين «يَحْبك» الحديث. وهذا ما حدث حين أعلنت بوران: والآن سأخبركن بحكاية جهينة التي تقول للبدر قم لأجلس مكانك وعيدو من أولها لآخرها. . «من طأطأ لسلام عليكم»[1].

* * *

ضاق صدر عبد الفتاح بسرّه فقرّر أن يبوح به لرفيق عمره أبو عدنان وجاره في الدكان المجاور، وأن يقول له هذا السر دفعة واحدة وبلا مقدمات، كي لا يعدل عن قوله هذه المرة أيضاً. . ليس مضطراً للتمهيد كي يصدّق الجار أن ذلك يحدث له. إنه يحدث له وكفى، رغم غرابته التي لا تُصدّق.

وهكذا فاجأ أبو عدنان بقوله حين أطل الرجل للسلام عليه: أريد أن أبوح لك بسرّ يعذّبني. أنا حامل. . كالنساء!

قالها وقد أحاط كرشه الكبير المكوّر بذراعيه كما تفعل النساء الحوامل حين يعرضن بطونهن.

توقّع أن يقفز أبو عدنان عن مقعده ويقول له: غير معقول! أنت مجنون! أو أي كلام من هذا القبيل.

ولكن لا. كل ما فعله أبو عدنان هو أنه ابتسم بمرارة وهو يقول: وأنا «حبلان»[2] حتى هنا، مشيراً إلى عنقه، وأكاد أختنق و «أطق»[3] كالبالون. عاد عبد الفتاح يكرّر شكواه بنبرة تأكيدية حاول فيها أن يوضّح أن حَمْلَه حقيقي ويثير ذعره ورعبه، لكن صوته جاء خافتاً كما لو أن الرحلة صارت طويلة بين شفتيه وأذني «أبو عدنان»، أو كأنه يتحدث من آخر دهليز طويل ضيق مظلم واطىء السقف شبيه بخندق مسقوف والدهليز يزداد طولاً مع كل كلمة لا تقال حتى يصير متاهة. صرخ كالمستنجد: قلت لك إنني «حبلان» كالنساء.

ـ وأنا حامل أكثر منك، وأكاد أنفجر.

تصادف دخول بعض أصدقائهما عند هذه العبارة من الحوار والتقط أحدهم طرفه وقال: ومن ليس «حبلان» في هذا الزمان؟!

---

(١) «من طأطأ لسلام عليكم»: من أولها إلى آخرها.

(٢) «حبلان»: حامل.

(٣) «أطق»: انفجر.

فأضاف مرافقه: أنا حامل ولم أعد أطيق حياتي. كنت «حبلان» من الفرنسيين وقبلهم من الأتراك والآن «حبلان» من إسرائيل المزعومة وحسني الزعيم والحناوي والشيشكلي.

وتشعّب الحوار حول الحالة الاقتصادية السيئة ومخاوفهم من المستقبل، بل وخوفهم من مجرد التذمر في المقهى بعدما صارت للجدران آذان وأفواه وأقلام وتكاثر أصحاب «الخط الحلو» في «الحارة» والمقهى وفي كل مكان ولم يعد أحدهم ليجرؤ على الانتقاد بصوت عال. شعر عبد الفتاح أنه يختنق. لم يلاحظ أنه قال ذلك بصوت عالٍ إلا حينما أكد أبو عدنان أنه هو أيضاً يكاد يختنق ولم يعد ذلك كله يطاق!

انسحب عبد الفتاح من الجلسة إلى ذلك النفق المظلم في أعماقه الذي وجد نفسه فيه منذ.. منذ متى؟ (حدث لي ذلك بعد وفاة هند. أذكر جيداً أنني ليلة دفنها في اللاذقية لم أنم ولم أذهب إلى الجامع. لم أكن راغباً في رؤية الشيخ طه. كنت أريد أن أنسى ما حدث في تلك الليلة الرهيبة، ليلة وضع هند، وحيرتي بين صراخها المستغيث ونصيحة الشيخ طه بعدم إحضار طبيب ذكر لها. بين صوتها وصوته تقطعت نياط قلبي.

لا. لم أكن أكرهها كما ادّعت زوجتي واتهمتني بذلك سراً «بيني وبينها»، ولم أكن أريد قتلها كما تذكّرني كلما أحبت إيلامي. صحيح أنني لم أكن أحب هند لتدخلها في شأن بناتي وإرغامها لي على إرسالهن الواحدة تلو الأخرى إلى مدرسة «خديجة الكبرى» عن طريق إيغاز صدر أمجد على رفضي وتحريضه على أن يكلمني ويقنعني بضرورة ذهابهن إلى المدرسة أسوة بلؤي ودريد والست فيحاء التي لم يعد بوسع أحد إبداء ملاحظة لها. وها هي فضيلة ترفض هذا الأسبوع الزواج من عريس «لقطة»[1]، وحميدة تأبى الظهور أمام الخاطبات كما بقية بنات البيت. رغم كل ما ترتب على حضور هند في أسرتنا لم أنقم عليها شخصياً، فأنا أكرههن كلهن وأكره جنسهن، فهن شر مستطير ويزداد خطرهن حين يتعلّمن مثل زوجة أخي هند التي كاد حضورها يفسد حياتنا الساكنة الهادئة في «زقاق الياسمين».. لكنني لم أتعمد قتلها. وعجزت عن النوم ليلة دفنها. لا. لست مجنوناً. لقد لاحظت دائماً فتور أمجد نحوي منذ موت زوجته كأنه يتهّمني. لست مجنوناً. كل ما في الأمر أنني أتعفن

(١) «لقطة»: مناسب جداً.

وتصدر عـن لحمي رائحة لم يعد العطر ينفع في حجبها عن أنفي، وأنني استيقظت ذات يوم ووعيت أنني حامل كالنساء ـ يا للعار! ـ وصعقتني هذه الحقيقة حتى إنني بقيت ممدداً في فراشي متظاهراً بالنوم كي لا تكلمني زوجتي. وحين أيقظتني كي أنهض و «أفتح الدكان» وطلبت مني أن أنهض «بكرشي الكبير»، ادّعيت أنني مريض وبقيت في فراشي حائراً في أمري، فأنا وحدي أعرف أنني حامل. أهذا قصاصٌ لي؟ ولمَ القصاص وأنا بريء لم أفعل شيئاً؟ أم تُراها هند كتبت لي قبل موتها عند الساحرة كي تحل بي هذه المصيبة التي لم تحدث لرجل من قبل؟).

لاحظ أبو عدنان وبقية الصحب أنهم يكلّمون عبد الفتاح ولا يسمعهم فمضوا. جرّ عبد الفتاح السجادة المعدنية (الغَلَق) من سقف المدخل حتى الأرض وثبّتها بالقفل مغلقاً دكانه، ومشى صوب بيته وهو لا يرى أحداً ولا يحيّي أحداً. وأيقظته يده وهي تمسك بـ «السقاطة» الباردة وتقرع باب «البيت الكبير» ولم ينتبه لمن فتحه له. دخل إلى غرفته. لاحظ أن الساق اليمنى للمنقل قد غادرت المربع الأحمر الأخير الصغير على السجادة وزاحت عنه عدة سنتيمترات. أعاده إلى مكانه. يحب أن يرى كل شيء في مكانه. لا يحب أن يتبدّل أي شيء حوله فذلك يثير غضبه. لم تكتف زوجته بتبديل موضع المنقل بل بدّلت أيضاً موضع منفضة السجائر. يضعها عادة في المثلث داخل قطعة القماش المخملية وقد أزاحتها رغم غضبه مراراً من ذلك. خفه المنزلي ليس في موضعه أيضاً. يحب أن يتركه لصق العتبة وقد أدار كعبه صوب الباب لا كما هو الآن مُدار باتجاه الداخل. تصاعد الغضب في صدره فذهب صوب الحمام وغسل يديه جيداً سبع مرات ثم ذهب إلى «اليوك» وأخذ يعيد ترتيب الآنية الخزفية المكتوب عليها بماء الذهب والقوارير «الأوبالين» الزرقاء. أعاد مسح الغبار عنها سبع مرات لكل واحدة ورتّبها في موضعها تماماً.

حين دخلت زوجته وحدّثته لم يسمعها وبالتالي لم يجبها لكنه شعر بآلام لا تطاق في بطنه وغمره ذعر هائل: هل سينجب الآن كالنساء؟ هل سينجب بنتاً ليتضاعف عاره أم توأماً من البنات؟ هل سينجب كقطة الريحانية ـ التي رمى بها إلى بردى ـ سبع قطط صغيرة تموء في وجهه وتخدشه ليلاً وهي تقرض حنجرته كما يرى في كوابيسه؟ لكن الألم كانْ يتصاعد حتى إنه لم يجد في حنجرته صوتاً يعترض به حين اقتاده شقيقه أمجد إلى الطبيب. . . كان «الطلق» مؤلماً وتوقع أن يموت خلال الوضع أو بعده مثل هند.

قال الطبيب لأمجد هامساً بعدما فحص بطن عبد الفتاح فحصاً دقيقاً للمرة

الثالثة خلال شهر واحد: نوبات الألم هذه بحاجة إلى علاج من نمط ليس عندي. إنه جسدياً بأفضل صحة. يجب أن تعرضه على «طبيب أعصاب». كان يريد أن يقول له: شقيقك مُصاب بجنون ما، ولكنه فضّل استعمال التسمية المهذبة الشائعة لذلك.

سأله أمجد: ماذا تعني؟

قال الطبيب: أعني أن المرض داخل رأسه من زمان.. وليس جديداً. وقد بدأ يستفحل وعلاجه واجب قبل أن يؤذي نفسه وسواه. لقد بدأ يضيع...

تهامس الرجلان وعبد الفتاح يئنّ ألماً: كنا نلاحظ أن سلوكه غير طبيعي بين وقت وآخر.. وكنا نصبر..

ـ أما زال يذهب إلى الصلاة؟ أعرفه متديناً والصلاة تفيده.

ـ لم يطأ الجامع منذ خمسة أعوام.

ـ لماذا؟

ـ تشاجر مع الشيخ طه لسبب نجهله. حاولت عبثاً إفهامه أن الشيخ طه بشر مثله وليس ممثّلاً لله على الأرض، والشجار مع الشيخ لا يعني الابتعاد عنه سبحانه وتعالى. واقترحت عليه أن يعود إلى الصلاة في البيت أو في جامع آخر.

ـ وماذا فعل؟

ـ لا شيء. ثمة أمر آخر يعذّبه في الشهور الأخيرة، وهو أن بيتنا كاد يُهدم لشق طريق وكان علينا أن نخليه. ثم عدّلوا عن ذلك لأسباب هندسية تخصّهم. وقد قلقنا كثيراً إلى أن نجا البيت منهم.

قال الطبيب: هذا يفسر جزئياً تفاقم حالته، لكن أحداً لا يدري لماذا يتوهم نفسه حاملاً.

تعالى أنين عبد الفتاح وازداد انزعاجاً من الطبيب، فهو حامل، والطبيب يفتش له عن أمراض أخرى وهمية.. ولكنه لم يجد صوته أو لم يسمع نفسه وهو يقول لهم ذلك وهو يئن مكرّراً: إنني حامل.. وقد بدأت أوجاع الطلق!

حقنه الطبيب بإبرة مخدرة وقال لأمجد: يجب نقله إلى المستشفى فوراً.

صمت أمجد طويلاً ثم طلب من الطبيب الاحتفاظ بالأمر سراً، فالمرض النفساني لا يزال يُنظر إليه على أنه من عمل الجان وهو مدعاة للخجل والعار.

قال الطبيب: هذا سر مهني وأنا تحت القسم فاطمئن. سأتصل بزميل اختصاصي وندخله المستشفى باسم مستعار. أنصحكم بأن تقولوا للناس إنه في رحلة عمل.

* * *

لم يكن القرار بالكتمان صعباً. المهمّ عند بوران ألا يعرف «الناس» هذه الفضيحة وكل ما تبقى مجرد نتائج بسيطة. كانت زوجة عبد الفتاح تمارس «القال والقيل» بشهية وتخشى أن تكون مادة لها في آنٍ.. وهكذا تقرّر عدم إخبار البنات فهن لا يكتمن السر، وبالتالي عدم السماح لهن بزيارته في «المرستان»[1]. أما لؤي ودريد وعامر فهم «رجال» يقدّرون الأمور وليسوا بنصف عقل. وطارت الشائعات وتناسلت، ولم يصدق كثيرون حكاية سفره، وذاع أن عبد الفتاح مريض بالمرض الذي اسمه «لا يُقال» أي السرطان. وحين نفت فلك في «الاستقبال» عندها أن زوجها مريض بـ «المرض إياه»، قالت النساء: «يا لطيف تتلطف ويا حفيظ!» وتأكدن من مرضه بسبب النفي الشديد لذلك. ودفن آل الخيّال فضيحة الجنون بفضيحة أقلّ عاراً هي «المرض الذي لا يُذكر اسمه»، وعادت الخاطبات إلى البيت لاستعراض بناته بغرض الخطبة بعد فترة من الانقطاع.. أما لؤي فقد ترك المدرسة موقتاً وصار يذهب كل صباح إلى الدكان مع أحد أخواله ليتعلّم المهنة.

* * *

امتلأ قلب أمجد بالكآبة منذ شحّ ماء أحد روافد بردى ولم تعد المياه تتدفق من «البحرة» التي تتوسط فناء داره بالثراء العتيق الغابر.. أدهشه هبوط مستوى النهر يوماً بعد آخر في زيارته شبه اليومية إلى «البيت الكبير» منذ اقامته في منزل ساحة المدفع، كما أحزنه العفن الذي ينتشر بأسرع من المألوف في الجدران وفي الفاكهة. لم يسبق له مثلاً أن شاهد الدراق يتعفن بسرعة هكذا (ثمة عالم يتعفن ونتستر جميعاً على اهترائه). تأمل نقوش الباب ومنمنماته وعبارة «رأس الحكمة مخافة الله» المنقوشة عليه وتحتها في إفريز آخر عبارة «قيمة المرء ما يحسنه» والعفن محيط بالباب كإطار لوحة (تلك العراقة كلها وذلك الاهتراء كله يقفان جنباً إلى جنب!).

* * *

حين دعاه مطاع لحضور سهرة رأس السنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ في بيته تعجّب أمجد وسأله: وعلامَ تريد الاحتفال بسنوات النحس الأخيرة هذه؟ إنها أسوأ ما حل بنا منذ سقوط الأندلس وهزيمتنا في فلسطين. بدأنا بانقلاب حسني الزعيم، وبعده بـ ١٣٤ يوماً جاء سامي الحناوي، ومنذ أقل من شهر جاء أديب الشيشكلي بانقلابه الثاني واستلم الحكم مباشرة. إنهم طائفة من الأولاد تلعب باستقلال بلدنا الذي دفعنا ثمنه آلاف الشهداء وتبهدلنا لأجله في الغربة والمعتقلات.

(١) المرستان: مستشفى المجانين.

ـ ساعة لقلبك وساعة لوطنك وساعة لربك. انقضت أعوام على وفاة المرحومة، وقليل من «الفرفشة» لا يؤذي أحداً. ثم إن سنوات النحس وأيامه كثيرة عندنا، فهل تريد مني أن أعلن الحداد في ٢ تشرين الثاني من كل عام لأنه ذكرى وعد بلفور سنة ١٩١٧، وأبقى بلا طعام في شهر أيلول أسبوعاً لذكرى المؤتمر الصهيوني الأول برئاسة هرتزل عام ١٨٩٧. وانتحب ليلة ٢٦ تشرين الثاني لأنهم قبل ثلاثة أعوام أعلنوا قرار تقسيم فلسطين، وألطم وجهي ليلة ١٥ أيار لأنهم في ذلك اليوم سنة ١٩٤٨ أعلنوا تأسيس الدولة العبرية؟ هل تريد أن أكمّل لك قائمة تواريخ النحس؟ إن تواريخنا المأساوية بلا نهاية.

ـ ولماذا السهر و«الفرفشة» ليلة رأس السنة الميلادية بالذات؟ هذا عيد لا نحتفل به في بيتنا. جئتَ معك بهذه العادة من باريس.

ـ ولمَ لا؟ عيد إضافي لا يؤذي أحداً في وطن نصف تواريخه مآسٍ وفجائع ومذابح. تعال غداً مساءً في العاشرة ليلاً. . زوجتي «حردانة»[1] عند أهلها كعادتها «كلما دق الكوز بالجرة»[2]. ولست قلقاً من عدم عودتها فهي حامل، فدعنا نستمتع قليلاً بدون «وزارة الداخلية»[3]. أنتظرك في العاشرة.

ـ ولكنني أنام في العاشرة!

ـ منذ متى؟ «صاحبي وبعرفك، إمتى صرت شيخ؟». في باريس كنت تسهر حتى مطلع الفجر. أم إنك المستر جيكل في باريس والدكتور هايد في دمشق ككل العرب؟ «اطلع من دول» كما يقول إخواننا المصريون. . .

رنّ جرس الهاتف فأجاب مطاع. أطرق أمجد راحلاً مع أفكاره (آه أيام النضال والشباب. . كنت أناضل ضد كل جندي فرنسي ومع كل حسناء فرنسية. هناك ذقت طعم العسل للمرة الأولى. كانت إيڤلين جميلة وسخية ومنحتني نفسها بلا عقد زواج وشهود ودفع مهر وشراء بدراهم فضة. ليلة اللقاء كانت ليلة الدخلة. هكذا مرة واحدة استغنينا عن التفاصيل المملّة كلها وعشنا شهر العسل. حين طلبت منها الزواج فيما بعد رفضتْ إلا إذا بقيت معها في بلدها. قالت إنها سمكة تذوي في غير بحرها ولن تتخلى عن خصوصيتها إكراماً لعقد زواج. وكان ذلك رأيي أيضاً فيما يخصّني. وهكذا افترقنا بالحب والقبلات، ولعلها تنهدت بارتياح يوم أقلعت الباخرة بي من مرسيليا. .). هل ثمة تخاطر؟ هكذا تساءل أمجد لأن مطاع سأله فجأة: هل نسيت

---

(١) حردانة: غاضبة، تركت البيت إلى بيت أهلها.
(٢) لأتفه الأسباب.
(٣) «وزارة الداخلية»: لقب الزوجة في دمشق.

إيڤلين وأيام إيڤلين وزمن الجنون؟ تعال إلى السهرة تنفتح لك دنيا من الأرامل الجميلات والمطلقات الحلوات والبشعات الفقيرات والثريات. . وأنت وذوقك.

* * *

في السهرة دهش أمجد وهو يرى طبقة جديدة من الجميلات غامضات المهنة تحل محل التي كان اختصاصها مجاملة المندوب السامي وممثليه (كأن الوجوه تتبدل والجوهر واحد. والتفاحة الجديدة التي ألتقطها عن مائدة العشاء كانت تقطنها دودة الأعوام الماضية. . دودة مهرج الوالي فمهرج المندوب السامي فمهرج حسني الزعيم في السهرات حول بيسين «الجراند أوتيل» في بلودان. . فمهرج الحناوي ومن بعده فوزي سلو فالشيشكلي والله يعلم من سيأتي بعده).

أيقظه مطاع من أفكاره قائلاً بعدما أخذ جرعة من ويسكي «ديوارث» المفضّل عنده وأهمل بقية مدعويه: لدي بعض المشاريع، كان الزعيم متحمّساً لها وكذلك الحناوي واليوم «الذين استلموا الحكم». . وأحب أن أفيدك وأتعاون معك.

ـ حكم «الأولاد» هذا لن يدوم.

ـ بل سيدوم و «نص».

ـ كان العدو واضحاً. . الانتداب الفرنسي وقبله الاستعمار العثماني. . الآن دخلنا في التعقيد وبدأنا نضلّ الطريق وصار دود الخل منه وفيه وصرنا جاهزين لحرب أهلية صامتة بلا إطلاق نار.

ـ ما عهدتك عسيراً هكذا. . .

ـ إنني أتقدم في السن وتتضح الرؤية لدي. أي قمع للسوري تحت أي ستار لا يمكن له أن يستمر. مائة عام؟مائتان؟ هذا لا شيء في عمر دمشق. . لكنني أقطع يدي إذا بقي شيشكليك هذا أكثر من سنة.

ـ يبدو أنك ستقطع يدك فهو باقٍ وقد تحدّثنا معه عن إصلاحات دستورية ديمقراطية. . وسيستلم الحكم بنفسه باستفتاء شعبي.

ـ واجهات وأقنعة ومظاهر. . شعبك ليس حماراً. إنه فقط طويل البال لكثرة ما مرّ به وعليه.

ـ أنت من جماعة شكري القوتلي. . والكتلة الوطنية. .

ـ أنا لست من جماعة أحد. أنا من جماعة الشام والحرية و «حزب الأوادم». كنت قبلها في الكتلة الوطنية لتحرير بلدنا وقد تحرر من الانتداب. وكل انتداب مرفوض، محلياً أم خارجياً. لا أحد يستطيع تركيع الشام طويلاً.

ـ منذ متى وجنابك متحمس؟ لقد دفنا «الشيخ زنكي»[1] معاً.

تضايق أمجد إذ أدرك أن مطاع يذكّره بأيام كان يبيع فيها الأطروحات له ولسواه، غامزاً من قناته وأمانته. فقال بحدّة: أغفر لجائع تعاونه مع الشيطان ولكن ذلك ليس مقبولاً منك.

ـ بدأت «تتشبع» وصار الحوار معك صعباً. ثم إنني رجل أعمال وأنت محامٍ، فما لنا وللسياسة؟

ـ هل تعني أن المهم أن نربح مالاً ولا دخل لنا بما يصيب بلدنا؟

تحسّس أمجد ربطة عنقه «السولكا» على قميصه الحريري (مدهش خزان القسوة الحاسدة الذي أفجّره في بعض الناس منذ كففت عن أن أكون مفلساً، كأن مطاع يحنّ إلى غطرسته عليَّ أيام كنت أتقاضى منه وصحبه ثمن كتابة الأطروحات لهم. حتى صديقي الحميم مطاع يبدو عاجزاً عن أن يغفر لي أنني لم أعد بحاجة ماسة إليه!).

قال مطاع: ولماذا لا يعجبك الشيشكلي؟ وهل يستحق شعبنا ما هو أفضل؟ وكما أنتم يولّى عليكم.. لا تنسَ ذلك..

ـ دعنا نسمّي الأشياء بأسمائها: مغتصب السلطة الشرعية يحاول إقناعنا بمعادلة مزيفة: أعطوني حريتكم وأنا أعطيكم فلسطين! لقد تعاقب علينا حكم ديكتاتوري بعد آخر ولا يمكن للشعب السوري أن يسكت عليه طويلاً..

ـ بلى. سيسكت عليه إذا كان الاستسلام للدكتاتور مقابل تحرير فلسطين كما يقول. أنت تعرف أن شعبنا عريق في حسّه العروبي، وأنه يضحّي حتى بحريته لقاء استعادة فلسطين.

ـ شعب يضحّي بحريته سيعجز فيما بعد عن تحرير نفسه وفلسطين. الكرامة وحدة لا تتجزأ. من يترك حاكمه يُذلّه سيجد العالم كله يُذلّه. لقد جاء بعض أزلام الشيشكلي إلى معمل الزجاج وعطّلوا العمل كي يخرج العمال في «عراضة» تأييد له. وهذه عيّنة مما سنواجهه من ضرب لاقتصاد البلد. إذا تابعنا على هذا المنوال سيجوع الناس كأيام السفربرلك. في النهاية ما جدوى استبدال ظالم أجنبي بظالم محلي؟

يتنهد أمجد براحة كمن قال كل ما عنده ويجلس على الطرف الأمامي للمقعد

---

(١) دفنّا «الشيخ زنكي»: قمنا بالعمل سوية.

كمن يتأهب للهرب (إنها سهرة ليلة رأس «سنة النحس» الجديدة التي تتوّج سنوات بدأت بأيار ١٩٤٨. فما الذي أفعله هنا، وكلي خوف لا مما مضى فحسب بل مما سيجيء؟).

يتأمل أمجد عالم مطاع بعين جديدة والرجل يقول له: «أريد أن أحدّثك عن مشروع مهم»، ثم ينشغل عنه بحوار جانبي مع حسناء.

يجيل ناظريه فيما حوله من زينات تدلت منها لوحات مذهبة عليها رقم ١٩٥١ مشطوباً ورقم ١٩٥٢ مكتوباً مكانه بحروف حمراء كبيرة وبالونات وأوراق ملونة.

يرجع بجسده إلى الخلف.. يسترخي في مقعده وعيناه تتابعان تجوالهما. مقعد الـ «لوي كاتورز» الذي يغوص في وثير رياشه متحسساً خشبه المحفور المطعَّم بالذهب. السجاد العجمي على الأرض والـ «تابيسري» الفاخرة المعتقة على الجدران. «الباراڤان» الصيني المطعّم بالعاج. تحفة الـ «باكارا» الفضية الكريستالية التي تتوسط الطاولة وقاعدتها البجعة المحفورة في خشب ثمين. «اللمباديرات» الباريسية الثمينة. «البچاليه» الموقَّعة. أواني «السيڤر» الفاخرة. الستائر الـ «ڤولور دوجين»[1] المطرزة بالدانتيل الأبيض وخيوط الذهب. الموائد الممدودة التي يضيء كل ما عليها بالجدة والفرح (الأشياء كلها هنا قد تكون مستوردة ودخيلة ولكنها ترقص بالحياة والنضارة وتزقزق بالفرح). تذكّر بيته الأول في «زقاق الياسمين» حيث الأشياء عريقة وفيها لذعة حزن وانزواء وصمت. روائح من الماضي يقطنها الغبار والعنكبوت والكآبة ولا يدري كيف يُدخل على قلبها الضوء والفرح والأوكسجين. هبّت عليه رائحة العطور.. عطور الحسان اللواتي يرحن ويجئن على أنغام أغنية «اكستازي» التي تتصاعد من «البيك أب» والأسطوانات العديدة على حامل تهبط واحدة تلو الأخرى من تلقاء نفسها لا كالفونوغراف العتيق عنده.

رقصة التانغو في الصالون المتوّج بالثريات الكريستالية المستوردة بالتأكيد من مدينة البندقية والأثاث الباريسي العريق، وبريق الفضة والذهب على المائدة وصحون «الليموج» كأنه في بيت باريسي ثري، وجرعه كونياك معتّقة في قعر «غوبليه» من الفضة.. كل ذلك شوّش حواس أمجد. لكنه كان لا يزال يسمع صرخات زوجة سعيد الماجد الذي كانوا يداعبونه بمناداته «سعيد الطش» حتى أثبت شجاعته في وجه حسني الزعيم.. كان في زيارة للبيت الكبير قبل مجيئه إلى هذه السهرة وسمعها وهي

---

(١) «ڤولور دوجين»: مخمل فاخر من جنوى.

«تدب الوليّات»[1] في الزقاق بعدما جاءها نعيه. والحق يقال إن ندبها لم يغادر أحجار الزقاق منذ جاء زبانية حسني الزعيم واعتقلوه لأنه ثرثر في المقهى وسجَّل كلامه أحد أصحاب «الخط الحلو» ونقلوه خطأً إلى سجن المزة وراح يتوارثه الانقلابيون ونسوه في السجن حتى «اعترف» بما نُسب إليه تحت الضرب وقضى نحبه فيه. صحيح أنهم جاءوا للحكم باسم «الشعب»، ولكن لم يجدوا بعد ذلك الوقت للاهتمام بالناس. لقد وعدها بأن يكلّم صهره المقدم معين زوج قمر ابنة بوران ووعده الرجل بإطلاق سراحه. وانشغل عن «سعيد الطش» وشعر بالذنب خوفاً من أن يكون صهره قد بدأ يصير مثلهم «يعشق» الشعب السوري ويكره الناس. .

جاءه صوت مطاع لطيفاً أكثر مما ينبغي لمن يقول شيئاً غير «مخردق» ومغشوش. المشروع هو ببساطة ما يلي: استطعت الحصول في باريس على وكالة حصرية لبيع الأدوية الخاصة بشركة كبيرة وأحب أن نتعاون معاً. الرأسمال مني والعمل عليك، أي أريدك شريكاً مضارباً.

ـ مبدئياً أنا معك.

ـ اتكلنا على الله. ستربح مالاً كثيراً، وتخدم الناس. سنتحدث عن التفاصيل فيما بعد. والآن دعنا نروِّح عن أنفسنا. أريد أن أعرِّفك على السيدة ندى.

لم يسقط في فلك عينيها رغم جمالهما. لم يتحوّل إلى كوكب في فلك عينيها يخط لنفسه مداراً جديداً من مدارات الكواكب الكثيرة التي تحوم حولها وتدور **(لكنني كوكب منطفىء. لقد أنفقت قلبي في حب هند وبعدما ماتت اكتشفت أنني نسيت أن أقول لها ذلك جيداً. كنت أظن أن ثمة وقتاً. لا وقت لشيء إلا للموت. ولم أعد أصلح لشيء إلا للذكريات!)**. تملقته ندى كما لو أوصاها مطاع بذلك فقد كان خبيراً في دعوة النساء الجميلات وتوظيف حضورهن البريء أحياناً لأغراض العمل والصفقات. نفر منها ومن مطاع **(هل أتخيّل ما لا يحدث غيرةً من مطاع الثري المحظوظ، أم أنه أضحى من عشاق المال أكثر مما ينبغي؟ وما بال الرجال هذه الأيام؟ لماذا يتحولون إلى عبيد للمال وهم يلعقون حذاء حسني الزعيم فحذاء الحناوي واليوم حذاء الشيشكلي وألسنتهم جاهزة للعق أحذية من سيأتي بعد الشيشكلي؟ هل أتحامل على مطاع أم أن انطباعي في محله؟ بدأ يترسخ لديَّ يقين بأنه مستعد للصعود حتى على جثته كي يجمع المزيد من المال. وكم انكسر قلبي وأنا**

---

(١) «تدب الوليات»: تولول.

أراه، هو الذي أنعم الله عليه وعلى والده بالثراء، يفعل مثلهم متملقاً أهل الانقلابات: أولئك الوطنيين الحمقى الديكتاتوريين المتعجّلين على كل شيء. ولا عذر لمطاع الذي يعمّر المباني في أبو رمانة.. عمارة بعد أخرى وجشعه لا يشبع، بخيلاً على من حوله سخياً على سهراته. يسهر وشركاءه في «نادي الشرق» أو في نوادي القمار حتى مطلع الفجر، وأرى سيارته الكاديلاك الحمراء الكبيرة متوقفة أمام ملهى «السيريانا» كلما عدت من عملي في مكتبي إلى بيتي متأخراً منهكاً).

بالرغم من الموسيقى والرقص والجو المرح شعر أمجد بالنعاس إذ لم يكن يسهر خارج بيته إلا نادراً لضرورات العمل في المكتب، وإذا تأخر مرة في العودة زجرته أمه في قالب دعابة (بالرغم من إغراءات مطاع كلها لا يبدو أنني أستطيع الانتماء إلى عالمه، وسأظل غريباً عن الثراء الاستعراضي في أثاثه ورياشه وتحفه ومناخاته ونسائه مصبوغات الابتسامات والوجوه بأسنانهن الكبيرة البيضاء المتأهبة لالتهامي أو القهقهة باستمرار. لم أستطع يوماً مجاراة هذا النمط من المناخات في لعب «الكاناستا» و«البريدج»، ولا مشاركة مطاع في زياراته لنوادي القمار. إنني أكره القمار حتى ولو كان اللعب بحبات «القضامة»، وقد زجرت زين حين ضبطتها تلعب الورق مع رفيقتها الجارة والرهان حبات حمص!).

رغم البرد تسلل أمجد إلى الشرفة هارباً من ندى (لم أستطع مجاراة أصحابي في عبادة المال والمظاهر، فهل سأندم ذات يوم؟ وهل ألومهم من باب العجز والغيرة؟ هل يمكن أن أرفض مالاً لو كنت أكسب ما يكسبه مطاع؟ ربما.. ربما.. لقد ظل أثاث بيتي على حاله حتى بعدما تحسّنت أحوالي المالية. ولكن هل من حقي انتقاد مطاع لمجرد أن ذوقه في الحياة مختلف عن ذوقي، أم أنني أتوجس شراً من مجمل سلوكه مع الحياة والناس؟ وهل ذلك التوجس يجعلني قيّماً عليه؟ لا تزال أمي تستلم «مداخيلي» كلها فتنفق منها بشيء من السعة قياساً إلى ما كنا عليه أيام العسر، ثم تقسّم الباقي لمساعدة محتاجي الأسرة، فيأتي عجائز آل الخيّال ويتقاضون رواتبهم منها وتخصّ بالاهتمام الذين آزروها بعد موت أبي: «مائة ليرة شهرياً لابن عم أبيك فلان، ومائتان لابن المرحوم خالك لأن زوجته مريضة وهو بلا عمل، وأرجوك أن توظّف ابن خالة بنت عمة أبيك فقد خسر عمله».. وأنا أتركها تتصرّف بالصورة التي كبرنا عليها وسبقنا إليها أجدادنا.. وأنا راضٍ بذلك. أربّي زين على احتقار المال، ولكن هل يبرّر لي ذلك انتقاد مطاع وممتز أيضاً؟ لا. لست مثلهما. لست مثل رفيقي

معتز الذي ضيَّع البوصلة وصار يكتب مادحاً من بيده السلطان أياً كان. لم يتبدل شيء في جوهر حياتي وأسرتي حتى بعدما غادرتُ بيت «زقاق الياسمين» إلى البيت الجديد في حي «على الموضة». لقد احتفظت لزين بميراثها الكبير من أمها ولم أنفق قرشاً منه على نفسي أو عليها، بل ما زلت أدفع الضريبة على الأملاك من جيبي الخاص، ويبدو لي ذلك كله عادياً. . كم أكره ذلك الانحراف الذي حملته زلازل الانقلابات وجعلت المال هو الحاكم الحقيقي والفساد وزير الميمنة وقلّة مخافة الله وزير الميسرة).

* * *

عاد أمجد من الشرفة وامتزج بالحضور امتزاج الزيت بالماء. تصرَّف بتهذيب اجتماعي مأثور عنه. ابتسم وجامل ولم يراقص ندى. انسحب خلسة حين أطفأ مطاع الأنوار عند منتصف الليل وعلت صرخات الفرح المصطنع والبهجة وفرقعات القبلات والبالونات، ولم يُلاحظ أحد انصرافه.

في الشارع تنفّس ملء صدره (ذلك الإحساس بالاختناق يتزايد في صدري يوماً بعد آخر، انقلاباً بعد آخر. قال الطبيب إن لا مرض عضوياً لدي وإنه هو أيضاً يختنق مثلي!).

صفعه الهواء البارد. وكمن استيقظ من كابوس اتخذ قراره بسرعة (مطاع رجل لم يجرحه شيء في الحياة باستثناء شفرة حلاقته. ليس بوسعه أن يفهم معاناتي يوم كتبت أطروحة وبعتها له. إنه لن يفهم يوماً اعتزازي بنفسي أمام المال ولن يعرف أنني يومها كنت سأجوع لو لم أقترف ما اقترفت. أما هو فلا عذر له. ثم إنني أكره محاكمة صاحب معدة ممتلئة لصاحب معدة فارغة. لا. لن أمشي في مياه معتمة لا أدري ما تخفيه لي ولن أركب يختاً فيها!. . ولن أعمل شريكاً مضارباً لمطاع. سأكتفي بمهمة المستشار القانوني وانسحب في اللحظة التي لا أرتاح فيها إلى نقاء ما يدور. سأربح أقل وأريح رأسي أكثر!).

* * *

حاول الموظف انتزاع قنينة ماء كبيرة الحجم تشبه «الألْفية»[1] كانت السيدة العجوز تحتضنها بين يديها وهي تصعد سلم الطائرة. رفضت بشدة. قال لها: سنسقيكم الماء في الطائرة يا حاجة فلا تخافي. . ونطعمكم أيضاً.

(١) دورق كبير من الزجاج.

ظلت على رفضها فتركها وشأنها وهي تكاد تتعثر بردائها الطويل وقد ضمت الزجاجة إلى صدرها بكلتا يديها بالرغم من انها أكبر حجماً مما ينبغي لراكبة في طائرة. حملت معها ماءً من «بير زمزم» لتسقي قبيلتها الكبيرة وأولادها وأحفادها وحفيدتها المفضلة زين التي «شاهدت القمر على وجهها»(١)، وابتسمت لها زين مع أول نظرة إلى الهلال الوليد فبشّر الله الرحلة إلى الحج وكان شهرها مباركاً مع أنها طالما غنت قبلها لابنها أمجد: «أولا يا أولاني / راح الحج وخلاني / خلاني بالبرية / ستي زينب ورقية..» إلى آخره، ليتذكر وعده بإرسالها إلى الحج.. ستسقي جرعة من ماء زمزم المبارك لكل واحد منهم تشفيهم من الأوجاع كما شفيت هي هناك ولم تعد بحاجة إلى تناول دوائها بتذويب أكياس «اللاتينال»(٢) في الماء كما في الشام. ستسقيهم جرعة تحميهم من أي مرض وتعيد العقل إلى رؤوسهم.

حلّقت الطائرة بها وبشقيقتها أم موفق فامتلأتا بالذعر وصارتا تتلوان الأدعية والآيات القرآنية كشقيقهما بالرضاع الحاج صفوح وزوجته وبقية ركاب الطائرة ومعظمهم من الحجاج. في طريق الذهاب، خافت الحاجة حياة أم أمجد لدرجة الإغماء. خافت أن تموت قبل أن تحجّ ويغفر الله ذنوبها وقد تذهب إلى جهنم، أما الآن فبوسعها أن تموت وهي مطمئنة إلى ذهابها للجنة في رمية واحدة. تساءلت: هل الجنة هي المكان الذي تستطيع فيه أن تختار زوجها؟ (يوم تزوجت والد أولادي لم أره إلا ليلة الدخلة. لكنني أحببته وانفطر قلبي لاختفائه وموته المرجّح، وبكيته ليلة بعد أخرى على مدى سنوات حتى ذبلت عيناي.. أعرف أن للرجال في الجنة الحور العين، ولكن ماذا عني أنا؟ وأنا لا أريد غير زوجي، وأريده بدون الحور العين إذا أمكن. فالضرّة مرّة في الآخرة كما في الحياة الدنيا. ولكن لو أتيحت الفرصة لزوجي للزواج من أخرى لعاملتها بالحسنى ولأحببتها ولقمت بتمريضها إذا مرضت قبلي حتى يوم موتها في غياب زوجنا ما دام الزواج من اثنتين أو أكثر إنما يتمّ بمشيئة الله. ولكنني لا أريد أن يُقاسمني أحد زوجي في الجنة كي تكون الجنة جنة.. رحم الله أبو أمجد كم كان لطيفاً وحازماً وأرتجف خوفاً من غضبه كالقصبة في الريح).

التفتت الحاجة أم أمجد إلى أختها وقالت لها: من الآن فصاعداً نادوني أم سفيان أو أم عبد الفتاح إذا أحببتم بدلاً من أم أمجد. ولن أعترض.

---

(١) «شاهدت القمر على وجهها»: ثمة معتقد شعبي حول مشاهدة الهلال للمرة الأولى في الشهر برفقة وجه يبتسم وتصير بالتالي أحداث الشهر الآتي مفرحة!

(٢) «اللاتينال»: علاج كان شائعاً في ذلك الزمان.

رغم رعبها من الطائرة ضحكت أم موفق وقالت لها: لم يبقَ من العمر أكثر مما مضى. سنظل نناديك أم أمجد فقد ألفنا اسمك هكذا.

ابتسمت أم أمجد. يوم وَلِدَت ولديها الكبيرين سفيان وعبد الفتاح لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها ورفضت أن يدعوها الناس بأم سفيان أو بأم عبد الفتاح كي لا «يكبّرونها» بالسن. فاسم أم سفيان أو أم عبد الفتاح في نظرها يوحي بامرأة مسنّة! وأصرّت على أن ينادوها باسمها: حياة. وليس إلا بعدما أنجبت بهيجة وبوران ابنتيها فابنها أمجد فماوية قبلت بأن تناديها نساء «الحارة» بأم أمجد. وكانت على جانب كبير من الملاحة والطيبة ومخافة الله والدماثة وروح النكتة والرصانة في آنٍ، تحبّها الجارات والقريبات كلهن، وعلى سبيل التكريم قرّرن مناداتها بـ «الحاجّة» منذ صغرها لورعها واتزانها، فالحاجّة عندهن اسم مكرس للمسنّات الورعات حتى ولو لم تتح لهن فرصة الحج. وهكذا حملت لقب «الحاجّة» قبل أن تبلغ عقدها الثالث، وظلت منذ ذلك الحين تتوق ليوم تحجّ فيه وتحمل لقبها عن حق، ولكن من أين لها بالحج قبل ذلك وهي التي مرت بأيام عسيرة مادياً بعد العزّ أيام زوجها؟ شبح أيام «السفربرلك» والقلة و «الدلة». . هذه كلها علمتها التقتير وقيمة «العصملية الذهب» و «المجيدي»[1]. . وقد اتفقت وعبد الفتاح على عدم بيع البيت الكبير لتعليم أمجد «علوماً عالية»، والخروج من أزمتهم المالية بطريقة أخرى. وفرحت ضمناً بتمسكه الشديد بالبيت فقد كانت قد تعلّقت به هي أيضاً كما لو كان كائناً حياً له حياة خاصة تكاد تكون عضوية وتسمعه في بعض الليالي يتنفس ويطقطق أصابعه ويظن بقية ساكنيه أن «الخشب يرتاح» أو أن السوس يقرضه فيصدر عنه هذا الصوت الذي يعزوه الجيران إلى الأشباح. أما هي فتعرف أن البيت حي وبيعه غير ممكن كمن يبيع طفله، وهجره غير ممكن كمن يفارق حبيباً، وحتى قتل الأفعى «الألفية» المقيمة في مطبخه منذ عصور غير ممكن، فهي صديقته وجزء منه كالأشجار والياسمين والقمر والشمس والصراصير و «الأم أربعا وأربعينات»[2] والفئران والقطط. وإكراماً للبيت صادقت أفعاه وصارت حين تلتقي بها في المطبخ خارجة من «اليوك» المظلم أو من «بيت المونة» تقول لها: «سيري يا مباركة»، ولا تتحرك من موضعها وتدعها تذهب إلى شأنها وتدرك في قرارة نفسها أنها لن تؤذي أحداً إذا لم يؤذها. (مرة كانت زين واقفة إلى جانبي في المطبخ «تمصمص» **العظام وتحاول استخراج النخاع من داخلها وهي تقضم الغضاريف وبقايا اللحم عنها**

(١) من العملات العثمانية لذلك الزمان.

(٢) الأم أربعاوأربعينات: حشرة أم أربع وأربعين.

بشهية حين خرجت «الألفية» من وكرها ومشت صوب جاط «الحليب المرقّد»[١].
كانت زين في الرابعة وكادت تخاف لكنني علّمتها ما تعرفه كل شامية مثلي: أن تحبها وألا تخاف منها كي لا تؤذيها وتقول لها معي: «سيري يا مباركة». وهمسنا معاً للأفعى «سيري يا مباركة»، فمضت الأفعى إلى «جاط» الحليب وشربت منه دون أن «تبخ» فيه سمّها ثم عادت بهدوء كمن به سبات إلى وكرها العتيق داخل الأحجار ولم تغادر البيت إلى سور الشام وتختفي بل رجعت ونامت).

كانت الحاجّة تعتقد أن الأفعى هي حارسة الكنز الموجود في البيت وتغادر سباتها وتستيقظ إذا هاجم أحد كنز البيت أو «الشام»، وتصير سريعة الحركة وشرسة وتلسع الأعداء وتذهب إلى سور الشام مع بقية ألفيات البيوت من الأفاعي، وتؤمن أنها ـ أي الأفعى ـ تفعل ذلك منذ أقدم العصور. إنها تنام في أيام السلم وتستيقظ أيام الحروب والانقلابات! (كم أفتقد البيت القديم في غربتي في شارع أبو رمانة بساحة المدفع وأخاف عليه من التخمين والقص والهدم و «المدحلة» وشق الطرق كما حدث لبيت أختي أم موفق في القنوات.. هدموه حجراً بعد آخر، كمن يعمل معاوله في قلبها شرياناً بعد آخر.. ذهبت الياسمينة، والغاردينيا، والفل، وحلّ محلها «الباطون» والحديد، فعادت المسكينة من تلقاء نفسها للإقامة في قرية الريحانية بعدما ندبت «غربتها» هناك طويلاً، واستقرت في البيت إياه ـ رغم شراء أمجد له ـ. أما أبو موفق فسيدنا عزرائيل فيما يبدو لا يريد أن «يقبض» روحه، وكل مرة يكاد «يقبضها»، ثم تُرد له الروح وسبحان الخالق. كم شعرتُ بالفخر بابني أمجد يوم جاء أبو موفق وأم موفق إلى بيت الريحانية الذي باعاه له للسيران معنا، فاستقبلهما أمجد بـ «التأهيل والتسهيل» وأنشد له: «لو تعلم الأرض من قد زارها لفرحت واستبشرت وباست موضع القدم»، و «نحن الضيوف وأنت رب المنزل». وكم ترضيت عليه لأنه كريم و «موبعينوشي»[٢]، والمادة لا تهمه وهو الذي دعا أبو موفق للعودة إلى الريحانية والإقامة فيها و «ما لقي عزيمة» ووافق فوراً. مسكينة أختي أم موفق، حملت معها من بيت القنوات غصن ياسمين أعادت زرعه في الريحانية فكبر وهبَّ في الربيع وكاد يغطي نصف الجدار الذي تسلقه).

تشعر الحاجة أم أمجد بانقباض في قلبها لأنها ليست راجعة إلى زقاق الياسمين لتُستقبل كحاجّة بالزغاريد والمدائح النبوية والزينات و «التأهيل والتسهيل»[٣]

---

(١) الحليب المرقّد: نوع من الحلوى الدمشقية.

(٢) موبعينوشي: لا يشتهي شيئاً من الماديات.

(٣) التأهيل والتسهيل: الاستقبال بالأهلاً وسهلاً.

والجيران الذين سيحاولون لمس ثيابها والتبرك بها لأنها كانت هناك في أرض النبي المصطفى (لقد بدأ قلبي ينقبض و «يعصّني» لأنني سأعود إلى ساحة المدفع اللامبالية شبه المعادية التي لا أعرف أحداً فيها ولا أزور ولا أُزار، ولست مثل زين التي صارت لها رفيقات من بين الجارات ولا كأمجد الذي صادق كل من حولنا. أنا ظللت غريبة عن أولئك «الأكابر» الذين يعيشون بصورة مختلفة تماماً عما ألفته.

أشعر بالحرج أمامهم من ثيابي وكلامي وعقلي، فأنا الوحيدة التي ترتدي «البرَلين» في ساحة المدفع باستثناء جارتنا من بيت العجة التي تضع مثلي حجابها حين تجلس على الشرفة لكنها مقعدة كما قالت لي زين التي تلعب مع حفيدتها وأنا لا أستطيع تسلّق السلم حتى الدور الرابع حيث تقيم. تمنيت أن أحاورها من شرفتي إلى شرفتها كما كنت أنادم الجارات عن السطوح وعبر المشربيات، لكن الشرفات هنا بعيدة تفصل بينها الشوارع وصوتي سيسقط قبل أن يصلها، فصوت السيارات هنا يغطي على كل شيء. وياسمينة الشرفة ليست مرتاحة، مثلي، وبياضها يوسخه هباب السيارات. وفوق ذلك كله شاهدت جارتنا ابنة آل اللحام تقود السيارة ولم أصدق عينيّ. «زمان أول تحوّل» وأنا ضائعة في شارع أبو رمانة أتمنى العودة إلى «البيت الكبير» قبل دفني بـ «التربة» في «الباب الصغير»[1]. لكنني لا أستطيع ترك زين وأمجد وحدهما، ولا أحد سواي يستطيع أن «يطوّل باله» على زين لأنها «غير شكل» عما ألفته من البنات ووالدها يربيها بطريقة تقلقني عليها. رغم كل شيء، فإن قلبي يذوب حين تقبّلني أياً كان ما اقترفته من ذنب، كرفضها المشاركة في «الاستقبال» ولو بالسلام و «التفتيلة»[2] وتقديم «الشوكولاته» للضيوف. وعلى أية حال ألغي استقبالي من تلقاء نفسه فقد «كبرت» شقيقاتي وهرمت صديقاتي وبينهن المريضة والعاجزة والميتة، ولم يعد بوسع أحد الوصول إلى عندي والمشي من القيمرية والشاغور والميدان والقنوات. الأولاد، حتى الذين لديهم سيارات، لم يعد لديهم الوقت لإيصال العمّات والأمهات. البنات صرن في المدارس وكل شيء تبدّل. تمر بي ليال أشعر فيها أنني أختنق ليلاً وأحلم باستمرار الحلم ذاته: ثمة «مدحلة» بلا سائق تنزلق بسرعة على منحدر وتدهس امرأة محجّبة مثلي، وحين اقترب منها واكشف عن وجهها لأساعدها أرى لها وجهي!).

أم موفق تعلن لأختها أنها أصيبت بالدوار. نصحتها أم أمجد بالنوم. كانت

---

(١) الباب الصغير: اسم مقبرة في دمشق.

(٢) «التفتيلة»: المشي الاستعراضي.

عاجزة حتى عن «فش قلبها»[1] والبوح ببعض ما يؤرقها لأختها التي سترافقها إلى أبو رمانة لتقضي الليلة عندها بهدوء وصمت كأنهما راجعتان من «أخدان خاطر» وتقديم التعازي وليس من الحج. لكم تشعر بالوحشة في أبو رمانة وساحة المدفع وستزداد الليلة وحشتها حين تستيقظ «قبل الضوء» ولا تسمع صوت أذان الصبح قادماً من مأذنة الجامع الأموي. وحين يأتي رمضان لا تزال تفتقد صوت المسحِّر الذي يرن عالياً في زقاق الياسمين الضيق ولا يضيع هدير الطبلة في الساحات المفتوحة أمام الطوابق العالية.. إنها لم تألف شيئاً حقاً على فخامته. لم تألف الحمام الرخامي والصنابير المذهبة ومقابض الأبواب الفضية والرذاذ الآتي من «الدوش»، وهي لا تزال تسخّن الماء في الطنجرة الكبيرة وتجلس خارج «البانيو» على المقعد الخشبي الواطىء لتستحم كما في البيت الكبير ثم تنوي الطهارة. ولا تزال تربط السلة بالحبل وتدليها من النافذة للبائع المتجول رغم الجارة التي تنظر إليها شذراً. ولم تألف حتى ماكينة «الهوفر» التي أهداها إياها ابنها لتغسل عنها، وما زالت تبرش «بروات» الصابون وبقاياه و «تنقع» الغسيل في «اللجن» والطشوت الكبيرة قبل ليلة وترش فوقه صابونها المنزلي المبروش خوفاً عليه من الهدر بدلاً من شراء علب صابون «تايد». وبعد أن تنجز غسيله بيديها تضعه في الماكينة دورة واحدة إرضاءً لابنها ولا تصدق أن بوسع الآلة أن تنظفه كما تفعل هي بيديها نصف المهترئتين وبمعونة فهيمة، متحسرة على زمان كانت تجتمع فيه عندها معظم أخواتها يوم الغسيل وينتقلن بعدها للغسيل في الأسبوع التالي عند أخت أخرى.. وهكذا. وكن كورشة متحركة متضامنة في «العزائم» على الإفطار والأعراس والمناسبات كلها، ورشة أنس وعمل. تعي الحاجّة أن «زمان أول تحوّل»، وها هي ترتدي النظارات ووجبة الأسنان وتبلّ الكعكة بالماء قبل أكلها كي تصير طرية وشعرها يتساقط كل يوم فتلمّه عن المشط وتلفّه حول «بكلة» شعرها البلاستيكية العصرية حتى تكوّنت لديها باروكة، الشعر عليها أكثر غزارة مما تبقى على رأسها.. يُخيّل إليها أحياناً أنها لو بقيت في البيت الكبير لظلت صبية. كأنها تحنّ إلى شبابها في البيت الكبير وإلى زمانها، وليس إلى جدرانه وحدها بل إلى روحه. صحيح أنها حملت أغصاناً من ياسمينتها وزرعتها على شرفة البيت الجديد في ساحة المدفع فكبرت بسرعة وكادت تغطي أحد جدران الشرفة وبدأت تتدلى من أحد أطراف السقف كالقناديل وتتمدد عن حافة الشرفة، لكن السيارات تركض حولها وتنفخ فوقها أنفاسها الداكنة بالسواد وتلطخ بياضها..

(١) «فش قلبها»: الشكوى.

وتذكّرها في كل لحظة أين كانت وأين صارت. . . (**وسبحان الذي يُغيّر ولا يتغيّر!**).

الأثاث القليل الذي حملوه من البيت الكبير بدا يتيماً لعينها في ساحة المدفع. تلك المقاعد والطاولات المصدّفة بدت وسط الجدران واطئة السقف في غير بلدها، وكل ما أحضره أمجد من البيت العتيق على سبيل الذكرى أضحى يعذّبها. . بما في ذلك الساعة الخشبية الكبيرة التي كانت في «أوضة الضيوف» في البيت القديم وتوقفت ليلة انتقالها إلى مدخل البيت الجديد ولم ينفع معها مصلّح، وبعدما كانت تبدو لها كمقاتل جميل تحوّلت إلى تابوت صغير لطفل دُفن داخله أو قفصٍ لسجن شاب ما كادوا يغلقون عليه بابه حتى توقف قلبه فجأة كما كانت تتمنى لو توقف قلبها وهي هناك بجوار الرسول لتذهب مباشرة من الحج إلى الجنة (**لا. لم يكن عمري تعيساً. كان فيه الحلو والمر، وسبحانه وتعالى يكافئني كل مرة على تعبي. .**).

تذكّرت أيام العسر على حافة الفقر ورغبة أمجد الذي يريد العلم دون أن يخسر البيت. . ولم تدر على لسانه مرة فكرة بيع البيت. إنها لا تشبع من استحضار تلك الذكريات. يومها وجدت الحل. . لماذا لا تعمل هي وتربح بعض المال الذي يعينه؟ كانت قد سمعت أن الخيّاطة إلڤيرا صارت ثرية كما الخيّاطة فهيمة كور ولم تفهم لماذا لا تعمل هي مثلهما. ورضي عبد الفتاح حين عرف أن صلتها ستكون مع النساء فقط ولن تغادر دارها ويقلّ مقدارها. فعبارة «عمل المرأة» تبدو له مخزية وتحمل إيحاءات بأشياء غير لائقة. وبسرعة طوّرت الحاجة معرفتها بخياطة الثياب المنزلية إلى ثياب «جهاز العروس»، وزوّدها أمجد الذي كان يدرس في باريس بدفاتر الموديلات التي لم يكن ثمة ما يشبهها إلا عند المدام إلڤيرا، وتحوّلت الحاجّة إلى منافسة حقيقية لها إذ تقدم الجهاز المتقن الإنجاز بنصف السعر، بل وتطرّز البياضات باتقان كالراهبات. . وهكذا استطاعت أن تعلّم أمجد دون أن يُباع البيت. أما بخصوص بنتيها فإلى الزواج عند أول فرصة، ولِمَ الدراسة والشهادة ما دامت ستعلّق على جدار المطبخ؟ ولِمَ القراءة والكتابة ومستقبلها «حفاضات» الأطفال والأحفاد؟

تضم إلى صدرها زجاجة الماء الكبيرة بكثير من الفخر وتستعيد ذكرى اللحظة التي طالما حلمت بها من قبل، حين ملأها المطوّف لها بماء زمزم (**جرعة من هذه المياه المباركة ستعيد العافية إلى ابني عبد الفتاح بإذن الله**).

بالرغم من السعادة الطاغية للحاجة أم أمجد لأنها أدّت فريضة الحج، صارت تلك الغصّة الصغيرة التي شعرت بها لحظة ركوب طائرة العودة من الأراضي المقدّسة تكبر. .

بدأت مثل قطرة زيت على ورقة بيضاء وراحت تتسع وتسيل في الاتجاهات كلها وتلطخ الورقة.. غصّة تحجب، كسحابة، قَمَرَ فرحتها والطائرة تبحر بها صوب الوطن (آه لن أعود الليلة إلى البيت العتيق! لن أجد «الحارة» مزينة والأنوار متلألئة والسجاد ممدوداً على الجدران الخارجية للبيت. السرادق أمام الباب وأغصان النخيل والكينا والحمبلاس والصفصاف والرايات الخضر مرفوعة في الزقاق الضيق وعليها عبارات «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي أجهل كيفية قراءتها أنا الأميّة لكنني أعرفها ويخفق قلبي لها كما أعرف اسم الله. ولن تأتي فرقة المدائح وهي تدق الدفوف وتتمايل بثيابها البيضاء وتنشد: «حجاج مكة وردت علينا»، ولن تستقبلني الجارات بالزغاريد والأغاني ولن.. ولن يُذبح خروف «لأفشخ» من فوقه وأنا أدخل إلى البيت ثم يُوزَّع لحمه على المحتاجين. ولن يلتف حولي الأطفال ليتبركوا بطرف ثوبي لأنه من هناك حيث حبيب الله في أرضه، ولن يقبّل الأطفال عن يدي آثار لمستي للكعبة التي سبق أن لمسها سيدنا محمد، ولن أوزّع الليلة الهدايا المباركة من هناك من تمر ومسابح ومكاحل وحنة ومراوح وكمشة تراب أنثرها على حوض الياسمين للبركة، ولن.. ولن. سأعود الآن إلى ذلك البيت الذي تحسدني أخواتي عليه وجاراتي القديمات.. ذلك البيت الموحش في شارع أبو رمانة، بساحة المدفع، وسط البساتين الكئيبة التي تقرضها المباني يوماً بعد يوم وأنا كمن يعيش في ورشة عمار وغبار.. هناك حيث الناس عدوانيون لم أتمكن يوماً من التعايش معهم.. هناك حيث جارتي تتحدث بالفرنسية ولا تسلّم عليَّ إذا رفعت حجابي استعداداً لعبارة «يصبّحك بالخير يا جارة» وهي ذاهبة بثوب أبيض قصير للعب التنس. أحدّق فيها خائفة وتخاف مني بدورها وتهرب. ليلاً يدور الرقص عند جيران الطابق الذي يعلونا ويدوم «الدبك» وصدى القهقهات الثملة حتى مطلع الفجر حين أنهض إلى الوضوء وأسمعهم وهم ينطلقون بسياراتهم.. صحيح أن الكهرباء لا تنقطع عن البيت إلا نادراً كما الماء، وأنني استغنيت عن «الصوبيا»[1] بالتدفئة المركزية شتاء والتبريد صيفاً، وماء الفيجة صارت في صنبور داخل المطبخ بدلاً من الذهاب بالجرة لملئها بماء الشرب من «الفيجة»، ولم أعد مضطرة لغلي الماء أو «حمي الحمّام» بإشعال النار تحت «الآزان» في الموقد، لكن هذا البيت الذي حسدتني عليه شقيقاتي وصديقاتي ما زال غريباً عني ولم أصادقه. وحين أنام تدور أحلامي دائماً داخل البيت العتيق وأتعذّب حين أستيقظ وأجد أنني لست هناك، وأخشى من يوم لا يعود البيت العتيق

(١) المدفأة.

فيه قائماً وتهدمه معاول وجرافات لتسوّي بقاياه «مدحلة» وأعرف أنني سأموت يوم يهدم لا سمح الله).

تتنهد الحاجّة بصوت مسموع ثم تندم على ما اقترفته من أفكار (سامحني يا ربي على هذا البطر. لم أجع يوماً في ساحة المدفع كما جعت في البيت الكبير، ولم ألتقِ مصادفة بابنة عمي أم عادل كما حدث لي أيام «السفربرلك» وكانت واقفة خلف المشواة قرب «مأذنة الشحم» وقد غطت وجهها بحجاب من ثلاث طبقات كي لا يعرفها أحد وهي تشوي أقراص الكبة وتبيعها كي تطعم أولادها بعدما ذهب الرجال كلهم إلى الحرب. حتى ابنها الكبير انتزعوه منها إلى حمام السوق في السنجقدار وحلقوا له شعر رأسه «أقرع عالزيرو» وأرسلوه إلى الحرب. وسنة بعد أخرى كانت أعمار «السوقيات»[1] تصغر عن الثمانية عشرة وتزيد عن الخمسين!.. لن أنسى شفقتي عليها وعلى نفسي وأنا أصرخ كمن يولول باكية مشفقة «ولي على قامتي عليكِ»[2]، فعلامَ هذا «الترفيس»[3] والكفر الآن؟ لن أنسى أنني طالما حلمت بالمجيديات وهي تتدفق من بحرات البيوت مع الماء. لن أنسى أن ابنة حميها أيضاً كانت تبيع الكوسا المحشي من طنجرة قرب القلعة كما أخبرتني، وحماتها العجوز تعمل «شغّالة» بغزل الصوف سراً أيضاً خوفاً من «البهدلة». لم أنس تلك الأيام حين كنت أشتهي الملح قبل السكر!

لكنني أيضاً أفتقد حوضي الخاص بالياسمين والفل والزنبق وكل ما هو أبيض. أحمدك يا ربي على نعمك ولست «بطرانة» ولكنني أغصّ لأنني لن أشرب قهوة الصباح غداً إلى جانب البركة في الديار بعد صلاة الفجر وأنا ألاطف أزهاري البيضاء وأسمّي بالرحمن عليها وأواسي الزهرة الذابلة والعرق الأخضر الذي كسره الأولاد. ولن يكون بوسعي مساءً أن أصعد إلى السطوح في ضوء القمر حين يضيق صدري لأسبّح الخالق وأرى وجه ربي، ففي سطح المبنى الجديد غرباء ووجوه لا أعرفها، أنظر إليها بنفور وتبادلني نظراتي بنفور مماثل كأنني انتقلت لا من حي إلى آخر بل من بلد إلى آخر ومن زمن إلى آخر. لكم حلمت بالعودة إلى بيت جدي في حي «الشاغور» قرب جامع الخضيرية حيث كبرت والشبيه ببيت آل الخيّال، ولكنهم هدموه أيضاً منذ سنة.. ولم يبقَ ما أحلم به غير بيت «زقاق الياسمين» الذي يعيش

---

(١) السوقيات: المساقون إلى الحرب العالمية الأولى.

(٢) «ولي على قامتي عليك»: تعبير دمشقي عن التعاطف مع حالة الآخر.

(٣) الترفيس: كما يرفس الحمار.

فيه الغائب والحاضر، الأحياء منهم والأموات، الأجداد مع الأحفاد.. وتسكن الأرواح في اهتراء الجدران و «اليوك» المعتم وغرفة المونة وحتى في مياه البركة التي تصدر عنها أصواتهم وهي تتدفق.. من زمان قلت للشيخة ـ الله يرحمها ـ إن بيتنا مليء بالجان والأرواح فنصحتني بمخاواتهم. ومرة وقت السحور شاهدت رجلاً يغادر المطبخ وأذهلني أن له وجهي تماماً لكنه رجل. قالت لي الشيخة إن ذلك أمر عادي وإنه «قريني» وإن لكل إنسان قريناً، لكن أهل هذه الأيام مشغولون بالسيارات والماكينات عن قرائنهم. وأفهمتني أن لكل امرأة قريناً رجلاً ولكل رجل قرينة امرأة هي نسخة طبق الأصل عنه، وأنا واثقة من أن قريني مقيم في البيت الكبير في «زقاق الياسمين»، وحين أموت ستعود روحي للإقامة هناك. في البيت الجديد أنا بلا قرين ولا شبح، ورائحة الدهان الجديد (البيج) تجعل الجدران بلون واحد بلا صور ولا خطوط، وكنت قد ألفت كل الصور الغامضة للوجوه المرسومة على جدران البيت العتيق بالرطوبة والعفن. وهي وجوه تكبر معي وتتبدل مثلي وتشبه الوجوه الحيّة التي تطل عليّ أحياناً من تشكيلات السحب فوق «الديار».. رحم الله أيام الإيوان وفناء الدار والبركة و..).

تتأمل الحاجّة حياة إصبعها وظفره المشوه المشطور إلى نصفين.. (سامحني يا رب على هذا البطر، أنا التي ثقبت إبرة الخياطة ذات يوم ظفر إصبعي لأنني غفوت تعباً فوق ماكينة «السنجر» وأنا أعمل حتى الفجر على ضوء الشمعة لأرسل ما أقدر عليه «قسطاً» جامعياً لأمجد في الغربة... ماذا أريد أكثر من بيت فخم في أبو رمانة لا فئران فيه ولا حرباء ولا «أبو بريص» يركض على جدرانه ولا أفاعي تتنزه في عتمة مطبخه ولا حرادين ولا عقارب وأم أربع وأربعين و «أم علي الدعبلي» ولا «العرتيلة» ولا أرواح تقيم فيه ولا أشباح. ولكنني أفتقد أشباح البيت العتيق حيث يغمرني شعور بأنني لست وحدي في البيت كيفما تحركت وأينما خطوت. أحياناً كانت الأرواح تظهر لي وأسألها من تكون وتجيبني، لكنها قبل أن تذهب تمسح شعري بيدها فأنسى إجابتها وما قد يكون قد دار بيننا من حوار).

تسألها أم موفق: متى نصل؟ لقد تعبت. تجيب أم أمجد: دعينا نقرأ بعض الأدعية كي تهبط الطائرة بسلام. لن أركبها ثانية في حياتي أبداً، هذه أول وآخر مرة أغادر فيها «الشام».. هيا نقرأ الأدعية (مرة تعطلت سيارة الجيران قرب مدخل «زقاق الياسمين» ولم يفلح أي مصلّح معها. نصحتهم ابنتي بوران بأن يذبحوا بين دواليبها خروفاً ويقوموا بتوزيعه على المحتاجين لتشفى مثل أي مريض. وبدت أمارات

الاقتناع على وجه الجيران حينما ذكّرتهم بوران بأن «المدحلة» تعطلت مرة على سكة الميدان ولم يعد بوسع «الترين» الذهاب والإياب. وكان خمسة مصلّحين يعملون على تصليح المدحلة وهي لا تتحرك حتى جاءت الشيخة وقرأت عليها أدعية مع خمس نساء تقيّات وشاركت بوران في القراءة عليها، ورئيس المصلحين الميكانيكي يضحك منهن، وكم كان عجبه حين تحركت المدحلة من تلقاء نفسها! ظن المصلّحون أنهم قاموا بعملهم لكنني أعرف أن الأدعية هي التي أصلحتها).

غرقت الحاجّة في قراءة الأدعية على الطائرة تشاركها أم موفق حتى هبطت بهما بسلام على أرض مطار المزّة وصفّق الحجاج جميعاً ربما للطيار وربما فرحاً بالعودة إلى الأحباب مكلّلين بالرضى.

حينما استقبل أمجد أمه وخالته في مطار المزّة وعاد بهما إلى البيت في ساحة المدفع لم يقل لهما شيئاً عن المفاجأة التي تنتظرهما. لذا ذهلت الحاجة أم موفق من الاستقبال، وكان ذهول الحاجة أم أمجد أكبر لأنها تعرف مدى غربته هو أيضاً عن «أهل أبو رمانة»، وسقط فكها الأسفل وهي ترى الزقاق بين بيتهم وبيت إيبش وأبو شعر والآخر المجاور بين مبناهم ومبنى آل العجة مزينين بالأضواء الملونة والسجاد والأغصان الخضراء وقد تدلى من النوافذ على الجدران السجاد العجمي كما تدلت من بيتها سجادات الصلاة فكادت تغطي أحجار المباني وأسمنتها القاحل... وعلى الرصيف أمام الباب سرادق مفروش بالسجاد ومزّنر بالأعلام الخضراء وعبارات «لا إله إلا الله» والأهلّة تشع ضوءاً وفرقة المدائح النبوية تنشد وتقرع الدفوف وتحيط بها وهي تهبط من السيارة، والخروف جاهز للذبح والتوزيع كصدقة.. وكم كان ذهولها كبيراً حين استقبلتها أمام الباب العديد من الجارات اللواتي كانت تخاف منهن ويخفن منها، وإحداهن تقبّلها وتكلمها بالعربية (وهي التي كانت تظنها فرنسية) وتقول لها بلكنة تركية: حـج مبرور وسعـي مشكور وعقبال عندنا (يا لدهشتي.. **هي أيضاً مسلمة!)..**

في بيتها الذي تلألأت ثرياته وانفتحت صالوناته بعضها على بعض ذهلت الحاجة حياة أم أمجد وهي ترى الجارات كلهن اللواتي كانت تخاف منهن وقد اجتمعن للترحيب بها أسوةً ببقية أفراد الأسرة، وهن يتمايلن طرباً ويواكبن المنشدين تصفيقاً، وبينهن غاربيسيا وأناهيد الأرمنيتان، ومسيحيات لم تألف من قبل جيرتهن. فقد كانت تعتبر ماما ديب ووداد حالة استثنائية إذ كان المسيحيون ـ في حدود علمها ـ يقيمون في أحياء خاصة بهم في القصاع وباب توما قبل أن يتم الاختلاط في

الأحياء الجديدة. شاهدت آل العنحوري وشباط جنباً إلى جنب مع آل الأرناؤوط والطرابلسي وبقية أهل الحي. همست لابنها: ما ألطفهم وأنا التي كنت أخاف منهم. قال: وهم أيضاً كانوا يخافون منك ومن نظراتك و «زوراتك».

ـ كيف جاءوا؟

ـ لقد دعوتهم. هذا كل شيء . . .

دمدمت الحاجة: «كل مين على دينه الله يعينه»، وامتلأ قلبها بالحب نحو هذا الموزاييك البشري الودود المحيط بها، وحلفت بينها وبين نفسها أن تحمل جاطات «القطايف عصافيري» و «المدلوقة» للمسيحيين منهم في عيد الميلاد، وجلست تتسامر مع ماري التي أقسمت لها باسم السيدة العذراء أنها كانت تنوي زيارتها والمباركة لها بالبيت منذ وصولها. . ولكن الظروف. . .

كانت سهرة و« ساعة سماعة»[1] ملأت قلبي الحاجتين بغبطة لا حدود لها.

حين مضى الجميع تفرّغت الحاجة رغم إرهاقها لرعاية زين المصابة بـ «الجريب»[2] النائمة في غرفتها وقد فاتتها السهرة وفيحاء معها، والدكتور مأمون جالس إلى جانب فراشها يقيس درجة حرارتها ويضحك كلما وقعت عينيه على صورة البومة التي تزّين الجدار قرب خارطة العالم. زين تخطط لكسر ميزان الحرارة بعد خروج الجميع من غرفتها كي تحاول الإمساك بالزئبق المراوغ بفضول لا تخدّره الحمى. في المدرسة أطلقت خيالها حكاية بركة الزئبق التي كان يجلس الأمير فوقها بكرسيه ولا يغرق. في المختبر شاهدته هارباً مراوغاً لا يمكن لأحد أن يمسك به. أمجد يجسّ جبينها بين آنٍ وآخر قلقاً كأن ذلك سيشفيها.

قبل أن ينصرف الدكتور مأمون ناولها قرصاً من علبة دواء لخفض درجة حرارتها وشرح لها توقيت ابتلاع القرص الثاني فالثالث. الحاجّة حملت إليها جرعة كبيرة من ماء زمزم كانت قد احتفظت بها جانباً خصيصاً لها. قالت لها بوران: إرمي بقرص الدواء، واشربي ماء زمزم تشفين. صمت الجميع. وقبل أن يفتح مأمون فمه متأهباً لشجار جديد مهذب مع عمته، أمسكت زين بقرص الدواء وابتلعته بماء زمزم. قبّلها والدها على جبينها ونظر إلى مأمون وفيحاء وفي عينيه أمارات الفخر بها.

* * *

(١) «ساعة صفاء وسعادة لا تُنسى».

(٢) الانفلونزا.

مرّ أمجد وابن شقيقه الدكتور مأمون أمام «الهافانا»(1) وكانا في طريق العودة من توقيع عقد إيجار لشقة جديدة حديثة أقل مساحة سينتقل إليها مأمون بعدما تزوجت اخته فيحاء. لمحهما صديق أمجد الصحافي معتز، فخرج وناداهما ملحّاً عليهما بالدخول وشرب فنجان قهوة معه. لم يكن قد التقى بأمجد منذ فترة وقد غرق كلٌّ في مشاغله.

في مقهى «الهافانا» تمازجت الأصوات وطغت نبرة السخرية لدى الصحافي معتز صديق أمجد على كل نبرة أخرى حتى على صوت نديم رفيق المائدة.

وسخرية معتز من أمر ما لم تكن تعني بالضرورة أنه غير راضٍ عنه. كان يسخر من كل شيء، ومن نفسه قبل كل شيء. قال أمجد: هل تتوقع يا نديم انقلاباً جديداً؟ ما هذه البدعة التي سمعناها للمرة الأولى ليلة ٣٠ آذار ١٩٤٩ حين طلع البلاغ رقم واحد؟!

أجابه نديم: لم يحدث ذلك من قبل. وعلى كثرة ما مرّ بنا من مصاعب لم نسمع بـ «بلاغ رقم واحد»! انقلاب يتبعه انقلاب.. أعوام نحس هي التي نعيشها منذ ١٩٤٨ عام ضياع فلسطين. «انقلاب» كلمة جديدة في قاموسنا العربي.

تدخل مأمون قائلاً: بلى. سمع الناس بكلمة انقلاب قبلنا في العراق، هل نسيت؟

ـ متى؟

ـ حين أعلن بكر صدقي الانقلاب في العراق ضد حكومة ياسين باشا الهاشمي وكان إلى جانبه حكمت سليمان الذي استلم الحكم قبل حوالى ١٤ سنة، في تشرين الأول عام ١٩٣٦ على ما أذكر.. كان من الغريب أن يتسلّم قائد الجيش سلطات الحكومة والمجلس النيابي.. والصحافة!

دهش أمجد من المعلومات السياسية لمأمون.

تضايق معتز من المنحى الجدّي الذي بدأ الحوار يأخذه، فقال مديراً دفة الحديث إلى وجهة أخرى: هل تصدّق أن حسني الزعيم أرسل أيام حكمه سيارة جيب عسكرية إلى حلب ليوقظ سائقها نائباً في البرلمان ويحضره بالبيجاما في الثالثة فجراً ليؤنبه الزعيم ويشتمه ويعيده بعدها إلى حلب؟!

ـ من هو؟

(1) الهافانا: مقهى في دمشق.

أجاب همساً: بلا أسماء. جارنا على الطاولة الأخرى «خطّه حلو».

ـ ومِمَ تخاف و «زعيمك» شبع موتاً في قبره منذ منتصف شهر آب قبل عامين؟

ـ كل واحد يذهب ولا يأتي أفضل منه. أخشى أن يأتي يوم نترحّم فيه على أيام الانتداب ونرجوه العودة لأننا لم نبلغ سن الرشد بعد.

يقول الدكتور مأمون متدخلاً بنبرة جادّة: عسى أن يكون «مجلس العقداء» وفوزي سلو ومَنْ وراءه أفضل ممن سبقه. الحناوي أعدم حسني الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي[1]، أما الشيشكلي فترك الحناوي يذهب إلى لبنان حياً. . . .

قال أمجد: عسى أن لا يصير الشيشكلي بطلاً لمذبحة. قلبي غير مرتاح لما يدور.

لم يعجب معتز المنحى الجادّ الذي كاد الحوار يأخذه من جديد، بالرغم من أنه بدأ يصير «زلمة» الشيشكلي ويلهج بمدحه في صحيفته منذ اليوم الأول للانقلاب.

ونادى: يا صبي. هات جمرة للأركيلة. . من يريد فنجان قهوة ثانياً يا إخوان؟

لم يجبه أحد. وتابع أمجد: كلهم ورثة مؤسسة السلطان العثماني بعقليتهم، ومهرجو المندوب السامي، وبقية الشعب الرعية.

قال الدكتور مأمون: من حق الضباط أن يحكموا. إنهم وطنيون وأنت تعرف كم قُتل منهم في فلسطين في الحرب. و «اللّي بياكل العصي مو متل اللي بيعدّها»[2].

قال معتز: أنا من حزب «يصطفلوا»[3].

تجاهل أمجد معتز، وقال للدكتور مأمون مجيباً على كلامه: ليس ثمة من لا يعرف ذلك. وكلنا نكرره في كل لحظة، ولكن. . .

سارع مأمون إلى القول مقاطعاً: هل انتبهتم إلى مدلول استشهاد ذلك العدد الكبير من الضباط في «حرب فلسطين»؟ معناه أن الضابط لم يكن جالساً في الخطوط الخلفية بل كان يحارب مع جنوده. أعطوه سلاحاً فاسداً واجه به عصابات الهاغانا.

---

(١) ١٤ آب ١٩٤٩ انقلاب سامي الحناوي واعدام حسني الزعيم ومحسن البرازي رئيس وزرائه.

(٢) مثل شعبي معناه أن من يُضرب ليس كمن يحصي عدد الضربات.

(٣) «يصطفلوا»: اي أنه لن يتدخل في الأمر.

فهل تريده أن يسكت وهو يرى تجّار السلاح يتحالفون مع بعض الفاسدين لملء جيوبهم ويموت هو ويخسر الحرب بسبب ألاعيبهم؟

سأله أمجد: هل تعني أنّ عليه أن يطالب بنصيبه من الفساد هو أيضاً؟ لن تقوم لسوريا قائمة بدون الاستقرار والديمقراطية.

شعر معتز أن جرعة الجدية فاقت الحدود، فقال ضاحكاً: هل تعرفون أنني كنت سأصير مليونيراً لو دام عهد الزعيم حسني الزعيم؟

ـ كيف؟

ـ أنتم تعرفون صحبتي معه قبل أن يقوم بانقلابه، ومنذ اليوم الذي توسطت له لإنجاز دعوى تصغير سنّه التي كان سيحال إلى التقاعد بسببها. لو لم تتم في الوقت المناسب لكان أُحيل على التقاعد قبل ليلة ٣٠ آذار ولما استطاع بالتالي أن يقوم بانقلابه[١]. لولاي لما صار عطوفة الزعيم دولة الزعيم!

ـ هل تعني أنك ساهمت في تبديل مجرى التاريخ؟

ـ نعم. وهل تظن أن مجرى التاريخ لا تبدّله أمور صغيرة؟ لو أُصيب نابليون بالزكام ليلة الزحف على موسكو هل تظن أنه كان سيفعلها تلك الليلة؟ كان سيتريث ريثما يشفى، وربما كان «سيراجع فكره» قبلها.

ـ سورية بلد عمره آلاف السنين، تبديله لا يتم ببلاغ رقم واحد بل بالعمل المستمر الطويل الذي لا يلقى على عاتق فرد. هذه مدينة دهرية، و «المستعجل» الذي يستبق الأمور لا بدّ وأن يُصاب بإحباط. المجتمعات القديمة مثلنا لا يمكن أن تتبدّل إلا ببطء. ولذا لا قيمة للحاكم إلا إذا خلّف للبلد مؤسسات تبقى بعده.

خاف أمجد أن يتحمس مأمون أكثر مما ينبغي لجلسة في مقهى و «يستلمه» أصحاب «الخط الحلو» وينام «عند خالته»[٢]، فقال لمعتز وهو يتنفس عميقاً والحس بالاختناق يثقل على صدره: يا للصحافي الثرثار! كنت تحدثنا كيف كدت تصير مليونيراً، فمن أين اخترعت هذه المحاضرة عن تاريخ ميلاد حسني الزعيم وعن التاريخ؟

ـ وحياتكم هذا صحيح. منذ تعرّفت على حسني الزعيم قبل ربع قرن كانت له قضية في مجلس الدولة ضد الحكومة، ذلك أن تاريخ ميلاده كما هو مدون في سجلات النفوس يختلف عن تاريخ ميلاده في سجلات وزارة الدفاع الموروثة عن الانتداب. وزير الدفاع كان قد رفض إجراء معاملة التصحيح، وكانت إحالته على

(١) ٣٠ آذار ١٩٤٩: انقلاب حسني الزعيم. (٢) «عند خالته»: في السجن.

التقاعد واجبة. وقد حصلتُ له على قرار التصحيح من مجلس الدولة قبل تسعة أيام من تاريخ استحقاق الإحالة على التقاعد.. وهكذا بقي في الخدمة بفضلي!

ـ حسناً. «ممنونين أفضالك» وشكراً. لنعد إلى أيام كدت تصير فيها مليونيراً.

ـ نعم. نعم.. استدعاني الزعيم، وكان خفيف الظل ويحب النكتة، فقلت له: خربت بيتي إذ صار بعض الناس يتحاشون شراء جريدتي لأنها تؤيدك، والبعض الآخر يقاطعني ولا يدعوني إلى العشاء أو الغداء كي لا أنقل إليك ما يُقال.. وحبك سبَّب خرابي يا مولاي. وأولادي أيضاً يحبون أكل «النمورة»[1] كأولاد كل الناس. وعندي زوجتان.

ـ ألم يطلب نقلك إلى سجن المزّة؟

ـ لا. لقد اخترت قول ذلك له وهو في لحظة انشراح بينما كان يقيس بزّته الجديدة التي تصوَّر بها وصار الكل يقلد هيئته في صوره وطريقة كلامه وقصة شعره ومشيته. المهم أنه كان يومها رائق المزاج يقيس البزة ويوصي على عصا الماريشالية.

ـ حسناً. ماذا قال لك؟

ـ قال إنه سيصدر إكراماً لي مرسوماً يمنع بموجبه ارتداء الطربوش ويفرض ارتداء «البرنيطة»[2] على غرار ما فعله أتاتورك. وأمرني بالذهاب إلى بيروت أو باريس والاتفاق مع شركة صنع قبعات لاستيراد مليون قبعة لرؤوس السوريين. وقلت لنفسي إذا ربحتَ يا ولد من كل قبعة ليرة صرتَ مليونيراً.. ثم جاءت ليلة ١٣ آب النحس وأُعدم الزعيم بعدها صباحاً ولم تكن على رأسه قبعة، ونمت ليلتها «عند خالتي»، ولم يُطلق سراحي كما تعرفون إلا بعدها بأسبوع.

ـ كيف تركوك تذهب؟ هل صرت بالمقابل جاسوساً لهم؟

ـ لا. لقد اقتنعوا بأن علاقتي بالزعيم كانت فكاهية، وقلت لهم إن كل كاتب هو جاسوس وعميل ولكن للحقيقة! كنت قد كتبت قصيدة في مدحه فحوّرتها وصارت في مدح الحناوي، وكنت آخذ التحية لكلبه وأقول له «يا سيد كلب» فصرت أقول له «يا نجس»! المهم أن من كان نائماً «عند خالته» تلك الليلة أُعيد إلى بيته، ومعظمهم بريء توهمه الزعيم معارضاً وهو مؤيد لرغيفه. ودخل فوج جديد إلى «بيت الخالة» إياه، هم جماعة حسني الزعيم وكنت منهم!

ـ وراء ذلك كله ثمة نقمة تتنامى. كنا نظن أحوالنا ستتحسن بعد خروج

---

(١) حلوى شامية.

(٢) البرنيطة: القبعة الغربية.

الانتداب، ولكن يبدو أن علينا الاختيار بين فساد التقليديين وفساد الانقلابيين. الخيار الثالث لا تبدو معالمه واضحة بعد.. ولكن كل الأنظمة فاسدة حين يطبقها أغبياء أو فاسدون... والله ينجينا من الأعظم!

ـ ما هو الأعظم؟

ـ لا أعرف ولذا تراني أتضرع إلى الله..

تدخّل معتز كعادته كلما اكتأب مناخ الحوار وقال مخاطباً شخصية وهمية معهم على الطاولة وقال: وبدلاً من الملايين يا بيك عدت على الحصيرة وقد اضطررت من جديد لاستعارة بزّة! اسمعوا. هذه الحكاية التي سأرويها خصيصاً لصاحب «الخط الحلو» على الطاولة المجاورة...

ـ قبل أن أعمل في الصحافة كنت... فقاطعه نديم: أمثالك لا يتحدثون عن استعارة «بزّة»... أنا الذي عندي ذكريات عن استعارة الثياب. يوم عُيّنت أستاذاً في اللاذقية اضطررت لاستعارة بزّة لأظهر في اليوم الأول أمام الطلاب بمظهر لائق. وبدوت يومها كابن مدينة ولم يعرف أحد أنني كنت في صغري أذهب كل يوم مشياً من قريتي إلى القرية المجاورة حيث المدرسة لأتعلّم، وكنت أمشي نصف الطريق حافياً وحذائي تحت إبطي خوفاً عليه من البلي قبل الشتاء.

قاطعه معتز مداعباً: دعنا من قصصك البروليتارية، فأنت تتلذذ برواية الحكايا المزعومة عن فقرك المزعوم لنقول: يا له من عبقري عصامي! لنعد الآن إلى حكايتي مع حسني الزعيم والقبعات بقاسيدي[1]. أكثير على واحد مثلي ينفق على زوجتين أن يبيع القبعات ويدخل سلك أصحاب «المجيديات والذهبيات» وأصحاب الملايين؟

قال أمجد نصف غاضب: لا أسمعك هذه الأيام تتحدث إلا عن المال. من أين بدأ هذا المرض يسري بيننا كلنا؟ يوم توفي أخي سفيان والد الدكتور مأمون موصياً بإرثه لتمويل حركات المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين كان الأمر عادياً ومألوفاً، أما أولاد عائلة «جر لحافه» فقد قامت قيامتهم منذ أعوام قريبة لأن والدهم أوصى بأمواله لجيش الإنقاذ وفوزي القاوقجي وأقاموا الدعوى زاعمين أن والدهم كان قد فقد اتزانه العقلي وقت كتابة الوصية. هل صار المرء مجنوناً إذا لم يكدس الثروة جيلاً بعد جيل؟ نحن في الشام طوال عمرنا نقول «الكلام بالمصاري عيب». فماذا حدث الآن؟ ولماذا صار الفقر هو العيب؟

(١) تعبير لتنبيه المستمع.

أنصت الدكتور مأمون إلى كلام عمه بفرح. فمنذ تأسيسه لأول مختبر خاص بالتحليل الطبي في دمشق، وهو باستمرار في شجار مع شريكه الذي يريد ضغط نفقات المختبر على حساب جودة الأجهزة والمعدات والمواد التحليلية وسواها.. وهو على وشك فك الشراكة والاستقلال بنفسه إذا لم يرتدع الآخر.. وعمته بوران تحذره من فك الشراكة ومن علاج الناس مرة في الأسبوع مجاناً، يوم الخميس الذي خصصه لأهل «البلاش»[1]، وأفهمته أنه بحاجة إلى المال ليتزوج.. وبنات هذه الأيام يفضّلن اللحم على المجدرة، وفراش ريش الغم على الفراش الممدود فوق البلاط.. وهو أيضاً يفضل ذلك ولكن لا يقدر على ترك الناس تموت أمام باب عيادته دون أن يفعل شيئاً. لاحظ نديم أمارات الغمّ على وجه الدكتور مأمون فقال: في كل الانتخابات يا دكتور مأمون تصوّت بكلمة نعم أو لا، إلا مع «الماريشال / المشير» الزعيم حسني الزعيم فقد كان عليك أن تصوّت له بنعم أو نعم يوم قام بانتخابات ٢٦ حزيران المهزلة التي انتخب نفسه فيها!

قال أمجد: لا تذكر كلمة «مشير» أمامي. نحن أهل دمشق مصابون بعقدة نفسية من عبارة «المشير» منذ أيام العثمانيين. و«المشيرية» هي دار «المشير» العثماني، أي الوالي الشبيه بحاكم أو قائد عسكري، وقد كان مقره عندنا في دمشق وسلطته تمتد وتشمل الكثير من الأصقاع.

وبعد خلاصنا من «المشير» العثماني احتل مبنى «المشيرية» ناظر الحربية أيام الشريف فيصل بعد انفصالنا عن الحكم العثماني، ثم صار المبنى دار المندوبية الفرنسية وكان فيها جميع دوائر المندوب السامي المرتبط بالمفوض السامي المقيم في بيروت. وقد فرحنا نحن أهل الشام يوم شب حريق هائل منذ حوالى عشرة أعوام، مطلع سنة ١٩٤٠ على ما أذكر، وأودى الحريق بدار «المشيرية». وقلنا الحمد لله انتهينا من «المشيرية» وبعدها ذهبت أيام الفرنسيين إلى غير رجعة كما ولّت قبلهم أيام العثمانيين واحترقت بعض آثارهما لا ردهما الله. هل تذكرون الحريق؟ وهل تذكرون مكانه؟ لقد حدث ذلك في مكان مبنى «العدلية» الآن...

ـ ذاكرتك طيبة.

ـ كنت قد نسيت الحكاية لكنني تذكرتها يوم دعانا الزعيم للانتخاب وهو المرشح الوحيد. وحين صار رئيساً للجمهورية سمعنا من الإذاعة لقبه الجديد «المشير» حسني الزعيم، وكان قد أصدر مرسوماً بذلك وتعوّذنا بالله من المشير

(١) أهل البلاش: الفقراء والمعدمون.

الجديد!

سأل نديم: لم تقل لنا يا معتز أفندي، لماذا كان الزعيم في مزاج طيب يوم وعدك بإصدار مرسوم «البرنيطة» إكراماً لك؟

ـ قلت لكم إنه كان يقيس ملابس جديدة أتقن خياطتها له الخياط الشهير أغوب. بدلات السموكن والفراك والبزّات العسكرية الخاصة برتبة «المشيرية» ـ الماريشالية، من صيفية قُتل بها وشتوية لم تتح له فرصة ارتدائها ولم يدم حكمه أكثر من ١٣٤ يوماً على ما أظن. وكان يتصل هاتفياً بالصائغ المعروف فضل الله مصعب ليزوّده برغباته حول صياغة أشرطة الماريشالية وأزرار بزته العسكرية من الذهب من عيار واحد وعشرين قيراطاً. وكان على وشك تكليفي بالذهاب إلى باريس إلى محلات «بوشرون» بالذات القائمة في ساحة الفاندوم لصياغة عصا الماريشالية من الذهب المطعّم بالأحجار الكريمة لو لم أحدثه عن مرض ابنتي. هل تعرفون أن عظام الرجل بدأت «تْصيرْ مكاحل»[1] والعصا لم ينجز بوشرون العمل عليها، ولعل أحد الطموحين المختبئين خلف فوزي سلو سيحملها أو يتمّ وضعها في متحف التاريخ...

ـ أخشى أن نسمع من جديد حركة غير عادية في الشوارع ومصفحات تجوب الليل و«بلاغ رقم ١» للمرة الرابعة يدّعي الأسف لما آلت عليه الحال بسبب «الديكتاتور» وممارسته اللاديمقراطية، ويأتينا ديكتاتور رابع مع مجلس عسكري ثوري جديد يرخي جزماته العسكرية على أعناقنا.

ـ لا أظن أن ذلك سيحدث سريعاً، وكل ديكتاتور يتعلّم من أخطاء سلفه ويدوم حكمه مدة أطول من سابقه! لا أظن أننا سنسمع عبارة «بلاغ رقم ١» قبل انقضاء عامين أو ثلاثة!

قال معتز: ألم تضجروا من الحديث عن القضايا العامة؟ دعونا نتحدث عن أشيائنا الشخصية.

أجاب أمجد: القضايا العامة في دمشق تصير شخصية. إنها مشكلتنا ونقطة قوتنا في آنٍ.

سأله معتز وهو يعرف نقطة ضعفه: حدّثنا عن زين.

أجاب بفخر: زين كانت الأولى في سورية في السرتفيكا[2] وأظن أنها ستكون

(١) تصير مكاحل: صارت رميماً.

(٢) السرتفيكا: الشهادة الابتدائية.

الأولى في «البروڤيه»[1] أيضاً.

دمدم الحاضرون تهذيباً: اسم الله عليها. اللهمّ زد وبارك!

* * *

هدير «البوسطة» يزداد ارتفاعاً كلما تعبت زين في الطريق الطويلة بين دمشق واللاذقية. تسد أذنيها يتوقف الصوت. ترفع إصبعيها من أذنيها. يعود. تحرّك أصابعها بإيقاع وهي تُنغِّم هدير البوسطة في نغم يسليها يعلو ويهبط متقطعاً كاسراً الرتابة والدرب طويلة.. ورغم كل شيء يظل الرحيل إلى اللاذقية للقاء خالتها وأسرتها، يظل الرحيل في العيد حشداً من «الجماليات».. حشداً من عطور العالم في كباية العصير في النبك حين تتوقف «البوسطة» عند الاستراحة.. حشد من شقائق النعمان في البراري بين حمص وطرطوس، حمرة مرقطة بالأسود البرّاق، هشة وحادة كالسيوف تتركها مغشياً عليها وهي تخترقها بالنشوة.. ثم يأتي البحر.. يطل شاسعاً فسفوري الضوء تركض الشموس داخل أمواجه.. جبلة. بانياس. طرطوس. حشد من الزرقات في روح مائية حيَّة منتشرة كالبراري على طول الأفق تتكسر كالموسيقى على أقدام الشاطىء.

سألت زين والدها: هل سنذهب إلى «الطابيات»؟ أجاب: بالتأكيد. تأمل بدوره البحر الذي يذكّره بهند وعراقتها. البحر الغزير الممتد عبر التاريخ من أوغاريت والأبجدية والماضي حتى الأفق، عاجزاً عن الموت، وعلى صفحته ما زالت تركض مراكب أليسار.. ثم تطلع اللاذقية، عجينة من رائحة الملح والتنباك والأزرق المضيء.. هناك حيث تفوح من اللون الأزرق رائحة التبغ المعجون بضوء القمر.

لم يضايق زين ذهابهما إلى «فندق الكازينو» على شاطىء البحر بدلاً من قصر جدها. كانت تحب الأماكن الجديدة. دارت في الغرفة وأدهشها أن نافذة الحمام الواسع كغرفة تطل أيضاً على البحر.

فتحا حقيبتيهما وطلب أمجد من زين أن تتعلّم تعليق ثيابها لأن فهيمة لا تستطيع مرافقتها دائماً.

فتحت زين خزانة الغرفة وفوجئت بأن بابها من الداخل تغطيه كتابات وكتابات. شعرت بمتعة مفاجئة. تحب أن ترى الكتابة حيث لا يتوقعها المرء. تحب

---

(١) البروڤيه: الشهادة المتوسطة.

كثيراً أن تعبث بملعقتها بـ «شوربا»[1] شفّافة تعدها خالتها لبابة وتضع فيها معجنات بشكل حروف الأبجدية الفرنسية. لا تجرؤ على التهامها إلا بعد إلحاح، فللحروف عندها حرمة حتى في الحساء.

حاولت أن تقرأ ما كتبه النزلاء قبلهما على باب الخزانة لكن والدها زجرها كي تعجّل ليذهبا لزيارة خالتها. شعرت برغبة جارفة في أن تكتب بدورها على الخزانة وقررت تحيّن الفرصة لذلك!

* * *

حين سمعت هدير الماء في الحمّام، قررت انتهاز فرصة انشغال والدها عنها لقراءة الكتابات على باب الخزانة من الداخل. هذه كتابة بالقلم على خشبها.. قرأت فيها عبارة «آه كم أنا وحيد!» سطّرها شخص ما وتاريخ كتابتها قريب من تاريخ ميلاد زين. «تراه ما زال وحيداً؟».. هكذا تساءلت وتابعت القراءة. شخص آخر أضاف إلى العبارة السابقة بخط مختلف عبارة «وأنا أيضاً».. بدا لها ذلك طريفاً.. وراحت تقرأ ما كتبه الذين أقاموا في الغرفة من قبل، وبعضهم أرَّخ لكلماته، والبعض الآخر لم يفعل. ثمة قصائد وشتائم وقلب اخترقه سهم والحرفان الأولان من اسمين غامضين، وتحتهما عبارة: «لقد عدت بدونها. سأنتحر». تساءلت زين: «هل قفز من هذه النافذة ليموت؟».

خُيّل إليها أن الغرفة امتلأت بهم، بكل الذين كتبوا على خشب الخزانة من الداخل.. بحضورهم الغامض وملامحهم وأصواتهم.. وأخذت القلم وكادت تكتب شيئاً حين لاحظت عبارة: «الحيطان دفاتر المجانين» سطّرها شخص ما رداً على من سبقه إلى الكتابة. فاجأها والدها وهي تكاد تكتب شيئاً على باب الخزانة. سألها ما الذي تفعله. تلعثمت وأنقذها صبي الفندق جاء حاملاً لوالدها جريدة كان قد طلب منه شراءها.

في الليل، تركها أمجد تنام في الغرفة وقال إنه سيسهر مع أصدقاء على السطيحة «التراس»، وبوسعها أن تراه من النافذة وتناديه إذا كانت بحاجة إلى شيء.. ونامت فشاهدت حلماً يتكرر باستمرار.. أمها تمشي على شاطىء «الطابيات» وهي تلحق بها، ولكن أمها تمضي نحو الماء وتختفي وسط الموج وهي تناديها.

(١) الشوربا: الحساء.

استيقظت مذعورة فركضت إلى النافذة لتنادي والدها، ثم عدلت عن ذلك وتناولت القلم وكتبت حلمها بخط مرتجف على باب الخزانة من الداخل وأغلقت الخزانة بعد ذلك جيداً وعادت لتنام وقد شعرت بالراحة. . .

وصباحاً اختلست النظر إلى ما سطّرته، ولاحظت أنها كانت قد سطّرت حلمها لصق عبارة الرجل المجهول التي تقول: الحيطان دفاتر المجانين!

* * *

إنه العيد. . قبلات الأهل والحلوى وعشرات من أقرباء أمها وأولادهم الذين خيّل إلى زين أنها تلتقي بهم للمرة الأولى، وفوجئت بهيثم الأطول قامة من خالتها لبابة وبزوجها الذي بدا لها عجوزاً. ولكنه عيد الخيبة التي تمزق صدرها بحدّة لم تعرفها من قبل، فقد رافقها والدها إلى شاطىء «الطابيات» فوجدته مكاناً آخر يختلف تماماً عن ذلك الذي تراه في أحلامها وسبق لها أن ذهبت إليه في طفولتها. . مكاناً أقل زرقة وضياء، وأصدافه أصغر حجماً. . ثم إنها فوجئت بعمارات لم تكن في ذاكرتها، وبزحام على الشاطىء ولم تجد بين الوجوه أمها، ولم تسمع تلك الموسيقى الخفيّة التي كانت تنبعث من الرمال المشعّة في صغرها وفي أحلامها وكوابيسها. أما عن زيارة قبر والدتها، فقد تسلّل والدها خلسة فجراً ولم يصطحبها ولم تجد في نفسها الجرأة على الاحتجاج. خافت أن تحدّثه عن الأمر وتسبب له ألماً ما. فصمتت. . واكتفت بتسجيل احتجاجها على باب الخزانة!

* * *

لم يكن صفوح الطرفندي يؤمن بالحب من النظرة الأولى. لكنه حين شاهد في دكان والده في سوق الحميدية أميّة، وأمها ماوية «تقطع»[1] لها قماشاً وردي اللون لفستان وهي تضحك بحبور وترمقه بعينين من براءة زاد من خضرتهما ثوبها الأخضر المحتشم، ارتجف قلبه كمن دهمته الحمى.

لحق بها وبأمها من بعيد. كيف يُمكن لعينين بريئتين أن تطلقا شرر الشهوة في نفسه هكذا؟ لم تلاحظه ماوية. أما أمية فقد التفتت إلى الخلف مرة واحدة وهي تشعر أن عينين ثاقبتين تخترقانها بشعاع حار. اغتبطت حين شاهدت الشاب الوسيم يتبعها ولم تدرِ لماذا. مشى طويلاً خلفهما، وحين دخلتا «زقاق الياسمين» الضيق ارتبك إذ لم يعد بوسعه أن يتظاهر بأنه عابر سبيل، إذ لا عابر فيه إلا سكانه ومن

(١) تقطع: تشتري قطعة قماش.

يقصده. تنهد بارتياح وهو يراها وأمها تدخلان بيتاً محدّداً. إنه الآن يعرف أين تقطن تلك الصغيرة الفاتنة، ذات الشعر الطويل «الخرنوبي»[1] الهارب ببعض خصله من تحت «الإيشارب». ولكن ماذا لو كانتا في زيارة عابرة؟ عليه أن «يترصدها» وينتظر، وإلا ضاعت منه إلى الأبد. فأخذ يروح جيئة وذهاباً في الزقاق وهو يعرف أن عيوناً تراقبه من خلف الخصّ الخشبي.

بعد انقضاء عشر دقائق حسبها زمناً طويلاً وهو مرتبك وحائر بأمره، شاهد فرجة في الخص الخشبي تفتح وخلفها الحسناء بدون غطاء رأس وعسل شعرها الخرنوبي الفاتح يشع ذهباً داكناً في حزمة ضوئية اخترقت عتمة الزقاق وعفونته لتتوجها. تمنّى لو تطول تلك اللحظة إلى الأبد حين توهّم أنها ابتسمت له واشتعلت خضرة عينيها وحمرة ياقتها. تذكر أنها كانت ترتدي الأخضر قبل قليل. إذاً بدّلت ثوبها. إذاً هذا بيتها. فرح بذلك إذ كان يخشى أن يضيعها، وبدا له ذلك سخفاً. ولكن...

عاد إلى سوق الحميدية ليساعد والده كعادته بعد انتهاء «حصصه» في كلية الحقوق حيث يدرس، ولم ينسَ أن يحمل قبل العودة إلى البيت قماش «الكريب دو شين» الأسود الذي أوصته عليه أمه، ولم تغادره العينان الخضراوان في الطريق بين مخزن الوالد وبيته في حي «العفيف». وألحت عليه براءة الوجه المثير للشهوات لطفلة الزقاق العتيق.

وحين كان السائق يخاطبه وهو يقود به وبوالده أول سيارة «جاكوار» تستورد إلى دمشق ويسأله عن الوقت الذي يريد فيه حضوره في الغد ليقلّه صباحاً إلى الجامعة، شعر صفوح بالضيق، محاصراً بعينيها، عاجزاً عن المشاركة في أي حوار مهما كان سطحياً. ظل صامتاً مُحْتَلاً بحضورها فيه وببراءتها وحشمتها.

لا يدري أي مغناطيس صار يجذبه إلى «زقاق الياسمين» كلما غادر حانوت والده الشهير في سوق الحميدية، ولماذا يكاد يطير بهجةً حين يلمحها خلف المشربية.

قبل أن تشعر أميّة بانجذاب نحو هذا الوسيم المجهول، كانت من عاشقات الزيّ العسكري الجميل للضباط الذي يلف غالباً قامة فارعة رشيقة ووجه تسيل منه الرجولة، وهو إعجاب شاركتها فيه معظم بنات «زقاق الياسمين» اللواتي رافقنها

---

(١) لون الخرنوب: البني الفاتح.

لمشاهدة الاستعراض العسكري في عيد الجلاء من شرفة صديقة أمها، المشرفة مباشرة على شارع بيروت قبل مفرق المزّة. وكن يذهبن عاماً بعد آخر وكبرن على هذا الإعجاب، حتى وصلن ذات يوم إلى العرض متأخرات فوجدن الشرفة قد سقطت بمن فيها من سيدات لكثرة زحامهن للفرجة!

لم يطل الوقت قبل أن ينفتح باب في «زقاق الياسمين» ويطلّ منه رجل بوجه شبه غاضب وهو يسأل صفوح الطرفندي: عن أي بيت تفتش يا ابني؟

خلف زوجها وقفت أم أنيس تقول بصوت أكثر لطفاً: نحن نعرف كل بيوت الحي، فمن تريد حضرتك؟

تجاهلها وأجاب زوجها مدمدماً بعدة كلمات غير واضحة وهو يشير إلى الباب المقابل. قالت أم أنيس مصرّة على التدخل: تريد بيت أمجد وعبد الفتاح الخيّال؟ إنه بالفعل هذا الباب. ماذا تريد منهم؟

لم يكن صفوح الطرفندي يعرف اللف والدوران. كان صريحاً وصادقاً فقال لها ببساطة: أريد أن أعرف من هم كي أرسل من يخطب لي ابنتهم.

سألته بعينين تلتمعان فضولاً رغم وجهها الستيني ورغم أمارات الامتعاض البادية على وجه زوجها: أية ابنة منهم؟ اتفضل يا بني، اتفضل إلى الداخل لنتحدث.

لم يغادر صفوح الطرفندي دار أم أنيس إلا بعدما عرف كل شيء عن محبوبته الصغيرة، واسمها واسم والدها وأدرك أن عليه أن يخطبها من خاليها أمجد وعبد الفتاح ومن والدها في آنٍ، كما كانت أم أنيس الفضولية قد عرفت كل شيء عنه! وحين مضى عبّر أبو أنيس عن رأيه بسلوك زوجته دون أن يقول لها كلمة واحدة مكتفياً بغناء أغنية شامية عتيقة مرصودة لظروف كهذه: «حارق دمي. مفوّر دمي. كثير الغلبة. ثقيل الدم. آه يا خيّي وآه يا بيّي. راح انحم وراح انسم!»[1].

تجاهلته أم أنيس وهي ترتدي ثيابها استعداداً لجولة على الجارات لنقل النبأ السعيد بدءاً بأم «العروس»!

وكم فُوجئت أم أنيس بالفتور البارد الذي استقبلت به ماوية نبأ خطبة ابنتها الوشيكة. فصفوح الطرفندي ـ كما أكّدت الجارات ـ ابن لواحد من كبار أثرياء دمشق

(١) أغنية ضد التدخل في شؤون الآخرين.

وعميد تجّارها وقد توارث العزّ أباً عن جد. شاب «كامل مكمَّل سبحان الخالق. مال وجاه وعلم وأصل وشباب». فماذا تريد ماوية ولدى أسرته أول سيارة «جاكوار» تدخل دمشق ـ ولا تشبع أم أنيس من التذكير بذلك ـ. نعم «جاكوار». لا «دوزوتو» أو «دودج» أو «بليموث» أو «ستوديبكر» أو «أولدزموبيل» أو حتى «فورد» وغيرها من السيارات الجديدة؟ فماذا تريد ماوية خانم أكثر من ذلك، كما قالت الجارات؟ وأكدت أم أنيس لنفسها، وقدَّرت أن ما تراه من سلوك ماوية ليس فتوراً بل صدمة فرح، فتابعت الجولة على بقية الجارات ولم تنسَ أن تروي لهن كيف عقد الفرح لسان أم العروس!

* * *

تنهد أمجد بشيء من الضيق وهو يمشي صباحاً صوب شركة الأدوية الخاصة بمطاع والتي يعمل مستشاراً قانونياً لها. كان قد نسي مساء اليوم السابق أوراقاً مهمّة على طاولته فقرر استردادها من مكتبه الذي أفرده مطاع له منذ حوالى عامين بعد سهرة ليلة رأس سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ الكئيبة التي قضاها في بيته ولكنه لا يزوره إلا لماماً. يعرف أن مطاع لا يزال يريد جلبه للعمل معه بما هو أكثر من مستشار قانوني، وأنه لا يزال يتمناه شريكاً مضارباً متفرغاً للشركة. ولا يجهل أن ذلك ليس حباً به بل رغبة في الاستفادة من سمعته الطيبة كرجل نظيف الكف (لست مرتاحاً إلى عملي مع مطاع بالرغم من المرتّب الكبير الذي أتقاضاه منه. يداهمني دوماً شعور بأنه يخفي شيئاً عني).

لديه عمل كثير فهو المحامي الخاص بشركات ناشئة، كالزجاج في القدم قرب دمشق والسكر في حمص والطيران وسواها من الشركات التي ساهم في تأسيسها بعد الاستقلال لبناء سورية الحديثة، التي يتطلع إليها بكثير من السعادة والفخر وهو سعيد بأن يكون جزءاً من حركة البناء والتأسيس. لقد شاهد أزقة بلده ترتجف تحت وقع جزمات جنود الانتداب، وعاش طفولته في «الكُتّاب» وهو يسمع الحكايا عن الإذلال العثماني ومشانق الشهداء وبكى بكل براءته الأولى استشهاد يوسف العظمة. (اليوم يولي الناس المال أهمية أكثر مما يستحقه وهاجسهم جمْعهُ وتكديسه... مثل الثري مطاع الذي أنعم الله عليه بما يكفي ويزيد. كم تبدّل مطاع! أتمنى ترك العمل معه ولكنني أيضاً لا أريد قطع رزقي ورزق عدة عائلات مستورة تعيش من دخلي، ومنه المبلغ الكبير الذي أتقاضاه من شركته الكبيرة للأدوية. إنني أعمل كثيراً. أربح كثيراً منه ومن سواه، لكنني أيضاً أنفق كثيراً وأمي واسطة الخير).

ازداد ضيق أمجد حين وجد باب المكتب في شركة الأدوية مغلقاً. كان قد نسي المفتاح في جيب بزّته الأخرى. قرر أن يهبط إلى القبو حيث المستودع فقد يلتقي بأحد الموظفين أو بحارس المكتب ليفتح له الباب.

دخل إلى القبو. فوجيء بمنظر بدا له غريباً بعض الشيء. كان الموظف أبو نبيل وشخصان لم يرهما من قبل يغسلون زجاجات أدوية وينزعون عنها أوراقها وشخص رابع لا يعرفه أيضاً يقوم بإلصاق أوراق أخرى عليها. ما لفته حقاً هو ارتباكهم البالغ حين شاهدوه. سأل ما الذي يدور. فتلعثموا.

قرأ الأوراق المرمية على الأرض المنتزعة عن الزجاجات كما قرأ تلك التي يقومون بإلصاقها وفهم بهلع ما يدور (الأوغاد! إنهم ينزعون عن الأدوية التاريخ الحقيقي لصلاحيتها الذي انتهى منذ عام ويلصقون عليها أوراقاً مزوّرة تدّعي أنها صالحة للعلاج لمدة عامين تاليين). صعقه ذلك وقد وعى معناه: إن مطاع يسقي الناس ببساطة أدوية بلا فعالية، فيموتون أو يشفون بلا علاج ويربح في الحالتين! لم يقل شيئاً. هرول إلى بيت مطاع وانتزعه من النوم رغم احتجاج الخدم.

قال له مطاع بلهجة لا أثر فيها للدهشة: هذا الوغد أبو نبيل يتصرف هكذا؟ الآن سأتصل بالشرطة ليعاقبوه على ذلك.

ـ هل تعني أن ذلك لا يحدث برضاك؟

ـ بالتأكيد لا. دعني أحدّثه وأفهم منه ما حدث.

غاب قليلاً على الهاتف، ثم عاد بوجه متهلل: كم أنتَ سيء الظن. هذه الأدوية وصلت هكذا بغلطة مطبعية في التاريخ كما أبلغتنا شركة المنشأ في رسالة، ولذا لجأ أبو نبيل إلى طبع ملصقات جديدة لها تدل على أنها صالحة للاستعمال كما هي في حقيقتها تمهيداً لتزويد الصيدليات بها.

تذكّر أمجد خسائر مطاع في القمار التي يلهج بها الأصدقاء في مقهى «الهافانا» ومقهى «البرازيل» أيضاً، وخطرت له بالتالي حاجته الممكنة إلى السيولة المالية تسديداً لها. وحاول أن يناقش، لكن مطاع بدأ يبكي له بدمع مدرار كعادته: يا أمجد. كيف تسمح لنفسك بالشك بي؟ ألا تكفيني مصيبتي وقد هجرتني زوجتي بصورة نهائية هذه المرة وعادت إلى بيت أبيها في حلب رغم كل ما فعلته وأفعله من أجلها، وقد حرمتني من ابنتي التي أخذتها معها؟

غرقا في حوار شخصي فرضه مطاع لكن قلب أمجد لم يرتح، وظلت تلك

الملصقات المزورة تعذّبه، ولا يدري لماذا فوجىء هو نفسه بصوته وهو يقول: يا مطاع كنت قد جئت للاستقالة. لم يعد بوسعي أن أجمع بين مسؤولياتي كلها. وأنا كما تعرف مستشار قانوني أيضاً لمعامل الزجاج والسكر ولشركة الطيران. . .

ـ وأنا مستعد لجعلك شريكاً له ما يقارب النصف. منذ اليوم الأول عرضت عليك ذلك. شركتنا قوية وهي الوحيدة التي مُنحت رخصة استيراد. . المهم أن تتفرغ للشركة.

أجابه أمجد كاذباً: لا أستطيع لأن صحتي لم تعد تساعدني. اعذرني. سأبعث إليك باستقالتي خطيّاً.

كان أمجد دمثاً ومهذباً لكنه يتقن فرض موقفه مع الحفاظ على شعرة معاوية. وودع مطاع وهو يتابع عنايته بشعرة معاوية (ربما كان الرجل بريئاً حقاً! ولكن ربما كان يقوم برشوة موظف مسؤول بلا ضمير في الجمارك وآخر في وزارة الصحة، وربما كان المتربع على قمة الهرم شريكه بمعنى ما، أو كان أحد معاونيه من شركائه وأنا واجهة لأنني معروف كرجل «آدمي». والنتيجة واحدة. أشم رائحة غير زكية من تلك الشركة وقلبي يحدّثني بشر. . ولكن ليس بوسعي إثبات أي شيء. لعلهم أتلفوا الآن الملصقات المزوّرة. إنه أكثر خبثاً من أن يترك نفسه يُضبط متلبساً. وكل ما أستطيع أن أفعله كخطوة أولى هو الإصرار على الاستقالة).

حاول أمجد أن ينسى الحكاية ويتابع يومه كأنه لم يرَ شيئاً ما دام لا يستطيع إثبات أي شيء وفشل (هل عليَّ الذهاب إلى الشرطة والإبلاغ عما شاهدت؟ لقد أخفوا بالتأكيد آثار الجريمة إثر هاتف مطاع؟ فكيف أثبت صدق ادعائي؟).

يحوم أمجد حول أمه وهي تتحدث ربما مع إحدى شقيقاتها على الهاتف وتطيل. . وهو قلق ومعذّب وبحاجة إلى أن يكلّم معتز ليستشيره في ما شاهده قبل قليل من نزع لأوراق الأدوية التي انتهت صلاحيتها وإلصاقٍ لأوراق مزوّرة مكانها (تبرير مطاع لم يقنعني. أشمّ رائحة كريهة).

يظل يحوم حول أمه ويكره مضايقتها في آنٍ (يوم دخل الهاتف للمرة الأولى إلى منزلنا في أبو رمانة، تعاملت أمي معه بعداء كما فعلتْ مع كل جديد حولها، بما في ذلك رفضها لشراء اللبن جاهزاً من عند البقال وإصرارها على ترويبه بنفسها كما في الأيام الخوالي. وأذكر أنها كانت أيضاً تجد صعوبة في الكلام مع موظّفة السنترال وطلب الرقم منها إذ كيف تتكلم مع سيدة لا تعرفها؟! ويوم صار الهاتف آلياً حفظت

رقمه جيداً ١٤٥٩١ ونقلته إلى القريبات المسنّات والصديقات في «الاستقبال» الأخير عندها، وبذلن مجهوداً خارقاً لحفظه غيباً إذ كن كلهن مثلها لا يقرأن ولا يكتبن، وقررت فيما يبدو إلغاء الاستقبال واستبداله بلقاءات هاتفية يومية بعدما تحوّلت الجلسة في الاستقبال إلى «مؤتمر العجائز» المتقاعدات وصارت للصبايا مشاغل أخرى، ولم يعد الاستقبال «إناء» لطبخ الزيجات الكثيرة والطلاقات النادرة. ومن يومها وأنا أجد صعوبة في الاتصال الهاتفي بالبيت لأن الخط مشغول دائماً، أو من البيت لأن الحاجّة تتكلم بشأن هام لا مع إحدى شقيقاتها بل مع قمر وتعلّمها الطبخ هاتفياً في ما يبدو، فهي الآن تشرح لها مزايا الجبنة الخضراء[١] وكيفية طبخ كبة الرز المقمعة[٢] لزوجها معين مرددة «كرمال عين تكرم مرجعيون»[٣].

لم يعد أمجد يطيق انتظاراً وكاد يندم لأنه أرشد أمه إلى طريقة استخدام الهاتف بل وكتب لها الأرقام في دفتر خاص ولكل رقم هاتفي صفحة كاملة، وعلى السطر الأول خطوط بعدد الرقم الأول في «النمرة الهاتفية» والسطر الثاني خطوط بعدد الرقم الثاني.. وهكذا رقماً بعد آخر، وصفحة لكل شخص وفقاً للسن، وآخر صفحة مخصصة لقمر.. اقترب منها وحين استقرت نظراتها على وجهه سألته: هل أنت مريض؟ وما الذي جاء بك إلى البيت؟

ـ أريد القيام باتصال هاتفي.

ـ «يوه تقبرني»[٤]. لماذا لم تقل ذلك من قبل؟

* * *

ـ ألو معتز. صباح الخير.

ـ صباح الخيرات والليرات.

ـ لا تحدثني عن الليرات. لعنة الله على هذا المرض. لقد شاهدت هذا الصباح أمراً رهيباً.

ـ لا تتكلم على الهاتف. للحيطان آذان وفهمك كفاية. ما رأيك باللقاء في «البرازيل»[٥] بعد ساعة؟

* * *

(١) جبنة بيضاء اللون طازجة.

(٢) طبق شامي مقلي.

(٣) مثل دمشقي شائع. وهنا لعب على الألفاظ والمقصود بمرجعيون: مرج عيون أي عيون كثيرة.

(٤) «يوه تقبرني»: تعبير دمشقي ودّي.

(٥) يقصد «مقهى البرازيل».

يتأمل معتز بانتشاء الحسناوات العابرات على الرصيف. يسعده تبدّل المشهد. لم يعد مضطراً لتخيّل شكل ساق ذلك الكعب الأبيض البض تحت البرلين والتنورة السوداء الطويلة، لأن التنورة بدأت تزداد قصراً عاماً بعد آخر، والزنود البضّة تعلن بشكل خجول عن نفسها عارية حتى الكوع (**صحيح أن المقهى لا تدخله امرأة، لكن البركة في العابرات خلف زجاجه**).

لم يشاركه أمجد تلك المتعة. كان لا يرى أمام عينيه إلا ذلك المشهد المريع لتزوير تاريخ صلاحية الدواء، وروى لمعتز ما شاهده صباحاً من تبديل للأوراق الملصقة على زجاجات الأدوية طالباً مساعدته على فضح إمكانية حدوث ذلك، ناقلاً إليه حيرته في ما عليه أن يفعله وندمه لأنه اتصل بمطاع فذلك سيجعله حذراً يزيل بسرعة آثار الجريمة. دهش أمجد حين انحاز معتز إلى صف مطاع وقال إنه مقتنع بتفسيره ولا مبرّر للقلق. ونصحه بأن ينسى الأمر. رفض أمجد وطلب من معتز نشر ما حدث وفضح الحقيقة. رفض معتز بدوره إذ لا دليل مادياً هناك وبوسع الرجل أن يقاضيه. صعق أمجد وهو يرى كيف يمكن لمؤامرة صمت صغيرة أن تقتل آلاف الناس ورفض الإذعان للأمر الواقع. وهدّأ معتز من غضبه حين وعده بنشر ما يقوله شرط أن يكون ذلك في حوار صحافي وعلى لسانه ونبّهه: أنت محام وتعرف مغبة ما تريد الإقدام عليه. قال أمجد: سأروي ما شاهدته وأترك كل واحد يفسّره كما يشاء. ذلك تحذير.

ـ أريد أن أحذّرك بدوري من عداوة مطاع التي ستجلبها لنفسك، فهو رجل قوي النفوذ والشيشكلي لا يرفض له طلباً!

* * *

ـ ألو معتز؟ صباح الخير. . لماذا لم يصدر الحوار حول فضيحة الدواء؟

ـ لقد «سكّر» الموظف العدد باكراً يا أمجد. . ونسي الحوار على الطاولة.

* * *

ـ ألو معتز؟ مساء الخير. أين الحوار يا أخي؟ لقد انقضت عدة أيام.

ـ آسف. نسيته على الطاولة ورمى به خطأ عامل التنظيف. سأعيد كتابته «تكرم عينك».

* * *

ـ ألو معتز؟

ـ الأستاذ غير موجود. خرج قبل قليل.

* * *

ـ ألو معتز؟

ـ الأستاذ في الحمام.

* * *

ـ ألو معتز؟

ـ الأستاذ في المطبعة.

وفهم أمجد متأخراً كيف استطاع معتز تبديل بيته الصغير بالإيجار في الحلبوني والانتقال إلى المبنى الذي شيَّده في الروضة وقام بتأجير بقية شققه.

* * *

ـ ألو.. أرجوك يا أمجد.. يجب أن أراك.. لقد حلَّت بي كارثة.

ـ آسف يا مطاع. مشاغلي كثيرة.

فوجىء أمجد بمطاع وهو يبكي على الهاتف قائلاً: تظل صديقي الحميم رغم كل شيء. مصيبتي كبيرة فتعالْ.

ـ ماذا حدث؟

ـ ماتت زوجتي ولا أستطيع أن أقول شيئاً إلا لك.. وحدك تعرف.

هرول أمجد إليه. لم يكن قد التقاه منذ الجلسة الأخيرة حول الأدوية مزوَّرة تاريخ الصلاحية.

قال مطاع: تعرف أن زوجتي هجرتني، وعادت إلى بيت والدها في حلب. لم تقل لي حين تزوجنا أنها مصابة بمرض «الهيموفيليا» النادر ـ مرض عدم تخثر الدم ـ ماتت يا أمجد!.. ست وعشرون سنة وماتت!

ـ ولكن، ألم تكن تتناول دواءً.

ـ بلى.. ولكن الدواء الذي اشترته في حلب كان بلا جدوى. كان تاريخ صلاحيته مزوّراً كما تعرف وقد فقد مفعوله. لم أنتبه إلى أنها نسيت أن تحمل معها زجاجات الدواء التي أخصّها بها. اشترت الدواء من الصيدلية ككل الناس، وماتت.

ـ ككل الناس! ككل الناس!...

وأغلق أمجد سماعة الهاتف مشمئزاً ومشفقاً في آن.

* * *

(لا أجرؤ. . لا أجرؤ على الشجار مع قمر فأنا أحبها، ولا أجرؤ على قبول ما تخطّطه هي وأمها لنا من مشاريع الثراء. . ولا وقت لدي للسقوط في فخ هذا الهراء. همومي كبيرة بعرض الوطن وهمّها لا يتجاوز عرض السرير). . .

داهمه القمر حين تدفق من النافذة نهراً من الوهج البارد الفضي. أضاء الغرفة بنور شبحيّ عدواني يُشبه الدنيا كما تبدو له في كوابيسه التي تتكاثر عليه يوماً بعد آخر في السنوات الست الماضية، بالضبط منذ عام ١٩٤٨، بل منذ اليوم الذي استشهد فيه شقيقه الضابط ناجي. تأمّل الخزانة الضخمة وعلى قمتها تاج من الخشب المحفور المطلي بالذهب الوهّاج. تأمل طاولة زينة قمر المغطاة بزجاجات العطور الثمينة ومساحيق التجميل بمراياها الثلاث المجنحة بإطارات مزخرفة ومذهّبة. . تأمل السرير الواسع الذي يحتويه وقمر وإلى جانبه على «الكومودينا» المصباح الثمين وتحته صحن «النقرشة»[1] والشوكولاته والسكاكر الشامية و «النوغا» و «الغوما» الذي تحرص قمر على أن يرافقه أينما تحرك، كأنها حريصة على تربية كرش له، وكان قد سمع قبلها «أن الذي يتزوج شامية يعيش عيشة هنية»، ولم يخب ظنه! ولكن كان عليه أن يخوض في متاهة من الطقوس الشامية حتى يصل إلى جسدها.

تأمّل وجه قمر، فوجدها هانئة لأنها حصلت أخيراً على غرفة النوم التي كانت تشتهيها منذ شاهدتها عند «محلات النحلاوي» في شارع العابد ولم يعد لديها ما تقوله له وقت الغداء غير الثرثرة عن غرفة النوم. شعر بلذعة خجل وهو يتذكّر كيف روت له قمر وحماته بوران بفخر انتزاعهما للغرفة من العريس الذي كان قد أوصى عليها، وكيف ادّعت بوران عن لسانه للبائع في المخزن أن «صهرها المقدَّم» يريد الغرفة وعليه أن «يدبِّر حاله» مع أصحابها الأصليين. وقهقهت بوران بفخر وهي تدخن سيكارة «خانم» ذات «المبسم» الأحمر بيد وتلوح بمروحتها باليد الأخرى بعصبية كجزء من فولكلورها الخاص ورغم برودة الطقس منتشية وسنها الذهبي يلتمع بقسوة معدنية، وتروي له بالتفصيل ذعر البائع وكيف كذب في اتصال هاتفي على العروسين بقوله إنه لم ينجز الغرفة وعليهما الانتظار شهرين على الأقل وتأجيل العرس! . . وبدت لامبالية كالجراثيم بأحزان العروسين الشابين.

(لماذا صُرت أثير ذعر الناس، فيطيعونني على مضض وهم يضمرون الكراهية لي، ويتوقون لسماع عبارة «بلاغ رقم ١» كي يُزج بي في السجن بدوري أو أرحل إلى بيروت وأجلس في المقهى مع الذين سبقوني إلى هناك يوم طُردوا من السلطة؟ . . ما

(١) «النقرشة»: المكسرات.

الذي حدث لي منذ اليوم الذي وقفت فيه إلى جانب حسني الزعيم وقلنا «البلاغ رقم ١» للمرة الأولى؟ كنت واثقاً يومها من إصلاحنا للأمور.. من قدرتنا على الخلاص من الذين اشتروا لنسائهم الأزياء من باريس بما اقتطعوه من ثمن السلاح الذي جاءوا به إلينا فاسداً. وذهب أخي المرحوم ناجي ضحية له في معارك ما بعد الهدنة. كنا نعرف أن هدنة ١٩٤٨ تقررت لأننا خضنا معارك عديدة لصالحنا ولإعطاء اليهود فرصة لالتقاط الأنفاس والتسلّح من جديد. وبعدما كان شقيقي متفائلاً باستعادة ما سبق أن احتلته الهاغانا، أدرك أن ميزان القوى اختل بعد ذلك وأن سلاحنا طلقات مغشوشة.. وحين سقط أخي كتبت قصيدة وبكيت ووعيت أن لا جدوى من الشعر والبكاء.. وتحمّست حين همس لي أحدهم بأن حسني الزعيم يدبّر أمراً، وأن علينا إبلاغ وزير الدفاع لاعتقال «الخونة». ووعدته بأن أفعل ذلك بنفسي، لكنني انضممت إلى «الخونة» وأخبرت حسني الزعيم بأنني أعرف ما يدور وقد يعرف به سواي مثل الشرباتي. واتفقنا على التعجيل بالأمر.. وكنت سعيداً بالانتقام لأخي ولفلسطين ولرفاقي الذين مات الكثيرون منهم. لم يسبق لحرب أن كان ثلث الذين استشهدوا فيها من الضباط وأصحاب الرتب «العالية» إلا حربنا، ولكنهم ذهبوا للأسف سدى.. قيل لي الكثير عن عدم مسؤولية القوتلي والشرباتي و «ربعهم»[1] عن الهزيمة. أعرف أن الهاغانا وبقية العصابات اليهودية استفردتنا وصارت تضرب كل جيش عربي على حدة ثم تنفرد بالآخر.. أعرف أن التنسيق كان منعدماً بيننا كعرب وليس بيننا من يثق بالآخر ولبعضنا مطامع خاصة في أرض فلسطين. أعرف أن إسرائيل المزعومة نالت شحنات بريطانية وتشيكوسلوفاكية هائلة من السلاح لتحقيق وعد بلفور، ولكنني بالمقابل لم أغفر يوماً لدود الخل الذي منا وفينا، فقد كسرنا من الداخل وخلخل تماماً ثقتنا الغامضة المطلقة بالنصر على عصابات اليهود... وكنا نتغذى بذلك الشعور الأسطوري ونكبر به.. ولكم شعرت بالخجل من أمي ذات يوم لأني عدت حياً من فلسطين وقتل ناجي ابنها المفضّل وبقيت أنا. ولكم شعرت بالفخر بعد «البلاغ رقم ١» وأنا أخبرها أن المسؤول عن موته «طار»).

جلس معين في سريره وهو لا يدري ما الذي يفعله بالأرق الذي أضحى رفيق لياليه. ما يكاد يضع رأسه فوق الوسادة منذ وصول هذا السرير حتى يصير رَجُلَيْن اثنين أحدهما يعاتب الآخر ويقرّعه ويكاد يقذف به إلى حافة الانهيار. ثمة رجلان يركضان داخل جسده كل ليلة يتشاجران ويتصارعان حتى مطلع الفجر حين يغفو

(١) الربع: الجماعة، العشيرة، القبيلة.

منهكاً ثم يذهب إلى مكتبه في حوالى العاشرة كجميع «الوجهاء» الذين كان يسخر منهم من زمان. .

رنّ الهاتف إلى جانب فراشه. غاص قلبه ذعراً. هذا الرقم الخاص به لا تعرفه إلا قلّة قليلة. فهل وقعت كارثة ما؟ انقلاب جديد؟ من الأفضل له الهرب قبل أن يقصّوا رأسه ورأس أديب الشيشكلي وكل من يؤيده كما سبق الاقتصاص من رأس حسني الزعيم يوم نجا هو بجلده إذ انحاز إلى انقلاب سامي الحناوي في الوقت المناسب وشارك فيه (لن أنسى يوماً فجر الأحد ١٤ آب، يوم ألقينا القبض على حسني الزعيم ومحسن البرازي ونذير فنصة وأعدمنا حسني ومحسن رمياً بالرصاص ولم أُعدم معهما بل كنت مع فرقة الإعدام، وفي السابعة صباحاً كنا نذيع. . «بلاغ رقم ١»).

تردد قبل أن يجيب.

رفع سماعة الهاتف وهمس: ألو. .

لا يدري لماذا جاء صوته مرتجفاً. سمع الصمت وصوت تنفّسٍ خافت. همس ثانية بصوت أقل ارتجافاً: ألو. . مين؟

تُراه شخص يريد نصحه بالهرب والاختباء لانقلاب جديد وقع؟

جاءه صوت فارس رفيق الطفولة في القرية أيام الفقر والأحلام الكبيرة: هذا أنا. . هل عرفتني؟

ـ بالتأكيد. .

سقط معين في بئر من الارتباك. كان قد سمع أن فارس مختبىء في بيت أستاذه السابق، وكان من المفترض مداهمة البيت واعتقاله بأمر من الشيشكلي شخصياً. وهو نبأ آلمه حتى فكّر في تحذير فارس وبينهما خبز وملح وأقمار في القرية وأسرار البراءة الأولى ورفقة الحقول والقمر. . فماذا حدث الآن؟ هل قبضوا عليه؟ غاص قلب معين وأردف فارس: أريد زيارتك لأمر هام. . ممكن؟

أدرك معين أن فارس يريد الاختباء عنده!

يا له من إحراج! ليس بمقدوره أن يتخلّى عن خيط من الخيوط الأخيرة التي تربطه بماضيه وحقيقته، وليس بوسعه أن يخبىء عنده الرجل الذي يفتش عنه الشيشكلي بإصرار (إنني صديق للشيشكلي وقد يتفهّم أن فارس صديقي. لا. لن

يتفهّم شيئاً. ليس للديكتاتور صديق بل عبيد فقط. وأنا صرت عبده. زرعت للجدران آذاناً في كل مكان. والذي كان مخبراً للفرنسيين جعلت منه مخبراً لي، ولكنه قد يكون أيضاً مخبراً عليَّ. لا. ليس بوسعي أن أغامر).

قرر أن يقول لفارس: «لا». لن يعرّض نفسه وأسرته وزوجته وغرفة نومها الجديدة للخطر. . ولكنه سمع الشخص الآخر الذي يقطنه يقول، وقد استولى على سماعة الهاتف: على بركة الله يا دكتور.

فقال فارس: سأحضر لنصلّي الصبح معاً. وأغلق سماعة الهاتف.

غصّ معين لأنه لم يعد يصلّي الصبح ولم يعد يكتب الشعر الذي كان يحلو له أن يقرأه على فارس في مراهقتهما في القرية، ولم يعد يرافقه إلى حلب القريبة لحضور المهرجانات الأدبية، ولم يعد يلتقي به في ردهات الجامعة بعدما توقف عن متابعة دراسة الأدب لكثرة ما سخرت منه قمر وتكاثرت مشاغله. إذاً سيأتي مع الفجر وهو يحاذر أن يقول المزيد خوفاً من الرقابة على الهاتف. صحيح أنه هو الذي يرأس الجهاز الذي يراقب هواتف الناس، ولكنه يعرف أن هناك دائماً من يُراقب الذي يُراقب، وأن المُراقِبَ مراقَبٌ. . وعليه أن يتخلّص من حراسه ريثما يأتي الفجر. . .

ولكن ماذا لو اعتقله هو بنفسه وسلّمه للشيشكلي الذي اتهمه مؤخراً بحماية بعض أعدائه؟ صحيح أنه قالها بلهجة مداعبة، ولكن بطشه يبدأ غالباً بدعابة (كلهم تتزايد عندهم روح الدعابة الفظّة حين يصيرون حكاماً، وكلنا نضحك لنكتهم البذيئة. لن أنسى كم من النكات البذيئة قهقهتُ لها لأرضي حسني الزعيم، ومسبح فندق بلودان شاهِد حيث كانت تحلو له الاستراحة وإقامة الحفلات كيوم أحضر ذلك النائب بالبيجاما من حلب وقد انتزعوه من سريره خصيصاً ليقول له جملة بذيئة عن لعق ما ليس لائقاً ذكره، وانتزعوني من سريري لأكون أحد الشهود على إذلاله له، ثم أمرهم بإعادته! يوم حل الأحزاب حدّثني عن الأمر كمن يروي نكتة، وفي ٢٦ حزيران ١٩٤٩ اعتبر الاستفتاء الشعبي على الدستور نكتة إضافية. والشيشكلي صار مثله. يبدأ الأمر معه بدعابة في الصباح وينتهي بإقامة في المساء «في بيت الخالة». لا. القضية ليست قضية فارس بل هي قضيتي أنا) . .

قالها معين لنفسه والتفت إلى زوجته فوجدها لا تزال نائمة وقد انقلبت على جانبها الآخر حين أضاء المصباح الخافت إلى جانب السرير. . وانكشف ظهرها العاري في قميص نومها الربيعي الخفيف (تصرّ على ارتدائه وما يُماثله لتتعرى حتى

في عزّ الشتاء كما هي اليوم، ونحن في الأيام الأولى من شهر شباط، وهي تدفىء البيت كثيراً خصيصاً لذلك). غمره وهج جمالها الناعم الأبيض المصقول وقد انحدرت سلاسل الشعر الحريري حقولاً من الذهب الوهاج على الوسادة (يا لضعفي أمام حسنها الشامي المطهم، وبشرتها المخملية البضة ورقص السماح المبطن الذي تجسّده مشيتها وكل حركة من حركاتها.. لقد جئت إلى دمشق وكلي شهية لابتلاعها، فابتلعتني المدينة العظيمة، واضطهدتني بتدليلها لي وامتحنتني ولم ينجني الله من التجربة أمام هذه «الجيشا» الشامية. كم تختلف يد قمر الناعمة بأظافرها المطلية عن يد أمي الخشنة التي جرّحها نخلُ القمح وحلب البقر عند الفجر المثلج! آه من قمر.. أحاطت عنقي برسن من شعرها المشقر و «نغاشتها»[1] ومكرها الجميل وتركت أمها بوران تجرّني إلى.. الرفاهية التي اكتشفت ـ يا للعنة! ـ إنني أحبها أنا أيضاً).

نهض معين من سريره ومشى صوب النافذة، وكانت غيوم شتائية تركض فوق صفحة السماء بسرعة كأن ثمة من يطاردها. ثم خيل إليه أن القمر هو الذي يركض مذعوراً حائراً (إني حائر.. يجب أن أكفّ عن الحيرة وعليَّ أن أتخذ قراراً..).

مشى صوب طاولة الزينة بقدمه «العرجاء» التي ما زال يعاني من عاهتها منذ اصابته في الحرب عام ١٩٤٨ ووقف بين مراياها الثلاث.. الأولى مثبتة في الوسط مقابل وجهه ومرآتان واحدة على اليمين والأخرى على اليسار تتحركان على مفصلات تجعلهما متصلتين مع مرآة الوسط من أحد أطرافهما، وحرتين في الحركة نحو الأمام. مرايا متحركة على الموضة كما قال لنفسه ساخراً.

حرّكهما وشاهد نفسه داخل المرايا الثلاث بوجوه ثلاثة، لكل مرآة وجه.

(وجهي الأول أعرفه بوضوح هذا الذي تعكسه مرآة الوسط. إنه وجه الخيبة. وجهي المكسور بمقتل أخي ورفاقه ونجاتي بجرح بسيط نسبياً.. وجهي الذي أقسم على الانتقام.. وتبدل كل شيء في ليلة بلا ضوء قمر. تبدل كل شيء ولكن إلى الأسوأ!

وجهي الثاني أعرفه أيضاً. إنه وجه الخيبة أيضاً بعدما نجح انقلابنا على حسني الزعيم واكتشفت فيما بعد أنني ورفاقي انتقلنا «من تحت الدلف لتحت المزراب»[2]، وقد تخلّصنا من ديكتاتورية حسني الزعيم وكدنا نقع في فخ النفوذ البريطاني بحجة

---

(١) «نغاشتها»: الغنج الرقيق.

(٢) من تحت الدلف...: من سيء إلى أسوأ.

الاتحاد مع العراق. . وكان لا بدّ من التخلي عن سامي الحناوي لمصلحة سورية. قلت لنفسي يومها: ليس بوسعك يا رجل أن ترضى بتحرير سورية من الفرنسيين وتسليمها إلى الانكليز!. . ومشيت على بركة الله مع أديب الشيشكلي ومجلس العقداء. ويشهد الله أن الأمر لم يكن هيناً في المرتين، فقد كنت والحناوي من أصدقاء حسني الزعيم القدامى، لكننا اضطررنا للإطاحة به، كما كنت صديقاً للحناوي ولم يسعدني اعتقاله وعديله أسعد طلس ومحمود الرفاعي، رئيس المكتب الثاني، ولكن لم يكن أمامي خيار.

وجهي الثالث هو الذي لم أعد أعرفه والخيبة عنوانه أيضاً. . ها أنا متورط في حل الأحزاب، وصحيح أن ذلك ضد رأيي لكنني لم أفعل شيئاً لأمنعه. وها أنا متورط في اعتقال الناس وسوقهم إلى سجن المزة أو سجن القلعة. . وها هم الناس يكرهونني ويخشونني، وزوجتي تنتزع غرفة نومنا من عروسين بتحريض من حماتي، وأنا لا أقول شيئاً وأحاول عبثاً النوم في فراش الأرق الوثير هذا).

ظل معين يتأمل نفسه داخل المرايا الثلاث في النور الخافت وهو يحرّك المرآتين المتطرفتين بين آنٍ وآخر كما فعلت زوجته قبل أن تنام مبتهجة بقدرتها على مشاهدة وجهها من الزوايا كلها، بل وحتى شعرها من الخلف. ولم يشعر بالبهجة مثلها بل لاحظ بهلع أن المرايا ترسم صوراً لامتناهية لوجهه داخلها. . كأنه انشطر إلى آلاف الناس بعدد اللحظات المخزية التي عاشها وهو معذّب الضمير في بعض المواقف ولم يكن راضياً عن نفسه في بعضها الآخر. . وجوه ووجوه من وجوهه (هذا وجهي يوم عزل الشيشكلي رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي وادّعى أنه استقال، وسجن رئيس وزرائه معروف الدواليبي وحلّ البرلمان. .

وهذا وجهي يوم جاء بفوزي سلو وصار يحكم من ورائه. . وهذا وجهي منذ عام حين تولى رئاسة الجمهورية ولم أقل «لا» ولم أقل شيئاً وانضممت إلى حزب «نعم» بدلاً من حزب «نعم سيدي». ويومها أقنعت نفسي بأنني قمت ببطولة ونفذت مثلاً شامياً عن اليد التي لا أستطيع أن أعضها، فقبلّت تلك اليد ودعوت عليها بالكسر. وهذا وجهي يوم عطّل صحف المعارضة ولم أقل شيئاً غير «نعم»، وقال سواي «نعم مولاي»، وقال لي أحد أصحابها: كنتم تريدون ثورة على كل شيء واليوم صار شعاركم «ثورة حتى الثروة»، فزجره الصحافي معتز مدافعاً عني بحرارة. وهذا وجهي وقادة بعض الأحزاب يهربون إلى بيروت ويقول لي أحدهم وهو صديقي القديم: سنحتفظ بمقعد فارغ لك في مقهى «الروكسي» بالبرج وبغرفة في فندق «نيو

روايال» بالزيتونة! نحن السابقون وأنتم اللاحقون. ولم أقل شيئاً..

وهذا وجهي منذ عامين وشهرين، يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٢، حين دخل الجيش والشرطة للمرة الأولى إلى حرم الجامعة وهجم العقيد فؤاد الأسود وهو يطلق الرصاص مع جنوده ليعتقل الطلاب المضربين احتجاجاً، ويسوقهم إلى مدرسة الشرطة ويخصّ زعماءهم بـ«نظارة»[١] وزارة الداخلية والضرب والإذلال ولم أقل شيئاً.. كما لم أحرك ساكناً حين أرغموهم على توقيع تعهد بعدم محاربة النظام وترك العمل السياسي. وهذا وجهي ليلة صدرت الأوامر بنقل المشاغبين الكبار منهم إلى سجن تدمر في شاحنة عسكرية. وهذا وجهي حين سمعتهم يهتفون في السيارة «نحن الشباب لنا الغد...» و «يا ظلام السجن خيِّم...». وهذا وجهي حين قيل لي إن بعض السجناء هناك يُطمر في الرمل الحار صيفاً حتى عنقه ساعات في العراء عقاباً.. وهذا وجهي وأنا أسمع بهرب فارس من سجن تدمر وتنقله بين بيت وآخر كي لا يقع في قبضتنا.. ولم أقل شيئاً.. وهذا وجهي يوم علمت بأمر إرسال الوحدات المدرعة لاحتلال السويداء وضرب جبل العرب ومحاولة اعتقال سلطان باشا الأطرش لأنه تجرأ على قول كلمة «لا» لحكمنا.. وصحيح أنني تمارضت يومها كي لا يحرق يدي دمُ الدروز كما سبق له أن أحرق أيدي عسكر السنغال، لكنني مرضت حقاً فيما بعد حين علمت بالمذبحة التي سبقت الاستيلاء على جبل العرب.. ولم أجرؤ على أن أقول للشيشكلي إن الدروز سيجعلونه يدفع ثمن دمهم ولن يسكتوا على ما فعله بهم، لا لم أقل شيئاً.. لم أعد أعرف في الشيشكلي رفيق قافلة المدرعات يوم اختارنا حسني الزعيم لنكون على رأسها لقلب «نظام القوتلي».. بل الرجل الذي يتصل هاتفياً بالبرلمان ويأمره بالتصويت أو عدمه، ويعتقل عشرات العمال من بيوتهم إذا هدّدوا بالإضراب.. ويُدلّل مذيعة أعجبه صوتها فتصير نصف أميرة وكل من عنده طلب يلجأ إليها... الرجل الذي نشّط الرشوة والوساطة ووضع القانون في جيبه.. ولم أعد أجرؤ على أن أحاوره.. وكان ما يرعبني فيه أكثر من أي شيء آخر حفاظه على قناع الديمقراطية فوق وجهه مع انتقال مركز القرار من البرلمان إلى الموائد.. يبدو ذلك اليوم حين اشتركت مع حسني الزعيم وسواه في الانقلاب متفائلاً بإصلاح الحال، يبدو لي ذلك اليوم منذ حوالى خمسة أعوام غابراً غابراً وقد تدفق بعده نهر الأحداث المتناقضة وجرفني معه، ولم أعد أعرف أي هذه الوجوه داخل المرآة هو وجهي.. يقول البعض إنني «انتهازي».. أساند الديكتاتور ما دام في

(١) نظارة: مكان التوقيف والاستجواب.

الحكم ثم انقلب عليه حين أحدس أو أسمع ـ بحكم مركزي ـ بأن شيئاً يُحاك له وسوف يسقط، وأنجو بنفسي من سيارة «الجيب» العسكرية الموشكة على التدهور في الهاوية وأقفز منها في الوقت المناسب إلى سيارة «جيب» عسكرية أخرى تتحرك بمن فيها نحو سدة الحكم وأنا معهم. كنت دائماً مقتنعاً بأن ذلك الكلام كله عني من أقوال الحسّاد وكنت مقتنعاً بنقائي، لكنني أرى الآن داخل المرآة وجهاً من وجوهي وهو يمد لي لسانه قائلاً: «انتهازي. لقد قبلتَ بحضور فارس لتعتقله وتلك ورقة رابحة، أو لتقوم بحمايته وتخبئه عندك سراً وتلك أيضاً ورقة رابحة. وإذا سقط الشيشكلي ـ كما تحدس منذ عام وتخاف من ذلك ـ نجوت وتابعت مع «رَبْع» فارس المنتصر...

لا. ليس ذلك صحيحاً يا وجهي.. لا.. لا تغمز لي بعينك على حلب.. لقد ذهبتُ لأزور أهلي في القرية المجاورة وليس لجسّ نبض حامية حلب.. يصرخ من قاعه صوت الرجل الآخر المناكد الذي يحرمه من النوم ومن الراحة: لقد التقيتَ ببعضهم عمداً لا مصادفة، واستدرجتَ الملازم فادي للكلام بتذمرك (الموارب اللامتورط) من سلوك الشيشكلي الذي يستمع إلى متملقين مما يفسد «وطنيته» على حد تعبيرك، وفهمتَ منهم أن تذمرهم بلغ نقطة الانفجار على «الديكتاتور» كما تجرأ أحدهم وسمّاه. ولكنك لم تدافع عنه بل اعتبرت الأمر دعابة وجعلتهم يفهمون بأسلوب غير مباشر أنك معهم حين يجدّ الجد وتنوي حاميتهم إذاعة «بلاغ رقم ١» من حلب، فقد كنت تدرك أن حاميات أخرى ستنضم إليهم وستغادر سريرك الجديد الفخم هذا لتتبادل وجرذان سجن المزة العضات، وستخلع خفك المنزلي الفاخر هذا وتسلّم قدميك الناعمتين لضرب الخيزرانة و «الفلقة»[١].. لا.. نعم.. لا.. نعم).

أطبق معين المرآتين على الثالثة في الوسط كمن يغلق باباً على هواجسه ووجوهه، وغابت مئات من سحناته داخلها وبقي أمامه الخشب الفاخر المحفور المذهّب، الذي يذكّره وميضه بضحكة بوران ولمعان سنها الذهبي الذي أضافته مؤخراً إلى فمها.

أطفأ نور الغرفة. ترك زوجته تنام فلها مشاغلها المختلفة وإذا استيقظت فلن تدعه يفكّر بسلام.. (عما قريب يطلع الفجر ويحضر فارس. فهل أُصدر الأمر باعتقاله أم أضع يدي في يده؟ هل أريد حقاً أن أحميه لأنه رفيق تسلُّق الأشجار ومغازلة بنات القرية وصاحب العمر العتيق؟ أم أن مشاعري ماتت وحلّت محلها مهارةٌ

(١) الفلقة: الضرب بالخيزرانة على أخمص القدم عقاباً.

في فن «التكويع» وتبديل الأقنعة ومراب ماهر يجمع ويطرح داخل رأسي وفي ثانية واحدة يخرج بالحساب الرابح ويغيّر جلده مستبعداً «الحليف» الخاسر، وقلبي يحدّثني أن سقوط الشيشكلي أضحى وشيكاً بعدما فعل الرجل وحاشيته كل ما بوسعهم ليكرههم الناس. ألستُ أنا من «حاشيته»؟ لا. نعم. لا. نعم... أهو ضميري الذي لا يرضى بتسليم فارس إلى التعذيب والإهانة أم أنه خوفي أنا على نفسي من التعذيب والإهانة إذا سقط الشيشكلي؟ ألم أشم رائحة النهاية مع رائحة إصبع الديناميت الذي رماه مجهول على القصر الجمهوري منذ عام ونيف في يوم حزيراني كنت أخطط فيه مع حماتي للاصطياف في بلودان؟ ألم أسمع صفارة إنذار داخل رأسي وأصابع الديناميت تلك تُرمى أيضاً في أماكن أخرى؟ ألم تزدد صفارة الإنذار في رأسي ارتفاعاً مع تزايد عدد الموقوفين في سجوننا؟ أعرف جيداً أن الشيشكلي ديكتاتور، لكنني كنت أظنه يكره أيضاً سفك الدماء ولا يخلو من الحسّ الوطني، وما زلت متعجباً مما حدث في جبل العرب ومن عنفه في القمع. المأساة أنه صار يظن نفسه مرادفاً للوطن والاعتراض عليه اعتداءً على الوطن والقمع عملاً وطنياً! بل إنه سيدهش ببساطة إذا قيل له إنه ديكتاتور ونص، بعدما قضى سنتيه الأخيرتين وهو يسمع التملق والمديح يكالان له بغير حساب، ومعتز وأمثاله من الصحافيين يسبّحون بحمده كما سبق وسبّحوا بحمد غيره.. ويد واحدة لا تصفق، وليس بوسعي أن أفعل أكثر مما حاولته بقول كلمة «نعم» بوجه عابس وأنا أتأمل جماعة «نعم مولاي» يلعقون حذاءه! ولكن بعض أمثال بوران التي ترددها وابنتها في حالات الشماتة بأعدائي لطالما نغّصت علي حياتي كقولها: «يا دايم الدوم كل مين إلو يوم»، وقول أمجد في السيران «لو دامت لغيرك لما وصلت إليك»، وتلك اللوحة العتيقة على العين تقول: «كم مر أمثالنا على هذه العين، ثم ذهبوا في غمضة عين».

سمع معين صوت بكاء طفله نضال. خشي أن يوقظ أمه وتقطع عليه وحدته. سارع إليه يرفعه من فراشه ويهدهده. قال نضال: «مبو.. مبو»، فسقاه ماء وراح يدور به في الغرفة على إيقاع راقص وهو يهزّه كي يعود إلى النوم. وامتلأ قلبه بالشعور بالذنب والمسؤولية في آنٍ.. (لا. لن أدع كفاح ونضال يكبران في ظل هذا الحكم أو أمثاله.. سأحمي فارس وليكن ما يكون).

* * *

تنشد أم كلثوم ليلة الخميس. زين تجلس مع والدها منصتة بوجه يكتم انزعاجها. أمجد يتقن قراءة كهارب صمتها. يقول لها: اذهبي إلى النوم فقد اقترب

موعد الامتحانات ولديك الكثير من «المذاكرة» قبل ذلك. انتهزت الفرصة وهربت إلى فراشها. لم تكن من عشاق آهات أم كلثوم ومطوّلاتها بل محبّة لأسمهان.

(ها أنا وحيد وما من امرأة تشاركني حياتي، وقد «طار» الشيشكلي[1] منذ عام وانزاحت غمة الانقلابات عن صدري وارتحت من معزوفة «بلاغ رقم ١» كلما أحب ضابط العبث بالوطن واغتصاب السلطة. وعما قريب تجرى الانتخابات النيابية وأتوقع انتخاب القوتلي رئيساً للجمهورية.[2] لقد عادت الديمقراطية وعدت إلى سماع ايقاع قلبي وغادرني اختناقي وبدأت عامي ليلة رأس السنة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ بسهرة مع دومينيك أعادت لي شبابي.. فلماذا لا أتزوج منها، تلك الفرنسية دومينيك، معلّمة البيانو التي أسرتني منذ اليوم الأول الذي اصطحبت فيه زين إليها؟ نعم. أقسمت قبلها أن لا أنسى هند ولم أنسها ولا تزال تحتل مكانة فريدة في جرحي وذاكرتي، لكن الحياة أخذت مجراها، وهو أمر يُخجل رومانسيتي لكنه يحدث للكثيرين مثلي. إنه الزمن الذي لا يصمد أمامه شيء، ولا يعترف إلا بالحاضر وربما بالمستقبل. ولعلي استعضت عن لوعتي على هند بحبي لزين التي تشبهها صورةً ونفساً حتى لكأنها تقمصتها. وثمة لحظات تخيفني فيها زين حين تمشط شعرها بأصابعها وتبتسم وتتثاءب وتسعل وهي تنظف أسنانها كما لو كانت صورة طبق الأصل عن هند. فقط حين تتمرد وتشاكس أدرك أنها شخص آخر أيضاً. لم أنسَ هند، لكن البراعم عادت تغزو قلبي وتنمو على يباس أشجاري. في البداية أحببت نهى، المتعلمة المثقفة، العاملة بنشاط في «الاتحاد النسائي»، لكن حبنا تعفن فأنا لا أطيق الالتقاء بالنساء خلسةً كما يحدث في مدينتي.. في عيادة طبيب صديق بعد الدوام أو في مكتبي ليلاً أو مكتب زميل، أو في بيت صديق، زوجته تزور أهلها في حمص أو حلب مثلاً، أو في منزل غادره أهله إلى إجازة الصيف في بلودان وأعطاني صاحبه المفتاح على أن أعامله بالمثل فيما بعد. هند كانت شجاعة وقامرت بكل شيء ولم تساومني بل كانت تلتقيني علناً وليكن ما يكون. نهى تحمل معها جدول الطرح والضرب وتقيس ابتساماتها لي أمام الناس بالمسطرة. كل ذلك جعل علاقتي معها ـ في نظري ـ بائسة وسطحية، رغم ترنم معتز وبقية جوقة الصحافيين بسطحية العلاقات في الغرب وسوقيتها قياساً إلى «أصالتها» و «إنسانيتها» عندنا! أية إنسانية في صلة تولد في ظل

(١) في ٢٥ شباط ١٩٥٤ تم الانقلاب على الشيشكلي وأعيد العمل بالدستور واستلم هاشم الاتاسي رئاسة الجمهورية.

(٢) آب ١٩٥٥: انتخاب شكري القوتلي ثانيةً رئيساً للجمهورية بعدما كان قد أطاح حسني الزعيم بحكمه في انقلاب ١٩٤٩/٣/٣٠.

الرعب والقمع والخوف أو تنمو جنساً منهوباً على المقاعد الخلفية في السيارة والمقاعد الجلدية في المكاتب أو فوق الطاولات المعدنية بين الآلة الكاتبة والهاتف.. وتنتهي غالباً بعملية إجهاض في بيت طبيب صديق يقدّم لي هذه الخدمة مقابل مفتاح بيتي في بلودان ليذهب إليه وزوجة أعزّ أصدقائه خلسةً؟ أجل لم تكن نهى لتجرؤ على الظهور معي علناً بدون خطبة. ولم أكن مستعداً نفسياً للزواج. مع دومينيك أتنزه علناً وأمشي في الشارع وأبيت أحياناً في شقتها بلا خوف، ولعل ذلك شدّني إليها كثيراً. لا تعجبني الصلات هنا بين المرأة والرجل وتثير استخفافي بريائها وزيفها وأقنعتها وسطحيتها، بالمقابل هل كنت سأرضى بالزواج من إيڤلين في باريس لو كانت عربية؟ وهل أرضى بأن تتصرف زين مثلها؟ وأي عار كان سيتملكني لو كانت أمي مثلها؟ إنني شرقي متناقض معذب أريد الشيء وضده.. أريد امرأة شرقية لديها مزايا المجربة ولكنها بلا تجربة وأحب نضج إيڤلين ولا أحب ما فعلته كي تصير ناضجة.. أريد المرأة ذات خبرة دون أن تختبر شيئاً، وأريدها في اليم دون أن تبتل بالماء! ها أنا وحيد ومتناقض، وها هي زين مراهقة في الرابعة عشرة من عمرها تكبر أمام عيني مع قلقي منها وعليها. لا أريد أن أحرمها من شيء كنت سأمنحه لزين العابدين ولا أريد أن يوسّخها شيء. ولكن كيف؟ إنني أربيها كأي صبي وأخشى من اليوم الذي تتصرف فيه كصبي. كيف أُحسن التعامل معها وأنا أختنق من الداخل هكذا؟ وها أنا أنصت إلى أم كلثوم تطلق آهاتها وتتغنى بعذاباتها وأسهر حتى مطلع الفجر على تأوهاتها المكبوتة مثل كبتي، المعذَّبة مثلي.. «يا ظالمني. يا هاجرني وقلبي من رضاك محروم».. والصوت يأتي من مذياعي وعبر النوافذ من بيوت الجيران، وخلف كل نافذة رجل مثلي يتأوه ويحلم ويحرقه كبته، وامرأة كذلك، كأننا نمارس طقساً جنسياً جماعياً «ماسوكياً» سرياً، مكرساً للاعتراف بالألم المتحجر الرابض في صدورنا كقدر والكبت الملازم له. وكل منا يستمد القوة من صاحبه كما في التظاهرات.. ويا لها من تظاهرة «سادية ـ ماسوكية» نمارسها منذ عصور، ونحن نصرخ «آه» ونتلذذ بصيحة الألم هذه! لم أرَ في حياتي كلها مستمعاً يصرخ ألماً متأوهاً متلذذاً وهو يسمع ماريا كالاس تغني في الأوبرا.. صيحات كهذه مكانها السرير. ويا لبؤسي حين يصير الصوت بديلاً عن السرير والحرية وأشياء أخرى رائعة مماثلة.. ويصير الحب ظاهرة موائيّة!).

تتثاءب أم أمجد وهي تتظاهر بمشاركته في الإنصات إلى أم كلثوم كي لا تتركه يسهر وحيداً. يشعر أمجد بالحرج. مأساته أنه ليس متبلد المشاعر كدبوس. يحاول

عبثاً مغادرة شرنقة وحدته ولا يري كيف (دومينيك؟ لقد رضيت دومينيك بالزواج مني، بل اقترحت هي عليَّ الزواج شرط أن أرافقها إلى فرنسا. دومينيك الجميلة الثرية عاشقة الشرق التي تعمل معلّمة للبيانو كمبرّر لوجودها في دمشق. دومينيك عاشقة دمشق التي تتحدث عنها بوله وتصفها بحلم عربي اسطوري تجسَّد في مدينة، وخرافة ارتدت بيوتاً ونهراً وجبلاً طالعة من أحلام ألف ليلة وليلة. . مدينة يشعر المرء فيها بأهميته وضآلته في آن. دومينيك عاشقة الريح والمغامرة والرحيل على كتف الصحراء، قرّرت العودة إلى بلدها وقررت تقطير الشرق في سمرتي وحضوري واصطحابه معها في قارورة زجاج. فما الذي أفعله؟ وهل أجرؤ على مغادرة دمشق إكراماً لها؟ وماذا بعد أن تنقضي فورة الحب وتبقى الحقيقة ويمضي الزبد؟ وكيف أفارق دمشق رغم إغراءاتها لي بالمكتب الفخم للمحاماة وقصرها في وادي اللوار؟ زين قد تكبر هناك وتصير فرنسية، أما أنا فلا شفاء لي وأعرف ذلك جيداً. أيام كنت طالباً في باريس طاردني شبح الياسمين وكان بوسعي أن أشمّ عبر البحار والقارات روائح بيتي. الياسمين. الفل. الريحان. الورد الجوري. النرجس. المضعف. الخميّسة. الأضاليا. الزنبق. النارنج. الكبّاد. العرائش على السطح فوق سقيفة القصب. زهر الليمون. الشَّبّ الظريف. هال قهوة أمي وماء الزهر بضوء الفجر وعطر دعواتها لي. ماء الورد في الليمونادة المعصورة بيدها. رائحة الفناء الصغير مقابل المطبخ. التوابل. البهارات. دبس الرمان. اللوز المحمّص. المخلّل. البخور والتمر والصندل. بل كان بوسعي أن أسمع في باريس أصوات الروائح الملونة اللامنسية. وأراها وهي تزداد ضراوة مع كل يوم داخل دورتي الدموية. الأصوات البرتقالية والسماوية والبنية والخضراء والليلكية والرمادية والبيضاء، ممتزجة بصوت أذان الصبح من الجامع الأموي القريب من بيتي في القارة الأخرى. صوت الباعة الجوّالين في «زقاق الياسمين»: خائن يا طرخون. أصابع «الببو»[1] يا خيار. ياللي رماك الهوى يا ناعم. جرادىء[2]. نداء المسحّر: يا نايم وحد الله. يا نايم اذكر الله. رنين الأساور الذهبية على الأذرع البضة. الزغاريد و «الولاويل» المتشابهة كثيراً في كتلتها الأثيرية الثقيلة. قرقرة النراجيل وهمسات النافورة ووشوشة السبيل. قرع سقاطة الباب النحاسية التي يكاد يكون بشرياً لا معدنياً. صوت جارتنا أم علي وهي تستدين من أمي كوباً من «القريشة» المجففة وفنجاناً من «ترويبة اللبن». صوت ابنتها

(١) الببو: الطفل.

(٢) جرادىء: حلوى دمشقية خاصة برمضان.

معزز وهي تطلب استعارة «المصطيجة»[١] للتعزيل، وصوت ابنها علي وهو يطلب نيابة عن والده استدانة عشر ليرات «بعلامة» القميص الأخضر. صوت الجارة أم أنيس وهو يسيل لذة باستعراض فضائح الجيران مع بوران. صوت بكاء الأولاد، الممتزج بقهقهاتهم وهم يلعبون في الزقاق. صوت شجار عبد الفتاح وزوجته. قرع مرقّص الدب على الدف.. صوت أمي وهي تناول المسحّر «السكبة» ليأكل «الذي فيه النصيب». صوت عطر الياسمين المتراوح بين العزف الهادىء المنفرد على العود شتاءً، والسيمفونية الصاخبة صيفاً. صوت الروائح بإيقاعاتها البدائية والمعقدة. صوت أبو سطام وهو يزجر عابر سبيل في «زقاق الياسمين» لأن «عينه تلعب» على ابنة الجار، وابنة الجار كأنها ابنته وكل بنات الحي «عُرضهن من عُرضه»، فكيف يأتي ابن الميدان أو الشاغور أو قبر عاتكة لـ «يتصبَّب»[٢] على بنات الحي ويلعب بحاجبيه لهن؟ صوت الرجال وهم يهمّون بدخول البيت تسبقهم صيحة: «يا الله».. وتركض النسوة وعبد الفتاح يتابع: «خذوا طريق يا حريم».. الصوت الصامت لزرقة دوارق «الأوبالين». صوت زقزقة فناجين القهوة البيضاء الخاصّة بالضيوف والمزيّحة بالكحلي والذهبي. صوت غطرسة منقل النحاس الثقيل على صينيته المطروقة بالحِكَم بخط بديع قديم كأنها آتية من حكايا ألف ليلة وليلة، بل من كهف علي بابا بالذات وقد حملتها مرجانة شخصياً إلينا منذ عصور.. صوت حكواتي «كراكوز وعواظ». صوت ست الحسن بدر البدور التي ما قَبَّل فمها غير أمها وهي تقول للبدر قم لأجلس مطرحك. صوت بومة البيت وهي تروي حكاياها الليلية كلما استفحل أرقها. صوت «دق»[٣] بابور الكاز وبهيجة تسأل الحاجة أين «النكاشة» لتنكشه ويطلع كازه. صوت أختي تدلل طفلها الصبي «نكغ نكغ» وقد ألبسته فستان بنت وردياً وأطالت له شعره ليظنه الحسّاد بنتاً ولا يصيبونه لها بالعين لأنه اسم الله صبي. صوت إغلاق «السفرطاس» على الطعام الحار وذهاب الولد به إلى دكان عبد الفتاح. صوت ضرب السجاد المتدلي من المشرفة[٤]. صوت حكواتي «كراكوز وعواظ» وست الحسن تتبختر بينهما بصمت ضاج. صوت حامل صندوق الفرجة. صوت العود على السطوح في ليالي القمر. صوت قرع المطارق في سوق الحميدية بدكان بوظة بكداش. صوت أبو عفيف الحكواتي المتهدج وهو يروي سيرة عنترة ويتقمّصه في

(١) عصا طويلة ربطت في احدى نهايتيها قطعة قماش لتنظيف السقف.

(٢) يتصبّب: ينظر خلسة.

(٣) حقنه تمهيداً لاشعاله.

(٤) المشرفة: الشرفة الداخلية المطلّة على صحن الدار.

الوغى ويبكي معه فراق الحبيبة بدموع حقيقية ونبكي معه ونصرخ «باطل» حين يُجرح عنترة. صوت صرخة «عباية» حين نعرف أن عسكر السنغال وصلوا لاعتقال أحدنا فنختبىء كلنا. صوت زفة العروس «البيضاء شق اللفت» في حارة الياسمين وهي تتدفق بالألوان والضحكات، وصناديق العزّ العربية المطروقة المحمولة في الممر الروماني الضيق بأقواسه الحجرية المتعاقبة بنسق واحد وقد تآكلت بفعل الزمن كمتحف مفتوح للشمس والريح وأهزوجة «عريس الزيـن يتهنى ويطلب علينا ويتمنى». صوت «العراضة» والهتافات في كل المناسبات. صوت المطر في «الديار». صيحة «يصبحكم بالخير» و «يمسيكم بالخير» و «يا ميْت مسا». دقات الساعة العتيقة وتكّات رقاصها. . هذه كلها وسواها كنت أعرف أنني لن أقدر يوماً على انتزاعها من نفسي أو نسيانها، ستناديني وليس بمقدور دومينيك أن تسمعها كما لم يكن ذلك بمقدور إيڤلين قبلها، وسيأكلني الحنين إلى دمشق يوماً بعد آخر في الظلام مثلما يأكل السوس خزانة خشبية محكمة الإغلاق ويقرضها ليلة بعد أخرى حتى ينخرها. ومثلما حدث لي ذلك من قبل مع إيڤلين سيحدث لي الآن مع دومينيك. . ولا مناص).

تحضر الحاجة لابنها بعض «النقرشة» في صحن ، وكوباً من «العرقسوس»، ثم تتشاغل من جديد عن تنهدات أم كلثوم بمسح الغبار عن الأوراق الخضراء لنباتاتها داخل الغرفة وعلى الشرفة. . تلاحظ أن أمجد ينظر إليها ولا يراها وهو يتأوه طرباً (أيام الدراسة في باريس، كنت أتمدد إلى جانب إيڤلين في الظلام وأنا أرى عبر المسافات تلك الصخرة الشاهقة المدببة في الربوة عند مدخل دمشق وعليها العبارة الأحجية: «اذكريني دائماً»، التي لا يدري أحد من تسلّق الوعر لتسطيرها لحبيبته بالدهان الأحمر، وأحلم بين آنٍ وآخر بأنني أنا الذي يتسلّق تلك الصخرة وأنا الذي يكتب عليها لدمشق: اذكريني دائماً).

تسأل الحاجّة ابنها: هل تريد «معمولة»؟ «تَنَأْرَشْ». . هذا فستق حلبي أخضر.

يتعالى التصفيق من المذياع، ويصفق الجيران على شرفاتهم وتصرخ أصوات: آه يا ثومة!

(آه يا إيڤلين. . .

غسلتني إيڤلين بعسل يسيل من عينيها ومن ذَهَبِ شعرها المكوَّم فوق صدري

العاري. وهمست: أكاد لا أصدق ما يحدث لي يا أمجد. وكيف صرت اليوم أخفي عندي طالباً مسلماً دمشقياً يقاتل ضد بني قومي ويتعلّم عندهم ويشاغب عليهم ويقول إنه يريد تحرير بلده من انتدابنا؟

قلت لها وأنا أنهض وأرتدي ثيابي بعد أشهر محمومة من علاقتنا: لا أريد أن أحرّر نفسي من انتدابك. أُريد فقط تحرير بيتي في الشام كما تريدين تحرير بيتك من أي محتل إذا جاء. أما أنا فأرجوك استعمريني، انهبي خيراتي، فهي لك وتتجدد بك كل يوم.. إنني أحبك.

أدهشني أن أسمع صوتي وأنا أقول لها: «أحبك»، لكنني كنت أعني ما أقوله. أجل أحبها. تلك المرأة الأجنبية التي منحتني نفسها منذ اليوم الأول للقائنا بعد سهرة حافلة التقيتها فيها مصادفة وأرضى غروري فيها أن تترك رفيقها في الحفل، صديقي الثري مطاع المقيم في شقة فاخرة في الـ «إيل سان لوي»، وترضى بمشاركتي فراشي نصف المهترىء وغرفتي الباردة الفقيرة في حي «تولبياك».

صباح اليوم التالي... وآه من صباح اليوم التالي إذ وجدته فجر الحساب، حساب الذات والآخر على ضوء العقل البارد بعدما استهلكت النيران المجنونة ذاتها طوال الليل..

صباح اليوم التالي، فرحت حين استيقظتُ ولم أجدها، بل وأسفت لأن تجربتي الأولى مع جسد المرأة كانت مع عابرة سبيل، وأنا الذي كنت اختزن عذريتي لقصة حب كبيرة. لم أكن أريد أن أصدّق أن قصص الحب الكبيرة يمكن أن تنمو في أماكن غير رومانسية وفي ظروف أليفة وصغيرة ويومية وبلا مقدمات ولا قرع أبواق على مسارح أعدّت ديكوراتها النفسية مقدماً. أجل. صباح اليوم التالي، التقيت مطاع في الجامعة فتحدّث عنها كما يتحدث عن بنت شارع قائلاً إنه مسرور لأنني ذقت طعم عسلها بعدما شبع منه هو وسواه. ولا أدري لماذا شعرت بمرارة في كلماته تشبه الغيرة.

حين التقيتها مساء في كافيتيريا الجامعة دهشت وتساءلت: تراها تطاردني؟ قالت لي إننا نلتقي عادةً كل يوم تقريباً ولكنني لم أكن ألاحظها. وصارحتني بأنها تراقبني منذ مدة وترى في حضوري «جاذبية جنسية خاصة»!

عاملتها بجفاء. لماذا كانت لمطاع قبلي؟! تشاجرت معها بيني وبين نفسي بصمت طفولي: كان عليها ألا تعرف رجلاً قبلي.. أن تنتظرني!!.. سخرت من

نفسي في آنٍ: أيها الشرقي الهزلي! تريد نساء العالم كلهن عذراوات كي تغويهن بنفسك؟ التي تضاجع سواك اسمها «عاهرة». والتي تضاجعك تصير قديسة مثل جان دارك وتُحرَّم على غيرك بعدَكَ وإلا استحقت القتل!

التقيتها من جديد في سهرة أخرى عند مطاع، ولعلّي ذهبت إليه أملاً في أن ألقاها عنده. من جديد سقطتُ مشلول الإرادة تحت الشعاع الذهبي لعينيها واشتقت إلى عسل جسدها. ولم لا؟ قلت لنفسي «ضاجعها يا ولد مثلك مثل غيرك»، ولا مبرّر للكلمات الكبيرة والعواطف الكبيرة. أنتَ مفلس ولا تملك نقوداً لزيارة «محترفة»، فاعتبر ما يحدث لك فرصة من السماء ولا مبرّر للغيرة والتورط و. . و. .

تلك الليلة اصطحبتني إلى بيتها. أسرتني نظافته وأناقته على بساطته وصغره. كما أسرتني برقّتها وعفويتها وصدقها وقدرتها على تحويل فراشها الصغير إلى بركان ما تكاد تتدفق حممه حتى يعود جبلاً مغطى بالغابات العذراء والخضرة المسكونة بالأسرار. وصرت أسيرها، أدمنتها ولم أعد أطيق الابتعاد عن غاباتها ليلة واحدة. قلت لنفسي: إنه إدمان الجنس لمعدم و «عديم ووقع في سلة تين»[(١)]، أنا الذي لم يذهب مرة في دمشق إلى بنت هوى مع الرفاق ليس خوفاً على عذريته بل على سمعته. فقط حين سافرت إيڤلين إلى الريف لترى أسرتها خلال الإجازة ذهبتُ إلى امرأة أخرى أكثر جمالاً حين سنحت لي الفرصة، وحنثت دونما تردد بقسمي لها على الوفاء ولم أستمتع بالأخرى الأجمل منها. . وقتها فقط أدركت أن القضية تجاوزت الإدمان الجسدي إلى ما هو أبعد منه بكثير، وأن الوفاء لدي لم يعد خياراً بل نتيجة محتومة لحب كبير! صرت أحنّ إلى نزهاتنا معاً، إلى حوارنا الفكري أنا وهي وصحبها في مقهى «دو ماغو» في السان جرمان دي بريه أو «الحي اللاتيني» كما يحلو لنا نحن العرب أن ندعو منطقة تقاطع بولفار السان جرمان بالسان ميشيل. نقاشاتنا حول أندريه جيد وبرغسون وأندريه مالرو، وبراعتها في إدارة الحوار وهي طالبة الفلسفة رغم دفعي لحججها (من حيث الشكل) حيث كانت تقهقه بلا لؤم وتقول لي: ها هو المحامي طالب الدكتوراه ينطق الآن ويناقش. حسناً. لقد ربحت الدعوى لكنك هزمت الحقيقة!

يوماً بعد آخر تضاءلت رقعة جسدها في حياتي وانزاحت غشاوة الكبت عن عيني وصار بوسعي أن أراها كإنسانة ند. وليلة قرعت بابها هارباً من الاعتقال،

---

(١) مثل شعبي حول المحروم الذي يغمرونه بما يشتهيه.

أخفتني في بيتها. تأثرت حتى قاعي بنخوتها وكنت أتوهم ذلك وقفاً على الرجال، وعرضتُ عليها الزواج. قالت بجدية كبيرة: «دعني أفكر». امتعضتُ بعض الشيء وقدّرت أنها لم تفهم أية حواجز نفسية كان عليّ أن أقفز من فوقها كي أعرض عليها الزواج. في المساء بدت حزينة وقالت لي بهدوء: أحبك، لكنني لا أريد الزواج منك! لا أريد أن تتزوج مني كتسديد لدين على رجل شرقي نحو امرأة خبأته وأنقذته!

تُراها على حق؟ هل خدشتْ «ذكورتي» بكرمها ونبلها فأحببت أن أردّ الاعتبار لتفوّقي أمام نفسي ولو كان الثمن هو الزواج؟

لا. ذلك غير صحيح. إنني أحبها بالتأكيد ويصير النهار خاوياً بدونها وتترهل الساعات ويخترقني ذلك الألم الغامض شبه المادي في صدري حين نتشاجر أو يطول فراقنا أياماً كلما ذَهَبَتْ لرؤية أسرتها في الريف.

بهدوء مشابه قُلت لها بصدق من يزن كل كلمة: أريد أن أتزوج منك لأنني أحبك وأحترمك.

ـ ولكن مطاع لم يكذب حين حدّثك عن علاقتي الجسدية به وبسواه.

ـ أعرف. ذلك يضايقني ويؤلمني ـ دون أن يكون ضيقي منطقياً ـ لكنه لا يُلغيك من حياتي.

ـ حسناً. إذا فرضنا جدلاً أنني قبلت، هل ترضى بالإقامة معي في باريس والبقاء هنا؟

كان صفاءٌ لا يُصدَّق يغمرني. فقلت لها دونما مواربة: بالتأكيد لا. أريد أن أعود إلى بلدي. لن أكافىء أمي التي تنفق عليّ بالبقاء هنا.. وثمة قضايا حقيقية أكبر من حبي لك تربطني بوطني.

أجابت بهدوء مماثل: وأنا أيضاً. لا أريد ترك حلقتي الحزبية ولا نضالي، ولا أستطيع أن أتحوّل إلى امرأة شرقية تنتظرك في البيت وتتحجب حين تغادره. إنني من طينة حضارية أخرى وأعرف أن حبي لك كبير، ولكن الفلسفة علّمتني أن أنظر إلى جوهر الأشياء ومستقبلها.

فوجئت بأن ما قالته مقنع حقاً. كان على أحدنا أن يتخلّى عن جزء منه ليكون مع الآخر، ولم يكن بيننا من هو على استعداد للتخلّي عن حقيقته. تابعنا سهرتنا كأن هذا الحوار لم يكن، لكن الفراش ازداد تأججاً ليلتها كأنما ظل الفراق يلهب الشهوة. وصارت علاقتنا أكثر حدّة ولهفة وغلياناً، كصلة محكوم بالإعدام بمباهج الحياة،

يريد أن ينهب منها كل ما يستطيع قبل رحيله. وفوجئت بأن أجمل ما في الحب هو أن يكون مستحيلاً إذ يتحرّر من المسؤوليات والتفاصيل ويصير أكبر من التفاصيل وله طعم المطلق. لم نتعاهد على الزواج، بل تعاهدنا على ما هو أجمل منه وأكبر: الفراق).

صرخ أمجد: آه يا ثومة. آه يا ثومة!

حين نام أمجد تلك الليلة في الرابعة فجراً كان لا يزال يرتّب الكلمات التي يجب أن تُقال حين يعلن لدومينيك أنه يحبها. لكنه الفراق! رتَّب ديباجة تشبه مرافعة أمام «محكمة الحب» تبدأ بوصفه لحسنها، ثم لغرامه الكبير بها، ثم لألمه لفراقها الشبيه بـ «بروڤة» موت، فالفراق موت صغير، وسيؤكّد لها دون أن يكذب أنه سيموت قليلاً لفراقه عنها، ثم سيقول لها وداعاً.

لن يقول لها إنه سينسى ذات يوم كما نسي من قبل، وإن الحب الكبير هو الحب الأخير..

وحين التقيا في اليوم التالي اكتفى بعبارة: وداعاً!

* * *

(لا أجرؤ...

لا أجرؤ على أن أتحرك خطوة إلى الأمام أو إلى الوراء أو إلى اليمين أو إلى اليسار. أشعر أن الخطى كلها تقود إلى فخ.. مصيدة فئران في كل اتجاه، وها أنا واقف في منتصفها مثل فأر مذعور).

الحر خانق.. خانق.. و «القبو» الذي يقطنه ريمون ملشية يتقن التحوّل إلى فرن صيفاً وإلى براد شتاءً (نسائم الصيف الندية حكر على بعض الناس.. على أبو فاروق الربادي وأمثاله.. لهم السيارات التي تحملهم إلى الغوطة وبلودان والزبداني وصلنفة، والطائرات التي تقلع بهم إلى باريس.. ولي ولأسرتي الكبيرة الشقاء منذ «قصوا» بيتنا العتيق وهدموه لشق طريق و «خمّنوا» ثمنه بربع قيمته ودفعوا لنا تعويضاً لا يكفي لشراء مسكن لنملة.. وكان لا مفر من الانضمام إلى سكان الأقبية في المباني الجديدة، وفوق رأسي يعيش سبعة رجال مع أسرهم في سبعة طوابق لها نوافذ تنفتح على شرفات تخصّهم بضوء القمر والهواء النظيف وأنا مدفون وأسرتي هكذا حياً.. أمي وأبي وسبعة أخوة وأخوات، صغيرهم كان ينام قربي في السرير الحديدي الصديء حتى زواجي وريثما صار يتسلل إليه طفلي. وعبثاً أحاول وأبي تبديل هذا

الواقع المرير.. وكل ضوء يلوح يصير سراباً).

كان ريمون قد رجع من اجتماع عُقد في البيت الجديد للرفيق مرعي وقد أدهشته فخامته. فمن أين لمرعي ذلك البذخ وراتبه يكاد لا يكفي لسد الرمق؟ بدأت تتكشف لعينَيْ ريمون أمور ما كانت لتخطر له ببال (لقد باعنا مرعي ولم يعد النضال النقابي يعني له شيئاً. ولعله صار جاسوساً لـ «سيدنا».. كلهم يبيعنا.. وإذا لم أتعلّم كيف أبيع نفسي بالمفرق واستفيد، فسأُباع بالجملة كالخروف.. ولا خيار آخر لي.. لا بارقة ضوء في هذا الظلام المروع!).

تشخر نينا. توقظه من أفكاره.. يتأملها مذهولاً.. (كم تبدّلت نينا منذ زواجنا قبل أربعة أعوام.. كل ما حولي يتبدل.. كانت رشيقة كغزالة وها هي الآن كتلة من البياض المتورم.. استسلمتُ لإرادة أهلي بعدما تزوجت ابنة عمي الثرية ولم تنتظرني، وتزوجتُ منها هرباً من حبي لفهيمة، ولا أدري الآن كيف أغادر ورطتي.. لقد استحوذت نينا منذ البداية على قلب أسرتي، وخسرتني.. تابعت في بيتنا ما كانت تفعله في بيت والدها، عمل شاق من الصباح إلى المساء، فرفعت كاهل الهموم والأعباء المنزلية عن أمي وأخوتي وصار البيت نظيفاً والطعام شهياً والثياب مكوية، وأنجبت لي طفلاً، ولكنها لم تنصت مرة لهمومي وهواجسي.. إنها تسلمني جسدها كعاملة متعبة تريد إنجاز أثقل المهمات على قلبها بأسرع ما يُمكن لتتفرغ للنوم!. يا إلهي كيف ألومها وأنا الذي أعرف طعم التعب؟ وكيف ألوم نفسي وأنا الذي عرفت طعم أن تنصت المرأة لهمومي وتحاورني وتتعاطف معي؟ فريم، عاملة الهاتف النحيلة عادية الجمال المتعلّمة، تفهم هواجسي ومأساتي مع عملي وكفاحي النقابي، وتنصت لي دون أن تتثاءب. لم تكن تعرف أنني متزوج، وكان من المفترض أنني ذاهب إليها تلبية لدعوتها لي للسهرة.. فوجئت بها وحيدة في البيت: لقد اضطرت أمها الأرملة للذهاب إلى المستشفى لطارىء ألمّ بخالها، وتخلّفت ريم من أجلي.. ساعات من الحوار المسروق على باب المعمل، وفي الطريق إلى الباص، وها هي للمرة الأولى تأخذ رأسي إلى صدرها، وتضمه بحنان لم أعرفه من قبل وهي تهمس: يا ريمون المسكين المطحون!.. وللمرة الأولى شعرت بأنني لست مضطراً للتظاهر بأنني شمشون الجبار أو نجم الشاشة لتحبني امرأة.. وأجشهت واعترفت لها بأنني متزوج، ولم تطردني.. قالت إن ما يربطنا ربما كان أكبر من الزواج وأصغر من الحب لكنه لا ينكسر بسهولة).

علا شخير نينا فحدّق فيها مذعوراً.. وتذكّر المرة الأولى التي شاهدها فيها

ونصحه والداه بالزواج منها. كانت تتحرك في الغوطة كالنسيم بين الأشجار، جميلة كالخرافة وشفّافة كالوهم المستحيل.. فكيف تحوّلت إلى تلك المرأة القوية النشيطة والمتسلطة في آنٍ، والتي صارت تنظر إليه ولا تراه منذ علّمها رعشات الجسد الأولى ونقلها إلى الأمومة، فغرقت فيها ولم تعد ترى شيئاً آخر.. يشعر أنه لم يكن أكثر من عتبة في حياتها لتتحوّل إلى أم.. أم الصبي.. وقد ألغته بعد ذلك من تلك الحياة متفرغة لمباهج أن تكون أماً (كيف ألومها وهي التي أعطت ما حلم به أهلي؟ إنني ببساطة أحب ريم، وأحاول أن أخترع لنينا ذنوباً وهمية كي أجد لنفسي المبررات لخيانتها. كنت أعرف أنني لم أتزوج من امرأة متعلّمة، فكيف أطالبها بمزايا المتعلّمة والجاهلة في آنٍ؟ هل ترضى ريم بالحياة التي تعيشها نينا؟ عمل شاق من الصباح حتى آخر الليل، خادمة لأسرتي كلها؟ وماذا في أن تشخر؟ وأنا، ألا أشخر حين أعود من عملي متعباً؟ لماذا لا أعترف ببساطة أنني أريد أن تكون لي عشيقة، وأغار من مرعي لأنه تعلّم كيف يرتشي، ويُنظِّر لذلك أيضاً وصار قادراً على الزواج من امرأتين وما ملكت أيمانه، وأنا ما زلت حائراً بين زوجة وحبيبة؟).

بدأ طفلهما يبكي.. لم تستيقظ نينا بسرعة. حسدها. نهضت دون أن تفتح عينيها، وألقمته ثديها الذي تورّم وترهل.. تأمله ريمون بذهول (كل شيء يتورّم ويترهل كثديها. يوم طلبوا منا البقاء في البيت بعد الاستقلال من أجل إحصاء عدد السكان، ظننتهم سيحصون الأفواه المفتوحة الجائعة التي يجب إطعامها.. وإذا بهم يحصون الخرفان الجاهزة للبيع والسلخ.. ولم تتبدل حالنا كثيراً بعد الاستقلال فقد ذهب الغريب وظل الفقر في بيتنا.. كل شيء يتورّم ويترهل كثديها.. كل شيء يبدأ مثله شامخاً حياً متأججاً، ثم يتساقط.

يوم سمعت عبارة «بلاغ رقم ١» استبشرت خيراً وقلت لنفسي: ستتبدل الأحوال ويأتي الفرج ما دام هذا الرجل يتحدّث باسم الشعب.. ولم نرَ من خيره إلا صورته على باب المصنع.. وحين سمعت الضابط الثاني يعلن «بلاغ رقم ١» قلت جاء من يصلح الأحوال.. ولم يتبدّل شيء.. لكننا بدّلنا الصورة على باب المصنع.. وجاء الثالث معلناً «بلاغ رقم ١»، فبدّلنا الصورة أيضاً، ولم أفاجأ يوم اعتقلتُ بلا مذكرة توقيف وتمّ نقلي إلى مكان مجهول وتولى التحقيق معي «زعران» مجهولون، وهدّدوني بالقتل ثم أخرجوني من السجن لأتولى إسكات أصحابي العمال وتهدئتهم كي لا يترحم أحد منهم على الزمان الماضي علناً، أيام كان القانون إمكانية غير ملغاة، وحق العواء مضموناً للكلاب والبشر على السواء.. وحدنا انكسر

جانحنا، أما سيدنا أبو فاروق الربادي فلم يتبدل شيء في حياته، كأن الضباط الثلاثة حسني الزعيم والحناوي والشيشكلي[1]، الذي فرحت بسقوطه، كانوا رؤساء في ورشاته.. وموظفين عنده.. وهو موظف عند من؟

كل شيء يتورّم ويترهل.. مرعي أيضاً، زميلي في المصنع يترهل.. نقلوه إلى غرفة خاصة بعيداً عن آلة البخار. وصار صلة الوصل بيننا والإدارة.. وصار له كرش.. وزوجة ثانية. واكتشفت أن أبو فاروق الربادي هو أحد الشركاء في معمل الكبريت الذي سبق أن طُردت منه وفي معامل «السداسيين» أيضاً وله ذراع في كل ناحية كالأخطبوط مثل بقية الشركاء في معامل «السداسيين». وكنا قد توهمنا أنه آوانا حين ثرنا على مدير معمل الكبريت وطردنا إلى البطالة.. كان ببساطة يتابع لُعْبَة معنا بالجزرة والعصا، ويريد استيعابنا، وكان مرعي جاسوساً صغيراً له في البداية فصار جاسوساً كبيراً مع التوسيع الأول للمصنع.. وحين قلت له ذلك ليلة البارحة في الاجتماع سخر مني وفسّر للرفاق نظريته الحزبية مدعياً أن التكتيك غير الاستراتيجية وأنني لا أفهم شيئاً.. وأنا بالفعل لم أفهم شيئاً مما قاله لكنني ما زلت قادراً على التمييز بين القميص النظيف والوسخ، وبين الحياكة بخيط خالص أو مغشوش).

عاد الطفل إلى نومه، وجهد ريمون كي يصير تنفسه هادئاً حتى لا تلاحظ نينا أنه صاحٍ.. إنه بحاجة إلى أن يخلو إلى نفسه في هذا البيت في غير المرحاض!. يهبط داخل ذاته على السلّم العتيق الموسّخ، حتى يصل إلى القاع ويتكوم على جسده كما كان يفعل في ركن السجن ليفكّر بهدوء في «جوهر القضية».. هل ينضم إلى مرعي ويرتاح، أم يتابع مسيرة الفقر والظلام وأوهام الصبا: تحرير الفقراء والمعذبين من أمثاله؟.. ولكن جرعات الأوهام لم تعد قادرة على تخديره.. قادرة؟ غير قادرة؟... نعم. لا. عليه أن يفكر جيداً.. يفكر.. يفكر بماذا في هذا الحر الخانق؟ **(سأفكر فقط بالجنازة الليلية للمعلبين من أمثالي بتوابيت الحر والأقبية المحرومة من الأوكسجين)**.. يفكر بماذا؟.. وراح في إغفاءة شبيهة بالحمى، ولم يشعر بالصرصار الذي ركض على وجهه ولا بالبقة التي عضته في عنقه.. وامتزج شخيره بشخير زوجته.

***

فوجيء أمجد الخيّال بريمون ملشيّة وهو يترصّده على سكة القطار في

(١) في شباط ١٩٥٤، سقط الشيشكلي وانتهى حكمه.

الريحانية. أدرك أنه رغم مرور السنين ما زال ريمون خجلاً من فهيمة التي هرب يوم جاء يخطبها واكتشف أنها خادمة، ولم يجرؤ بالتالي على زيارته في البيت كي لا تراه وتبصق في وجهه! لم يلمه أمجد الخيّال. لقد علّمه الزمن الحنان على الضعف البشري، ربما ليبرّر لنفسه ضعفه هو أيضاً.

قال له ريمون كعادته بلا مقدمات، وبأسلوبه المباشر الذي يريح أمجد المحامي العائم في بحار من الديباجات: أنا بحاجة إلى مساعدتك.

ـ ماذا حدث؟

ـ لم يحدث بعد، لكنه سيحدث. أبو فاروق الربادي، صاحب المدبغة يريد توسيعها أكثر وتحويلها إلى معمل ضخم، وقد شارك رجال الشركة «السداسية» في ذلك بزيادة رأس المال ودخولهم معه كشركاء مباشرين.

ـ وماذا يضايقك في توسيع المدبغة؟

ـ يضايقني قطع رزق الفلاحين أصحاب الأراضي المجاورة الذين سيسقون محاصيلهم مياهاً ملوثة ببقايا الكيماويات والأصباغ التي ستتضاعف عشرات المرات ونحن نرمي بها في بردى.. هذه النفايات الكيماوية ستقتل محاصيلهم ومواشيهم وتلوّث مياه شربهم. سيتوسخ النهر، وستحرق المواد التي أسكبها بنفسي على الجلود محاصيلهم. ستفوح الرائحة الكريهة ولن يعود بوسعك المجيء إلى مزرعتك بلا قناع ضد الغازات السامة. لن يصيب الأذى أهالي الريحانية وحدهم بل الناس على امتداد النهر ولو بدرجة أقلّ.

قال أمجد بتجرُّد وهو يضرب بقدمه حصاة تحت شجرة الجوز القريبة من سكة القطار ويتأمل البغل العابر ذا الفم المعوج: اختناقي أو تنفسي قضية شخصية، أحلّها بنفسي مع أبو فاروق الربادي الذي أعرفه شخصياً. فماذا تريد مني أنت؟

ـ أريد منك أن تدافع عن الفلاحين المساكين الذين سينقطع رزقهم إذا وسّع أبو فاروق مدبغته أكثر مما هي عليه الآن. أريد أن تدافع عن النهر والناس. لقد استطاع أبو فاروق بالرشوة وبصداقاته مع بعض أزلام الشيشكلي الحصول على ترخيص، ويجب فضحه أمام الرأي العام ليتراجع.. والدعوى خير سبيل إلى ذلك.

ـ حسناً. القضية كبيرة جداً وأنا معك لأنها أيضاً عادلة. قلْ للفلاحين إنني مستعد لإقامة الدعوى باسمهم على أبو فاروق الربادي مطالباً إياه بعطل وضرر لهم إذا رفض التراجع عن مشروعه، وسأذهب للقائه غداً لأفاتحه بالأمر، فقد يعدل من

تلقاء نفسه. أجل. سأذهب أولاً وأكلمه بالحسنى. فأنا أريد أن تأكلوا العنب لا أن تقتلوا الناطور.

* * *

تلقّى ريمون ملشيّة دعوة للعشاء عند صاحب المدبغة، والشريك في الشركة «السداسية» الثري أبو فاروق الربادي. حدس أن «صديقه» مرعي أخبر «سيدنا» بالصلة بينه وبين فلاحي الوادي، وها هو يريد الآن كسبه إلى جانبه.

قرَّر أن يذهب.. فقد كانت الليلة السابقة حارّة في القبو الذي يقطنه أكثر مما ينبغي حتى لرجل نزيه، والصراصير عربدت فوق وجهه أكثر مما يطاق حتى لرجل ينام جيداً. شعر أنه مفتوح على الاحتمالات كلها ولا مبرر للمواربة، وببعض المال الإضافي سيصير بوسعه الهرب من هذا الأتون إلى بيت برئة تتنفس الأوكسجين وضوء القمر والأذرع البضّة لبنات «العائلات» على الشرفات وقد تدلت منها ثياب حريرية أنيقة مائلة إلى البياض الناصع.

(باختصار تعبت. أأنا العاشق الوحيد لتلقى تبعات الهوى على كتفيَّ؟.. مالي وللفلاحين والدعاوى؟ ولماذا لا أريح وأستريح؟ لماذا لا يصير لي بيت كبيت مرعي وكرش ككرشه؟ لأنني ببساطة لا أقدر. لا أدري لماذا ولكنني لا أقدر. بلى أقدر. لا أقدر. لا. نعم. لا. نعم. حسناً سأذهب غداً منفتحاً على الاحتمالات كلها بما في ذلك الرشوة. كلهم يفعلها، ولستُ قديساً. لقد ارتفعت أسعاري لصلتي بالفلاحين، وكلهم يتوهم أن سكوتي قد يجعلهم يتراجعون، فهم بلا حليف في وجه الزمان وسيصير بوسعي المحافظة على زوجتي وعشيقتي في آنٍ ككل الميسورين. سأجد المرأة المناسبة في المكان المناسب والمال المناسب لكل موقع ومقال. الرشوة؟ نعم الرشوة. أفضّل هذا الاسم على الأسماء المهذبة كلها لها.. ما الاسم الذي أستطيع أن أطلقه على تبديل الخريطة الهندسية للهدم في «زقاق الياسمين» بحيث لا تطال البيت الكبير لآل الخيّال،وهو تبديل نجا به البيت من «القص» بفضل نفوذ أمجد بيك كما أسرّ لي أحد أصدقائي الموظفين هناك قائلاً إن الخيّال استطاع بنفوذه وصداقاته حماية بيته. وماذا عن بيتنا؟ لم يكن أقلّ عراقة، ومع ذلك هدموه وبقي بيت الخيّال. أحب أمجد بيك لكنني أراه أيضاً بوضوح، وحينما «يجدّ الجدّ»، يحاول أن يستولي كل واحد على طوق النجاة الوحيد فوق السفينة. ربما كان صديقي هذا كاذباً. ربما كان المهندس قد عدّل خريطة الهدم لأسباب أخرى. إلا أن ذلك لا ينفي أنه في حال غرق السفينة لا بدّ لكل واحد من الاستيلاء على أقرب طوق نجاة.. وأنا تعبت من

الغرق في الحر وركض الصراصير على وجهي وصراخ الأطفال ولسعات الذباب والبعوض الليلي).

ارتدى ريمون أكثر ثيابه أناقة، ولأن الشمس كانت ساطعة وقت الغروب لاحظ كم أضحت بزّته الكحلية عتيقة اصفرت أطراف أكمامها قليلاً، أم أنها الشمس وأوهامه؟

حمد الله لأنه مدعو على العشاء ولن يلاحظ أحد هذه التفاصيل الصغيرة على ضوء الكهرباء وإن كان هو يراها بوضوح كعامل مدبغة.

أنهكته ليالي الحر الماضية، وبكاء طفله، و« نق» زوجته التي لم يصطحبها من زمان إلى سيران حتى صارت عبارة «سيران الغوطة» مشروع شجار، كما أرهقه تبرم ريم بعلاقتهما بعدما فشل في اقتصاد بعض المال لشراء هدية لها تلهب عواطفها كما لاحظ بأسى، وبدون الهدية لا أغنية ولا أنشودة هوى. .

اتجه صوب بيت أبو فاروق الربادي وكلمة «نعم» مرتسمة على شفتيه سلفاً بلا قيد ولا شرط. تذكّر أنه مرة فكّر جدياً بالزواج من خادمة اسمها فهيمة، فبصق على الرصيف بلا تحفظ!

انحدر صوب جسر فيكتوريا في طريقه إلى «الحلبوني» حيث بيت أبو فاروق الربادي، وقد بدأت الظلمة تهزم آخر خيوط الغسق، وأنفاس الصيف تفوح من الأرصفة المرشوشة بالماء. . والأقذار. أجل سيستسلم فقد تعب (ليتني لم أذهب إلى أمجد الخيّال وأطلب منه الدفاع عن الفلاحين. إذا علم الربادي بالأمر سأنكر معرفتي بالخيّال. وماذا لو عرف الحقيقة؟ قد يكون ذلك «في صالحي» وخيانتي لأمجد سترفع من أسعاري كوغد.

كلٌ لنفسه في السفينة الغارقة. كلٌ لنفسه. . وبلدنا صار سفينة غارقة، و «يا ربي نفسي». لا أحد لي وأنا لنفسي. الوطن ليس لي وبالتالي أنا لنفسي. مرعي ليس لي وأنا لنفسي. الحزب، حتى الحزب ليس حقاً لي أو هكذا يخيّل إليَّ. . أنا له وهو ليس لي ولا لمبادئه. . أستغفر الرب عن هذا الهراء عن حزبي. ولكن حزبي لا يؤمن بالرب). قهقه كثمل ومشى على جسر فيكتوريا (يا غافل لك الله. يا بردى لك الله. ها أنت تركض آمناً هانئاً، جاهلاً بما ندبره لك من الأصبغة والكيماويات!).

شاهد ريمون سيدة حاملاً تبدو منهكة تمشي أمامه وتمسك بيدها طفلاً في الثامنة من عمره. أفلت الصبي من يدها وتسلق حافة الجسر كالقرد وراح يمشي على

الحافة. ركضت خلفه مذعورة تصرخ وحاولت الإمساك به كي لا يسقط في النهر. ابتعد عنها الطفل كي لا تمسك به. سقط في النهر. حدث الأمر كله بسرعة مثل فيلم رسوم متحركة. بعفوية هرع ريمون لنجدته، والمرأة تصرخ متحجرة في مكانها: «دخيلك.. لا أعرف السباحة.. دخيلك!». ونسي ريمون بزته والسهرة عند أبو فاروق الربادي والمال الذي كان سيربحه لقاء التحوّل إلى «زلمة» له والانتقال من القبو إلى «الطابق الراجع»[1] رائع التهوية ومنظر القمر منه، ولم يعِ إلا وهو يقفز عن حافة الجسر إلى النهر لإنقاذ حياة الطفل الغارق. حين غادر الماء والصبي الناجي بين ذراعيه، كان مبتلاً وقذراً وأعشاب النهر الموسخ تغطي حاجبيه وشعره وتتدلى على وجهه ومن ثيابه. وأخذ يقهقه وهو يتخيّل نفسه داخلاً هكذا إلى بيت الربادي والماء القذر يسيل من حذائه على السجاد الفاخر، والطفل بين ذراعيه ميتاً من التسمّم بنفايات النهر الكيماوية لا من الغرق.

أدرك ريمون أنه لن يذهب إلى العشاء عند أبو فاروق الربادي لا الليلة ولا أية ليلة أخرى.

حين شكرته المرأة وهي تقبّل يديه لإنقاذه حياة ابنها قال لها بجدية: بل أنا الذي أشكر طفلك، فهو الذي أنقذ حياتي..

ولم تفهم ما الذي يعنيه!

* * *

قالت فالحة قشلان لزين وهما تمشيان في طريق الصالحية صوب المدرسة: لماذا لا تنضمين إلينا في الحزب السوري القومي؟ سورية هي الأصل وأنت سورية فلمَ لا؟

كانت فالحة في الخامسة عشرة من عمرها لا تلقي بالاً إلى «الصبيان» في طريق الصالحية وتكبر زين بعام ونيف.

أضافت آمال المسالمة وكانت ترافق فالحة: خذي هذه الكراسات. طالعيها ليلاً في البيت وسنتحدث حول ذلك غداً.

قلبت زين شفتها استنكاراً. كأن دروسها لا تكفيها وامتحان شهادة «البروفيه» بعد أسبوع. وعليها أن تطالع المزيد؟ كانت زين ترتعد ذعراً لفكرة الامتحان، بعدما فازت قبل أعوام بالدرجة الأولى في الشهادة الابتدائية (السرتفيكا)، ولا تريد أن

(١) الطابق الأعلى الموصول بشرفة السطح.

تخيّب أمل والدها فيها هذه المرة أيضاً. وإكراماً له «نطّت» صفاً وأنجزت «الصفّين الثامن والتاسع» في سنة واحدة[1].

وأضافت المسالمة ومعها قشلان: حذار من أن يراها والدك. يجب أن تظل هذه سراً بيننا. استيقظ فضول زين وتوهجت حواسها. سر؟ أوراق يجب أن لا يطلع عليها والدها؟ شعرت بأهميتها وقررت أن تطالعها قبل «المذاكرة» للامتحان! لاحظت فالحة اهتمامها المفاجيء فأضافت: أمك من الساحل السوري وأنت أميرة فينيقية، فكيف لا تنضمين إلينا؟

في اليوم التالي قالت لها غزوة وهما في الطريق إلى المدرسة: أنت شامية أباً عن جد، وأصل جدك من الجزيرة العربية كما رويتِ لي، وتعرفين من أسرتك أنك عربية من أمة عربية واحدة، فلمَ لا تنضمين إلينا؟ خذي هذه الكراسات وطالعيها سراً عن والدك.

في اليوم الثالث قالت لها نداوة البرزة وهما في الطريق إلى المدرسة: أسرتك تعرف طعم الفقر، ووالدك جاع في فرنسا أيام الدراسة كما روى لي شقيقي، وجدّتك عملت خيّاطة لتعيله، فلمَ لا تخونين جدك الإقطاعي والد أمك وتنحازين إلى ما يمثله والدك وإلى الشعب وإلى حزبنا؟ وحياة الله وقسماً بالله العظيم ماركس هو الأصل! خذي هذه الكراسات وطالعيها.

ـ ولكن. . الامتحانات يا نداوة؟

ـ هل ترضين بأن تقبل سورية «مشروع جونستون» وتصير عبدة لأميركا تعطي مياهها لإسرائيل بناء على أوامرها؟ هل ترضين بأن تنضم إلى حلف يدبر في الخفاء تحت اسم حلف بغداد لتصير عبدة لبريطانيا؟ بالتأكيد لا. الاتحاد السوفياتي يريد مساعدتنا.

سألتها زين بسذاجتها السياسية: لوجه الله تريد «روسيا» مساعدتنا؟

ـ لوجه الفقراء. كل فقير في الدنيا يقف الاتحاد السوفياتي معه. علينا أن نتحد وليس ثمة ما نفقده غير قيودنا.

ـ ثمة ما نفقده حقاً وهو علامات الامتحانات.

ـ يا لك من «بورجوازية» تهتم بالسفاسف!

بورجوازية؟ لم تفهم زين معنى الكلمة، لكنها أعجبت بموسيقاها! أخذت

---

(١) كانت الشهادة المتوسطة «البروفيه» في الصف التاسع في ذلك الزمان.

الكراسات التي أعطتها إياها نداوة أيضاً بعدما أوصتها بقراءتها سراً عن والدها!

في اليوم السابع قالت لها براءة حبنكاني بوجهها الجميل الملائكي والحجاب النظيف يحيط به كإطار للوحة بديعة: هل يمكن أن تصدِّقي أن أصلي وأصلك قرد؟

قالت زين: نعم حين أنظر في المرأة، وليس حين أنظر في وجهك!

ضحكت براءة وأضافت: تعالي معي عند الشيخ وستتولى زوجاته الثلاث تعليمك أصول دينك.

ـ لست بحاجة إليهن فجدتي علّمتني ما يلزم كما علّمتها جدتها. . .

قالت براءة: الشيخ هو الأصل.

ـ الإيمان هو الأصل أما أنت يا براءة فسينتهي بك الأمر زوجة رابعة للشيخ!

ناولت براءة زين كتاباً وقالت لها: خذي كتاب الله وطالعيه بهدوء في البيت.

تناولته منها زين وقبّلته ووضعته على رأسها ثم أعادته إليها وهي تقول: أعرفه عن ظهر قلب منذ طفولتي، فلا تبيعي الماء في حارة السقايين ولا تحاولي إقناعي بأن شيخك يفهم بالضرورة أكثر من جدتي أو مني لأنه رجل. قولي له عن لساني إنني سأطلب حق العصمة بيدي وأُطلّق زوجي إذا تجرأ وفكّر بالزواج من ثانية مثله!

ـ من أين سمعت بحق العصمة؟ هذا «مكروه».

ـ لا. ليس مكروهاً، بل شيخك الذي قال لك ذلك «كريه».

ـ من أين تعلمت هذا الكلام كله؟

ـ مما سمعت في ندوة أدبية في «منتدى سكينة» ألقت فيها فيحاء قصائد لفدوى طوقان أحلى من شعر ألقاه شفيق جبري[1] الذي طالما زرته في بلودان وأحببت قصائده التي يقرأها لأبي.

ـ والحجاب يا زين؟

ـ أنا مع السفور، وأنت حرة بحجابك. ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ـ ما الفرق بينك وبين أنطوانيت؟

ـ أنطوانيت قد تكون أفضل مني ومنك، و «كل مين على دينه الله يعينه». فلا تقولي لي «كاني ماني دكاني»[2].

* * *

---

(١) شفيق جبري: أستاذ في كلية الآداب آنذاك.

(٢) «كاني ماني دكاني»: لا تتذمري.

بدت ماوية في ثيابها السوداء ورأسها المطرق إلى الأرض ومشيتها المثقلة كمن يمشي في جنازة (أرى بعينيّ جنازة أمية إذا تم هذا الزواج المروع مع ابن الطرفندي المغرم بها منذ أكثر من عامين وأنا أرفض زواجهما). قررت أن تمشي من حارة الياسمين حتى بيت فيحاء في آخر خط المهاجرين (لا أجد شخصاً آخر أبوح له بهمّي ويستطيع أن يفهم ما أعنيه). تعبت حين بلغت بوابة الصالحية فبدّلت رأيها وقررت أن تستقل «الترامواي».

(ها قد بدأتُ أهرم دون أن أعيش من عمري كله يوماً واحداً. في البداية عشت الانتظار، وحين وقع الحدث الأعظم، زواجي، جاءت ليلة الدخلة: أوجاع وخيبة أمل ورجل تحوّل في غمضة عين من عنتر زمانه فوق جسدي إلى كتلة لحمية تغفو وتشخر بعدها بفظاظة لا صلة لها بالرجل الذي مدحه الناس لإخوتي، و «كل واحد مختبىء داخل ثيابه»، ولا تمكن معرفة الرجل دون حد أدنى من الاحتكاك اليومي. أدركت ذلك بعد فوات الأوان إذ بعدها بأيام بدأ زوجي الأستاذ الجامعي المحترم يضربني وتعرّفت عليه من الداخل: «حِلِسْ مِلِسْ نِجِسْ»[١]. لطيف أمام الناس، ووحش في الخلوة. كان زوجي شبيهاً بصفوح الطرفندي: لا ينقصه شيء. وبعد الزواج تبين لي أن كل شيء ينقصه إلا المال والقسوة. أمية ـ كما هاني ـ ضوء عمري، فكيف أترك والدها يزوّجها وهي لا تزال طفلة من رجل لا تعرفه لمجرد أن الناس قرّروا أنه «تحفة زمانه»؟ بوران تزجرني باستمرار: «ليست صغيرة. كلنا تزوّجنا في هذه السن». نعم. هذا صحيح. ولكن هل بيننا من هي سعيدة حقاً باستثناء فيحاء التي تعمل كزوجها و«لها كلمة في البيت» وليس بوسع زوجها أن يضربها أو يقهرها وإلا طلّقته فالعصمة في يدها؟ لم أجرؤ على أن أقول شيئاً لمطلّقي الذي طار فرحاً بالعريس اللقطة وقرر تزويجها منه. هي طفلة سعيدة لا تعرف ما تقترفه. وأنا جبانة، لا أريد أن تتزوج الآن، ليس قبل أن تتعلّم مثل فيحاء كي لا تداس مثلي، سواء كان الحذاء الذي يدوسها لفقير أو لغني أو لمتعلّم، فذل النعل واحد، وملمسه على الخد المداس واحد.

لم أجرؤ على مفاتحة أخي أمجد بشيء. لم أجرؤ على أن أقول كلمة واحدة. لكنه فيما يبدو كان يحدس بعذاباتي إذ قال لي: «هذا زواج لا نستطيع منعه ما دام والدها يريده. وبالتالي من الأفضل أن نوافق لنظل قريبين من البنت وتتم الأمور بدون قطيعة». وها أنا الآن ذاهبة لـ «فش قلبي» وشكاية همي إلى ابنة أخي فيحاء. لا أدري

(١) مثلٌ يُقال عن أصحاب المظهر الناعم والسلوك الأفعواني.

لماذا تزيدني الأيام قرباً من هذه «البنت» التي طالما ساهمتُ في التندر عليها والسخرية منها. لعلّي ذاهبة إليها لأنني لا أعرف بالضبط ما يقلقني على أمية ولا ما يتعيَّن عليَّ قوله لأعبّر عن مشاعري. كل ما في الأمر أن قلبي منقبض من هذه الزيجة وأن مطلقي مصرٌّ عليها).

هبطت ماوية من الترام قبل آخر خط المهاجرين بمحطة واحدة. فاحت في الشارع رائحة الأشجار الراقصة ألواناً وعطوراً في ربيع كانت لاهية عنه. بدأت تتسلق في قاسيون درباً ترابية عريضة لم تعبَّد بعد، صعوداً إلى بيت فيحاء (**لقد «قلبت لي عقلاتي»[1] هي وهند قبلها. ولم أعد أعرف من أنا وأين أنا وماذا أريد، وما هو الخير لأميّة. فالزواج حتى من ابن الطرفندي، «بطيخة مسكرة»[2] في النهاية، ولا أحد يعرف ما فيها**).

حين طالعها بيت فيحاء في أعلى الدرب شعرت بالخوف والرغبة في التراجع وقرّرت العودة من حيث أتت، وأدركت أنها عاجزة حتى عن البوح والشكوى بما يعذّبها (**هذه أنا. دوماً مستسلمة وساكتة ولا أعرف كيف أقول لا، وأدفع الثمن غالياً وأميّة ستدفع هذه المرة ثمن جبني**).

استدارت لتعود من حيث أتت فكادت تصطدم بعربة بائع الخضار المتجوّل وتقلب له «الكراجة» بكل ما عليها. ابتعدت عن طريقه كي يمرّ، وفوجئت به وهو يجرّ عربته بيد وقد استند بيده الأخرى إلى عكاز متدلية من تحت إبطه، وهو يقفز على رجل واحدة لامبالياً بساقه المقطوعة. أذهلها إصراره على أن يجر عربته صعوداً وينادي على بضاعته. تأملته طويلاً ثم لحقت به وقد انفجر شيء داخل صدرها. ظلّت تلحق به حتى وصولها إلى بيت فيحاء حيث تسلّقت السلم وهي تقفز كل درجتين بخطوة ورنّت الجرس بإصرار.

* * *

في الندوة عن «تحرير المرأة» التي يلقيها مُطلّق ماوية في النادي العربي كما قرأت عنها فيحاء في إحدى الصحف، احتلّت وزميلاتها المعلّمات الصف الثالث، وتركن الصف الأول لرؤساء تحرير الصحف والعمداء والأساتذة.

حين أنهى الرجل محاضرته، نهضت فيحاء بقامتها الفارعة متجاهلة انه الزوج السابق لعمتها وسألته بلغة عربية فصيحة: نستنتج مما قلت أنك تُحبِّذ تنمية إنسانية

(١) «قلب لي عقلاتي»: شوش لي عقلي.

(٢) «بطيخة مسكرة»: مغلقة.

المرأة عبر العلم والعمل، وقد استنتجنا من ذلك أنك لست من أنصار الزواج المبكر جداً، في سن الخامسة عشرة مثلاً، وتفضّل تعليم البنت ريثما يتنامى وعيها.

أجاب نصف متلعثم: هذا صحيح، ولكن. . .

قاطعته فيحاء قبل أن يستثني حالة ابنته، والتفتت إلى الحضور وقالت بصوتها الجهوري: يشرّفني أن أخبركم أن الدكتور المحاضر ليس من فئة الازدواجيين الذين يقولون ما لا يضمرون. وكقريبة له أُعلمكم بأنه رفض عريساً شاباً ممتازاً بالمقاييس التقليدية السائدة جاء يخطب ابنته لمجرد أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، وهو يريدها أن تتعلم حتى «البكالوريا» قبل الزواج.

فتح الدكتور المحاضر مُطلّق ماوية فمه مذهولاً وغاضباً. وقبل أن يقول شيئاً، بدأت فيحاء بالتصفيق له وشاركتها المعلمات اللواتي رافقنها إلى الندوة، وصفقن بشدة كما كانت قد أوصتهن وتبعهن رؤساء تحرير الصحف وزملاؤه الأساتذة وبقية الحضور. فبدت أمارات السرور على وجه المحاضر لحرارة التصفيق والتفّت حوله النساء بعد الندوة مكبرات «تماسك شخصيته» وبُعده عن داء الرياء. وحين ودعته فيحاء رمقها بنظرة قاتلة وهو يدمدم بلا صوت: حقاً إن كيدهن لعظيم!

* * *

قالت بوران لفلك: إذا كان والد أميّة قد بدَّل رأيه بخصوص زواجها ولا يريد ذلك قبل أن يعلّمها وتبلغ صف البكالوريا، لماذا لا تقترح الخطّابة عليهم أن يخطب ابن الطرفندي فضيلة أو حميدة؟

سمعتها فضيلة. وقبل أن تفتح فلك فمها وتذكّر بوران بأن العريس أُعجب بأميّة بالذات، سارعت فضيلة إلى القول: وأنا أيضاً لا أريد الزواج الآن وأرغب في متابعة الدراسة.

وقالت الصغيرة مطيعة مداعبة رغم صغر سنها: وأنا أيضاً.

غضبت بوران لأن مطيعة لم تعد مطيعة، وبدت أمارات سرور خفي على وجه فلك، وازدادت ابتسامتها عرضاً حين أعلنت ماوية أنها ستعمل منذ اليوم الأول في الشهر القادم في صالون الحلاقة الذي قرّر زوج فيحاء تمويله بالاشتراك مع أسرته التي تتوقع ربحاً كبيراً من ذلك. وأضافت ضاحكة: لكنني سأظل كعادتي أقصّ شعر كل من في البيت مجاناً، شرط أن تكون سنه تحت العشرين، أما الباقيات فسأتهاود معهن في الأسعار!

ارتدت بوران ثيابها لتذهب إلى بيت قمر دونما حماس يُذكر. فقد فتر اعجابها بصهرها منذ إحالته على التقاعد، ولم تعد تنتهز اية مناسبة في الحوار لتزجّ به أو تستشهد بأقواله لتذكير الحاضرين بأهميتها كحماة للضابط ذي السطوة. وها هي تكاد تفقد نفوذها حتى على مطيعة، ولسان حالها يقول: لا نظام ولا طاعة. صارت النساء كالرجال يردن ولا يردن واقترب يوم القيامة! وحتى الصهر الذي «يشد الظهر» خسر منصبه و«جبناك يا معين لتعين لقيناك يا معين تتعان»[1]!

صفقت الباب خلفها بشدّة حين خرجت. أما ماوية فلم تفارق عينيها صورة الرجل المقطوع الساق الذي يجرّ عربة الخضار بإصرار وعزم صعوداً وهو يقفز على ساقه الوحيدة (هل يمكن أن يخطر بباله أنه بدّل مصيري؟). وامتلأ قلب ماوية بالعزم والإصرار (سأصير أشهر مزيّنة نساء في دمشق. سيكون لي دخلي من تعبي وستصير لي كلمتي! لن أتزوج وأعمل موظفة منزلية عند رجل يكسب رزقه ورزقي. أريد أن أعمل مثله وأكسب رزقي مباشرة وأكون سيدة نفسي كما كان هو سيد نفسه وسيدي!).

* * *

فرح أهل «زقاق الياسمين» بشفاء عبد الفتاح من المرض الخبيث بنذر عند سيدي خالد في حمص وبربطة سوداء على قفص قبر ستي زينب وأدعية من فلك وبناتها وحجاب من بوران. وقد اهتمت بوران شخصياً بترويج هذه الحكاية عن المرض الخبيث بدلاً من الجنون وهي كذبة لقيت إقبالاً وصدَّقها الناس، ولم يدر أحد أن عبد الفتاح كان في «المرستان» يعالج على حافة الجنون. وحتى عبد الفتاح نفسه لا يدري بالضبط ماذا حدث له. كل ما يعرفه أنه كان مريضاً وشفي بحمد الله وبحنان بناته منذ عودته إلى البيت قبل شهرين حيث أحطنه بحنان لم يحلم به. وحتى لؤي الذي كان قد كسر قلبه برفضه العمل معه على النول «بيّضها معه»[2] بعد عودته إذ أحضر له رفيقه الشاب الذي ورث عن أبيه ثروة منذ أشهر وكله استعداد لتحقيق أمنيته القديمة بشراء أنوال آلية، مقابل حصة أقل من النصف (٣٠٪ وما زال لؤي يفاوضه). بل إنه امتلأ فخراً بلؤي الذي يعرف ماذا يريد منذ صغره ويتحدث باستمرار عن افتتاح «مكتب تجارة» ولم يفهم عبد الفتاح المقصود من ذلك، وأفهمه لؤي أن من جملة مهماته محاولة إيجاد أسواق عربية للبروكار خارج سورية وربما

(١) مثل يقال عن خيبة الأمل بمن رجونا معونته وإذا به أحوج منا إلى المعونة.

(٢) «بيّضها معه»: عامله بما يسرّه.

في أوروبا. ولمَ لا؟ وامتلأ فخراً لأن لؤي صار يتحدث كالرجال وهو لما يبلغ العشرين بعد، وقال لنفسه حقاً إن «فرخ البط عوّام»!

وحين جاء أحد أصدقاء الطفولة الجار أبو أدهم يزوره وجده مرحاً، إذ ما كاد يقول له: السلام عليكم حتى أجابه عبد الفتاح بقوله: «لو ما سلامك سبق كلامك لأكلتك وفصفصت عظامك». وقهقها طويلاً واستعادا ذكريات الطفولة وحكاياها المريرة وقد بدت لهما جذّابة. وأسف أبو أدهم بعد انصرافه لأن جاره عبد الفتاح فقد جزءاً كبيراً من ذاكرته كأنه بدأ «يخرف» أو كأن المرض قتل الذاكرة أو تولى حذف بعضها تماماً بممحاة العلاج أو الماء لا فرق، وأعاده ذلك سعيداً ومرحاً كما لم يره من قبل قط. . كما لاحظ أن بناته صرن يدخلن ويسلّمن على عزت الشاب ابن الشهيد صديق المرحوم سفيان بدون حجاب ويحطن والدهن بحنان كبير وهو سعيد بهن بعدما كان «يقص رأس الأفعى بأسنانه» و «يهد الحيط» إذا تجرأت امرأة في البيت على السفور أمامه في حضور غريب، وكان هاجسه تزويج البنات باكراً كي لا تسفر واحدة حتى أمام ابن عمها أو ابن خالتها في البيت الكبير رغم ان «الأولاد» كلهم اخوة بالرضاع إلا إذا هجم النصيب وخطب أحدهم ابنة عمه، ووقتها تتبدل شهادات النساء حول الرضاع! ومنذ البداية كان حريصاً على تقسيم «الرزق»، فزين لدريد أو لؤي، ومطيعة لدريد إذا لم تعجبه زين، وقمر كبيرة على لؤي وستتزوج قبل بلوغه والمهم السترة. ما لم يلاحظه أبو أدهم هو إعراض عبد الفتاح عن أي ذكر للشيخ طه كما لو أنه نسيه تماماً، كما لم يلاحظ الغصّة في قلب عبد الفتاح التي كانت تكبر كل يوم مع تدرجه في الشفاء كما لو كان القلق والغصّات من علامات العافية إذ إن مصير أنواله اليدوية كان يعذبه. من يعمل عليها بعد موته؟ ومن يمسح غبارها ويقوم بصيانتها؟ كان الطبيب قد نصحه بأن يسرّ إلى فلك أو إلى أي شخص يرتاح إليه بما في قلبه لأن «الحصر» يُسيء للعافية. وابتلع قرص الدواء الذي أضحى مقتصراً على حبة واحدة في اليوم وقال لفلك أمام البنات: الحمد لله لأن لؤي دبَّر رأس مال للأنوال، ولكن «قلبي بيوجعني»[1] على مصير الأنوال اليدوية.

قالت فضيلة مداعبة: سننقلها إلى المتحف، وأضافت حميدة: ونرش عليها الغبار كل يوم، وتدخلت مطيعة: وسأحمل إليها عنكبوتة من البيت خصيصاً لتحيك خيوطها عليها وتُسكن وأولادها فيها!

---

(١) يؤلمني.

قالت حميدة: ستغمر بخيوطها «قصر الضيافة»، وأضافت فضيلة: فالعنكبوت ديكتاتور لا يقيم في قصره إلا وحده «مثل اللّي ببالكم منه»[1]. واستطردت فضيلة موجِّهة الكلام إلى أمها: قولي لبابا ما اتفقنا عليه. وخرجت الصبايا إلى «الديار».

تعجّب عبد الفتاح كيف ومتى كبرت بناته وصرن يداعبنه ويصبنه بعدوى الضحك وكن البارحة طفلات ممتقعات يخفن منه.

فلك غمرت زوجها بدفء القلب، وتحدّثت طويلاً وهو صامت ينصت ودمعة فرح تبلل عينيه. صحيح أنها لم تنجب له صبياً بعد لؤي لكنها أثلجت قلبه بما روته له. وحين غادرت الغرفة بعدما أطلعته على قطعة قماش بروكار كاد عبد الفتاح لا يصدق ما سمعه من أن بناته قضين معظم فترة مرضه في المشغل مع خالهن، وأن حميدة ومطيعة اللتين تكرهان المدرسة أحبّتا الصنعة كثيراً وحاكتا قماشاً رسمت تصميمه فضيلة من النقوش القديمة بعدما أدخلت عليها رسوماً بشرية تراثية نقلت فيها صورة رجل متربع تحت عمامته من لوحة للواسطي في كتاب التاريخ. نقلت الصورة إلى القماش وحاكتها بمعونة شقيقتيها، وأُعجب جاره «النعواس»، تاجر البروكار الشهير، بالنموذج الجديد وكلّف فضيلة رسم نموذج آخر له ونصحها بالسفر والاختصاص في حقل زخرفة النسيج في مدينة ليون الفرنسية.

تأمل عبد الفتاح النموذج الذي رسمته فضيلة وحاكته بمعونة شقيقتيها. إنه جميل وغريب و «غير شكل» عما ألفه من زخارف ورسوم نباتية لكنه جميل. أما الحياكة فينقصها الكثير من «المعلمية» لكنه سيرشدهن إلى ذلك وسيأتي من يخلفه. بنات؟ من قال إن البنات ينقصهن شيء؟ مسح دموعه بقطعة البروكار «العيّنة» ونهض وصلّى طويلاً ودموعه تكرج على خديه.

* * *

تضايق أمجد لأن شقيقته بوران قرّرت مقاطعة أسرة زوجها «إلى الأبد» كما تؤكد. يكره كثيراً هذه «المقاطعات» العائلية التي تدوم لسنوات طويلة. لا أحد يغفر للآخر أو يسمع صوته أو يستمع إلى وجهة نظره. كل واحد يملك الحقيقة منفرداً، وهو المنزّه و «الصحّ» والجميع على خطأ. شعر بالعزاء لأن محاضرته في «منتدى سكينة» عند ثريا حافظ تتحدث عن مأساة العرب عامة مع التركيز على «أحادية النظرة» حيث كل واحد واثق من أنه على صواب وسواه بالتالي مخطىء بالضرورة،

(١) «مثل الذي ببالكم منه»: إشارة إلى صاحب سلطة لا يجرؤ أحدٌ على ذكر اسمه، ولكنه في البال!

كما ترسم الحاجة إلى طرد العصور الوسطى من النفوس والحياة لا المستعمِر وحده، إذ ما من سبيل آخر غير هذا السبيل إلى تجديد الحياة العربية من ركام مرعب من الاهتراء.. وقد هدف من محاضرته تلك، الاعتراف بأن الحرب بين الواقعي والمثالي حرب لا تنتهي بالصلح ولا بهزيمة أحد الطرفين، فهي حرب بلا نهاية. وكل ما يتمنّاه هو أن يبعث في النفوس بعض التسامح وشهوة الحوار والقبول بالآخر.. (يا لي من متناقض! هل تسامحت مع هند حين أنجبت بنتاً وهل قبلت بها وليّاً للعهد؟ لا! ها أنا أذهب محاضراً منادياً بما أفتقده!).

* * *

منذ انتساب زين إلى الفرع العلمي وهي تحصل على علامات مرتفعة ومعنويات هابطة، وبدأت الكآبات الغامضة تستولي على روحها دون أن تدري لماذا. وبكت سراً ليلة عيد ميلادها الخامس عشر، ولكنها استطاعت أن «تقفز» صفاً وعملت ليل نهار على ذلك مما أثلج قلب والدها لأنها أصغر فتاة في صفها، ولم يكن يدري أن رفيقاتها في الصف يلقبنها بـ«تقصيرة خانم» في حالات الود و «تقصيرة الجن» في معظم الأوقات، أما معلّماتها فقد كن يسألنها: علامَ أنت متعجلة هكذا للوصول إلى البكالوريا؟

لقد انتسبتْ إلى الفرع العلمي كما أراد لها والدها، بعدما نالت شهادة «البروڤيه» وفازت بالمرتبة الثانية على نطاق سورية كلها مما أغضب والدها. كان يريدها الأولى وبكت سراً لأنها خذلته.

كطالبة في القسم العلمي، كان على زين أن تجيب عن سؤال لوظيفة الإنشاء، له صلة بالجبر والرياضيات، وما الذي يكسبه الطالب من دراستهما بدل الأدب. لم تجب زين على السؤال مباشرة لأنها ببساطة تفضّل الأدب، ولم تتمالك نفسها، فتجاهلت مدلول السؤال وانعطفت به وغلبتها نزوة أدهشتها حين أمسكت بالقلم فكتبت قصة قصيرة من وحي السؤال وخارج الموضوع بمعنى ما. وحينما غادرت قاعة الامتحان شعرت بالندم ووعت ما اقترفته وأدركت أنها ستفوز بعلامة «صفر مكعب»!

بعد أيام، استبقتها معلّمة اللغة العربية الأستاذة جولييت بعد انصراف البنات وحدّثتها بلطف بالغ ولكنها لامتها على فعلتها قائلة: لقد خرجتِ عن الموضوع يا زين. وذلك يستحق عادة علامة الصفر كما تعرفين. سقط قلب زين في بئر والمعلّمة تقرّعها. وبعدما لامتها أبدت حماسها لما كتبته زين، مضيفةً: ولكنك كتبتِ شيئاً

جميلاً هزّني. فما الذي جعلك تنتسبين إلى الفرع العلمي؟ لم تجرؤ زين على أن تقول لها إنها تنفذ رغبة والدها لأنها تحبّه قدر حبها للأدب. نظرت إلى بلاط الغرفة وبدأت تحصي عدد البلاطات تحت الطاولة بينما أبدت المعلّمة رغبتها في نشر قصة زين في مجلة المدرسة التي تشرف هي على إصدارها مع بنات الفرع الأدبي.

قالت زين للمعلّمة: آسفة يا آنسة[1]. لا أقدر.

ـ لماذا؟

أطرقت زين برأسها وغلبها الخجل حتى خجلت من القول إن السبب هو ببساطة خجلها، وإنها لا تجرؤ على نشر القصة ولا تعرف لماذا كتبتها وتلك حالها دائماً مع مجلة المدرسة: مقلّة ومثابرة!.. وإنها خائفة أيضاً مما لا تدريه، وخائفة من إغضاب والدها الذي لا تشعر منذ صغرها أنه ينظر بعين الرضى إلى علاقتها السرية مع الكتابة ولا يريدها كاتبة بل طبيبة.

تجاهلت «آنسة» جولييت صمت زين وقالت لها: أريد أن أدعوك للمشاركة في تحرير مجلة المدرسة. أريد منك قصة كل اسبوعين. ولكن، في المرة القادمة، اكتبي وظيفة الإنشاء المطلوبة، وإذا أحببتِ أن تكتبي قصة قصيرة فليكن ذلك للمجلة. مفهوم؟

أجابت زين وهي لا تزال مطرقة الوجه: حاضر «آنسة».. وقالت لها المعلّمة أشياء كثيرة لطيفة كلها اهتمام وحنان، ولا تدري زين لماذا كادت تبكي وهو ما تكرهه.

تدافعت المشاعر في روحها وصار جسدها ضيقاً على تلك العواصف الرعدية الغامضة كلها المتلاطمة داخل إنائها الهشّ.. قبل أن تسمح الاستاذة جولييت لزين بالانصراف سألتها عمن يكون والدها. وحين ذكرت لها أنه أمجد الخيّال قالت جولييت بتأثر: أنت ابنة هند؟ رحمها الله. كانت كاتبة استثنائية. ثم أضافت: يبدو أنك «طالعة لأمك». ذهلت زين. لم تكن تدري أن أمها كاتبة. فهي لا تعرف شيئاً عن أمها ولم ترَ لها صورة. تمنّت أن تسأل الأستاذة جولييت المزيد عن أمها ولم تجرؤ.

انطلقت تركض هاربة، مستثارة، منتشية، خائفة، متهورة، منتصرة، مهزومة، سعيدة، لأن «معلمة خانم» جولييت دعتها أيضاً حين تشاء إلى مشاهدة مكتبتها

(١) آنسة: لقب من ألقاب معلمات المدارس في ذلك الزمان تناديهن به البنات في الصف وخارجه.

واستعارة الكتب منها وإلى اجتماع هيئة تحرير المجلة نصف الشهري في بيتها، فقد تكون لديها أفكار جديدة.. (أفكار؟ ليست لدي سوى مخاوف.. وفضول.. ورغبة جارفة في معرفة المزيد عن أمي. هل كانت حقاً «كاتبة» أم أنني أسأت الفهم؟ أمي كاتبة؟ إذاً لماذا يغضب والدي كلما قلت له رأي استاذة اللغة العربية التي تتوسم فيَّ القدرة على أن أكون كاتبة؟ ومتى أجرؤ على سؤاله عنها وأنا رعديدة هكذا؟).

* * *

(أحسّ أحياناً بعداء خفي في سلوك زين نحوي.. فهل لهذا الأمر صلة خفية بأمها، أم تراني أتوهم الأشياء، وتحفّظ زين الموسمي جزء من سلوك المراهقين جميعاً مثلها؟.. ثمة ما يكبّلني أمامها.. ما تكاد تصمت قليلاً حتى أتوهم أنها غاضبة مني «واللّي فيه شوكة بتنخزه». فأنا لم أشعر يوماً براحة الضمير وطيف هند يلاحقني.. وعيناها المزروعتان في وجه زين تعذبانني. عقلي مرتاح إلى كل ما فعلته، لكن روحي متوجعة، ربما لأن القانون ليس بالضرورة العدالة.. إني حائر، ولا أدري كيف أتعامل مع زين. بموت هند فقدت البوصلة).

قاد الدكتور أمجد سيارته صوب صحراء الديماس بعدما تجاوز دمر والهامة وزين إلى جانبه. لم ينحدر يمنةً صوب مزرعته في «الريحانية» بل تابع متوغّلاً في الصحراء منعطفاً في طريق جانبية ترابية إلى اليسار عند لافتة: «نادي الطيران الشراعي».. كان قد تمّ انتخابه رئيساً فخرياً للنادي، وها هو في طريقه للاحتفال بتحليق أول طائرة شراعية في سماء دمشق يقودها المدرّب الألماني الذي جاء خصيصاً لتدريب هواة هذه الرياضة.. زين ترافقه كعادتهما منذ طفولتها، لا يفترقان. يتشاجران أحياناً بصمت ولكن لا يطيق أحدهما فراق الآخر. (تُراها مكهربة المناخ لأنني اصطحبت دريد معنا؟ لقد جاء لزيارتنا، ولم يكن بوسعي طرده فدعوته إلى مرافقتنا. وهو شاب هادىء ومتزن تبدو صلته بالكون أكثر استقراراً وطمأنينة من صلة زين بالأشياء، ربما لأنه ذكر، والرب معه، والكل معه، والدين معه، والتقاليد، «ولا شيء يعيبه». أما زين فلديها حاجة مستمرة لإثبات حضورها في كوكبنا كما يخيل إليّ. إنها لا تهدأ كأنها في حرب مستمرة مع أعداء تخترعهم إذا لم تجدهم. ترى ما الذي يوجعها؟).

يقول دريد: ما أجمل الطقس، أليس كذلك يا زين؟

تجيب دون أن تجيب بغمغمة موافقة.

(زين ودريد منذ صغرهما مثل البومة والقنفذ. وحين «تُبَوِّم» زين لا أعرف

كيف اخترق قشرة صمتها). صرخت زين فجأة بسعادة وهي تلمح من بعيد طائرة شراعية جاثمة: انظر يا أبي كم هي جميلة!.. كان صوتها يرقص ويشهق بالحيوية. يحب أن يسمع صوتها هكذا مزقزقاً.. صوت طفولتها.. **(دخلنا إلى دكان بائع الألعاب، هند وأنا وزين.. كانت في الرابعة والنصف من عمرها وحين لمحتْ الدمى، انفلتت من يد أمها الحامل وركضت في الدكان تطوف بين الدمى وهي تشهق شهقات طفولية طريفة بسعادة بالغة.. ظلت دقائق تشهق مثل عصفور يزقزق عاجزة عن قول كلمة واحدة وقد خنقها الفرح.. كانت زقزقتها أجمل صوت سمعتُه وأمها في حياتنا.. كانت عصفوراً بريئاً شاهد قارة مباهج ولم يعد يعرف كيف يغرّد. لا أريد أن أراها إلا مغرّدة).**

أوقف سيارته أمام المبنى الصغير الشبيه بكوخ، حيث مقر النادي، ووقف إلى جانب بقية مسؤوليه يصافحون المدعويين الذين تقاطروا على المطار الترابي البدائي، وكانت الريح العذبة تهبّ داخل قمع قماشي خاص بتحديد اتجاه الرياح.. ألقى أحدهم خطبة، فصفّق دريد والحضور ولم تصفق زين. ولما ألقى أمجد كلمة، صفّقت له زين بحماس كبير. شعر أمجد بالاطمئنان وهو يراها تصفّق له هكذا **(كالعادة، لا مبرر لهواجسي. صمتها ليس بالضرورة غضباً علي. إنها تكبر وتراهق ولم تعد طفلتي الصغيرة وعليَّ أن أفهم ذلك).**

جاء المدرب الألماني يدعو الدكتور أمجد بالإنكليزية لركوب الطائرة معه في طلعة التدشين الأولى، وكان أمجد يخاف كثيراً من ركوب الطائرة، فبدت عليه أمارات الخوف وتظاهر بأنه لا يفهم الإنكليزية خجلاً من أن يقول الناس إن رئيس نادي الطيران يخاف ركوب الطائرة! نظر حوله مستنجداً، وكانت زين تعرف جيداً ذعره من الطائرة، وفوجىء بها تتقدم من المدرّب الألماني وتقول له بالإنكليزية: «أنا ابنته. وسأرافقك لتدشين الطائرة» كما فوجىء الحضور بذلك. انحنى المدرّب لها باحترام رغم صغر سنها ولحقت به إلى الطائرة قبل أن يجد أمجد الوقت للاحتجاج وقبل أن يستوقفها دريد الذي كان يتابع ما يدور بذهول جمّده في مكانه.

شاهد أمجد زين تتسلق الطائرة وتجلس حيث أشار لها المدرّب، في المقعد الأمامي الذي يتسع لشخص واحد، في حين احتل المدرب المقعد الخلفي.. أطبق الموظف سقف الطائرة عليهما كمن يغلق علبة بغطاء شفاف. جُرّت الطائرة بسيارة وبحبل خاص وبعد دقائق انفصل الحبل الذي كان يربطها إلى السيارة وبدأت تحلّق بلا صوت وبدت للحضور في المطار أشبه بلعبة كبيرة لطفل. كان شوق زين إلى

الطيران عتيقاً. أحسّت بسعادة خارقة في اللحظة التي انفصلت فيها الطائرة عن الأرض لتمارس رحيلاً صامتاً مدهشاً، وخيّل إلى زين أنها تركب بساط الريح. وما كادت تنظر من «قمرة» الطائرة إلى الأرض حتى داخلها الخوف العتيق ذاته (على الشرفة كنت أدرس لامتحاناتي وأروح جيئة وذهاباً بعد منتصف الليل، وساحة النجمة نائمة ونوافذ الجيران حولي قد أغمضت عيونها عيناً بعد أخرى، وصوت الرقص في الطابق الأعلى عند أم ناريمان قد هدأ. وحتى جاري موفق وأخته ثريا قد تعبا من السهر ولعب الباصرة ودخلا للنوم، مثل بقية الجيران، وتركوا لي الليل والنجوم ودروسي.. أحدّق في السماء، فأعي أنني ساقطة في بئر من السواد وقلبي عصفور يتوق إلى الرحيل واكتشاف الدنيا.. وفجأة مرت طائرة بين النجوم، كانت تحلّق بصمت لكثرة ما هي نائية، وتسعى في ليلي كالرؤيا، وأضواؤها الحمر والصفر والبيض والخضر تومض لي من بعيد مثل دعوة صامتة إلى نشر أجنحتي والتحليق معها... ولكنني لم أجرؤ على مرافقة ركاب الطائرة حتى بعين الخيال. بل أصبت بذعر بالغ وأنا أتخيّل نفسي في الطائرة. ووعيت بأسى أنني جبانة حتى في أحلام اليقظة).

سأل المدرب الألماني زين: هل أنت خائفة؟ أجابت: قليلاً. (لا. لست خائفة قليلاً. إني خائفة كثيراً. ولكن ما كان بوسعي أن أخذل أبي أو أتركه يركب الطائرة ويموت رعباً. ماذا لو مات هو أيضاً مثل أمي وبابا ديب وهمام أبو وضّاح و.. و.؟ إني خائفة. ولكن جسدي سبق تفكيري. كلما مرّت بي طائرة في الليل وأنا أدرس على الشرفة أتمنى لو أحلّق معها لأكتشف الدنيا وأعرف أنني لن أجرؤ على ذلك فخوفي يشلّني. بل إنني لم أجرؤ يوماً على الطيران إلا في أحلامي حيث أحلق كعصفور مستعيدة جناحيَّ المقصوصين منذ طفولتي. في أعلى ظهري، عند كتفي، أثر لجرح لا أدري من أين جاء. سألت أبي فقال لي مداعباً: هذا أثر جناحك المقصوص. لم أجد في ما قاله دعابة بل حقيقة زلّ لسانه بها. منذ طفولتي وأنا أدخل في العصفور والبومة وأحلّق معهما بعد أن أحلّ فيهما وأحلم بأن عجائز الأسرة رقصن مرة حولي في ضوء القمر وقرعن الطبول في احتفال سحري وعمّتي بوران قامت بقص جناحيّ ـ مثلما قصوا «شيئاً» لوضّاح يوم طهوره ـ وقلن ضاحكات إنه طهوري!).

الطائرة الشراعية تحلّق عالياً، وزين تمسك بمقعدها واهمة أنها تركب العصفور الخشبي الأسطوري للمرة الأولى في حياتها.. والمرئيات تبدو تحتها كما

كانت تراها في أحلامها وهي تطير وتحلّق (دوماً أحلم بأنني أطير. . أقف على سطح «البيت الكبير» في «زقاق الياسمين» ثم أستخرج جناحين سريين وأفردهما وأحركهما وأحرّك يديّ كجناحين إضافيين وأطير كعصفور خرافي بأربعة أجنحة، ولا أسقط على الأرض. . أحلّق فوق سوق الحميدية فالمرجة متجهة صوب المهاجرين وقاسيون مارةً بالسبكي والشعلان والجسر الأبيض ونوري باشا. . أحلّق عالياً وأتأمل الناس وقباب الجوامع والسيارات وحمير الباعة المتجولين وبائع العرقسوس والأشجار. . أحلّق سعيدة صوب قبة السيّار في قاسيون، لكن رجالاً ملثمين يطاردونني ببنادقهم ويطلقون النار عليّ وأنا أحاول أن أنجو بأجنحتي منهم).

سألها المدرّب بالإنكليزية مجدداً: هل أنت خائفة؟ أجابت بصدق: نعم. قليلاً. إنني خائفة ومستثارة. قال: لو قُلتِ لي إنك غير خائفة لرفضت تعليمك قيادة الطائرة في أي يوم. الخوف علامة عافية. المهم ألا يسيطر على المرء. بعد قليل سألته زين: هل تظن أن بوسعي أن أتعلّم قيادة الطائرة في أي يوم؟ أجابها: ما دمت أفعل ذلك، ويفعله الآلاف، لِمَ لا؟ وأضاف الطيار المتقاعد المسّن ـ كما بدا لها ـ: عليّ استئذان والدك أولاً. . وعليك أن تبلغي السن القانونية قبل أن أدعك تحلّقين وحيدةً في الطائرة. أريد أن أصارحك بأنني قبل حضوري إلى دمشق كانت لدي فكرة خاطئة جداً عن المرأة العربية. تعجبت زين ولم تفهم ما يعنيه بكلامه هذا. لماذا تكون لديه فكرة خاطئة كتلك؟ ماذا يعني؟ ما هي فكرته؟ كادت تسأله لكنها خجلت ولم تجد صوتها، أما هو فراح يشرح لها أسرار الأجنحة والريح ودور الذيل في توجيه الطائرة، وضرورة الحفاظ على الجناحين على سوية واحدة وهي تحدّق في المرئيات تحتها وتحاول أن تألف ذلك الإحساس بالخوف والنشوة معاً، ودمشق تبدو لها في القاع صغيرة مزنرة بالخضرة. أفهمها المدرّب أن مقعد تلميذ الطيران حيث تجلس مزود بما يلزم لقيادة الطائرة، وأنه كمعلّم يستطيع التدخل في أية لحظة إذا ارتكب التلميذ خطأ ما. تخيّلت في إحدى اللحظات أنها هي التي تقود الطائرة مذهولة بالسعادة كمن يمشي داخل حلم تحقّق، وأنها صارت قادرة على الانعطاف بها برفق، إلى اليمين أو اليسار، في ما كان الأستاذ يؤكد على أهمية الرهافة في التعامل مع الطائرة وتَفَهُّم الريح والاتحاد بالطائرة (كان يدعوها العصفور) بحيث يصيران واحداً ويشعر التلميذ أن أجنحة الطائرة امتداد لجناحيه (جناحاي مقصوصان، فكيف أحلّق وحدي بلا معونتك؟). وتذكرت أيام كانت جدتها تروي لها حكاية بساط الريح، فتستقله بعين الخيال إلى جانب علاء الدين وتظل تطير حتى

بعد أن تنتهي الحكاية وتقول لها جدتها «توتة توتة خلصت الحدوتة». لم تكن زين تهبط عن موضعها على البساط بعد انتهاء الحكاية بل تتمدد تحت النجوم القريبة وتغفو. كان أي بساط يتحوّل تحتها وقت النوم إلى بساط الريح (بطولات في الأحلام، وكتابات داخل الرأس. هذه أنا: جبانة!).

قال لها المدرّب: أما زلت خائفة؟

ـ بدرجة أقل من البداية.

سألها فجأة: كم عمرك؟ إنه سؤال من غير اللائق طرحه عادة على آنسة، لكنك ما زلتِ في سن يُمكن معه طرح هذا السؤال..

قالت له كاذبة وهي تزيد في سنّها كعادة المراهقات: عمري ست عشرة سنة.

قال: حين ولدتِ كنت أقود طائرة حربية في الحرب العالمية..

أجابت: أكره الحرب، وأكره الذين يجعلونها ضرورة لحياتنا كما يفعل «اليهود» بنا.

لم يكن راغباً في الحديث في السياسة مع مراهقة ولا مع والدها. لقد عاهد نفسه على ألا يقول كلمة لها صلة بالسياسة خلال إقامته في دمشق. تجاهل ملاحظتها وتابع: تعلمت ألعاباً بهلوانية كثيرة في الحرب.. معظمها لا يصلح لطائرة بلا محرك كهذه الطائرة الشراعية، ولكن بوسعنا أن نجرّب بعضها. هل تريدين ذلك؟

ترددت قليلاً ثم تذكرت أنه لن يفعل ما يقتله، فقالت مستسلمة: كما تشاء.

ـ تأكدي من أنك ربطت جيداً حزام مقعدك.. استعدي للحركة الأولى..

مالت الطائرة قليلاً على أحد جنبيها، فغاص قلب زين بهلع تمازجه نشوة خاصة، وكتمت صرخة ذعر سعيدة وغصّت بمشاعر جديدة لم تعرفها من قبل.. الطائرة تهوي قليلاً وهي مائلة ثم تعود إلى طيرانها المتوازن، وزين تعي فجأة أنها قد تحب المغامرة، وهي البنت الخجولة المقموعة التي لا تجرؤ حتى على أن تقول لوالدها إنها لا تريد دراسة الطب بل الأدب. صار قلبها يضرب بشدة كأنه كان نائماً واستيقظ.

سألها المدرب: هل اكتفيت؟

أجابت بصوت خافت: أجل.. ثم إن أبي يرانا ولا أريد أن نقلقه..

قال لها: سأقوم بحركة استعراضية أخيرة قبل هبوطنا. عاود زين خلال ذلك

الشعور الملتبس برعشات الذعر والنشوة في آنٍ.

عاد العصفور الخشبي أخيراً إلى طيرانه الهادىء، أما زين فقد شعرت بجناحين صغيرين ينبتان لها. مدّت يدها إلى كتفيها وتحسسّتهما ثم أخرجتهما من تحت ثوبها وانتشت، وبضربة واحدة كسرت نافذة الطائرة وخرجت منها وانطلقت تحلّق وحيدة وهي تقول للمدرب: «باي.. باي»، وتطير وحيدة بجناحيها.

التقى بها نسر كبير، مثل الذي ترى صورته على العملة المعدنية وسألها: إلى أين يا زين؟

قالت: أريد أن أزور الكرة الأرضية... لم أعد أرغب في الرحيل فوق الخارطة التي أعلقها على جدار غرفة نومي.. أريد أن أرى القارات كلها.. واندفعت تطير وهي تمزّق الخرائط في كتاب الجغرافيا التي طالما حلمت أمامها، وكذلك الخارطة الملصقة على جدارها، وترمي بمجسّم الكرة الأرضية من شاهق على مجرى نهر بردى تحتها.

ـ ما لك وللطيران يا زين؟

ـ أحببت دائماً كل ما يطير حتى ولو كان دبوراً!

قال لها النسر: ولكنك بنت ولستِ طائراً. حين يهبط الليل ستأكلك الجوارح.

قالت: سأدافع عن نفسي..

ـ ستنوح البومة وتخيفك...

ـ إنها صديقتي.. سآنس بها ونطير معاً وتدافع عني.

ـ ستحرقك الصواعق والأعاصير وتشتعل النار في شعرك.. لماذا لا تنامين في سريرك الحريري بأمان؟

ـ لا أعرف... لا أعرف.. أريد أن أطير. أطير.

قال لها المدرّب: ألم تتعبي؟

ـ لا...

قال لها ضاحكاً: يبدو أنك نسيت كل شيء عن عدم رغبتك في إقلاق والدك. حسناً. لقد بدأت أنا أتعب.. ولكنني سأقوم بحركة أخيرة.. أعتقد أننا قدمنا لهم استعراضاً لا بأس به بمناسبة الافتتاح.

هبطت بها الطائرة أخيراً وفوجئت زين بالحضور يصفّقون لها وللمدرّب.

حين غادرتها، بحثت عن وجه والدها فوجدته إلى جانبها وقد امتلأ قلقاً

وفخراً واعتداداً. أما دريد فكان يحدّق فيها بامتعاض لم تدرِ له سبباً: هل خاف عليها أم حسدها؟

في السيارة قال لها والدها إنه فخور بها، وشكرها لأنها أنقذته من وضع حرج، وكاد يؤنبها لأنها لم تستشره حين «تهوّرت» هكذا، لكنه خشي من إغضابها. أما هي فامتلأ قلبها غبطة كعادتها حين تُفرحه.

بصوته الجميل غنّى أمجد: «إنسى الدنيا وريّح بالك. اوعى تفكر باللي جرالك». شاركته زين الغناء وهي تتوق إلى الطيران ثانية.. وتتطلع إلى لقاء معلمتها جولييت لتروي لها مغامرتها.

ودّعت زين أستاذتها جولييت الأرملة المتوحدة، بعدما أمضت معها يوم الإجازة الأسبوعية بإذن من والدها بسبب سفره. وغادرت بيتها وقد وعدتها كاذبة للمرة الثالثة أن تكتب قصة لمجلة المدرسة (ما سر ذلك الخوف الذي يشلّني؟ لماذا لا أجرؤ على الكتابة لمجلة المدرسة؟ لماذا كتبت عفو الخاطر قصتي الأولى في امتحان الإنشاء وكدت أفوز بعلامة الصفر، ولا أستطيع الآن كتابة قصة أخرى عن سابق تصميم وتصوّر؟ ما الذي يرعبني؟ لم أركع يوماً ليدوس فوقي البيك كي يصعد إلى حصانه كما كان يحدث لوالد جهينة الشجاعة صاحبة المشغل الناجح لثياب العرائس. لم تحدث لي مآسيها مع أسرتها التي ذكّرها أبي بها حين رفضت أن ترى ذلك الوالد المسكين أو تغفر له لأنه باعها خادمة حين كانت طفلة. لم أجع مثلها ويضطر أبي إلى «بيعي» كي يقوم بتعليم أشقائي الصبيان. وإذا تزوجت فلن أمر «ليلة الدخلة» بفراش «البيك» قبل عريسي كما حدث لوالدة جهينة حسبما ادّعى والدها وهو يبكي ويروي لأبي ذلّه وقهر حياته وكل عاره لتغفر له ابنته. وليس لأحد حق قتله لمجرد أنه قد ارتكب ذنباً في نظر «البيك». لقد انتهى ذلك كله كما قال أبي حين حاول إقناعها بأن والدها ليس المسؤول عما كان بل «الحالة العاطلة».. فلماذا أنا دائماً خائفة؟ ولماذا لا أشعر بأنني حرة حقاً؟

حين أمرض لا أحتضر وأموت لافتقاري إلى الدواء كما حدث لأم جهينة، بل تأتي الدكتورة ماهر أو الدكتور مأمون. وتقضي جدتي آناء الليل قرب سريري وهي تقرأ آيات الله وتنفخها على وجهي حتى أنام.. فما الذي يقذف بروحي في تلك العاصفة المليئة بالبروق والرعود الغامضة ويطحنني ويخلّفني على شواطىء الأبدية حائرة نصف معذّبة وفي قلبي جوع إلى ما لا أدريه؟ لماذا أنا هكذا؟ لم يرغمني أبي

على شيء، بل إنه أغضب عمي عبد الفتاح منذ صغري بعدم إلباس الحجاب كما أغضبه حين علمني السباحة والرماية. لم يرغمني أحد على شيء حقاً، لكنني بمعنى ما أشعر أنني أكاد أكون مرغمة على كل شيء وبإرادتي، خوفاً أو جبناً أو حباً. . أنا لست أنا، ولست حقيقية إلا حين أكون وهمية. . أعيش حياتي الخيالية داخل الكتب التي أطالعها والحكايا التي أتوهّم أنني أعيشها كأنني أكتبها داخل رأسي وأبنيها حجراً حجراً لأعيش داخلها إذ لا بيت لي سواها. . وحتى حينما أحلّق في طائرة شراعية أهرب من طيراني داخلها إلى طيران خارجها بعين الخيال كأنني أعالج الخوف بالحلم. يوم استبقتني الأستاذة جولييت بعد انصراف البنات من الصف لم يخطر لي ببال أن ذلك اللقاء سيبدّل تضاريس عالمي، وأن سوسة الكتابة ستقرضني ليل نهار منذ عرفت أيضاً من جولييت أن أمي كانت كاتبة. لم أكن أعرف أو أجرؤ أو أستطيع التحدث عن نفسي. ولطالما تراجعت جولييت عن تشجيعي على الكتابة وهي تقول: أعرف أنك طالبة ممتازة في المواد العلمية. . أما عن دفعي لك لكتابة القصص فهو مجرد خاطر راودني وأنا أطالع ما كتبته في ورقة «الإنشاء». ولطالما تمنيت أن أنقضّ على الفرصة وأقول لها إنني بدأت بكتابة كوابيسي في طفولتي وصارت الكتابة الآن كابوسي، إذ إنني كلما تقدمت في السن كلما خفت من الكتابة والنشر معاً. . ولكنني كعادتي جبنت).

* * *

«حسبي من سؤالي علمه بحالي». . حين يضيق صدر أمجد بأسئلة زين الكثيرة يردد هذه العبارة مضيفاً: «أفلح من قال لا إله إلا الله».

كل ذلك لأنها سألته: لماذا لم يعد يأتي لاصطحابها من بيت جولييت خانم؟ لم تعد زين تناديها بمعلمة خانم أو «آنسة» بعدما صارتا «صديقتين»، بل صارت تكتفي بـ «جولييت خانم» بالرغم من إصرارها على أن تناديها بجولييت وعجز زين عن ذلك بسبب تربيتها القديمة البعيدة عن «الخوشبوشية» ورفع الكلفة. لقد تبنت جولييت زين فكرياً بعدما توسمت فيها الخير، وتعلّقت بها زين تعلّقها بكل النساء «الأربعينيات المسنّات» في نظرها، المتعلّمات الذكيات، كأنها تفتش فيهن عن أم روحية.

كرّرت زين السؤال فاكتفى أمجد بالصمت. (لماذا يهرب من لقائها؟ هل **يخافها أم يخاف نفسه أم يخاف كلام الناس لأنها مسيحية وهو مسلم؟ أعرف أنه يحبها كما أحبها أنا. تلك الرائعة التي أجد في مكتبتها كتباً من نمط غير موجود في**

مكتبة أبي ككتب راسين وكورناي وفلوبير وجول ڤرن وأندريه مالرو وأنطوان دي سانت اكزوبري الذي أهدتني كتابه «الأمير الصغير» قائلة إنه صدر قبل عقد ونيف ووجدته رائعاً وأسفت لأن مؤلفه مات مقتولاً حين تحطمت به طائرته قبل أقل من عشرة أعوام.

تعرفتُ عبرها على عوالم كنت أجهلها.. عوالم شوبان وبيتهوڤن وبرامز وباخ وڤاغنر و.. و.. وهي التي أقنعت أبي باصطحابي إلى نادي الطيران يوم الجمعة للطيران مع المدرب وتعلّم قيادة الطائرة برفقته. قبلها كنت أهرب من أبي وأم كلثومه ليلة أول خميس من الشهر، وأشعر بخواء حين أسمع معه الأغاني التركية و «أمان جانم أمان» وتضيق أنفاسي بعد نصف ساعة من العزف على العود المنفرد. عند جولييت اكتشفت أصواتاً أخرى لكواكب أكثر رحابة وطموحاً وأقل اختناقاً، وتعلّقت بتشايكوفسكي وغريك، واستمتعت بصورة خاصة بشوبان وجولييت تروي لي حكاية حبه وجورج صاند وحكايا أخرى كثيرة لم أسمع يوماً مثلها في بيتنا في «زقاق الياسمين». حين لاحظت جولييت استمتاعي البالغ بقصص حياة المبدعين سألتني: ماذا تطالعين حالياً؟ أجبتها: أطالع كتاب «الكامل» للمبرد. لقد اختاره لي والدي. قالت: اطلبي من والدك أن يحضر لك سلسلة «أعلام الحرية» للفتيان التي أصدرها قدري قلعجي عن دار العلم للملايين في بيروت. بينها كتاب عن حياة شوبان، وستُمتعك السلسلة كلها ففيها كتب عن غاندي ولنكولن وديموستين ومدحت باشا وسواهم. كان أبي يمر كلما ذهبت إليها لاصطحابي ويقهقه حين تسأله جولييت: لماذا ابنتك نحيلة هكذا كأنها تأكل من زيت الجامع؟ فيقول لها مداعباً: بل تأكل من زيت الكنيسة! ثم صار يدخل ويشرب شايها المعطر في الفناجين المطهمة ويستمع إليها وهي تعزف لشوبان على البيانو وشراشف الدانتيل التي صنعتها بيدها تتدلى منه ومن الموائد، ورقع «الكاناڤاه» التي تحب أمها أن تحيكها، كما قالت لنا، تغطي المساند وعليها مشاهد من عوالم أتوق للدخول إليها.. رجال في الصيد بثياب مخملية وقمصان بيضاء وتسريحات غريبة وخلفهم سماوات كلها غيوم، ونساء بثياب أسطورية، أو مشاهد رقص في صالونات طالعة من الحلم.. كنت أمشي داخل لوحات مساندها وأعيش حياة أخرى تستدعيني منها كلما سألتني أن أطلعها على القصة التي كتبتها في عطلة نهاية الأسبوع وأن أقرأها لها بصوتي «الخاص»، كما تدعوه، أي صوت الرمل وهو يتدفق في كل لحظة داخل حنجرتي وأنا أمشي في كوابيسي التي أجهل كيف أميزّها عن يقظتي.

منذ اليوم الذي نشرت لي فيه قصتي الأولى في مجلة المدرسة وهي تطاردني كي أكتب غيرها. . وأنا أجرؤ ولا أجرؤ. . وأبي لا يرى جدوى من ذلك ويطلب مني الاهتمام بدروسي، فالفرع العلمي صعب ويجب أن أكون الأولى من جديد كي يتمّ قبولي في كلية الطب. . يجب. . يجب.

تسألني جولييت باستمرار: وأنتِ ما الذي ترغبين فيه؟

أجيبها بصدق: لا أعرف).

كادت زين تسأله سؤالاً مباشراً: هل تتهرب منها لأنك لا تريد الزواج من مسيحية أم أنك حقاً لا تريد الزواج من أحد بعد أمي؟ لكنها لم تجرؤ.

* * *

جسّ أمجد جبين زين حين شاهد وجهها بلون «مخلل اللفت» كما قال ومثل «الشوندرة» كما أيدته جدتها، ولم تضحك لهما زين كعادتها أمام تعابيرهما التي تمتعها. أغمضت عينيها واستسلمت براحة للمرض. دخلت إلى قلعة جسدها وأغلقت الباب خلفها، وهبطت إلى القبو في القاع وهي تنتحب بلا صوت.

(انتهى الأمر ولم يعد أبي مضطراً للتهرب من جولييت.

ماتت. صدمتها سيارة وماتت. هكذا ببساطة. هي التي ماتت لا أنا التي تصعد في الطائرة الشراعية مرة كل أسبوع تقريباً بتشجيع منها يشبه الإرغام. ماتت. أهي لعنتنا أبي وأنا؟ هل يموت كل من نحبه أو نلامسه؟ هل لدى أبي لعنة «ميداس» بمعنى ما، ميداس الذي يقتل كل ما يلمسه إذ يحوّله إلى ذهب؟ هل نحوّل كل ما نحبه إلى موت؟ أم أنها لعنة البوم كما قالت عمتي بوران بعدما أخبرتها أن جولييت كانت تحبه وتملأ صوره وتماثيله بيتها وما من صورة لزوجها الراحل؟ لا. . لا. . أبي بريء وأنا المذنبة. . أنا التي أقتل كل من أحبه حتى قبل أن أعرفه وأحبه. . أنا التي قتلت أمي أو مهّدت لذلك حين رفضتُ مذعورة الخروج من كوكب رحمها إلى كوكبنا وأنهكتها فلم تقوَ بعد ذلك بعام على إنجاب شقيقيّ وماتت مثخنة بجبني وخوفي من الخروج إلى العالم الخارجي. . وأنا التي قتلت جولييت لأنني أحببتها وتمنيت لو تصير أمي. . لو كرهتها قليلاً كما أكره أحياناً عمتي بوران من وقت إلى آخر لعاشتْ ولازدهرتْ مثلها ولصارت مثلها «العالمة» الروحية التي تداوي الناس بالسحر ويهطل عليها الذهب كما حدث لعمتي منذ شاع أنها هي من كان وراء «بخت» جهينة، فأقبلت الدنيا عليها وخذلت جولييت.

أجل ماتت جولييت. فما الذي يفعله مخلوق مثلي يقتل كل من يحب دون أن يتعمّد ذلك؟

وهل ماتت جولييت حقاً في حادث، أم أنها ماتت منتحرة وقذفت بنفسها تحت تلك الشاحنة كما يقول السائق دون أن يصدقه أحد؟ هل هربت من حب أبي القاتل إلى الموت؟ هل يئستْ لأنه لا يجرؤ على الزواج منها لأنها مسيحية؟ هل يقتل الجبن كما تقتل الشجاعة؟ هل أرسلتْ له رسالة حب خطتها تحت عجلات شاحنة بدمها؟ هل أنا رومانسية وأحب أن اخترع لها أسطورة كعادتي مع كل ما يحيط بي؟ هل.. وهل.. ما حقيقة موتها؟ بل ما هي الحقيقة؟ كل ما أعرفه أن جولييت ماتت.. أما «روميو» فسيتجاوز الحكاية ولو كره شكسبير. كيف أنام الليلة وأنا أعرف أن مدام بوڤاري وآنا كارنينا وروبنسن كروزو والأمير الصغير، وكل أبطال الكتب التي أعارتني إياها وتعارفت معهم عبرها، يبكونها في هذه اللحظة معي وقد ازدحمت بهم غرفتي؟ وداعاً يا جولييت!).

* * *

(لن أمشي مع «آنسة» جولييت بعد اليوم من الجسر الأبيض حتى ساحة المهاجرين.

لن نذهب إلى مكتبة «النوري» ونمر معاً بمقهى «الهاڤانا» حيث غابة من الذكور والنراجيل وتقول لي: هذا عالم رجال.. انظري.. ما من امرأة في الداخل!

لن يمر الترامواي وهو يرن رنينه العذب.. لن أحدّثها عن إتقاني لقيادة الطائرة الشراعية شرط أن يكون المدرّب معي، ويكفي أن يرفع يده عن عصا القيادة ليغمى عليّ. ولن تقهقه وهي تقول لي أنت شجاعة في قاعك لكن أموراً كثيرة «تعقّدك». لن أركب معها في سيارتها «الهدسون» فخورة بأن التي تقودها امرأة ومنتظرة بشوق أن يمر عامان وأصير عجوزاً في الثامنة عشرة من عمري لأقود سيارة مثلها. لن تحدثني بعد اليوم عن شكري القوتلي وصبري العسلي وخالد العظم وجميل مردم بك كبشر لا كصور على الجدران.. لن نمر معاً بالسنجقدار.. ولن نذهب إلى «مصلّح بوابير الكاز» ونضحك مع «المبيض» وهي تتمنى لو كان عمرها الأسود «طنجرة» ليقوم بتبييضه على حد تعبيرها.. ولن تلعب أمها المسنّة «الكونكان»(١) مع رفيقاتها في القصاع وباب توما.. ولن نعطي السكاكين إلى المجلخ ونتأمل الشرر يتطاير من

(١) لعبة بورق الشدة.

عجلة التجليخ السوداء وهي تقول لي: جلّخي قلمك جيداً قبل الكتابة. ولن تحتج على نوري السعيد والذين يريدون بناء عرش لعبد الإله في دمشق.. ولن أقرأ عن طاولتها مجلات «الدنيا» و«الكواكب» و«فوغ» وجرائد «الأيام» و«القبس» و«النصر» و«النقاد» و«المضحك المبكي»، ومجلة سارتر وسيمون دي بوڤوار «الأزمنة الحديثة»[1] و«التايم» وصحيفة «الفيغارو» التي قالت لي إن إميل زولاً كان من كتّابها، مضيفة وهي تعلّق ضاحكة على خليط المجلات: كلنا في دمشق فسيفساء حضارات لا طاولتي وحدها!

ولن تحدّثني عن صديقتها المقيمة في «عين الكرش» قرب بوابة الصالحية والتي سرقت من جولييت زوجها قبل موته بالسرطان فهوّنت عليها الفراق بـ«تمارين على الموت اسمها الغيرة» على حد تعبيرها. ولن ترافقني حين أشتري لجدتي منديل «الكريب دو شين» ليتدلى من تحت الملاية أو «البرلين».. ولن نمر أمام ملهى الليدو وشهرزاد.. ولن أذهب إليها مزكومة الروح والصدر فتعدّ لي البابونج وتبخيرة الكينا وتزجرني وتعيدني إلى المنزل.. ولن آكل عندها «الموس أوشوكولاه»[2] والكراوية[3] بمناسبة ولادة أختها.. ولن أرافقها إلى «الأوريان بالاس» لزيارة أستاذتها الفرنسية العجوز الآتية كسائحة هذه المرة. وإلى «الجراند أوتيل» في بلودان لابسة فستاني الأخضر الذي تحبه. ولن تعلّمني كيف أرقص الباسا دوبل والرومبا والكونغا والراسبا[4] وأبي يضحك.. ولن.. ولن.. كل ما أحبه يموت، وعليَّ أن أتعلم كيف أكون وحيدة مع حبري على الورقة كما نصحتني جولييت. وداعاً جولييت.. وداعاً يا أنا.. لن أكون بعد اليوم الشخص ذاته الذي كنته قبل أن أعرف جولييت. كأن الذين يحبوننا يتقمصوننا بعد موتهم ويتابعون حياتهم ممتزجة بحياتنا. كأنني أنا لست أنا بل ذلك المزيج مني ومنهم).

* * *

ظلت زين بعد موت أستاذتها جولييت محمومة أياماً. تكتب داخل رأسها وتهذي بصمت وتقرّر أنه بدون تشجيعها لن تجرؤ على الكتابة لمجلة المدرسة (بوران «كتبت» لجهينة حجاباً وتعاويذ. وأبو عيدو «كتب» لجهينة القصر المنيف.. وأنا أحاول أن «أكتب» عن ذلك كله وعن غيره.. هل كانت البداية يوم «كتب» أول رجل في العصر الحجري كوابيسه على جدار كهفه؟

(١) «الأزمنة الحديثة»: Les Temps Modernes.
(٢) الموس أوشوكولاه: حلوى فرنسية.
(٣) حلوى شامية تقدم بمناسبة الولادات.
(٤) أسماء رقصات كانت شائعة يومذاكْ.

ها أنا في غار قلبي، أقرأ أحزاني حتى مطلع الفجر.. من «كَتَبَ» لجولييت حتى ماتت هكذا؟ أم أن ذلك كان «مكتوباً»؟

هل من «المكتوب» عليَّ أن أجبن عن «الكتابة» وألوذ بأوهامي وأمضي من هزيمة إلى أخرى؟ ألوذ بـ«فانتازماتي»(١) كما كانت تدعوها جولييت. هل صارت جولييت جزءاً من لغتي؟ وحتامَ ستظل بعد موتها تعزف شوبان داخل أذني ليلاً حين أتجرأ على محاولة النوم وهي تنتظرني في كوابيسي؟ ها هي جولييت أيضاً تتحوّل كأمي إلى فكرة سديمية، وحقيقة أخرى وهمية، راحلة بين الصوت والصمت. آه كم يشبه الصمت الصوت، ويمتلىء به! ألهذا ثمة حرف واحد يفرقهما؟ ما أندر الذين يسمعون الصمت وجولييت كانت كذلك وتقرأ اللامكتوب أيضاً).

* * *

تتمدد زين فوق سريرها منهكة وتطفىء الضوء بعد ساعات من الدراسة سبقتها ساعات ابتلعت خلالها قرصين من «الماكسيتون» كي تسهر طويلاً. تغمض عينيها والأفكار تعربد داخل رأسها وهي عاجزة عن النوم بسبب عقار الماكسيتون (أحاول أن أرى في الظلام.. أحاول أن أرى الدنيا كما تراها بومة. قرأت في الكتاب الذي أهدتني إياه جولييت أن عين البومة مختلفة عن عينيّ أنا المخلوقة بشرية، ولكن ذلك لن يمنعني من التجربة ضمن طاقتي المحدودة قياساً إلى البومة، ويا لها من تجربة جديدة ممتعة! يدهشني أن لا ظلام حقيقياً مطلقاً، حتى وإنْ أغلقت عينيّ.

وكلما شددت بجفني أكثر لأحكم إغلاق عيني ازدادت نقاط الضوء البيضاء.. وكلما ازداد الظلام حلكة ازدادت نقاط الضوء. ترى هل يرى الناس كلهم الظلام على نحو واحد كما يرون الضوء؟ أحب أن أرى وأنا مغمضة العينين وفي الظلام. فالظلام فسيفساء من الأبيض والأسود وآلاف الرماديات المختلفة بينهما.

تزداد الرؤيا وضوحاً كلما تناقصت الرؤية. في الضوء أرى الأوهام. في الظلام أرى الحقيقة. حين أغمض عينيَّ في الظلام تأتي أمي ممسكة بيد جولييت. ولا أرى التفاصيل العابرة بل أرى مملكة قاعي.. كأني لا أرى إلا في الظلام...

بدأت أفهم لماذا يطير البوم في الظلام.. إنه لا يبالي بأن يروه أو كيف يرونه.. المهم عنده أن يرى.. أن يعرف.. أن يطير.. إنني كعادتي أهذي كتابةً داخل رأسي دون أن أجرؤ على تسطير هذياني على الورق ربما هرباً من المسؤولية.

---

(١) «فانتازماتي»: هواماتي، خيالاتي.

بوسعي أن أكتب ما شئت داخل رأسي وأن أعتقد أن ما أخطّه أهم من «الدون الهادىء» و «جسر على نهر درينا» أيضاً الذي أطالعه هذه الأيام. الكتابة امتحان والورقة البيضاء ترعبني بصراخها: أرني ما عندك! كل ما عندي حفنات أوهام، منها مثلاً قولي إن البومة لا يهمها كيف تبدو من الخارج. هذا خطأ. قرأت في الكتاب الذي أهدتني إياه جوليت أن البومة تنفخ جسدها وتفرد جناحيها إلى أقصى مدى ممكن لتبدو أكبر حجماً مما هي وتخيف أعداءها.. لا يحق لي أن أقول أشياء خاطئة وغير دقيقة لمجرد أنها تبدو لي جميلة. أسمع صوت أبي باستمرار: حاسبي نفسك وفتشي عن الحقيقة).

تتقلب زين في سريرها منهكة وعاجزة عن النوم أو اليقظة (من الأشياء غير الدقيقة التي كتبتها الآن داخل رأسي أنني لا أرى إلا في الظلام. الدقة العلمية تقضي أن أميز بين ماذا أرى وأنا مغمضة العينين، وماذا أرى في الظلام وأنا مفتوحة العينين.

ها قد بدأت آثار الاستعداد لامتحانات «البكالوريا» العلمية تظهر آثارها حتى في كوابيسي.. يبدو أن كل شيء يدمغني، ما أحبه وما أكرهه، بل إن ما أكرهه ربما كان يدمغني أكثر.. فكيف أعيش داخل أنبوب مفرغ من الهواء؟ لو كانت أمي وجوليت لا تزالان حيتين لأجابتا على هذا السؤال. دوماً أمي.. كأن موت جوليت يعيد موتها حياً والجرح حاراً).

تحاول زين أن تخطو بعيداً عن سديم الذاكرة. تركض في متاهات ليل مائي لزج ثقيل صامت. تضيق أنفاسها. تحاول عبثاً ألا تغرق. فضاءات لامتناهية من الفراغ المزدحم بخواء الغموض وغبار الليالي الغابرة المتساقطة على رأسها وهي عبثاً تقتفي أثر أمها وسط دياجير المنزلقات (آه لو كان بوسعي أن أخلع ذاكرتي وأعلّقها على مشجب أنصبه فوق الشرفة، وتأتي الريح فتعبث بها كثوب عتيق وتطير بها إلى حيث لا أدري.. أشعر أنني أتفتت. أتطلع بشوق إلى يوم الذهاب لقضاء العطلة الصيفية في الريحانية برفقة أصدقائي من أشجار وبوم، وأقيم في «مدينة الدلبة» وسكانها من عصافير وأفاعٍ وسحالٍ، والنهر والنبع وكل ما يساعدني في الطبيعة على تحمّل موتي في حياتي).

* * *

يتظاهر عيدو بالنوم، بينما ترتدي جهينة ثيابها في العتمة النسبية للغرفة.

(تراها تخونني؟ ولماذا تشعل شكوكي تلك شهوتي إلى جسدها من جديد

بعدما كانت النار قد خمدت والحب صار رماداً؟ تراها تذهب إلى «المشغل» باكراً هكذا للقائه بحجة إنجاز فستان عاجل لعروس «مدهنة»[1]؟ لقد صدق أصحابي. النساء شر كلهن. ساحرات، خبيثات، ماكرات، يُقَبّلن ويلسعن في آنٍ. لقد رفعتُ جهينة من خادمة إلى كنة لأمي ابنة الباشا، وحاولتُ الانتحار كي أفرض هذا الزواج على أسرتي. فماذا وجدت؟ وجدت نفسي بعد عامين مع امرأة تمنحني جسدها كمن يقوم بواجب بغيض، لا شاغل لها إلا الطفل، وخياطة فساتين الأعراس والزبونات و «الاستقبال» والصلات النسائية والعناية بأبي بدهاء بارد إلى أن استطاعت انتزاع ملكية البيت مني. امرأة قاسية تفسد لي زواجي من لمياء برهون الباشا وتحيل العرس نبع فضائح وتندر مؤذ، وتسحر أبي فيطوّب البيت الكبير باسمها وباسم الصبي ويحرمني بسببها، وتخرّب محاولتي اليائسة لترميم حياتي واستعادة كبريائي. لقد استطاعت هي بخبثها ومهارتها كخيّاطة أن تؤسس لنفسها مكانة اجتماعية، وخسرت أنا مكانتي واحترام أصدقاء طفولتي الذين أشفقوا عليّ لزواجي من خادمة ونصحوني ولم أرتدع. ولم يعد بعضهم يتعامل معي حتى كتاجر.. لقد جاءت من قريتها في الشمال واستولت على حياتي وبيتي.. وفوق ذلك كله ها هي اليوم تخونني. وبدلاً من أن أكرهها يداخلني شعور غامض بالانجذاب من جديد إلى جسدها، كأنني أراها على الضوء الأزرق لعينَيْ ذلك الجندي اللعين الصغير، الوسيم في ثيابه الكاكية، الذي يطاردها وأنا ألاحقهما ثم يختفيان عند المنعطف. وأعود بعد ذلك كله إلى فراشها متأججاً بالشهوات القديمة نحوها مضاعفةً. وبعد مضاجعتها متقداً بالعنف كأنني أطعنها بجسدي، أحلم كل ليلة أنني أقتلها وأستخرج قلبها وأطعمه للقط هارون وأستيقظ هلعاً. فماذا يحدث لي؟ وإلى أي جحيم تجرني هذه المرأة الجميلة المرعبة مثلهن كلهن بنات حواء؟ وأي عذاب أعاني حين استولي على جسدها مهزوماً ولا أشعر أن بوسعي أن أمتلكها إلا بالقتل! ولماذا صرت أحلم بخنقها في اللحظة ذاتها التي يرتعش فيها كياني بالحمى والنشوة والجنون كأن لذتي لن تكتمل إلا بقتلي لها؟).

يسترق عيدو نظرة إليها. يراها تمشط شعرها الأشقر الطويل (تراه، عشيقها الشاب، يحمل هذا الشعر بين يديه ثم يرفعه إلى قمة رأسها ليشرق وجهها عارياً وهو يحصي مسامه بشفتيه ثم يبحر في زرقة عينيها حتى الينابيع الحارة كما كنت أفعل؟ تراه يقبّلها كما كنت أقبّلها في الفترة الأولى لتعارفنا وترتجف هي كعصفور دافىء

(١) مدهنة: ثرية.

تزيد رعشته في شهوات الصيد؟ تراه.. تراه..؟ ومنذ متى؟ ألهذا عملت مع أم راتب الثرية كشريكة «مضاربة» واستأجرتا الدكان القريب وحولتاه إلى مشغل لثياب العرائس حيث تدّعي أنها تقضي أوقاتها منذ أشهر؟ ألهذا كذبت مدّعية أنها لا تريد استقبال زبوناتها في البيت بعدما كثر عددهن، واستقلّت في المشغل الخاص بها، ولم تعد تتفرغ لأعمال البيت مذ صارت صاحبته بعد زواجي المحبط من لمياء وجاءت بخادمة تعتني بالولد في غيابها؟ وهل اختارت الخادمة مسنّة تعبيراً عن قلة ثقتها بي؟ وماذا عن ثقتي بها، وأنا أعيش مع امرأة وربة أعمال محنّكة ماهرة لا صلة لها بتلك الطفلة الجميلة البريئة المذعورة المسكينة التي أحببتها ذات يوم؟).

ما كادت جهينة تغادر الغرفة حتى قفز عيدو من السرير. ارتدى ثيابه بسرعة. لحق بها وهو يرتجف. انتظر حتى قطعت «زقاق الياسمين» وانطلق في أثرها. (شاهدتُها للمرة الأولى معه منذ شهرين، حين ادّعت أنها ذاهبة إلى «سوق العتيق» لبعض المشتريات. ما كدت اقترب حتى اختفى في الزحام. وحين سألتها عنه قالت: غريب يسأل عن الطريق. وصدّقت ما لا يُصدّق. كنت يومها لا أبالي كثيراً بما تفعله أو ما لا تفعله. أنام في غرفة مستقلة وأعمل ليل نهار في تجارة أبي وقلما أبادلها الكلام إلا لشأن يتعلق بوالدي، وأعرف أنه يوم يموت أبي وأرث معظم ثروته سأستقل وأرمم حياتي وأتزوج بامرأة تليق بأن تنجب لي أولادي.. امرأة لا أخجل بها ولا تعيّرني غمزات أصحابي بأصلها وفصلها.. سيدة مثل لمياء.

في المرة الثانية شاهدتُه خارجاً من دكانها، وأنكرتْ ـ حين سألتها ـ معرفتها بأن رجلاً خرج من المشغل وأكدت أن دخول الرجال إلى المشغل ممنوع ولعله زوج إحدى «شغّالات الإبرة والشك»[1] والتطريز وقد مرّ بها لأمر مهمّ. لم أصدقها فالعاملات الأربع كلهن من بنات الحي وليس بينهن من هي متزوجة من جندي.

في المرة الثالثة همس صديق طفولتي في أذني. لقد شاهدهما معاً في «البزورية»[2] وهي تبكي وقد كشفت حجابها لمسح دموعها، وأقسم أنه شاهدها تعطيه مالاً. وأكد أنه أحصى أكثر من ٥٠٠ ليرة، فلمَ منحته هذه الثروة الصغيرة؟ وبدلاً من الكراهية اتقد غرامي بها من جديد. وسبب لي ذلك ذعراً من نفسي لا من مواجهة خصمي. إذ كيف أستعيد غرامي بزوجتي لمجرد أنها خائنة؟ صرت أتأملها من جديد وهي تنحني على الطفل وتدلّله برقّة افتقدتها منها من زمان. أتأملها وهي

(١) التطريز بالقطع البراقة وتخييطها على الثوب.

(٢) البزورية: اسم سوق في دمشق القديمة.

تخلع ثيابها ويشع من بشرتها قمر حار، وقد خالط ملامحها حزن سري منحها نمطاً من الجمال الوحشي الصاعق كأن غرامها اليائس بالجندي أضاء في داخلها مصباحاً فتبدت جديدة وأخّاذة. أتأمل جسدها المشدود المتوتر وهي تنحني أحياناً على الأرض لتمسح رخام «الديار» «ليلة الوقفة» وتشارك «خادمتها» الأعمال المنزلية بعد عودتها من المشغل إذا كنا بانتظار ضيوف كأنها لا تتعب. . لا تتعب من شيء. لا من خدمة أبي الذي ظلت على رعايتها له رغم عملها في المشغل. . ولا من العمل ولا من الأمومة ولا من الحب. . كأنها جائعة منذ عصور وتريد أن تلتهم كل شيء مرة واحدة. . التهمت أبي بعدما التهمتني، فهل تلتهم الآن عشيقها؟).

تريث عيدو قبل أن يلحق بهما إلى داخل الدكان. الأزقة شبه خاوية، في ذلك الوقت المبكر، ولكن أم راتب الأرملة الستينية المتوحدة تفتح الدكان الواقع لصق بيتها عند الفجر وتشرب قهوتها وهي «تتصبب» على فساتين العرائس وتنتظر وصول الشغّالات وجهينة لتتسلى. لم يخطر بباله أن تلك السيدة المحترمة تعمل «قوّادة» لزوجته. ولكن ها هي جالسة في المدخل كالحارس. ارتسم في عينيها ذعر لم يخفَ على عيدو. حاولت استيقافه و «التصبيح عليه»، لكنه أزاحها جانباً واندفع كالمجنون إلى الغرفة الداخلية. فتح الباب. شاهد أمامه ما جعل أسوأ ظنونه تتحقق. كانت جهينة تبكي والجندي يحيطها بذراعه برفق كمن يهدهد طفلاً بحنان بالغ الرقة.

رفع عيدو يده ليغطي بها عينيه وأدرك في ومضة كالبرق حقيقة مزدوجة: إنها تخونه وإنه ما زال يحبها ولا يريد أن يخسرها! ندم لأنه جاء. فكّر بأن يستدير ويمضي. كان يتوهم أنه سيقتلهما معاً إذا صحّت شكوكه، وها هو الآن نادم لا يريد غير الهرب. شهقت جهينة وقالت العبارة «التاريخية» التي كان عيدو يسخر من الرجال المخدوعين الذين تُقال لهم: الأمر ليس كما تظن. . رفع يده عن عينيه وقد داهمته رغبة مفاجئة في صفعها وقتل غريمه أمام عينيها قبل قتلها، لكنها أضافت على عجل: هذا شقيقي. لقد أرشده أمجد بيك إليّ، ولم نكن نعرف بعضنا بعضاً. نلتقي سراً خوفاً منك. وانفجرت باكية وهي تقول: جاء الآن ليخبرني بموت أبي. . .

صمت الرجلان وهي تنتحب وتقول: ولم أرَ أبي. . رفضتُ أن أراه وأن أسامحه. . والآن. . مات. . ظلا صامتين جامدين وقتاً طويلاً وهي تنتحب، ثم أحاطها عيدو بذراعه وقال للجندي بلطفٍ يخفي فرحته لاكتشافه أنه شقيقها: هيا بنا إلى البيت وأهلاً بك.

* * *

تغادر زين بيت رفيقتها كوكب في البساتين قرب «جامع الروضة» في شارع أبو رمانة بعدما درستا طوال النهار استعداداً للامتحانات. تخفي في جيبها عدة حبوب «ماكسيتون».. تلك التي نصحتها كوكب بتناول واحدة منها كلما داهمها النعاس كي تستطيع السهر طوال الليل ومتابعة المذاكرة، وحذّرتها من قول شيء لوالدها مما جعل الأمر يكتسب عندها أهمية خاصة، كعادتها مع الأسرار كلها.

لا تدري زين أية نزوة جعلتها تختار أن تمر بوسط الحديقة العامة الصغيرة مقابل الجامع بدلاً من الانحدار على رصيف الشارع مباشرة إلى البيت. إنها المرة الأولى التي تتمشى فيها في هذه الحديقة وحيدة. دوماً تمر فيها مع والدها أو على الرصيف خارجها ويكونان مشغولين بالحوار. ها هي الآن تمشي فيها وهي تنفرد بأفكارها. تتذكر حين كانت بنتاً صغيرة قبل أعوام تصطحب بنات عمّها وعمّتيها للعب فيها كلما جئن لزيارتها وجدتهن وقضاء يوم معها وليلة يتم خلالها مد «الفرشات» على البلاط وتنام البنات «روس ورجلين»[1] جنباً إلى جنب كي لا يثرثرن وقت النوم.

كانت الحاجة تزجرهن لأنهن لا يلعبن في البيت ويفضلن كالصبيان (يا لطيف!) الخروج منه، ولكن أمجد كان يأذن لها بأن تُطلع البنات على الحي الجديد شديد الاختلاف عن «زقاق الياسمين»، وتصرّ الجدة على أن يصطحبن معهن حارساً صبياً هو لؤي أو دريد أو حتى وضّاح وهاني، فهما ـ على صغر سنهما ـ صبيان ويصلحان للحراسة! تتذكر كم كان يحلو لها ولفضيلة وحميدة ومطيعة وأمية ورويدة ورزان تأمل عمال البناء وهم يشيدون جامع أبو رمانة وكم بهرتهن مرحلة بناء المأذنة. زين كخبيرة في تعمير بيوت معقدة بطوابق من «ورق الشدة» كانت مسحورة بمرحلة بناء المأذنة وتحاول عبثاً تقليدها بورق اللعب. فبناء البيوت أو تحويل «علب الكبريت» إلى «بابور»[2] بعد إدخال خيط يربط علب الثقاب الفارغة ببعضها ثم جرّ هذا القطار خلفها على السكة ثم امتطاؤه كانا من هواياتها. تتابع زين تجوالها في حديقة طفولتها ولا تشبع. تعرف أنهم يرتّبون الآن حديقة في الساحة مقابل بيتها لكنها ستظل تحن إلى حدائق طفولتها، وبصورة خاصة إلى الحديقة خلف البرلمان ونادي الضباط مقابل بناية «كسموقباني» حيث اصطحبها والدها للمرة الأولى بعدما

(١) روس ورجلين: تنام عدة بنات في فراش واحد، وقدما كل واحدة لصق رأس الأخرى ورأسها للجهة المعاكسة من الفراش.

(٢) «بابور»: قطار.

تفرجّت على الأرانب في مديرية الصحة القريبة التي يجري عليها الدكتور مأمون التجارب قبل الظهر من أجل استخلاص لقاح لمرض الكَلَب. بدت لها الحديقة يومئذٍ شاسعة وانكسر قلبها حين زارتها منذ أيام وقد صارت «عجوزاً» ـ كما يحلو لها أن تدعو نفسها ـ في الخامسة عشرة من عمرها، فدهشت لأن الحديقة أصغر مساحة مما كانت تتخيلها، وعشبها أقل نماءً وأشجارها أقل ارتفاعاً!

ظلّت زين تتسكع في حديقة أبو رمانة وتصعد على درجها وهي تتأمل جامع أبو رمانة على الرصيف الثاني وتتذكر كيف كان العمال لا يزالون يشيدون الدرج الآخر والإفريز الرخامي لمّا يجف بعد حين قررن، زين وبنات عمّها، أن هذه «زحليطة» مثالية ورحن يتزحلقن على إفريز الدرج من أعلاه ويقعن على الأرض بعدها ويقهقهن حتى جاء عامل وزجرهن ووعدهن بزرع «الخوازيق» كي لا تكشف بنات هذه الأيام عن سيقانهن أثناء اللعب. زجرهن بشدة أخافت زين كثيراً ولم تجرؤ على استئذانه باللعب نصف ساعة إضافية فهي «جبانة» (**فقط لو كان بوسعي أن أمتلك بعض الشجاعة!**). وفيما هي تغادر الحديقة لمحت بنتاً صغيرةً «تتزحلق» كالعفريتة على رخام الدرج وحين التفتت بوجهها إلى زين فوجئت بأن لها وجهها هي حين كانت طفلة. مضت نحوها ونظرت إليها ثانية. اختفت البنت.

انحدرت زين صوب البيت كي لا تقلق جدتها عليها، وغادرتها نوبة الحنين وقد امتلأت بالغبطة لأنها كبرت وصار بوسعها أن تمشي وحدها. لكنها سارعت خطوها لتصل قبل الغروب، فالغروب هو الحد الفاصل المسموح بتجاوز العتبة فيه للبنات أياً كانت الأسباب ومهما كان النهار قصيراً في الشتاء. تخاف إثارة قلق جدتها. تخاف إغضاب والدها. تخاف من كل شيء وتشعر بقيود لامرئية تكبّلها (**لو كان بوسعي أن أكون شجاعة. فلا أقف أمام الورقة وأنا أرتجف بخزي قلم جفّ حبره.**

تراني أشعر بذلك الخوف الدائم بسبب كوابيسي؟

تطاردني دائماً كوابيس تتكرر. منها ذلك الكابوس المروّع: ثمة من يدفنني حيةً في الرمال ولا أرى وجهه أو لا أريد أن أراه. ثم ينهال الرمل داخل حنجرتي وأشهق رملاً وأتنفس رملاً حتى تمتلىء رئتاي وأختنق. . .

ويتضاعف ذعري حين أرى الكابوس بصورة أخرى أتجسس فيها على أوراق أمي وأقرأ في دفتر مذكراتها أنها كانت ترى الكابوس ذاته! . . هل كانت تراه أيضاً

جدتي وجدتها وجدة جدتها من قبلها. . ومن قبلها إلى آخره. . إلى آخره؟. كم هو سهل استعمال عبارة. . «إلى آخره». ولكن هل أعرف حقاً إلى أين تقودني بالضبط، حين يتعلّق الأمر ببدء الزمان؟).

وصلت زين إلى البيت وهي تلهث. لم تكن جدتها قلقة عليها بل مريضة ومشعثة الشعر. للمرة الأولى لا تخفي الحاجّة على زين مرضها. شعرت زين بهلع بالغ: هل ستموت جدتها أيضاً؟ حين وصل الدكتور مأمون بدت له زين لقلقها أكثر مرضاً من جدتها. سألته مذعورة: هل ستموت؟ قال ضاحكاً: إنها مصابة بزكام لا أكثر. . لقد كبرت جدتنا ولم يعد بوسعها العمل «من الفجر للنجر»[١].

* * *

تتأمل زين عمتها ماوية الجالسة في السهرة العائلية وقد بدأت تغط في النوم، ويسقط رأسها على صدرها رغم الضجيج حولها. تستيقظ لثوانٍ ترفعه خلالها عن صدرها، ثم يعود ويسقط بعينين مغمضتين وفم انفرجت شفتاه. (بالنسبة لي ما من مهمة أصعب من السفر إلى النوم، ولذا أودّع أبي طويلاً ويسخر مني قائلاً: «لا أوحش الله منك يا زين»[٢]. وتبدأ رحلتي إلى النوم العسير باستمرار بحوار مع اللامرئي ما دمت ذاهبة إلى مملكة المجهول. في سريري ثمة دنيا لامرئية. . هنالك العفاريت والجان والمخاطر والممالك التي عليَّ أن أعبرها دون أن ينقض عليَّ الرخ أو تنشق الأرض تحتي أو يهاجمني ثعبان ألف ليلة وليلة مع بعض التعديلات التي أجريتها عليه وفقاً لثعباني الذي أراه بوجه شبه بشري له لحية وجسده من الذهب المرقط بالمرجان وهو جالس فوق كوم من الجماجم.

مملكة النوم ألطف ما فيها عندي الأشباح الأليفة التي تتعاطف معي وأتعاطف مع حكايا عذابها، وعند الصباح تدخل في أجساد البوم الجميل لتنام وتظل بانتظاري حتى أعود إليها.

حين أموت، وأتحول إلى شبح بدوري أتمنى أن ألتقي بشبح أمي أو أن أسكن غرفة طفلة تسامرني مثلما كنت أسامر أشباحي منذ طفولتي، لا غرفة امرأة كعمتي ماوية، تبدأ النوم مسبوقة بشخيرها ولا تتعرف على أشباحها أو تلاطفها وتنصت إلى حكاياها وهي تبوح لها بأوجاع عمرها الماضي. ولم يحدث لها مرة واحدة على

---

(١) من الصباح حتى آخر الليل.

(٢) تقال عن وحشة الفراق مع روح الدعابة في اللعب على الألفاظ.

الأقل أن مدّ الجني يده وفتح سقف غرفة نومها كمن يفتح غطاء علبة ومد إصبعيه وحملها بهما وأخرجها من فراشها إلى الليل الشاسع الغامض وهي ترتعد ذعراً بقدمين حافيتين كما يحدث لي أحياناً منذ طفولتي. عمتي ماوية لم تلتق يوماً بجني المصباح أو بعلاء الدين اللذين يزورانني منذ طفولتي، ولا تسمع الأصوات الآتية من الأصداف، ولا صوت أمي كما أسمعه من صدفة لم أعد أذكر كيف وصلت إلى غرفتي ولعلّي حملتها معي من اللاذقية.

«اسكتي يا حمقاء»...

ذلك الصوت الآخر اللعين الآتي من قاعي الساخر مني يسألني: ماذا تعرفين عن عمتك التي تحاكمينها من برجك في أعالي شجرة حور؟ من قال لك إن حصتك في مدينة الياسمين أكبر من حصتها؟ ما ذنبها إذا كانت من شارع الليمون وأنت من شارع الصفصاف وكلّ يعطي على طريقته؟ ألا ترين أنها منهكة بعد يوم طويل من العمل في صالون الحلاقة كنتِ خلالها أنتِ تغازلين نهر بردى وتأكلين الخيار المملح الذي قشرته لك فهيمة ورشت عليه جدتك الملح وتطالعين دوستويفسكي بالفرنسية وتبكين مع ما لا تدرينه؟ من قال لك إن الناس هم ما يبدون عليه في نظرك؟ من قال لك إن قلبها ليس أكثر هشاشة من قلبك ومخاوفها ليست أكبر من مخاوفك؟ من أوهمك أن دمشق مدينة صخرية ثابتة الحقائق والملامح؟ ألا تلمحين أنها مدينة مائية متماوجة، مرنة العلاقة مع الأشياء مثل بشرها؟ أيها البوم اللطيف الذي يسامرني ليلاً وأطير معه سراً، علّمني كيف أكون مرنة مع الناس والزمن كمدينتي.. علّمني الخروج من جسدي الجزيرة إلى فسيفساء الآخرين.. علّمني كيف أحترم قدرة عمي على المرور بالفقر كما بالثراء، وعلّمني كيف أفهم رغبة عمتي بوران المتوارثة في الظهور بمظهر أفضل مما هي عليه حين تمر بأيام العُسر.. علّمني كيف احترم مزايا الادّعاء الذي ليس في جوهره كذباً بل كبرياء.. علمني كيف أحاول فهم الناس لا محاكمتهم كما طالبني أبي عشرات المرات كلما أبديت رأياً سلبياً بإنسان).

شاهد آل الخيّال زين تقفز فجأة من موضعها في السهرة العائلية لتضم إليها عمتها ماوية وتُقبّلها بحرارة على خدّيها كمن يعتذر عن إثم...

ضحكت الأسرة وقال أمجد: هذه هي زين!

* * *

استيقظ أمجد باكراً كعادته. صلّى صلاة الصبح. لم يعد إلى النوم. تتراكم

مسؤوليات العمل عليه يوماً بعد آخر. لم يعد يتسع وقته كالسابق للشوق والذكرى والحنين.. ولا حتى للجلوس في المقهى. الأوقات القليلة التي تفيض عن وقت العمل يقضيها في صحبة زين وتربطهما صلة نادرة من الهوايات المشتركة، كعشق الطبيعة والمشي في بساتين الشام والسباحة وصحبة الأصدقاء المشتركين، فقد صار صحبه «العجائز» أصدقاء لها تفرح بحضورهم وأحاديثهم ويمتّعها الحوار الفكري وتلاوة الشعر رغم صغر سنها. ككل الآباء، يتوهم أنها أكثر نضجاً من سنها لكن «الولد ولد ولو صار قاضي بلد»، وهي في النهاية بنت مراهقة، ويجد الكثير من الصعوبة في التعامل معها أحياناً حين تصر على أنها تعرف مصلحتها وتعرف كل شيء (ككل أبناء سنها)، ويخشى كثيراً من «كسر الجرّة» بينهما ويحتفظ دائماً بشعرة معاوية معها حتى في أكثر لحظاته غيظاً وغضباً.

حين وقف يحلق ذقنه في الحمام دخلت زين كعادتها ودودة تسامره. كانت تلك لحظاتها المفضلة لقول ما تريد، فهو «يحلق ذقنه» وليس بوسعه أن يرد عليها خوفاً من أن تجرحه الشفرة، ولا يستطيع التوقف ليكلّمها لضيق وقته. آلاف الأشياء الصغيرة والعادات الأليفة تربطهما ببعض. وحين يعود إلى البيت بسيارته «السيتروين» تسمع الصوت الحاد الذي تصدره السيارة حين يرجع بها إلى الخلف فيجدها واقفة على الباب لاستقباله. وحين يعود مشياً على الأقدام يحرك مفاتيحه العديدة داخل قبضة يده قبل أن يفتح الباب بالمفتاح، فيصدر عنها صوت خاص يعرف أنها بسمعها الحاد تترقبه وأنها ستقفز أياً كان ما تفعله لتركض بلهفة قطة تسمع خطى صبي اللحام الذي يحمل لها «الشخت»[1] الشهي وتحرص على أن تكون في استقباله أمام الباب. بل إنها تفتحه له غالباً قبل أن يجد الوقت لإدارة المفتاح في ثقب القفل. أما يوم الجمعة فيقضيانه معاً دائماً..

يخرجان إلى جبل قاسيون ويتسلقانه، ويزوران قبة السيّار، ومكان سفينة نوح، ومنزل سيدنا آدم (قرب حي الأكراد)، وإحدى قمم الجبل حيث قتل قابيل شقيقه هابيل، وكهف جبريل حيث جاءت الملائكة للتعزية بهابيل، ومكان مولد إبراهيم عليه السلام في شرقي الجبل، ثم يهبطان إلى الربوة قرب صخرة «اذكريني دائماً» حيث كانت تقيم حنة أم مريم والدة السيد المسيح عليه السلام، وغير ذلك من الأماكن التي طالما حشت جدتها رأسها بحكاياها. فأهل دمشق يتناقلون الأساطير عن جبلهم ويخترعونها ويصدّقونها، لكن تلك الأساطير جعلت لنزهتهما الأسبوعية

(١) الشخت: لحم القطط.

مذاقاً تاريخياً خرافياً استثنائياً تطرب له زين. ويمشيان بعد ذلك من هناك إلى البساتين بين ساحة المهاجرين وساحة المدفع حيث الخضرة الكثيفة التي لا تقطعها إلا بيوت نادرة متناثرة لسكان آثروا الإقامة في هذا الريف خارج دمشق وعلى حدودها، بل إن بعضهم ابتعد إلى حد الإقامة في المزة ودمر. . ولكن أحداً لم يبتعد بعد عن دمشق كما فعل عزمي، الشاعر الذي أقام في بيت ناءٍ جداً وسط بستان في الهامة!

أمجد وزين لا يراهما الناس معظم الوقت إلا معاً يذهبان أحياناً لزيارة الأصحاب في الأعياد، ويمشيان حتى القصّاع وباب توما ويعودان مشياً على الأقدام ويتوقفان عشرات المرات لمصافحة الأصحاب. . يلتقيان دائماً بزكي الأرسوزي أمام مدرسة الفرنسيسكان فتسأله زين عن إسكندرون ويكاد يبكي. ويلتقيان بصديق آخر فيقلقهما بما يرويه لهما عن المحامي نجاة صديق أمجد الذي تدهورت به سيارة صغيرة جديدة تدعي «الڤولسڤاجن» تشبه الخنفسة[١]، في طريق الربوة ونجا بأعجوبة وببعض الكسور والجراح. أما السيارة فعجنت عجناً حتى لا يصدق أن حياً وخرج منها! يسعدها اكتشاف أصدقاء أبيها، وصحبته مع أشخاص قد يختلف معهم في الرأي لكنه يتفق معهم على حب الشام. أما مساء الخميس فمكرّس للسينما، ومحرّم على زين أن ترافق صديقاتها يوم الخميس بعد الظهر إلى الأفلام العاطفية. إنه يصطحبها بنفسه إلى حفلة السادسة مساءً لمشاهدة فيلم حربي أو تدور قصته عن «رعاة البقر» ويحجز لهما مسبقاً مقعدي «بولمان»[٢] في الصف الأول في الوسط تماماً كما تحب زين. وكم يتضايق حين تقدّم الشاشة قبلة للبطل والبطلة. وقد طلب منها ذات مرة أمام قبلة ملتهبة أن تدير وجهها وكانت في الحادية عشرة من عمرها، ومن يومها وهي تدير وجهها تلقائياً كلما شاهدت قبلة ويشعر هو بالحرج ويحار كيف يربيها. . ويتمنى لو كانت أمها حيّة ليتحدثا معاً في الأمر. . (من الصعب أن **ألعب دور الأب والأم معاً، وهو ما أفعله منذ أكثر من عشرة أعوام)**.

ذلك الصباح لم تكن زين مناكدة، ولم تطلب منه من جديد شراء دراجة هوائية لتذهب بها إلى المدرسة، «وإذا لم يعجب ذلك أحد فتلك مشكلته» على حد تعبيرها، بل تأملته وهو يحلق ذقنه والمحبة والإعجاب والاحترام تفيض كلها من عينيها، فشعر بالزهو والسعادة. تسأله فجأة: كم عمرك يا أبي؟ أجابها: خمس وثلاثون سنة! لا يدري لماذا كذب عليها وحذف ثمانية أعوام لعينة من عمره! كان

(١) الخنفساء.
(٢) درجة أولى.

حريصاً على ألا تجده «عجوزاً» خوفاً من أن ترفض الحوار معه وينقص تقديرها له!

خجل من نفسه وقرّر أن يصحّح الرقم لكنه لا يدري لماذا ظل صامتاً، ربما إكراماً لنفسه إذ صعقه أنه تجاوز الأربعين كما لو لاحظ ذلك للمرة الأولى. أقنع نفسه بأنه سيجرح ذقنه بالشفرة إذا نطق. وفاجأته زين بموضوع آخر للكلام هو استمتاعها البالغ بقراءة مسرحيات أوسكار وايلد التي كان قد حملها إليها تلبية لعشقها الجارف للأدب. سألته فجأة: لماذا لا تتزوج من فدوى طوقان؟ إنها شاعرة رائعة ولعلها الوحيدة التي سأفرح بأن تكون خالتي زوجة أبي!

لم يتمالك نفسه. قهقه وزجرها متحبباً: كفاك حديثاً عن الأدب يا «دكتورة خانم». عما قريب تنالين شهادة «البكالوريا» العلمية وتدخلين إلى الجامعة لدراسة الطب. وقاك الله من الأدب ومتاهاته.

كانت تحاول أن تقول له إنها لا تريد دراسة الطب ولم تجرؤ.. قبّلته على خده كعادتها والصابون يغطيه، وغسلت الصابون عن خدها بقليل من الماء وقالت له: سأفعل ما تراه يا أبي. هذه عادتها معه. لا تتركه يذهب صباحاً دونما تحية منها، ولا تجرؤ على مضايقته بكلمة.

ارتدى ثيابه بسرعة، وغادر البيت والساعة لمّا تبلغ السابعة بعد، وقد أحسّ بنشاط استثنائي وبقوة على مواجهة العالم الخارجي.

* * *

تدرس زين ليلاً على الشرفة حين يداهمها النعاس وتروح جيئة وذهاباً. صوت المذياع يهاجمها من شرفة الجيران: «أنتَ أنتَ ولا أنتش داري.. أنت أنت نعيمي وناري». بعد قليل ينشد مطرب آخر: «قدّك المياس يا عمري». بعدها ينشد ثالث: «علموه كيف يجفو فجفا». **(أسمع دائماً رجالاً يغنّون ويتغزّلون برجال مثلهم ويقصدون بذلك النساء.. ها هو عبد الوهاب بصوته الأجش يغازل ذكراً وعينه على امرأة. تورية.. دنيا من التوريات أعوم فوقها.. دنيا من الكذب بالتراضي.. كل ذلك يعذّبني وما باليد حيلة.. لو كنت أجرؤ على الكتابة لاسترحت قليلاً ولربما صار التعايش مع العالم المضحك المرعب المحيط بي ممكناً).**

* * *

إلى المطعم على ضفة بردى في دُمّر رافقت زين والدها للعشاء مع الدكتور أورهان كي ترتاح قليلاً من عناء الدراسة. كان يعرف أنها تحب نهر بردى وضفافه

والجلوس في مقاهيه سواء تلك المعلّقة على نهر يزيد الأعلى والشلالات تتدفق أمامها أو تلك الملاصقة لضفته على طريق الشام في دُمّر تحت العريشة على شرفة معلّقة فوق الماء.

ألحّ عليها أورهان ونظراته تخترقها وترى روحها كما خيّل إليها: جربي الضفادع.. إنها شهية! (الضفادع؟ هل ثمة عاقل يأكل الضفادع؟ من أجل رجل مثل أورهان، هو مزيج من الفولاذ وضوء القمر، أنا مستعدة لتجريب حتى طعم اللحم البشري! أخاف من أكل الضفدعة لكنني أشعر في الوقت ذاته أنني مستثارة للفكرة. تجريب ما لم أجربه من قبل).

رفض أمجد بشدة وقال لأورهان ضاحكاً: أنت تتدرب عندي في مكتب المحاماة، فهل تريد الآن تدريبي وابنتي على أكل الضفادع؟ التمعت صلعة أمجد فرمقتها زين بإعجاب وحب، وأدركت أن من أسرار وسامة أورهان أنه أصلع هو أيضاً وهو ما لم تلاحظه من قبل. قبلت فكرة تجريب التهام ضفدعة دونما تردد رغم اشمئزازها. قال لها الدكتور أورهان: أغمضي عينيك وأنت تتذوقينها ولا تنظري إليها وامسحي من ذهنك نفورك. تخيَّلي أنك تأكلين فخذ عصفور. دهشت زين حين تذوقت الضفدعة ووجدتها شهية بالرغم من أن أكلها غير شائع وليس متعارفاً عليه. ارتجف أمجد قرفاً منهما.

قالت زين لوالدها مداعبة: ألا تريد أن تجرّب طعماً جديداً؟ ذلك يعني أنك تقدمت في السن ولم تعد عجوزاً صغيراً في الأربعين.. نفى التهمة عن نفسه بشدة وقال إنه أيام دراسته في باريس وشبابه كان يأنف من أكل «البزّاق» وكل ما يشبه الحلزون، وحتى الأصداف.

قالت له: أنا أحب أن أجرّب كل شيء.. والضفادع شهية ولعل الحلزون مثلها..

لا يدري أمجد لماذا شعر بالقلق! ضحك الدكتور أورهان قائلاً لزين: إذاً فقد أحببتِ الضفادع مثل خطيبتي (خطيبته؟ إذاً له خطيبة؟ شعرتُ بوخزة صغيرة حامضة في قلبي. حينما كنت صغيرة وعمري اثنتي عشرة سنة، كنت أدهش لأن من أحبه لا يعرف من تلقاء نفسه ولا يحبني ولا يقرأ على جبيني قصائدي التي كتبتها له داخل رأسي. الآن صرت كبيرة وأعرف كل شيء في الدنيا أكثر من الكبار.. ولكنني ما زلت أجهل لماذا أفرح كلما خسرت حبيباً؟ هكذا، فرحة صغيرة تطفو فوق سطح الحزن وصوت غامض من قاعي يقول لي: ثمة شيء في الحب يمكن أن يكتم

أنفاسك. يجب أن تخسري حبيبك لتكتبي عنه بصورة أحلى وتتلذذي سراً بمطالعة قصائدك.. إذاً أورهان له خطيبة!.. لقد خسرته وربحت قصيدة. بدأت أكتبها داخل رأسي. حين عدت ليلاً بكيت قليلاً في السر بلا دموع وغمرني حزن لذيذ لفراق أورهان، وانتشيت وأنا أكتب القصيدة الحزينة لحبي المكسور داخل رأسي. حلمت ليلاً أنني أخنق خطيبته، وأنني أُطلعه على قصيدتي له. استيقظت من كابوسي مذعورة. لم يكن الكابوس خنق خطيبته بل قراءته لقصيدتي. أخاف من أن يقرأ أحد حرفاً أخطّه. أخفي دفتر مذكراتي تحت فراشي. أما يوم الأربعاء الخاص بالغسيل، فإنني أخفيه قبل ذهابي إلى المدرسة داخل خزانة ثيابي، هذا بالرغم من أن جدتي أمّية!.. خائفة.. دوماً كنت خائفة من الغول والجني وأنكر ونكير والعفريت الذي يشدّني من شعري كل ليلة من تحت الفراش حين يمد يده التي تستطيع أن تستطيل كالمطاط، يده الهلامية الزرقاء المخضرّة التي طالما أوشكت أن تخنقني لو لم أسارع إلى إضاءة النور.. خائفة من عمتي بوران ومن لؤي ودريد وغيرهما ومن معلمة خانم.. خائفة من كل ما أعرفه وما أجهله.. خائفة من خيبة أبي بي إذا فشلت في دراسة الطب.. وخائفة على من أحب من الموت.. وخائفة من نفسي إذا سألتُها ماذا تريد، فهي لا تعرف شيئاً غير أنها خائفة وجبانة يقتلها الخجل وتتصبب عرقاً إذا حلمت بأنها تقف على المنبر مثل عزيزة هارون[1] تقرأ قصائدها. لشدة خوفي لا أجرؤ حتى على الحلم).

---

(١) شاعرة سورية.

الفصل الأول (محاولة رابعة)

حرّاس الصمت

أو

متلصصة عبر ثقوب الزمن*

(*) بعد قراءة هذا الفصل أترك للقارئة/ القارىء اختيار العنوان الذي يعجبه وشطب الآخر.

جلست زين طويلاً على الحافة الرخامية لبركة الماء التي تتوسط باحة الدار تداعب القط «هارون الثاني» الذي حل محل الأول بعد موته بالشيخوخة، منصتة إلى خرير افتقدته في «البيت الجديد» في شارع أبو رمانة، الذي لا يزال الجميع يدعونه «جديداً» بالرغم من انقضاء أعوام عديدة على إقامتهم فيه تزيد عن ربع عمر زين. . . وهو سيظل جديداً لمائة عام على الأقل في نظر آل الخيّال قياساً إلى عمر «البيت الكبير» الذي شُيد بعضه من أحجار سور الشام منذ مئات الأعوام. . قامت زين بعد ذلك بدورتها المألوفة كلما زارت «البيت». تفقّدت «الكنز» في حوض الأزهار البيض من ورد وغاردينيا وفل وياسمين، وما زال أهل البيت يدعونه بـ «حوض الحاجّة». تفقّدت بقية الأحواض ورخام الفناء. . **(ترى أين الكنز؟ لا أدري ولا أحد يدري على وجه التحديد. هل يرقد في حوض جدتي أم تحت رخام «البحرة» أم في مكان آخر؟)**. بعدما أنصتت زين من جديد إلى سيمفونية الماء في البركة والإيقاعات الجانبية من «السلسبيل» و «الفسقية»، مضت إلى سطح البيت لتتفقد المشهد المحبَّب إلى قلبها حيث سطوح البيوت القريبة العتيقة تطالعها وتحيِّيها وكلها أقل ارتفاعاً من مآذن الجامع الأموي القريب ومن جبل قاسيون الذي يطل على المشهد مثل حارس أزلي للمدينة بوسعه أن يستيقظ ويتحوّل إلى بركان حي إذا تجرأ أحد وهددها. . . من بعيد بدت بعض الأبنية الجديدة عالية ونائية، تسلق بعضها جبل قاسيون وقد تبدّل المشهد قليلاً لعينيها.

فرحت زين حين سمعت صوت البومة مرحبّاً بها **(كم أفتقدها في ساحة المدفع حيث صادقتُ مرة بومة البستان المجاور لكنهم قصوا أشجار المكان وعمَّروا مكانها بناء أسمنتياً وهربت البومة)**. عادت زين من السطح إلى «الديار» حيث جلست بهيجة وفلك تلتهمان بعض الأطايب الدمشقية التي اشترتها الأولى من سوق «البزورية»، وتتلذذان بالمشمش والإجاص المسكّر والمعطر وتثرثران بشهية، وفرحت لانشغالهما عنها، ولخلو البيت نسبياً من زحامه المألوف، وراحت تتفقد كل شجرة و «بيت النمل» في الحوض، وسألت بلهفة عن «النارنجة»[1] الكبيرة الغائبة، فقالت فلك بحزن من فقد طفلاً: «ماتت. لا ندري لماذا. ماتت مثل الناس فجأة، لكننا زرعنا

(١) شجرة النارنج.

مكانها واحدة صغيرة جديدة كما ترين». تابعت زين جولتها على مصائد الفئران، وأفعى الكنز «الألفية» في جُحرها الخاص في المطبخ، و «مدادة» الياسمين العراتيلي الليلكي التي كبرت كثيراً بطريقة شرسة وبلغت السطوح وتدلت عن «المشرفة» محيطة بنوافذ الدور الثاني.. أغراها هدوء البيت وخلوه النسبي من الأهل، فغمرتها نزوة للتسلل إلى غرفة طفولتها التي احتلتها أم عامر وأسرتها، كما احتلّوا غرفة والديها. منذ مجيئها وأسرتها من فلسطين قبل ثمانية أعوام، وأم عامر لا تزال وأسرتها في «البيت الكبير» بالرغم من شراء زوجها أبو عامر لمنزل اليهودي شفيق حنين الفاخر، والذي حوّله إلى مدرسة بدلاً من الإقامة وأسرته فيه في بحبوحة ورخاء! ثم إن أواصر الصداقة انعقدت بين أبو عامر وعبد الفتاح، وصار الثاني يقسم بـ «اليمين والعظيم» أن يبقى أبو عامر في ضيافته حتى يحين وقت عودته إلى بيته في فلسطين. وهي دعوة لقيت من نفس أبو عامر هوى، فهي تقوّي قناعته الداخلية بأن وجوده في دمشق مؤقت، وأنه مجرد ضيف ريثما يعود قريباً إلى عكا. وهذه القناعة اللاعقلانية وحدها كانت تساعده على الاستمرار.

دخلت زين إلى غرفة طفولتها دونما استئذان من شاغليها الحاليين رغم كل ما كبرت عليه من قواعد السلوك. غلبتها أشواقها المبهمة للانفراد بنفسها في الغرفة واستعادة الزمان الذي كانت تنفرد فيه مع أمها في تلك الصدفة الوردية الخاصة بهما. كان كل شيء قد تبدّل.. أماكن الأشياء واستعمالاتها تبدلت. وطاولتها الوردية الواطئة صارت طاولة لعامر وصار لونها كالحاً بين الأصفر والترابي، وأضيفت إليها طاولة كئيبة المظهر تغطيها أيضاً الكتب الجامعية لعامر طالب الحقوق في الجامعة. شعرت زين باستياء بالغ من عامر لأنه احتل حيّزاً يخصّها وبفضول جارف تجاهه في الوقت ذاته. لم تكن ترتاح إليه. كانت تشعر دائماً أنه يريد استغلالها واستعمالها دون أن يحمل لها أي احترام أو ود. ولكن فضولها دفعها كعادتها لفتح «الجوارير» المغلقة وقراءة الأوراق السرية للناس وكل ما تطاله يدها. منذ طفولتها وهي تعجز عن مقاومة سحر الخزائن والطاولات المقفلة و «الأدراج»، ورغبتها في الاطلاع على الأسرار تتغلب لديها على كل حس بالأمانة. بدأت بـ «الدُرْج» الأسفل حيث تكتشف عادةً أسرار الناس حين تبحث خلسة في أوراقهم كلما سنحت لها الفرصة. عثرت زين على دفتر مذكرات عامر (**إذاً هو أيضاً يكتب مذكراته مثلي؟**).

غلبها خجل لذيذ وهي تفتح المفكّرة بشيء من الشعور بالذنب وبكثير من الفضول، واستولت عليها نشوتها الطاغية في اكتشاف الآخرين من الداخل وتعرية

روحهم وهي رغبة كانت تكبر معها عاماً بعد آخر. وأخذت تقلّب المفكّرة وتقرأ جملة من هنا وأخرى من هناك.. فوجئت برقة مشاعر عامر وأحزانه ولوعته على «عكا» وعلى وطنه، وعمله الدائب من أجل العودة.. فوجئت بقصائد سطّرها وخططٍ أعدَّها، منها برنامج لمحو الأمية لدى أطفال الفلسطينيين اللاجئين إلى الشام. قلّبت المزيد من الصفحات. فوجئت باسمها وقربه إشارة استفهام، ضمن قائمة من الصبايا والشباب الذين يود أن يتكلم وإياهم بخصوص عملهم في تدريس الأميين مجاناً في مدرسة والده (**إذاً فهو لا يكرهني كما كنت أتوهم ولا يريد استغلالي، إنه يريدني وسواي أن نساعده. وهو حزين ومعذّب، وغير مجامل كبقية أهلي والناس حولي مما جعلني أتوهمه عدوانياً!**).

جلست زين على الكرسي ووضعت دفتر المذكرات على الطاولة وقد نسيت نفسها وهي تقرأ يوميات عامر.. (**يا إلهي كم لا يشبه هذا الشاب نفسه! هنالك عامر من الخارج، عامر الطفولة الذي ظللت أراه حتى بعدما كبر على ضوء تلك الذكريات! عامر الذي كان يمنع أخته من اللعب معي، لكنه يريد مني أن أعمل معه ممرضة حين يذهب لتحرير فلسطين! وهنالك عامر الشاب الشاعر الذي اكتشفه الآن في هذه المذكّرات، عامر المرهف المتألم بصمت وسراً، الفيّاض بالعاطفة الحبيسة المكتومة وأوجاع الروح**).

شعرت زين نحو عامر بمشاعر جديدة متضاربة ومختلفة. شعرت بالحزن على حاله وبالقرب البالغ منه. فحالها مع الكتمان تشبه حاله بمعنى ما، وبالخجل لأن لديه مبرراً لأحزانه. فهو يريد العودة إلى وطنه وبيته أما هي فلا تدري بالضبط ماذا يؤرقها. وشعرت أيضاً بالنشوة! إنها النشوة التي تنتابها كلما اكتشفت إنساناً من الداخل وتجاوزت أقنعته.. (**لن أشفى يوماً من رغبتي في قراءة محتويات الأدراج المغلقة بدءاً بأدراج أبي وأوراقه السرية وأوراق أمي. أوراق «الجوارير» تقرّبني من البعض وتبعدني عن البعض الآخر**). كانت كلما أمعنت قراءةً في مذكرات عامر تجد فيها صدى لبعض أوجاع روحها (**تراني أكثر قرباً من عامر، مني إلى لؤي ودريد وسواهما من أهل ومعارف؟ ليس بوسعي الجزم بذلك ما دمت لم أطلع على مذكراتهما**). شعرت زين بالأسف على سلوكها العدواني تجاه عامر. سمعت حركة مريبة فأطبقت المذكّرات. وبينما هي تعيدها إلى مكانها شاهدت لؤي يحدق فيها منتصراً كأنه ضبطها أخيراً بالجرم المشهود. وتذكرت يوم ضبطته في موقف مشابه مع حقيبة عمّته بوران اتهم بعدها جهينة ظلماً. أدركت أنها لن تحب لؤي في أي يوم،

ثرياً صار أم لا، وجيهاً أم لا.. بقناع جذّاب أم لا.. ثم ندمت على هذا الخاطر وقالت لنفسها: لن أدري شيئاً حقاً إذا لم أتجسّس على حقيقته عبر مذكّراته وأوراقه الخاصة السرية.. لم يوفّرها وقال اها: «خرج العفريت من أمك وتلبسك كما تقول أمي.. هل صرتِ الآن تتلصصين على دفاتر عامر؟». دفعت «الدرج» بقدمها خلسة قدر الإمكان وهي تقول: بالتأكيد لا.. هل تظن أن الناس جميعاً يدسّون أيديهم في حقائب سواهم؟.. قال لها: «لسانك طويل يا بومة وجوابك تحت إبطك وتظنين نفسك تحفة زمانك!» وغادر الغرفة. «إنه على حق في كل ما قاله عني»، هكذا نطق الصوت الساخر المقيم في أعماق زين!

غادرت زين غرفتها التي لم تعد غرفتها دون أن تنسى القيام قبل ذلك بإطلالة حنين على «الشامبرنوار» (**هنا سجنتني مرة عمتي بوران لأجل «مصلحتي» ككل قمع آخر أواجهه. لقد فقدت الغرفة هيبتها بضوء أوتوماتيكي يضيء آلياً لحظة فتح الباب وينطفىء مع إغلاقه. وقد هربت من «الشامبرنوار» أشباحي الحبيبة الأليفة!**). فيما زين تغادر الغرفة لحق بها لؤي. اقترب منها بأكثر مما ينبغي لشخصين لا يرتاح أحدهما للآخر وسألها بلهجة فاحت منها رائحة الغيرة: هل صارت أوراق عامر تهمّك بعدما صار يُكثر من زياراته لكم في ساحة المدفع؟.. اكتفت بالابتعاد عنه ولم تجبه، وهبطت لتلتصق بعمتها بهيجة وتجيل عينيها في البيت الكبير بكل أقواسه وجمالياته والحِكَم المنقوشة على خشب أبوابه.

ظلت زين رغم سعادتها في «البيت الجديد» في شارع أبو رمانة تحن إلى ذلك الزقاق الضيق الملتف على نفسه كرحم، والنوافذ المتقاربة، وبشرة البيوت الطينية التي تكاد تبدو حية، و«البيت الكبير» بأهله ودنياه وعطوره وبهاراته. وتتحين الفرص للذهاب إليه بل وتخترع الذرائع لذلك. وفرحت كعادتها بوصول عمتها بهيجة من حمص، فذلك يعني أن تصطحبها العمة في جولات حنينها إلى مرابع الطفولة بدءاً بالجيران وانتهاء بحمّام السوق الذي أضحى نادراً بعدما أغلقت معظم الحمّامات العامة أبوابها، وزين لا تعرف في شارع أبو رمانة صعوداً حتى «مسجد الروضة» بنتاً سواها لا تزال تذهب إلى حمّام السوق من وقت إلى آخر. فمعظم صديقاتها الجديدات لم يذهبن إلى هذا المكان «الشعبي» ولو مرة واحدة، وصديقتها الجارة ناريمان لم تصدّق أنه ما زال موجوداً في هذا العصر الحديث، عام ١٩٥٦.. صحيح أن عمتها بوران تصطحبها إليه بين آنٍ وآخر ولكن العمة بهيجة هي المتوّجة في قلب زين، وللذهاب معها إلى أي مكان طعم آخر، وهي لا تنسى إجازاتها في

حمص عندها حين كانت ترافقها إلى «الميماس» وتدفعان ٧٥ قرشاً للتاكسي من البيت وإليه وتتفقدان الصفصاف والحور على ضفاف نهر العاصي (قلت لعمتي في ليلتي الأولى عندها في حمص: لا أريد النوم في هذا السرير.

ـ لماذا؟

ـ لأنه في وسط الغرفة. أحب النوم في سرير لصيق بالجدار.

لم أجرؤ على أن أقول لها إنني أحب السرير الملاصق للجدار كي أحتمي به وأندس فيه بعيداً عن الجنّي القابع تحته بانتظار أن يتدلى شعري أو يدي عن السرير فيشدني منها أو تخرج قدمي من تحت الغطاء وتصير في مرمى مخالبه. وبالرغم من أن الجنّي يدسّ عادة أصابعه الغليظة بين السرير والجدار، إلا إنه لا يتمكن من الوصول إلى وجهي. لم أقل لها شيئاً من هذا. وكم فوجئت وارتحت حين قالت لي ضاحكة وهي تجر السرير صوب الجدار وتلصقه به: وأنا مثلك يا حبيبتي لا أستطيع النوم إلا في سرير ملتصق بالجدار!

ضحكتُ وسألتها سعيدة بها: هل تخافين أنت أيضا من جنّي تحت السرير؟ قالت عمتي: ما زلت حتى اليوم أرتجف ذعراً منه ومن الغول و«الشوحة» والضبع والجنّي.. قبّلتها من عينيها بفرح وقرّرت: هذه عمّتي المفضّلة! إنها مذعورة ومضحكة مثلي!).

دوماً تحن زين إلى «زقاق الياسمين»، لكنها أيضاً تعرفه جيداً من الداخل بما يفسد الحنين ببعض الوقائع الأليمة ويجعل منه مشروعاً مؤجلاً. فهي مثلاً تفضل أن تبقى حيث هي في أبو رمانة على العودة للعيش هنا..

تركض داخل رأسها صور نصف منسية (أتذكر كيف زغردت عمتي ماوية يوم زواج مطلّقها. وكيف انتحبت خزامى وفلك وبوران فرحاً يوم خطفت لهما وضّاح.. وكم لوّعنا غيابه.. أتذكر سماجات دريد ولؤي و.. و.. وانتحاب جهينة حين غدر بها عيدو.. أرى معزز وهي ترجع إلى الخلف على السطوح خوفاً من والدها وتهوي في الفضاء.. أرى وجوهاً لنساء ضاحكات في الشمس بين الياسمين ولا تلبث الوجوه أن تصير مكتئبة وتغرب الشمس، ودرّية تضع الجمرة في فم ابنتها بدرية لأنها قالت أحبك، ووصال تنتحر ليلة عرسها بعدما دخل عليها العجوز الذي أرغمت على الزواج منه.. وأرى الأحزان في «الديار» حين قُتل همام في فلسطين وحين ضاعت فلسطين وجاءت خالتي أم عامر تنوح وولديها وزوجها.. وأرى.. وأرى.... ويذبل الياسمين وتذوي الأشجار وتتسخ أرض «الديار»)..

نهضت زين فجأة وقد لسعتها أفكارها، هاربة منها إلى متابعة جولتها المشتاقة على غرف البيت. فوجئت بها عمتها بهيجة تهب فجأة بعدما كانت ملتصقة بها كقطة وديعة وقالت لفلك: «هذه البنت مزاجية!». تسمع زين همس عمتها ولا تعلّق بكلمة. هكذا هي، دائماً لا تفسر ولا تبالي كثيراً بما يقال عنها (لقد كبرتُ في زقاق شعاره مقولة «ماذا يقول عنا الناس» اللامرئية المعلّقة على جدران أعماق الناس، وكل واحد منا يدقون له مسماراً في قاعه حين يكبر ويعلّقون له هذه اللافتة. أنا شخصياً لا أبالي بما يقال ولا أحب أن أفسّر ولا أن أشكو لأحد أحزاني).

تتابع زين جولتها. هذه غرفة جدتها سابقاً، وقد احتلتها اليوم عمتها بوران مع رزان وتركت غرفتها لدريد الذي كبر. أضحكها أن عمتها احتفظت بجزء طريف من ديكور المكان هو الصور التي كان يحلو للحاجة إلصاقها على الجدار الملاصق لسريرها، وهو ما تفعله أيضاً في البيت الجديد في أبو رمانة.

(صحيح إن «من خلّف ما مات»! ها هي عمتي تكمل ما بدأته جدتي من تعليق للصور، وجدتي تتدارك ما ينقصها من صور عتيقة خلّفتها هنا ولا أدري من أين تُحضرها، وهكذا صار عندنا بدل جدار الصور الواحد جداران).

تتأمل زين صورة معين صهر عمتها بوران بالملابس العسكرية قبل إحالته على التقاعد إثر الانقلاب على الشيشكلي، وهو يتوسط الصور كلها بضحكة كبيرة (تراه يضحك على الدنيا أم علينا، متوسطاً الذين أعرفهم والذين أجهلهم؟ صورة الشريف حسين بين صورة زوج عمتي الدركي البطل الشهيد أبو دريد والملك فيصل ويوسف العظمة والملك فؤاد والملك فاروق وقد انضمت إليه صور تبدو أكثر جدّة لمحمد نجيب ملاصقة لصورة شقيقة الملك فاروق فوزية مع زوجها شاه إيران رضا بهلوي. وإلى جانب صورة حسني الزعيم ها هي صور بنات الملك فاروق فريال وفوزية وفادية وأمهن فريدة وصورة ناريمان خالتهم زوجة أبيهم إلى جانب صورة أمهم. أهذه صورة كاترو[1]؟ أجل.. وهذا سلطان باشا الأطرش يعتلي صور سامي الحناوي وشكري القوتلي وأديب الشيشكلي وفوزي سلو وكل الذين مروا بعمرنا أو حكمونا من أعداء وأصدقاء.. يلتقون على جدارها فيما يشبه السخرية المبطنة. هكذا صفّتهم الواحد تلو الآخر بعضهم لصق بعض وطغى طرف صورة أحدهم على صورة الآخر، ولكنهم يبدون وقد جمعهم الجدار مثل لوحة واحدة تآكلت في بعض أجزائها أكثر

---

(١) كاترو: جنرال فرنسي من انصار ديغول لعب دوراً سياسياً أثناء معركة استقلال سورية.

من البعض الآخر، وأظلمت في بعض أنحائها وأضاءت في بعضها الآخر كأن لعبة الضوء والظلمة آتية من داخلها لا من الشعاع القادم من «الديار» مخترقاً شجرة الليمون فستارة الكتان البيضاء المخرمة بـ«التنتنا»[1]. يبدو الجدار خلفهم لعيني وحده حقيقياً مقصوصاً من أسوار الشام عمَّرته الأيدي المجهولة لأجدادي، كأن الصور تتآكل على عتقه، صورهم كلهم جيدهم وفاسدهم وتذوب فيه بخيرها وشرها ويبقى هو).

ترتمي زين على المقعد مقابل الجدار «السوريالي» لجدتها فعمّتها (دخلتُ إلى غرفة جدتي في بيت ساحة المدفع. كانت تصلّي وخلفها جدار الصور مكرّرة عبارات طالما سمعتها بصوت يشبه الهمس: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. يا ربي انصر أمة الإسلام.. يا ربي انصر أولادي.. يا ربي تؤوينا في بيوتنا. يا ربي تهدي جميع العالمين.. يا ربي تنصر زين وتهديها.. وتهديها. قالتها وهي ترفع نحوي وجهاً لا يخلو من الدعابة والرقة. وسألتني بلهفتها المألوفة لتقديم خدمة لمن يشاء: هل تريدين شيئاً «يا تقبريني»؟.. خجلتُ لأنني كنت أريد أن أتشاجر معها لشأنٍ بيتي تافه وعابر. اندفعت نحوها وقبّلتها بحرارة وقد امتلأ قلبي بحب مفاجىء جارف نحوها و غادرتُ الغرفة صامتة. هل أتعجب بعد ذلك لأنهم يرمونني بتهمة غرابة الأطوار كهذا الجدار؟).

تتذكر زين كم ألحت جدتها على والدها كي يحضر لها صورة حسني الزعيم لتلصقها على الجدار بعدما صار حاكماً لدمشق!.. («بلاغ رقم واحد»! صار أبي يرددها ساخراً مضيفاً لي كمن حلت به مصيبة ويريد أن يبوح لأي كان، لضفدعة أو طفلة لا فرق: لقد بدأت المهازل ولن تنقضي بصورة على جدار أمي و «المخبى أعظم!». لم أفهم الكثير يومها. لكنني كعادتي كنت أنصت بشهية وفضول لمناكدات الكبار فيما بينهم.

التفت أبي إلى جدتي قائلاً: «اطمئني. سيوزعونها على الناس ويرغمونهم على إلصاقها بالقوة. سترينها في الشوارع وعلى المباني وعلى الدفاتر المدرسية وقصص الأطفال وزينات العيد والختان وفي مجالس العزاء.. اطمئني، لن تفوتك هذه الصورة».

التفت إليّ فوجد بين يدي كتاباً عن محاكمات نورمبرغ استحوذت عليه من

---

(١) زينة للقماش.

غرفته، وزجرني لأنني استوليت عليه دون استئذانه ثم سألني: ما هذه الصفحة التي كنت تطالعينها؟ قلت له: أقرأ كيف هرّبت امرأة لحبيبها النازي حبة السم من فمها إلى فمه وهي تقبّله في المحكمة أمام الناس لينتحر بها فيما بعد وينجو من المحاكمة والإذلال. ونسي أبي سخريته من حسني الزعيم وحذّرني قائلاً: لا أريد أن تطالعي شيئاً من كتبي من دون استئذاني! لو كان يدري كم فتح هذا التحذير شهيتي على قراءة الكتب التي يحرص على إخفائها عني.. وكم فعلت!).

إنه المساء في «البيت الكبير» وزين تشعر بحنين إلى ما لا تدريه في هذا المكان. يعود سكانه واحداً بعد الآخر بعد يوم آخر طويل من العمل أو الدراسة. أما زين فقد هربت من كل شيء لترافق عمتها المفضلة بهيجة ليوم على الأقل. تتأمل عمتها ماوية بحب وهي تعود وتقبّلها وتتحسس ماوية وجهها بحنان بأصابع تشوهت أظافرها بآثار كيماويات صباغة الشعر واسودت.. ثم تتحدث بفخر عن صالون الحلاقة الذي تديره وتعمل فيه وعن «الغلة» التي لم تكن سيئة ذلك النهار، موضّحة لزين أنه أمر يعنيها كشريكة. تخلع حذاءها ذا الكعب العالي المدبب وتركض حافية إلى غرفتها متذرعة بالصلاة. يدخل عمها عبد الفتاح بقامته الفارعة وقد ازداد نحولاً وابيضّ شعره وصار شبيهاً بشبح، وفضيلة تدلله وتكاد حميدة ومطيعة تحملانه بين أذرعهما..

سألته زين بعدما صافحته ولم تقبّل يده كما كان يأمل: هل أنت مرتاح لعمل فضيلة وشقيقتيها في المعمل معك بالرغم من أنهن بنات؟

أجاب: «الله يبلي ويعين»[1]! وحدّق في لؤي بكثير من الفخر وهو يهبط السلم صوب «الديار» قائلاً: الله يرضى عليه!

لحق أمجد بزين برفقة الحاجّة وكان لا يطيق ثقل الليل على صدره بدونها، وتعالت أصوات الترحيب به وبأم أمجد.

جاءت أميّة من المدرسة وقد ازدادت جمالاً وأضحى غرام ابن التاجر الطرفندي بها مثار الأحاديث كما إصرار أمها على عدم تزويجها إلا حين تصير في يدها شهادة «لتعيّش» نفسها إذا «طلع نصيبها» كنصيب أمها. وهذا الإصرار صار مضرباً للمثل والبعض يؤيده ويقلده والبعض الآخر ينتقده. وفهمت زين من حوار عمتها بهيجة وفلك أن النية متجهة لعقد الخطبة ولكن ثمة خلافاً. فوالد العروس

---

(١) مثل شامي معناه إن الله يعين على البلوى!

يريد أن تتم الخطبة و «كتب الكتاب» في يوم واحد، وماوية لا تريد ذلك خوفاً من أن يحنث العريس بوعده بعدم الزواج منها إلاّ بعد تخرجها، خصوصاً وأن لأمية «تلتان الخاطر»[1] بذلك وتبدو مغرمة بذلك الشاب الذي أحبها من النظرة الأولى. لكن انصياعها لإرادة أمها زاد من قيمتها في عيون آل الطرفندي، فهو دليل على «تربية» راقية وبُعدٍ عن التمرد وهو أمر يحبه الجميع. وقالت فلك إن هذا الوضع يزيد فيما يبدو من تعلق صفوح الطرفندي بها، فقد أرسل إليها بهدية «مطيف ألماس»[2] مع أمه وهو ما لم يحدث من قبل بدون خطبة ولا ارتباط. ولكنه يعتبرها بحكم خطيبته وأهل الحي كلهم يلومون ماوية متسائلين أين كانت تخفي هذا العناد كله؟ قالت بوران وقد وصلت لتوها من زيارة قمر وسمعت طرف الحوار: فيحاء هي المسؤولة عن ذلك كله. هي التي كبّرت رأس عمتها ماوية. وحين وصل دريد رحب بزين وسارع بإطلاعها على أثقال الحديد التي كان يحملها وينوء تحتها وشرح لها دور كل قطعة منها في البلوغ به إلى الكمال الجسماني الذي ينشده. ولمحت زين داخل جسده المتورم بالرياضة قنفذاً صغيراً مذعوراً وقفت أشواكه دفاعاً عن نفسه ضد عالم يخيفه، وقالت زين لنفسها: ها هو يحاول تربية أشواك عضلية جديدة، وشعرت بالود نحوه وأدهشها أن ضعف الناس يقرّبها منهم أكثر من قوتهم وبعض عيوبهم يحببها بهم. وأخذ وضّاح يلعب مع هاني بالتقاط الضفادع من الحوض ورميها في مصائد الجرذان فزجرتهما خزامى صارخة بهما: عيب. لقد كبرتما على هذه اللعبة!

سعدت زين بهذا المزيج من الحماقات ودفء القلب وأدركت أنها تحبهم جميعاً حتى الثمالة كما هم، وحتى حين تكرههم فهي جزء منهم يناكد ولكن من داخل الشبكة العنكبوتية الواحدة. استأذنتهم زين لأنها تريد زيارة جهينة، وقالت لها بوران إنها بالتأكيد لا تزال في مشغلها فهي «بتقص ذهب»[3].

تدخلت بهيجة: سنذهب على أية حال وننتظرها ونزور عمها العسيري الكبير.. كيف صحته؟

ـ مثل القرد.. يقفز مع حفيده وينتبه للآخر الطفل الصغير الذي أنجبته مؤخراً وقد عاد مثلهما طفلاً!

لم تعد زين من لقاء جهينة إلا وقد اصطحبتها معها. رحّب الجميع بها بعدما

---

(١) «تلتان الخاطر» أي شبه موافقة.

(٢) عقد من الماس ولعلها اختصار وتحوير لكلمة «بوندانتيف» الفرنسية.

(٣) تربح كثيراً.

صارت ضيفة معززة وصاحبة البيت المجاور. أحاطت بزين بنات عمّها وعمّتيها وهي تغمرهن بنظرات المحبة والدفء. كنّ باهرات الجمال، طويلات القامة، والشعر كستناوي مشقر، بيضاوات ملونات العيون بالأخضر والأزرق، رشيقات، وزين قصيرة القامة نحيلة داكنة السمرة ولا تعوض عن ذلك بمهارات كتلك التي تسحر «المجلس العائلي» في «الليوان»: فضيلة تعزف على العود وحميدة ترقص بقد مياس ومطيعة تنشد موالاً أندلسياً والصغيرة هزار تتعلم «الهز» من اختها وتُضحك الجميع...

حين وصل عامر متأخراً كانوا يلتهمون «الكبة المشوية» عن المنقل والـ«بابا غنوج»[1]. وبدا عامر عدوانياً حين جلس بعيداً عن الجميع رغم دعوتهم الحارة له. وأدركت زين أنه خجل ومرتبك تعذّبه حياته في بيت الآخرين كما سطّر في مذكراته، وأنه يفتش عن عمل يربح منه ما تيسر ليعيش مع صديق له في غرفة مفروشة، ولذا نهضت على غير عادتها وأولته اهتماماً بالغاً وأجلسته إلى جانبها وغرقا معاً في حوار طويل وصارت تعطيه الكبة عن المنقل بيدها. تعجبت بوران وعهدها بزين لا تطيق عامر ولا تدلل أحداً غير نفسها وهمست لأختها ماوية: كم هي غريبة الأطوار ابنة أخي ومزاجية. بعد العشاء، رُفع الخوان، وعاد مجلس الغناء والرقص والطرب في الإيوان، وانسحب عامر ولحق به لؤي ضجراً من شقيقاته وجرّ معه دريد.. وحين صدحت البومة بنشيدها العذب في نظر زين، تابعت فضيلة عزفها لامبالية، وتعوّذ أبو عامر وعبد الفتاح من فألها السيّىء وقد جلسا جنباً إلى جنب.. أما زين فغرقت في حوار مع رويدة حول ذكرياتها عن عكا شاركت فيه الأم وهيّجته روائح أزهار «الديار» التي فاحت متوحشة شرسة وذكّرت أم عامر وابنتها بحديقتهما في عكا، وأمية تهز بخصرها كما لم تفعل أبداً من قبل وهي ممتلئة بالسعادة لأن في كوكب الأرض شخصاً رائعاً مثل ابن الطرفندي! شعرت زين بالفرح لحضور والدها و «الحاجّة» هذه السهرة، فهما مثلها يحبّان هذا المناخ العائلي والالتحام اللامتجانس الودي المتشاجر.

* * *

(لا أجرؤ.. لا أجرؤ على أن أسأل أبي عن أمي، واستفسر منه كيف كانت؟ ولا أجرؤ على أن أقول له إنني بعثت بقصة قصيرة إلى بريد القراء في جريدة

---

(١) طعام دمشقي.

«النقاد». . ولا أجرؤ على أن أقول له إنني قد أكون مغرمة بشقيق صديقتي شماء. . ولا أجرؤ على أن أقول له إنني لا أريد دراسة الطب بل الأدب. لمَ هذا العجز عن الحوار رغم محبتنا، أو بسببها؟) رافقت زين والدها في عطلة نهاية الأسبوع إلى الريحانية وإلى مشيتهما المفضلة ليلاً على سكة الحديد في ضوء القمر وهي تقفز رشيقة متأججة بالحيوية على سكة القطار دون أن تسقط، ووالدها يمشي على طرف الدرب الترابية ويسندها كلما أوشكت أن تفقد توازنها على السكة. . القمر الساطع المزنّر بالصمت وصوت البوم يسكبان فضة الغرابة المسحورة فوق أعالي الأشجار والسكة والأحجار والمرئيات. . حتى ليبدو المكان أقرب إلى الخرافة منه إلى المزرعة. كان والدها قد حمل إليها كمية جديدة من الكتب. . جرعة روسية هذه المرة، ووعدها بأنها ستسعد بقراءتها كما استمتعت بمطالعة مسرحيات أوسكار وايلد، وكان بينها رواية «الدكتور جيفاكو» الصادرة حديثاً والتي أوصى عليها والدها خصيصاً من لندن وحملها زميل له مسافر وتباهي بأنها أول نسخة تصل إلى دمشق، والأعمال الكاملة لدوستويفسكي بالإنكليزية. . وكان يعرف أنها ستنجز قراءتها في فترة قصيرة «آكلة الكتب» تلك كما يلقبها. كان يفرح بعشقها للقراءة ويغذيه ويلاحظ في الوقت ذاته انه متناقض. يغذي فيها حب الأدب ويطلعها على كتب حُرم منها في شبابه، ولكنه يتمنى أن تكون طبيبة! مشيا. . وظل صامتاً. . أدركت أنه ليس سعيداً حقاً. . حدّثته عن سعادتها بحصة تعلّم الطيران الشراعي في صباح اليوم نفسه وكيف هبطت بنفسها بالطائرة للمرة الخامسة، ومدربها كان يرافقها ويرشدها لكنها هي التي هبطت بها. أثنى عليها والدها وعاد إلى صمته. لطول رفقتهما صار بوسعهما التحاور بصمت حين لا يكون الكلام مجدياً. . خُيّل إليها أنه يتألم. . وكانت غاضبة منه لأنها لا تجرؤ على سؤاله عن أمها. في المرات النادرة التي جرؤت فيها على ذلك لم تفز بجواب. آلمته فقط وآلمت نفسها. تتساءل مؤخراً: تراه سبَّب الألم لأمها لأنه كان من رعايا مقولة «ماذا يقول عنا الناس؟»؟.

مرات عديدة كادت تفاتحه، ثم أحجمت. . ثمة أشياء لا يستطيع المرء أن يتحدث عنها حتى مع أحب الناس إليه بالذات (ثمة منطقة من الأوجاع مكفنة بالظلمة والصمت والسرية ويستحيل اختراقها أو المشاركة فيها. . إنها محرق الروح كما مركز الدائرة) . . كادت تتسول تشجيعه لأنها أرسلت قصة قصيرة إلى جريدة «النقّاد» ولا تدري ما إذا كانت ستُنشر أم لا في بريد القراء، وتوضّح له أنها سعدت بإرسالها وتحلم بأن تراها منشورة، فذلك يحوّلها آلافاً من النسخ تسعى في النهر داخل آلافِ

من زجاجات «السينالكو» إلى الناس الذين يلتقطونها عن الضفة ويطالعونها.. وهي من صغرها تبعث برسائلها وكوابيسها في الزجاجات الفارغة إلى من يلتقطها. أرادت أن تقول ذلك كله.. ولكنها لا تدري لماذا أحجمت.. شعرت بأن هربه من الحديث عن أمها خيانة لها شخصياً.. وأنها لن تفتح قلبها له إذا لم يبادلها الثقة.. وها هو يمشي منغلقاً على نفسه كحبة بندق.. وامتلأت غضباً ضد الذين يجعلون خيانة الذات بطولة.. الذين.. ولكن من هم؟ إنها لا تعرف بعد على وجه التحديد، ولكنها تعرف أنها ستكون عدوتهم إلى الأبد.. أولئك الذين يجعلون التطابق بين القول والسلوك مستحيلاً ويكرّسون الانفصام بين نبض القلب والممارسة.. وقرّرت أن تكتب حول ذلك في رسالتها المقبلة إلى «بريد القراء» في جريدة «النقّاد» (ولكن **ما علاقة أبي بذلك كله؟ إني مشوشة الأفكار ومضطربة لأسباب أجهلها).**

حين غادرا سكة القطار وانحدرا في الدرب الضيقة راجعين إلى البيت، ركض النسيم بين أشجار الحور وتصاعدت أنغام خاصة كأن الحور قيثارة الريح أو أجراس الحنان.. أضاءت زين نور المصباح اليدوي (البيل) في الظلمة النسبية، وارتسمت على الأرض دائرة محدودة من النور وكل ما تبقى حولها ظلام. هكذا ترى زين الآخرين حتى أقرب الناس إليها. تذكّرت طفولتها وهما يتجاوزان شجرة الجوز واستعادت ذكرى ليلة انتظرها الصبيان لتقودهم إلى الغارة على «ليلة الدخلة» للمُرابع.. وتساءلت: ترى أين عبد الهادي اليوم؟ أهو ذلك الشاب الوسيم الذي مرّ بها صباحاً في ثياب «مرشح ضابط» وتأملها كمن يرى شبحاً طالعاً من كوابيسه؟ هل انتسب إلى الكلية العسكرية؟ لم تجرؤ على أن تسأل ناجية عنه رغم زيارتها لها باستمرار في الريحانية وفي دمشق، منذ انتساب ناجية إلى «دار المعلمات».

ناجية سعيدة في القسم الداخلي في دار المعلمات، لقد اختارت شيئاً تحبه. كيف تقول زين لوالدها إنها لا تريد الانتساب إلى كلية الطب؟.. (قال الأستاذ **زعبلاوي وهو في ثوب المختبر الأبيض: أنتن الآن في صف البكالوريا العلمية ويجب أن تقدرن على تخدير حمامة بالكلوروفورم وقص قفصها الصدري دون أن يتوقف قلبها. الطالبة التي يتوقف قلب حمامتها وتموت ستكون علامتها ميتة أيضاً أي صفراً وسيموت مستقبلها العلمي لأن ذلك يعني أنها ستقتل مريضها المخدر فيما بعد خلال إجراء العملية له.. دار علينا وأعطى كل واحدة منا سؤال الامتحان: حمامة، وكنا قد توزَعنا في أرجاء المختبر.**

تناولت منه الحمامة وعبثاً تعاملت معها كمجرد أداة لنيل علامة مرتفعة، لا

دخل لها بالنجاح في شهادة البكالوريا، لكنها مؤشر على مصيري في صف الـ P.C.B[1]. احتويتها بين كفيّ. . . . بدت لي حية، حارة، نابضة كطفل. . نظرت إليّ بعينين بريئتي الذهول. تعجبت. كيف أقوى على صيد العصافير وهي بالتأكيد مثلها حارة وحية وجميلة؟ لكنني حين اصطاد عصفوراً ما، اصطاد نقطة سوداء في الأفق، ونقطة إعجاب في عيون لؤي ودريد وعامر ووضّاح وهاني وعمي وأبو عامر وجدتي وعمتي بوران والأخرى ماوية وبنات عمي اللواتي لا يتسلقن الأشجار ولا يسبحن ناهيك عن عمي. . العصفور هدف لا أكثر وقتله نجاح ومهارة. . حين أقتله، أنا مثل الجندي في الحرب، يقتل «هدفاً» لا «إنساناً».

حاولت أن أقنع نفسي بذلك كي أقسو على الحمامة بيد وأخدّرها بالأخرى. . إنها ليست «كائناً حياً»، بل «سؤال امتحان». . ولكنها كانت تخفق بين كفيّ كقلب مرتعش بعشق الطيران، وتحاول عبثاً أن تقلع صوب السُحُب، خارج النافذة المطلّة على الحقل الربيعي الجميل. . لا أدري ماذا انتابني ذلك الصباح المشرق. لو كانت تمطر، لو كانت السماء مكفهرة لاستطعت على الأرجح أن أجهز على الحمامة. ولكن على مرأى من سماء ساطعة الزرقة كهذه، قرب خضرة وليدة ندية في براعم الأشجار في حديقة «التجهيز الأولى» الملحقة بدار المعلمات، لم يكن بوسعي اقتراف ذلك. أخذت يداي ترتجفان، وذكّرتُ نفسي بأن يدي كانت هادئة ثابتة وأنا أشرّح العلقة بالمشرط وأثبت طرفي جسدها الدودي بالدبابيس فوق القرص الشمعي الأبيض داخل الحوض المائي. . فلماذا لا أتعامل مع الحمامة على هذا النحو؟ هل هو الربيع حين يخفق قلبي بطريقة مختلفة، ربما كأهل مدينتي كلهم، ويهب توقيته في حواسي؟ آه، ربيع دمشق المدهش حين تشتعل نباتات جدتي على الشرفة باللون والرائحة ويجنّ عطر الياسمين حتى دمي وتتوهج نبتاته «المجنونة» بجموح الحمرة إلى الضوء والدفء وتتدلى حول نوافذ الروح. . هل هو الحب، وأنا العاشقة لشاب لا أعرفه جيداً اسمه مظفر، وكل ما في كياني متأهب للقائه في حالة وجد تدفع بي إلى حافة البكاء في الأمسيات الفسفورية المتوهجة بأشواق غامضة؟ . .

تذكّرتُ النبع في الطريق بين بقين وبلودان وأبي، وقرّرت أن لا مستحيل مع الإرادة، وسأخدر «سؤال الامتحان» وأقصّ قفصه الصدري. . ولكن من قال إنني أريد حقاً أن أفعل ذلك؟ حدّقت بي الحمامة بعينين مسكونتين بالذعر وقالت لي

---

(١) الصف التحضيري للطب في ذلك الوقت، كما صف «الثقافة العامة» لكليات الآداب والعلوم الإنسانية.

بصوت واضح أدهشني أن الأستاذ زعبلاوي لم يسمعه وكذلك رفيقاتي: أرجوكِ أن تطلقي سراحي. . أريد أن أطير بعيداً بعيداً لأنني أحمل رسالة إلى السندباد في جزيرة الغيلان لإنقاذ بدر البدور وست الحسن، فأنا حمامة زاجلة متنكرة بهيئة حمامة عادية. . قلت لها كما كان السلطان يقول في حكايا جدتي: «اذهبي عليك الأمان»، إذ من يجرؤ على أن يلعب دور مسرور السيّاف ويقصّ القفص الصدري لحمامة السندباد الزاجلة؟ ووهبت جناحيها للريح، وأنا أرمي بها صوب الزرقة الفضية لسماء الله الواسعة عبر النافذة المفتوحة للمختبر. . وجلست أكتب قصيدة عن رحلتها إلى السندباد. . وتحولتُ إلى بومة سعيدة مغرّدة، وفردت جناحيّ السريين من تحت ثوب المختبر الأبيض وطرت خلفها وأنا أكتب. . واستيقظت من طيراني والأستاذ زعبلاوي يسألني: يا ابنتي. ماذا تفعلين؟

ـ أكتب قصيدة. .

ـ وسؤال الامتحان؟

ـ طار يا أستاذ. . .

ـ ومستقبلك أيضاً طار.

وأخذ مني القصيدة التي كتبتها على ورقة الامتحان بدلاً من تقرير التشريح، وناداني بعد الظهر إلى غرفة الأساتذة. . كنت أحترمه كثيراً ذلك الأستاذ المصري أبوي الحنان، الذي يشبه العصافير اللطيفة. . قال لي: صحيح أن علامة امتحان اليوم لا اعتبار لها في امتحانات البكالوريا النهائية، لكن ذلك ليس مبرراً للاستخفاف بها، فهي مؤشر على مستقبلك. . وعلى قدرتك على التعامل مع الصف القادم الحاسم الذي يرسب فيه سبعون بالمائة من الطلاب. . .

ـ لم أستخف بها. لا أستطيع أن أشَرِّح حمامة ولا أن أقص قفصها الصدري!. . صوت تمزق لحمها تحت مشارط صديقاتي وتحطّم أضلاعها تحت مقصاتهن كاد يصيبني بالإغماء. . وقد هربت إلى كتابة قصيدة كعادتي أمام كل ما يؤلمني. .

ـ بصراحة يا ابنتي، أنت لا تصلحين للفرع العلمي. . قرأت قصيدتك ويدهشني أنك لم تنتسبي للفرع الأدبي. . .

ـ أبي يريد أن أكون طبيبة. . وأنا أبذل جهدي. ولكن) .

سألها والدها: أنت صامتة الليلة يا زين على غير عادتك. . .

ـ وأنتَ أيضاً. . .

ـ بماذا تفكرين؟

ـ بما تفكر به أنت. .

انفجرا يضحكان معاً كأي صديقين قديمين، عمر صحبتهما ستة عشر عاماً منذ اليوم الذي ولدت فيه زين، ولم يغدر أحدهما بالآخر بعد. . .

امتلأت زين فجأة برغبة جامحة: السباحة ليلاً في النهر، في المياه الحيّة في ضوء القمر! (لقد سبحتُ مرّات عديدة ليلاً في البركة الملاصقة للبيت، لكنني لم أتجاسر يوماً على السباحة في النهر ليلاً حين تستيقظ الأشجار وتستعيد صورتها الآدمية لتحيا حياة أخرى مختلفة أجهلها. أظن أن الأشجارَ بشر مسختهم جنّية عقاباً على ذنب أجهله. وهذه حقيقة يعرفها الأطفال جميعاً، ثم ينسونها حين يكبرون. كل ما في الأمر أنني ما زلت أذكرها. . .

ترى هل كانت أمي تحب المغامرة مع الماء والليل مثلي؟ أم أنه لا مزاح مع البحر حيث كبرتْ؟ وحتامَ تظل تركض في أحلامي وكوابيسي؟ ولماذا يتحاشى الجميع الكلام عنها؟ ولماذا قال لي لؤي حين ضبطني أتجسّس على مذكرات عامر: خرج العفريت من أمك وتلبّسك).

تابعت زين ووالدها المشي في ليل تبدى لهما مسحوراً وشفافاً ببهائه وغامضاً وموجعاً كالموت (لماذا يحدّثني والدي عن أمي بطريقة غامضة كلما سألته سؤالاً مباشراً عنها وعن حياتها؟ مرة تشجعت وسألته سؤالاً مباشراً: حدّثني، من هي أمي؟

أشار أبي بيده إلى السماء، إلى نجمة ساطعة في سماء معتمة وقال: هذه هي أمك. . .

قلت له: هذا كوكب الزهرة لا أمي. . لم أعد صغيرة. . أريد أن أفهم شيئاً. . حدّثني، كيف تركتْ أمي اللاذقية وجاءت إلى دمشق ولماذا؟

ـ ركبت حصانها الأبيض في إحدى مزارع والدها الشاسعة وهربت من قصره في الليل حتى طرطوس على صهوته، وكانت فارسة لا يشق لها غبار. . وانتقلت إلى دمشق. . أنت تعرفين فقط كيف تمتطين بغلاً ولا تقعين عنه وحصاناً صغيراً يمشي على مهل، أما أمك فكانت فارسة حقيقية.

ـ أرجوك أريد أن أفهم شيئاً عن أمي. . لم أعد صغيرة وأريد أن أعرف. . فكف عن الحديث بلغة الشعر. . .

ـ ألا تعشقين الشعر؟ فكيف أكلمك بلغة أخرى؟).

تعرف زين أن الجميع يتهرب من الحديث عن أمها.. وإذا كادوا ينطقون، قمعهم والدها أو جدتها في الحال (في المهاجرين، زرنا «خالتو» خيرية، الصديقة القديمة لأمي.. تبكي كلما شاهدتني، تبكي وهي تقبّلني وتقول: كم تشبهين هندا! ومرة قالت لي: سمعت من المعلمة أنك شاطرة جداً في الإنشاء.. فهل ستصيرين مثل أمك حين تكبرين و... وغمزها أبي مقاطعاً بصرامة كأنه لا يريد أن أصير مثل أمي حين أكبر. فسكتت فجأة وقالت شبه معتذرة: اذهبي يا حبيبتي والعبي مع رشا ومحمدوفيق في الحديقة لعبة «زي عروستي». قلت لها: لقد كبرنا يا «خالتو» خيرية على هذه اللعبة. ونزلتُ سلم البيت الكبير، لكنني لم أخرج إلى الحديقة بل بكيت دون أن أدري لماذا وأنا جالسة على السلم.. بكيت لأنني لم أجرؤ على سؤالها: كيف كانت أمي؟).

حين وصلا إلى البيت سألها أمجد: هل تريدين أن نمشي من جديد في ضوء القمر؟ فرحت زين وغادرها مزاجها المكتئب. تحب رفقته وتحب رغبته في التسكع معها بين الحقول وهي رغبة لا تقلّ عن رغبتها.

أدهشها عناد ضوء القمر المصرّ على إلقاء شعاعه من جديد عبر أغصان الأشجار فوق التراب كأنه يعيش حكاية حب مع مسامات الأرض. ذلك الجمال المحيط بها يضخّ فيها حب الحياة وشهوة الفرح.. (قهقهت النارجيلة، والنهار ارتدى قلادات الضوء على طول جسده وتوّج نفسه بشمس تتضوع بعطور الياسمين والورد الجوري. أسند أبي جسده على أرائك النسيم العليل المتصاعد من النهر متخللاً الشرفة الخشبية المعلّقة فوق الماء، وقال لي وهو «يؤركل» ذلك الظهر المشع: سألتِني عن مصير زنوبيا ملكة تدمر الذي تضاربت فيه الآراء.

ـ أجل تلك الملكة تسحرني وتبهرني. ثم انني أحمل اسمها في «تذكرتي»[1] وقد أدهشتني أن تقول لي إنك لا تعرف.

ـ لم أكن أعرف وأحب أن أستعمل هذه الكلمة «لا أعرف». حين تجهلين شيئاً اعترفي بذلك، وفتشي عن المعرفة.

تضايقتُ من محاضرات والدي الناصحة التي يحشرها دوماً في أحاديثه وسألتُه: حسناً. لنعد إلى مصير زنوبيا. كيف ماتت؟

ـ سألتُ صديقاً لي يعمل أستاذاً للتاريخ في الجامعة وهو مؤرِّخ مشهور فقال لي إنه هو أيضاً لا يعرف وثمة روايات عديدة.

(١) بطاقة الهوية.

تعجبتُ. كيف يمكن أن تكون ثمة روايات عديدة لحقيقة ما؟ أليست الحقيقة بيضاء ناصعة واضحة؟ ازددت دهشة وأنا أسمعه يتابع: بعد سقوط تدمر، ذكر المؤرِّخ السوري فالالاس أن زنوبيا قُتلت وفصلوا رأسها بعد مهرجان النصر في روما. هذا المؤرِّخ عاش في القرن السادس الميلادي وأنا لا أميل إلى رأيه. المؤرخ البيزنطي زربان يقول إنها مرضت في الطريق حين أخذوها أسيرة إلى روما، مرضاً أو صياماً عن الطعام كي تموت ولا يستطيع أحد إذلالها. أوغست المؤرِّخ يقول إنها قضت أيامها الأخيرة في روما سيدة صالون روماني في قصر جميل هو ڤيلا تروفي. أنا شخصياً اعتقد أنها ماتت في الأسر صياماً وفشلوا في إذلالها...

ـ هل لديك أدلة؟ أم أنك تحب الاعتقاد بذلك؟

ـ أنا أميل إلى هذا الرأي. أعتقد ان ملكة عربية مثل زنوبيا دافعت ببطولة عن مملكتها ما كانت لترضى بأن تتحول إلى سبية رومانية سعيدة في منفاها. لا يعقل ذلك في نظري.

ـ ولكنك لا تملك أي دليل....

صمت أبي. لم أكن قد تجاوزت الصدمة بأن معرفة الحقيقة عسيرة حتى فوجئت بصدمة أخرى: والدي يختار من بين الروايات الكثيرة الحقيقة التي تريحه ويصدّقها!).

كانا صامتين اقتداء بالليل حين وصلا أمام «العين». وانهمر ضوء القمر بسطوة طاغية شبحياً مراوغاً لا يدري معه المرء أي المرئيات حقيقية وأيها من صنع الظلال، وأين يبدأ الوهم وتنتهي صلابة الأشياء.. وقفا (هل يمكن أن تكون حقيقة أمي كحقيقة زنوبيا، لا يمكن الجزم بها وعليّ اختراعها أو اختيار ما يناسبني من الروايات الموجودة؟). تأملت والدها تريد أن ترجوه أن يقول لها شيئاً واضحاً حاسماً بلا روايات: من هي أمها؟ لم تجرؤ.. أما هو فكان يتأمل تلك الرخامة التي تشبه شاهدة قبر والتي نقش مجهول عليها: «كم مر أمثالنا على هذه العين، ثم ذهبوا في غمضة عين».

تنهد وهو يقرأها في ضوء القمر بعين الذاكرة بصوت شبه هامس. واحترمت زين حزنه الخفي بالسكوت.

* * *

تستمع زين للمرة الأولى إلى موسيقى «الروك أند رول» عند ناريمان. لا تلقى

هوى في نفسها، لكنها سعيدة لأنها تسمع جديداً وتقرر بحرية إن كانت تحبه أم لا. ناريمان ترقص وزين لا تشاركها وتقول لها إن هذه ليست موسيقاها وتفضّل أغنية مثل «غريب في الجنة» لسيناترا أو «اكستازي» و «موناليزا» وسواها من الأغاني الحالمة الهادئة لـ «نات كينغ كول» مثلاً..

فرحت زين كثيراً بمساحة الحرية التي توفرت لها في السنوات الأخيرة منذ انتقالهم إلى البيت الجديد في ساحة المدفع.. ولكن فرحتها الكبيرة كانت في صداقتها مع ناريمان بنت الجيران. فقد كانت تكتشف لديها كل يوم جديداً تحبه أو تكرهه لا فرق، لكنه جديد عليها.

صحيح أن بوران لا تزال تقيم عندهم بمعنى ما وتمنعها من مصادقة من لا تعرف أصلهم وفصلهم وأحوال بيتهم إذ تأتي مرات عديدة في الأسبوع لتزورهم ولتشرف على تربية زين، ولكن نجاح صهرها شغلها في بعض الفترات عن مشروعها الأول الذي كرّست له الكثير من اهتمامها ووقتها، ألا وهو صنع بنت شامية مثالية مطيعة من زين، هذا إلى جانب ترتيب أمور الجان والعفاريت مع الناس الذين يطلبون معونتها. ثم إن الناس كانوا يتدفقون عليها كي تتوسط لهم عند صهرها قبل تقاعده من الجيش وخسارته لنفوذه السياسي ونجاحه الحالي في الكراج الكبير لتصليح السيارات (وهو ضابط الآليات سابقاً)، أو لتتوسط لهم عند «الماوراء» بواسطة السحر والتعاويذ والأدعية قبل تألق صهرها وبعده بعدما طار صيتها كشيخة تداوي وتقرأ الماضي والمستقبل وتحل وتربط مع المجهول وتجعل أمثال جهينة يرثون الثروات، حتى صار زبائن «عيادتها» أكثر بكثير من زبائن عيادة ابن شقيقها الدكتور مأمون وتربح أكثر منه.

ولكن لزين مكانة خاصة في نفسها ربما لأنها أكثر تمرداً عليها حتى من صهرها! وقد حرصت بنفسها على الإشراف على إخفاء أشياء هند عن زين بعناية في البيت الجديد، كما تمّ التخلص من معظمها بحجة أنه قد يثير أشجان زين وكوابيسها. لكنها نسيت الزجاجات الخمس لعطر «سوار دوباري»، وكل زجاجة منها بحجم مختلف بدءاً بالعملاقة فالأصغر فالقزمة كما زجاجات عطر «شانيل سانك»، الأولى في زجاجاتها الكحلية الداكنة الرشيقة والثانية في زجاجاتها الكريستالية الثمينة.. هذا وبقية أشياء أمها الجميلة الباريسية أو اللاذقانية التي تذكّر زين بأمها، كما قدّرت وأقنعت والدها، ولكنها فشلت في إقناعه بالتخلي عن أوراق هند ورسائلها التي تم وضعها في الصندوق العتيق في حين أُقفل على الثياب مع بقية

أشيائها الثمينة التي حملتها معها من اللاذقية: التمثال الأزرق الخزفي للأميرة السورية.. اللوح الطيني للأبجدية الأولى من الساحل السوري.. المدمعة.. والمشط الأثري.. هذه كلها تمّ إخفاؤها جيداً في ركن خاص من الخزانة أُفرد لها إلى جانب فراء هند الثمين وثعلبها الذي يُلف حول العنق.. وأدويتها ونظارتها ومجوهراتها الثمينة..

وقد كان لتبديل البيت مفعول السحر في نفس زين منذ الأيام الأولى. وما أن أوجعها الحنين حتى تسللت وهي بعد صغيرة وفي الشهر الأول لانتقالهم إليه فذهبت بعد المدرسة لزيارة «البيت الكبير» وأهله وماما ديب وأدهم وجهينة ومعزز ومبجل والقط «عنتر الثاني» ثم عادت مساءً متأخرة وكان أمجد قد فقد صوابه أو كاد قلقاً عليها.

لكن زين التي كانت لا تزال طفلة يومذاك لما تدخل بعد سن المراهقة سخرت من قلقه وقالت كعجوز هادئة: من غير المعقول أن تقلقوا كلما ذهبت لزيارة أهلي وأصحابي في «زقاق الياسمين»؟ وهل أنا بنت صغيرة؟

قال لها أمجد يومها بعدما قرّعها: أيتها السيدة الكبيرة، أخبرينا مسبقاً بمواعيد زياراتك من فضلك كي لا نقلق!

سعدت زين أيضاً في البيت الجديد بغرفة تستقلّ بها بلا مداهمات أو عداء حاسد وارتاحت من حربها الدائمة مع لؤي ودريد ومن انشغال والدها بالآخرين عنها حتى بوضّاح وهاني اللذين تحبهما، وألفت بسرعة مناخ ساحة المدفع والناس المختلفين فيها عما عرفته في الحي العتيق، زياً ولهجة وتصرفاً وسلوكاً. وهكذا تعارفت مع الجارة الحلوة ناريمان التي تكبرها بعامين وأحبّتها كثيراً بالرغم من اعتراض بوران على صحبتهما التي «ستفسد» أخلاقها في نظر عمّتها. فوالد ناريمان مريض مشلول أما أمها المسلمة التركية الأرستقراطية «غونول» فأكثر نشاطاً و «فرنجة» مما ينبغي برأي الحاجّة أيضاً وابنتها بوران. فهي تقيم الحفلات الراقصة في بيتها التي يتردد عليها الرجال مصحوبين بزوجاتهم ولكن في جلسات مختلطة حيث يشربون الخمرة كما نقلت خادمتهم أخبارهم إلى فهيمة خادمة الحاجّة. وجذبت زين العادات المختلفة للناس في الحي الجديد وأسلوبهم المختلف في العيش والملبس وحتى المأكل والموسيقى الجديدة عليها التي تصدح من النوافذ.. وأحبت زين ناريمان كثيراً.

تتابع ناريمان رقص «الروك أند رول» بقامتها الفارعة وجمالها الاستثنائي الباهر. . . (كل شيء كان يفرّقنا لكنني أحببتها كثيراً منذ البداية وكنت أعرف أنها تبادلني وداً بـود. كانت تأكـل «الشوكولاه مو»[١] عنـد «شيه أندريه» وأنا ألتهـم «القيمق»[٢] البلدي بالقشطة عند بكداش و «المحلاّية» و «كشك الفقرا»[٣]. هي بكت وبكت ولم تتوقف عن البكاء في تلك الليلة[٤] التي لن أنساها وذلك لموت جيمس دين وأنا لم أسمع باسمه! هي ترتدي ثياباً تشتريها لها «المامي»[٥] من بيروت وباريس وأنا أرتدي ثياباً أشتري قماشها من سوق الحميدية واختار «موديلها» من دفتر فرنسي عتيق أصفرّ في الشمس وشحب لونه. عندها آلة «البيك أب» وليس في بيتنا أكثر من «فونوغراف» عتيق. ناريمان تشتري الأسطوانات الغربية بالفرنسية والإنكليزية وأنا أستمع عبر المذياع مع أبي إلى أذان المغرب في رمضان، ثم نستمع إلى الأدعية والمدائح النبوية الليلية. وأظل أصلّي التراويح معه أكثر من عشرين ركعة، ونرتاح بعد كل ركعتين حتى صلاة الصبح. كما أنصت إلى صفوح الرومي[٦] ووديع الصافي ونجاح سلام وزكية حمدان ونور الهدى وسيد درويش ومحمد عبد المطلب وكارم محمود، وأم كلثوم كل أول خميس من الشهر، وكلهم لم تسمع بهم ناريمان. منذ البداية أحببت عالمها وعالمي معاً. . ولا أريد التخلّي عن عالمي لحساب عالمها ولا إلغاء عالمها). . .

تحاول ناريمان أن تجرّ زين لترقص معها وتعلمها حركات «الروك أند رول»، لكنها ترفض وتتمسك بمقعدها مرتبكة (منذ البداية فرحت بصداقتنا الأخوية رغم اختلافنا في كل شيء. . بدءاً بالتفاصيل الصغيرة: هي تشرب الشاي الإنكليزي من «فورتنوم أند مايسون» أو من «إلفنت أندكاسل» بعد الظهر مع «الجاتوه بالكريم» أو الخبز الفرنسي بالزبدة وأنا أشرب الشاي مع طعام العشاء والشاي بالياسمين بعد الغداء والعرقسوس بعد الظهر، وحين أجوع كثيراً عند العصر ألتهم أي طعام فائض عن غداء اليوم الماضي، أو آكل رغيفاً عربياً ألفّه على «مكدوسة» بدلاً من «الجاتوه». هي تنادي عمتها «أنتي»[٧] أو «تانت» وأنا أنادي عمتي «يا عمتي». هي تتقن الرقص وأنا أتعثر بالتانغو!

---

(١) الشوكولاه مو: حلوى فرنسية.
(٢) القيمق: الاسم العربي للبوظة.
(٣) كشك الفقرا: حلوى شامية.
(٤) ليلة ١٩٥٥/٩/٣.
(٥) المامي: اسم الدلع الأرستقراطي للأم.
(٦) مطرب سوري تألق في ذلك الزمان.
(٧) تدليع «آنتِ» أي عمة بالانكليزية «وتانت» بالفرنسية.

.. هي شاهقة القامة وأنا قصيرتها. هي باهرة الجمال وأنا «مهيوبة»[1]. شعرها أشقر وشعري فاحم السواد. عيناها خضراوان ووالدها مليونير ووالدي يعمل ليل نهار، ولولا نقود أمي لما اشترينا هذا البيت ولما أقمنا في هذا الحي. هي تذهب مع رفيقاتها إلى السينما بعد ظهر الخميس لمشاهدة أفلام عاطفية أجنبية مختلطة، وأنا أرافق أبي لمشاهدة أفلام «رعاة البقر» كي لا تفسد الأفلام العاطفية أخلاقي! هي تدرس في «الفرنسيسكان» مدرسة بنات العائلات الثريات «الأكابر» الأرستقراطيات ولا يهمها أن ترسب في صفها، وأنا أدرس في مدارس «التجهيز» الحكومية المجانية لعامة الشعب وأريد أن أكون الأولى في صفي. هي تتحدث بشكل عفوي بالفرنسية وأنا بالعربية. أسرتها تحتفل بالميلاد ورأس السنة، ونحن نحتفل بعيد المولد والمعراج وليلة القدر. هم يرقصون ويشربون البيرة، وجدتي تصلّي وتلعن ضجيج سهراتهم! هي تستحم بصابون «كامي» و «بالموليف»، وأنا أستحم بصابون «الشمس» البلدي. هي تنظّف شعرها بـ «شامبو درين»، وأنا سمعت منها للمرة الأولى بحكاية الشامبو وبالفوط الصحية من الصيدليات وكنت أنظف شعري بصابون الغار الحلبي ثم أضع عليه «الطرابة» المعطرة.. هي تلفّ شعرها بعد الحمام بالـ «بيغودي» وتمشط غرتها بالبيرة[2] وأنا كنت أجففه في البيت الكبير لصق «الصوبيا» بعد أن أزيد إيقاد الحطب فيها. ليس في بيتها مكتبة أو رف كتب، وبيتنا يشبه مخزن مكتبة عامة! بيتنا شقة عادية، وبيتها شقة شاسعة تغطي رقعة ثلاث شقق إذ إن المبنى ملك لوالدها ومنه اشترت أمي شقتنا. هي تتباهى بالازرقاق على زنديها من محاولات حبيبها لضمّها إليه أكثر، وبآثار القبلات الشبيهة باللطمات على شفتيها وما حولهما، وأنا لم أجرب القبلة الأولى بعد رغم تشجيعها لي. في جسدها أناقة ملكة وإغراء راقصة، وأنا أشبه البومة أكثر من البشر كما تقول عمتي بوران كلما أغضبتها.

منذ تعارفنا قبل أعوام أحببتُ ناريمان كثيراً وأحبتني.

ولا تزال نافذتي أطلّ عبرها على عالم لا أعرف عنه شيئاً، بدءاً من السباحة في نادي «غالاتا ساراي»[3] في اسطمبول حيث تروي لي دائماً أنها التقت فيه مرةً بالملك فيصل الشاب الصغير و «انبهر» بجمالها وسيحضر لخطبتها، وانتهاءً بذهابها مع أمها شتاءً لقضاء الإجازة في الأقصر وأسوان والسفر صيفاً إلى نيس ومونتي كارلو

(١) مهيوبة: مرتبة.
(٢) تثبيت الغرة بالبيرة كان موضة أواسط الخمسينات في دمشق حتى مطلع الستينات.
(٣) اسم نادي رياضي شهير في اسطمبول.

وكان. . كنت أعرف جيداً ما يجذبني إليها ولكنني كنت أجهل ما يجذبها إلى بيتنا، حيث كانت تبدو سعيدة عندنا، سواء في مطبخنا المتواضع ونحن نتناول العشاء «البلدي» وهي تشاركنا طعامنا بسعادة ولا تريد الذهاب إلى بيتها إلا بعد أن تناديها أمها مرات، أو في غرفة مكتبتنا. كنت موضع سرها وكنت أظنها موضع سري حين لم يكن لدي سر، ثم اكتشفت عبر مظفر أنني عاجزة عن البوح بسري العميق لأحد بل بأجزاء غير أساسية منه ربما لأوهم نفسي بأنني لست مريضة بالكتمان. إنني خرساء نفسياً، وما من صديق لي غير الورقة البيضاء. . أعجزُ عن قول شيء لها حين أذهب إليها خصيصاً لأقول، لكنني أمضي جزءاً من الليل في كتابة جرحي والبوح بسريّ للورقة البيضاء).

لا تزال ناريمان ترقص وحدها «الروك أند رول» وتحاول جر زين لتعلم الرقصة. نهضت زين تحت وطأة إلحاح ناريمان، وشاركتها الرقصة الجديدة وفوجئت باستمتاعها بذلك.

(موسيقى الروك لا تُعزف ليستمع المرء إليها وهو يتأمل في شؤون الدنيا وذكرياته بل ليرقص كالقرد كما أفعل الآن). . بعد نصف ساعة من القفز الراقص شعرت زين براحة نفسية كما لو تحوّلت إلى قرد مرح!

* * *

يوم التقت زين بـ «أُبَيّ» في بوابة الصالحية وهي ذاهبة إلى المدرسة وحدّق فيها بعينيه المتوحشتين لا تدري لماذا تذكرت حكايا جدتها عن الضبع الذي يتجوّل خارج البيوت و «يسبع» الذين يغادرون العتبة وحيدين إلى الليل حين يحدّق فيهم أو يرش ماءه على وجوههم وأجسادهم بلسعة من ذيله، فيتبعونه ليلاً إلى حتفهم في أقاصي الجبال الموحشة منَوَّمين مسبوعين عاجزين عن المقاومة. ولذا لا يجوز أن تخرج البنات الصغيرات إلى الليل مهما كان فضولهن.

شعرت زين وهو يحدّق فيها بعينيه الاستثنائيتين الخضراوين بأنها تقترف المغامرة إلى الليل وحيدة وهشة ومستسلمة إلى مجهول يقودها إلى حيث لا تدري. تشتهي أن تتبعه حتى إلى حتفها الشهي بين مخالب نظراته، لكنها تتذكر عروس حمص والكدمات وآثار العضات والنزيف وزحام الثرثرة بعد خروج العريس «الديك» من غرفة النوم ـ ديك له حجم رجل ـ ويموت فضولها. تتذكر أيضاً مظفّر الذي لا يبالي بها حقاً، فهي في نظره زميلة أخته الصغيرة في المدرسة وتصغره بعشرة أعوام

على الأقل. ثم إنه مقعد لا يستطيع أن يفعل مثل أُبَيّ فيلحق بها حتى بيتها على عادة «الصبيان الشوام» حين تعجبهم «بنت مدرسة». لم تكن تعرف اسم أُبَيّ إلا حين سمعت زميلاً له يناديه عمداً باسمه بصوت مرتفع لتعرفه كما هي أصول اللحاق بالبنات. أحبّت كثيراً اسمه موسيقى ومدلولاً. أُبَيّ. يا له من اسم يدل على الإباء. لكن أُبَيّ كان يلحق بزين كل يوم بصمت وبلا إباء هكذا حتى مدخل بيتها ويتابع مشيته بخجل كأنه لا يعرفها. صارت تفتقده إذا غاب وتقلق عليه إذا طال غيابه، وارتبكت لأنها تحبه ومظفّر معاً. ذات يوم تلفت حوله كمن يستعد لرمي قنبلة ثم رمى لها برسالة على الأرض في مدخل المبنى الذي تقطنه بينما هي تدخل إليه. تلفّتت حولها بذعر خشية أن يراها أحد وهي تلتقطها. أخفتها في منهدتها، وكان ذلك في اليوم الأول لارتدائها قطعة الثياب الجديدة عليها تلك. صار قلبها يضرب بسرعة كأنها قفزت بالمظلة من طائرة. صعدت إلى البيت واختلت بالرسالة. إنها رسالة الحب الأولى التي تطالعها. غمرتها النشوة. لم تدر كيف تجيب عليها، ثم وجدت نفسها تكتب فوق خطه بخطها وعلى حروف الرسالة بقلمها الملون معيدة كتابة كل ثنية من ثنيات الحروف وكل نقطة، ولكن فوق ما سبق وكتبه أُبَيّ. وهكذا فقد أعادت كتابة الرسالة ذاتها ثانية! قررت أن ترمي بها على قدميه حين يلحق بها، لكنها حين شاهدته لم تجرؤ كما لم يجرؤ هو على اللحاق بها حتى المدرسة. أما الذي تجرأ فهو مظفر لأنه انتهز فرصة غياب أخته عن الغرفة لإعداد شراب التوت لضيفتها وقال لزين للمرة الأولى: أحبك. وخرج جناحاها من موضعهما ومزّقا ثوبها وانطلقت تحلّق وإلى جانبها مظفر الذي صار طائراً أبيض ولم يعد مُقعداً.

* * *

(مظفر وحده حبي الكبير المطلق الأزلي، لا مأوى لي قبل عينيه ولا بعدهما. وأشعر بالأسى لعجزه عن المشاركة في رقصة طريق الصالحية اليومية.. لكنني أحبه كيفما كان أينما كان).

كل صباح، تتأهب زين لدورها في ما يشبه الرقصة الجماعية قبل الذهاب إلى المدرسة، فثمة رقصة شعبية تدوم ساعتين وتدور كل صباح من أيام الدراسة على مسرح مفتوح شاسع يمتد على الأرصفة بين ساحة المدفع وأبو رمانة وساحة النجمة فشارع البرلمان وشارع الفردوس فطريق الصالحية مروراً بالبرلمان وعرنوس والجسر الأبيض والشيخ محيي الدين حتى المهاجرين.. تلك الرقصة يقدمها طلبة المدارس المتوسطة والثانوية المتناثرة على امتداد ذلك المسرح الشامي الشاسع كتلميذات

مدرسة الفرنسيسكان قرب ساحة النجمة لبنات الأثرياء الحسناوات غالباً، وتلاميذ التجهيز الأولى للصبيان قرب زقاق الصخر وحديقة المنشية المطلة على نهر بردى الراكض في القاع، وتلامذة المدرسة الإيطالية ومعهد النجاح ودوحة الأدب وتجهيز البنات الأولى لما بعد «البروڤيه» التي تتقاسم مبناها مع دار المعلمات، ومدرسة الفيحاء ومدرسة ميسون وتجهيز البنات الخامسة في الجسر الأبيض واللاييك في شارع بغداد للبعثة العلمانية الفرنسية والكلية العلمية الوطنية.. وعشرات المعاهد الأخرى التي تكاثرت كزهر اللوز الربيعي وتفتحت بعد الاستقلال لتضم جيلاً فتح عينيه على علم أخضر أحمر أبيض أسود..

رقصة تبهج قلب زين إذ ما تكاد تضع قدمها على رصيف الشارع حتى تشعر بأنها خطت إلى رقعة سحرية ويبهجها أن تؤدي دورها في الرقصة الجماعية الشامية التي تدور على ذلك المسرح الشامي الشاسع تحية للحب والحلم والأشواق الغامضة المراهقة لأبناء بردى والعاصي والفرات الذين تحضنهم تلك الرقعة العريقة بين الغوطة وقاسيون. تمشي زين في طريق الصالحية، شريان العشق الشامي اليومي الذي تركض في مجراه فتيات وفتيان ويلتقون قبل أن يتفرعوا إلى الأنهار الجانبية ليصبّوا في قاعات دروسهم و «صفوفهم». نظرات تلتقي. تتعانق. ترقص التانغو أو الڤالس أو الدبكة ثم يمضي كل في طريقه بعد لحظات البهجة الأثيرية تلك. نظرات تتشاجر أحياناً أو تبوح أو تتعجرف. والرقصة اللامرئية مستمرة. رقصة جماعية مفعمة بالبراءة يتصاعد إيقاعها مع أيام الربيع الأولى حين يشع الضوء وهو يتنهد الياسمين من باحات البيوت وتطير الفراشات من عيون البنات لتحطّ فوق أهداب الصبيان. رقصة يشارك فيها بعض الدخلاء «العجائز» الذين تجاوزوا الثامنة عشرة من العمر، أمثال ضباط الطيران الذين كان يتوقف الباص الذي يقلّهم إلى قواعدهم في السابعة صباحاً في شارع البرلمان مقابل مديرية الصحة، وينعقد شملهم بوسامتهم الاستثنائية ورجولتهم المكتملة في حلقات تمتاز بشعار «يا واد يا تقيل»، وبضبط النفس والأنفة حتى التكبّر على البنات اللواتي يحدّقن فيهم بينما يسترقون هم نظرات حذرة صقلتها خبرة في الحياة تفتقر إليها المراهقات في صف «قمر ١٤».

بعض محترفي البصبصة من الصبيان اخترعوا لكل بنت لقباً حرصوا على أن تعرفه، وكان لقب ناريمان «آڤا غاردنر»، أما زين فكان لقبها «البكباشي» إذ تشبه في نظرهم بخطاها العسكرية الجادة وزيّها المدرسي ذلك الضابط الجاد البكباشي جمال عبد الناصر!.. وثمة حلقات أخرى تنتشر في طريق الصالحية و «متفرعاته» ليس

لديها ما تفعله حقاً في تلك الصباحات غير تأمل ذلك المهرجان الجمالي.. هذي حلقة صبيان من أبناء المفلسين ورقيقي الحال تتوقف أمام مدخل مدرسة الثريات «الفرنسيسكان» رغم زجر «الآذن» لأفرادها. ففي المدرسة تتعلّم - بدون صعوبة تذكر أو اهتمام بالمقاييس العلمية - أجمل بنات دمشق وأكثرهن دلالاً وثراءً و «فَرْنَجَة» ومعرفة بالموضة الباريسية وبنجوم السينما الصاعدين الشبان أمثال مارلين مونرو وروك هدسون والنجمة الجديدة غريس كيلي وآفا غاردنر، والأغاني الجديدة جداً كالروك أند رول التي طلع بها شاب وسيم اسمه إلفيس برسلي، إلى جانب أغاني هادئة لمطربين شبان أو عجائز من أمثال فرانك سيناترا الذي بلغ الأربعين كما أخبرتها ناريمان مفجوعة به ونات كينغ كول ومراهق فرنسي اسمه جيلبير بيكو وسواهم.

البعض يقف ليتأمل الجميلات وهن يهبطن من سيارة «البابا» للدخول إلى المدرسة، وينكشف الثوب المحتشم عن طرف ساق بيضاء بضة تدعو إلى الحلم بقية النهار والليل. والبعض الآخر يقف منفرداً ليلمح طرف وجه حبيبة معيّنة رسم في باله سيناريو حياته معها في بيت فخم هدية الزفاف من والدها طبعاً وعدد أولادهما. أما أصدقاء «النظرات المتبادلة» لبنات «الفرنسيسكان»، فمعظمهم من أولاد الأثرياء وأهل الغزل بتشحيط[1] السيارات الفاخرة للآباء حيث يقود أحدهم سيارته بأقصى سرعة ويحوم حول الباب حتى يرى حسناءه فيضغط عندئذ على الكابح ويصدر صوتاً يلفت أنظار عابري السبيل والواقفين.

بعض الصبيان يتوقف لـ «الفرجة»[2]، فتشترك العين والحاجب في أداء رقصة الجاذبية والتنافر والأشواق والخجل والرغبات الغامضة والخوف، ووجوه بريئة تترقرق مشاعرها النامية تلك ولمّا يستيقظ شعر لحاها بعد وينهض من مسامه، وشفاه مرتجفة بدأ شارب بعضها بترك ظل خفيف لوبر ينبىء برجولة وشيكة. هنالك الإطلالة العذبة والخجولة والودية والعدوانية واللامبالية الكئيبة.. وجوهرها واحد بإيقاعات مختلفة لشهوة اكتشاف الذات والآخر. والكل يرقص بأسلوبه في تلك «الباليه» الشعبية اليومية حيث يلتقي الجميع دونما لقاء... ولكل «مدرسة بنات» معجبوها الدائمون والطارئون. ومعظم الصبيان هم من نمط «العصفور الطيّار» الذي يتأمل البنات كلهن وهو يمشي جيئة وذهاباً في طريق الصالحية منذ الصباح الباكر وريثما يحين موعد الدوام. ثمة من ينظر خلسة ويضم كتبه إلى صدره ويمشي وهو

(١) إصدار صوت مزعج من الكابح.
(٢) التأمل.

أكثر خجلاً من البنات. وثمة من يحصر نشاطه العاطفي في الترامواي حيث الفرصة سانحة بين موقف البرلمان وموقف الجسر الأبيض للاندساس بحسناء لم تجد مقعداً... وثمة من يختار الأسلوب المباشر، مغازلاً رفيقه حين تمر حسناء بقوله: «صباحك حلو يا حلو» أو شيء مشابه في لحظة «تلطيش»[1] تُكافأ بنظرة راضية أو غاضبة، أو ضحكات تصطفق بينها ورفيقاتها دلالة على الرضا، قد «يطبس»[2] بعدها ويذهب ضحية لالتماع العيون ولعق الشفاه باللسان كي تبدو برّاقة وحيّة.. الكلّ صياد وطريدة في آنٍ، والأدوار يتم تبادلها، لعيون تعشق ولا يبالي بها المعشوق وأخرى تطارد العاشق وهو برم بها.. نظرات يتمّ استبقاء بعضها في الذاكرة إلى الأبد وينحدر الباقي في فتحات مياه المطر أو يتكوّم في الزوايا مع النفايات...

هذه الرقصة الصباحية الحيّة التي تبدأ شتاء والظلمة لا تزال تتخلل النور الفجري كان يمكن لها أن تدور في مضارب قبيلة بدوية حيث تذهب البنات إلى العين حاملات الجرار بدلاً من حقائب الكتب إلى المدارس، لولا الأشجار الكثة التي تنتشر على رصيفي طريق الصالحية وتزداد كثافة أمام «مدرسة الطليان»[3] حتى لتتدلى العرائش لتغطي السور المرتفع الذي يحجب المدرسة تماماً عن الشارع بخضرة وهّاجة تتعرى في الشتاء وتبدو الأغصان الدقيقة على الجدار كشبكة دموية عارية تنبض حياة سرية في الفصول كلها.. ولو حملتْ معظم البنات جراراً على رؤوسهن بدل الكتب لما تبدل الكثير في نظر بعض الأهل، فالذهاب إلى المدرسة لطالما كان سبباً لزيجات حيث تشتبك أصابع النظرات ويلحق الشاب بمحبوبته ليرى أين تقيم ، وإذا فشل في إقامة علاقة معها ووجدها «سربست» وليست «فلتانة»[4]، تقدم منها خاطباً على الأغلب بعدما «طبس» فيها، تماماً كما كان يحدث في حارة الياسمين.

ولولا السيارات القليلة التي تخترق الشارع بعد انقراض «العربايات» التي تجرها الأحصنة، ولولا الترامواي الذي يخترق طريق الصالحية صعوداً حتى آخر الخط في المهاجرين حيث يتسلل العشاق إلى الساحة الترابية الخاوية، لكان طريق الصالحية مضرباً لقبيلة تعيش حلماً صباحياً منتزعاً من صميم البادية بعطوره وعراره

(١) تلطيش: الغزل الشفهي غير المباشر.

(٢) طبس: أحب بالعامية الشامية ومعناها الحرفي داس في حفرة ماء!

(٣) المدرسة الإيطالية في دمشق.

(٤) بنت فاسدة.

وأنفاسه، وها هن بنات القبيلة الجميلات اللواتي يزرعن التنهدات في قلوب الفتيان يتمايلن وتتفاوت ردود فعلهن على غزل العيون أو العبارات الرمزية السريعة، فبينهن من تشعر بالسرور حين يغازلها شاب لكنها تتظاهر أمام رفيقاتها بالغضب وقلبها طبل يكتم سره!

زين صارت جزءاً من الرقصة. وكم فرحت حين منعها والدها من ركوب الترامواي خوفاً عليها من تحرّش الصبيان الملاعين، ولم يكن يعرف الكثير عن تحرّش نظراتها بهم كمن يفتش عن شيء لا يريد أن يلقاه كي يعيش العمر كله وهو يستمتع بالتفتيش عنه!... فالبحث أحلى من الوصول كما تحدس زين حدساً غامضاً.. لم تكن مراهقة بعد حين أكتأب قلب والدها لمغادرة البيت القديم بعدما استقرت فيه الخالة أم عامر وأسرتها.. ولكن قلب زين لم ينكسر لفراق البيت القديم، وككل صغار السن أقبلت بشهية على جديدها وهي تحنّ بين آنٍ وآخر إلى قديمها.. ثم إنها عرفت طعم الحرية للمرة الأولى في ساحة المدفع وطريق الصالحية: غرفة مستقلة لها دون أن يحقد عليها أحد بعدما كان أولاد عمها وعمتيها يتضايقون منها لأن أمها سبق أن ميّزتها عنهم جميعاً حين فرضت على أهل «البيت الكبير» إفراد غرفة مستقلة لها وحدها.. وفوق ذلك كله تخلّصت من حربها اليومية مع ابن عمّها لؤي وابن عمتها دريد حين كانت عمّتها تردّد وهي تمسك بمطحنة البن النحاسية وتدير قبضتها وهي تطحن البن: زين لدريد ودريد لزين. فتصرخ زين: أفضّل الزواج من الحردون[1].. ويصرخ دريد: وأنا أفضّل الزواج من «السعدانة نوره»[2]. وتهجم عليه زين لتضربه بفردة «الشحاطة»[3]، ويدخل بقية الأطفال في الحرب ويعلو الصراخ ثم يسكت الجميع حين تضرب الحاجة بعصاها على الأرض...

في البداية خافت الحاجة كثيراً من ذهاب زين وحيدة إلى المدرسة. وأصرّت على مرافقتها والإمساك بها من يدها أو إرسال فهيمة على الأقل لتواكبها. ولكنها لاحظت أن الأشياء في هذا الشارع تختلف كثيراً عما ألفته في «زقاق الياسمين».

فالبنات هنا لسن محجبات ويمشين بخطى مشدودة ووجوه غير هيّابة والعيون تكاد تكون مختلفة النظرات ومقدامة. وهكذا استسلمت وتركت زين تمضي كل صباح إلى مدرستها حيث تمشي وحدها من ساحة المدفع إلى ساحة النجمة

(١) الحردون: السحلية. (٢) القردة. (٣) الخفّ المنزلي.

فالبرلمان فطريق الصالحية صعوداً حتى عرنوس فالجسر الأبيض.. ويا لها من «مغامرة» جعلت جدتها تمسك لها «صمدية» بمسبحتها، و «لطيفية».. و «يا لطيف من آخر الزمان!» كما قالت الحاجة أم أمجد لأختها.

ذلك الصباح غادرت زين البيت وهي تكاد تطير بأعوامها التي تكاد تبلغ السادسة عشرة.. ليس لأنها غلبت منافستها لمياء وصار ترتيبها الأولى في الصف بدلاً من الثانية وأرضت والدها.. وليس لأنها فرقت اليوم شعرها عند المنتصف وبدت بنتاً جديدة «لنفسها».. وليس لأنها ترتدي حذاء أصفر جديداً يرتفع كعبه الخلفي ثلاثة سنتيمترات هي بأمس الحاجة إليها لقصر قامتها.. وليس لأن المدرسة غيّرت اللباس الموحد الكحلي إلى آخر كاكي مثل الجنود، وهي تحب هذا اللون الذي تليق به شارة ضابط الطيران التي سرقتها من شقيق صديقتها هنادة البازرباشي الضابط وخاطتها في أعلى كمها عند الكتف وصار اسمها عند الصبيان «طيران» منذ ناداها زهير وصديقه نعيم بذلك اللقب أيضاً كلما مرت ورفيقاتها. فهي تمشي بسرعة وكأنها تطير، ولعلهم يقرأون أحلامها ويعرفون أنها تحلم بالطيران كأنها حفيدة عباس بن فرناس. لا. لم تكن سعيدة لهذا وحده.. وليس لأن الدنيا ربيع وهذا معناه التخلّص من المعطف الثقيل الذي يضايقها ارتداؤه إلى جانب حقيبة كتبها التي تزداد ثقلاً صفاً بعد آخر حتى لتنوء بحملها.. لا لهذه المباهج الكبيرة كلها، بل لأن دكان تأجير الكتب في عرنوس صار يسمح لها باستئجار ثلاثة كتب دفعة واحدة، والمسموح به عادة كتاب واحد أجرته «فرنكان»[1] من «خرجيتها»[2] لمدة أسبوع، والتأمين ربع ليرة يسترجعها المرء حين يُعيد الكتاب.. كان صاحب المكتبة قد وعدها بأن يحتفظ لها بثلاثة كتب عاطفية مترجمة عن الفرنسية من تلك التي لا تجدها في مكتبة الوالد ولا تملك ثمنها من «خرجيتها» المتواضعة جداً التي لا تزيد عن عشر ليرات في الشهر!... فهي عاشقة، عاشقة من أقصر شعرة في غرتها «البدر» حتى أظافر قدميها التي طلتها بالأبيض الشفاف خلسة عن والدها بعدما زجرتها جدتها قائلة إنها تعيق الوضوء وأجابتها إنها توضأت قبل أن تقوم بطلائها!

(ثمة نهر يتدفق من صدري حباً لكل ما أراه أو ألامسه.. لهذا الشاب الخجول قصير القامة رقيق الحال الذي ينتظر وصول ناريمان إلى باب مدرسة الفرنسيسكان

---

(١) الفرنك: خمسة قروش والليرة مائة قرش، وكان الفرنك آنذاك مبلغاً لا بأس فيه.

(٢) «خرجية»: المصروف الأسبوعي الذي يعطيه الأهل لأولادهم.

ليتزود من جمالها المطهم بنظرة يرفعها إلى قامتها الشاهقة التي تكاد قمة رأسه لا تبلغ عنقها. وعاشقة لباص «ضباط الطيران» الذي يتوقف كل صباح أمام «مديرية الصحة» بكل من فيه من وجوه محلية وريفية لشبان بالغي الوسامة، لعل بعض آبائهم قُتل في حرب فلسطين.. وعاشقة لأرانب ابن العم الدكتور مأمون في مديرية الصحة المجاورة حيث يجري تجاربه عليها لاستخراج لقاح ضد داء الكَلَب كما قال لي حين استجوبته طويلاً.. وعاشقة للحديقة العامة الصغيرة مقابل مبنى «كسموقباني» والتي تشرف عليها واجهة البرلمان الخلفية من جهة وحديقة نادي الضباط من جهة أخرى، والتي يتعالى منها صوت نجاح سلام تغني في سهرات النادي أو أسمعها ووالدي حين يصطحبني إلى بائع الفلافل للعشاء قرب التجهيز الأولى للصبيان.. وعاشقة لسمير الذي يحييني كل صباح بنظرة صامتة وأعرف اسمه من صديقه الذي يتكلم بصوت مرتفع ويناديه عمداً «سمير» كي تعرف البنات اسمه وأعرفه...

وعاشقة لذلك الصبي الذي أراه كل صباح منذ عامين واقفاً أمام البرلمان يسند العمود خوفاً من أن يقع كما يبدو عليه.. وعاشقة لكل الذين يسندون أعمدة كهرباء شارع الصالحية وأشجاره، فلولاهم لوقعت على جانبي الطريق فوق رأسي ورؤوس بقية البنات ولخربت تسريحاتنا إذا لم تقتلنا.. عاشقة لأديب بعينيه السوداوين المشعتين ببريق شاعر.. وعاشقة لـ «حلقة المثقفين» التي ينتمي إليها وينعقد شملها في ساحة عرنوس على رصيف مكتبة تأجير الكتب.. وعاشقة لـ «حلقة الحلوين» عند مفرق الشيخ محيـي الدين.. وعاشقة لفايز بعينيه الخضراوين وشعره المحمرّ قليلاً ونمش وجهه.. وعاشقة لأسامة وشحوبه وذبول عينيه.. وعاشقة لهم جميعاً من بعيد لبعيد لكي أكتب فيهم ـ سراً ـ شعراً غزلياً مثل فدوى طوقان.. عاشقة للغيوم التي تتوج البيوت الواطئة على جانبي الشارع وحدائق سطوحها التي يتدلى منها الياسمين حتى الرصيف ويتساقط على الرؤوس.. عاشقة منذ طفولتي للترامواي وهو يقرع جرس بصوته المعدني الطريف منبهاً مثل لعبة طفل سحرها جنّي لطيف وأطلقها للأولاد الكبار في طريق الصالحية.. عاشقة لمعلمة خانم «معلى» التي ارتدت ثوب الحداد منذ مصرع شقيقها الطيار في حرب ١٩٤٨ ولم تخلعه منذ أعوام وهو يليق بها وبشامتها السوداء الكبيرة فوق شفتها وتقطيبة وجهها والقرنفلة «وردة الموت» التي نحملها لها ونضعها قرب الطبشورة التي تريدها ملفوفة بورق الشوكولاتة من أسفلها حيث تمسك بها.. وعاشقة لـ «مديرة خانم» جهان ومعاونتها حميدة ومعلمة خانم إنعام، والحنان يتدفق من وجوههن مثل فرع سري ثامن لنهر بردى.. وعاشقة لأبي

الوسيم الحنون اللطيف الذي كذب عليَّ هذا الصباح حين سألته عن عمره وصغّر نفسه بعشرة أعوام فأحببته أكثر. . وعاشقة لجدتي التي لا نجد في البيت ما هو أنظف من غطاء صلاتها الأبيض لنمسح به شعرة دخلت في عيوننا أو حبة رمل. . عاشقة للأزهار البيضاء التي ما زالت ترفض زرع غيرها على شرفة البيت كبديل بائس عن حديقتها المغدورة في بيتنا الكبير العتيق خلف الجامع الأموي وقبر صلاح الدين. . عاشقة لظفر جدتي المشوّه بإبرة الخياطة التي اخترقته. . وعاشقة لتدفق الماء على واجهات باعة الأزهار كـ «أزهار الغوطة» و «أزهار إدريس» وهي تركض كجدول من الأعلى إلى الأسفل تغطي زجاج الواجهة والأزهار خلفه قرب دكان «فمينا»، وأحياناً تتدفق المياه من الأسفل إلى الأعلى كما أراها حين أكون سعيدة كما هي حالي اليوم. . عاشقة للعمودين الرشيقين أمام مدخل مدرسة الفيحاء و «الآذنة» التي تنظف الزجاج الملوّن وسط الخشب المعشّق للمبنى العتيق. .

عاشقة لسيارة تنظيف الشوارع وهي ترش الماء على جانبي الطريق والأرصفة ويغسلني الرذاذ الذي لا أتحاشاه وأفرح بانهماره كبديل صيفي بائس عن المطر. . وعاشقة للمطر الذي أتركه يبلل شعري حتى المدرسة وأسعل في الصف وأنا أعصر شعري بمحرمة مبتلة وتصرخ بي «معلمة خانم» كي أخرج وأجففه وتعاقبني ـ لو لم أكن في صف البكالوريا ـ بكتابة عبارة «لن أدع المطر يبلل شعري ثانية» مائة مرة. ولكن كيف وأنا صديقة العاصفة. . وعاشقة للصباحات الباردة حين تتحول البرك إلى جليد أنزلق عليه وأقع على مؤخرتي وأنا أقهقه أكثر من الصبيان الذين يضحكون من سقوطي. . وعاشقة لبائع «الجرادىء» وهو يصرخ على بضاعته في رمضان: «يا اللّي رماك الهوى يا ناعم»، كأنه يخاطبنا جميعاً نحن الذين نرقص الدبكة الشعبية السرية الصباحية في طريق الصالحية. . وعاشقة لعينَيْ نادية الجميلتين «الميوب»(1) المصرّة على عدم تشويههما بالكزلك حتى ولو لم ترني أو تحيّني، حتى أغضبتْ كل رفيقاتها باستثنائي! . ولو كانت عيناي كعينيها بحراً من الزرقة لفعلت مثلها وأكثر. . وعاشقة لجديلتيْ صديقتي النحيلة، هالة. . وعاشقة لـ «إيشارب» صديقتي هادية التي أمرّ بها أحياناً صباحاً لنمشي معاً إلى المدرسة، فتكرع كوب الحليب المخفوق بصفار البيضة النيئة والعسل إرضاءً لأمها، وتضع «الإيشارب» إرضاءً لوالدها وما نكاد ننعطف في طريق الصالحية حتى تخلعه وتشمر أكمامها المحتشمة عن ذراعين بضتي البياض ويصرخ شاب «يا محلاّية. . يا كشك الفقراء!» ونضحك خلسة ونمشي. . عاشقة

---

(1) «الميوب: حسيرة النظر.

لحارس مرمى فريق الجامعة السورية لكرة القدم وأصرخ ملء صوتي مشجعة له حين أرافق والدي إلى المباريات، وها أنا الآن أمر ببيته قرب حديقة السبكي.. عاشقة لأمسياتي مع أبي في نادي الطيران الشراعي الذي يرأسه ومقره في الروضة.. عاشقة لنمرة التنويم المغناطيسي التي يقدّمها أحد طلاب الجامعة بعينين نوّمتاني الآن وهو يمرّ بي على الرصيف منوِّماً ولا يراني ولا يحييني.. عاشقة لـ «سيران» المحبة اليومي في طريق الصالحية وزادنا النظرات وخضرة القلب وأنهار الرعشات المتدفقة من خطى تتقارب وتتباعد بصمت يتخلله بعض «التلطيش»)..

تتابع زين سيرها كعصفور يرقص على إيقاع عشقه للكون الذي بدا جميلاً ذلك الصباح المترع بعسل المراهقة (عاشقة لمظفر العاجز عن المشاركة في «دبكة» طريق الصالحية الصباحية، الغيور لأنني جزء منها. يا إلهي كم هو «غيور»! إنه يغار بطريقة استثنائية تضايقني وتسعدني إذ أجد فيها دليلاً على حبه المجنون لي كما تفسّرها ناريمان وكما توحي لي جدتي وبقية عجائز الأسرة اللواتي يقلن إن الغيرة دليل الحب.. وهكذا أنصاع لرغباته كلها وهو يصدر أوامره: أنا أو ناريمان، عليك الانتقاء بيننا. قاطعتُ ناريمان أياماً بلا مبرر باسم الحب ثم اعترفت لها بحقيقة الأمر وصرنا نلتقي سراً وقد قرّرنا ـ لنريح ضميرينا ـ أنه سيحبها كثيراً حينما يتعرّف عليها! «أنا أو ناريمان. أنا أو الجامعة. أنا أو لؤي ودريد وعامر.. إذا خنتني ذات يوم سأطلق عليك النار ثم انتحر». عبارات مسروقة على الهاتف أو في لقاءاتنا النادرة حين أتعمد الذهاب قبل موعدي مع شمّاء لانتظرها في حضرته البهية الذكية، وهو يؤكد لي حبه الأزلي ووفاءه وأنا أصدّقه إذ ليس من السهل عليه خيانتي، فهو لن يجد بسهولة الفتاة التي ترضى به ومعظمهن يسخر من ذوي العاهات، كما تدّعي ناريمان منذ اليوم الذي حدّثتها فيه عنه وظنت في البداية أنني أمزح حين قلت لها إنني أحببته منذ اللقاء الأول والنظرة الأولى واللسعة الأولى من سخرية ذكائه الوقّاد.. وأحببت ساقه المشلولة والأخرى الضعيفة حتى لتعجز وحدها عن حمله بلا عكاز أو كرسي بعجلات. ضايقني أن عليَّ أن أتخلي عن جزء مني من أجل من أحب، لكنني وجدت في مقولات جدتي عن المرأة والرجل سنداً كبيراً. كنت متعلّقة به وبإطاره: رفوف مكتبته خلفه التي تغطي الجدار وأسطواناته وموسيقاه وثقافته الرفيعة. سألني الصوت الساخر في قاعي مرة: كيف تحبينه وأنتِ لا تعرفينه؟ ذهلت. ولم أجد جواباً.. ومرة قالت لي ناريمان: هذا ما حدث لي في حبي الأول حين كنت أصغر سناً منك. وقد نجوت! وحذّرتني ذات مرة بأسلوب مباشر: انتبهي منه. إذا كان يريد تعريتك من

صديقاتك ودراستك فهذا ليس حباً بل حب امتلاك. بوسع بعض المعاقين أن يكونوا قساة قسوة العالم عليهم.. لم ألاحظ الفارق كثيراً.. قلت لنفسي: من الطبيعي أن يرغب المرء في امتلاك من يحب. ألست أنا كذلك؟

مرّة حدّثته عن صداقتي الحميمة مع ناجية وكيف علّمتها السباحة وأخفيت لها دفتر أشعارها عندي خوفاً من غارات والدها على أوراقها، لكنني لم أجرؤ على قول شيء عن عبد الهادي فقال لي: أنت يسارية. وحين حدّثت عامر في سهرة «البيت الكبير» عن صداقتي مع ناريمان قال: أنت يمينية. أكاد أحياناً لا أفهم الآخرين. هل يقولون الحقيقة كما تبدو لهم أم أنهم لا يبذلون جهداً لمعرفتها ويتّهمون الذين حولهم بتهم هزلية ليثبت الآخرون لهم العكس ويمنحوهم قيمة حين يفسرون لهم أعماقهم؟ هل أنا يمينية أم يسارية؟ لا أدري. لا أفهم معنى هذه العبارات. أعرف أنني ضد الظلم أياً كان من يمارسه. وثمة لحظات أشعر فيها أن مظفّر يظلمني ويكاد يكتم أنفاسي وهو يحاسبني إذا تحدثت جدتي على الهاتف طويلاً ووجد هو خط الهاتف مشغولاً.. وأتمنى لو كان حب مظفر حرية، فأنا أكره الاختيار بين الحب والحرية. من يدري، قد يتبدل ذلك الحبيب بعد زواجنا حين يطمئن إلى إخلاصي.. إلى أنني له وحده).

راقت لزين فكرة «الزواج» من مظفّر وقرّرت أن تدفع به لمفاتحتها بالأمر، ورفعت رأسها ببهجة مفاجئة طاغية وزادت من سرعة سيرها...

تتجاوز زين حوانيت «النوفوتيه»[1] التي ما زالت مغلقة، وحين تتجاوز مفرق الشعلان تتعالى في الشارع أغنية ليلى مراد «أنا قلبي دليلي..» من دكان البقال العجوز المنزوي كأنه يحاول المشاركة في المهرجان الصباحي الفتي بطريقته الخاصة (لماذا أهرب من الحقيقة؟ أنا اليوم عاشقة لمخلوق واحد في سورية المأهولة بأربعة ملايين إنسان.. واحد من أربعة ملايين.. هو بالذات.. هو وحده بالرغم من أنه عجوز في السادسة والعشرين من عمره ويتعامل مع حبي كما لو كنت بنتاً صغيرة.. هو بالذات، فلماذا هو؟ ألأنه حزين حتى الموت، يشبه ما أكتبه سراً في دفاتري؟ أم لأنه يعزف على البيانو ألحان موزار كمن ينتحب؟ ألأنه قرأ آلاف الكتب ويتحدث بطريقة ناضجة مختلفة عن كل ما سمعته لدى سواه من الصبيان؟ أم لأنه وسيم كتمثال «داڤيد» الرخامي الأبيض الذي شاهدت صورته في كتاب مصور ملون عن مايكل

(١) النوفوتيه: حانوت لبيع الأشياء النسائية والولادية.

أنجلو؟ ألأنه قرأ الكتب كلها التي اشتهي قراءتها ويقول الكلمات كلها التي أتمنى أن أتعلّم كيف أقولها؟ ألأن قلبي ينشد كلما شاهدته «نشيد البهجة» للشاعر شيللر الذي لحّنه بيتهوڤن وأسمعه باستمرار عنده؟

كل ما أعرفه أنني أحبه منذ زمن طويل طويل، منذ ثلاثة أشهر يوم شاهدته في بيت صديقتي شماء وأدهشني أن لها شقيقاً كبيراً تخرّج لتوه من الجامعة. التقينا في الممشى العريض لبيتهم العريق، فاتسع الممشى فجأة واختفى سقفه وتناسلت حديقته ودخلته شموس وطارت من جدران طابقيه عصافير.. وليلتها حلمت به معي في أرجوحتي التي كنت قد نصبتها ذات ليلة صيف حارة من قمة قاسيون إلى القمر، أرجوحة هائلة الاتساع فوق دمشق ببساتينها الكثيرة وبيوتها القليلة التي يتوسطها الجامع الأموي وأنا أسترخي في أرجوحتي أستمتع بالنسيم العليل هرباً من الحر الخانق في الغرف، وأطل من علٍ على الحقول الممتدة بين مبنى الجامعة حيث درس حتى المزة والربوة حيث يضيق الوادي ويركض بردى تحت الشرفات الخشبية المعلّقة المخصّصة للسيران والصخور الشاهقة لمنحدرات قاسيون. وأهزّ أرجوحتي الفضائية جيئة وذهاباً فأرى بوضوح جنّات دمّر وبساتينها حتى الهامة وبستان عزمي موره‌لي وسكة القطار وهي تشطر قرية الريحانية وبيتنا القروي الصيفي ومظفّر إلى جانبي في الأرجوحة وأنا أقول له إنه في يوم صاف كهذا بوسعه أن يرى من أرجوحتي صحراء الديماس الخاوية إلا من مطار نادي الطيران الشراعي حيث أتدرب وأتمنى أن يتعلّم الطيران مثلي، ويرافقني طائراً بجناحيه ما دام عاجزاً عن المشي. بل إن بوسعه أن يرى من أرجوحتي قرية «الجديدة» حيث يتسع بردى كثيراً وترق مياهه على الضفاف وحتى ميسلون، ويقرأ معي الفاتحة على روح يوسف العظمة. وإذا انشغلنا بشيء آخر ستحلّ علينا لعنة الأجداد وينقطع بنا حبل الأرجوحة ونقع في نهر «قليط» الملوّث وتتسخ ثيابنا!)...

تتابع زين مشيتها صوب المدرسة منوّمة بأفكارها، مثقلة بـ«معجم الصحاح» الذي حملته معها لتعيره لمظفّر وقد قرّرت أن تزعم لشماء أنها مرت بها من أجل ذلك فقط... وهي كاذبة (حين نفخ الفجر في وجهي رائحة ياسمين جدتي على الشرفة، استيقظت في قلبي أشواق لا أقوى على كبحها.. وشعرتُ بحاجة لا تقاوم لمشاهدة مظفّر ولم أجد خيراً من هذه الكذبة! لماذا ليس بوسعي أن أقرع الباب وأقول لأمه إنني أحبه وجئت لأراه وأقرأ له القصيدة التي كتبتها لعينيه؟ ألأن أمه ستقول لي: انتبهي إلى دروسك فامتحانات البكالوريا أضحت قريبة، ومنذ متى وأنت

تكتبين الشعر وحضرتك طالبة في الفرع العلمي تشرّحين الحمام والعلق والضفادع التي تشبه وجهك البشع؟). تغتمّ زين لهذا الخاطر (أعرف. لستُ جميلة. لقبي عند البنات «كوردون»[1] لنحولي، ولست بيضاء ولا «ملظلظة». وعيناي ليستا ملونتين، وفوق ذلك كله نبتت عندي حاسة الحب من زمان وقبل أن ينبت نهداي. فماذا أفعل ببشاعة أتعثر بها وأنا أحاول عبثاً أن أمد يدي لحبيبي الوسيم النضر وأرفعه معي إلى أرجوحتي الفضائية الخرافية وأقرأ له قصائدي السرية وأكتب عنه قصصي داخل رأسي وأقرأها عليه حتى يتثاءب وينام ضجراً!)...

لم تكن زين تتقن حرفة الحزن، فقد كانت مراهقتين: واحدة تحزن وأخرى تسخر من الحزن ويضحكها كل شيء. واحدة عاطفية ونزقة ومجنونة، وأخرى أكثر نضجاً ترى الأشياء بوضوح بارد عاقل وترى بالتالي كم هي تلك الدنيا داخلها وحولها معقدة ومتشابكة، وهي بالتالي لا تميل إلى الحلول التبسيطية.. وربما لذلك اعتذرت زين من رفيقاتها كلهن عن الانضمام إلى أي من الأحزاب رغم تضامنها مع بعض ما جاء في برامج تلك الأحزاب من انحياز إلى العدالة وحقوق الإنسان والعروبة وحق الفقير في الوطن كالثري وغيرها من مُثُل عليا تؤمن بها.. (أريد أن أظل أتلقى الأوامر من قلبي لا من رؤساء الحزب. ثم إنه لدي حاجة دائمة لنقاش والدي وجدتي ومعلمتي وأية سلطة تستمد حضورها من حق مكتسب أو مقدس أو مكرّس أو مفروض. وباستثناء مظفّر ليس لدي ما هو فوق النقد أو فوق حقي في إلقاء نظرة ثانية شاملة.. ولعلّ ذلك شدّني إلى مظفّر الذي بدا لي بجديته وثقافته وعلمه عقلانياً وهو المغرم بديكارت ويدعو نفسه «كارتيزيان».. لعلّي عشقته بعقلي.. لعل خفقاني الغرامي عقلاني قبل أن يكون قلبياً.. يا لي من كاذبة! إنني مغرمة به جملة وتفصيلاً.. فلم المداورة ومحاولة اختراع أسباب رفيعة ذهنية؟).

حين تم إلغاء درس الجبر والهندسة الفراغية الأخير قبل فرصة الغداء، أو درس الـ «حساب وعذاب» كما تدعوه الحاجّة، بسبب مرض المعلّمة فرحت زين وتسللت إلى بيت شمّاء مقابل المدرسة وهي تعرف أنها لن تجدها هناك، فهي لا تزال في الصف العاشر الأدنى من صف زين، ولمّا ينته الدوام بعد ولم تمرض معلّمتها، لكنها ستتظاهر بالجهل وتسأل عنها ثم تستأذن والدتها وتدخل إلى غرفة مظفر لتعطيه «معجم الصحاح». ستفاجئه فهو لا يتوقع حضورها قبل انتهاء الدوام

---

(١) عيدان نحيلة كعيدان الكبريت لتنظيف ما بين الأسنان. «محكشون» باللهجة اللبنانية و «نكاشة سنان» بالشامية.

كما فوجئت زين بمرض المعلّمة.

بكثير من اللامبالاة تستقبلها أمه اليونانية. باللامبالاة ذاتها التي جعلتها ترضى بأن يدعو زوجها ولديها باسمين يصعب عليها لفظهما وهما: «شمّاء ومظفّر». وباللامبالاة ذاتها التي يُقال إنها تقبّلت التعازي به وارثة وولديها ثروة طائلة ومركزاً مرموقاً بعدما كان يلقبها باسم «تشات بات» ساخراً بذلك من أسلوبها في الكلام بالعربية التي بذلت إكراماً له جهداً خارقاً لتعلّمها. تشير إلى الجناح الخاص بمظفر في حديقة البيت مفرط الثراء قائلة: تعرفين أين تجدينه!

تسألها زين: كيف مزاجه اليوم؟

تجيبها أم مظفر بلغتها العربية «المكسّرة» وهي تؤنّث المذكّر بطريقة بدت لزين طريفة: «كيف تريد أن يكون مزاج شابة في الخامسة والعشرين مقعدة منذ طفولتها؟». لاحظت زين أن أمه لم تكتفِ بتأنيثه فحسب بل صغّرت سنّه سنةً كاملة ولم تتضايق إذ تذكّرت أن والدها فعل شيئاً مشابهاً وكذّب عليها حول عمره وهي تكذّب مثل الجميع ولكنها تكبّر نفسها وتقول إنها في السابعة عشرة من عمرها. تعجبت لأن أم مظفر باسطتها الحديث على غير عادتها. صحيح أنها شمّت رائحة غريبة من كأس تشرب منها تشبه رائحة الكحول في مقاهي الربوة لكنها لم تلتفت إلى ذلك وغلبها الشعور بالفخر الشديد، فالاقتراب من الأم في نظرها وبقية رفيقاتها علامة «تقدم غرامي» هائل قد ينتهي «نهاية سعيدة». يسخر صوت في قاع زين من عبارة «نهاية سعيدة» حين تتذكّر زواج عمتها ماوية الذي طالما تمنت له «نهاية سعيدة» بالطلاق، ودعت مع بقية الأطفال ليلة القدر ليخلّصها منه كما طلبت منهم ماوية مؤكّدة أن دعاء الأطفال مستجاب ليلة القدر.

قالت لها أم مظفر وهي تعب جرعة كبيرة من الكأس أمامها وقد رمت من يدها صحيفة باللغة الإنكليزية كانت تقرأ فيها: أنت تعرفين أنه أصيب بشلل الأطفال في طفولته.

ازدادت زين عجباً وفخراً في آنٍ لأن أمه تحدّثها في القضايا الحميمة لأسرتها على غير عادتها، وقرّرت أن تخبر ناريمان بفخر عن ذلك حين تلتقيان.

سألت أم مظفّر زين: هل «تريد» زجاجة «سينالكو»؟

كادت زين تنفجر ضاحكة. لن تألف يوماً تأنيث أم مظفّر للمذكّر وتذكيرها للمؤنث. أجابت مبتسمة: نعم أريد السينالكو. لم تجرؤ زين على أن تجيب: أريد

فقط أن أراه فدعيني ونادي ممرضته «العجوز» الثلاثينية لأنفرد به! (أقنعة. عمر من الأقنعة. الكلام كله كذب و «زعبرة». فقط حين أكتب لا «أزعبر» وما تبقى كرنفال أقنعة. «بال ماسكيه». من المفترض أن أدخل وأقول لها: أريد أن أراه. وينتهي الأمر بلا مقدمات ولغة من خشب وأقنعة على الحناجر. ولكن..). تأتي الخادمة بصينية من الفضة المذهّبة. تتناول زين عنها كوب السينالكو وتبتلع جرعة كبيرة، والأم تبتلع جرعة كبيرة من الكأس أمامها، ومن جديد تفوح رائحة كحول مقاهي الربوة التي كانت تُغضب أمجد. تتابع الأم: كنت أقرأ قبل قليل في هذه الصحيفة الإنكليزية أنهم وجدوا لقاحاً ضد هذا المرض الرهيب. ولكن فات الأوان الآن.

لو ولد ابني مظفّر اليوم لحصل على اللقاح ولكان قادراً على المشي...

أسر زين حنان المرأة وصدقها ولم تعد تشعر أنها من طرفها بحاجة إلى الكذب معها. قالت: لكن عاهة ابنك جعلته إنساناً ملائكياً. شفافاً.. عميقاً. مثقفاً. مرهفاً. إنه شخص نادر ومختلف. لقد فعلتِ كل ما بوسعك لتعليمه وعدم حرمانه من شيء. وقد سمعت أن الكل يحترمه في الجامعة حين كانْ يدخل إلى قاعات الدرس على مقعده ذي العجلات والسائق يدفعه، أو حين يدخل على عكازيه وأحياناً يتعثر ويسقط على الأرض ويعود إلى مقعده المتحرك..

قالت الأم: إنها مشيئة الرب.. لقد كرّست حياتي لإسعاده.. إننا نعيش وحيدين معاً وقد ألفنا ذلك، أما شمّاء فتخرج كثيراً إلى الدنيا والمدرسة والأصحاب. قالت زين وهي تحاول تعزية نفسها وأمه: على أي حال، قد يخترعون لهذا المرض علاجاً ويمشي ابنك ويغادر البيت ولا ترينه قبل منتصف الليل..

لم يبدُ أن هذا القول راق للأم، إذ انتفضت وقالت بلهجة قاطعة: لا. لا علاج للمرض.. سنبقى وحدنا هكذا دائماً.

لا تدري زين لماذا خيّل إليها أن خبر اختراع علاج لشلل الأطفال لن يسعد «التانت» جوزفين.. وأنها قد تقتُلُ المخترع العالِم الذي يخترع علاجاً كهذا قبل أن ينتزع منها طفلها مظفّر وتبقى وحيدة. لامت زين نفسها على هذا الخاطر البشع ونهضت معتذرة قائلة: سأعطيه الكتاب. مشت صوب الحديقة قاصدةً جناحه. خيّل إليها أن الحديقة اتسعت وأنها تمشي ولا تصل. وغمرها حب جارف لمظفّر. ستبقى معه دائماً ولن تخونه (سأحرم نفسي من تسلّق الأشجار والجبال وركوب الحصان وكل ما يعجز عنه مظفّر. وسأتحدّى العالم من أجله. إنه حبي الأبدي

وسأكون له إلى الأبد. ولا يهمني إن كان عاجزاً جنسياً أم لا، فأنا مثل غادة الكاميليا لا تهمّني إلا سعادة الحبيب، وكلما كبر حجم التضحية زاد الحب روعة.. إنني مثل سيرانو دي برجراك سأقرأ عليه قصائد الحب دون أن أقول له إنها مني، فالمهم أن تسعده. إنني مثل ڤرتر المتوج بالآلام سأنتحر إذا خسرته، ما دام باح لي بحبه هو أيضاً وأقسم لي على الوفاء الأبدي، حتى ولو شفي وصار قادراً على القفز من «تنورة» إلى أخرى.

أجل، سأسرق له الفرح من خزانة المستحيل كما لو كنتُ أرسين لوبين، ولكنني لن أترك بطاقتي للناس. المهم أن يعرف هو وحده).

طارت بها أشواقها وغلبها هيامها به فنسيت أن تقرع الباب قبل أن تدلف إلى غرفته. خطت مشتاقة، وإذ بعينيها تقعان على حبيبها مظفّر وهو يعانق ممرضته «العجوز» الثلاثينية ويلتهم بشفتيه عري كتفيها وصدرها وهو يهاجم حقولها بنقرات سريعة متلاحقة مثل طائر «نقار الخشب» وأصابعه تجوس بقية مجاهلها. جمدت زين في موضعها كما لو حجّرها بركان إلى الأبد وغمرها «ڤيزوف» أحزانها بالحمم. حدّقت بذهول وهي تتأمل ما يدور عاجزة حتى عن التنفس وقد غمرتها الدهشة أكثر من الغيرة، وآلمها كذبه عليها أكثر من خيانته. ومر دهر أو دهران، قبل أن ينتبه إليها. فقط حين التقت نظراتهما شعرت بألم يصعقها، فرمت بـ «معجم الصحاح» على الأرض وانطلقت هاربة من البيت بركبتين ترتجفان، والتقت بشماء أمام الباب راجعة من المدرسة للغداء، فلم تتوقف حتى لتحيتها. وظلت تركض طوال طريق الصالحية ولم تلاحظ الصبيان ولم تخجل منهم لأنها كانت تبكي بنشيج مرتفع الصوت لا تقوى على كبحه ولا تبالي. ولم تتمكن من البكاء بطريقة عادية إلا حينما وصلت إلى مبنى البرلمان فدخلت إلى الحديقة العامة، وجلست على المقعد الخشبي ودفنت وجهها بين يديها وراحت تنتحب على حبها «الخالد» وتؤكّد لنفسها كأية صبية عاشقة في السادسة عشرة من عمرها أنها ستحبه إلى الأبد حتى إذا خانها ولم تكن تكذب. ثم دافعت عنه أمام نفسها وقرّرت أن الحياة هي التي كانت تكذّب عليها وتزوّر لها مشاعرها..

خرجت من جديد إلى شوارع الرقصة التي صارت ظهراً ملكاً للكهول أيضاً، ومرّت بموقف باص ضباط الطيران ومرّ بها أديب وزهير وسمير وغيرهم من الوجوه الأليفة لكنها كانت تخطط لانتحارها كي تؤلم مظفّر ألماً لا يُنسى. وحارت بين ابتلاع عشراتٍ من أقراص «الأسبرو» لتتصل به هاتفياً بعد أن يسري سمها وتبدأ

احتضارها وهو يسمعها ويتألمان معاً ألماً عذباً شهياً كشهد العشاق. ثم تذكرت أن ناريمان قالت لها إن الموت بالأسبرو مؤلم حقاً والأفضل بالأقراص المنوّمة. ولكن من أين لها تلك الأقراص وأفراد أسرتها ينامون إرهاقاً قبل العاشرة، ولا خيار آخر غير سم الفأر أو مبيد الصراصير؟

قررتْ أن تظل على قيد الحياة «مؤقتاً» لتكتب حكاية حبهما التي لم يحدث ما يشابهها ـ بالتأكيد ـ على وجه كوكبها، فحبها هو وحده الخالد الأزلي السرمدي المختلف. وعادت زين تبكي عليه في المسافة بين ساحة النجمة وبيتها في ساحة المدفع.

حين وصلت زين أخيراً إلى بيتها أدهشها أن جدتها لم تنتبه إلى وجهها الدامع مشعث الملامح بل همست بقلق بأن عامر في انتظارها في الصالون وأنه يريد أن يحدّثها بأمر هام. ولم تبدُ الحاجّة مرتاحة للأمر.

رحّبت زين بعامر دون أن تغسل وجهها أو تبدّل ثيابها (**لن أرتدي قناعي. لقد قرأت دفتر مذكراته وهو معذّب مثلي. إنه مليء بالكبرياء والألم والإحساس بقيمة شرفه كإنسان وأرتاح له**). لم يبد على عامر أنه لاحظ شيئاً مختلفاً في مظهرها وكان لديه ما يقوله كأنه جهّزه ساعات داخل حنجرته وخاف أن ينساه: يا زين نحن بحاجة إليك. هل بوسعك مساعدتنا في تدريس الأطفال ضمن إطار برنامجنا لمكافحة الأميّة في المدرسة؟ أعرف أنك جرّبت ذلك حين قمتِ بتعليم جهينة وفهيمة القراءة والكتابة و. . . .

تابع وهو يرى صمتها ويسيء تفسيره: نحن بحاجة إليك في المدرسة. نريد متطوعات لبرنامجنا في محو الأميّة بين الأطفال الفلسطينيين والسوريين لمن يشاء، فكلنا عرب و «كلنا في الهمّ شرق». هل بوسعك التبرع مجاناً بتدريس عدة ساعات في الأسبوع أو ساعة واحدة على الأقل؟

كادت زين تطلب منه أن يدعها وشأنها لتبكي جرح قلبها. . تذكّرت مظفر المثقف المقعد الكاذب المخادع وألفاظه الكبيرة الملونة الباهرة وكادت تبكي على كتف عامر، ولكنها سمعت صوتاً أخرس في قاعها سبقها للإجابة: ولمَ لا؟ بالتأكيد أنا مستعدة للتعاون.

ـ متى؟

ـ الآن.

لم يدرْ هذا الحوار لأن عامر كان لا يزال يتابع شرح قضيته ويستفيض!

قاطعته فجأة قائلة: نعم. أريد. الآن. دعنا نذهب الآن. فوجىء هو إذ كان قد أعدّ ديباجة طويلة لم ينجز تلاوتها، ولم يفاجىء الأمر زين. كانت قد قرأته في مذكراته واتخذت يومها قراراً بقول «لا» والالتفات إلى دراستها. لكنها في تلك اللحظة والألم يفترسها شعرت بالحاجة إلى مكان تهرب إليه حتى ولو كان ذلك المكان عيون الأطفال. . ولمَ لا؟ وهي تحب الأطفال والبوم والعصافير ومخلوقات الله الرقيقة كلها.

كررت: حسناً. دعنا نذهب الآن.

ارتبك. كان قد استعد لـ «محاضرة» في حال رفضها المرجَّح في نظره. لملم نفسه قائلاً: حسناً هيا بنا. نسيت زين طعام الغداء ورافقته، ونسيت جوعها وهي تغرق في فضول عيون الأطفال البرّاقة المليئة بالدهشة، وغمرتها غبطة خاصة وهي تعيد عليهم ما سبق أن علّمته لجهينة وفهيمة. ولم تنسَ ألمها لخيانة مظفر لكن رقعة الألم تراجعت ولم تعد تغطي الكرة الأرضية بل غابة سرية منزوية من غابات أعماقها، ونابت عن معلّمة غائبة فأخرى، وشربت القهوة مع معلّمتين وسعدت بالتعرّف عليهما.

حين عادت مساءً بعد اتصال هاتفي بوالدها كي لا يقلق، لم يخطر ببالها الانتحار الذي كانت قد خططت له بل جلست تخطط لدرس اليوم التالي، ولغرق شهي آخر في عيون الأطفال خلال إجازة الصيف. واستحسنت فكرة استمرار المدرسة حتى في آب اللهاب، فمعظم المدرسين فيها من طلاب الجامعات المتطوعين ويتسع وقتهم صيفاً لذلك.

سألتها الحاجّة وهي ترى عامر يرافقها: هل صار بوسعي القول «لولولو لوليش»[1]. قالت زين: عامر صديقي يا «تيتي»، ويربطنا شيء آخر غير ثالثنا الشيطان. لم تفهم الحاجة شيئاً ودعت الله أن يهدي زين!

حين تمددت زين منهكة لتنام بعد نهار طويل طويل، ركضت فوق عينيها أحداث يومها الطويل وراحت تقفز داخل رأسها دونما ترتيب منطقي. . خيانة مظفّر التي تبدو أقرب إلى الوهم أو إلى كابوس محزن فزيارة عامر. . (**قلت له: نعم. أريد. الآن. دعنا نذهب الآن. فوجىء. تابعتُ: لحظة واحدة. دعني أبدل ثياب**

---

(١) الزغردة.

المدرسة. غسلت وجهي جيداً ولم تغادر عيناي صورة مظفّر وهو يتخلل ممرضته كالريح في غابة. زجرتني جدتي لأنني لم أتناول طعام الغداء ظهراً، فأعلنت أنني لست جائعة ورافقت عامر. تضايقت الحاجة. أعرف أن صمتها كان يصرخ: «ماذا يقول عنا الناس» إذا شاهدوهما معاً؟ ماذا حدث لزين التي كانت تكره عامر؟

ذهبتّ وأنا أخطط للانتحار. وحين عدت في المساء كنت ممتلئة بوجوه الأطفال الذين علّمتهم طرفاً يسيراً من الأبجدية للمرة الأولى، وبعيونهم الذكية الفضولية البريئة. وعدتُ المديرة بالحضور في اليوم التالي بالرغم من امتحانات البكالوريا.. الوشيكة. لا يهمني أن أكون الأولى في سورية.. في البكالوريا، بل أريد أن أفعل شيئاً أحبه. بارك أبي ما فعلته، وأعددت للأطفال رسوماً عليها الأحرف لتساعدهم على التعلّم ببهجة وانشغلت بذلك عن الانتحار. فقط قبل أن أغمض عينيّ تذكرت الهول الذي واجهته في غرفة مظفر فاسدة الهواء.. والآن، وقبل أن أنتحب لما حدث أعرف أنني سأغرق في النوم منهكة).

استيقظت زين عند الفجر ونهضت لتتابع توضيب وسائل الإيضاح للدروس في برنامج محو الأميّة للأطفال الفلسطينيين وتذاكر لامتحانات البكالوريا، فعليها أن تكون الأولى في سورية وإلا خاب أمل والدها بها.. لكن تحضير دروس الأطفال كاد يسرق وقتها.. كان ضياع فلسطين جرحاً عميقاً طبع طفولتها والملايين من أبناء بلدها.. إنها تذكر جيداً يوم تحية العلم بعد ضياع فلسطين عام ١٩٤٨، تلك التحية التي قاتلت كي تشارك في شرف أدائها حتى كادت تُطرد من المدرسة لوقاحتها مع المعلّمة التي لا تريد غير الشقراء عبلة لأدائها، لكنها صارت مصدر عذاب بعد الهزيمة.

(وقفتُ صباح ذلك السبت في باحة المدرسة الجديدة مكسورة الخاطر لا أجرؤ على رفع عيني صوب العلم.. رددت لنفسي: لقد هُزمنا في الحرب... سورية هُزمت.. سورية!... كان صوتي خافتاً وأنا أغنّي النشيد الوطني.. وارتجفتُ وأنا أنشد «أبت أن تذل النفوس الكرام.. عرين العروبة بيت حرام.. وعرش الشموس حمى لا يُضام»... وكنت ما أزال ألفظ الجملة الأخيرة خطأً كما تعلّمتها للمرة الأولى وأنا طفلة.. ولكنني كنت أرتجف لوقع هذه الكلمات أكثر من ارتجاف جهينة وهي تسمع أسمهان تغنّي «يا حبيبي تعال الحقني شوف اللّي جرالي».

كان عامر يبكي أمام الباب صباحاً حين غادرت البيت. حاولت أن أسأله عن سبب بكائه. دفعني عنه ولم يقل شيئاً ربما لأنني بنت.. وتعالى الغناء: «نفوس أباة

وماض مجيد». . فصرت أنشد بقوة ذليلة، ورفعت عيني إلى العلم، وخيل إليَّ أن خطاً من الدم يسيل من نجومه الحمر الثلاث، كالدم.

عدت يومها من المدرسة باكية كما بكيت يوم الغارة الإسرائيلية حين خفنا واختبأنا في «غرفة المونة»[1] وحين حاولت أن أكلّم عامر حول ذلك فيما بعد لامني وقال نريد رجالاً لمساعدتنا لا مجرد بنات!

سألته طويلاً عن عكا، وحياته هناك، وعن الذين قاتلهم والده قبل مجيئهم إلى دمشق، وأين كان يقاتل، وأين سيذهب الآن بعدما انتهت الحرب، وكنت أصغر سناً من عامر بكثير ولا أفهم شيئاً. كان ينظر إليَّ كلما جئت لأكلمه كأنني المجنون زوزو الذي تقول عمتي بوران إنه يدور في «ساحة النجمة» بثياب شبه نسائية ويغني «يا عصفوري يا عصفور» وتصفنا كلما أسأنا السلوك بأننا خلعاء مثله. . بل إنه سألني فجأة وهو يصبّ جام نقمته على اليهود وعليَّ: لماذا ترتدين هذا البنطلون كالصبيان وكبنات اليهود؟ وحين حاولت سؤال أخته عن فلسطين، لم تجبْ وألقتْ من ركن عينها نظرة خائفة صوب عامر. . تُرى هل منعها حتى من الكلام معي ناهيك عن اللعب! لم أدرِ يومها لماذا قلت لنفسي ربما كان ذلك جزءاً من العقاب الذي قالت بوران إن البنات المشاغبات يلقينه بالمقاطعة من اللعب والكلام من قبل الصبيان ومن البنات المطيعات. كم كرهت عامر ليلتها وكنت سأظل أكرهه لو لم أتلصص على مذكراته بعدها بأعوام طويلة وأحبّه كثيراً).

* * *

وقفت زين في دكان تأجير الكتب في عرنوس وصارت تقلّب ما لدى صاحبه العجوز من كتب عتيقة مصفرة بلذة حقيقية. تجد ملاذها في تلك الدقائق الطويلة التي تقضيها في كنفه. صحيح أن مكتبة والدها تغطي عدة جدران وأنه نصحها بمطالعة كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ وإعادة قراءة «الكامل» للمبرد، وهو ما تفعله وتكاد تنجز قراءتهما، لكنها هنا حرّة في الاختيار، وبوسعها أن تطالع كتاباً غير مراقب من قبله، كتاباً قد يكون رديئاً ولكنها تريد أن تطالعه لتقرّر ذلك بنفسها ولا تريد أن يقرّر ذلك أحد عنها. . إنها حرّة. . حرّة داخل المكتبة، وذلك يعني لها الكثير. . .

في المكتبة، أطلّت عينا نعيم على قامة مشدودة كالرمح، وفاحت من شعره

---

(١) مخزن المؤن.

المصفف بـ «البريلكريم» اللمّاع رائحة عبير أمسيات الغوطة ونداءات المجهول. عيناه الشاسعتان الشبيهتان في نظر زين بعيون البوم الجميل، الغامضتان اللتان تحملانها على موجة مسحورة من موجات بحار الهند والسند إلى غابة سندبادية غامضة. تركت زين تلك الموجة تفترسها وتحملها إلى مغاور سرية المباهج. بل إنها فكّرت جدياً بأن تحلم به معها في أرجوحتها الخيالية، بل وقرّرت كتابة قصة من وحيه.

غادرت المكتبة وذلك الصوت الآخر في قاعها يقول لها: لماذا تحاولين أن تلعبي دور «شهيدة الغرام» كما في فيلم «عاشق الروح» الذي شاهدته في سينما العباسية في حفلة الساعة الثالثة يوم الخميس الخاصة بالسيدات، وكانت جهينة تبكي طوال الوقت فيبكي طفلها لأن أمه تبكي فيما تفوح رائحة «البرغل بكوسا»[1] بالثوم والكزبراء و «البراصيا بالزيت» من سفرطاس جارة المقعد؟ (حسناً. كان مظفّر يخونكِ، ولكن ألم تقومي أنت أيضاً بخيانته في كل يوم، في طريق الصالحية؟ ألم تقعي في البداية في حبه وفي حب زهير في آنٍ؟ وفي حب أورخان؟ هو عانق ممرضته وأنتِ حبك يدور في الخيال! ما الفرق حقاً؟ أليس الاشتهاء خيانة مع وقف التنفيذ؟

أنت أيضاً تقومين بخيانته مع القمر والأشجار وتزنين بالنظرات في طريق الصالحية مع زهير ونعيم وسمير وأديب الوسيم.. ومع متعة المشي والسباحة والطيران في الطائرة الشراعية كل يوم جمعة وأحلامك حيث لا متسع له دائماً. فكيف تضيقين به لأن مقعده الحديدي البارد اتسع لامرأة أخرى يستمد منها الدفء في عزلته الصقيعية؟ هل تظنين أنه الوغد الأوحد وأنت أفضل منه كما كدت تصوّرين الأمر لناريمان؟ ثرثرت عنه. صوّرته لها ولنفسك وغداً وجعلت الأشياء تبدو كما هي في السينما الرديئة. بطل طيب وآخر شرير. هو أسود وأنت أبيض؟).

وعت زين أكثر من أية لحظة مضت تلك الظلال الرمادية في الطبيعة البشرية هنا وهناك، ونقاط الضوء والظلمة والحدائق السرية في الأعماق ومحبرة النور والعتمة والظلال والحجرات المقفلة في آبار الروح، وشعرت بأن الاعتراف بذلك يُسَهِّل عليها حب العالم الخارجي مع الحذر منه والغفران له والكتابة عنه في آنٍ.. (وأنا أيضاً كنت متضايقة من أسره لي وكان عليَّ أن أرفض الاختيار بين الحب والحرية وأفتش عن شخص حبّه حرية لا يغار عليَّ بجنون ويخونني بكذبه. ذلك

---

(١) طبق شامي شعبي.

الديكتاتور المثقف العاجز. قوته كانت في ضعفي أمامه). بالمقابل صارت تشعر شعوراً غامضاً بعدم الارتياح حين تنسج على منوال الحكايا العتيقة، وتقسِّم الناس إلى وغد وطيب وإلى حب خالد أزلي وحب مخادع. . كم تتداخل الأمور وكم يعجز رأسها عن الإلمام بذلك، ولكنه يعي حضوره وعياً مبهماً وأكيداً في آنٍ!!. .

حين غادرت المكتبة شعرت بنظرات تكاد تثقب ظهرها وهي تمشي، وأدركت أنهما عينا نعيم دون أن تلتفت **(ماذا يملك لي؟ ومن هو نعيم وأنا لا أعرف شيئاً غير قناعه؟ إنني أعي أن هناك دائماً مخلوق الوجه ومخلوق القناع. وكل واحد اثنان، الوجه والقناع أو أكثر من اثنين. عامر لا يشبه قناعه، ولم تتح لي فرصة التعارف الحقيقي مع مظفّر لأنني لم أتمكن من قراءة مذكّراته وأوراقه السرية لأعرفه من الداخل. لؤي ودريد أعرف أقنعتهما لا وجهيهما. وجه جدتي نظيف بلا أقنعة ولذا أحبها، وإذا كان لا بدّ لكل واحد من قناع فقناعها نسخة عن وجهها وربما لذلك يزداد حبي لها كلما كبرت. مظفّر كسر قلبي لاختلاف قناعه عن وجهه، وأنا قد عشقت القناع. فكيف أستطيع في المرة القادمة أن أحب رجلاً دون كشف القناع عن وجهه؟ لم أعد واثقة من أن قصص الحب الكبيرة كلها يجب أن تنتهي بالفراق! ألم تكن علاقتي بمظفّر حكاية حب كبيرة ولكن ليس معه بل بيني وبين أوهامي؟ وكيف أُقنع ناريمان بأنني عاجزة عن حب أي مخلوق لا يتطابق وجهه مع قناعه؟)**. حين رمى نعيم لزين برسالةٍ أمام مدخل البيت لم تنحني لالتقاطها، ولا تدري لماذا وهي التي تعشق رسائل الحب؟ وخيّل إليها أنها شعرت بالخوف من الحب، وأن الحب سوء تفاهم!

حين هبطت زين مساء لاحضار الرسائل لوالدها من الصندوق البريدي الخاص ببيتهم عند المدخل، فوجئت بنعيم يحوم على الرصيف وكان السبّاق إلى التقاط أنفاسه وقال لها: مساء الخير. همست بصوت مرتجف: «يا ميت مسا»[1] وهربت.

* * *

(حين ضبطني لؤي استرق النظر إلى مذكّرات عامر كما ضبطته مرة ويده في حقيبة عمّتنا بوران، لماذا زجرني بقوله: «خرج العفريت من أمك وتلبّسك»؟ ما هو هذا العفريت الذي غادر أمي إليّ والذي أسمع عمتي بوران منذ طفولتي تشير إليه حين استرق السمع خلسة إلى أحاديث الكبار؟).

(١) يا ميت مسا: تعبير دمشقي لقول «يا مئة مساء» والمقصود به التحبب.

لم تنم زين.. تحب الليل، حين تسكت أصوات المدينة وتستيقظ الأصوات في قاعها، وحين يغادر الضيوف البيت الذي لا تطيق الحاجّة أن يخلو منهم وينام الجميع ويجلون عن حواسها بحبهم وقمعهم، وتخرج وحيدة إلى الشرفة لتلتقي مع صوت قلبها في مكان لا تقتحمه بوران لتحاصرها فيه أو لتهاجمها كما في غرفتها كلما استضافوها.. تتأمل ساحة المدفع الغارقة في بياض أحجار مبانيها والبساتين تزنّرها.. ذهب زهير لينام بعدما سند عمود الكهرباء طوال المساء حتى لا يقع على حد تعبير جدتها التي تحلو لها مداعبتها.. زهير الوسيم الرقيق الصغير الذي لم تنبت لحيته بعد والذي عرفته جدتها وميَّزت فيه حفيداً لقريبة بعيدة وذكرت اسمه لزين.

زهير الذي لم يجرؤ حتى على اللحاق بها في درب المدرسة أو رمي رسالة خلف باب المدخل حين تصل إلى البيت.. ماذا يملك زهير برقته ورومانسيته لها ولدنياها المضطربة وهواجسها وكوابيسها وأبجديتها وثوراتها الداخلية؟ وهي التي تخوض حرباً غامضة مع نفسها وأحياناً مع حضورٍ ما حولها تعجز عن تحديد ماهيته.. حرباً ملتبسة لا تميّز فيها وجه العدو من الصديق، ولا تميّز الوجه ذاته، لكثرة ما تتبدل الوجوه.. كل وجه يبدّل وجهه، وبوران صديقة في الصباح وعدوة في المساء، وجدّتها وحدها عذبة وحنون دائماً، ولؤي ودريد «لا تفهمهما»، كذلك عمّها عبد الفتاح «لا تفهمه»، يقبل عليها حيناً ويهرب أحياناً (بالمعنى الداخلي للكلمة) كالباقين وداخل لحظة واحدة.. وزين تكاد ترى لكل واحد صدفة تحيط بجسده كالسلحفاة يغادرها ويعود إليها ولا تفهم لماذا. وهذه الوجوه المركّبة تربكها، وتجعلها تكاد تشبهها، بأمزجة مفاجئة ورغبات طارئة وحيرة مبهمة، أم تُراها هكذا تشبه الجميع حولها دون أن تدري؟ وتدفع بها إلى الورقة لتحاول أن تفهم شيئاً عنهم وعن نفسها وعالمها.. «خرج العفريت من أمك وتلبّسك».. ما هو هذا العفريت؟ منذ طفولتها وهي تسمع إشارات غامضة إلى أمها توحي إما بالإعجاب المطلق حتى الانبهار، كما هي حال فيحاء مثلاً، أو بعدم الرضا حتى حدود الكراهية في اللحظات النادرة للخروج عن الصمت كما هي حال عمتها بوران.. الصمت هو الكلمة.. لا تدري زين من الذي يفرض قانون الصمت، لكن معظم النساء حولها حارسات للصمت والبكارات: بوران. ماوية. فلك. قمر. خزامى. بهيجة، وحتى «ماما ديب»، بل وبعض صديقات أمها اللواتي تحدس حبهن للغائبة في صمتهن.. نادرة هي لحظات زلات اللسان، لكنها تشتَمُّ منها شيئاً خاصاً بأمها. فهل ثمة أسرار تجهلها؟ وهل لذلك صلة بشيء فعلته زين؟ ولمَ يؤرّقها

الحس بالذنب؟ **(قتلتُ أمي فكان موتها الأول حين رفضتُ مغادرة رحم أمها بالطرق المألوفة، وماتت المسكينة للمرة الثانية حين كرّر التوأم فعلتي)**.. كانت دوماً تتوهم أنها شاركت شقيقيها في قتل أمها.. أحياناً تتعذب بصمت لأنها بلا أم وتعزو أحزانها وهواجسها إلى غيابها. وفي أحيان أخرى تقول لنفسها إنها كانت ستحبها أقل لو بقيت حية وربما كانتا ستتشاجران. ربما لا. ثمة حقيقة واحدة هو أن فضولها نحو تلك السيدة التي تصادف أنها أمها يزداد التهاباً يوماً بعد آخر منذ حداثة سنها. «اخرج العفريت من أمك وتلبّسك».. تذكر أن عمّتها بوران قالتها لها مرة ببعض الكراهية والمشاعر السلبية على الأقل التي تحسّ بكهاربها في تحفّظ جدّتها ومهارتها الاستثنائية في كتمان الأسرار والمرونة ربما مع الأحقاد.. فماذا حدث في الماضي؟ وما هو هذا الماضي الذي يخيّل إليهم أنه يتكرّر؟.. تحاول زين اختراق الزمن بذاكرتها.. تحاول أن تتذكر أمها.. أن تتذكر المزيد، فتتداخل الأحلام واليقظة وتنكسر الصور داخل مئات المرايا... تحاول عبثاً أن تفهم الأصوات التي سمعتها بالتأكيد في طفولتها ولم تعها، كمن يدير إبرة الحاكي على أسطوانة لم يُحِطْ بها في طفولته.. **(إبرة الذاكرة صدئة، والأسطوانة تشوشت بفعل الزمن، وانصهرت أصواتها وتداخلت وأنا مرمية هكذا تحت وطأة ما يقارب دزينة من السنوات من الفراق.. لقد ضمتني أمي إليها بالتأكيد، منذ زمن بعيد غابر... وتحسَّست وجهي ومشَّطت شعري، لكنني لم أعد أعرف أو أذكر شيئاً)**.

صوت طائرة يمزّق الصمت.. ترفع زين نظراتها عن ساحة المدفع إلى الأعلى.. تحاول عبثاً أن تتبين وجوه الركاب العائمة كالبالونات خلف النوافذ.. تحاول عبثاً أن تسمع أصواتهم وحكاياهم وتتحاور معهم **(هكذا شأني مع ذاكرة طفولتي.. تلك الذاكرة لا تزال هناك في قاعي حقيقية ومرئية لكنها تستعصي على الاحتواء.. هاربة في مدارات الزمان والمكان...)**. تتابع الطائرة إبحارها في قلب الظلام.. ينبعث في قلب زين ضوء وهي تكتشف متعة الاحتماء بالحاضر أو المستقبل هرباً من الماضي **(غداً يوم الجمعة، موعدي الأسبوعي مع مدرّب الطيران الشراعي وحصتي الأسبوعية لتعلّم الطيران. غداً أحلّق فوق كل شيء.. وأعيش نشوة أن أقود طائرة حتى ولو كانت شراعية وبلا محرك وتشبه الطائرات الورقية التي كنت في طفولتي أطويها من الصحف العتيقة أو من أي ورقة فتصير طائرة ولا أنسى وضع ذيل لها ثم استقلّها وأحلّق بها مع بومة الدلبة اللطيفة)**.

حينما تهيم روحها هكذا، تلجأ زين إلى القلم والورقة وتحاول النجاة بنفسها

من المستنقعات المتحركة للعذابات الغامضة باتخاذ قرارات عملية لها صلة بالمستقبل، كأن الغد دواؤها ضد وسوسة الماضي.

إنها تكتب لتغرق أحياناً، ولكنها تكتب غالباً لتنجو.. ووجدت نفسها تخرج على أسلوبها المألوف في الهرب من أحزانها بالنظر إلى الأمام، وتسطّر في دفترها السري مقرّراتها[1]: «التعرف على أمي.. لن أشفى من فضولي إذا لم أعرف من هي بالضبط. ولكن كيف؟ بالتجسّس على الماضي عبر ثقوب الزمن.. استجواب الشهود قبل أن يموتوا.. و.....ومحاولة اختراق حصن الماضي المقفل في خزائن والدي»...

تروح زين جيئة وذهاباً على الشرفة (لعل الحقيقة تنتظرني عارية داخلها. أذكر «الشامبرنوار» التي طالما قمت بغارات سرية عليها بعدما يئست عمتي بوران من إصلاحي بسجني فيها.. صرت أزورها خلسة لأتحسس سراً فراء أمي، وأستجوب ثعلبها الذي كان يحدّق في وجهي صامتاً بعينين زجاجيتين.. وأدس أصابعي في أنفه الذي طالما شم رائحة أمي، وأدس فمه المطبق داخل أذني علّه يبوح لي بمكانها.. فيخيّل إليّ أنني أسمع صوتاً قادماً من حنجرته المقطوعة كالصوت الآتي من الصدفة، عبثاً أفهمه.. أتذكر رائحة فراء أمي.. بقية من عطر فيه تهرب حين أشمّها مراراً كرائحة الفلّ المراوغ.. أتذكّر تمثال الأميرة السورية الخزفي الأزرق المغبر ووجهها الشبيه بوجه أمي في أرض الخزانة داخل علبة. أتذكر دورق أمي الأثري المكسور.. المدمعة الفينيقية الزجاجية نصف الشفّافة.. أتذكّر عودها، وكيف قطعتُ أحد أوتاره دون أن أدري لماذا وجرحت إصبعي.

كان ثمة كوم من الرسائل والأوراق والدفاتر، ولم أكن أعرف بعد كيف أقرأها رغم أنني حاولت وكنت أعرف القراءة في كتاب القراءة الأول.. أتذكّر أن أبي داهمني وشاهد قطرات من الدم على إصبعي وعلى خشب العود وحرّم عليّ أن ألمس أشياء أمي.

... وصرت انتهز فرصة غيابه عن البيت وانشغال أهلي بـ «الاستقبال» وأتسلل لأقلب الرسائل والأوراق والدفاتر دون أن أنجح في قراءة شيء منها، ربما لأن خطها مختلف عن الخط المطبوع الذي كنت قد تعلّمت قراءة بعض حروفه. باستثناء غلاف

---

(١) كان من الشائع في ذلك الزمان تسجيل القرارات على ورقة المذكرات للتنفيذ أو عدمه غالباً وكانت خطابيات ذلك الوقت تنصح بممارسته ليلة السنة الجديدة بصورة خاصة.

الدفتر الكبير الذي كُتب عليه بخط واضح مقروء كخط المطبعة: «المرأة الجديدة» ـ «رواية».

إنها عبارة لم أفهمها ولم أنسها.. وكنت أتساءل: هل كتبتها أمي؟ أهذا خطها؟ ما معناها؟

حين أتقنت القراءة، انتهزت فرصة سفر أبي إلى بيروت، وقمت بغارة على الغرفة السوداء ـ «الشامبرنوار»، مما أكّد لي انطباعي بأن والدي نقلها إلى صندوق أمي محكماً إقفاله بعدما لاحظ غاراتي الفضولية.. وتذكّرت حلقة مفاتيح أبي، وبحثت عنها في جيوب ثيابه، وكانت أول مرة أمد فيها يدي خلسة إليها، وأدهشتني كثرة الجيوب في بزته. لم أجد شيئاً.. وقررت أن أجرّب بقية مفاتيح الخزائن مع قفل الصندوق... وفشلت.. ونسيت الحكاية.. أما اليوم فأشعر أكثر من أي وقت مضى بالرغبة في الاطلاع على الأوراق في صندوق الأسرار المطروق بالعتق والنحاس).

قبل أن تنام زين عاهدت نفسها على أمر (ما دامت امتحانات البكالوريا قد انقضت على خير وعاد وقتي ملكاً لي، سأقوم بغارة جديدة على صندوق الأسرار في غرفة أبي. أريد أن أتعرّف على أمي أو على عفريتها! أريد التعارف مع الحقيقة الغامضة المغيّبة.. لا أعرف ما إذا كنت سأحب أمي أو لا، لكنني أعشق معرفة الحقيقة. ولم أعد كما في طفولتي أموت شوقاً وخزياً وأنا أتوق إلى الاختباء في صدرها لأبكي، ولتغمرني بشيء حار ودافىء لا اسم له.. ثمة شيء آخر اليوم يدفعني من جديد صوب معرفتها، لعله الفضول أو مجرد الرغبة الجارفة في معرفة الحقيقة أو التأكد منها أو مجرد التعارف كما لو كنا صديقتين تشدهما رابطة غامضة لا تنفصم.. ولا تزال أمي، وأنا كبيرة هكذا وقد تجاوزت السادسة عشرة من عمري، أحد محاور حياتي الأساسية، وكنت أتوهم أنني تجاوزتها وألفت غيابها ولم تعد تعذّبني حتى التسوّل كما فعلت مرة في طفولتي وجلّلني بعدها شعور بالعار والهول لن أنساه، يوم تسوّلت من المتسوّلة العمياء لحظة حنان حين أوهمتها بأنني ابنتها).

* * *

تدور بوران جيئة وذهاباً حول شقيقها أمجد وهي تكرر: أين ذهبت زين؟ ولماذا تأخرت؟ (لا أجرؤ... لا أجرؤ على حرمانها من الحرية، وهي التي تستعد لدخول الجامعة، ولا أستطيع التعايش مع ما يترتب على حريتها من ثرثرة اجتماعية تتقن زين استفزازها بسلوكها العفوي الخجول ولكن اللامبالي بالآخرين).

سألتْ الحاجّةُ فهيمة: هل قالت لك زين إلى أين ذهبت منذ الصباح الباكر؟

ـ لا يا «ستي». لقد أطبقت الباب ومضت.

تذكّر أمجد بقلق المرة الأخيرة التي أقلقت فيها زين البيت بغياب غامض، وكانت شقيقته بوران في زيارتهم يومها أيضاً وتساءل: تراها تتعمد ذلك حين تحضر عمتها بوران؟ وهل سيتطوّر الأمر هذه المرة أيضاً إلى شجار؟

(لم أنمْ يومها قيلولتي القصيرة لنصف ساعة كلما سنحت الفرصة.. كنت ممدداً بصمت، والقلق يفترسني: أين زين؟ تأخرت طويلاً.. قالت لي الحاجّة: من المفترض أنها ذهبت إلى الخيّاطة «فهيمة كور» في زقاق الصخر القريب، لكنها لم تعد حتى الآن.. لحقت بها الخادمة فهيمة بناءً على طلب بوران التي لا تزال مصرة على «تربية» زين في زياراتها شبه اليومية لنا منذ إحالة صهرها على التقاعد ـ كما لو أنها هي التي أُحيلت عليه! ـ وسألت عنها فقالت لها الخيّاطة أنها لم تأت. فإلى أين ذهبت؟. ندمتُ قليلاً لأنني أرفض دائماً أن ترافقها جدتها أو الخادمة كيفما تحركت.. إنها تحب أن تكون وحيدة ومستقلّة، ولم يعد بوسعي إرغامها على تقبّل فكرة «مرافق» لا يحق لها أن تمشي خطوة بدونه أو تزويد أنفاسها بعدّاد يتجسس على نظراتها ويحصي حركاتها وسكناتها.. لطالما وسوس لي الصمت المكهرب لأمي وصوت شقيقتي بوران وشقيقي عبد الفتاح بذلك، ولكن كل ما في قاعي كان يومىء صوب طريقة أخرى في التعامل مع ابنتي لم تتضح معالمها جيداً ولكن لا مفر منها وتختلف تماماً عما يرتأيه شقيقي الذي عاد منذ شفائه من المرض إلى الغرق بين أنواله وحريره وبروكاره، وعاد إلى كره النساء رغم فرحته ببناته اللواتي أنعشن معملّه، فيراقبهن وهن يعملن كالديك ويربض على صدر فلك زوجته الصابرة والأخرى الراقصة التي تزوجها سراً من ملهى «السيريانا» على سنّة الله ورسوله بعدما تحجّبت، لكنه يسيء معاملتها ويضربها كل ليلة ـ كما اعترف لي ـ كعقاب إلهي ولا يقوى على فراقها في آنٍ... ويلعن الشيطان الذي أغواه بالذهاب في تلك الليلة المشؤومة إلى «مرابض اللهو والفجور» كما يدعوها.. شقيقي لم يرَ مثلي النساء في دنيا الله الواسعة وهن يشاركن الرجال في العمل بشرف، حتى صار منظرهن هناك مألوفاً، وصار الجنس واحداً من هواجس الدنيا لا «الهاجس الأوحد والمحرك الأول للتاريخ، وللانقلابات العسكرية الفرويدية الجذور» كما يدّعي معتز ساخراً من عسكر لطالما لعق أحذيتهم. وكلما قلت لعبد الفتاح ذلك عن النساء وشرف العمل، صرخ في وجهي: بلا فلسفة.. تكلّم معي بالعربية! بناتي يعملن ولكن في معملي وتحت

إشرافي وإشراف لؤي).

يسمع صوت جرس الباب. ترى هل عادت زين؟ شعر برغبة في أن يركض ويلاقيها قرب الباب كما كانت تفعل هي معه منذ طفولتها (ما تكاد تسمع صوت إدخال مفتاحي في ثقب الباب وخشخشة مفاتيحي حتى تركض إليَّ لاستقبالي.. وحين أفتحه وأدخل منهكاً تتمسح بي بعذوبتها وشراستها ولطفها وتنسيني عناء نهاري وخواء عمري من المباهج والنساء و..).

يتوقع سماع صوت شجارها المألوف مع بوران كما في مرة سابقة لا يستطيع نسيانها.. يوم ذهابها إلى الخيّاطة فهيمة كور (علا صوت بوران وزين. تدخلت الحاجّة متظاهرة بالتهدئة لتسمع رواية زين، وقد توزّعت الأدوار مع بوران كعادتهما، واحدة تشد الحبل والأخرى ترخيه في محاولة فاشلة لترويض زين بالجزرة والعصا. بوران تصرخ: أين كنتِ؟ لولا خوفنا من الفضائح لذهب والدك إلى الشرطة يسأل عنك.

زين أجابت مزقزقة بسعادة: كنت في «المظاهرة»... شاهدت مظاهرة أعجبتني أهدافها فمشيت فيها. نسيت نفسي. آسفة لأنني أثرت قلقكم.

ازداد صوت بوران ارتفاعاً: «مظاهرة»؟ منذ متى تشترك «الحريم» في المظاهرات مع الرجال بدون ولي أمرهن؟

لا يفتر حماس زين: لم أكن مع الرجال.. كنا مجموعة من المواطنين نساء ورجالاً ولم التفت إلى نسبة الرجال فيها.. ثمة أشياء أخرى في الدنيا غير الرجال. أنا مواطنة أيضاً لا مجرد حرمة.

ازدادت بوران غضباً دون أن تفهم ما تقوله زين: مواطنة.. حرمة.. ما الفرق؟ بس بلا فلسفة.. لا أصدق حكاية «المظاهرة».. أين كنتِ؟

ـ هذه مشكلتك إذا لم تصدقي. كنت في طريقي إلى الخيّاطة حين شاهدت تجمع الشباب أمام تجهيز الصبيان الأولى مقابل زقاق الصخر وخرجت معهم. أنا قلت أين كنت واعتذرت لأنني أقلقتكم، وعليكم أيضاً أن تتعودوا على غيابي.. أعرف أنك لا تتصورين أن كل لحظة أقضيها خارج البيت ليست بالضرورة مع صبي، فكل واحد يقيس «على حاله» ورغباته وعقله.

انفجرت بوران: ما قلّة التهذيب هذه؟!.. والدك هو المسؤول لأنه يسكت لك على كل شيء.. كنت قد فكّرت مرة بأن أخطبك لابني أو للؤي، لكن زواجاً كهذا لن يتم إلا على قبري.

أجابتها زين بنزق: وعلى قبري أيضاً!
كدت أنفجر ضاحكاً.

سمعتُ زين تتابع قائلة لعمتها: ومن المفروض أن يخرج دريد في التظاهرة مثلي، بدلاً من قضاء وقته في نفخ عضلاته وتلعيبها على المرآة أو قضاء عمره بين الدكان وضرب النسوان كعمي عبد الفتاح.

بلا مداورة أعلنت بوران: كان يجب أن يكسر والدك الخيزرانة على جنبك منذ صغرك.. لقد أفسدك بالدلال ولم يعد ينفع معك شيء.. خرج العفريت من أمك وتلبّسك!

تدخلت الحاجّة لأن بوران تجاوزت المباح. كان الحديث عن المرحومة هند أمام زين محرَّماً بأمر مني أياً كانت الأسباب دونما استثناءات وأياً كان الحديث عنها، بخير أو بشرّ. ولكن أمي بذكائها الفطري المرن سألت زين لتحويل مجرى الحوار: وما هي تلك المظاهرة يا ابنتي؟

وتدفقت زين بحرارة الصبا وسمعتها تقول لجدتها: انظري إلى هذه الجريدة التي اشتريتها الآن. إنها جريدة «الأهرام» وتحمل تاريخ الجمعة ٢٧ تموز، أي حين كنا البارحة في السيران ويقول عنوانها: الرئيس يعلن باسم الأمة: أموالنا ردت إلينا. كنت في مظاهرة تأييد.. لقد أمَّم عبد الناصر القنال.

سألت الحاجة ببراءة: أي قنال؟

أجابت زين بحماس: قناة السويس المصرية عادت ملكاً لمصر...

ـ وما علاقتنا بذلك؟

ـ إذا كان همام أبو وضّاح قد قتل في فلسطين وخالتي أم عامر تشردت من بيتها، فإن عبد الناصر قد أخذ بثأرنا، وهذه خطوة ستتبعها خطوات لتحرير فلسطين.. هذا هو التاريخ.. فأين تعيشون؟

سمعتُ أمي تقول لها مداعبة بذكاء: في المطبخ يا ابنتي مع «الاطرطما والبسماشكات»[1].. المظاهرة الوحيدة التي خرجت فيها كانت ضد الفرنسيين وأخرجني والدك معه. فهل تريدين اليوم إخراجي معك؟

سمعتُ زين تضحك. هكذا هي دائماً تهدأ بسرعة، وتستعيد طيبة قلبها. كلمة صغيرة حنون، وينتهي الشجار.. بوران برغم حسن نواياها، لم تستطع يوماً أن

---

(١) طبقان شاميان.

تفهمها.. وحتى أنا، ثمة لحظات أكاد أفقد فيها هدوئي وصبري مع زين. فهي عسيرة عنيدة ومشاكسة ومتأكدة من أن الدنيا كلها على خطأ وهي وحدها على صواب كالمراهقين جميعاً.. فماذا أفعل وقد ربيتها بنفسي على الحرية كما لو كانت صبياً؟ وكيف أروّضها وأنا الذي حملت إليها بيدي كتب الدنيا الجميلة وآدابها، وكلها يعلّمها قيمة الصدق والحرية؟ وما الذي يمكن أن أفعله الآن لأعلّم مراهقة متأججة مثلها الفارق بين الحرية والفوضى، وبين الحرية وإيذاء الذات؟ أم تراها ستكتشف الدرب على هدي ما تعلمته وقرأته، أم أن المرء لا يتعلم الحياة بالمراسلة بل بالممارسة؟ فهل أتركها تتعلّم من أخطائها في مجتمع لا يغفر للمرأة خطأ واحداً ويريدها، ولكن بلا خبرة؟ وكيف؟.. كيف يستطيع أب مثلي أن يطلق سراح ابنته الصبية في مجتمع الشائعات والألسن الشبيهة بالسياط لتكون ذاتها حقاً، وقد تنجح وتعطي وقد تفشل فيكون العقاب؟ أجل. زين عسيرة منذ صغرها، تسبب لي ولنفسها بعض المتاعب كما حدث يوم دعتني مديرة المدرسة قبل أعوام لتشكو لي زين للمرة الأولى.

ـ أريد أن أشكو لك زين.. لقد أضربت المدرسة بكاملها بتحريض منها وعطّلت يوم دراسة بسبب «الضباط الأحرار» ومحمد نجيب وعبد الناصر... هذا لا يجوز!

ـ «مديرة خانم».. المدارس كلها أضربت تأييداً.. منذ ثورة اللواء نجيب والصبيان يدورون على مدارس البنات ويكلّمون «الآذن» لينقل الخبر إلى المديرات اللواتي يعدن بصرف البنات تحاشياً للمشاكل.. في الجامعة أيضاً «أضرب» الطلاب.

ـ نعم.. ولكن زين هي التي «دَهَثْ»(١) بعقل البنات و«فسّدتهم»(٢) على الإضراب هذه المرة.. لقد استدعيت زين مع بلقيس أكبر طالبة في التجهيز عندي من صف البكالوريا وسألتها عمن طلع بفكرة الإضراب الذاتي؟ فقالت بلقيس مشيرة إلى زين: «تقصيرة الجن» هذه قالت للبنات من العيب أن ننتظر كل مرة وصول الصبيان كي يخرجونا إلى المظاهرة، وأقنعت البنات.

وتابعت المديرة: ابنتك حضرت إليَّ للاستئذان بعدما خرجن إلى الشارع. وحين زجرتها لأنها فعلت ذلك بدون استئذان، قالت لي إنها خافت من رفضي!

ـ سامحيها.. إنها ككل الصغار تتوهم أنها وحدها على صواب. سيكبر جيلها

---

(١) عبثت، لعبت.

(٢) أفسدتهم.

ذات يوم ويفهم وقد يندم. .

تابعت المديرة: وطلبت منها أسماء اللواتي ساهمن معها على التحريض. . فعندي مدرسة بنات وأنا مسؤولة عن أعراضهن ولا أستطيع أن أسمح بهذا التفلّت اللامسؤول. . هل تعرف بماذا أجابتني؟ قالت: لم نقصد التفلّت. ظننا أنك ستكونين على رأس مظاهرتنا وقد سبقتِنا إلى الشارع. . غضبتُ منها طبعاً لأنها تحاول أن تعلّمني ما عليّ القيام به.

وسألتها: ما دخلكم بمصر وعبد الناصر؟

قالت زين: إنها الدرب إلى تحرير فلسطين يا مديرة خانم. . لن يحارب الجيش المصري بعد اليوم بسلاح فاسد. ولن يموت عمو همام أبو وضّاح ثانية. . ولم تتحرر فلسطين مرة في التاريخ إلا باتحاد مصر مع سوريا كما درسنا في صف التاريخ عن صلاح الدين الأيوبي وتحرير القدس. قلت لها: العِلْم هو الذي يحرّر فلسطين لا الفوضى والزعيق في الشوارع فعودي إلى الصف.

سألتُ المديرة: وماذا أجابت زين؟ أطرقت بتهذيب ولم تجبني.

وحمدتُ يومها ربي لأن آثار التربية المهذبة التي أنشأتها أمها عليها لم تضع كلها.

وبعدما اعتذرتُ من المديرة ورجوتها ألاّ تطردها من المدرسة هذه المرة وعلاماتها المتفوقة تشفع لها، استجوبتُ زين في البيت: هل تخرجين في التظاهرة لتقليد الصبيان؟ ثم ماذا تعرفين أنت عن الحرية؟

ـ بالعكس، أريد أن نخرج من تلقاء أنفسنا.

ـ لماذا هذا الحماس لعبد الناصر؟

ـ لأنه رمز لقوتنا وحريتنا.

ـ حذار من خيبة الأمل. . كلهم يبدأون قمعهم باسم الحرية. ما هي الحرية؟

أجابتني: لا أعرف ما هي الحرية. ولكنني أعرف أنها مثل أمي، تنقصني. قلت لها: في المرة القادمة، استأذني «مديرة خانم».

ـ أنتَ مثلها لا تحب الضباط الأحرار.

ـ لا أحب الانقلابات واللاستقرار وتدخل العسكر بالحكم. أحب الديمقراطية والحرية.

ـ وأنا أحب الحرية وأعرف أنها مثل أمي تنقصني. . . .

ها هي تكرر ذكر أمها كلما تجاهلتُ الموضوع. دوماً تستدرجني للحديث عن أمها. وبدّلت الموضوع وحدّثتها عن مباراة كرة القدم بين أحد النوادي وفريق الجامعة السورية. فتحمستْ وانتزعت مني وعداً بمرافقتها.. يا للطفلة! لم تكن تعرف أن المباراة أقيمت برعاية أحد زبائني المهمّين وأنني مضطر للذهاب، حتى التثاؤب، إكراماً له ومضطر لاصطحابها كي توقظني صرخاتها المتحمسة باستمرار.. ولم تكن مضطرة لشكري فهي التي تقدم لي خدمة!).

تروح بوران وتجيء وتزيد في قلقه على زين. حتى هو يعجز أحياناً عن فهمها.. كان يتصورها نسخة عن أمها، لكنها ليست حقاً كذلك.. هند كانت قابلة للتطويع وبدت له أحياناً رغم ثرائها مكسورة الجانح. زين بدت له كذلك في طفولتها، أما الآن فتبدو بعنادها وصلابتها وأنانيتها أقرب إليه.. أم أن أسلوبه في تربيتها جعلها كذلك؟ «هذه البنت كاد الله أن يخلقها صبياً» كما تردد له أمه، أم أن النساء كلهن كذلك؟ (لو أن الحاج الراشدي الكبير والد هند ربّاها على نحو مختلف، هل كانت ستصير أصلب عوداً؟ لقد حرمها من الذهاب إلى المدرسة وأحضر لها الأساتذة إلى البيت حرصاً على مركزه. وحين تمرّدت لم تستطع أن تذهب بعيداً؟ أم أن ثمة نمطاً من النساء قابل للكسر أكثر من سواه؟)... رن جرس الباب ثانية (لعلها قد عادت أخيراً وأتمنى أن يكون عذرها مقبولاً كي لا أتشاجر معها. تراها كانت مثلاً في مدرسة محو الأميّة؟).

تناهى إلى أمجد صوت زين تسأل الخادمة: أين «بابا»؟. حين سمعت بوران صوت زين هرعت إلى الباب وجاءه صوتها مرتجفاً: والدك بانتظارك في غرفة الجلوس، وتابعت بجفاء: أهلاً عامر. ماذا تفعل مع زين؟ لقد قلقنا عليها كثيراً.. وكذلك والدها.

قاطعتها زين: أبي لا يمكن أن يقلق عليَّ. إنه يعرفني ويثق بي... (إنني مجنون قلقاً عليها.. وهو قلق يتعاظم يوماً بعد آخر وما بيدي حيلة.. الآن سيبدأ شجارها مع عمتها بوران).

فوجيء أمجد بأن الشجار لم يحدث. قالت زين من تلقاء نفسها وهي تدخل غرفة الجلوس وتلحق بها عمتها وجدتها: المعذرة منكم جميعاً لما حدث. لعلّي أقلقتكم. لكنني ذهبت إلى مدرسة محو الأميّة لإلقاء درس واحد وغابت معلّمتان كالعادة فاضطررت لتعليم الأطفال بدلاً عنهما برجاء من عامر.

صافح أمجد عامر وهو ينصت إلى زين. بدت له سعيدة وفخورة وشبه متفرغة

لعملها كمعلّمة متطوعة في مدرسة محو الأمية وامتلأ فخراً. لكنه قال لها: إني قلق على دراستك من عملك كمدرّسة. أجابته زين: هل المهم أن أكون الأولى في المدرسة أم أن أفعل شيئاً أحبه؟

قبّلت زين عمتها بوران فجأة في إحدى نوبات العاطفة الودية التي تتدفق منها بين حين وآخر ولا تقوى على كبحها وقالت لها: آسفة لأنني أقلقتك يا عمتي. لم يكن بوسعي ترك الأطفال يعودون مكسوري الخاطر إلى بيوتهم بلا درس. وانشغلت بهم فنسيت أن أتصل هاتفياً بكم «للتطمين». فرح أمجد بسلوكها (**الاعتذار علامة نضج.. ها هي تكبر وأنا سأهرم!**).

خرجت الحاجة لتأمر فهيمة بإعداد الطعام لزين وعامر، وخرج عامر ليغسل يديه. ولم تتمالك بوران نفسها فسألت زين: هل سنسمع قريباً خبر خطبتك على عامر؟ قالت زين ضاحكة: عامر قريبي وصديقي. هذا كل شيء. تبدّل الزمان يا عمتي. صارت الصداقة مهمة، وما كل شاب أبتسم له سيصير خطيبي. جفلت بوران من كلمة صديقي، ولم تفهم شيئاً من كلامها كما بدا لأمجد، إذ صارت تنقل نظراتها بين زين وعامر حين عاد إلى الغرفة بكثير من الشك والاستنكار كأنها تتساءل: ماذا عنده وليس عند ابني دريد؟ زين فسّرت نظرة عمتها الفصيحة وفكت شيفرتها: «خرج العفريت من أمك وتلبسّك»!

* * *

حين خرجت الحاجة في زيارتها نصف الشهرية إلى «البيت الكبير» مصطحبة معها فهيمة للمساعدة في «تعزيل» البيت حيث تجتمع الأسرة كورشة متنقلة في مناسبات كهذه، وشاهدت زين والدها ينسى حلقة مفاتيحه الثقيلة على سريره بعدما بدّل بدلته ومضى حاملاً الحلقة الصغيرة الخاصة بمفاتيح السيارة عن الطاولة ليضعها من ثم في جيبه، لم تقل شيئاً. فقد استولى عليها خاطر (**لن أذكّره بمفاتيحه وسأفتح صندوقه المحرَّم.. إنها فرصة قد لا تسنح ثانية**).

خجلت من صمتها ونواياها لكنها ظلت على صمتها حتى مضى والدها وشاهدت عبر النافذة سيارته تتحرك وتختفي في آخر الطريق.

(**ها أنا وحيدة أخيراً أمام صندوق الأسرار...**

وكما كان يحدث لي باستمرار في أحلامي، أُدخل المفتاح في القفل وأعجز عن فتحه.. إنه الحلم ذاته، أم تراها اليقظة؟ ومتى أتعلم كيف أميّز بينهما؟...

ولماذا ينتابني ذلك الشعور باستمرار بأن هذا حدث لي من قبل، وأنني أكرّره؟ ولماذا أتخيّل نفسي باستمرار وقد استيقظت من غفوة الحياة وذهبت لأصحو على فراش الموت إلى جانب أمي حيث نتابع حياتنا السرية على شطآن مجهولة؟ ولماذا لا يدور هذا المفتاح الصدىء في القفل؟ أهو قدر مرصود أم مجرد صدأ كان عليَّ إزالته قبل معالجة القفل؟ أحرّك المفتاح في القفل يمنة ويسرى ولا يدور. وأزيد من ضغط يدي محاذرة أن ينكسر في الداخل أو يتحول إلى رماد كبقايا الأوهام كلها. . لا جدوى. أقرر إخراجه من القفل وتنظيفه. أجذبه إلى الخارج فيظل عالقاً وعبثاً احاول إخراجه من موضعه. . يغمرني الذعر: ماذا لو عجزت عن إخراجه وإعادته إلى حلقة مفاتيح أبي قبل أن يكتشف أنني «استعرته»؟ لقد قرّر المفتاح قدري: لا مجال للتراجع. . فلأمعن توغلاً في ورطتي. . من الواضح أن أبي لم يستعمله منذ أعوام طويلة، فإلى أي اتجاه أقسر المفتاح، يميناً أم يساراً؟ سأقامر. . أرمي بالفرنك «طرة نقشة». يربح اليمين. أشد المفتاح بقواي كلها إلى اليمين. ينفتح الصندوق ولا ينكسر المفتاح. . وأنا أرفع غطاءه أسمع له صريراً شبيهاً بصرير خشب تابوت عتيق يسرقه لص في مدفن تاريخي. . يهبّ الغبار في وجهي، غبار من السراديب، غبار من أكفان الموتى المتدلية على هياكلهم العظمية وقد تجمعوا حولي محتجين على تدنيس حرمة الغبار وأدوية التحنيط النفتالينية والنسيان. . ويقرّرون معاقبتي بلعنة الذاكرة. . هذا صندوق صغير من الفضة المذهبة داخل الصندوق الأول الكبير. أرتجف وأنا أتناوله لأفتحه وأتساءل: ما الشيء الاستثنائي الذي يضمه؟

تصرخ «باندورا» في رأسي وتحذّرني من فتح صندوق الآثام. لا أبالي بها وأحاول عبثاً فتحه. إنه مقفل بإحكام. أتركه على السجادة. هذا مجلد كبير بخط يد أمي كتب عليه بخط صغير منمنم لا يشبه خطي «المرأة الجديدة» مع عنوان فرعي «رواية». . أتأمله. لم أرَ في المكتبات دفاتر كبيرة وجميلة هكذا من قبل بغلاف جلدي فاخر وأطراف مذهّبة. ترى هل كانت أمي تشتري دفاترها من باريس؟ أقلّبُ الصفحات. إنها مكتوبة بخط يد صغير الحروف منمنم وبحبر ليلكي، وزوايا الحروف الأنيقة تشي بأنه مكتوب بـ «المسكة والريشة»[1] كما كنت أكتب في الصف

(١) طريقة للكتابة كانت شائعة حتى في المدارس وانقرضت مع الخمسينات حيث كانت لـ «الطبقة» التي يجلس عليها التلاميذ دواة صغيرة مستقرة في نقرة صغيرة خاصة ويُدخل الطالب الريشة المعدنية داخل المسكة الخشبية. ثمة ريشة نمرة ١ و ٢ و ٣ وعرض طرفها يحدد عرض الكتابة. فيغمس الطالب أو الكاتب الريشة في الدواة ويكتب، والبعض يفضل ريشة طائر ثمينة.

الأول في مدرستي.

للمجلد ملمس الجسد الواهي، وقد طحن الزمن صلابته وأكل لونه فأضحى له لون ضائع بين الأسود والبني والرمادي والكحلي، لعلّه لون الانتظار. أضعه على السجادة. أستخرج مغلفاً قديماً. أجد داخله «بلورات»[1] لصور ما. هذه رسائل تبدو مغلفاتها مصفرّة كأنما أحرقتها شمس الظلام السرية في الأدراج المغلقة، ولعلّها كانت ذات يوم وردية... هذا مظروف آخر كبير كتب عليه بالقلم «الكوبيا» بخط أبي: «قصائد حفل تأبين هند» وقد عالجته الرطوبة بدمع الأيام فتحول «الكوبيا» إلى حبر شبه ليلكي. إذاً كان لأمي حفل تأبين؟ ولكن لماذا الحفل والقصائد؟ من هي تلك المرأة؟.. هل كانت حقاً كاتبة كما قالت لي مرة جولييت؟ أم تراها كانت تريد تشجيعي؟ ماتت جولييت ولم يعد بوسعي استجوابها. هذا مغلف آخر لم يكتب عليه أحد غير الغبار بخط دقيق غير مقروء...

أستخرج كل ما في الصندوق.. كوم من الأوراق هو رماد أمي وكل ما تبقى منها.. أمي!.. وشعرت بفرحة غريبة.. إذاً كانت لي أم حقاً.. وكانت لها أوراق ومراسلات وحفل تأبين، ولم تكن مجرد حلم يسعى داخل دهاليز ليلي السري.. أم أن تلك الأوراق جزء من الحلم لا أكثر.. والحلم يزداد مراوغة ويتسلّح بأقنعة الواقع؟ فاحت من الأوراق رائحة حزينة لا اسم لها.. رائحة الأشياء الخبيئة التي لا يلمسها أحد ولا يحتضنها بعينيه أحد ولا تمر بها الريح ولا يعانقها الضوء.. رائحة تشبه البكاء اللامبكي، بكاء الحنجرة الذي أُتقنه بصمت.. رائحة حزينة تذكّرني بعطور تبغ اللاذقية في الشوارع حين تدهسها أصوات البواخر الراحلة وهي تطلق صيحات الوداع.. أصوات طيور البحر على شاطىء «الطابيات». وأمي جميلة وشاهقة تمشي وتخلّف على الرمال خيطاً من الدم لا تلاحظه نازفةً من موضع أنوثتها والدم يسيل أيضاً من حلمتي ثدييها كالحليب...

إذاً كانت لي أمّ.. أمّ يجب أن لا «أكرر دربها» كما هدّدني لؤي.. أمّ يتهامس الجميع عنها ولا يقولون شيئاً واضحاً رغم أن دفنها تمّ بأقصى قدر ممكن من الضجيج ما دام قد أقيم لها حفل تأبين؟ أم تراه كان احتفالاً بموتها؟.. هذا «ألبوم» صور يغطيه الغبار أكثر من بقية الأشياء.. لماذا؟ هل يخشى الغبار من الصور متوهماً أنها عدوته الأولى؟

---

(١) بلورات: سلبيات أو «نيجاتيف» الصور.

أكوّم رماد أمي أمامي ولا أجرؤ على ملامسته كبدائي اقترب أكثر مما ينبغي من وثنه ويخشى.. أخشى ماذا؟ أن تحل عليَّ اللعنة، لأنني فتحت صندوق الآثام وسأهيم كالهولندي التائه إلى الأبد؟

كبروميثيوس سارق النار تسمل الآلهة عينيّ عقاباً لي ولا أرى شيئاً وتغيم الغرفة بي.. ها أنا ميتة، ممددة على طاولة التشريح في المدرسة.. يدخل الأستاذ زعبلاوي يرافقه الأستاذ عصفور وبيده مشرط، ويقول إنه سيقصّ قفصي الصدري دون أن يتوقف قلبي عن النبض.. يمسك بزجاجة «الكلوروفورم» ويبلّل بها قطعة القطن جيداً ويلصقها بأنفي.. أنتزعها منه وأرمي بها على البلاط المزخرف برسوم أوراق شجر ثم أتناول منه المشرط وبضربة واحدة بيد ثابتة أشق صدري.. وأتناول مقصه وأقصّ قفصي الصدري بيدي وأستخرج قلبي أتأمله بهدوء وهو ينبض وينبض وتتعالى ضرباته وأمد يدي الأخرى لأتحسسه وألامسه وأحمله وأحيط به كعصفور، فيضربني الأستاذ زعبلاوي على يدي ضربة خفيفة كما لو كنت طفلة، ولا أطيعه.. أجلس أمام الطاولة أحمل قلبي بيد وأكتب باليد الأخرى. يدخل أبي ويراني هكذا ويقهقه. ألاحظ كم أنا مضحكة فأقهقه معه من نفسي لكنني أتابع الكتابة. حين أنجز كتابة السطر الأخير يظلم المكان.. ثم يضيء الفضاء.. وأنا أقرأ...

من أين أبدأ، وأيها أقرأ؟ هل أحلم أم أن ما يحدث لي يحدث لي؟ ما الفرق؟ المهم أن أقرأ الأوراق. هذا مغلف.. «حفل تأبين هند». أستخرج الأوراق.. قصائد.. قصائد رثاء لأمي.. أقرأ بذهول بعض الأبيات والكلمات.. ينعون الأديبة الكبيرة. أديبة كبيرة؟!

في مغلّف آخر، أجد قصيدة غزل من الشاعر الشهير عدلون الشعلاني وعلى الأرجح بخط يده مهداة إلى أمي «الآنسة هند الراشدي، الأديبة الكبيرة».

ولكن، إذا كانت أديبة كبيرة هكذا، فكيف لم أسمع بها أنا أو بقية طالبات المدرسة كما سمعنا بمي زيادة مثلاً؟ ولماذا لم أرَ كتاباً مطبوعاً لها مثل فدوى طوقان؟!

قلت لجولييت ذات مرّة مداعبة: لعل مي زيادة تقمصتني ما دمتُ قد ولدت سنة وفاتها. أجابتني مداعبة بدورها: المهمّ ألا تصابي بالجنون مثلها! أجبتها ضاحكة: ولكنني ولدت مجنونة، فكيف أُصاب بالجنون؟ وضحكنا. حسناً. أسمع باستمرار عن مي زيادة وعن جنونها، فلماذا لم أسمع شيئاً عن الأديبة هند الراشدي

إلا من جولييت؟ هل اختلقتْ ذلك؟ وإذا كانت قد فعلتْ، فلمَ حفل التأبين؟ وما هي الحقيقة؟

ما هي كتبها؟ مؤلفاتها؟.. أشتعل فضولاً نحو تلك المرأة الغامضة التي تصادف أنها أمي...

أعود إلى الخطب والقصائد التي أُلقيت في حفل تأبينها وأذهل وأنا أجد أحد الذين رثوها يُقَرّع أبي ويُحمِّله مسؤولية موتها، كما لو ماتت مقتولة بمعنى ما. لا يعقَل ذلك. وأبي الرائع العذب المرهف لا يمكن له أن يؤذي نملة. أبي فاعل الخير هل يمكن أن يؤذي أقرب الناس إليه؟ لا يُعقل ذلك!

تُرى من قتل أمي؟.. أريد أن أعرف.. أقرأ الأوراق.. أقرأ.. أتسلق جبلاً وأنا أجرجر صخرة حتى قمته كسيزيف.. فتتدحرج الصخرة من جديد حتى الوادي.. وأعود لأتسلق بها الجبل صفحة صفحة من تلك الأوراق التي أكلت أطراف بعضها حشرات سرية.. ومثل سيزيف أتابع نيل عقابي حتى الورقة الأخيرة.. ومع كل رسالة أطالعها من رسائل الآخرين إلى أمي أقول: هذا هو القاتل.. وحين أقرأ «مسودات» رسائلها إليهم التي قامت بـ «تبييضها»[1] لهم أقول: إنها تعرف أنه القاتل ولكنها لا تريد أن تصدّق شفقةً على قلبها من الحقيقة.. إنها تعرفها ولا تريد أن تواجهها كي لا تقتلها تلك الحقيقة.. أمسك بمسودات رسائلها بحزن، وأقرأ السطور المشطوبة، فأجدها تلك التي تذرف منها جرح قلبها.. إنها تكره أن يراها أحد في لحظة ضعف، ولذا يبدو أنها لم تكن تُبقي إلا على السطور التي قمعت فيها حزنها وروضته وعقلنته (حتى قتلها؟).. هذي رسائل من ابن عمها عفيف الذي أحبها كثيراً كما سمعت دائماً من الأسرة. إنه يطلب منها أن تبعث إليه بالنقود سراً.. لأن الراتب المقرر له في الأسرة رسمياً لا يكفيه. فهو مريض وليس صحيحاً أنه ينفق النقود على الراقصات والشراب وحياة اللهو كما قيل لها.. أهو مناضل أم زير نساء وليل؟ ولم لا يكون الاثنين معاً؟ بدت لي رسالته نموذجاً للكذب الواضح النموذجي في ظروف كهذه، فكيف صدّقته أمي؟ أم أنني أقيم داخل أرض الحياد أكثر منها؟ عقلي شاكٌ أكثر منها؟ أم أن إقامتها داخل قصر جدي أو «في ذلك السجن» كما تصفه في مسودات رسائلها إلى صديقتها خيرية، أفسدت قدرتها على الرؤية الواضحة، وها هي تحسد خيرية التي نجت من قصر والدها المجاور في اللاذقية بزواج في دمشق

---

(١) كان الناس في ذلك الزمان يكتبون «مسودة» الرسالة ثم يقومون بنقلها على ورقة أخرى اسمها «المبيضة».

وتقول لها «أغبطك».. ها هي في رسالة أخرى تسخر من قصر والدها وتصفه بقولها: «قصر وشبابيكه حمر، وجواته شي بيقصف العمر»[1].. ثمة رسالة من خيرية تقول لها فيها إنها لا تحب دمشق كثيراً وتجدها شبيهة بمياه عمقة مظلمة مليئة بالمكائد والحزازات والحذق الانتقامي والأظافر المسمومة داخل القفازات المخملية ولا أحد يعرف فيها حقاً صديقه من عدوه ولكنها سعيدة في زواجها وإلاّ فما من قدر آخر غير مرض السل... تتحدث الرسائل كثيراً عن مرض السل.. أتأمل آثار تطعيمي ضد السل الظاهرة في كتفي.. انتهى زمان السل وها أنا رسالة بعد أخرى أدخل في مناخ روحي مختلف وأفهم مناخ دنياها وأنا أتذكر «آلام ڤرتر» و «غادة الكاميليا» وروايات أخرى أسخر منها اليوم، ولعلها أبكتها طويلاً.. ولكن كيف صدّقت البريئة ابن عمها عفيف حتى أعطته سراً بعض مصاغها ليتصرّف به، وها هو يتابع المهزلة ويبعث إليها بوصل؟ قيل لي إنه كان يعشق أمي ويرغب في الزواج منها. الرسائل تقول شيئاً آخر. يبدو أنها هي التي كانت تحبه وهو الذي كان يبتزها بحذق.

أزداد حباً لأبي لأنه لم يمزّق هذه الرسائل واحترَمَ الحقيقة التي قد تكون آلمته، أم تراه لم يجد الوقت لقراءتها؟ أتابع القراءة.. ها هي تعاتب عفيف على غدره بها وبيعها لبعض حليها إكراماً لكذبه عليها، في رسالة وضعتها داخل مظروف كتبت عليه «رسائل لم ترسل»!.. ترى هل كانت تكتفي بكتابة المسودة لتداوي جرح قلبها أم أنها بعثت بها فيما بعد إليه؟ وهل سأحمل هذه الرسائل إلى «عمو» عفيف وأذهب إلى اللاذقية لأعطيها له بعد انقضاء عقدين على كتابتها؟ أم سأرسلها له بالبريد؟ فأنا مجروحة منه شخصياً لأنه قريب أمي المفضّل لدي، ويبدو أننا نملك الضعف ذاته أمام هذا النمط من المحتالين.. وامتلأت بالحب الحزين نحوها.. كالحب الذي يربط امرأتين غدر بهما رجل واحد..

أتابع القراءة بعدما انتهيت من مظروف عفيف. أطالع رسائل شقيقه منير زوج خالتي لبابة.. ألاحظ أن أمي لم ترتب رسائلها جيداً كمن يرتب أحزانه في جوارير.. فثمة رسائل من عفيف في مغلف منير ومسودات متناثرة هنا وهناك كمن وزّع جراحه على عدة حقائب كي يكون قادراً على حملها ربما لنقلها في قطار القلب الراكض أبداً بالذكريات. تراها كانت على هذه الحال عند وفاتها، أم أن والدي هو الذي فعل ذلك؟ أم أن بوران رمتها هكذا على غير هدى وأنا أفسّر الأشياء على غير

(١) مثل شعبي ساخر من حياة القصور.

حقيقتها؟ أذهلني أن ما يُكتب لا يموت.. يظل جديداً في كل لحظة.. وإلا فلماذا امتلىء غضباً وأنا أقرأ رسائل ابن عمها الآخر إليها من باريس حيث كان يدرس الطب؟ إذاً كان «عمو منير» يدرس الطب! سمعت مرة أنه تسبب في وفاة مريضة ولم يعد بعدها يُمارس الطب ولا يريد أن يناديه أحد بذلك وظننتها أسطورة وهو إنما رسب ببساطة في دراسته! أين الحقيقة؟ إنه مشغول بالميراث... هو أيضاً. ينال حصته كاملة من الميراث الكبير للأسرة لكنه هو أيضاً بحاجة إلى المال لينفق على تجاربه العلمية (!)، ويلومها لأنها تنفق على شقيقه الصغير الفاسد في دمشق عفيف مرفقاً رسالته ببعض الوثائق والمستمسكات على لسان الصديق المشترك ناجي القاسم الذي استدان منه ذلك الشقيق الصغير نقوداً ملوّثاً بذلك سمعة الأسرة. «سمعة الأسرة».. عبارة تتردد كثيراً في الرسائل! ها هو منير يطلب نقوداً بدوره بمناسبة خطبته إلى الفرنسية بابيت مؤكداً أنها ستشهر إسلامها.. إذاً كان يريد الزواج من فرنسية قبل زواجه من خالتي لبابة؟ في الرسائل يبدو شخصاً آخر تماماً عن الذي أعرفه. هذه رسالة بالفرنسية من خطيبته إلى أمي، رسالة مطوّلة كلها عواطف تتحدث عن الأسعار الفاحشة لتأثيث بيت. المفروض أن الخطيبة زميلته الجامعية، لكن رسالتها تبدو لي أقرب إلى لغة غانية! تراه كان وصديقته الراقصة في «المولان روج» الباريسي الذي قرأت عنه يتعاونان في الاحتيال على تلك «الآنسة العانس» المسكينة وشقيقتها لبابة المدفونتين في قبر يدعى قصراً في اللاذقية وكلهما شوق إلى العلم والرحيل والحياة؟.. ترى هل تعرف خالتي لبابة ذلك كله وتوعز إلى أمي بالاستمرار في مراسلة ابن العم لتستعيده؟ تبدو لي خالتي امرأة أخرى وها أنا أتعارف من جديد مع أسرة لم أتعارف إلا مع أقنعتها الاجتماعية اللائقة، وقد ولدتُ لسوء حظي بعدما ألفوا ارتداءها.

أتابع القراءة.. يختفي تماماً اسم الخطيبة بابيت من الرسائل اللاحقة بعد شكر مقتضب على التحويل. تفتر لهجة الرسائل. هل كان المقصود الحصول على التحويل لا أكثر؟ هل بابيت حقيقية أم أن صديق منير كتب عنها؟

هذي رسالة بمناسبة العيد تشتعل وجداً في سطورها الأولى.. سيطلب منها نقوداً بالتأكيد.. يا إلهي كيف لم تلاحظ المسكينة ذلك السيناريو الواضح للاستغلال؟.. وكيف تلحظه وهي التي كانت وخالتي تتلقيان الرسائل على جرعات في خواء حياتيهما؟.. وما الذي كان سيتبقى لهما لو اغتالتا الوهم بيديهما وهما محرومتان من كل ما عداه؟.. أما أنا فأتجرعها تلك الرسائل مرة واحدة، في ضوء

النهار، بعد مرور أكثر من عقدين على إطلاق تلك الأكاذيب الكلاسيكية التي تبدو لي في غاية الوضوح، بل ونموذجية. . ولو قرأتها في رواية ما لقلت: كم هي رديئة هذه الرواية!! ألم يجد الكاتب كذبة أفضل يخترعها؟

هذي رسائل من منير نفسه، ولكن من الإسكندرية. . إنه يعمل طبيباً. . يتملّص في رسائله من تشخيص أوجاع ساق هند بالمراسلة ويطلب منها أن تعرض نفسها على الدكتور العيسار في طرطوس. . هذا موقف طبيعي ومقبول. . رسالة أخرى يؤكد فيها تشخيص العيسار بأن المرض في أعصابها لا في ركبتها وأنها «تتوهم» الألم. . رسالة يثنيها فيها عن القدوم مع والدتها (أي جدتي التي لا أعرفها؟!) وخالتي لبابة إلى الإسكندرية لـ«عرض نفسها» عليه وعلى طبيب اختصاصي. . . فبيته ضيق وأحواله المادية لا تسمح بتبديله. . يبدو أنها قدّمت عرضاً مفاده أن تستأجر هي وأمها بيتاً كبيراً. . يرفض بشدة مدعياً أن جو الإسكندرية فاسد أخلاقياً!

هذي رسالة يأسف فيها لمرضها ويغمرها هي وخالتي لبابة بعبارات شعرية، معلناً عزمه على الذهاب إلى العراق للعمل هناك. إنه يشكو لأنهم يدخلونه في كل صغيرة وكبيرة وهو مشغول عنهم ببناء حياته. . يطالبونه بالمال لشقيقه عفيف. يرفض. . يحاضر عن الأخلاق وسمعة الأسرة كلما ذكروا له سيرة المال. . . يبدو لي متضايقاً هو أيضاً من الافلاس. فطموحه كبير والليرة السورية تسقط. . .

ها هو غاضب من أمي ولبابة لأنهما أخفتا عنه أشياء. . ثمة مكائد. . وكلام يُقال ثم يكتب عكسه من اللاذقية في رسائل. . من الواضح أنه اختار أسلوب الهجوم بدلاً من الدفاع. من الواضح أنه أنفق ثروته ويطمع في ثروة أمي أو لبابة. يبدو انه بحاجة إلى المال إذ إنه أعلن في رسالة عن عودته الوشيكة إلى اللاذقية. ثمة شجار على قسمة الميراث. . شجار على النقود. . قطعة من اللحم تتنازعها أسنان ذئبية بعدما حاولوا اقتلاع أسنان أمي لتعجز عن التهام نصيبها من كل شيء، وأقنعوها أن هذا هو دور ابن العم «الفاضل» في أسرة محافظة. . يبدو أن خالتي لبابة اقتنعت أما أمي فهربت إلى دمشق.

أقرأ الرسائل كمن يقرأ رواية وأكاد أبكي وأنا أرى كم قاست هذه المسكينة. أقرأ بعضاً من رسائلها التي لم ترسلها أو مسودات ما أرسلته بعد شطب لوعاتها الخاصة منها لتحافظ على كبرياء ألمها وتتعذب سراً. إنها تخترقني كشفرة سكين ذكرى تطعنني بها يد لامرئية بضربات متلاحقة وأنا أستعصي على الموت أو الإغماء. . .

إنها تخبر الآن منير أنها تعمل في تدريس البنات في مدرسة الراهبات. يتعطف بالسماح لها بذلك شرط ألا تقبض راتباً كي لا تلوّث سمعة الأسرة!! . . تكتب لخيرية وتقول لها إنها خجلة من نفسها لأنها تتوهم أحياناً أنهم يتعمّدون حرمانها من العلاج كي يتفاقم مرض ركبتها وتنتقل العدوى إلى الأخرى وتصير كسيحة. . يا إلهي! . . كيف تخجل المسكينة من نفسها؟ ألا ترى بوضوح ما يدور؟ . . بلى. . إنها ترى بوضوح ما يدور. . وهذه مسودة رسالة من دمشق إلى ابن عمها منير تبلّغه فيها أنها تعمل في «مدرسة اللاييك» في دمشق كمعلّمة بعدما رتّبت لها السيدة خيرية أمر العمل، وتقيم في القسم الداخلي للبنات. . إذاً هربت حقاً من اللاذقية على صهوة حصان كما روى لي أبي في المرة الوحيدة التي استطعت فيها استدراجه إلى الكلام عنها قبل أن يستدرك ويشير إلى نجمة الصبح قائلاً: هذه أمك. هل قال لي أبي ذلك حقاً، أم أن الحادثة جزء من ذكريات طفولتي التي أجهل هل حدثت لي داخل أحلامي أم خارجها وما زلت أجهل الفارق بينهما؟ عجزت عن تخيّلها كعادتي نجمة أو ملكة كزنوبيا على صهوة حصانها، بل شاهدتها وأنا أطالع هذه الرسائل إنسانةً قابلة للخداع، وتخيّلتها تجلس في «البوسطة» محجّبة أكثر من عادتها كي لا يتعرف عليها أحد، ترتجف ذعراً، وتحار هل أقدمتْ على الخطأ أم الصواب. . .

هذي رسالة من ابن عمها عفيف الذي غادر سجن الانتداب فوجدها في دمشق، فكيف ينسى أنها لم تنتظره في اللاذقية؟ تلك رسالة من منير يوافق فيها على أن تبقى مؤقتاً في دمشق ريثما يرسلون إليها بأمها، «زوجة عمه»، لتقيم معها في بيت يحرسهما فيه ذكر هو قريب آخر سيدرس في جامعة دمشق. . ويطلب منها توكيلاً لإدارة أملاكها كأختها لبابة زوجته، فبُعدها يجعل أمر توقيعها السريع صعباً مما يربكه في العمل!! . . أرجوك يا رب، لا تدعها ترسل التوكيل. . أرجوك دعها تفتح عينيها على الحقيقة. . لم يعد بوسعي أن أقرأ المزيد عن محاولتهم «سلخ جلدها»، ولا أحب غفرانها لهم لأنهم يدرون جيداً ما يفعلون وهي التي لا تدري. . يا للشجاعة! لقد رفضت. . وستظل مقيمة عند الراهبات ومعلّمة في اللاييك. . ولن ترسل له توكيلاً، وستكلّف أحد المحامين لتصفية أملاكها في اللاذقية ويدعى أمجد الخيّال. . ستبعث بالدكتور أمجد الخيّال عم تلميذتها فيحاء ـ الطالبة في مدرسة خديجة الكبرى حيث تقوم بالتعليم أيضاً ـ إلى اللاذقية لملاحقة الأمر، «وهذا حقي وفق الشريعة الإسلامية» كما سطّرت. . إذاً فرسالته التي يحذّرها فيها من السفور مهدّداً بحجزها في مصح عقلي والطلب إلى المحكمة منعها من إدارة أملاكها كانت رداً على هذه

الرسالة.. يتابع التهديد: لقد تناهى إليه أنها تكتب في الصحف باسم مستعار هو «زنوبيا» ويهدّدها بالقتل إذا تأكد من ذلك.. لن يدعها تلطخ اسم أسرة الراشدي بالوحل أكثر مما فعلت.. ماذا فعلت المسكينة غير اقتراف الأدب؟.. إذاً كانت «تحب الكتابة» مثلي (أو أنا مثلها).. يمتلىء قلبي غضباً وأقسم على الانتقام لها. أتذكر الكونت دي مونت كريستو الذي كرّس حياته للانتقام، وكم وجدتُ الرواية رديئة.. لا.. إن الأمور لا تجري في الحياة على هذا النحو...

أكاد أختنق وأنا أتابع تقليب الرسائل.. هذا مظروف يضم رسائل من أبي.. إنه خطه الحبيب الجميل الذي أستطيع أن أميّزه بنظرة.. الخط الذي كبرت وأنا أراه وأحبه. الخط الذي يكتبه بيده اليمنى كما اليسرى. سقط وانكسرت يده اليمنى مرة، وكان عليه إعداد المرافعة لصباح اليوم التالي فقرّر بعدها أن يتعلّم الكتابة باليسرى قائلاً لي: لا مستحيل أمام الإرادة.. وكان على حق، وصار يكتب باليسرى أيضاً وخطه بها مشابه لليمنى.. أبي الجميل الذي يجلس على الأرض في غرفة مكتبه قرب طاولته الفخمة وقد وضع في حضنه لوحاً من الخشب يعمل عليه تماماً كما كان يدرس على البساط أيام «الكتّاب» التي يحدثني عنها. أبي الشبيه بصاحب قصر يقيم في خيمته العتيقة حنيناً وألفة بعدما أعاد نصبها إلى جوار قصره. أبي الحبيب، لا أجرؤ على أن أقرأ رسائله إلى أمي.. أخشى أن أراه جلاداً هو الآخر.. أخشى على نفسي من طعنة كهذه.. أترك رسائله على الأرض، وأقرر تقليب «ألبوم» الصور.. هذه صورة أمي إذاً.. للمرة الأولى أراها، وأتعرّف عليها وسط مجموعة من الصديقات بالرغم من أنني لا أذكرها.. يا إلهي كم تشبه صورها العتيقة صوري الآن.. باستثناء مسحة الشحوب الناحل والحزن في وجهها. أنا حزينة وسعيدة في آنٍ، وهي تبدو حزينة حتى الثمالة...

أم تراها ليست أمي هذه المرأة؟ بلى. إنها هند. إنها أمي. فملامحها تشبه صورة تلك الصبية المنفردة على حدة.. في أعمار مختلفة.. كلما توغلتُ في الألبوم أراها تزداد شحوباً ونحولاً وحزناً.. لها وجه صبية في العشرين ونظرات امرأة عمرها ألف عام، وفي ملامحها ذبول مَنْ خرجت للتو من تحت رمال وئدت تحتها بعيداً عن ضوء النهار.. إذاً هذه هي أمي! كم يشبه وجهها وجه صديقاتي، والفتيات الماشيات في الشارع كل صباح إلى المدرسة.. سمراء.. سوداء الشعر.. جميلة العينين... وجه عربي عادي ومألوف كالتراب.. هذه صورتها مع أولاد عمها وبقية الأسرة. يا للعجب! كان منير شاباً وسيماً وأنا التي كنت أظنه ولد كهلاً هكذا. عفيف

أيضاً. كان كث الشعر وتوهمته منذ البداية أصلع الرأس بشع الملامح.. أتأمل الصورة العائلية طويلاً.. أدخل إلى الصورة، فتصير المرئيات ملونة...أسمع منير يقول لأمي: من هذا المحامي الشاب الذي أرسلته لتخليص ميراثك؟ لسنا بحاجة للمزيد من الفضائح...

تلتفت أمي إليّ وتراني إلى جانبها أطول قامةً منها ولا تبدو الدهشة على وجهها وتقول لي: سأتزوج منه هرباً منهم..

أقول لها: لا تتزوجي منه.. لا تهربي من فخ إلى آخر... لعله فخ!

تقول لي: لا أستطيع.. أنا مضطرة للزواج منه كي أنجبك وهذا مكتوب.. إذا لم أفعل، لن يكون بوسعك الدخول إلى الصورة.. هل تريدين إلغاء نفسك؟

ـ أُريد أن أحذّرك.. هذا شاب وسيم دمشقي تمرّ أسرته بأزمة مالية لكنه متعلّم وطموح ولعله يريد أن يتزوجك طمعاً في ثروتك...

ـ هل تقصدين أن أحداً لن يتزوج مني لأنني عانس أقارب الثلاثين من عمري؟

ـ لا يا أمي...

أكذب عليها. تعرف أنني أكذب. فنحن نتحاور دون أن نحرّك شفاهنا أو يصدر عنا صوت.. يخرج منير علبة كبريت ويشعل عوداً ويهدّدني: إذا لم تغادري الصورة أشعلتها بك وبنا.. لا نريد لهند ابنة وزوجاً وأولاداً يشاركوننا في الميراث.. لا نريدك ولن نسمح لها بالإنجاب!

أحذّرها: أرجوك لا تتزوجي.. تابعي صمودك وحيدة.

تقول: لم أعد أستطيع.. إني أتلاشى...

تتلاشى. ألحق بها في دهليز أسود، جدرانه ستائر من حرير تهب فيها ريح الشواطىء وتفوح رائحة اللاذقية.. رائحة التبغ والملح البحري الشهي وتتعالى أصوات طيور الماء.. وفي آخر النفق ألمح شاطىء «الطابيات».. أحاول أن أسرع في الركض لكنني صغيرة.. بنت صغيرة والستائر السوداء تقف في دربي مثل أيد لامرئية. ها أنا دمية صغيرة ترتدي ثياب عرس سوداء وعلى رأسها إكليل أسود ويد مجهولة تمسك بي من كتفي وترمي بي وحيدة في الفضاء وأترقب لحظة وصولي إلى الأرض لكنني أظل أسقط وأسقط في الفراغ ولا أصل.. وأنام وأنا أسقط... أحلم بأنني أقرأ رسائل أبي إلى أمي..

استخرج رسائل أبي من المغلّف. لا. إنني لا أحلم. كل ما في الأمر أنني لا أجرؤ. لا أريد أن يكون أبي شخصاً آخر في رسائله كما كان عفيف ومنير... بلى. سأقرأ. أريد أن أعرف الحقيقة أياً كانت.

هذه رسالة بعث بها أبي إلى أمي من دمشق إلى اللاذقية.. وبلا تاريخ.. متى كتب أبي لأمي هناك؟ هل كان يعرفها وهي مقيمة هناك؟ يبدو أنهما كانا متزوجين يومها..

رسالة غامضة بلا تاريخ يبدي فيها أسفه لحزنها ويتمنى لها قوة تتغلب بها على حزنها.. متى كان ذلك؟ هل تشاجرا؟ هل هجرته مرة وعادت مدحورة إلى قصر جدي؟ ولماذا لم تعد إلى المدرسة الداخلية وإلى عملها بدلاً من الهرب من دمشق كلها بسببه؟ هل هجرت عملها بعد زواجها؟ ولماذا لم يجبني أحد على هذه الأسئلة يوماً كي لا أعمل محقّقاً يتجسس عبثاً عبر ثقوب الزمن على أمه، ويستجوب حارسات الصمت ولكن بعدما مات معظم الشهود أو دخلوا في مرحلة الفتور واللامبالاة؟

هذي رسالة أخرى منه يبدو أنها في الفترة ذاتها يسأل فيها بقلق عن مرض والدتها متمنياً لها الشفاء مؤرخة في عام ١٩٤٣.. مكتوبة على ورق خاص بالمجلس النيابي. إذاً كان والدي يعمل موظفاً هناك في تلك الأيام إلى جانب المحاماة، أم تراه كتبها مصادفة على أوراق صديق حميم ذهب لزيارته؟ أقرأ.. إنها النبرة ذاتها.. يحرّضها على أن تتجاوز حزنها ويأسها وتعود إلى دمشق سريعاً. لا ذكر لي في الرسائل رغم أنني كنت بالتأكيد قد ولدت. أشعر بالغيرة!.. كيف يهملني هكذا؟!.. وهذي رسالة موجّهة إليها في اللاذقية من لبنان.. يبدو أنه في رحلة عمل.. هل يحاول إثارة غيرتها وهو يحدّثها عن النساء الجميلات في الفندق؟.. تراها انتهزت فرصة وفاة أمها (جدتي) لترتاح قليلاً من زحام البيت الكبير؟ وهذي رسالة يحدّثها فيها عن شوق «الوالدة» وبوران وفيحاء وماوية وفلك لعودتها.

تخيّلتها كما تشف عنها رسائلها اللامرسلة، رقيقة. شاحبة. معذّبة. تشتعل جوعاً للكتابة داخل وكر للدبابير، وأشفقت عليها لأنها لم تكن مثلي شرسة ومقاتلة وترد الصاع صاعين...

أم أنها كانت كذلك؟

أم أن والدها لم يربها لتكون هكذا؟.. أسئلة أسئلة وكل حقيقة اكتشفها تنجب

معها عشرات الأسئلة الجديدة من رحم كبير له هيئة إشارة استفهام على طول الكرة الأرضية وعرضها. لم أعد أعرف أحداً من الذين أعرفهم. هل «عمو» عفيف مناضل أنفق ثروته على أولاد رفاقه من الشهداء أم «فاسد» أضاع ماله في اللهو، أم أنه مزيج من الاثنين معاً؟ وهل كان مقيماً في دمشق لفترة ثم طلب منها توكيلاً لإدارة أملاكها في اللاذقية؟ ومتى سافرت أمي إلى فرنسا؟ وهل حملت هذه الثياب الفاخرة والفراء والمفكّرات ذات الأقفال من هناك؟ الوضع المالي لأسرة جدي غير واضح بالنسبة لي ويزداد غموضاً عبر الرسائل. هل كان جدي وشقيقه، والد منير وعفيف، شريكين متساويين في الثراء أم كان جدي هو الغني؟ وهل سجّل أملاكه أو معظمها باسم أمي وخالتي كي لا يشاركهما ذكور الأسرة الميراث؟ يبدو أن جدي كان الثري وشقيقه أقلّ ثراءً. لماذا؟ هل ضيع ثروته؟ وكيف؟.. ثمة أسئلة أخرى تحيّرني. توقظ نحلها في رأسي هذه الرسائل. عمي عبد الفتاح مثلاً، ترى ماذا كان موقفه من المسكينة أمي، السمراء، النحيلة، المسنّة (في نظره)، التي تكتب في الصحف؟ تراه محرِّكاً لوكر الدبابير، ومحرِّضاً على لسعها كلما حانت الفرص، أم أنه كان يحبها كثيراً؟

هذي رسالة أخرى يعزّيها أبي فيها بالسيدة الوالدة.. إذاً لم يتشاجرا.. لم يؤذها. كانت هناك بسبب مرض أمها ووفاتها.. رسالة أخرى يقول فيها إنه اشتاق كثيراً إلى «زنوبيا». إذاً كان يدعوني زنوبيا يومها؟ لماذا توقف عن ذلك بعد موتها؟ إنه يطلب منها العودة.. ويسألها لماذا تأخرت هكذا قائلاً إن التقاليد عندنا لا تطالب المتزوجة بترك زوجها شهراً لدفن أمها. لماذا لم يذهب هو إلى اللاذقية حين ماتت «حماته» ـ أي جدتي ـ كما هي الأصول؟ ولماذا لم يحضر ليراني على الأقل؟ هل كانت أمي تنوي الهرب من «البيت الكبير»؟ هل انتهزت فرصة موت أمها لتهجره؟ يبدو أنها لم تفعل وإلا لما عادت. بالمقابل لماذا لم تجب على رسائل أبي إليها بدليل توسله إليها أن تكتب له ولو كلمة؟ هل هو حزنها على جدتي أم حزنها منه؟.. أقرأ من جديد محاولةً أن أفهم. هل قام أبي بإيذائها عمداً وبصورة مباشرة، أم أن القتل كان يتمّ، كما هي العادة في أسرتنا، على ما أظن، بهدوء وصمت وبالوسائل الهادئة الفعالة؟ هل شارك والدي في قتلها ولو بسلبيته ولامبالاته أو بتحميلها ما هو فوق طاقتها؟.. غموض.. غموض.. وأنا كمن يحاول أن يتبيّن الوجوه والأصوات في صورة معتمة نصف ممحية أكلها الزمن، وكلما «كبّرها» ازدادت شحوباً وصارت غائمة.

هذا مظروف فيه مقالات لها، مكتوبة على ورق لماع طويل لا أثر له اليوم في

حوانيت بيع القرطاسية. ضايقني أنها كانت تكتب بقلم الرصاص. لا أحب قلم الرصاص لأنه قابل للمحو. وحين يكون بوسعي أن أمحو كلمة كتبتها، فهذا يعني أنني سأقضي بقية عمري وأنا أعيد كتابتها ذعراً من الخطأ.. لا مفر لي من الخطأ إذا أردت أن أفعل شيئاً ما، أي شيء. هذي مقالة تناقش فيها ماري عجمي متحمّسة للمدارس الوطنية وضد رأي ماري.. من هي ماري عجمي؟ كأنني سمعت باسمها في مكان ما، أما أمي هند الراشدي أو اسمها المستعار زنوبيا فلم أسمع به أو بأديبة لها هذا الاسم...

ترى هل نُشرت هذه المقالات؟ وإن كانت قد نُشرت فلماذا لا أجد قصاصات الصحف. أم أنها كانت مرغمة على أن تظل أديبة شفهية، تقرأ مقالاتها في السهرات الثقافية والندوات، فيجاملها الرجال على مواهبها ثم يبتسمون بإشفاق وضجر وهم يتجشأون الثوم والبصل ويهضمون بسرور «فتة المكدوس» و«كرابيج حلب» و«المفتقات» و«الكروش بأبوات» التي أعدتها لهم حين دعتهم لتقرأ عليهم جرح قلبها؟ ومن أرغمها؟ ولكنني قرأت رثاء الشعراء لها في حفل التأبين الذي أقيم لها في مدرج الجامعة. فهل يمكن أن يُقام حفل كهذا لامرأة لم تترك حرفاً مطبوعاً أو بصمة في قلب؟.. أفتش جيداً في أوراقها ولا أجد كلمة واحدة منشورة.. فهل مزّقها أبي؟ ولماذا يمزّقها هي بالذات؟ لماذا احتفظ بالأصل «الواحد» ومزّق ما هو ملك للناس جميعاً؟ هل كان يغار؟ يحقد عليها؟.. يخشى أن أراها وأعيد سيرة أمي؟... وماذا يقول إذا عرف أنني أعيد سيرتها حتى قبل أن أعرفها، وأن أول مقال لي سيصدر ـ إذا نُشر ـ بعد أسبوع أو أسبوعين في بريد القراء حاملاً اسمي الحقيقي وصورتي أيضاً؟.. وحين يصدر هل سيعرف ويتجاهل منتظراً أن أفاتحه أنا بذلك؟.. هل كان ضد أن تكتب أمي؟ لا أعتقد وإلا لما كان حفل التأبين كله والقصائد؟ ما الحقيقة؟ يبدو أنها مراوغة يصعب إلقاء القبض عليها، وغامضة. لا إنها واضحة. لعلّ أبي كان عارفاً وراضياً شرط أن لا تكبر رقعة الكتابة فتلتهم واجباتها الأخرى: آلة لتفقيس الأولاد.. «آلة معطوبة» انفجرت بها مع الولادة الثانية. زوجة منضمة إلى فريق العاملات في المطبخ. ألهذا أحضرتْ جهينة، وكانت الأولى في أسرتنا التي تمتعت بوجود خادمة كما سمعت بوران تقول ساخرة وهي تلعن جهينة وتصبّ جام غضبها على رأسها قبل زواجها الموفق؟ ما الفرق بين أمي وجهينة في نظر القط هارون مثلاً؟

مقهورتان في البيت، سبيتان، وقد تعددت الأسباب والسبي واحد؟ ما هذا الهراء الذي أقوله لنفسي؟ إنني لا أعرف الحقيقة، فهل اختار منها ما يناسب مصالح

نزواتي؟ قلبي يمتلىء بالغضب والحقد مثل إناء من الفضة ممتلىء بالعقارب.. الكراهية تتأجج في دورتي الدموية كأسماك قرش جائعة الأنياب.. وصوت بارد يأتي من أعماقي: كلهن مثل أمك.. جدتك. وبوران وماوية وفلك.. وأنتِ أيضاً.. بدّلي زاوية الرؤية.. اكتبي القصة على لسان جدتك أو ماوية أو بوران أو فلك ولكن بتعاطف معهن، تجدينهن مظلومات. لا.. لسن مظلومات.. السجّانات حارسات الصمت.. بل جاهلات ظلمهن الحرمان من الوعي.. يعود الصوت البارد: إبحثي عن الجلاّد الحقيقي.. يخفت هذا الصوت ويعلو قرع الطبول في رأسي: هل قتلوا أمي؟.. هل تحالفوا عليها ووزّعوا الأدوار؟ ماذا لو كانت هي التي آذتهم وقتلتهم؟ كيف لي أن أعرف إذا لم أقرأ مذكّراتها؟ ولكن أين مذكّراتها؟ يجب أن أفرّغ الصندوق من محتوياته. سأقلّب أولاً بعض الصفحات في روايتها «المرأة الجديدة». أقلّب الصفحات.. مزيج من محاولة روائية ومذكّرات كما يخيل إليَّ. من وجهة نظري، كانت المسكينة تحاول أن تستمر ورأسها فوق الماء.. تعوم وتغرق لأن أحداً لم يعلّمها السباحة جيداً.. تعوم وتغرق لكثرة ما ضربوها على رأسها بالعصي كي تستسلم وتعود إلى الضفة.. دمها يسيل في النهر، ولكنها تحاول الاستمرار.. تطفو.. تكتب. ضربة أخرى.. تغرق.. تعوم فوق الماء كجسد «أوفيليا» في الصورة وهو يعوم وسط زنابق الماء وأزهاره كما رسمها جون ميليس في أحد كتبي المصوّرة الجميلة.. آه كم تشبه أمي أوفيليا في تلك اللوحة، لكنني أقسم أن لا أكون كهاملت أمام موتها.. وسأفعل شيئاً.. لماذا لم تُنشر هذه الرواية؟ ولماذا لا أنشرها عنها؟

لا أدري بالضبط ما الذي ينبغي أن أقوم به، لكنني سأفعل أي شيء، صواباً كان أم خطأً.. أكاد أختنق.. أمضي صوب الشرفة.. في الشارع «مدحلة» يركض دولابها الوحيد المفرد كعين المارد المرعب بوليفيموس، يركض فوق الإسفلت.. ويسوّيه جيئة وذهاباً بهدوء مروع طاحناً كل ما تحته.. أمي ممددة على الإسفلت و «المدحلة» تروح وتجيء فوقها.. لن أكون حصاة مستسلمة.. لن يمرّوا فوقي. وإذا لم أفلح في النجاة، فسأنفجر بهم وبنفسي كأية قنبلة موقوتة.. لن أدعهم يرتّبون حفلي التأبيني كما يشاؤون، ويرشون الشهود، ويتقاسمون دمي في مسرحية المكاسب الغامضة.. لن أدع ساحة المدفع تنام بسلام «ليلة سحقي» كأمي التي مضت بهدوء، لا، ولا جادة الصالحية ولا شارع البرلمان ولا أبو رمانة والمهاجرين والجسر الأبيض وسيدي الشيخ محيـي الدين وبردى وقاسيون والغوطة!

أعيد الرسائل والأوراق وكل شيء إلى موضعه كما كان، ولكن كيف أعيد الغبار؟.. أرفع مجلد رواية «المرأة الجديدة» فتسقط منه ورقة.. أميّز فيها خطها الجميل المنمنم بحروفه التي تكاد لا تُقرأ (والذي لا يشبه خطي الواضح غير الجميل بحروفه الكبيرة)، خطها الصالح لكتابة اليوميات الحميمة والرسائل التي لا تُرسل وصرخات الاستغاثة المولودة تحت كمّامة.. أقرأ على الورقة عبارة: «الانتهاء من كتابة الرواية قبل عام ١٩٤٦. الاشتراك بها في مسابقة الرواية». ماتت المسكينة قبل أن تحقّق أمنيتها بالاشتراك بها في مسابقة للرواية لم تحدد اسمها.

كانت تخطط لعام ١٩٤٦ ومضت.. ففي ذلك الوقت قبل عقد ونيف من اليوم، كانت أمي ترقد في قبرها على شاطىء اللاذقية والمطر يتساقط بهدوء ليغسل شاهدة القبر التي لم أرها لكنني أعرف ما كُتب عليها من تلك الأوراق التي بين يدي.. إنه الشاعر نفسه الذي رثاها هو الذي خطّها.

ترى هل حفروا على شاهدة قبرها الذي لا أعرفه هذه الكلمات حقاً التي أطالعها في بيت شعري؟... وهل فتّت الزمن الحجر وأكلت الرياح الرطبة حروفه يوماً بعد آخر؟ وإذا ذهبتُ سأعجز عن قراءتها كما يفعل الزمن بالحقائق كلها حتى ولو نُقشت على حجر؟!.. أقرّر: سأعيد كتابة الشاهدة على طريقتي. فنحن امرأة واحدة ولدت على مرحلتين!

أعيد الأوراق كلها إلى موضعها من الصندوق، وأحتفظ برواية «المرأة الجديدة»، وأخاطب أمي بصوت عادي كما لو كانت مختبئة داخل أوراقها، داخل أبجديتها وأنا متأكدة من أنها تسمعني: ستشتركين في المسابقة ولو متأخرة عقداً ونيفاً من الزمن. أقسم لك على ذلك!

أتابع تقليب فوضى الرسائل والأوراق وأنا حائرة من أي غبار أبدأ وأية أوراق أطالع وأين تختفي الحقيقة الواضحة؟ أعرف أن جدتي لن تعود قبل المساء، لكن أبي سيعود ظهراً أو قبل ذلك بعد انتهاء المرافعة، فكيف أختار ما يتسع الوقت لقراءته؟ وكيف أجد الورقة التي تحمل السر/ المفتاح وسط ذلك الكوم غير المتجانس من الأوراق المتداخلة بالصور والرسائل؟ وماذا لو اكتشف ضياع مفاتيحه وعاد؟

كنت أتخيل أوراق أمي على نحو آخر: الرسائل في رزم متعدّدة مرتبة مربوطة بأشرطة حريرية ملونة ولكل رزمة لونها الخاص بها. دفاتر، على غلاف كل منها عنوان محتوياتها. من الواضح أن أمي لم تكن نموذجية في الترتيب والنظام كما تخيّلتها بل فوضوية. بالمقابل لم تكن المسكينة تدري أنها ستموت وعليها أن تنظّم

أوراقها لزين الفضولية التي ستحاول التلصص عبر ثقوب الزمن لتعمل محققة بوليسية مع الظلال والأسرار واللامعقول والبياض، ولترى ما الذي حدث في الماضي الزئبقي المراوغ الهارب. أما الذي جمع أوراقها فيما بعد فمن الواضح أنه كان على عجلة من أمره كأنها تكهربه. رماها في قاع الصندوق كمن يرمي في قاع البئر بسرّ يُثقل كاهله ويريد التخلّص منه في أسرع وقت!).

بقيت زين متحجرة دقائق طويلة ثمينة تتأمل بقية الأوراق التي ظلت تملأ أكثر من نصف الصندوق بالرغم من كل ما أخرجته منه.

لاحظت أنها نسيت أن تعيد إلى الصندوق المغلّف الذي يحوي قصيدة عدلون الشعلاني ولم تجده حولها على الأرض. فدست يديها من جديد في الصندوق وبدأت ترفع الأوراق والصور والدفاتر مفتشة عن المغلف الذي كانت القصيدة فيه. ثم نسيت ذلك وصارت تفتش في قاع الصندوق كما لو أن السر لا بدّ وأن يرقد في أكثر زواياه ظلمة وأبعدها عن مطال اليد. وخرجت بعدة دفاتر مذكّرات كتب عليها تاريخ الأعوام بالفرنسية، ومعظمها سنوات غابرة قبل أن تولد زين. امتلأ قلبها بفرحة عارمة: ستعرف الحقيقة وترتاح. حاولت فتح الدفتر الأول وفوجئت بأنه مقفل. كانت دفاتر المذكّرات تلك كلها جلدية الأغلفة ذات قفل صغير محكم ولا يمكن فتحها إلا بالمفتاح. ولكن أين المفتاح؟ ازدادت روح زين اضطراباً. كلما اقتربت من السر أدركت أنها ابتعدت عنه أكثر مما كانت عليه، وشاكسها وهرب منها.. **(أين الحقيقة؟ أشعر أنني كمن يطارد هدفاً متحرّكاً على صفحة الأمواج وكل شيء يصطخب ويتحرك. وما تكاد اليد تتوهم أنها أمسكت بشيء حتى ينزلق من بين أصابعها كزئبق مراوغ).**

حاولت أن تفتح طرف أحد الدفاتر لتتلصص ولو على بعض العبارات فقد تجد عبارة/ مفتاحاً. وقعت عيناها على جمل يُمكن تفسيرها على الوجهين، وبدا لها ربع الحقيقة أكثر خداعاً من الكذب؟.. قرأت عبارة «حقائق كاذبة وأكاذيب حقيقية» بخط أمها المنمنم الجميل الذي يبدو وكأنه مسطّر بريشة طائر، كأن أمها انتزعت ريشة من جناحها هي وكتبت بها، وها هي مثل عصفور أبيض يحلّق فوق أوراق الصندوق ورسائله وصوره وغباره وعثه وحشراته اللامرئية.

«حقائق كاذبة وأكاذيب حقيقية»! ذُهلت زين وقد غمر أعوامها الستة عشر شعور بالخيبة المذهولة، وهي الجائعة إلى أبيض وأسود، إلى الوضوح. وخيّل إليها أن أمها تراوغها بالدفاتر التي لا يُمكن فتحها إلا بمفتاح لعلّه يرقد الآن معها في القبر

أو في قاع البحر.. تراوغها كسحابة. وكلما توهمت أنها اقتربت منها وصار بوسعها أن تمسك بها أمعنت هرباً وانزلاقاً أثيرياً من بين أصابعها. بالرغم من ذلك كله أسرتها العبارة: «حقائق كاذبة وأكاذيب حقيقية» كأنها تصور باختصار كل ما تجده حين تفتش عن حقيقة أمها وكل من حولها.

لم تجد زين ما تبحث عنه خارج دفاتر المذكّرات محكمة الإقفال إلا إذا كان السر الكبير لا يبدو سراً. أحضرت دبوس شعر وحاولت أن تعالج به القفل الصدىء في أحد دفاتر المذكّرات وفشلت. عادت إلى بقية الأوراق تقرأ قليلاً هنا وهناك بحثاً عما يشدّ انتباهها أو يحمل لها أجوبة عن أسئلة لطالما عذّبتها. لا تجد شيئاً.

(هذه مسودة رسالة منها إلى خالتي لبابة، كرّستها للحديث عن جلسة في منتدى سكينة حول التعليم الإلزامي بالعربية وكانت تتشاجر مع أديبة أخرى ترفضه، هذا إلى جانب خططها لقضاء إجازة في بيتٍ بين أرصون وحصرون بلبنان يملكه آل حريز).

فتشت زين عن اسمها وعن مشاعر أمها نحوها، فلم تجد غير شكوى في إحدى الصفحات من هشاشة صحة «زنوبيا» وذلك بعد عودة أمها بها من عند الدكتور مريدن. (**إذاً كانت تدعوني زنوبيا؟ لماذا إذاً يسمّيني أبي زين؟**). تتابع قراءة الرسالة. ها هي هند تشكو لأختها لأنها لم تنم الليل بسبب «زنوبيا» التي التهب طعمها ضد الجدري وظلت تصرخ طوال الليل. وجدت زين تفسيراً لأثر طعم الجدري المدموغ بشدة حتى التشويه على فخذها وشعرت أيضاً بشيء من خيبة الأمل!

(حسناً ماذا كنت أنتظر؟ أن أجد حواراً فكرياً بينها وبيني كما أتخيّل دائماً الصلة بيني وبين أمي؟ لماذا أخترع الأوهام ثم أغضب إذا لم تتحقق؟ ولماذا تبهرني أمي التي تصف ما تكتبه في مذكّراتها بأنه «حقائق كاذبة وأكاذيب حقيقية»؟ أليس نصف ما أخطّه في دفتر مذكراتي من صنع خيالي ونصفه الآخر من صنع أمنياتي؟ يكفي أمي صدقاً أنها تسمّي الأشياء بأسمائها. تراها حقاً كانت تفعل أم أنها تكتب مذكّراتها بالشيفرة خوفاً من الذين حولها؟ أهي ناصعة بيضاء كما أراها في أحلامي، وأرى كل من يحيط بها فاحم السواد؟ لا يمكن لأمي أن تكون إلا كما تخيّلتها. لا تستطيع أن تكون شيئاً آخر. الصوت الذي يقطنني ويسخر مني باستمرار يقول لي: إنك تفصّلين أمك على مقاس مصالحكِ وتخترعين أماً غير موجودة لتلقي عليها تبعة «أخطائك» التي تعتزمين ارتكابها! أجيبه: ولكن هل الكتابة خطأ لمجرد أن أبي ليس متحمساً لها؟

يعود الصوت الساخر: تدّعين باستمرار أنك عنيدة مثل أمك ولن تدرسي الطب بل الأدب. من قال لك إنها كانت عنيدة؟ ومن قال لك إنها لم تشته دراسة الطب مثلاً ولم تفلح؟ إنك تستحضرين أمك لاستعمالاتك الشخصية الأنانية وترسمين لها الصورة التي تناسبك وتلقين على عاتقها مسؤولية ما تعتزمين القيام به وتتضايقين فوق ذلك لأن والدك يختار «حقيقة» قومية للملكة زنوبيا!

تراني أفعل ذلك حقاً؟ هل أحاول أن أخترع أماً مظلومة كي أنتصر لها كما البطل في السينما؟ تراها كانت ببساطة زوجة سعيدة بعض الأحيان وأماً جيدة بعض الأحيان وتحب الكتابة بعض الأحيان وعذاباتها غير عذاباتي وقضيتها غير قضيتي؟ ولكن ما هي قضيتي؟ أن أعرف الحقيقة؟ أن أكتب؟ هل هذه قضية أم حماقة؟).

شعرت زين بالتعب والضيق وبما يشبه الندم وهي تقلّب الأوراق ولا تجد ما يروي غليلها.. تتابع البحث. ثمة رسائل وأوراق رسمية ورسائل وصلتها من الناس ومن أسرتها، وأحاديث عن الميراث وأوراق الطابو وبساتين اللاذقية والقصر وجواز سفر عتيق توقفت زين عنده طويلاً وقرأت أوصاف أمها وفوجئت بقصر قامتها وهي التي تراها في أحلامها طويلة كزرافة.

أوراق وأوراق...

أوراق كثيرة عادية كما لو كانت أمها امرأة عادية (لا ريب في أن أبي كان يحبها وإلا لما احتفظ حتى بالتافه من أوراقها).

بالمقابل ثمة أوراق تنمّ عن امرأة نادرة كما هي في مخيّلة زين وأهمها رسائل من تلميذاتها المغرمات بها.. من س. مردم بك مثلاً، ون. غزّي، وأ. عائدي وعشرات سواهن. هل كن سيكتبن لها هكذا لو كانت امرأة عادية؟ يجيبها من داخلها الصوت الساخر إياه قادماً من أعماقها: (هل نسيتِ أنك أنتِ أيضاً كتبت رسالة إعجاب إلى معلمة خانم ناهدة قبل خمسة أعوام ولم تجروئي لحسن حظك على إعطائها إياها وأنت اليوم كبرتِ وتجاوزتِ اعجابك بها ولا تطيقين مشاهدتها وتشعرين بالضيق كلما وقعت عينك عليها على الرصيف الثاني؟ وهل تذكرت خزيك بإعجابك بها قبل أن تظهر على حقيقتها وتضربك بالمسطرة على يدك ظلماً لمجرد أنها سمعت صوتاً قادماً من الناحية التي تجلسين فيها وأنت بريئة؟ شهادة تلميذات أمك بها لا تعني بالضرورة أنها رائعة وقد تعني أنهن مخدوعات. العقل يا زين. عودي دائماً إلى عقلك المحايد البارد).

تتابع تقليب أوراق أمها. لا تجد شيئاً يؤكد لها صورتها الثابتة عنها وبالمقابل لا تجد ما ينفيها تماماً. تعي للمرة الأولى أن ثمة ألغازاً لا يمكن حلها بشكل نهائي، وثمة متاهات سوداء تقود إلى متاهات أخرى رمادية. تكتشف بدهشة أن ذلك يلذ لها وأن حب الأسرار يقود إلى المزيد من شبهوة معرفة الحقيقة. تذوق زين للمرة الأولى لذعة مشاعر غامضة لا تدري كيف تعبّر عنها، وصدرها عارم بحب الأسرار التي قد تقود إلى المزيد من الأسرار. ليس بوسعها أن تفهم تماماً ما تعنيه أمها بالحقائق الكاذبة والأكاذيب الحقيقية، ولكنها تنبهر بعالم جديد ينفتح أمام عينيها **(هل كان ثمة سر في حياة أمي أم لا سر. مجرد حياة هادئة؟ هل كانت أمي حقاً شهيدة أم مجرد زوجة أخرى عاثرة الحظ خذلتها صحتها وماتت خلال الولادة؟ هل كانت نبيّة معذّبة كما يحلو لي أن أرسمها وأعتبر نفسي امتداداً لها لأخترع لنفسي قضية وأبرّر هوسي بالكتابة منذ عرفت أنها كانت كاتبة، أم أنها كانت أماً مرتاحة وامرأة كسولة بعض الشيء تكتب حين تجد وقتاً ولا تعتبر الكتابة قضيتها الأولى والأخيرة؟ وهل أحاول اختراع نفسي من خلال رسمي صورة وهمية لأمي؟ لم أعد أدري شيئاً. . .)**.

ما تكاد زين تقترب قليلاً من فهم فكرة ما، حتى تبدو لها معقدة. تشعر بالتعب وهي منحنية هكذا على الصندوق في غرفة نوم والدها فتحمل مجلد رواية «المرأة الجديدة» ومغلّف «سلبيات» الصور وتجلس على السرير. تمسك بإحدى «سلبيات» الصور وتحاول أن تتبين معالم الصورة داخل ذلك السواد المرقط بالبياض وقد انعكس كل شيء، فمآقي العيون بيضاء والأسنان سوداء. تديرها صوب الضوء الآتي من النافذة فتزداد الصورة مراوغة كلما ازداد الضوء فوقها سطوعاً! تتأملها واحدة واحدة وتلاحظ أنها تبيّنت شيئاً واحداً فيها هو أنها كلها تمثل شخصين في الصورة امرأة ورجلاً على الأرجح. تعيدها إلى المغلّف الذي يكاد يتمزق وقد أكله العتق والزمن.

تفتح الدفتر الذي يُفترض أنه يضم رواية «المرأة الجديدة»، فتقرأ في الصفحة الأولى من الرواية: «وضعتُ لهذه الرواية عنواناً فرعياً هو «ألم وكبرياء» كما كتبت لها ثلاث خواتم ـ الخاتمة الأولى سعيدة، والخاتمة الثانية حزينة، والخاتمة الثالثة لا سعيدة ولا حزينة بل فيها من الاثنين كما يحدث في الحياة غالباً. أريد طبع كل خاتمة على حدة ووضع الخاتمة السعيدة في مغلّف أبيض والحزينة في مغلف أسود والثالثة في مغلف رمادي. تُباع الرواية مع خاتمة واحدة. من يريد شراء خاتمتين مضطر لشراء الكتاب مرتين. هذا العقاب/ الغرامة هو الوحيد الذي يخطر ببالي لمن

لا يعرف ماذا يريد ويريد مخالفة إرادتي كمؤلفة: سأغرّمه ثمن كتاب!».

تشعر زين باستمتاع كبير. ها هي تلمح في ومضةٍ وجه أمها كما رسمته في خيالها. تقلّب صفحات الكتاب وتقرأ وتجذبها الحكاية فتنسى نفسها والزمن وتشعر أنها تتعرف في السطور على أمها كما حلمت بها. يُذهلها أن تلتقي بحقيقة أمها كما تراها ولكن داخل عمل روائي خيالي وليس داخل أوراقها الحياتية اليومية. أية واحدة هي أمها؟ امرأة الحياة العادية أم امرأة الرواية أم امرأة المذكّرات التي عجزت عن فتحها لقراءتها أم امرأة مختلفة عن كل أولئك؟

تنسى زين نفسها وتقرأ وتقرأ وتغرق في ثورة بطلة رواية أمها ضد كل شيء: شيخ الجامع الذي عمَّره جدها، وجدها ووالدها والأسرة والمؤسسات، والنساء الخانعات مثل صديقة بطلة الرواية المستسلمة لقدرها. بهر زين المشهد الذي تركب فيه البطلة على الحصان هاربة من قصر والدها لتعمل مدرِّسة متحدّية التقاليد كلها...

(آه ألغاز! هل أمي هي ذلك الإنسان الثائر ضد كل شيء الذي يريد تبديل العالم، أم أنها تلك المرأة المسترخية داخل عالمها الصغير السعيدة به أو المستسلمة له؟ هل كانت ثائرة ثم روَّضها أبي وأعادها بالحب واللطف إلى حظيرة رفضتها رغم السوط المرفوع عليها؟ هل كان ثمة سرّ ركضتُ خلفه هذه الأعوام كلها واستجوبت كل من عرف أمي عن أمي، أم أنه لا سر؟ لعلّ حل اللغز كله يكمن في مذكراتها، ولكن كيف أطالعها وهي مقفلة هكذا ولا أجرؤ على كسر القفل وإغضاب أبي إذا اكتشف ما اقترفته؟ أم أنه لا سر؟ بالمقابل، أية أسرار تقطن امرأة تدعو الأشياء في مذكّراتها «أكاذيب حقيقية وحقائق كاذبة»؟ ماذا لو أن أملي الوحيد المتبقي في اكتشاف أمي كان وهمياً؟ ماذا لو أن معظم «ذكرياتها» لم يحصل لها قط كمعظم مذكراتي؟ كيف أتعارف مع تلك المرأة اللغز؟ لم أكتشف شيئاً كثيراً يروي غليلي لمعرفة أمي فيما قرأته حتى الآن من أوراق، ولكن ذلك يقرّبني منها أكثر. إنني أحبها لأنني فيما يبدو أحب التوغل في الأسرار التي تقود إلى أسرار والحقيقة التي ليست بيضاء أو سوداء كما كنت أتوهم، كأن الرمادي هو الحقيقة الوحيدة وعليّ أن أستقل عن أمي وأدعها وشأنها لأعيش حياتي أنا).

تتابع زين القراءة وتغرق في الزمن وتنسى الوقت. تصحو على الأنين المعدني العالي الشبيه بالنواح الذي تصدره سيّارة والدها «السيتروين» كلما عاد بها إلى الوراء لإيقافها إلى جانب رصيف الشارع. تقفز ملسوعة نصف مذعورة. تعيد دفاتر

المذكّرات والرسائل وألبومات الصور عن الأرض إلى الصندوق. تحاول عبثاً أن تعيدها كما كانت، وكل محاولة تزيد في نبش محتويات الصندوق وتخريبها عما كانت عليه. بصعوبة تغلقه. تحاول أن تقفله ولا يدور المفتاح في الثقب الصدىء للقفل. حين تفلح في إقفاله تعي أنها نسيت الرواية على السرير مع مغلف سلبيات الصور، (لا لقد أعدتها. لا. لم أُعدها!). تقفز زين عائدة إلى السرير وتتأكد من أن أسوأ مخاوفها قد تحقق. تعود بالرواية والمغلف لتعيد فتح الصندوق وإخفائهما فيه مع قصيدة عدلون الشعلاني التي وجدتها لا تزال على أرض الغرفة وقد انزلقت تحت طرف السرير. تسمع والدها وهو يُصدر ذلك الصوت الخاص من مفاتيح السيارة وهو يحركها داخل يده، كي تفتح له الباب بعدما نسي مفتاح الباب وبقية حلقة مفاتيحه الثقيلة في البيت. تتردد وتحار. يرن الجرس. تركض نحو غرفتها وتخفي الرواية والمغلف والقصيدة تحت السرير. تقفل عائدة لتترك المفاتيح في المكان الذي نسيها فيه فوق السرير. تفتح له الباب أخيراً وهي تلهث. يُلاحظ اضطرابها. يعرف أنها تخفي شيئاً ما، ويعرف أنها لن تقول له الحقيقة إذا سألها عنها، فيصمت ويتجاهل! تلك الليلة لم تنم زين. حلمت أنها نجحت في فتح قفل الصندوق الصغير المصنوع من الفضة المذهّبة لتجد فيه السر، فوجدت داخله صندوقاً آخر مثله وأصغر حجماً. وأقسرته على الفتح كما الأول، فوجدت داخله صندوقاً آخر مشابهاً وأصغر حجماً وهكذا إلى ما لا نهاية.. حلمت أيضاً أن والدها تفقّد الصندوق واكتشف أن يداً عبثت به واستولت على الرواية وسلبيات الصور وقصيدة الشعلاني منه. واستيقظت زين معذّبة قلقة: ترى هل سيعرف والدها ما اقترفته؟ وما الذي سيفعله ببقية الأوراق لحرمانها من الاطلاع على أسرارها؟

* * *

حين أعطت زين مغلف «السلبيات» العتيقة للمصور في «الشعلان»[1] ليظّهرها لها، نظر إليها بكثير من الريبة. شعرت أنها مدينة لشكوكه بتوضيح وخافت ألا يساير لهفتها إلى معرفة ما في هذه «السلبيات» الغامضة بأسودها وأبيضها، فقالت: أبي طلب مني أن أحملها إليك ويرجوك أن تعطيه «خصماً» في السعر لأنها كثيرة.

بدا المصور مطمئناً إلى الأمر بعدما لفظت زين عبارة «أبي». وحين حصلت على الصور أخيراً مظّهرة بعد أسبوع وهي تتمنى أن تجد فيها جواباً عن أسئلتها،

(١) حي في دمشق.

فوجئت بأن الصور كلها كما بدت لها على خلفية مضيئة تمثل رجلاً وامرأة: سيدة تشبهها كثيراً، هي فيما يبدو أمها، ورجل بشارب مضحك مثل شارب هتلر هو والدها ويبدوان سعيدين معاً والصور تمثلهما أمام غابات لعلها في لبنان وفي أماكن أخرى بينها صورة أمام العين في الريحانية.

(إذاً قضى والدي وأمي لحظات سعيدة معاً. أي سر في ذلك! وأية غرابة؟ وأي شيء أكثر «عادية» من ذلك؟ أي زوجين مطلّقين لديهما ما يشبه هذه الصور التي لا تقول لي جديداً حقاً، لكنها تحزنني. لا تحل لغزاً، لكنها موجعة تلك اللحظات السعيدة الهاربة بلا عودة وقد تمّ تحجيرها على ورقة، مثل فقاعة التقط لها شخص ما صورة قبل أن تنفقىء.. وهكذا كلما توهمت أنني ازددت اقتراباً من معرفة الحقيقة زادت من سخريتها مني ومواربتها لي).

* * *

تسلقت زين السلم الخشبي الخاص بالرفوف العليا للكتب، وفتّشت في مكتبة والدها التي تغطي الجدران من الأرض حتى السقف عن كتاب خفيف تطالعه قبل النوم هرباً من كتاب الثعالبي «يتيمة الدهر» الذي نصحها والدها بقراءته وهي لمّا تنجز بعد قراءة «العقد الفريد»!

إلى جانب كتاب «البخلاء» للجاحظ فوجئتْ بديوان شعري اصفرّت أوراقه للشاعر «البدوي العربي الكبير» كما يلقبونه في مجلة «الثقافة»: عدلون الشعلاني الذي طالما سمعت زين به وقرأت عنه أيضاً في جريدة «النقّاد». في الصفحة الأولى من الديوان وجدت زين إهداءً إلى «الأديبة الكبيرة هند الراشدي»! وفي أسفل الصفحة بيت شعر بخط يده يقول: «أتى الناس مسرعين لرزقهم/ وجئت ولكن بعدما قسم الرزق ـ عدلون الشعلاني». تذكرت زين أنها تعرفه ولا تعرفه **(اصطحبني والدي معه إلى الأمسية الشعرية للشاعر عدلون الشعلاني بعدما لاحظ سعادتي قبلها بأيام في ندوة الشاعرة عزيزة هارون بعد طلعت الرفاعي[(١)].. أذكر بوضوح أنه قبل بدء الندوة صافح الشاعر عدلون الشعلاني الحضور كما صافح والدي بشيء من الجفاء ثم لمحني وسأل: ما الذي تفعله هذه الطفلة هنا؟ أهذه بنت هند؟ أومأ والدي بالإيجاب. انحنى الشاعر شاهق القامة، صافحني وقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول: سبحان الخالق، كم تشبه هندا! إنها نسخة عن المرحومة.**

---

(١) شاعرتان سوريتان اشتهرتا في الخمسينات.

لعلّي كنتُ في الثانية عشرة من عمري يومها. ثم سأل أبي: ما اسمها؟ أجاب: زنوبيا. قال عدلون الشعلاني: إذاً هذه زنوبيا!

قرأ قصائده ولم ينتزع عينيه من عينيّ، كأنه يرى عبرهما عينيّ أمي، أم أن ذلك خيّل إليّ؟ لم أفهم كل ما قاله، لكنني شعرت أنني أخطو إلى عالم مسحور أعشقه ولا أدري ما ينتظرني فيه، فرحة متصلة أم انهيارات؟).

***

وجد عدلون الشعلاني أمام باب بيته صبية في انتظاره قدَّر أنها في السادسة عشرة من عمرها، تضمّ كتبها المدرسية إلى صدرها.

كان ثملاً. ظنّها واحدة من المعجبات، ولم يكن لديه فارق كبير حين يكون ثملاً بين صبية في الرابعة عشرة من عمرها أو أرملة في الأربعين أو الستين.

بعد هند الراشدي «المقدسة» النائية المستحيلة لم يعرف حباً أو هياماً، وهو حب مكتفٍ بذاته إذ لم يحلم يوماً بالزواج بين هند الجميلة الأرستقراطية الذكية وقمل عباءته! ولو رضيتْ، لهرب!! .. كان بحاجة إلى حب امرأة ترفضه كي يظل يحلم بها ويكتب عنها بدلاً من التورّط في الزواج والإنجاب والأولاد والتفاصيل المروعة، وكانت هند الحب النموذجي لأبجديته.

قال لزين بغلظة شبه مداعبة: هيا ادخلي واخلعي ثيابك.

دخلت ولم تخلع ثيابها. قالت له وحمرة الخجل تصبغ وجهها: سأكلمك باللغة العلمية. جئت أولاً لأسألك عن سيدة يبدو أنك كنت تعرفها، وثانياً لسبب أجهله لعلّه الفضول، وثالثاً لأنني أتمنى مشاركتك في ندوتك الأدبية في اللاذقية بعد أسابيع كما قرأت وأتمنى أن تقدّمني إلى الناس. قهقه مخموراً: هل تظنين نفسك الخنساء؟

أجابت بهدوء: إنني أفضل منها! إنني أكتب القصة. انفجر ضاحكاً: القاصات كثيرات في سريري، لكنك تبدين لي صغيرة السن. كاد الخجل يغلبها وأحسَّت بحاجة للهرب. تماسكت.

شعرت زين بأن الحوار مستحيل مع هذا الثمل المهذار البذيء، وقررت إيقاظه بمحاولة أخيرة، فقالت له: اسمع هذه الأبيات من قصيدة جميلة وجدتها بين أوراق أمي تحمل توقيعك هديةً منك إليها.

أرهف السمع وقد تولاه الذهول وهي تقرأ له أبياتاً من القصيدة التي وجدتها بين أوراق أمها مكتوبة بخط يده. وسألها مذعوراً وهو يحدّق فيها كمن يحدّق في شبح: من أنتِ؟ ظلّت صامتة.

انهار كمن تكسّرت المرايا فوق رأسه. بدا عليه أنه صحا من سكرته تماماً وهو يسألها: من أين أتيتِ بهذه الأبيات؟ هل أنتِ شبح هند أم زنوبيا ابنة هند؟ دفن رأسه بين يديه وراح ينتحب بلا صوت وجسده يرتجف وهو يقول: لأن أحداً لا يعود، أنتِ لستِ شبح هند، ولعلّك ابنتها. هزّت زين رأسها بالإيجاب، فأضاف: اعذريني يا ابنتي على ما بدر مني. رحم الله أمك، كانت سيدة مثقفة وفاضلة، ولا تزال حية في قلبي وما زال شبحها يهيم هنا في بيتي، وأينما ذهبت وتوجهت أجد شبحها في انتظاري.

ـ أعرف.. منذ قرعت بابك سمعت صوتها يجيبني من الداخل!..

تأمّلها وهي تقول ذلك مذهولاً وظن أنه دخل نهائياً في مرحلة الهذيان. لا يدري كيف تذكّر تلك البنت الصغيرة التي حملها منذ أربعة أعوام بين ذراعيه (كأنها البارحة)، الطفلة التي كان يمكن أن تنجبها له هند لو تزوجا!.

سألها بحنان أبوي مفاجىء: هل يعرف والدك أنك هنا؟

ـ لا...

ـ ما الذي تفعلينه، أعني هل أنت متزوجة؟ هل درست؟

هزّتها لهجته الأبوية ونسيت بذاءته ووجدت نفسها تصارحه باندفاع مراهق: سأدرس الطب.. لكنني أحب الأدب وأحب والدي الذي يريدني طبيبة.

ـ إنه على حق يا ابنتي.. الأدب جرثومة مؤذية لصاحبها ولعلّك ورثتها عن أمك رحمها الله. هيا. تعالي. قفي في الضوء لأراك جيداً.. أنت تشبهينها. تأملها بهدوء وتابع: لا. أنت فقط تشبهينها للوهلة الأولى، ولكنك مختلفة. أنتِ صلبة وبوسعك أن تكوني قاسية. أنتِ خجولة ولكن بوسعك أن تكوني جريئة. أنت النسخة العصرية المنقّحة عنها، أما هي فطفلة الزيزفون والصفصاف والعذوبة.. لا أحد يشبه هند.

غادرته خلاعته تماماً وهو يسأل زين ويغضّ الطرف بعفة عن نضارتها المراهقة: ماذا تريدين مني يا ابنتي غير تقويض نسياني، وقتلي؟ كان يرتجف تحت وطأة الذكرى حين قالت: أريد أن تحدّثني عن أمي، فأبي يرفض ذلك.. وأريد أن

أكون كاتبة. أريد أن تقول لي من أين أبدأ. أبي يخاف عليَّ ولا يريد. . .

ـ هل فاتحتِه بذلك؟

ـ أحبه ولا أجرؤ على مفاتحته بشيء. إنني أفعل كل ما يرضيه.

همس: مثلها تماماً. . .

ـ مثل من؟

ـ لا شيء يا ابنتي. والدك على حق. . من الأفضل لك نسيان أمك. . والأدب.

ـ إنني لا أتذكرها. إنها تقطنني. إنها أنا. . زين. .

ـ اسمعي يا زنوبيا، وهذا هو الاسم الذي كانت أمك تتمنى إطلاقه على ابنتها. . الأدب ليس نزوة مراهقة. عليك أن تعملي طويلاً. . أستطيع أن أفرضك في ندوة في الاسبوع المقبل وسيصفق الناس لنضارتك ليلتها ثم ماذا؟ هل تريدين الانتقام لأمك التي خنقها الزواج أدبياً وإيلام الآخرين بذكراها أم العطاء حقاً؟

قالت زين: لا أعرف حقاً!

ازدادَ ارتجافاً كمن دهمته حمى. لاحظت زين للمرة الأولى أن أسنانه الأمامية مقتلعة وأنه مهترىء كذئب عجوز. غمرها شيء من الحنان عليه وقالت: أعذرني. أنا حائرة. . .

ـ ستظلّين كذلك حتى بعد أن تبلغي الأربعين فالخمسين فالستين مثلي. الفنان حائر إلى الأبد. . وأنا مريض جداً يا زنوبيا. قالها وتمدد وهو يرتجف.

صمت طويلاً. قلقت. جسّت جبينه بيدها. خيّل إليها أن الحمى تلتهمه. غمرها الذعر. أحضرت ثلجاً من البراد وهالتها وساخته وخلوّه من الطعام وكثرة الصراصير في المطبخ. لفّت الثلج في خرقة قذرة شعرت بالتقزز وهي تلمسها وغطت جبينه بها. راح يهذي وهو يحدّق فيها بعينين غائمتين: هند. . هند. . .

أجابت: لست هند. أنا زين. حسناً، أنا زنوبيا. سأحضر لك طبيباً. فكف عن الكلام والحركة وأغمض عينيك واسترخِ!

ثم أضافت: اللعنة! ما من هاتف في هذا البيت للاتصال بطبيب.

قال لاهثاً: اللعنة كم أنت واقعية وعملية كوالدك. . لا صلة لك بهند.

أجابت: لعلّي الجسر بينهما. . أرجوك أن تحدّثني عن أمي بالتفصيل.

عاد يهذي: أنتِ هند. . . أرجوك يا هند. . لا أريد أن أرحل قبل. . وصمت. . وانتظمت أنفاسه وبدا وجهه مسترخياً ومنهكاً تحت وطأة الشراب. .

لملمت أوراق قصتها القصيرة التي كانت قد حملتها إليه ليقرأها ومضت إلى مدرسة محو الأميّة لتغرق في عيون أطفالها هاربةً من دنياه المضطربة المعذّبة التي لا تخلو من حنين غامض إلى ما لا يبوح به.

* * *

تنتظر زين الشاعر عدلون الشعلاني أمام باب بيته كي تسأله من جديد عن الحقيقة، عن أمها، وتدعو الله ألا يكون ثملاً حين يعود.

(قبل أن أزوره للمرة الأولى، كنت قد تخيّلت بيت الشاعر البدوي الكبير عدلون الشعلاني على النحو التالي: قصر صحراوي كقصر الحيرة مرفوع على سحابة. تهبط السحابة حين يشاء عدلون استقبال ضيف ما، فيصل الطرف الأسفل للسلم حتى رصيف الشارع، وأتسلق درجاته العاجية وأجد الشاعر جالساً في بلاطه محاطاً بحاشية من المعجبات، لهن كلهن وجه كوجهي، وهو جالس على عرشه، وعرشه كرسي اسطوري يشبه كرسي سيدنا سليمان عليه السلام الذي صنعه الجني صخر من أنياب الفيل وطعّمه بالياقوت واللؤلؤ وزيّنه بنخلتين وطاووسين من الذهب ونسرين بأجنحة متحركة).

ضاقت ذرعاً بالانتظار وقررت أن تبقى خمس دقائق أخيرة كي لا يقلق والدها لغيابها غير المبرر عن البيت.

(كنت قد أرسلت إلى مجلة «الدنيا» رسالة أرجوهم فيها نشر عنوان الشاعر الكبير عدلون الشعلاني، ولم أصدق عينيّ حين فوجئت بالرسالة منشورة وموقّعة باسمي الذي يبدو اسماً مستعاراً «زنوبيا» مع الإجابة: عنوان الشاعر.

وهكذا وجدني الشاعر جالسة أمام باب بيته في انتظاره في المرة الأولى ولم يسألني كيف اهتديت إليه. وهكذا مشيت إليه ثانية كالمنوَّمة بدءاً بطريق الصالحية ثم انعطفت أمام مدرسة الفيحاء وبوابة الصالحية صوب السبع بحرات وعيناي لا تريان الشوارع بل تسترجعان لقاءنا السابق. لاحظت أكثر من المرة الأولى كم أن بيته عتيق ونصف مهدّم. حين رنّ الجرس لم يُفتح الباب. دفعته بيدي وفوجئت بأنه مفتوح. دخلت خائفة أن تسقط الأرضية الخشبية المسوسة تحت قدميّ، وغمرتني وحشة في باحة المدخل الشبيهة بمرآب مهجور. كل ذلك لم ألاحظه جيداً في المرة الأولى.

المفاجأة الحقيقية كانت حين سقط الضوء عليه وقد وقف على قمة السلم.. حدق بي ولم يتذكّرني ونسي حوارنا الماضي حين كان ثملاً ومحموماً ومرّضته. كان

قد تبدّل حقاً منذ أسبوعين عند زيارتي الأولى له. شاهدته رجلاً يشبه الهيكل العظمي مترنحاً حتى إنني دهشت حين لم يقع فوقي متدحرجاً حتى أسفل السلم. وحين استرد أنفاسه وكلّمني قال بلهجة بدوية: هل أنت جنّية أم أنسية؟ سروري بلقائه ثانية فكّت عقدة لساني فتطابق قولي مع إحساسي وقلت له: لا أعرف. إنني أخلط كثيراً بين كوابيسي وأيامي. بين ذاتي وقريني. لا أعرف هل أنا بنت أم شبح. حيّة أم ميتة. قلتها وأنا أصعد السلم، وهو يهمس: اقتربي فقد شحّ بصري. دعيني أراك في الضوء. لستِ صاحبة البيت التي تطالبني بالإيجار، فهل أنت ابنتها، وأية رياح قذفت بك إليّ؟

كنت قد تخيّلت اللقاء الثاني مختلفاً كأن يحملني خَدَمَه لأركب فرساً بيضاء تمشي بي حتى عرشه ويساعدني على الهبوط ثم يركع أمامي...

ولكنه أمامي تفوح منه ثانيةً رائحة الخمرة شبيهة برائحتها في الربوة يوم ثار أبي وبدّل المقصورة بعيداً عن الشبان «البَبَحَسَن النوَر»[1] الثمالى.

ومن الواضح أنه لا يستطيع الركوع أمامي كأي فتى أحلام فركبته المرتجفة تشي بالروماتيزم وبقية أمراض جدتي.. أما وجهه وجسده فلا صلة لهما بصوره في الصحف. إنه رجل يشبه الهياكل العظمية في كوابيسي، لكن ابتسامته على «جمجمته» تأسرني بطفولتها، وعباءته نصف المهترئة تذكّرني بـ«دون كيشوت» الذي أحببت ما كتبه عنه سرفانتيس في كتاب سبق لجوليييت أن أهدتني إياه. تابع عدلون الشعلاني وأنا أصعد صوبه، ومن الواضح أنه نسي زيارتي الأولى ويكاد لا يراني: هل أنت «عروس الشعر»؟ ارتبكت. تذكّرت نحولي وسمرتي وغمرني الخوف من أن يراني بوضوح ويعرف أنني لست «عروس الشعر» ويطردني فقررت الهرب قبل ذلك والعودة من حيث أتيت. تابع البدوي مفجوعاً: أنت صبية صغيرة. قاصر. لعن الله حظي.

قلت: أنا كبيرة. عمري ١٨ سنة.

قهقه مترنحاً: أقطع يدي إذا كنت قد تجاوزت السادسة عشرة. ماذا تريدين؟ من بعث بك للسخرية مني؟

ـ أنا معجبة بأشعارك. لم أكن أكذّب. فرحت لأن كلماتي لم تقل ما هو أكثر أو أقل مما أعنيه. كان من الواضح أنه لا يذكر أنه شاهدني من قبل، أم تراه «يتحايل» عليّ؟ كررت: أنا معجبة بأشعارك. أجابني بسخرية سوداء: ما جدوى إعجاب

(١) قليلو التهذيب الاجتماعي.

القاصرات. تابع وهو يكلم نفسه: وأنتَ يا حمار ما دخلك؟ إذا كانت قاصراً فتلك مشكلة والدها. ادخلي يا حلوة، تفضلي. لا، لا تجلسي هنا فوق مصيدة الفئران.

أسأله: لماذا المصيدة؟ يجيب:

ورب فـأرة بـالقـرض ليـلاً متى مـا رمـتُ نـومـاً أزعجتنـي
إذا شعـرتْ بيقظتـي استكنـت وإن شعـرت بنـومـي أيقظتنـي
أقـول لهـا اقـرضـي وكلـي نهـاراً وفـي الليـل اتـركينـي واستكِنـي
فـإنـي فـي النهـار أخـو عنـاء واطـرح العنـا ليـلاً بكنـي[1]

قهقهت ثم تنحّيت حين أصدرت المصيدة ذلك الصوت الشبيه بصوت المقصلة، ولا أدري لماذا تحسست عنقي. فانفجر ضاحكاً وهو يسأل: أيتها الشيطانة الصغيرة. لماذا تحسستِ عنقك؟

هكذا للمرة الأولى يُلاحظ إنسان أشيائي الصغيرة، بل مشاعري السرية التي لا اسم لها وأعبّر عنها بحركات أليفة لا تعني شيئاً لمن لا يفهمها..

ضحكنا معاً، عاد طفلاً وصرت عجوزاً. لم يكن بوسع أمي ألا تجذبها طرافته. هل يمكن أن تكون قد كتبت عنه في يومياتها مثلاً سطراً مقتضباً تقول فيه: «ذلك المدّعي اللزج أهداني كتاباً ويتوهم نفسه شاعراً كبيراً؟». ترى هل كانت أمي مثلي فريسة الأبيض والأسود بين وقت وآخر؟

تلفّتُ حولي بحثاً عن كرسي أرتمي فوقه لأخفي ثقل المفاجأة على جسدي المرتجف. فهو لم يذكرني ولم يذكر يوم مرّضته ووضعت له الثلج على جبينه المحموم الثمل وتعارفنا.

يا لوساخة المكان وفقره.. كم هو فقير!!

كأن عدلون الشعلاني يقرأ أفكاري إذ يقول:

أشـاعـر ومـال ضـرب مـن المحـال
سعيـت زمـانـاً للتجـارة والغنـى فضيّعت مـا قـد كـان في اليـد من مال
وتـاجـرت بـالآمـال بعـد خسـارتـي فـأفلسـت حتـى مـن تجـارة آمـالـي

قهقهت مسحورة بهذا الرجل الغريب الطريف، المتماسك المنهار، القوي الهش، المهلهل المبدع. ولكنني لم أحضر لأبدي إعجابي به بل لأسأله عن أمي وعن

(١) الشعر في هذا الفصل منقول من قصائد للشاعر الراحل أحمد الصافي النجفي.

حقيقتها أولاً (من وجهة نظره) ولأتابع محاولة إقناعه بالظهور معه في ندوته في اللاذقية بالذات على المنبر الذي لم تعتلِه أمي هند..

جمعتُ أطراف شجاعتي وقرّرت العودة إلى بدايات حوارنا التي كانت واضحة وأعددتها سلفاً، في زيارتي الأولى. لكنني سمعت نقيق دجاج وتوهمت أنها تمشي داخل كتاب للأطفال! كنت قد تخيّلت أن شوبان نفسه سيعزف لنا شخصياً على البيانو في كل لقاء في غرف مطهمة بالرفاهية وقد نعيش حكاية حب رومانسية كبيرة، وها هو صوت الدجاج يتناهى إليَّ منزلقاً على الجدران المتآكلة بالرطوبة والشقوق الزلزالية. وحين علا صوت الدجاج قال لي:

أليلتي طلت وانطفأ السراج ... ولا جيران لي إلا الدجاج
فيمنعني الكرى منه صياح ... يسمعني منه قرع وانزعاج
لأصحاب الدجاج لذيذ بيض ... ولي منه ذروق أو عجاج

انفجرتُ ضاحكة. شعرت أنني قريبة من عدلون الشعلاني. لم يخطر لي من قبل أن الضحك والحقيقة البسيطة الهزلية والضعف البشري تقرِّب الناس بعضهم من بعض كالآهات والتنهدات والشكوى ورسائل الحب السرية المرمية خلف الأبواب، والأشياء المكتملة في إطاراتها المذهّبة الفاخرة!

ما كاد عدلون الشعلاني يجلس حتى قفز قط إلى حضنه وتقافزت أخرى صغيرة على ذراعيه وكتفيه غير عابئة به وهو يضرب على عنقه بقة أو برغوثاً ويقول لي نصف معتذر:

ولست أردّ ضيفاً قد أتاني ... من الحيوان أو أنس وجن
ولست بمخرج ديدان بيتي ... وأخجل حين أدفع البق عني

القطط لا تزال تتقافز على كتفه وذراعيه وهو يقول لي:

وكم عانيت من خجل لقط ... بحضني قد أقام كأنه ابني
يخال عباءتي ملكاً لديه ... فيدخل تحتها من غير إذن

بذهول تأملته حائرة بين الضحك والبكاء، والقرف والهرب، والبقاء واكتشاف جديد. لم يخطر لي ببال من قبل أنه يمكن لمثله أن يجذبني إنسانياً. جئت لسؤاله عن أمر محدد، وها هو يغمرني بحضوره الإنساني الكثيف الجذّاب المنفِّر في آنٍ. إنه بشع، ولكنه ساحر البشاعة. تخيّلته أميراً من أمراء الأساطير، وإذا به صعلوك صحراوي، لكنه رائع الطرافة يأسرني. فكيف يمكن للحقيقة الفجّة أن تكون أجمل

من الخيال المطهم؟ أركض في حقل مزروع بالتماثيل البيضاء وكلها منحوت في الصخر على هيئة إشارات الاستفهام. . .

ألملم نفسي وقد نسيت، ما الذي جئت أفعله هنا؟

أجل! جئت أسأله عن الحقيقة وأمي والكتابة، وعليَّ أن أفعل ذلك بحذر لأنه يبدو اليوم في كوكب آخر مشغولاً عني بالبق الذي يسرح على عنقه والبراغيث التي تقفز في شعره وهو يطاردها بأصابعه ويردد لي ضاحكاً: أما سمعتِ قول الشاعر:

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبرّ من درهم تعطيه محتاجا

أهذا هو الرجل الذي أسفتُ في إحدى اللحظات قبل تعارفنا لأنه لم يكن والدي وحنقت على أمي لأنها لم تتزوج منه منذ قرأتُ في الصفحة الأولى من ديوانه أهداءً منه إليها يقول فيه بعدما أعلنت فيما يبدو خطبتها على والدي:

أتى الناس مسرعين لرزقهم وجئت ولكن بعدما قسم الرزق؟

يا لي من حمقاء نموذجية! كم ينسج الخيال من حكايا ينسفها الواقع. أهذا ما أفعله حين أفكّر بأمي؟

سألته: أريد منك أن تحدّثني عن أديبة اسمها هند الراشدي. . أنا زنوبيا ابنتها. هل نسيتني؟

أصيب فجأة بنوبة ألم ومغص، كأن الحقيقة طلقة نارية، وانحنى على نفسه وهو يئن ويقول: اذهبي يا زنوبيا. دعيني وشأني).

لم تكن زين لتدري ما الذي يقذف بها باستمرار إلى هذا البيت الفقير القذر والشاعر العجوز المخبول أو الذي «يتخابل» ويفقد ذاكرته كلما سألته عن أمها بدلاً من مرافقة ناريمان سراً عن والدها لمشاهدة الفيلم الجديد «نياجارا» بطولة مارلين مونرو بذاتها، والتهام «الشوكولامو» بعد ذلك عند «الأرْلُكان»، وشراء بعض الأسطوانات أو العطور من دكان «فمينا» في طريق الصالحية. (كلما زرته يتظاهر بأنه يراني للمرة الأولى وأنه فقد ذاكرته بفعل السن، لكنني أعرف من أُلفته ومودته وأنسه بي أنه يكذب ولا يريد أن يبوح عن هند الراشدي بأكثر مما باح في المرة الأولى حين أخذته على حين غرة. وحين أسأله عن الكتابة يقول لي: الإبداع عصيان متجدد والثمن باهظ فمالك وهذه الحكاية؟ أطيعي والدك).

تحسّ نحوه بالود الكبير. فيه ضوء يجذبها، قادم عبر بقه وبراغيثه وأوساخه

وفقره وسخريته السوداء وأسنانه المصفرّة بالسجائر على مدى قرون من التدخين وأظافره الشبيهة بمخالب حيوان عجوز خرافي منسي لمّا ينقرض بعد قابع داخل عباءته المتآكلة ووحشة بيته والكهرباء المقطوعة منذ الأسبوع الماضي، ربما لأنه لم يسدد الفاتورة، حتى إنها لم تعد تجد في البراد ثلجاً لجبينه المحموم، لكنه أبداً يردد وهو يعي ما هو فيه ويقول لها ضاحكاً:

أكافح البرد في سراج ... يكاد من ضعفه يموت
في غرفة ملؤها ثقوب ... أو شئت قلْ ملؤها بيوت
يسكن فيها بلا كراء ... فأر وبق وعنكبوت
أغرفة المنام هذي ... أم هي منفى له نُفيت؟
أم تلك قبر الحياة فيه ... عُذِّبت من قبلما أموت!؟

كانت قد ألفت تلك الزيارات المختلسة وهي راجعة في طريقها من مدرسة مكافحة الأميّة أو من زيارة لصديقة.. مرة قال لها فجأة: عشتُ ستين عاماً وأنا شاب وحضورك حوّلني مرة واحدة إلى عجوز هرم. وأضاف وقد صار يهجس كثيراً بالموت: الحياة عنقود عنب شهي فيه حبة مسمومة واحدة لا ندري متى نأكلها. قلبي يحدّثني أن وقت التهامي لها قد حان!

ولم تعد تريد منه شيئاً غير أن يكون بخير. فقد صارت له في قلبها مكانة خاصة. ولذا انتحب قلبها يوم قرأت في الصفحة الأولى في الجريدة نبأ وفاته.. ولم يعد بوسعها أن تسأله عن الحقيقة.. وعن أمها. بدا لها أن الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لامستها وكل كلام آخر هراء..

(ما الذي أنتظره أمام الباب وكل خمس دقائق أقول لنفسي سأنتظر خمس دقائق أخرى وأنا أعرف أن عدلون الشعلاني مات؟ لقد راوغني ولم يقل لي كلمة إضافية عن أمي، وظل يتظاهر كل مرة بأنه يراني للمرة الأولى وهو كاذب.. لقد مات، فما الذي أفعله هكذا وأنا أنتظر حضوره؟ ولو فتح لي شبحه باب البيت وقال لي: ادخلي. سأقول لك كل ما ترغبين في معرفته. تراني أجرؤ؟).

* * *

فوجئت فيحاء بزيارة زين لها باكراً وفي وجهها قلق استثنائي. كانت تحب إطلالتها التي تذكّرها بوجه أمها هند، ذلك الوجه الذي ظل دائماً يعني لها النقاء والعمق والعطاء والذي زاده الزمن ألقاً في الذاكرة.

رحّبت بها وأدخلتها إلى الصالون وزوجها ما زال نائماً. تذكّرت كيف كانت تجرها من يدها طفلة إلى المكتبات والزيارات هاربة بها من الاختناق في «البيت الكبير» الذي لا تحبه فيحاء كثيراً. . حارت: ترى ما الذي جاء بها؟

سألت زين فيحاء مثل جاسوسة غير مدربة: حدّثيني عن أمي. أريد الحقيقة!

أجابت فيحاء وقد أدهشها السؤال المفاجىء: كان لها فضل كبير عليَّ. لولاها لما تابعت دراستي ولما صرت منذ أيام معاونة مديرة دار المعلمات. .

ـ حدّثيني عنها لا عن نفسك. هل كانت تحب الأدب؟

أجابت فيحاء مراوغة: كانت إنسانة مثقفة ورائعة. ما الذي يدعوك لطرح هذه الأسئلة في هذا الصباح الباكر؟

قالت زين بلا مداورة ولا مقدمات بأسلوبها الذي تحبه فيحاء لأنه أيضاً أسلوب هند: «هذا مخطوط لرواية كتبتها أمي». بدت الدهشة على وجه فيحاء وزين تضع أمامها على «الطربيزة»[1] مجلداً وهي تضيف: أريد الاشتراك بهذه الرواية في مسابقة الرواية لجريدة «النقاد» باسم مستعار لرجل.

سألتها فيحاء وقد كادت المفاجأة تعقد لسانها: أين وجدتها؟

ـ بين أوراق أبي سراً عنه طبعاً، وأثق بكتمانك للسر. وأريد مساعدتك في طبع الرواية على الآلة الكاتبة، وسأرسلها فيما بعد بنفسي بواسطة البريد أو أترك لك ذلك.

جمدت فيحاء وقد بدت على وجهها علامات التأثر. لم يفلح الزمن في مسح صورة هند عن عينيها، ثم إنها تأثرت بمبادرة زين بمشاركتها سرها والثقة بها. فالأسرة كلها تعرف أن زين كحبة البندق منغلقة على نفسها وأسرارها، لكن ما أثار اضطرابها هو مبادرة زين إلى ذلك (**كيف تعرف زين أن أمها كاتبة ولم يقل أحد يوماً كلمة عنها؟ وما الذي جعلها تحاول إنصافها بعد تلك الأعوام الطويلة كلها؟**).

أجابت فيحاء باللهجة الهادئة ذاتها: ثمة ضاربون على الآلة الكاتبة أمام «مبنى العدلية» وسأتولى الأمر. . ثم عادت تكرّر السؤال من جديد: من أين جئتِ بها؟

ـ قُلتُ لك من صندوق أبي، سراً وبكل قلّة أمانة! . .

وانفجرتا ضاحكتين فجأة. نهضت فيحاء وضمت زين إلى صدرها وقالت لها:

(١) الطاولة الصغيرة الخاصة بوضع السجائر والقهوة للضيف.

إنني آسفة لوفاة جولييت. لقد أخبرتني عن صداقتكما قبل حادث الاصطدام المروع الذي أودى بها. وأنا منذ ذلك الوقت أتحين الفرصة لأراك على انفراد وأقول لك ذلك.

لم تقل زين شيئاً. فأضافت فيحاء: أعذريني. لقد انشغلت عنك قليلاً بعد زواجي، ولكنك تجدينني دائماً ملهوفة للاستماع إليك حين تكونين بحاجة إليَّ.

قالت زين باقتضاب: هذا ما أفعله الآن.

ـ لماذا تريدين إرسال المخطوط باسم رجل؟

ـ ما الفرق؟ ليس للكلمة جنس، والرواية ليست صبياً أم بنتاً.

ـ معك حق. ولكن أمك ما كانت سترضى عن ذلك.

ـ حسناً. فليكن الاسم الذي نوقّع به الرواية لامرأة. «زنوبيا الطابيات» مثلاً. ويجب أن نودع الرواية البريد قبل نهاية الأسبوع القادم. لقد تأخرت في الوصول إليك فمعذرة على التقصير.

ـ «تكرمي» زين. سأفعل ذلك من أجلك وأجلها ومن أجلي أنا وسيكون ذلك سرّنا! . . . ولكن قولي لي. . . لماذا تريدين أن تشترك أمك في المسابقة؟

ـ لا أدري!

ـ تعرفين أنها لم تعد تبالي، ربحت أم خسرت، أقدمت على فعل النشر أم لا! فلماذا؟

ـ لا أدري! . .

ـ هل تفعلين ذلك من أجلك أم من أجلها؟

ـ لا أدري! أعرف أن الأموات لا يبالون بالأنصاب والأوسمة وحفلات التأبين، فهم في كوكب آخر. ربما نفعل ذلك من أجلنا، وربما من أجل ما ضحّوا له. . من أجل ما لا يموت. .

ـ هذا صحيح.

ـ أرجوك الاهتمام بطبع الرواية، وإرسالها إلى جريدة «النقّاد» خلال أيام. ادفعي للطابع ضعف المبلغ المطلوب لينجزها بسرعة. وربما كان من الأفضل إعطاؤها لاثنين نصفاً لكل واحد ليتمّ طبعها بسرعة. سأدفع النفقات طبعاً.

ـ هذا آخر همومي. ولكن ما العنوان الذي سأكتبه؟ إنهم يطلبون عنوان المشترك في المسابقة كما تعرفين.

ـ الكاتبة «زنوبيا الطابيات». . وليكن العنوان: «بواسطة منتدى سكينة ـ دمشق».

ـ حسناً. سأذهب اليوم للقاء الضاربين على الآلة الكاتبة أمام مبنى العدلية. سأهتم بالأمر. أظن أنك نجحت في إقناعي كما كانت هي تنجح دائماً في ذلك.

قفزت زين وضمّت إليها فيحاء وأخذت تقبّلها وتقول: كنت أعرف أنك لن تردي طلباً لي ولها! حدّثيني عنها. أجابت فيحاء باقتضاب: دعي الماضي وانظري إلى المستقبل. سألبي رغبتك بإرسال الرواية إلى المسابقة، لكنني لا أريد أن يصير الماضي هاجساً. وحذار من ان تتذكّري ما لم يحدث!

* * *

سألت زين عمتها بوران سؤالاً مباشراً، بهتت له: حدّثيني عن أمي!

ـ كانت سيدة ذات قدرة.

ـ قدرة على ماذا؟

ـ على كل شيء. الأرواح والمندل والعفاريت.. كل شيء.. كان فيها سحر...

سألتها زين: ماذا تعنين؟

أجابت بوران بغموض: كل شيء!

تعجّبت زين من كلام عمتها بوران إذ سبق لها أن تجرأت وسألتها عن امها. وصحيح انها يومئذ لم تروِ غليلها أيضاً لكنها أجابت على نحو مختلف. خيّل إلى زين أن شهود الماضي يتكلمون غالباً بوحي من مصالحهم وأمزجتهم ومهامهم كحراس للبكارات والصمت ولا يبالون حقاً بالحقيقة!

* * *

سألت زين جدتها: حدثيني عن أمي!

ـ كانت سيدة «ممتازة».

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ يعني أنها كانت «ممتازة» بكل معاني الكلمة رحمها الله.

* * *

سألت زين عمتها ماوية: حدّثيني عن أمي!

ـ كانت سيدة جميلة لكنها لا تعرف كيف تصفّف شعرها وتبرز جمالها.

ـ حدّثيني عنها من الداخل!

تتردد طويلاً ثم تجيب ثانية: كانت سيدة جميلة لكنها لا تعرف كيف تصفف شعرها..

* * *

سألت زين فلك زوجة عمّها عبد الفتاح: حدّثيني عن أمي!

كانت فلك غاضبة ذلك اليوم من بوران فقالت: كل الذين تحبينهم كانوا أعداءها!

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا شيء. رضي الله عنها حين أخذها إلى جواره وغضب عليَّ إذ تركني هنا!

* * *

سألت زين عمّها عبد الفتاح: حدّثني عن أمي!

أخذ يرتجف وبكى. زجرتها ابنة عمها فضيلة وقد ضمّت إليها والدها قائلة: ماذا قلت لأبي؟ وهل تريدين التسبب بمرضه ثانية؟

* * *

سألت زين جهينة: حدّثيني عن أمي!

ـ كانت الأم الوحيدة التي عرفت. الرقة والعذوبة والحنان.

ـ ولكن حدّثيني عنها أكثر.. أعني هل كانت تعيسة مع أبي؟

بتحفظ أجابت جهينة: لم أعد أذكر. لا أعرف شيئاً. كنت صغيرة!

* * *

سألت زين ماما ديب: حدّثيني عن أمي!

بكت ماما ديب وقالت: مسكينة ماتت مثل ابني نقولا في شرخ الشباب.

* * *

سألت زين البومة: حدّثيني عن أمي!

حدّقت البومة في زين وظلت صامتة وعيناها تزدادان اتساعاً وغموضاً. خيّل إلى زين أنه لا توجد «حقيقة» بل حقائق بعدد الناس. وأن صائغ الاقفال على أفواه النساء لم يكن حقاً بحاجة إلى هذا العناء، فالحقيقة فيما يبدو لها توجد دائماً في فم آخر وصندوق آخر!

* * *

حين استرخت زين في سريرها وركضت على وجهها نماذج من محضر استجوابها للأهل والبومة ووالدها وعدلون الشعلاني، أدركت أنها ازدادت جهلاً بأمها، وثمة حقائق تضيع إلى الأبد ولن تتعرّف أبداً على أمها إذا لم تطالع مذكّراتها. .

وحين سافر والدها إلى باريس في رحلة عمل وترك مفاتيحه بلامبالاة على طاولته وكتب على خشب الباب قبل سفره عبارة. . «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» ومضى، هرولت وفتحت صندوق الأسرار لتطالع دفاتر مذكّرات أمها حتى ولو اضطرت إلى كسر أَقفال تلك الدفاتر محكمة الإغلاق، لكنها فوجئت بالصندوق فارغاً تماماً! أدركت ان والدها اكتشف عبثها بمحتوياته واستيلاءها على بعض ما فيه كالرواية وسلبيات الصور وقصيدة الشعلاني. شعرت بالخزي وتساءلت: تراه ذهب بالأوراق الحيّة لأمها إلى صندوق آخر؟ تراه عاقبها بصمت فترك لها المفتاح لتجد الصندوق فارغاً؟ تراه حرق الأوراق، ورحلت الحقيقة معها؟ وهل كانت الحقيقة بين سطور الأوراق حقاً؟ وأين تختبىء الحقيقة؟

* * *

«لن تجرؤ. . لن تجرؤ على أن تكرر هذه الفعلة. .» هكذا قال لؤي لدريد، وهما يغادران غرفة زين في البيت الريفي في الريحانية، وقد خلّفا لها على وسادة سريرها تحت البطانية بومة صغيرة ذبحاها بأيديهما. . وغطياها جيداً. . وعلّقا في رقبتها ورقة كتبا عليها: «هذا مصيركِ إذا كرّرتِ درب أمك». . مضيا بعد ذلك إلى الحقل، وكانت زين واقفة تحمل بندقيتها وتدور بها حائرة، علامَ تصوبِ ولمن الطلقة: للعصافير أم للنجوم أم للغيمة؟ للعصافير، لتغيظ الصيادين الفاشلَيْن دريد ولؤي!

طلقة تمزّق السكون وتصيب هدفها. . يسقط طائر. . وكعادتها لا تذهب زين لإحضاره كأنها لا تريد أن تراه ميتاً. . إنها تكره الصيد وتمارسه لتغيظ لؤي ودريد ليس إلا. . فهي أمهر منهما في الصيد وهو أمر يثير نقمتهما عليها، كما تزداد تلك النقمة لأنهما يحدسان أنها تصطاد الطيور فقط لتقهرهما ولتريهما نجاحها هي البنت وفشلهما!. . إنها تمقت الصيد وتحب أن «تتحداهما» حتى بإصابة جرذ يتحرك لتريهما مهارتها (إذا لم أقتل العصفور، لن يحترمني الذكور!). وأحياناً تتسلى بثقب برميل بعيد، في استعراض مراهق، أو تضع زجاجة «سينالكو» وتتحداهما أن يستطيعا إصابتها مثلما تفعل هي من الطلقة الأولى!

يحبانها ويكرهانها.. هي البنت المغرورة المتعجرفة التي سبقتهما في الدراسة بالرغم من أنها تصغرهما سناً وتسبح بصورة أفضل منهما وتصطاد الطيور، وكانت لها غرفة خاصة بها من دون بقية الأطفال في «البيت الكبير»، وهذا وحده جلب لها نقمتهما منذ الطفولة. وتبدو لامبالية بثروة والدها التي بدأت تنمو في السنوات الأخيرة بعدما صار محامياً ناجحاً. وإذا حدّثها دريد عن يوسف وهبي حدّثته عن شكسبير وهي تعرف أنه لا يتقن الإنكليزية ويكره الكتب..

حين شاهدها لؤي تدور ببندقيتها منتظرة وصوله ودريد لتريهما مهارتها تصاعد الغضب في صدره (**إنها بنت مغرورة يجب وضع حد لها، خصوصاً وأنها تمشي في درب توسّخ سمعة الأسرة: كيف ينشرون اسمها في بريد القراء في جريدة «النقاد» وصورتها وقصة قصيرة بقلمها كلها حب وهيام وغرام؟ لقد شاهدتُ الصحيفة مصادفة عند الحلاق. ولو عرف بذلك والدي ولو لم يكن مريضاً لذبحها. لكنني اكتفيت ودريد بذبح البومة إنذاراً لها.. كنت عند الحلاق حين سألني زبون صديق وهو يطالع «النقاد» هل «زين الخيّال» أختك؟ لقد كتبت قصة في «بريد القراء». تنصلت من معرفتها وقلت له: إنه بالتأكيد اسم مستعار. وصعد الدم إلى رأسي وأخبرت دريد بعد عودتي، فغضب مثلي وهو يرى صورة زين التي سبق أن التقطها لها بنفسه بآلة التصوير «الكوداك» المكعبة.. لا نعرف إلى أين تقود هذه الدرب التي بدأت زين تمشيها.. ونخشى على اسم الأسرة من التلطخ بالوحل**)..

كان دريد كثير التعلّق بزين والكراهية لها في آنٍ. أما لؤي فصارحها لحظة وصوله من دمشق إلى الريحانية بقلقه من كتابتها إلى بريد القراء ونشرهم لاسمها وصورتها، فردّت قائلة: اسم الأسرة يوسّخه في الوحل من يعقد الصفقات المشبوهة ليثري لا من يخطّ جرح قلبه.

ـ هل تقصدين عملي الناجح؟

ـ لا أقصد شخصاً معيّناً. أقصد القول إن الوحل يلطّخ الرجال أكثر من النساء، وأنت لست مؤهلاً لمحاكمتي لمجرد أنك صبي... هل تظن أن بوسعك ربطي من عنقي بطوق كلب وجرّي وراءك لمجرد أنني بنت؟

شعر لؤي وهو يسمع ردها بالرغبة في تقبيلها وصفعها.. في ضربها ومداراتها حتى يعيدها إلى حجمها الحقيقي، «مجرد حرمة لا تصلح لشيء آخر»...

ابتعدت زين عنهما كي لا تقول شيئاً مشابهاً ويهبط مستوى الحوار أكثر مما ينبغي. تذكّرت أنها لمحت دريد ولؤي يحومان حول غرفتها، فقررت أن تطمئن إلى

أن أحداً منهما لم يعبث بدفترها السري الذي أخفته تحت الفراش صوب الوسادة. . (أتفنن في إخفائه خوفاً من غارات عمتي بوران وزياراتها المفاجئة، التي تطول إلى أسابيع في الريحانية حيث تمكث مع رزان ووضاح وهاني ودريد وكل من يرغب بمرافقتها من قبيلة «البيت الكبير»، فمضارب خيامنا الحجرية مشتركة، وكالبدو الرحل ليس بيننا من يتحرك من مكان إلى آخر منفرداً. وهو أمر أحبه أحياناً وأكرهه غالباً! أنا أتجسّس على دفاتر الآخرين لأعرفهم، وهي تتجسّس على أوراقي لتعاقبني. آسف أحياناً لأن أمي ساهمت في تحميسها وتشجيعها على القراءة، ولكنها بالتأكيد لم تكن تقصد تمكينها من قراءة مذكّراتي ذات يوم!).

رفعت زين طرف غطاء السرير لتطمئن على الدفتر، فانكشف عن الوسادة. وانتفضت زين بذعر وقد كتمت في حلقها صرخة، إذ وجدت بومة مذبوحة مرمية فوق وسادتها في موضع رأسها. . وقرأت الورقة المعلّقة في عنقها «هذا مصيرك إذا كرّرتِ درب أمك». . ترى من فعل ذلك، لؤي أم دريد؟ ولماذا؟

صارت ترتجف من الداخل (ترى ما دخل أمي؟ ما الذي فعلته تلك المرأة التي لا تزال تركض في كوابيسهم؟).

حين هدأت زين لفّت البومة المذبوحة بالمنشفة كي لا تراها الحاجّة، ولفّت وجهها بابتسامة هادئة ربطتها جيداً عند فمها كورق صرّ الهدايا، وخرجت إلى الحديقة وقد لاحظت صمت دريد ولؤي اللذين تأملاها باهتمام وخيّل إليها أنها لمحت في ضوء الغروب وعتمته النسبية عبارة «مذنب» مكتوبة على جبين كل منهما. أما وضّاح فتابع رفس التراب بقدمه. (تراه لا يدري؟ هل أشفقا على سنه الصغيرة من بشاعة ما يدور، أم أن منطق الأشياء يقضي بتعليمه فنون قهر البنات منذ هذه السن؟. . . هل هو خَجِلٌ للمشاركة في إرهابي وأنا التي حَمَلَتْهُ بين ذراعيها وخطفَتْه مثل «الشوحة»[1] لتعيده إلى البيت الكبير وإلى قلبها المشتاق؟). . .

مشت بهدوء صوب نافذة غرفة لؤي، حيث ينام ودريد، وعلى التراب تحت النافذة مددتْ البومة، وحفرتْ بالرفش قليلاً ودفنتها. . . ومضت إلى النهر للسباحة. . وقد بدأت الدنيا تظلم. كانت متألمة من هذا القتل الرمزي لها دونما مبرر، ولم تكن قد اطلعت أصلاً على نشر رسالتها في بريد القراء لولا كلام لؤي القاسي لها، فراحت تضرب الماء بذراعيها كما لم تفعل من قبل، كأنها تسبح في

(١) الغراب باللهجة الشامية.

الظلام البارد وتريد أن تثقب الليل، وهدير الماء الذي يتضاعف ليلاً كما تتوهم يحاول أن يخيفها. تتقدم في قلب الظلام عكس التيار، تتقدم وقد اشتعل جسدها بالغضب ولم تعد تحسّ بلسعات البرد ونتوءات الصخور وعضات الأسماك الغامضة وأعشاب الماء السرية العتيقة بعمرها الدهري وهي تلتف على أعضائها كالقيود، لتعيق حركتها كي تغرق أو تهرب إلى شاطىء السلامة **(سأظل أسبح حتى الشلال، وسأسبح في شلال معمل الكهرباء صعوداً. سأتسلق الشلال، وأظل أمضي حتى قلب الضوء والنبع).**

لم تسمع والدها الذي وصل من دمشق لتوه وهو يناديها ويطلب منها أن تغادر الماء ليراها، فلقاؤها ينسيه تعبه دائماً، ولا صوت لؤي ودريد اللذين تطوعا بإيصال الرسالة صارخين بحماس.. ظلّت تسبح حتى الطرف الآخر من الماء الأسود. وحين بلغت صخرة تخيّلتها «جزيرة السندباد» قرّرت أن ترتاح قليلاً قبل أن تواجه «الرخ» المرعب!.. سبحت سبحت حتى أنهكها الإرهاق وعادت إلى سريرها لتنام دون أن تلقي تحية المساء حتى على والدها ناهيك عن بقية ضيوف البيت.

لحقت بها جدتها التي لم يكن بوسع زين أن ترفض لها طلباً. سألتها عن سبب توعك مزاجها. لم تقل زين شيئاً عن البومة المذبوحة فوق وسادتها لكنها لبّت رغبة جدتها بالسهر مع الأهل بعدما بدّلت غطاء الوسادة.. في تلك الليلة، لم يكن بوسع زين أن تستقر على مزاج واحد طوال السهرة.. الحزن.. المرح.. اليأس.. الأمل.. الجموح.. الغضب.. الفرح.. الحقد.. الغفران.. الضوء.. الظلمة.. الظل.. الشمس.. الشتاء.. الصيف.. كلها كانت تتعاقب على صفحة نفسها بسرعة استثنائية خارقة وتحاول بلا نجاح يُذكر إخفاءها عن والدها. هي لا تعرف عادةً صفاء الذهن المطلق إلا في اللحظة التي تستيقظ فيها صباحاً، حين تكون بعد بين النوم واليقظة.. في تلك العتبة الفاصلة بين الموت والنوم، كان بوسعها أن تميز بصفاء أعلى الأصوات في قاعها، كعصفور عاد من رحلة طويلة وطار في العواصف وتساقط ريشه ولم يبق منه إلا ما هو حقيقي وعميق كجديلة أعصاب عارية...

وهكذا بعد سهرة متوترة وليلة مؤرقة كنوم المحموم نهضت فجر اليوم التالي وفي رأسها هاجس واحد سعيد مرح: سأكون كاتبة ولن أبدأ في الأسبوع المقبل دراسة الطب في الجامعة بل الأدب، ويجب أن أجد الجرأة في نفسي لمصارحة أبي.

نهضت زين مرحة وسعيدة كعادتها صباحاً.. دوماً هي هكذا، تنام عجوزاً عمرها ألف عام وتنهض صباحاً طفلة مرحة **(يدهشني كيف توهمت ليلاً أن الشمس**

لن تشرق ثانيةً. . ومن يبالي حقاً، أشرقت الشمس أم لا، ما دام الفرح المتحمس الغامض الجائع إلى الحياة يشرق كل فجر في صدري أياً كانت الظروف؟).

تنهّد مجرى النهر رياحاً حارة، غير مألوفة في هذا الوقت من العام، كأنها قادمة من شق جحيمي في الأعماق الغامضة للأرض. . زفر بكل ضفتيه ورئتيه رياحاً مكهربة بالغيوم السود، وأخذت كلاب الوادي تعوي كمن أصابه مسّ. ورفعت الأرانب آذانها في مزرعة العم حاجور وراحت تركض على غير هدى داخل أقفاصها ويصطدم بعضها ببعض. واحتقنت أوداج السماء والأشجار وقالت الجدة: «الله يعطينا خير هذا النهار». . وتابعت تدليلها لضيوفها في السيران تحت الدلبة بعيداً عن الجانب الثاني من المزرعة حيث تمارس زين ولؤي ودريد هواية الصيد.

العصافير تزعق كطيور أسطورية يُلاحقها رخٌ لامرئي بدم ما زال يصبغ براثنه. . قال دريد وهو يتناول من لؤي البندقية ويُطلق النار على أحد الطيور دون أن يصيبه: الصيد اليوم مستحيل. . لم نصطد اليوم شيئاً، لا أنت ولا أنا. . الطيور هائجة وتركض في الاتجاهات كلها. . .

قالت له زين ساخرة وهي تصوّب بندقيتها وتلاحق بها عصفوراً يطير: أنت صياد فاشل، تستقوي على البوم الجريح في وكره وتقبض عليه. هذا كل ما تقدر على اصطياده. .

احتقن وجه دريد وقال للؤي: انظر من الذي يتكلم. . بدلاً من الاعتذار منا، تهاجمنا. . يا للوقاحة!

قالها في اللحظة التي أطلقت فيها زين النار، فأصابت العصفور الذي راح يدور على نفسه وهو يهوي بعيداً بين الأشجار. . فصعد دم الغيظ إلى أذني دريد واحمرتا، وقال للؤي: أرها فضيحتها. .

أخرج لؤي من جيبه صحيفة مطوية وفتحها فوقعت عين زين على صورتها ومقالتها منشورة في جريدة «النقّاد» في الصفحة الخاصة ببريد القراء. امتلأت بالفرحة، فهذه هي المرة الأولى التي ترى فيها اسمها مطبوعاً وحروفها كذلك وسألت دريد: ماذا يضايقك فيها؟

فلكز دريد ابن خاله لؤي كما ليتكلم بلسانهما وأخفض هو نظراته إلى الأرض وراح يتأمل باهتمام شديد حذاءه الرياضي وهو يضرب التراب والحصى به ضربات صغيرة متلاحقة متوترة.

قال لها لؤي بصوت بدا لها أنه ليس صوته، وبحنجرة مستعارة لا تخلو من الخشونة: ألا تلاحظين أن نشر صورتك في الجريدة مع اسمك يجعلك مثل «أرتيستات السيريانا»؟.. وتدخّل وضّاح في الحوار ضدها مما فأجأها إذ أيد كلام لؤي مكرّراً: صحيح... صحيح.

تظاهرت بأنها لم تسمع دريد ولؤي وسألت وضاح بذهول وألم: ماذا قلت؟ أحزنها أن يتبدل فجأة ذلك الطفل الجميل الشفّاف الرقيق، الذي طالما أحبته ودلّلته صغيراً وكبرت وإياه، واختطفته كالمجنونة ذات مرة من عمته في سوق ساروجة، فيتحول إلى جلّاد قبل أن «يخط»(1) شارباه بأعوام...

قال ابن عمتها دريد مؤيداً كلامه ومكرراً وراءه بغضب أكثر مرارة وضراوة: قال لك إن صورتك في الجريدة إلى جانب اسمك يشبه الإعلانات عن راقصات «كاباريه السيريانا».. البنات المحترمات لا ينشرن أسماءهن وخواطرهن وصورهن في الصحف.

للمرة الأولى ترى زين لؤي ودريد ووضاح وقد أجمعوا على أمر واحد والسمّ يسيل من تأكيدهم بضوء من نيون على لافتة إعلانية: راقصات السيريانا. تذكرت زين ذلك المكان المنبوذ، الذي يتحاشى والدها المرور برصيفه كلما انحدرا من البساتين صوب الساحة لزيارة البيت الصيفي لصديقه فخري البارودي ومبناه القريب الذي يتسلل إليه الرجال ـ كما سمعت ـ تحت جنح الظلام لمشاهدة النساء يرقصن ويغنين بثياب من نمط ما قلّ ودلّ.. بل إنه لم يعد يبدي شهية خاصة لزيارة البيت الصيفي لفخري بارودي والاستماع إلى الصغير بديع الصوت «صباح» عنده كي لا يمر بذلك المكان!...

غمرها هدوء خاص تمتلىء به عادة حين لا تشعر بالذنب حتى ولو وقف الجميع ضدها.. تناولت منهما جريدة «النقاد» وقالت ببساطة: إنني سعيدة لأنهم نشروا مقالي.. سأصير كاتبة كأمي...

نسي أنه كان قد عيّرها بأمها في اليوم السابق أو تناسى خوفاً من بوران التي منعت أي ذِكرٍ لهند وأجاب: ومن قال لك إن أمك كانت كاتبة؟

ـ لا أحد.. إنني أعرف.

---

(1) يترك آثاره كخط.

قال ابن عمها لؤي بصوت امتزج فيه حب الامتلاك بالكراهية في غيمة مظلمة مكهربة من الوعيد والشهوات: عودي عن هذه الدرب يا ابنة عمي. تعرفين محبتك في قلبي، ولكنني لن أسمح لك أنا ودريد وابن ابنة عمك وضاح بتلطيخ شرف الأسرة. أليس كذلك يا وضّاح؟ فأجاب الصبي بحماس أذهل زين: بالتأكيد لن نسمح لها ولو غسلنا العار بالدم.

كان خجل زين يتصاعد حين تشعر بلسع الإهانة والألم في آنٍ ولم تصدق أن ذلك الطفل العذب الذي خطفته ذات يوم بين ذراعيها هو نفسه هذا الولد الجلف! فقالت زين لوضّاح وقد أدهشها صوتها: من علّمك هذا الهراء يا «فصعون»؟ ثم التفتت إلى دريد ولؤي قائلة لهما ولوضّاح: سأنقل لوالدي ما حدث ليوقفكم عند حدكم.. أنا لا أتدخل في حياتكم، فلماذا تتدخلون في «خصوصياتي»؟ فكرّر لؤي بلؤم جارف ليؤلمها: مثل أرتيستات السيريانا!... ثم أطلق النار على عصفور مصداقاً لقوله، فأخطأه، ولاحقت زين العصفور ذاته ببندقيتها، فأصابت الهدف للمرة الثانية، ولم يكلف أحد نفسه عناء الذهاب لالتقاطه!.. مرت بهم الحاجّة ولاحظت مناخ الشجار فزجرتهم قائلة: ألن تتعبوا يوماً من الشجار الصبياني يا أولاد؟ فلم ينتبه إليها أو يسمعها أحد منهم. واستخف الزهو بزين الأكثر مهارة في الصيد وبدت متعجرفة واستفزازية حين نظرت إليهم نظرة كلها سخرية وقالت لدريد باحتقار: ذكران عاجزان عما تفعله أنثى.. من أوهمكما أنكما أوصياء عليَّ؟

كانت تعرف أن مهارتها في الصيد تغيظهما وتفوّقها يستفزهما.. وقد تعمدت ذلك ولم تُلاحظ كم انتفخت أوداجهما وأطلّت من عيني لؤي نظرة حمراء هائجة. طلقة ثالثة وسقط عصفور ثالث، فركضت لإحضاره وهي تقول لهما ساخرة: سأجمع العصافير لتطبخانها لي!.. ركضت وهي تشعر بالحاجة لتحريك قدميها بعيداً عنهما، صوب الأشجار التي أظلمت مختنقة بانفجارات مكهربة صامتة. ولا تدري زين لماذا أحسّت فجأة بالخطر.. وصوتٌ ما في أعماقها تجهله انطلق محذّراً من شر ما، فتابعت ركضها بسرعة وهي شبه متأكدة من انقضاض شيء ما عليها لا تدري كنهه. وقبل أن تلتفت إلى الخلف لترى مصدر الخطر، سمعت صوت طلقة نارية وامتلأ جسدها في الوقت نفسه بصدمة مروعة كما لو أنها اصطدمت بحاجز فولاذي مزّق جسدها دفعة واحدة.. وغمرها شعور حار غير مألوف ووعت في الوقت ذاته وهي ترى الدم وقد بدأ يسيل من ذراعيها أنها أصيبت بالطلقة النارية.. لم تتوقف عن الركض ولم تلتفت إلى الخلف بل ظلت تركض بعيداً بعيداً إلى أبعد ما

تستطيع.. ولم تبالِ كثيراً بجراحها أو بالمطر الذي انفجر فجأة يغسل الدم عن ذراعيها وظهرها وعنقها حيث أصابتها طلقة «البارودة ٩ مم» المليئة بالخردق، والتي يفترض أن تفلش حباتها الحارقة في دائرة بما يضمن إصابة العصفور.. تركض زين تحت المطر وقد أصيبت بالعشرات من تلك الكرات المعدنية النارية في ذراعيها من الخلف وكتفيها وظهرها وصيوان أذنها وعنقها ورأسها.. وكانت تنزف من تلك المواضع كلها وهي تركض وتركض وقد أدهشها أنها لا تشعر بأي ألم، بل بنار حارة تستولي على جسدها، وبقلبها يدق طبوله بأعلى إيقاعات الغابة والجنون والهرب بأقدام عارية على الجمر.. وظلّت تركض تركض بعيداً بعيداً تحت المطر المطر المطر....

***

(ها أنا للمرة الأولى في حياتي أسطّر مذكراتي بضمير المتكلم وأتحدث عن نفسي فيها وأنا أعرف أنني أتحدث عن نفسي، ولا أكتب شيئاً نصفه حقيقة ونصفه خيال، ولا أخاف أن يعرف أحد أنني أتحدث عن نفسي ولا أخاف أنا أيضاً من كوني أقترف ذلك. كأنما أحيتني الطلقة التي ربما كان القصد بها أن تقتلني أو تؤذيني وترعبني وهو ما أرجّحه. حتى كوابيسي وأحلامي التي كنت أسطّرها، كنت أكتبها كما لو أنها وقعت لشخص آخر.. كما لو كنتُ ظلّين يمشيان جنباً إلى جنب ويتداخلان أحياناً ولكنهما لا يتطابقان أبداً.. اليوم شعرت أنني خطوت داخل طيفي وصرنا واحداً..

اليوم؟ يا له من يوم طويل طويل، مشيت خلاله في أنفاق ومغاور مزروعة بالألغام وقد دججت أنفاقها بالسكاكين عقاباً للبنات غير الداجنات، وزرت جزراً كنت أجهل وجودها في أعماقي.. شاهدت ذلك كله بوضوح على ضوء تلك الطلقة التي أصابتني في ظهري وذراعَيّ وأسفل رأسي.

آه الطلقة!.. كانت السماء تختنق ببكاء مكتوم وأنا أركض بعيداً عن لؤي ودريد مدّعية أنني ذاهبة لجمع العصافير.. وكنت ذاهبة لجمع أفكاري حين أحسست فجأة بالخطر.. بحاسة مجهولة لا أعرف اسمها تسطع فجأة في داخلي وتنبّهني إلى شرّ يحدق بي.. وقبل أن ألتفت إلى الخلف لأرى ذلك الحضور المؤذي الذي سينقّض عليَّ سمعت صوت الطلقة والتهب جسدي مرة واحدة بصدمة مؤلمة كأنني دخلت في سياج معدني مكهرب، وكدت أسقط على الأرض.. ووعيت في الوقت ذاته أن أحدهما أطلق النار عليَّ، لؤي أو دريد، ورحت أركض كالمجنونة بين

الأشجار خوفاً من أن يعيدا الكرّة. وكاد الدوار يجرّني إلى البياض المطلق لو لم ينفجر المطر بضراوة وهو ينبض بجسده المائي مواكباً لهاثي وينعشني زارعاً الصحو في رأسي.. مطر مطر.. وأنا أركض على غير هدى.. والمطر يحتويني.. وشيئاً فشيئاً بدأت جراحي تبرد وتؤلمني، وهذا الركض المجنون على الأرض الموحلة يزداد صعوبة كأنني أنتزع قدميّ من برك الطين اللزج... وخفت أن أعود ويكونا في انتظاري، فتابعت ركضي صوب الطريق العام في أعلى التل.. مطر مطر ينوح فوق قمة الأشجار وقمة رأسي ويغسلني بسلام حنون وأتحوّل ثانيةً من حيوان جريح إلى فتاة قرّرت ألاّ تنهار على أرض الإغماء، وقلت لنفسي: يجب أن أجد طبيباً. لن أدعهم يقتلونني قتلاً ملتبساً كما فعلوا بها.. يجب أن أجد سيارة تقلّني إلى طبيب.

تذكّرت المخيم الكشفي قرب بركة «السقاية»، وأفاعيها المسكينة اللامؤذية التي كنت أخافها، لاهية عن مصدر الخطر الحقيقي. وانعطفت إلى اليمين صوب المخيم وقد استولى البرد على جسدي بمخارز معدنية تتقدم كالسكاكين في جراحي.. وبدأت المرئيات تهتز أمام عيني، وامتزجت الأشجار بجذوعها وتداخل التراب وأوراق الأغصان الشاحبة وصارت الدنيا زائغة وهلامية كما تبدو لي في كوابيسي. وتابعت عدوي حتى لاح علم المخيم منصهراً في الغيوم المظلمة والمطر فقاعات تغلي فوق المرئيات كلها، وصار انتزاع قدميّ من برك الوحل شبه متعذر، وتلك الأيدي المجهولة تحاول أن تشدّني إلى الأرض لأسقط.. لن أسقط.. سأظل أتابع.. أتسلق الجرف المرتفع وأكاد أنهار وأبي يقول لي داخل رأسي: «بوسعك ذلك.. اعتمدي على نفسك.. أشعلي المحرك الثاني». لم أعد أرى شيئاً أمامي لكنني سأظل أتقدم ولو زحفاً.. يجب أن أصل إلى المخيم.. اصطدم بشيء أمامي.. أصرخ ذعراً وأنا أرتجف. يقول لي: لا تخافي. أنا عبد الهادي. بلهفة سألني: ماذا أصابك؟ قالها بصوت ذكّرني ارتجافه بصوته ليلة الغارة الفاشلة على «ليلة الدخلة» حين كنا صغاراً. شعرت بشيء من الاطمئنان! توضحت المرئيات قليلاً ورأيت صبيان المخيم وقد التفّوا حولي بفضول يطرحون الأسئلة حول إصابتي. غلبتني أوجاعي ولكنني قلت نصف كاذبة: أصابتني الطلقة خطأً.. سمعت صوتي وأنا أقولها وتساءلت: ماذا لو كان هذا ما حدث حقاً؟

قال: أين هم أولاد عمّتيك وعمك؟ لا أدري لماذا شعرت بالحاجة للتستر على جرحي.. أجبته كاذبة: كنت بعيدة عنهم أتسكع في الحقول وحدي، وشاهدت صبياناً لا أعرفهم في سيران آخر يتعلّمون الصيد... لم يروا أن الطلقة أصابتني. لقد

ركضت باتجاه المخيم على أمل أن أجد طبيباً.

ـ حسناً فعلتِ.

أضاف وهو يحاول أن يساعدني على المشي صوب السيارة: هيا بنا بسرعة.. لا طبيب في المخيم. قلت وأنا أنهار: دعني. أستطيع أن أمشي وحدي. قلتها وأنا أنزلق صوب الأرض والدوار.. دمدم: ما زلتِ عنيدة كبغل المُرابع.

ضحكت رغماً عني فأوجعتني جراحي أكثر. سكت الصبيان ذهولاً. لعلهم يرون للمرة الأولى إنساناً مصاباً بطلق ناري خارج السينما، ويضحك بدلاً من أن يُغمى عليه!.. أفلتني عبد الهادي ريثما يخرج مفاتيح السيارة من جيبه ويفتح الباب. استندت على أقربهم إليَّ فسارع آخرون وأحاطوا بي حتى السيارة. شعرت بأهميتي كمصابة بطلق ناري وليس بينهم من جرّب ذلك. قلت لهم وأنا أسمع صوتي قادماً من بئر وله صدى: هذا عقاب البنات اللواتي يتسكعن في الحقول... ولا أدري لماذا ضحك الصبيان والأطفال، وأثلج صوتهم قلبي والسيارة تمضي بي بعيداً...

كنت ممددة على بطني فوق المقعد الخلفي، فالطلقة أصابتني في ظهري، غدراً؟ أياً كان التفسير فذلك «لحسن حظي»، وإلا لأصاب الخردق عينيّ ووجهي.. عينيّ؟ أية كارثة أن أعجز عن الكتابة والقراءة وأصير عمياء كما قد يتمنون!.. الآن وقد هدأت آلامي بوسعي أن أتفلسف وأكتب أنه لا بدّ من تقليم حواس البنت التي تطمح إلى اصطياد عصافير الدهشة والمستحيل والمجهول.. لا بدّ من تسبيب عاهة للمرأة كي لا تتمرد. لن أنسى الطلقة، ولن يزايلني الوعي بمصدرها، والإدراك الملتبس بأن ثمة من يريد شراً بي. الطلقة الحارة.. وها أنا أرتجف برداً ويد مجهولة تغرّ دبابيس الألم في جسدي المتوتر المرتجف، المرمي على المقعد الخلفي لسيارة لا أدري من أين أتى بها عبد الهادي الذي ما كان ليتوانى عن إطلاق النار على أخته لو تصرفت مثلي!

وشعرتُ بيد تغطيني بمعطف شتوي سميك لونه «كاكي»[(١)]، وسمعتُ صوتاً يقول: هل تخرّجتَ من الكلية العسكرية؟

أجابني: ليس بعد. هذا معطف أخي الكبير. هذا لا يهم الآن. إلى أين سأذهب بك؟.. يا ربي لم أعد أعرف كيف أقود السيارة.. ونسيت أسماء الأطباء الذين أعرفهم...

---

(١) خاكي.

قالها وصوت الكابح يعوي وقد رمتني الصدمة على أرض السيارة وصعد الدم في حنجرتي وأنا أهوي وأهوي في بئر بلا قرار.. دون أن أنال بركة الإغماء الكامل.. إذ كنت على حافة الصحو.. أعي ما يدور بشكل جزئي.. لقد أوقف السيارة ليعيدني إلى المقعد، ويستغفرني والعرق الذي يتصبّب من مسامه بدا لي كبيراً كقطرات المطر، أما وجهه فكان مشوش الملامح. كان بوسعي أن أرى مربعاً صغيراً بين عينيه وشفتيه، وابتسمت له وقد عدنا طفلين عبثاً يتلصصان من النافذة على ليلة الدخلة في بيت المُرابع.. وسمعت صوتاً بطيئاً كصوت أسطوانة صدئة الإبرة تدور وقد فرغ الحاكي وترهل زنبركه ولا بدّ من إعادة تعبئته: أنا لا أكرهك، فلماذا منعت أختك ناجية من اللعب معي؟ ولماذا لا تزورنا؟ قال: لأن والدك بورجوازي. أجبت: هل تظن أن بوسعي أن أستبدله بآخر؟.. أجاب: المهمّ أن نجد الطبيب الآن والباقي تفاصيل.. كيف يمكن أن يخطر ببالك أنني أكرهك وأنا.. قال شيئاً ولم أسمعه. سمعته ولم أسمعه، فقد كنت نائية في قاع البئر...

من جديد طلع صوتي النشاز: لا تذهب بي إلى المستشفى.. أريد الذهاب إلى ساحة المدفع إلى البيت.. أجاب بصوت مرتفع جداً: يجب أن أذهب بك إلى طبيب. قلت له: حسناً، إلى ابن عمي الدكتور مأمون عيادته في.. فتحت عينيّ وهو يحاول حملي. رفضتُ. سرت وأنا أستند على ذراعه. لا أرى غير مربعات محددة: مربع الأرض. مربع العتبة. مربع أرض الغرفة وعليه قطرات سائل أحمر لعله يسيل مني. مربع وجه ابن عمي الطبيب. مربع فيه ملقط. مربع فيه ضوء كشّاف حار. بين مخلبي الملقط كرة زئبقية اللون هي الخردقة ترن في صحن أبيض حين يرميها عائداً بالملقط إلى ظهري. الأصوات تأتيني في مربعات أيضاً. لا أسمع ما يقع خارج أطراف المربع. صوت الطبيب: خردق.. بارودة صيد.. محظوظة لأن الطلقة من الخلف.. عيناها.. الله ستر.. إبرة.. بنج موضعي.. هذه في الكوع عميقة ومكانها حسّاس.. عشرات منها لا أستطيع الآن إخراجها.. تحتاج إلى عملية.. المهم أنها ليست في خطر.. إصابة سطحية.. وصدمة لا أكثر.. لحسن حظها أنها كانت بعيدة نسبياً.. توزعت الطلقة على رقعة واسعة ولم تصب رأسها عميقاً غير حبتي خردق ولم تصب «بصلتها السيسائية» ولا عنقها.. الله ستر!

شرح له عبد الهادي ما أصابني كما سمعه مني، فأجابه مأمون مطمئناً إياه وقال أشياء أخرى سمعت منها قوله: «اتصلت بوالدها وأخبرته بما حدث وسيأتي حالاً»...

مطر مطر خارج النافذة. . وأنا أطفو وأغرق. . أطفو وأغرق. . من منهما أطلق النار عليَّ؟ دريد أم لؤي؟ ما الفرق؟ هل تعمّدا ذلك أم تابعا الصيد فأُصبت خطأً؟ ما الفرق؟ أحدس أن أحدهما تعمَّد ذلك بالتأكيد، فأنا لم أكن واقفة على الشجرة حين أُصبت. أعرف أن ذلك حدث لي أنا وكنت المقصودة به وعليَّ أن أفهم ذلك بلا مواربة. . ولكن لا. لا أصدّق أنهما تعمّدا ذلك. ثمة شيء ملتبس في الحكاية لعلّه مشاعرهما الملتبسة نحوي. . ولكن الطلقة التي أصابتني رسالة غير ملتبسة. حسناً. . لو كان أحدهما يريد قتلي لفعله باتقان. كلنا نعرف أن «بارودة ٩ مم» لا يمكن أن تقتل إنساناً من مسافة بعيدة لتوزّع الخردق على مساحة كبيرة. إنها تؤذيه فقط. هذا مربع في داخله وجه أبي يسأل بلهفة ماذا حدث؟ أسمع صوتي وأنا أكرّر أكاذيبي عن سيران الصبيان المجهولين وإصابتهم إياي خطأً.

شعرت برغبة تنبع من أعماقي في الاحتفاظ بجرحي لنفسي، ومواجهته بنفسي. لم أعد صغيرة، فعمري أكثر من ١٦ سنة. . يد أبي تضرب جبينه داخل المربع. . أطفو شيئاً فشيئاً وقد كفّت السكاكين عن عبثها داخل جراحي وتجمّد الألم معدنياً وثقيلاً والمربع يتسع قليلاً فأرى وأسمع المزيد. قال الدكتور مأمون: لم أستطع إخراج الخردق من الأماكن حيث الأعصاب كما في الكوعين والمفاصل وأسفل الرأس ناحية العنق، فهذه تحتاج إلى عملية دقيقة فيما بعد. . لم أستطع أيضاً إخراج العميقة منها في الظهر والذراعين لأنها بحاجة إلى بنج موضعي وحالها لا تسمح الآن بالمزيد. . ولا خطر من تأجيل ذلك فإصابتها سطحية. . وقد لا تضايقها وتستطيع أن تتعايش معها. . وتحتفظ بها كتذكار.

قال عبد الهادي: خالي متعايش مع شظية في جسمه منذ حرب فلسطين. . .

أردت أن أقول لهم إنني سأحتفظ بالخردق في جسدي تذكاراً كي لا أنسى يوماً، لكنني لم أجد صوتي. . .

يأتيني صوت الدكتور مأمون: يجب أن تنام. . وتتغذى جيداً. . لقد خسرت بعض الدم ولكن ضغط دمها معقول. . .

قال أبي بفخر: إنها بنت قوية. . .

«إذا كنت فخوراً بقوتي، لماذا لا تدعني أستعملها، وتربكني وتضطهدني بالمحبة ولا تتركني أتفرغ لمواجهة ارتباكي بذاتي مع ذاتي؟». . أردت أن أقول له

ذلك، لكن الألفاظ كانت تسقط من حنجرتي إلى البلاط الملطخ بالدم مثل حبات عنقود انفرطت تحت الأقدام). .

* * *

قرأت زين في العدد الأخير من جريدة «النقّاد» أن رواية «المرأة الجديدة» تأليف الأديبة الموهوبة زنوبيا الطابيات فازت بالجائزة الأولى للرواية! . . .

وقد دعت الصحيفة الفائزة للاتصال بالقسم الأدبي في الصحيفة لاستلام الجائزة ولتوقيع عقدٍ لنشرها، وذكرت أيضاً أنهم سألوا عنها في منتدى سكينة فقالت لهم السيدة ثريا الحافظ إنها لم تسمع بكاتبة تحمل هذا الاسم! شعرت زين بأنها حققت الانتصار الأول في حياتها. . تحوّلت إلى زرافة ومشت في الشارع برأس مرتفع جداً.

وحملت الصحيفة ومضت بها إلى بيت فيحاء. حين عاد زوج فيحاء تعجّب وهو يرى زين وفيحاء ترقصان بفرح على أنغام «عصفور النار» لسترافنسكي، وتغنيان ثملتين ولم يشم رائحة كحول. . . فقال لنفسه: يا للنساء!!

تلك الليلة نامت زين بلا كوابيس، سعيدة لأن أمها انتصرت بعد انقضاء عقد ونيف على رحيلها. بهر زين سحر الكلمة، فهي لا تموت بموت صاحبها، وسحر الفعل، فلو لم تجرؤ على إرسالها لما كانت نُشرت.

حين نامت حلمت بأنها تستخرج جناحيها بيسر وتفردهما وتحلّق إلى جانب عصفور أبيض فوق «شاطىء الطابيات» وضوء القمر أكثر سخاءً من ينابيع عين العاشق. .

* * *

دعت ناريمان زين إلى حفل عيد ميلادها. كتبت لها زين قصيدة كهدية، ونصحتها فيحاء التي احتلت في حياتها موضع جولييت بأن تحمل لها زجاجة عطر وباقة ورد بيضاء كبيرة إلى جانب القصيدة. تعجّبت زين: من يتحدث عن العطر الذي يستطيع أي شخص شراءه بالمال أمام هدية فيها عطر القلب؟

(أشعر بالذنب لأنني لم أحدّث صديقتي الحميمة ناريمان عن همومي مؤخراً. . وأخفيت عنها حكاية أوراق أمي والرواية وحتى الطلقة التي صوّبها لي لؤي وعرفت أنها منه لأنه كان يأتي بعدها كل يوم إلى ساحة المدفع ليتفقدني بحجة الشوق

المفاجىء إلى جدته ويحمل لي باقة ورد بيضاء. في البداية نفرتُ منه ثم جاءني ذلك الصوت الآخر اللعين من قاعي يقول لي: انتِ قمت باستفزازه وتعاملتِ معه بغطرسة وغرور. أنتِ أيضاً مسؤولة عن إصابتك وتعرفين ذلك. جاء مرة وقد وضع كتاباً تحت ابطه وأنا أعرف أنه لا يطيق المطالعة، فانفجرت ضاحكة لطرافة منظره وهو يتأبط الكتاب ـ كما يتصوّر شكل المثقفين ـ ونسيت حقدي عليه. بل إنني ما زلت أشك في انه أطلق النار عليَّ بسبب لامبالاتي به، وربما غيرة عليَّ كأنثى وادعى لنفسه أنه فعل ذلك لغسل عار الكتابة عني! لم أقل ذلك كله لناريمان ولا لسواها. . لم أقل لأحد شيئاً ولكنني أعتقد أن جدتي بذكائها الفطري الثاقب هي الوحيدة التي حدست ما حدث منذ شاهدت لؤي يحمل باقة من الازهار للمرة الأولى في حياته! أما أنا فقد ادعيت حتى لوالدي أن صبيان سيرانٍ ما أصابوني خطأً وهربوا وصدّقني، كما لم يقل دريد ولؤي شيئاً. . ولم أنقل لناريمان أيضاً نبأ فوز أمي بالجائزة الأولى للرواية. أشعر بالذنب لأنها تصارحني بكل سهرة تسهرها وكل رقصة وكل قبلة وكل حب، أما أنا فلا أبادلها هذا الانسكاب العاطفي الجميل والتدفق الأخوي، لا عن قلّة ثقة بل عن عجز. إنني خرساء حين يتعلّق الأمر بصوت قلبي، وربما لذلك ألجأ إلى الكتابة).

حملت زين هداياها، وأعطت ناريمان فور دخولها سلّة الورد الأبيض العملاقة. وفوجئت بالزينات الباهرة في بيت ناريمان، وفخامة المكان الذي أخرجت أمها فضّياته وتماثيله الذهبية ولوحاته الثمينة وعرضت ما لديها من روائع أدهشت زين كأنها ترى البيت للمرة الأولى. وراقصت البنات بعضهن بعضاً كما جرت العادة في تلك الحفلات في تلك السن، وسرت القهقهات الناعمة ثم تبدّل نمط الموسيقى وعمّت الضجة وخيّل إلى زين أنهن كلهن يتحدثن في وقت واحد (أم تراني أكره أعياد الميلاد لأنها تذكّرني بأمرٍ أحب أن أنساه، فذكرى ميلادي هي ذكرى الموت الأول لأمي؟). كانت معظم المدعوات من بنات الأثرياء ورفيقات ناريمان في مدرسة «الفرنسيسكان»، وقد تعرّفت زين على معظمهن عن طريقها. بهرتها أناقتهن وغندرتهن وجمالهن واختلاف أسلوبهن في الاحتفال عن أسلوب رفيقاتها «مستورات الحال» في مدرستها الحكومية «تجهيز البنات»، وانشغلت بمراقبتهن وتأمل أحوالهن. لاحظت زين الحسد الذي يسيل من عيون بعض رفيقات ناريمان وهن يتأملن جمالها الذي سطع ليلة ميلادها (هي تشبه آفا غاردنر وأنا اشبه رابعة العدوية! ذلك لا يضايقني لأنني أحب أن أرى لا أن أُرى!).

لم تغادر زين الحفل رغم ضيقها بالضجيج ورقصة «الروك أند رول» الجديدة

التي تعلمتها مسايرةً لناريمان. وحين كادت تختنق بدأ عقد السهرة بالانفراط.. وجاء سائقو السيارات الفخمة تباعاً لإعادة المدعوات إلى بيوتهن. وقدّمت زين هديتها الإضافية إلى ناريمان: زجاجة عطر والقصيدة التي كتبتها خصيصاً لها وقالت لها ذلك، ففرحت ناريمان بالعطر وقبّلت زين، وقرأت بسرعة القصيدة ثم وضعتها تحت كوب العصير كي لا يتبلل شرشف الطاولة!

مضت زين تلك الليلة دون أن تقول لناريمان شيئاً عن أسرارها، ولكن ناريمان فاجأتها بخبر قبل ذهابها وهي تودعها في المدخل: لقد قرر والداها الانتقال إلى بيروت وبيع الأملاك في دمشق وحتى البيت، والهرب بأموالهم من «الشام».

ذهلت زين وسألتها: لماذا؟

أجابت ناريمان: لا أعرف. أمي تقول إن مصير البلد هنا صار على كف عفريت، وصديق أسرتنا يقول إن المال لا يحب الزواج من المغامرة واللااستقرار كما صارت حال «الشام». ثم إنه توجس شراً منذ اليوم الذي قام فيه عبد الناصر بتوزيع الأراضي في مصر على الفلاحين في «الاصلاح الزراعي» وقال: «متى حلق جارك بلّ دقنك»[1]، ولا داعي للانتظار حتى تصل الموسى إلى ذقننا! شعبية عبد الناصر تزداد عندنا وهذا مخيف.

حزنت زين مرتين. مرة لأنها ستفقد ناريمان، ومرة أخرى لأنها عجزت عن البوح لها بما يجول في خاطرها، كما عجزت عن أن تقول لها كم سيحزنها فراقها!

***

بدأت زين يوم عطلة نهاية الأسبوع بالاستحمام. بعد مغادرة ذلك الحيز الدافىء الرطب شعرت زين بالوحشة كمن يُقذف فجأة في العراء. لا تدري لماذا يغمرها منذ صغرها شعور واخز أليم حين تغادر دفء الحمام. تذكر أن ذلك الشعور داهمها بحدّة ربما للمرة الأولى في حمص عند عمتها بهيجة حين كانت في العاشرة.

شعرت يومها برغبة غامضة في أن تحتضنها عمتها وتدللها، وبدت لها غرفة الصالون حيث أعدّت لها عمتها سريراً واسعة وشاسعة وباردة وتحوّلت وحشتها إلى وخزة أليمة في الصدر. ومنذ ذلك اليوم وتلك الوخزة الصغيرة تلازمها كلما غادرت دفء الحمام الصغير الحار الرطب...

---

(١) مثل معناه ان دورك حان.

كان ذلك الشعور ذاته يحتويها حين قال لها والدها «نعيماً» ثم زجرها: لماذا الاستحمام ونحن على وشك مغادرة البيت؟ هل تريدين أن تصابي بالرشح؟

أغضبها ألاّ يُلاحظ كم صارت كبيرة وما زال يعاملها كطفلة ويطاردها بالنصائح. أضافت جدتها متحالفة مع والدها: «الولد ولد ولو صار قاضي بلد».

في الطريق إلى نادي الطيران الشراعي أنّبها والدها لأنها فتحت نافذة السيارة قائلاً: شعرك لما يجفّ بعد.

تخيّلت أنها تقتلع سقف السيارة وتقف في الريح لتجفيف شعرها. ظلّت صامتة. لا تدري لماذا تحاول عبثاً أن تصدّق أن الخريف يغزو المدينة. منذ الصباح بدا لها النهار دافئاً والريح ودّية ولها رائحة الربيع المميّزة. ثم إنها تتطلع إلى السيران بعد ساعتها التدريبية على الطيران الشراعي حيث تلتقي الاسرة كلها ويلذ لزين دائماً «لقاء الأضداد» هذا كما تدعوه، والسيران عندها مرادف للربيع حتى ولو كان ذلك في عز الشتاء!

قال الكابتن شيللر: يبدو أنني مصاب بأوجاع في المعدة. هل من طبيب تبعث بي إليه؟

أجابه أمجد الخيّال: بالتأكيد. ابن شقيقي الدكتور مأمون سيتناول العشاء اليوم عندنا لانشغاله بعمله عن قضاء يومه معنا في السيران. ما رأيك باللحاق بنا إلى البيت مساءً وتناول العشاء معنا؟ ضحكت زين لأن الرجل يشكو أوجاعاً في معدته ويريد والدها دعوته إلى العشاء ليلتقي بطبيب خارج عيادته وبلا أدواته الطبية.

لم يضحك الكابتن شيللر على غير عادته، وبدا واجماً ومتألماً.

حين رافقته زين إلى الطائرة قال لها مشيراً إلى مكان ما في صدره: صدري يؤلمني. إنها بالتأكيد معدتي العجوز.

شعرت بالقلق. فعهدها به خلال السنتين اللتين قام بتدريبها خلالهما لا يعرف الشكوى ويباهي بقوته وعافيته بمناسبة وبلا مناسبة، مثل والدها، ويفاخر بأنه لم يذهب يوماً إلى طبيب حتى إلى طبيب الأسنان ولم يدخل يوماً المستشفى، وزين تجد مباهاتهما طفولية. فوالدها يكذب وقد مرّ بالمستشفى والطبيب يوم كسر يده، ولعلّ الكابتن يكذب أيضاً مثله. وسلوكهما هذا يزيدها حباً لهما. لم تكن زين لتحب الناس الذين لا يتطرق الخلل إلى سلوكهم، ولذا كانت تحب أسرتها كثيراً وتجدها طريفة وعجيبة غريبة لا تثير التثاؤب بل الحنان.

قال الكابتن شيللر لزين بعدما ربطا حزام المقعد وأغلق الموظف عليهما قمرة القيادة الزجاجية: ما رأيك بأن تقلعي أنتِ بالطائرة؟ أنا متعب.. قالت بزهو: سأفعل بكل يسر.. سأقوم وحدي بالطلعة كلها كعادتي في المرات الأخيرة.

قال الكابتن شيللر والسيارة تجرّ الطائرة الشراعية: لو كنتِ في الثامنة عشرة من عمرك لمنحتك شهادة قيادة الطائرة ولتركتك تمارسين الطلعات وحدك.

قالت زين كاذبة: اليوم عيد ميلادي الثامن عشر.

ـ هذا غير صحيح. لم تبلغي بعد السابعة عشرة من عمرك. لقد أخبرني والدك بتاريخ ميلادك... حين كنت في مثل سنك كنت أضيف إلى عمري سنة أو سنتين مثلك!.. ثم إنني...

لم تسمع زين ما يقوله المدرّب. انشغلت عنه بالاقلاع والتحليق.. كانت منذ طفولتها تصنع الطائرات الورقية وتحلّق بها سعيدة. كبرت وازدادت عشقاً للطيران. ففي الطائرة يغادرها إحساسها بثقل جسدها على الأرض الزلزالية الهشة وتشعر بالحرية.. الحرية. تغيب وتحضر والكابتن يتابع بصوت بطيء: وحين كنت في مثل سنّك..

في اللحظة التي استوت فيها الطائرة عالياً بجناحين على سوية واحدة موازية لخط الافق، وبدت دمشق لؤلؤة معتقة فوق علبة مخملية خضراء، وانتشت زين متوهجة بفرحة الحياة، سمعت من المقعد خلفها أنين رجل كأن ثمة من يخنقه.

التفتت صوبه. كان يضع يديه فوق صدره وقد احتبس الدم في وجهه وكادت أوداجه تنفجر.. وهو يتنفس بصعوبة بالغة فاغر الفم حتى أقصى درجات الانفراج كأن يدين لامرئيتين تضغطان على عنقه.. فكّت زين حزام النجاة عند خصرها كي تستطيع أن تستدير بجسدها صوبه وتساعده وقد أفلتت عجلة القيادة من يديها. تأرجحت الطائرة ولم تبالِ زين في غمرة لهفتها إلا حين مالت الطائرة واصطدم رأسها بالنافذة الزجاجية. وفي ومضة برق وعت ما يدور بصورة موضوعية وهي ترى الكابتن ينزلق من بين أصابعها في إغماءة كمن يهوي في الفراغ (لعله يحتضر.. ونحن في طائرة وليس ثمة ما أستطيع أن أفعله له إلا إذا عدنا إلى الأرض).

بدت لها الأمور بسيطة واضحة ومنطقية. كل ما عليها أن تفعله هو أن تعود بهذه الطائرة اللعينة وتحطّ بها على أرض المطار وتستدعي طبيباً. ولكنها لا تدري لماذا وسط تلك البساطة المنطقية الواضحة كلها كانت ترتجف، ووجدت صعوبة

بالغة في إعادة ربط حزام المقعد بأصابعها المفككة. . قدمها كانت ترتجف. عجزت عن تركيز نظرها على الأرقام أمامها داخل دوائرها وكادت لا ترى المؤشر المعدني. . من خلفها كان المدرّب العجوز قد كف تماماً عن اللهاث أو عن مقاومة خانقه اللامرئي. وهذا الصمت بالذات أخافها أكثر من أي شيء آخر. .

شعرت بحضور غامض داخل الطائرة، ملأها ذُعراً. . فقد استحالت الطائرة ما يُشبه الغرفة المظلمة «الشامبرنوار» لحظة أدخلتها إليها للمرة الأولى عمتها بوران! كافحت زين وفتحت الباب الكبير بيدها الصغيرة وغادرتها وقد عادت طفلة بحجم عقلة الإصبع. حاولت أن تلملم نفسها داخل الوضع البسيط المنطقي الذي تواجهه، لكنها شاهدت الحصان الأبيض لعنترة يطير لصق الطائرة قرب النافذة وقد استرخى على جنبيه جسد الكابتن وهو نائم ويداه ممدودتان إلى الخلف تلوحان في الريح. . أرادت أن تستغيث بعنترة اللوحة الذي كان يركب الحصان ويطير به ليلاً خارج اللوحة، ولكن عنترة كان عجوزاً ونائماً واسمه الكابتن شيللر. . وعاجزاً عن مساعدتها. .

تحوّلت الطائرة إلى مصيدة فئران كبيرة. غلطة صغيرة. تك. ويلطشها الحديد البارد وتطبق عليها المصيدة. تمسح عينيها بيدها وهي تغلقهما وتفتحهما. تعود إلى الواقع الموضوعي البسيط. الكابتن أغمي عليه أو مات وعليها أن تهبط وحدها بالطائرة، وهو أمر طالما تدرّبت عليه من قبل ونفّذته بإشراف الكابتن. فعلامَ الخوف؟ ولمَ هذا الارتجاف؟!

لكن جنّي السرير يطير إلى جانب النافذة ويمد يده عبرها ويحاول أن يشدّها من شعرها إلى ظلمة ما تحت السرير. تصرخ زين. يعود لؤي صبياً ويناكدها: البنات لا يقدرن. البنات ناقصات. الغول يلاحق الطائرة ويريد حصته منها ليأكلها. أنكر ونكير بانتظارها في القبر (**هل سأموت؟ نسيت أن أدعو الله ليلة القدر كي لا أموت قبل العشرين. لم يخطر ببالي أنه يمكن أن أموت. الموت يحدث للآخرين فقط**).

تفرك عينيها وتحاول أن تستعيد بعض هدوئها وتقول لنفسها بصوت مرتفع: ما دام غيركِ قادراً على أن يهبط بالطائرة فأنتِ أيضاً تقدرين. . لكن «الشوحة» تنقضّ على الأرجوحة التي استحالت إليها الطائرة وتحملها بمنقارها وترمي بها فوق كوم من عظام رفاق السندباد الذين أكلهم الرخّ في جزيرته. الشاطر حسن لا يستطيع إنقاذها فهو يحتضر على المقعد الخلفي. المتسولة ترمي بها بعيداً فوق الثلج

وتصرخ: «اذهبي وفتّشي عن أمك».

إنها ثانيةً داخل الطائرة، مذعورة ترتجف وتتساءل من أين ينبع ذلك الخوف كله؟ الدجاج يتقافز مذبوحاً حول الطائرة ودمه يسيل على زجاج النافذة. جنّي الدوار يمدّ يده ليجذبها إلى قاع الماء، وأفاعي الماء وعناكبه والسلطعونات العملاقة والأعشاب المائية المرعبة شبه الحية تواكبها والماء يغمر الطائرة وزين تختنق. تختنق. تحاول عبثاً السباحة والخروج من تحت الماء. تحاول أن تستخرج جناحيها لتطير، ولكن يديها ترتجفان ودرّية تلحق بابنتها بدرية في الفضاء وهي تضع لها الجمرة في فمها على لسانها، ومعزّز تتراجع عن السطح إلى الخلف ووالدها يهاجمها وقد أمسكت بيدها بطرف ثوب زين وها هما تقعان معاً في الفراغ.. الفراغ المرعب.. الفراغ المزدحم بالوجوه.. بالمراكب.. المراكب الفرعونية المبحرة في نهر الموت.. مراكب ومواكب.. صوت يصرخ: سندفنها حيّة مع زوجها...

تحاول زين أن تبكي ولا تجد صوتها.. أين الشعرة السحرية التي تستطيع أن تشعلها فيأتي صاحبها ليساعدها؟ أين المرآة المسحورة لترى فيها وجه أمها وتناديها: النجدة إني خائفة؟ أين حبة الفستق السحرية التي تتسع لسجادة تفرش قصراً لتختبىء فيها؟ تكافح زين كي لا تغرق في بركة مسبح بلودان.. تكافح كي لا يجذبها جنّي الدوار إلى القاع.. ها هو جنّي الفضاء يقهقه بصوت راعد قائلاً: «إنها لي».. متشاجراً مع الغيلان والجان.. والطائرة تتأرجح.

تسمع زين صوتاً ينتحب. تعي فجأة أنه صوتها وأن الطائرة ستتحطم بها وبالكابتن شيللر.. في الصباح قبل أن تغادر الحمام نظرت إلى جسدها في المرآة، فلم ترَ إلا طائراً، وأمام المرآة نشرت جناحيها وهي تتأملهما بإعجاب (لستُ سوى دودة، دودة مذعورة سوف تتحطم في طائرة مع مدرّب عجوز محتضر لعله مات). استسلمت زين للذعر، لكن صوتاً أليفاً جاءها يهمس من قاعها: لا تخافي.. لا تخافي.. صوت ذكّرها بأمها دون أن تدري لماذا...

عادت طفلةً في الطريق بين بقين وبلودان على حافة المرتفع الشاهق تمد يدها إلى والدها ليساعدها على الصعود وهو يرفض ويقول لها: «بوسعك الصعود بمفردك. اعتمدي على نفسك».

تتسلّق المرتفع.. ترتجف وتبكي وتسمع صوتها في فضاء الطائرة وهي تبكي. تتمدد إلى جانب أمها الميتة في التابوت مذعورة وهي تحتمي بجثمانها وتضمها إليها

هاربة من عجائز بلحى وشوارب. يأتيها صوت والدها: قومي بتشغيل المحرك الثاني داخلك. كل إنسان عنده قوى داخلية يجهلها ولا يستعملها لأنه يجهل وجود المحرك الثاني فيه. تعود من جديد إلى تسلّق المرتفع الشاهق بين بقّين وبلودان وصوت والدها يكرّر: «اعتمدي على نفسك»..

ترجع زين إلى زمانها ومكانها في الطائرة المتأرجحة يمنة ويسرى. تسمع صوت مدربها وهو يلقي عليها دروسه طوال الشهور الماضية ويكرّر: «هل تعرفين كيف تجعلين جناحي الطائرة يبقيان على المستوى الأفقي ذاته؟ حسناً. خففي من سرعة الطائرة استعداداً للهبوط. لا. ليس هكذا. هل تريدين الهبوط فوق رؤوس الأشجار؟ اتجهي بمقدمة الطائرة صوب المدرج رويداً رويداً. لا. ليس هكذا بل بهدوء وببطء. هل تريدين تحطيم الطائرة بنا؟ هيا ارتفعي بها ثانية وقومي بمحاولة هبوط جديدة. أوقفي ارتجاف يديك على المقود وقدميك أيضاً. اهبطي برفق ويسر. لا أريد أن أصاب برضوض».

ترى زين البومة تحلّق إلى جانبها عبر النافذة يواكبها النسر. ويأتيها من جديد صوت أبيها مشجعاً: «بوسعك.. اعتمدي على نفسك.. لا تخافي». تحاول أن تتمالك نفسها (**ساعديني يا نفسي.. ساعدني أيها الياسمين العراتيلي.. ساعديني أيتها الدلبة.. مدد يا أشجار الحور. مدد يا ملائكة الله.. مدد يا زقاق الياسمين.. مدد أيها البيت العتيق.. مدد يا جامع الأموي.. مدد يا سوق الحميدية.. مدد يا سور الشام.. مدد يا يوحنا المعمدان.. مدد يا شيخ محيي الدين.. مدد يا سيدي خالد.. مدد يا ستي زينب**).

تتلاحق المرئيات أمام عيني زين بسرعة استثنائية. صور صور بلا رابط كما لو أن عمرها ينزلق في شريط (**مدد يا طابيات.. يا لاذقية.. يا فندق «الكازينو».. يا مطعم الفول والحمص على الشاطىء**). صورٌ لا تدري لماذا تحاول أن تستمدّ منها القوة (**مدد يا أفعى بيتنا الألفية.. مدد يا ذاك الصبي الذي كنت أرى وجهه مرتسماً على الدهان المهترىء فوق السقف.. مدد يا ورق الكربون يا حبر يا ورق يا قلم الكوبيا.. مدد يا معلمة خانم.. مدد يا طريق الصالحية.. مدد يا قاسيون.. ساعديني يا أنا**).

شيئاً فشيئاً تستعيد زين هدوءها وهي تغني أغنية عتيقة كانت قد اخترعتها وهي طفلة: «أتسلّق شجرة ولست قرداً. أزقزق ولست عصفوراً. أطير ولست فراشة..

أطير.. أطير».. تفوح رائحة الياسمين في فضاء الطائرة. يخيّل اليها أن الحقيقة الوحيدة التي تعرفها هي أنها تريد البقاء على قيد الحياة. بيسر وحبور تستخرج زين جناحيها وتستحيل نورساً أبيض محلّقة إلى جانب البومة والنسر. تسمع صوتاً نائياً يقول: «الفصعوتة العصسوصة تقصيرة الجن النص نصيص، كيف تهبط بالطائرة وحدها؟». وتضحك للصوت بلا حقد وهي تهبط بالطائرة على المدرج على حافة الارتطام. وتعود فجأة بنتاً لا نورساً، ستحتفل بعد أشهر بعيد ميلادها السابع عشر دونما غصّات. ترتجف وعلى المقعد خلفها رجل يحتضر وقد ركض كل من في المطار صوبهما.

حين غادرت زين الطائرة، شعرت للمرة الأولى بأن الأرض صلبة تحت قدميها والفضاء أقلّ عدوانية تحت جناحيها.

الفصل الأول (محاولة خامسة)
منفية إلى الوطن
أو
شجار العشاق بين صبية ومدينة*

(*) لم يُكتب بعد.

الفهرس

منشورات غادة السمان

غادة السمان: الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (قصص) (الطبعة السادسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الخامسة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الخامسة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة السادسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثالثة)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الطبعة الثانية)

قصص وروايات وأعمال أخرى

عيناك قدري (قصص) (الطبعة العاشرة)

لا بحر في بيروت (قصص) (الطبعة التاسعة)

ليل الغرباء (قصص) (الطبعة التاسعة)

رحيل المرافئ القديمة (قصص) (الطبعة السابعة)

القمر المربع (قصص غرائبية) (الطبعة الأولى)

بيروت ٧٥ (رواية) (الطبعة السادسة)

كوابيس بيروت (رواية) (الطبعة السابعة)

ليلة المليار (رواية) (الطبعة الثانية)

الرواية المستحيلة: ١ : فسيفساء دمشقية (رواية)

حب (الطبعة التاسعة)

أعلنت عليك الحب (الطبعة العاشرة)

غربة تحت الصفر (الطبعة الثانية)

الأعماق المحتلة (الطبعة الثانية)

أشهد عكس الريح (الطبعة الثانية)

عاشقة في محبرة (الطبعة الأولى)

شهوة الأجنحة (الطبعة الأولى)

رسائل الحنين إلى الياسمين (الطبعة الأولى)



هذه الرواية هي الأولى لغادة السمّان التي تدور أحداثها في دمشق، ومن مناخات الرواية:

«... كان بوسعي أن أستنشق عبر البحار والمسافات روائح بيتي: الياسمين، الفلّ، الريحان، الورد الجوري، النرجس، النارنج، هال قهوة أمي بماء الزهر وضوء الفجر. بل كان بوسعي أن أسمع أصوات تلك الروائح الملوّنة اللامنسية، الأصوات البرتقالية والسماوية والبنيّة والخضراء والليلكيّة والرماديّة والبيضاء ممتزجة بصوت أذان الصبح من الجامع الأموي القريب، صوت الباعة الجوّالين في «زقاق الياسمين» ونداء المسحّر، رنين الأساور الذهبية على الأذرع البضّة، الزغاريد و «الولاويل»، قرقرة النراجيل وهمسات النافورة ووشوشة السبيل، أصوات الرجال وهم يهمّون بدخول بيتي تسبقهم صيحة: «يا الله.. دستور يا حريم»، صوت بومة البيت وهي تروي حكاياها الليلية كلما استفحل أرقها، صوت الجارة تُدلّل طفلها الصبي: «نكغ.. نكغ»، وقد ألبسته فستان بنت ورديّاً وأطالت له شعره ليظنّه الحسّاد بنتاً ولا يصيبونه لها بالعين.. سيأكلني الحنين إلى دمشق يوماً بعد آخر في الظلام، مثلما يأكل السوس خزانة خشبية محكمة الإغلاق ويقرضها ليلة بعد أخرى حتى ينخرها، وعبر القارات أرى تلك الصخرة الشاهقة المدبّبة في الربوة عند مدخل دمشق وعليها العبارة الأحجية «اذكريني دائماً»، التي لا يدري أحدٌ مَنْ تسلّق الوعر لتسطيرها لحبيبته بالدهان الأحمر ومتى. ولطالما حلمت في غربتي بأنني أنا الذي يتسلّق تلك الصخرة ويكتب عليها لدمشق: اذكريني دائماً.».

□□□

تُرجم بعض قصص المؤلّفة ورواياتها إلى اللغات التالية: الإسبانية، الألمانية، الألبانية، الانكليزية، الفارسية، الإيطالية، البلغارية، البولونية، الروسية، الرومانية، الصينية، الفرنسية واليوغسلافية.

منشورات غادة السمان